جان ماري غوستاف لوكليزيو



الكرنتينة

رواية

ترجمتها عن الفرنسية:

نهى أبوعرقوب

جان ماري غوستاف لوكليزيو



الكرنتينة

رواية

ترجمتها عن الفرنسية:

نهى ابوعرقوب

مراجعة:

كاظم جهاد

PQ2672 .E25 Q37125 2022

Le Clézio, Jean-Marie Gustave, 1940-

الكرنتينة : رواية / تأليف جان ماري غوستاف لوكليزيو ؛ ترجمة نهى أبو عرقوب ؛ مراجعة كاظم جهاد. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2022.

ص 549. ؛ 21 سم.

ترجمة كتاب: La Quarantaine

تدمك: 978-9948-04-061-3

1- القصص الفرنسية– مترجمات إلى العربية– القرن 20. 2– القصص العربية– مترجمات من الفرنسية– القرن 20. أ– أبو عرقوب، نهى. ب– جهاد، كاظم. ج– العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

Jean-Marie Gustave Le Clézio
La Quarantaine
© Éditions Gallimard, Paris, 1995

لوحة الغلاف: «عاصفة ثلجية» لوليام تيرنر William Turner (1775–1851)

صدر بموافقة مكتب تنظيم الإعلام– وزارة الثقافة والشباب– رقم الطلب MC-03-01-8805266 .

طبع في المتحدة للطباعة والنشر– أبوظبي– 80022220







www.kalima.ae



الكرنتينة

المحتوى

مقدمة المراجع



ولـد الكاتـب الفرنـسيّ جـان مـاري غوسـتاف لوكليزيـو Jean-Marie Gustave Le Clézio (اسـم اعتـاد كتابتـه مختـصراً في هيئـة J.M.G. Le Clézio)، في مدينـة نيـس الفرنسـية في 1940، وفـاز بجائـزة نوبـل لـلآداب في 2008. نشـأ في بيئـة موسـومة بتعـدّد الأصـول والمشـارب الثقافيّـة، وهـو مـا جعـل منـه شـعار عملـه الأدبيّ الضّخـم ومنطلقـه الأسـاسيّ.

يستعيد الكاتـب في هذه الرّوايـة إقامة إجباريّة عاشـها جـدّه لأمّه، ألكسي Alexis، في جزيـرة صغـيرة مجـاورة لجزيـرة موريشـيوس. الفـرع الأمومـيّ من أسْرة الكاتـب متحـدّر مـن منطقة البروتـاني الفرنسـيّة، وقد هاجر أجـداده إلى جزيـرة موريشـيوس في نهايـات القـرن الثّامن عشر هربـاً من المجاعـة والفقر، واسـتقرّوا هنـاك. نشـأ هـو في مدينة نيـس بجنوب فرنسـا بعد مـا تزوّجت أمّه مـن طبيـب إنجليـزيّ أُرسِـل للعمـل في الكاميرون ثـمّ في نيجيريـا الخاضعتين يومها للاسـتعمار البريطـانيّ، وبقي طيلة سـنوات الحرب العالميـة الثانية محروماً مـن رؤيـة زوجتـه وأبنائه. ولقـد زار الكاتـب أبـاه في نيجيريـا في 1948، وأبهره تعلّقـه بحيـاة الأفارقة السّـود وثقافتهم، وعنايتـه بهم، وكتب عنه لاحقاً سـيرة روائيّة جميلة سـمّاها «الأفريقـيّ» *L'Africain* (2004).

تـردّد لوكليزيـو أيّـامَ تدرّبـه عـلى الكتابـة الأدبية في صبـاه بـين الإنجليزية والفرنسـية، اللّتـين يحذقهـما سـواءً بسـواء. بيـدَ أنّ شـغفه بالفرنسـية هـو الـذي انتـصر في خاتمـة المطـاف، فاختارهـا لغـة للإبـداع.

عـلى امتـداد عـشرات الروايـات والمجموعـات القصصيّـة والدراسـات الأدبيـة مـرّ مسـار لوكليزيـو الإبداعـيّ بطوريـن، يهيمـن الثّـاني منهـما عـلى الجـزء الأكـبر مـن أعمالـه ويحمـل ميسـمه الخـاصّ الـذي دمـغ بـه الأدب الـسرديّ الفرنـسيّ والعالمـيّ. في الطّـور الأوّل، لمـعَ مبكّـراً ببضـع روايـات وقصـص ترسّـمَ فيهـا خطـى «الروايـة الجديـدة»، مراهنـاً عـلى تحديـث الشّـكل وموضوعيـة الوصـف وانتفـاء الحكايـة التقليديـة وبسـيكولوجيا الشـخوص، وعـلى التفكـير في مسـتقبل الجنـس الروائـيّ وطبيعـة اللّغـة وعوائـق التواصـل. مـن أعمالـه في هـذا الطّـور روايتـه الأولى «المَحْـضَر» *Le Procès-verbal* (1963)، كتبهـا يـوم كان في سـنّ الثالثـة والعشريـن، وقـد وصلـت إلى قائمـة الترشـيح النهائيـة لجائـزة غونكـور Goncourt للروايـة، وفـازت بجائـزة رونـودو Renaudot للرّوايـة في العـام نفسـه. شـمل هـذا الطّـور روايـات ومجموعـات قصصيـة أخـرى منهـا «الحمّـى» *La Fièvre* (1965) و«الطّوفـان» *Le Déluge* (1966)، و«كتـاب الهروبـات» *Le Livre des fuites* (1969)، و«الحـرب» *La Guerre* (1970).

ثـمّ مـا لبـث أن تملّـك لوكليزيـو الشّـعورُ، لا بـل القناعـةُ بانتمائـه إلى هويّـة متعـدّدة وبكـون روافـد عديـدة تتلاقـى في تكوينـه. فهـو فرنـسيّ بفعـلِ أصـل الفـرع الأمومـيّ لعائلتـه، وبفعـل نشـأته الثقافيـة هـو نفسـه. وهـو سـليل موريشـيوس[1] بباعـث مـن هجـرة أجـداده لأمّـه إلى هـذه

(1) موريشيوس: يـدو أنّ البحّارة الفينيقيّين عرفوها، ثمّ العرب حوالى 975، تلاهم البحّارة =

البـلاد التـي تحمـل اسـمَ الجزيـرة الكـبرى فيهـا، بـلاد معتـبرَة أفريقيّـة، وتطـلّ عـلى المحيـط الهنـديّ، ويتحـدّر أغلـب سـكّانها مـن أصـول هنديّـة وأفريقيّـة وأوروبيّـة وصينيّـة، فهـي معروفـة بتعدّدهـا الثّقـافيّ والإثنـيّ. ثـمّ إنّـه إنجليـزيّ مـن خـلال تحـدّر أبيـه وجـزء مهـمّ مـن ثقافتـه الشـخصيّة، وأفريقـيّ الهـوى، سـواء أتعلّـق الأمـر بأفريقيـا السّـوداء، بباعـث مـن عمـل أبيـه طبيبـاً في الكامـيرون ونيجيريـا وافتتانـه بثقافـة هـذه القـارّة، أم بأفريقيـا الشـماليّة بفعـل زواجـه مـن سـيدّة مـن الصّحـراء الغربيّـة، اسـمها جْميعـة لوكليزيـو (مـع تسـكين جيـم «جْمَيعـة» حسـب نطقـه في الدّارجـة المغربيـة) Jémia Le Clézio. بفضلهـا عـرف الصّحـراء المغاربيّـة، فسـحرتْه هـذه بثقافتهـا وعاداتهـا وخصّهـا بأكثـر مـن كتـاب، لا سـيّما رواياتـه الملحميّـة «صحـراء» *Désert* (1980)، وكتـاب «أنـاس الغيـوم» *Les Gens des nuages* (1999) الـذي كتبـه بالتعـاون مـع زوجتـه. وإلى هـذه الرّوافـد الأوروبيّـة والأفريقيّـة والمغاربيّـة، أضـاف مكوّنـين مهمّـين آخريـن: ثقافـة الهنـود الحمـر وحكمتهـم العريقـة، اكتسـبها أثنـاء عملـه أسـتاذاً في المكسـيك طيلـة عـدّة سـنوات وزياراتـه المتواصلـة لقبائلهـم في الأمـازون، وتخصّصـه بدراسـة منطقـة المشـواكان Le Michoacán في وسـط المكسـيك، وثقافـة الهنـد البوذيّـة والمسـلمة، قاربهـا مـن خـلال معايشـته لموريشيوسـيّين مـن أصـل هنـديّ وبفضـل قراءاتـه ورحلاتـه. هكـذا جعـل مـن نفسـه كاتـب الغيريّـة المطلقـة وروائـيّ التّصاهـر والخلاسـيّة والتعـدّد والانحيـاز للآخـر في اختلافـه

= البرتغاليّون في 1507. بقيت البلاد غير مسكونة حتّى جعل منها الهولنديّون بدءاً من 1598 محطّة للتموّن في طريقهم إلى المستعمرات الهولنديّة في الهند، ثمّ استعمرها الفرنسيّون في 1715 وسمّوها «جزيرة فرنسا»، وتنازلوا عنها للبريطانيّين أثناء حروب نابليون بونابرت في 1810. نالت البلاد استقلالها في 1968.

المُخصِب مثلما في امتحانه التاريخيّ والإنسانيّ الأليم الذي يستدعي من الكاتب تعاطفاً وفهماً كبيرين. وعليه فإنّ جميع كتب لوكليزيو في طوره الثّاني الذي يشكّل أساس تجربته الإبداعية تزخر برحلات نحو الآخر وتمليها إرادة فعّالة في الانغماس في عالمه العميق والانخراط فيه، بعضها يحيل على جزيرة موريشيوس والثقافة الكريوليّة، كرواية «الباحث عن الذّهب» *Le Chercheur d'or* (1985) و«الكرنتينة» المترجمة هنا و«ثورات» *Révolutions* (2003)؛ والبعض الآخر على نيجيريا مثل «أونيتشا» *Onitsha* (1991) و«الأفريقيّ» *L'Africain* (2004)، وعلى المكسيك وعالم الهنود الحمر، مثل «الحُلم المكسيكيّ أو الفكر اللاّ منقطع» *Le Rêve mexicain ou la pensée interrompue* (1988) و«باوانا» *Pawana* (1992) و«أورانيا» *Ourania* (2006)، إلخ. كما خصّ المأساة الفلسطينيّة برواية «نجمة شاردة» *Étoile errante* (1992)، يصف في قسم منها معاناة الصبيّة «نجمة» في مخيّم لاجئين فلسطينيّين، وفي القسم الآخر ما تسبّب به هذه المعاناة من عذابِ ضميرٍ لطبيبة إسرائيليّة تجعل منها قضيّة حياتها، وهو أمر يصعب تصوّر وجوده حقّاً في واقع المأساة.

ولتغذية شغفه بالآخر هذا، شكّل لوكليزيو لنفسه سلالة أدبية وفكريّة من كتّاب وشعراء عُرفوا بحسّ التمرّد، وبسعيهم إلى إرساء مفهوم آخر للعدالة والعلاقة بالعالَم والأشياء وتَصوُّر الحياة بالذّات، وعلى رأسهم كونت لوترِيامون وآرتور رامبو وهنري ميشو وفرانسيس بونج وصامويل بيكيت، علماً بأن رسالة الكاتب في ختام دراسته الجامعيّة كانت مخصّصة لموضوع «العزلة في عالَم هنري ميشو» *La Solitude dans l'œuvre d'Henri Michaux*.

كلّ شيء في الرّواية المترجمة هنا مدروس، ومختار عن قصد وبهدفِ تحقيقِ أثرٍ ما. وذلك حتّى في ما يُدعى «عتبات النصّ». فالقبسة الاستهلالية من «باغهافات بورانا» *Baghavat Purana*، التي قطّعها الكاتب على هيئة أبيات، إنّها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتجربة المعروضة في «الكرنتينة» وتمهّد لمآلها ولانحياز بطلها النهائيّ إلى «الجهة الأخرى»، جهة المنبوذين والمستبعَدين: «مع أفول هذا العصر،/ آنَ يغدو الملوك جميعهم لصوصاً،/ سيولد كالكي، سيّد الكون، ثانيةً/ طالعاً من مجدِ فيشنو»[1]. المفردة السّنسكريتية «بورانا» تعني حرْفيّاً «العتائق»، وهي تدلّ على كتب الهندوس المقدّسة، وتحوي تعاليم أتباع فيشنو Vishnou، أحد الآلهة الهندوسيّين الثلاثة إلى جانب براهما Brahmā وشيفا Shiva. يتجسّد فيشنو عبر تحوّلات أو تقمّصات عديدة، ويمثّل كالكي Kalki المذكور في القبسة تجسّده الأخير الذي يتزامن مع انهيار العالَم في ما يشبه القيامة المصوَّرة في الديانات التوحيديّة.[2] والرواية تنغرس في بُعد قياميّ حقّاً، بالنسبة إلى بطلها ليون على الأقلّ، إذ تتسبّب له الجائحة وما رافقها من عسف يمارسه البيض على المهاجرين الهنود الخلاسيّين بانهيار عالَمٍ كاملٍ في داخله وولادة وعيٍ آخر. وهو ما يكرّر الكاتب أو السّارد التذكير به في الصفحات الأخيرة: «لا نعرف كالكي بعد، لكنّه آتٍ لا بدّ. [...] لا أحد يعرف متى سيأتي، أو مَن سيكون، ولكنْ بات جليّاً أكثر فأكثر أن مجيئَه وشيك، وأنّه سيقيم مملكته قريباً».

(1) القبسات من الرّواية في هذا التقديم مأخوذة من ترجمة نهى أبو عرقوب، الرّائعة، لهذا العمل.

(2) ندين بهذه المعلومات لمادلين بورغومانو، في دراستها «كرنتينة لوكليزيو ودوار التناصّ»:
Madeleine Borgomano, « *La Quarantaine* de Le Clézio et le vertige Intertextuel », *Cahiers de Narratologie* [En ligne], 13/2006, mis en ligne le 1er septembre 2006.

كما إنّ اقتباس عبارة شفهيّة لصديقة أو قريبة راحلة يهدي إليها الكاتب روايته، اسمها أليس Alice: «هنا ينتهي فردوسُ الأغنياء وتبدأ جحيم الفقراء»، إنّما يفصح بادئ ذي بدء عن انحياز الكاتب إلى الفقراء والمنبوذين، يقرّر النّزول إلى جحيمهم مدفوعاً بقوّة النّشيد الشعريّ (وروايته هذه مضمّخة بالشّعر في كلّ صفحاتها)، مثلما فعل أورفيوس الشّاعر والمغنّي في الأسطورة الإغريقية التي تصوّره هابطاً إلى العالم السفليّ بحثاً عن حبيبته أوريديكه. كما تتردّد في الرواية قبسات شعريّة من بودلير ورامبو والشّاعر الإنجليزيّ لونغفيلو Longfellow، يشاطر ليون محبّة سوزان لها. هذه القبسات تشكّل قاعدة صلبة للرواية وتذكيراً متواتراً بضرورة السّفر والانزياح عن الأعراف المفروضة والأفكار الجاهزة، وبالتّوق إلى الآخر بما هو مجال اكتشاف ومشاركة. هذا كلّه يمكّنه من الكشف في قلب الواقع عن واقع مغاير، لا يشكّل ما فوقَ واقع (وهذا هو المعنى الحرفيّ للنّعت «سورياليّ»)، بل هو واقع يبطّن الواقع المعيش ويحمل في ذاته بذور تجاوُزه، ويَعِد بتحوّلات عجيبة تتطلّب انتباهاً خاصّاً يمتلكه المتصوّفة وكبار الشّعراء والكتّاب، وأصحاب التجارب الرّوحانية أو الجوّانيّة بعامّة.

يدشّن هذه الرّواية ويختتمها ساردٌ أوّل، قريب إلينا في الزّمن، يستحضر في فصلين أوّلين ذكرياته عن جدّه جاك، وشقيق جدّه، ليون، الذي يحمل هو نفسه اسمه، ثمّ شغفه بسيرة الشّاعر آرتور رامبو، شغف أتاه من ذكريات سلفَيه المذكورين عنه أيضاً. وفي الفصل الختاميّ يسرد رحلته إلى جزيرة موريشيوس، بحثاً عن جذوره، وإلى مِلكيّة أسلافه المسمّاة «عزبة آنّا». هناك لا يجد السّارد الفتى سوى

عمّته آنّا، وقد شاخت وصارت صَموتاً، ومن خلال نُتَف الأحاديث وما بقي من الصّور وصغير الآثار يسترجع عالم الأمس ويلاحظ زواله شبْه الكلّي، ويرصد عوالم الجزيرة ويقدّم أفكاراً ثاقبة عن نتائج التّحديث الزّائف وعمل الزّمن. وبين لحظتَي السّرد هاتين يسلّم ناصية الكلام إلى سارد آخر، هو ليون Léon، شقيق جدّه، يعرض تجربة «الكرنتينة» على امتداد مئات الصّفحات.

تحمل فصول الرّواية تواريخ توضّح لنا مسارها وعائديّة الكلام إلى كلّ من السّاردَين، وتقيم فواصل واضحة بين مختلف مراحل التجربة وأجزاء السّرد. وتتخلّل سرد ليون (الأكبر) لتجربة «الكرنتينة» كما عاشها بنفسه حكاية ثالثة، وضعها الكاتب بسطور أقلّ عرضاً من بقيّة صفحات الرواية لتميزها، مكرّسة لسيرة العجوز جيريبالا أثناء الاستعمار البريطانيّ للهند. كما تتضمّن بعض الفصول مقتطفات من يوميّات عالِم النّبات جون ميتكالف John Metcalfe، أحد شخوص تجربة الإقامة في الكَرنتينة، مطبوعة بحروف غامقة، تتوالى فيها أسماء النباتات التي يكتشفها، وبعض خصائصها، مطروحة بلغة علمية موضوعية عن قصد. فهي تساهم في إحلال الرواية في غرائبيّة المكان (جزيرة بلات، حيث تقام الكرنتينة، أي الحجر الصحّيّ)، وكذلك، لا بل خصوصاً، في تصوير شغف الاكتشاف العلميّ الذي يتابعه العالِم المذكور حتّى يلفظ آخِر أنفاسه بسبب جائحة الجدري، وبه يجابه المَوتَ الزّاحفَ المُلقيَ بظلّه على الجميع.

بالرّغم من أهمّيّة كلّ فصول الرّواية، لا ريب أنّ المحور الأساس لهذا العمل إنّما يتمثّل في السّرديّة الكبرى، التي يضطلع بها الجدّ ليون،

متّبعاً الزمن الفعليّ لما عاشه فيها من أحداث، بصحبة شقيقه جاك وزوجته سوزان. يبحر الثلاثة في 1891 على متن السفينة لافا L'Ava إلى موريشيوس، لاستعادة إرث عائلتهم، آل أرشمبو، الذي استحوذ عليه كبير العائلة، عمّ لهما اسمه ألكسندر، وحرمَ منه الجميع. قبل الوصول، يشيع وباء الجدري بين الركّاب وطاقم الملّاحين، وقد التقطه مسافران أثناء توقّف مؤقّت للسّفينة. فيُنقَل المسافرون إلى جزيرة بلات، المجاورة لموريشيوس، والتي أقيمت فيها كرنتينة لجميع صنوف الأوبئة، سرعان ما تزجّهم في معيش جهنّميّ، وتقابلها جزيرة غابريال، حيث يُنقل المصابون المعلَنون بالجدريّ ويُحرَق الموتى من بينهم، بعيداً عن أنظار ساكني الكرنتينة. شيئاً فشيئاً يتحوّل العيش في الجزيرة إلى تجربة اعتقال كاشفة، يزيد من حدّتها السّلوك والتّفكير الاستعماريّان للمسافرين البيض. فتتحوّل الإقامة إلى انحباس في حلقة مفرغة نشهد فيها الحقيقة البائسة لأغلب البشر وهي تتجلّى بسطوع أليم. ليس هناك سوى تماسّات عابرة ومكتنزة بالدّلالات السّلبيّة بين عالمين: عالَم البيض المتغطرسين إلّا بعضاً منهم، وعالَم «الكولي»، العمّال والخدم الهنود من فئة «المنبوذين»، الذين جاؤوا إلى الجزيرة مجبَرين، يقومون فيها بالأعمال العسيرة كتجهيز المؤونة وتنظيف المكان وغسل الموتى أو حرْقهم. وحده ليون الجدّ، الشابّ يومذاك، يخترق الحدود الفاصلة ويضطلع بتجربة انسلاخ، شجاعة، إذ يُغرَم بخلاسية من «المنبوذين» اسمها سورياڤاتي («قوّة الشّمس»)، يدعوها على سبيل الاختصار والتحبّب «سوريا». تعرّفه الفتاة على أمّها أنانتا، الخلاسيّة هي أيضاً (إنجليزية-هنديّة)، عثرت عليها في أحد الشّوارع العجوز

الهنديّة جيريبالا، طفلةً جائعة في حضن مربيّة جائعة هي أيضاً، فتبنّتها. حدث ذلك في ظلّ ثورة السّيبوي الشّهيرة التي قامت في الهند في العامين 1857–1858 ضدّ شركة الهند الشرقيّة البريطانيّة الممثّلة لمصالح الاستعمار البريطانيّ، وتخلّلتها مجزرة وفصول تهجير جماعيّ.

من الفتاة وأمّها ومهاجرات هنديّات أخريات، يتعلّم ليون محبّة الطبيعة وأصناف الطّيور والأعشاب والنباتات الشافية ومبادئ من الفلسفة الهندوسيّة. يتعلّم خصوصاً الحبّ وسلام الرّوح والجسد عندما تخترقهما موجات العشق اللّاهبة والمهدّئة. وهو يختفي معها في اللّحظة التي جاءت فيها، بعد شهورٍ من الانتظار، سفينة تنقل المسافرين إلى موريشيوس. هكذا هرب ليون من شقيقه جاك، الذي أعرب عن انغماسه في عالم البيض الاستعماريّ والمتعالي، ومن زوجة شقيقه سوزان بالرّغم من محبّته لمُحاوراتها المفعمة بالطّيبة والشِّعر، ومن الآخرين. ولم يُرَ له بعد ذلك أثرٌ، وصار يُدعى «المفقود».

إنّها حكاية حبّ تلقينيّ ومديح للتصاهر وشغف الاختلاف والبحث عن الآخر المغاير والشبيه. وهذا كلّه يتفاعل في الرواية مع نقد حادّ للفكر النّابذ للآخر المختلِف، تدعمه فلسفة بيئويّة وأخلاقيّة رفيعة تُعلي من الآصرة الإنسانية الرحبة ومن الإخاء البشريّ، بديلاً عن لحمة الدّم عندما تلوّثها خيارات أيديولوجية وقناعات خاطئة. أمّا تجربة الكرنتينة التي تهيمن على الرواية بتعارضاتها الحادّة وظلامها الرّهيب، الذي تشعّ فيه كاللؤلؤة النّادرة حوارات سوزان وليون ونضال عالم النّبات جون ميتكالف، ولقاءات ليون وسورياڤاتي ووالدتها، فتضطلع بدورٍ مُسَرِّعٍ لانكشاف خبايا أغلب البشر ونوازعهم

الشرّيـرة وأنانيّتهـم التـي تجـد في اللّحظـات الصعبـة وتجـارب الحلقـات المفرغـة مناسـبة مثلى لتجلّيهـا. وإذا بالجائحـة الحقيقيّـة، كـما في روايـة جـان جيونـو المكرّسـة لجائحـة أخـرى، والتـي تصـدر ضمـن الكتـب الأربعـة التـي اخترناهـا مـن أدب الجوائـح، لا تتمثّـل في الجـدريّ، أو لا تقـوم فيـه وحـده، بـل هـي كامنـة في الجشـع والنّبـذ والإثـرة والاحتيـال والإرهـاب، هـذا كلّـه الـذي يتصاعـد في تجـارب الأقـاصي، وهـذا العمـل إنّـما هـو روايـة أقـاصٍ بامتيـاز.

هـو تلقـين في تاريـخ الهنـد وثقافتهـا أيضـاً ينالـه ليـون (الجـدّ) مـن ذوات تعيـش مثلـه تجربـة المنفـى بعنفـوان وقـوّة: «تحدّثـت سـوريافاتي عـن الهنـد أيضـاً، عـن النهّـر العظيـم حيـث غسّـلت جدّتُهـا [والدتَهـا] أنانتـا بعـد أن عثـرَت عليهـا. وعـن مـدنٍ بأسـماء جميلـة، الله أبـاد، وفارانـاسي، وكلكتّـا. قالـت إنّهـا سـوف تصطحـب أمّهـا ذاتَ يـومٍ إلى هنـاك، وسـوف تذهـب إلى كاونبـور لـترى المـكان الـذي أُنقِـذتْ فيـه، والنّهـرَ العظيـم، نهـر يامونـا، حيـث ولـد الإلـه كريشـنا». كـما إنّهـا تجربـة أمومـة جديـدة يحظـى بهـا ليـون، ومشـاركة فعلـيّة تنتقـل عـبر الكلـمات والملامسـات والإيـماءات: «حـين ماتـت أمّـي، كان عمـري عامـاً واحـداً، ويبـدو لي كأنّهـا لم تكـنْ يومـاً. أمّـا أنانتـا فهـي حـاضرة، شـعرتُ بدفئهـا ونبـض الحيـاةِ فيهـا. وفكّـرتُ في كلّ مـا مـرّت بـه، ومـا قالتـه لي سـوريا عنهـا، وفي المذبحـة التـي وقعـت في كاونبـور، وجيريبـالا التـي انتزَعتْهـا مـن جسـد مربّيتهـا وحملتْهـا بعيـداً، ثـمّ غسّـلتها بميـاه نهـر يامونـا. فكّـرتُ فيـما رأتـه عيناهـا ومـا لمسـته يداهـا، وشـعرْتُ أنّ كلّ شيء قـدْ سرى عـبر راحـة يدهـا الناعمـة متسـلّلاً إلى أعـماقِ قلبـي».

نقف في خاتمة المطاف على انتماء ليون الشابّ هو أيضاً إلى جزيرة بلات، إذ يشكّل له اكتشاف تجربة الكرنتينة واستحضارها مناسبة ولادة ثانية واكتساب وعي حقيقي: «أدركتُ أخيراً أنّني إلى هنا أنتمي، إلى هذه الصخور السّوداء المنبجسة من قلب المحيط، وهذه الكرنتينة، كما لو أنّها مسقطُ رأسي. لم أترك شيئاً في المكان، ولم أحمل منه شيئاً. ومع ذلك، أشعرُ الآن أنّني إنسانٌ آخر».

هذا الامتلاك لوعي جديد يعيشه ليون الشابّ بعدَ ما يقرب من قرن، على أثر رحلته إلى موريشيوس بحثاً عن ماضي الأسلاف، فيتماهى مع تجربة شقيق جدّه، سَميّه ليون، ومع عشقه وما عاشه في الكرنتينة: «كنت أريد العثور على أثر المُختفيَين، ليون، ومَن أُسمّيها سوريافاتي. أردتُ أن أرى بأمّ عيني ما رأياه، المدينة وعزبة آنّا وماهيبورغ وفيل نوار، وكذلك جزيرتَي بلات وغابريال. الآن أدركُ أنّ هذا كلّه لا يزال حيّاً في أعماق آنّا. لقد نجت من ذلك الزّمن، وظلّ كلّ شيء حاضراً الآنَ في نظرتها وصوتها واعتدال قامتها، ووجهها الحنطيّ المليء بالتجاعيد، والمرفوع عالياً على عنقها النّحيل كرقبة سلحفاة». هكذا، أمام تداعي الجزيرة وسقوطها في الاستلاب السّياحيّ، بقيت جذوة الذكرى قائمة، ذكرى حبّ بطوليّ لأنّ حامليه عرفا اجتياز الموانع الطبقيّة والعرْقية وحواجز لون البشرة وطبيعة المعتقدات الفاصلة بين البشر.

في الصّفحات الأولى من الرّواية يشير ليون الشابّ نفسه إلى تماهيه وسلَفَه ليون، حتّى قبل أن يُسلّمه ناصية السّرد ويدَعه يحكي تجربته: «يبدو لي أحياناً أنّني أنا من عاش هذا حقّاً. أو أنّني ليون الآخر،

ذلك الذي رحل إلى الأبد...» وسرعان ما يعود ليربط بين سلفه «المفقود» وبين رامبو الذي هجر الشِّعر ورياء مجتمع باريس الأدبيّ واختار الرّحيل والصّمت. ما حدا بعض النقّاد إلى التذكير بهذا الصّدد بمقولة رامبو الشّهيرة «الأنا آخر» *Je est un autre*. فكأنّ بطل رواية لوكليزيو الشابّ يقول هو أيضاً: «الأنا آخر»، وقد يمكن تحوير هذه المقولة على لسانه لتصبح: «أنا الآخر».

ملاحظة:

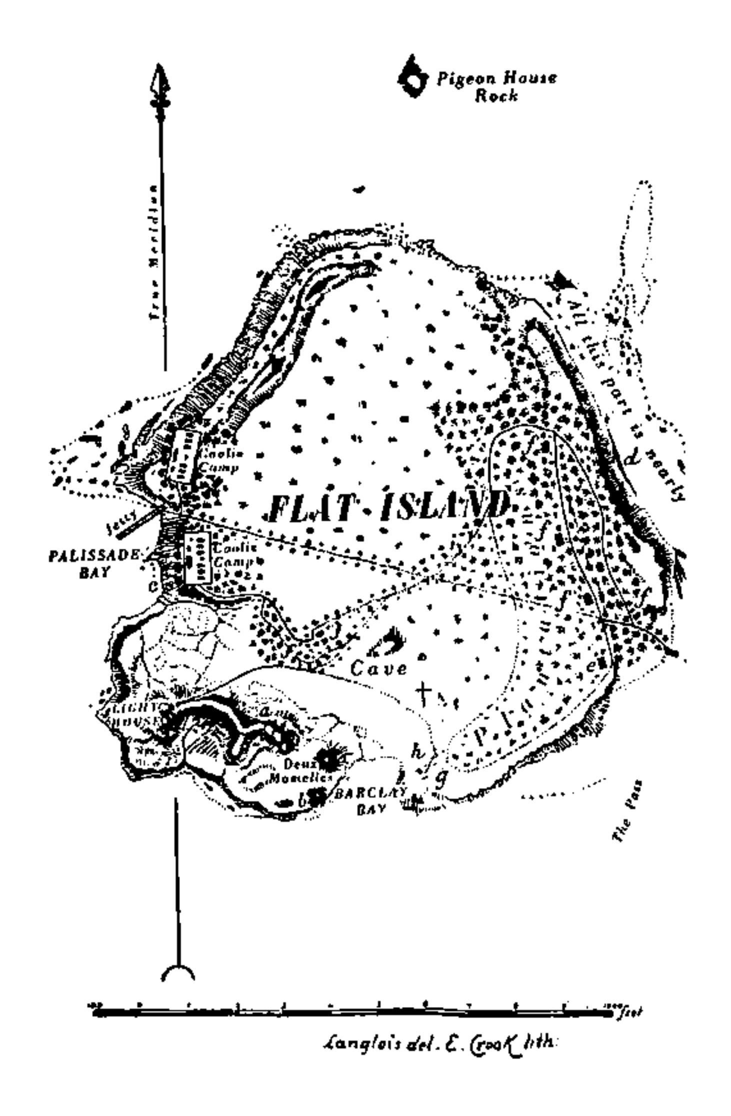
يصدر هذا الكتاب ضمن أربعة أعمال اخترناها من أدب الجوائح الفرنسيّ، تصدر ترجماتها عن مشروع «كلمة» للترجمة، وتضمّ، إلى جانب العمل الحاليّ، «الخيّال على السّقف» لجان جيونو، و«الحرب الخفيّة» لجان مارك مورا، و«جغرافية البعوض السّياسيّة» لإيريك أورسينا والدكتورة إيزابيل دو سانت أوبان.

كاظم جهاد

«مع أفولِ هذا العصر،
آنَ يغدو الملوك جميعهم لصوصاً،
سيولد كالكي، سيّد الكون، ثانيةً
طالعاً من مجدِ فيشنو».

باغهافات بوراناI، 3، 26

في ذكـرى أليـس، التـي كانـت تقـول في كلّ مـرّةٍ عـلى طريـق إيسـني البحـريّ: «هنـا ينتهـي فـردوسُ الأغنيـاء وتبـدأ جحيـم الفقـراء».



خريطة جزيرة بلات، حيث تُقام الكرنتينة وتدور أغلب أحداث الرواية

المسافر الأبديّ

ظَهَرَ في القاعـة الغارقـة بالدّخـان والمُنـارة بمصابيـح الزّيـت. فتـح الباب وظـلّ طيفـه عـلى العتبـة، عالقـاً للحظـةٍ في إطـارِ البـاب واللّيـلُ مـن خلفـه. جـاك لم ينـس قـطّ: طولُـه الفـارع حتّـى كاد رأسـه يلامـس الإفريـز، وشـعره الطويـل الأشـعث، ووجهـه النّاصـع ذو القسـمات الطفوليّـة، وذراعـاه الطويلتـان ويـداه العريضتـان، وجسـده المحشـور في سـترته الضّيّقـة المـزرّرة حتّـى العنـق. وفـوق كلّ شيء، تلـك الهيئـة الشّـاردة، والنظـرة العابسـة الممتلئـة شرّاً، وقـد شوّشـها السُّـكْر. ظـلّ متسـمّراً عنـد البـاب، كأنّـما انتابـه شيءٌ مـن الـتردّد، ثـمّ أخـذ يشْـتُم ويهـدّد ملوّحـاً بقبضتَيـه، فخيّـم الصّمـت في القاعـة.

أفكّـر في الطّريقـة التـي رأى بهـا جـدّي رامبـو للمـرّة الأولى. كان ذلـك في بدايـة عـام 1872، في ينايـر أو فبرايـر. أسـتطيع أنْ أتذكّـر هـذا التاريـخ بدقّـة لارتباطـه بوفـاة أماليـا، وبزيـارة الرّائـد وليـام لمتجـر السّـلَع الدينيّـة والخدمـات الجنائزيّـة في الطابـق الأرضيّ مـن عمارتـه في شـارع سـان سـولبيس. فبعـد القطيعـة التـي وقعـت بـين أنطـوان وأماليـا وكبـير العائلـة، وطرْدهمـا مـن عزبـة آنّـا[1]، ومغادرتهـما موريشـيوس في

(1) العِزْبَة: مزرعة فيها قَصْرُ المالِك أو منزله تحيطُ به بيوت الفلاحين. (المُراجِع، نقلاً عن «معجم المعاني»). (جميع الحواشي في الكتاب من وضع المترجمة، إلّا إذا وردت بذلك إشارة مخالفة).

نهايـة عـام 1871، اسـتقرّا أخـيراً في حـيّ مونبارنـاس في باريـس. كان بـرد باريـس قاتـلاً في ذلـك الشـتاء، ونهـر السّـين يجـرّ متثاقـلاً مياهـه المتجمّـدة. وكانـت أماليـا قـد تعافـت بمشـقّةٍ مـن الحمّـى التـي أُصيبـت بهـا بعـد ولادة ليـون. وقـد تكـون شـجاراتها مـع ألكسـندر زادتهـا وهنـاً عـلى وهـن، فقضـت بالتهـابٍ رئـويٍّ في الأيـّام الأخـيرة مـن شـهر كانـون الثـاني ولمّـا يُتِـمّ ليـون عامـه الأوّل بعـد. أمّـا جـدّي جـاك فـكان في التاسـعة مـن العمـر. وكان برفقـةِ العـمّ وليـام حـينَ اضطُـرَّ إلى دخـول ذلـك المقهـى عنـد ملتقـى شـارعَي مـدام وسـان سـولبيس. فقـد اعتقـد العـمّ أنّ مَـن هُـم في عمْـر جـاك لا يجـدُر بهـم الدخـولُ إلى متجـرٍ يقصـده النـاس لانتقـاء أكاليـل لموتاهـم. فتركـه في الحانـة، جالسـاً أمـام قـدح مـن النّبيـذ السّـاخن.

كانـت هـذه أوّلَ مـرّةٍ يرحـل فيهـا جـاك عـن موريشـيوس. وقـد بـدا لـه كلّ شيءٍ في فرنسـا فاتنـاً ومرعبـاً: المبـاني ذات الخمسـة طوابـق، وتتابـعُ العربـات عـلى الطريـق، والقطـاراتُ، ومداخـنُ الحمّامـات العامّـة العاليـةُ في مونبارنـاس ومـا تنفثـه مـن دخـانٍ أسـودَ في السـماء الرّماديـة، وأكـوامُ الثّلـج عـلى طـول الحدائـق العامّـة، وعـلاوة عـلى هـذا كلّـه النـاس، ذلـك الحشـدُ الكثيـف المـتراصّ. تراهـم يتصادمـون ويتدافعـون، أو يهرولـون، بوجوههـم الشـاحبة التـي تخفيهـا اللّحـى، وقبّعاتهـم الشـبيهة بأنبـوب المدخنـة ومعاطفهـم المبطّنـة، وعكّازاتهـم وجواربهـم العاليـة. كانـت النسـاء يرتديـن مـا لا يُحـصى مـن التّنانـير التحتيّـة ومشـدّات الخصرَيـن والفسـاتين والمعاطـف، وقـد ثُبّـتَتْ عـلى رؤوسـهنّ الصغـيرة، فـوق عقصـات شـعورهنّ الضخمـة، قبّعـاتٌ غريبـةٌ ببراقـع مخرّمـة. وكان عـلى جـاك أن

يلتصق بالعمّ وليام، ويده الصغيرة تكاد تنهرس في كفّ العملاق. لم يكن يفهم اللّكنة الغريبة التي يتحدّث بها أهالي هذه المدينة، ولم يكن يعرف كيف يجيب على أسئلة بنات جيرانه الصغيرات. فكنّ يتعجّبن: «أهو أبله! وكنّ ينعتنه بالأحمق، والأرعن. كان جاك، في الأيّام التي سبقت وفاة أمّه، يمضي كلّ وقته مع العمّ وليام. إذ كان يفزعه أنْ يسمع والدته تختنق، وأن يرى شحوب وجهها وتبعثُر شعرها الأسود الجميل على الوسادة. أمّا أنطوان فقد هدّه الإعياء. إذ لم تعُد أماليا تعرفُ حتّى ولدَها الصغير ولا طفلها الوليد. كانت تهذي، فتخال أنّها قد عادت إلى منزلِ والدها على ضفّة نهر هوغلي، مترقّبةً قدوم المطر، أسفل الفيراندا[1].

انتقل الرّائد شارل وليام للعيش في شقّةٍ صغيرةٍ في شارع سان سولبيس، فوق متجرٍ للسّلَع الدينيّة، ليكون إلى جانب أماليا، الأوراسية، كما يسمّونها في عائلتي. فمنذ آواها شقيقُه خلال حرب السّيبوي[2]، وكانت من قبلُ هائمةً على وجهها في الغابة المحيطة بمدينة الله أباد، أصبحت جزءاً من عائلته. وبعد موت شقيقه، صارتْ طفلتَه الوحيدة، وحبيبته. فكاد يموت حينَ رحلت في ذلك الشتاء. كان قد مكث في باريس لرعاية الصّبيّين، إذ لم يعد أنطوان يقدر على ذلك. ثمّ رحل إلى لندن. واليومَ لا يُعرف أيّ شيء عن عائلة وليام. فقد كانت وفاة أماليا مأساةً تفكّكت على إثرها كلّ الأواصر.

---

(1) الفيراندا: شرفة شمسيّة مسقوفة تشكّل أحياناً امتداداً للمنزل ولا تقع في طابق علويّ بالضرورة. (المراجع)

(2) ثورة السّيبوي sepoys وهي الثورة التي قامت في الهند في العامين 1857–1858 ضدّ شركة الهند الشرقيّة البريطانيّة وكانت تمثّل سلطةً استعماريّة تنوب عن التاج البريطانيّ آنذاك.

باتت عائلة أرشمبو قبيلةً ملعونة. والحقيقة أنّه لولا القطيعة مع كبير العائلة لسارت الأمور حتماً على نحو مغاير، لبقيَت أماليا في عزبة آنّا، ولاحتفظنا بأرضٍ وجذورٍ ووطن.

كان كلّ شيءٍ كئيباً في ذلك الشتاء في باريس. فقد اكتشف أنطوان، عند عودته إليها، أنّ جلّ موارده - أيْ نصيبه من أملاك عزبة آنّا - قد تبدّد. إذ كان قد أسرفَ بلا تدبّر في الأعوام التي قضاها في باريس بعد زواجه. أراد أن يبهر أماليا، ويُبهرَ نفسه. وقد راحت ثروته نهباً لبعض من رجال الأعمال الفاسدين وكتّاب العدل والموظّفين. كان أنطوان حالماً، منشغلاً بالشّعر والأدب على وجه الخصوص. وقد استثمر في مشاريع وهميّة، في حدائق وأراضٍ زراعيّة لا وجود لها، وسكك حديدٍ متخيّلة. وبابتعاده عن موريشيوس، فقَدَ عُصبته، والدّرع الذي يقيه، ولم يعد لديه ما يحميه. زِد على ذلك كره ألكسندر أرشَمبو لهذا الأخ غير الشّقيق الذي قدِمَ مثل دخيل عليهم حينَ كان هو ما يزال في السادسة من عمره- هذا الأخِ الخَليِّ العديم النّفع الذي لم يكنْ يشبهه في شيء.

ولم يكنْ ألكسندر في حاجةٍ لأنْ يحرّك ساكناً. فعندما بدأ أخوه في السّقوط، ما كان عليه سوى أنْ يشاهده وهو يسقط.

هكذا، ففي نهاية يناير ذاك، عام 1872، وحين كانت أماليا تُحتَضر، صار الرائد وليام يصطحب معه جاك إلى شارع سان سولبيس، ويتركه في الحانة التي تشغل الرّكن المقابل لمتجر السّلَع الدينيّة، فيتوقّفُ جاك عدّة مرّات أمام واجهة المتجر (مؤسسة شوفيه) متأمّلاً كلّ تلك الأشياء المذهلة، والمخيفة قليلاً- الصّلبان وتماثيل العذراء والميداليات

والأكاليـل وألـواح الرّخـام الأسـود. حتّـى إنّ صاحـب المتْجـر قـد كلّمـه ذات يـوم بينـا هـو ينتظـر العـمّ وليـام الـذي تخلّـف عنـه قليـلاً. كان رجـلاً مسـنّاً حليـق الـرأس، لعينَيـه زرقـةُ نبتـة أذن الفـأر، زرقـةٌ لم يـرَ جـاك مثلهـا مـن قبـل. كان منظـر الحانـة، عـلى الجهـة الأخـرى مـن الشـارع، يوحـي بـشيءٍ مريـب. فحـينَ يُفتَـح بابهـا الزجاجـيّ، تنبعـث هبّـةٌ مـن أصـواتٍ صاخبـةٍ وضحـكات. لكـنّ الرائـدَ زبـونٌ معتـادٌ، وقـد أَلِـفَ هـذه الأجـواء. كان يطيـب لـه الجلـوس هنـاك كـي يـشرب نبيـذه السّـاخن ويدخّـن غليونه، ممسّـداً شـاربَيه الأسـودَين الطويلَـينَ.

لم يحدّثنـي جـدّي جـاك عـن هـذا الأمـر قـطّ. فقـد صـار منـذ اسـتقرّ مؤخّـراً في مونبارنـاس رجـلاً صموتـاً، يدخـن سـيجارة تلـو الأخـرى مسـتغرقاً بـلا انتهـاء في قـراءة صحيفتـه، غـيرَ مكـترثٍ بالطّفـل الـذي كنْتـه. فكانـت جـدّتي سـوزان هـي مـن أخبرتنـي بـكلّ شيء. وكان سرد القصـص أحـبّ الأشـياء إليهـا. كانـت في معظمهـا قصصـاً مختَلَقـةً تـدور حـول قـردٍ ماكـرٍ يُدعـى زامـي. لكـنْ كان يحـدث لهـا مـن وقـتٍ إلى آخـر أنْ تـرويَ قصّة حقيقيّـة، فتحـذّرني عندئـذٍ قائلـةً: «انتبـه جيّـداً، فـما سـأقصّه عليـك الآن حقيقـيّ، لم أضـف إليـه شـيئاً مـن عنـدي. وحـين تُـرزَقُ بالأطفـال، عليـك أن ترويَـه هـم مثلـما رويْتـه لـك بالضّبـط». لقـد أحببـتُ جـدّتي سـوزان حبّـاً جمّـاً. لم تكـن بالمـرأةِ الفارعـةِ الطـول، كان لهـا بالأحـرى قـوامٌ ممتلـئٌ ووجـهٌ جميـل، بأنـفٍ رقيـقٍ وفـمٍ صغـير، وعينـينَ رماديّتـينَ تُكسـبهما نظّـارةُ طـول النّظـر اتّسـاعاً، وشـعرٌ أبيـض قصـيرٌ كان يثـير الاسـتغراب في ذلـك الوقـت. وكانـت تقـول إنّهـا أوّل امـرأةٍ تتّخـذ تسريحـة الشَّـعر هـذه. كنـت في الرّابعـة

عشرة من عمري حين توفيّت عن أربعةٍ وخمسين عاماً، أي بعد ستّ سنوات من وفاة جدّي. يومها كنت في غاية الحزن. دخلتُ غرفة النّوم ذات الستائر المُسدلة، حيث ترقد في سريرها من النّحاس المشغولِ كأنّها نائمة، نظيفةً ومرتّبةً كما هي دوماً. لمستُ جبينها المتجمّد، ووجنتَيها كذلك. ما زلت أتذكر جيّداً الهالات الكبيرة الدّاكنة تحت جفنَيها، ووددْتُ لو كان في وسعي بعدُ أنْ أرى رماديَّ حدقتيها الفاتح.

كانت هي من احتفظت بالكتب جميعها. فلماّ عاد جدّي إلى موريشيوس عامَ 1919 عودةً أخيرةً لإتمام التّسوية النهائيّة بعد وفاة ألِكسندر، طلبَت منه أنْ يحضر معه جميع الكتب، وكان أغلبها ممّا جمع أنطوان في باريس أيّام شبابه، وظلّت بعد رحيله محفوظةً في مبنى الشّهاب (سمّي بذلك لأنّه بُنيَ خلال مرور الشّهاب العظيم عام 1834، حيث ثُبّتَت في أعلاه منحوتةٌ خشبيّةٌ تمثّلُ النّيزك الشهير) الذي رُتّبت فيه الكتب في ثلاث مكتباتٍ كبيرةٍ من خشب الماهاغوني. وقد أضافت جدّتي، إلى جميع دواوين الشعر ورسائل الفلسفة وكتب الرحلات، كتبها الخاصّة، وهي دواوين الشعراء الذين أحبتهم: شيلي ولونغفيلو وهوغو وهيريديا وفرلين. وكانت أحياناً تقرأ ليَ القصائد. كان لها صوتٌ رقيقٌ ودافئ بعكس نبرةِ أبي ذي الصّوت الأجشّ. وكانت أمي تحبّ الاستماع إليها، وتقول إنّ سوزان كان ينبغي أن تكون ممثّلة. أمّا قصيدتها الأثيرة فكانت Fata Morgana[1] للونغفيلو.

(1) بالإيطاليّة في الأصل وتعني الجنّية مورغان، وهي وفقاً لأساطير آرثر ساحرةٌ ذات قدراتٍ خاصّةٍ تُنسب إليها على وجه التّحديد القدرة على رفع القصور على مياه البحر والتّحكم بحركة الريح. لكنّ المصطلح بات يشير إلى ظاهرةٍ بصريّة تُصنّف من أنواع السّراب.

«يا أوهاماً عذبةً لأغنيةٍ
في كلِّ مكان تُغويني،
في المروج الموحشة، وبين الحشود
على الطرقاتِ المزدحمة!..».

لم أنسَ. ذات يوم، وبعد أن قرأَت لي جدّتي: «بكاءٌ ينهمرُ في قلبي، كالمطرِ فوق المدينة»[1]، أخبرتني بما حدث ذلك المساء في شارع سان سولبيس، يوم وفاةِ أماليا، ودخولِ جدّي إلى الحانة. كان الوقت مساءً، وقد حلّ اللّيلُ، وربّما كانت تمطر. فلم أعد أتذكّر التفاصيل بدقّة، ويُهيّأُ لي أنّني رأيت ذلك كلّه في منامي، وقد أضفتُ إليه ذكرياتيَ الخاصّة - مخالفاً بذلك وصيّةَ جدّتي. وحينَ أتيت للمرّة الأولى إلى باريس برفقةِ أمّي، هاجرَين مدينة لوريان كي نعود إلى أبي الذي سُرّح من الجيش بعد الحرب، كنّا في تلك الحقبةِ ذاتها، في المدينة المدمّرة نفسها، بشوارعها السوداء التي جرّحها المطر: مزيجٌ من عتمةٍ وفقرٍ، ومن رائحة المواقد التي كان المسنّون المتلفّعون بأرديتهم الثّقيلة يُلقون في نارها كلّ ما يمكنهم إلقاؤه من قطع خشبٍ وأوراقٍ وبقايا فحم الكوك.

يبدو لي أحياناً أنّني أنا من عاش هذا حقّاً. أو أنّني ليون الآخر، ذلك الذي رحل إلى الأبد، وأنّ جاك قد روى لي كلّ شيء حين كنت طفلاً. الحانة الدافئة العاجّة بالدخان، ورائحة التّبغ الحادّة وعطر الأبسنت اللّاذع. وهو ما كان، في عمر التاسعة، أشبهَ بعبورك بوابةَ الجحيم.

(1) الإشارة هنا إلى قصيدة فرلين الشّهيرة .«Il pleure dans mon cœur/ Comme il pleut sur la ville»

مضى الرائدُ بجاك إلى طاولةٍ في قلب المقهى، هنالك حيث يتناولون حساء الفاصولياء، والخبز، أو يشربون أقداح النبيذ الساخن. كان معظم مرتاديه طلّاباً من الحيّ اللّاتينيّ، تلامذةَ طبٍّ أو فنّانين يعيشون في محترفاتهم بالقرب من مونبارناس، في شارع فالغيير. ولا بدّ أنّ بينهم أيضاً متسوّلين، وشبّاناً متشرّدين يرتدون زيّ القوزاق، وفتياتٍ ضائعات. لكنْ لم يكنْ ليُقلقَ العمّ وليام أنْ يترك صبيّاً صغيراً في ذلك المكانِ الغريب، وذلك البرد الذي يجمّد العروق. فالرّائد مفكّر حُرّ، مناهضٌ لرجال الدّين. ولم يوافق على زواج ابنة أخيه بالتبنّي من أنطوان إلّا لأنّه لم يكن يشبه سادة موريشيوس البيض، الأنانيّين والامتثاليّين.

تزوّج أنطوان من أماليا من دون أيّ تفكير. كان عاشقاً لتلك الجميلة السّمراء، الآتيةِ من بلدٍ غريب، وكان قد التقاها على متن القارب في طريقها إلى فرنسا لتتابع دروساً تؤهّلها للعمل مربيّةً. أوراسيّةٌ إذن، وفوق ذلك تحمل اسماً إنجليزيّاً. ولمّا عادا إلى موريشيوس للاستقرار في منزل آنّا، في جناح الشّهاب بعد أن جُدّد، أدركت أماليا خطأها على الفور. ولم تمكثْ طيلةَ ما يقارب العشرةَ أعوام إلّا لأنّ أنطوان كان يعاند ويرفض أنْ يفهم. كان يعتقد أنّه لا يزال يمتلك حقوقاً، وأنّ في استطاعته أن يقرّر ويختار، وأنْ يفرض نفسه على أخيه، في حين أنّه كان قد خسر كلّ شيءٍ دون أن يدرك ذلك. رُهِنَ مصنع السّكّر، ولن تكفي كميّة المحاصيل القادمة لسداد الديون. ولا بدّ أنّ أماليا فهمت الأمر سريعاً، فقد حدّثتها غريزتُها بأنّه لا أحد هنا – خاصّةً أَلِكسندر

وأعضاء مجلس النظام الأخلاقيّ[1] - سيغفر لأنطوان طيشه وإهماله. لم يكن لها مكانٌ في ذلك المجتمع. ولّما رحلا إلى أوروبّا ثانيةً، وكان ليون طفلاً وليداً بعد، ظنّ أنطوان أنّه سيعود يوماً ما. لكنّها عرفتْ أنّ رحيلهما سيكون إلى الأبد. وكأنّها أحسّت مسبقاً ببرد الموت يسري في أعماقها.

لم أفهم ذلك كلّه إلّا بعد وقتٍ طويل، حين لم تعد سوزان هنا لتروي ليَ القصص. جلس جاك وحيداً على الطاولة، في آخر الحانة، يراقب كلّ ما حوله. غريبٌ أنْ تفكّر بأنّه على الجهة الأخرى من مفترق الطرق ثمّة متجرٌ للسّلَع الدّينيّة، حيث كان الرائد يختار في تلك اللّحظة إكليلاً لأماليا. ولّما عاد، أحضروا إلى مائدته طبق حساء الفاصولياء وقدح النبيذ الساخن. الرّائد طويل القامةِ جدّاً، قويّ البُنيةِ، وأسمر مثل غجريّ. ولا بدّ من أنّ جوّ الحانة في ذلك المساء قد راقه على نحوٍ خاصّ: الصيّحات، والأصوات الصاخبة من الشّعراء مدمني الكحول، وسخرية طلّاب الطبّ وتجديفهم. لَفَتَ نظرَ جاك إلى شخصٍ يجلس إلى طاولةٍ على الطرف الآخر من القاعة، شابٌّ ممتلئ القوام، أصلعَ قليلاً، ذي لحيةٍ أنيقة، وكان يدخّن غليوناً طويلاً. «هل تراه؟ ذاك الرّجل، هناك. هذا بول فرلين، إنّه شاعر عظيم». وكان في تلك اللّحظة أنْ فُتح باب المقهى بعنف، وظهر على العتبة شابٌّ صغير، صبيٌّ بوجه طفل. كان طويل القامة، ذا هيئةٍ فظّةٍ ونظرةٍ شوشّها السّكر. ظلّ واقفاً على العتبة يصرخ شاتماً ومهدّداً، ويستفزّ

(1) تحيل التّسمية إلى تحالف قوىً يمينيّة محافظة تَشكّلَ في فرنسا ومستعمراتها بعد سقوط نابليون الثالث والحكومة الجمهورية المؤقّتة سنة 1871، بهدف إعادة النظام الملَكيّ وفرض نظام أخلاقيّ صارم على المجتمع يستند إلى الدّين وسلطة الكنيسة.

الحاضريـن ملوّحـاً بقبضتَيـه مثـل مُصـارع في احتفـالٍ موسـميّ. هَـمَّ نـادلان مـن المقهـى بطـرده، لكنّـه دفعهـما بعيـداً، وضربهـما. ارتعـب جـاك، والتصـق بالرّائـد متحصّنـاً بـه. شـوّش الجنـون نظـرة الصبـيّ الصّغـير الواقـف أمـام البـاب، ورنّ دويّ صيحاتـه في صمـت القاعـة. ثـمّ نهـض الرّجـل الملتحـي الجالـس قبالتهـما. كان يرتـدي معطفـاً طويـلاً أنيقـاً وربطـة عنـقٍ مفرطـة في طولهـا. مشـى بهـدوءٍ إلى البـاب، وتحـدّث إلى الصبـيّ الصّغـير. لم يسـمع أحـدٌ مـا قالـه لـه، لكنّـه نجـح في تهدئتـه. أخـذه مـن ذراعـه ومضيـا معـاً في عتمـة اللّيـل. وقبـل المغـادرة، اسـتدار الصبـيّ. كان شـعره مبعثـراً، وسـترته مثقوبـةً عنـد تقويـرة الكـمّ. جـال عـلى الحاضريـن مـرّةً أخـرى بنظرتـه العابسـة المهـدّدة، ثـمّ ابتعـد الرجُـلان، ولم يبـق سـوى نفحـة الهـواء الجليـديّ التـي سرتْ للحظـةٍ في القاعـة. سـأل جـاك: «- مـن هـذا؟» - «هـذا؟ لا شيء، مجّـرد شـقيّ». كنـت متيقّنـاً مـن أنّ تلـك كانـتْ كلـمات جـدّتي سـوزان حـين تحدّثـت عـن رامبـو: شـقيّ. لكنّهـا قـرأتْ لي عـدّة مـرّاتٍ الأبيـاتَ التـي كتبهـا الشـقيّ، موسـيقى غريبـةٌ لم أفهمهـا جيّـداً، مشـوّشـةٌ مثـل النظـرة التـي جـال بهـا عـلى قاعـة الحانـة.

في صيـف عـام 1980، وقبـل أسـبوع مـن سـفري إلى موريشـيوس، فتّشـتُ عـن الحانـة حيـث رأى جـديّ ذلـك الشـقيّ. هنالـك، في زاويـة شـارع مـدام، ثمّـة بالفعـل متجـرٌ للسّـلَع الدينيّـة، ذلـك الـذي كان الرّائـد وليـام قـد اسـتأجر شـقّةً أعـلاه. وقـد لمحـتُ عـلى الرصيـف المقابـل، قبـل الزاويـة قليـلاً، محـلّاً متداعيـاً مهجـوراً ببـابٍ متطامـنٍ وبتلـك المصاريـع القديمـة ذات القطعـة الواحـدة، التـي كان النّـاس يُطبقونهـا عـلى النوافـذ

كلّ مساء. أردْتُ لهذا أنْ يكون محلّ تاجر النّبيذ حيث اصطحب الرائدُ جدّي، تلك الحانةَ السيّئة السّمعة حيث كان فرلين في ذلك المساء على موعدٍ مع رامبو. مشيْت طوال ذلك الأسبوع الأوّل من شهر يونيو في شوارع باريس كما لم أفعل منذ كنت غلاماً يافعاً. كان الجوّ مبهجاً، سماءٌ لطيفةٌ تعبرها الغيوم. وكانت النساء في ثيابهنّ الصيفية، وأرصفة المقاهي تعجُّ بالزائرين.

ذرعْتُ جميع الطّرقات التي ذرعها رامبو، ورأيت كلّ الأماكن حيث عاش، شارع كامباني بروميير الذي لم يبق منه شيء، ثمّ الحيّ اللّاتينيّ، وشارع مسيو لو برانس، وشارع سان أندريه ديزار، وشارع سيربَنت، والبيت الكائن في زاوية شارع أوتفوي، وفندق «ليس» بفانوسه الحديديّ الصّدئ الذي لا بدّ أنّه أضاء خطاه، ورأيت واجهات البيوت على نحوِ ما رآها. حتّى إنّني اكتريتُ غرفةً في آخر طابقٍ من فندق كلوني، في شارع فيكتور كوزان، غرفةً ضيّقة بجدرانٍ متقاربةٍ وأرضيّة مهزوزة. أمِلتُ في أنْ تكونَ هي الغرفةَ التي نزل فيها رامبو عام 1872 ذاك، حين كان الجميع في باريس يطردونه. الجدران نفسها، الباب نفسه، النافذة العالية نفسها التي تنفتح على فناءٍ فوق السطوح، حيث كانت توقظه شمس الظّهيرة. جبتُ الشوارع المجاورة، شارداً، لا أرى السيّارات ولا أنظر إلى المارّة، وكأنّي كنت حقّاً ألمس بدايةً من بداياتِ الزّمن.

هكذا، كان جاك وليون متّحدَين، شقيقَين لا ينفصلان، ناجيَين وحيدَين من زمنٍ غابر. وكانا يلتقيان في كلّ إجازة، سنةً بعد أخرى، حتّى عام 1891 الذي شهد عودتهما إلى موريشيوس والقطيعةَ بينهما. ذلك العام حيث أصبح ليون هو المفقود. المفقود إلى الأبد.

هنا، في ربيع هذه الشوارع، مشى رامبو قبل أن يذهبَ في ارتحاله اللّانهائي. هنا، في ساحة موبير، ما زال المتشرّدون المخمورون يبسطون قطعاً من الورق المقوّى ليناموا عليها مساءً، يهدْهدهم صوت السيّارات. ربّما هم وحدهم من يلمسون في أحلامهم حقّاً الزّمن الذي لم يعد موجوداً. ظلّوا هنا ساكنين بلا حراك، فيما هو، ذلك المسافر، قد اجتاز أقاصي الأرض. وبينما هجرَ كلّ شيء قاصداً عدنَ وهرَر[1]، بحثاً عن السماء التي تحرّقُ حتّى العظم، كان جاك وليون يكبران، ويتعلّمان العيش في عزلة. حفظ ليون عن ظهر قلب «المركب السّكران»، و«حروف العلّة»، و«القاعدون»[2]، وهي القصائد التي نسخها له جاك في كرّاساته المدرسيّة. كان يحلم سلفاً بالرّحيل، وقد عرف أنّه سيفعل. كان يعلم أنّه ذات يوم سيكون هناك، في عزبة آنّا، لا ليستعيد مِلكيّتها، بل ليكون إنساناً جدّيداً، وليتحرّقَ تحت السّماء وفي البحر، هو أيضاً.

والآن أفهم ما حدث. ففي حانة سان سولبيس، ذات مساءٍ من شتاء عام 1872، بدأ كلّ شيء. وهكذا أصبحتُ ليون أرشَمبو، **المفقود.**

في شارع سان جاك، وفي المبنى رقم 175، عثرتُ ثانيةً على الحانة المسمّاة **أكاديميّة الأبسنت**. بيت جميل، بجدرانه البالية وأسطحه المتفاوتة المستوى، حيث حلّت محلّ صخر الأردواز في بعض المواضع ألواحٌ من الصفيح. أصبحت الحانة مطعماً باكستانيّاً، وما زال مدخله البابَ المائل

(1) هرَر، وتكتب أيضاً على هيئة هرار: مدينة في شرق إثيوبيا.

(2) جميع عناوين قصائد رامبو بالعربيّة كما وردت في كتاب: آرتور رامبو، «الآثار الشعريّة»، ترجمة كاظم جهاد، منشورات الجمل، بيروت، 2007.

نفسه الذي ينفتح إلى الأسفل على قاعةٍ معتمةٍ طويلة. على إحدى الطاولات، كان الطّهاة الباكستانيّون يقشّرون الكوسا واللّفت فوق قدر. نظروا إليّ في ارتياب. «ما اسم هذا المكان؟ سألت، غيرَ منتظرٍ أنْ يحدّثوني عن أكاديميّة الأبسنت. فأجاب أحدهم، بعد التشاور مع الآخرين: «هنا، من قبلُ، كان يسمّى غران سيل»[1]. ثمّة إلى جانب المطعم بابٌ عريض ينفتح على باحةٍ داخليّة كبيرةٍ مرصوفةٍ ومتداعية، وكان صبيٌّ شديد السّمرة يجلس في إحدى زواياها، شرساً مثل قطّ. في ذلك الشتاء، كان رامبو، ثمِلاً بالأبسنت، قد تشاجر في هذه الباحة مع خصوم وهميّين، ولربّما جلس في الزّاوية نفسها، وظهرُه إلى الحائط، ثمّ ذهب لينام على الرصيف، في ندى الفجرِ الأسود.

مشيْت في هذه الشّوارع كلّها، كأنّني نائمٌ وعيناي مفتوحتان، مصغياً إلى صوت تلك الحياة التي لم تنطفئ. كأنّما أبصرُ بعينَي الغضب، وكما لو كنت أحسّ تجهّم الطفولة المدمّرة مرتسماً على وجهي، شعري أشعثُ يبّسه الأرق، وظهري محنيٌّ من التّعب. فبعد كلّ هذه السنوات من التّرحال والقطيعةِ مع أندريا -حيث كلّ ما تبادلناه من حديث، وكلّ ما اقترفه الواحد منّا بحقّ الآخر بات عصيّاً على الإصلاح- ها أنا أمرّ بباريس عابراً، قبل سويعاتٍ من ركوب الطّائرة إلى نهاية العالم. ثمّة طلّاب في الشّوارع حول السّوربون، وعلى أرصفة المقاهي. باريسُ ساحرةٌ في يونيو. سديمٌ ذهبيّ حيثما ولّيتَ وجهك، مِن طَلعٍ ووميض، ومِن وهجِ الشّمس في شعور الفتيات. غير أنّي ما زلت

(1) أي متجر المِلح الكبير.

أحسّ بغبارِ طرقِ كولومبيا ويوكاتان الوعرةِ عالقاً بي، وطينِ أنهار بنما جافّاً في شعري وفي ملابسي، وبمسحوقٍ أحمرَ يصِرُّ بين أسناني. لمّا دخلتُ إلى مكتب الشؤون الثقافيّة في العاصمة مكسيكو، متقدّماً لوظيفة أستاذٍ تعاقديٍّ في كامبيتشي (حيث كان من يشغل الوظيفةَ قبلي قد اغتيل مؤخّراً في تسوية حسابات بينْ مثليّين)، قال لي الموظّفُ خرّيجُ المعهد الوطنيّ للإدارة العامّة بهدوء، وهو شابٌّ ببذلةٍ من الطّراز الاستعماريّ وربطة عنقٍ مخطّطة: «نرى أمثالَك كلّ يوم، بحقائبَ على الظهر، يأتون إليّ لطلبِ المال، أو لوظيفة، ثمّ يغادرون ولا أسمع عنهم بعد ذلك».

لم يبقَ أحدٌ ممّن عاصرتهم في الحيّ اللّاتينيّ حين كنت طالباً. باتت الدّروب المرصوفة بالحجارةِ، والتي شهدت أحداث يونيو 68، معبّدةً بالإسفلت، وصارت تعاني من ازدحام شديد. أمّا قطارات الضّواحي فحالتها يُرثى لها. فقد خُطّطت مقاعدُها المغطّاة بالفرو الصّناعيّ بأقلامِ التلوين ومُزّقت بالمشارط. لا أحد يراني، ويُهيّأ لي في لحظاتٍ أنّني غدوْت غير مرئيٍّ. فمَن عساه يحتاجني؟ توجّهتُ، لا أدري لماذا، إلى رْواسي لأشاهد الطّائرات وهي تقلع. فلمّا كنت في العاشرة من عمري اصطحبتني جدّتي سوزان إلى مطار لوبورجيه. كانت تحبّ رؤية الطّائرات تصعد وئيدةً إلى السماء. وما كانت لتستقلّها نظيرَ أيّ شيء في العالم. «لن أدخل في أيٍّ من علب السّجارات هذه أبداً». لكنّها كانت تحبّ رؤيتها وهي تقلع. أمّا اليوم، فلا يمكنك رؤية أيّ شيء في المطارات، لكنْ في وسعكِ بعدُ أنْ تشتمّ عبق الرّحلات، وتسمع الأسماء: دلهي، بانكوك، بروكسل، ريو، داكار، لكأنّها عزفُ الأمْداء،

أو نشيدُ الفضاء. حلّ اللّيل فنمتُ على مقعدٍ، كما لو كنت سأغادر في اليوم التالي. كما لو كان هنالك حقّاً وِجهةٌ ما. هكذا كان أنْ قرّرتُ الذّهاب إلى موريشيوس.

أمّا هوَ، فكان يسير في شوارع المدينة بالغضبِ الذي يعكّرَ نظرته، وبتلك الشّفة السفليّة الرّقيقة التي يجعل ضمورُها الذّقن أثقل حضوراً (كان عند إيزابيل[1] هذا العيب الخَلْقيّ نفسه) وبشَعره النّابت عشوائيّاً والململوم تحت قبّعةٍ صغيرةٍ مستديرةٍ مثل قبّعات هنود أياكوتشو الحُمر، وبصرير حذائه ذي النّضوات على أرصفة شارعَي فيكتور كوزان وسيربنت. وسرعان ما ضاقت به باريس أيّما ضيق، فالشوارع هي نفسها دوماً، بالمباني نفسها ذات النّوافذ المُحتجبة خلف السّتائر، والملامح المتجهّمة، والرجال الشبيهين ببطاركةٍ جهَلة، وتلك القلنسوات والقبّعات، والشّعور المستعارة، والياقات المثنيّة، والقمصان المنشّاة، ومعاطف الردينغوت والصّداري، والسراويل المشدودة بأحزمةٍ إلى أسفل القدَم، والجوارب العالية الصّفراء، والأحذية الملمّعة المصمّمة حسب الطّلب، وتلك العصيّ المعقوفة والمظلاّت السوداء. أوَ ليسَ الشِّعر، في هذه الحالة، شأناً برجوازياً، نوعاً من ضبطِ ميزانيّةٍ، مفكّرةً سوداء تُدوّن فيها الأصول والذّمم، والعوائد والنفقات؟ وفيه تحليقٌ أحياناً، وصرخاتٌ وتنهيدات، وتوقٌ وشغف. ومِن هذا التّحليق تسقط أشياء، قوافٍ مجنّسةٌ وتضميناتٌ وحروفٌ حُذِفت من أواسط

(1) شقيقة الشّاعر آرثور رامبو (1860–1917).

الكلمات. كان صوت آرتور، في مَتجر تاجر النّبيذ الواقع في شارع مدام يدوزن كلّ مقطع: «آه، سُحقاً!» وسرعان ما كفّ عن أنْ يكون مُسليّاً، وصار غاضباً مرعباً. ينفتح الباب على اللّيل، كوّتُه ضيّقةٌ وخفيضةٌ جدّاً مثل بيْت النمل. الصبيُّ واقفٌ على العتبة، طفلاً عملاقاً ضامّاً قبضتَيه، وملامحُه متواريةٌ في العتَمة، وشَعره أشعث، وسترته الفلّاحيّة الضيّقة ممزقةٌ عند تقويرة الكمّ من كَثرة ما يتعارك كلّ مساء. أخذ يصيح مُجدّفاً شاتماً، ويهدّد كلّ من يقترب منه بأنّه سيطرحه أرضاً، فصَمَت الحضور خوفاً. وهذا شعورٌ حقيقيّ قويٌّ وقاتم. هو، لا الرّيح التي تدير الطواحين، ولا سقوطُ القوافي المُجنّسة، وصيحاتُ الـ«آه!» والـ«أوه!»، ولا رائحة التّبغ الهولنديّ العذبة. وقعَت نظرتُه الزّرقاء الدّاكنة على عينَي جدّي (وتسلّلت مِن جدّي إليّ) ولم تفارقه منذ ذلك اليوم. البابُ الذي انفتح على اللّيل، والشّابُّ الشّقيُّ المخمور الذي يستفزّ الحضور. ثمّ لا شيء بعدَ ذلك، إلى أنْ بلغ عدن.

كانت جدّتي سوزان تقرأ «المركب السّكران»، أو «فجر صيف» بنبرة الصّوت ذاتها التي تقرأ بها قصائد لونغفيلو. شِعرُ شقيٍّ، وجهٌ ملائكيّ، وشَعرٌ أشعث، وهذه النّظرةُ الشّريرة المشوّشة، نظرةٌ لا تقوى على التّحديق في شيءٍ أو إنسان. شوارعُ باريس الضيّقة المعتمة التي تطرده. ساحات مبانٍ كأنّها نُزلٌ، حيث ينام النّاس المهجورون على بسطهم من الورق المقوّى. والضّباب الذي يغطّي وادي نهر لاميز صباحاً في شارلفيل. والبردُ، ورماديُّ السّماء الصّامت، والغربان في حقول الشّمندر. هل في وسعنا أنْ نبرأ من هذا، أنْ نتحرّر منه؟ مِن

السّماء التي لا نراها، ومِن باريس التي كأنّها مصيدة؟ «آه، ما عساني أفعل هناك؟»[1].

إنّني أفكّر تحديداً بليون أرشمبو، المفقود، الذي تمرّد على النّظام الأخلاقي والحكومة الجماعيّة، ثمّ رحل مع المرأة التي أحبّها ولم يرجع قطّ. حينَ تُوفّي أنطوان بالتهاب الدّماغ في الثمانينيات (ربّما في 1884) كان ليون يناهز الثانية عشرة من عمره. وكان جاك قد غادر إلى لندن لدراسة الطّب، وأقام على الأرجح عند الرّائد وليام. وأمّا ليون فصار تلميذاً في مدرسةٍ داخليّةٍ في لوريان أولاً، ثمّ في روي ماليزون عند السيّدة لوبير الذّائعة الصّيت. وكان في بعض اللّيالي، حين يجافيه النّوم، يعبرُ رواق المَهْجع نحو النّوافذ الكبيرة ذات القضبان، والمطلّة على الفناء الذي جفّت أعشابه، كي يسمع هدير البحر.

هنالك قرأ ليون، متأثّراً بأستاذه م. موورو، الذي كان من قبلُ أستاذ جاك، وحدّثتني جدّتي سوزان عنه كما لو كانت تعرفه، قرأ الشّعراء ريشبان وهيريديا وبودلير، وفرلين، وأشعاراً لرامبو نسخَها له جاك عن أعداد مجلّة «لافوغ»: «الذاهلون»، «المُفلّيتان»، و«سونيتة حروف العلّة، وعن مختارات عام 1888 قصيدة «النّائم في الوادي»، التي قالت جدّتي إنّه هو من أطلعها عليها. أمّا عن كتاب «الشعراء الملعونون»[2] الذي اشتراه م. مورو حال صدوره، فقد نسخ له جاك

(1) عبارة على لسان رامبو قالها لأحد أصدقائه ذات مرّةٍ تعبيراً عن نفوره من مجتمع الصالونات الأدبيّة في باريس.

(2) «الشّعراء الملعونون» *Les Poètes maudits* : كتاب للشّاعر بول فرلين Paul Verlaine صدر في طبعة أولى في 1884، وفي طبعة ثانية مزيدة في 1888. وضع في الطبعة الأولى ثلاث مقالات طويلة عن تريستان كوربيير وآرتور رامبو وستيفان مالارميه، وفي الطبعة الثانية أضاف ثلاث مقالات عن مارسلين ديبورد فالمور وفيلييه دو ليل آدم وعن نفسه، وقد صحّف اسمه على =

منه على كرّاسه المدرسيّ قصيدة «المركب السّكران» التي أصبحت مثل صلاةٍ يتلوها كلّ مساء. هذا إضافةً إلى قصائد بودلير المحظورة التي قرأها في الرّبيع الماضي، في حصّة البلاغة: «نساءٌ ملعونات»، «ابتهالاتٌ للشّيطان»، و«العدوّ»:

«أيّها الألم! أيّها الألمُ! إن الزّمن يلتهم الحياة
والعدوُّ الغامضُ الذي ينهشُ قلوبنا
على دمنا النّازف يقتات ويقوى».

ضيّقةٌ هذه المدينة على ليون. زوايا البيوت أطرافٌ حادّة تنغرز في جسده، ونقطة التّلاشي في آخر الجادّات سكّينٌ تحزّه، والأرصفة غارقةٌ في صقيع قرمزيّ. لعلّه هو أيضاً، مِثلي، قد أمضى أيّامه في ذلك الصيف حبيس غرفته في الفندق قربَ محطّة سان لازار، لا يخرج منها إلّا ليلاً، كي يهيمَ على وجهه في الشوارع المجاورة وصولاً إلى ساحة بلانش أو صوب حيّ لابوت، فَيرى باريس تختنق تحت وطأةِ أنفاسها. في ذلك الصيف (أوائل أغسطس 1890) جاء جاك ليصطحبه إلى إنجلترا. أراد أن يعرّف سوزان موريل به، وهي امرأةٌ مِن جزيرة لاريونيون تزوّجها حديثاً في لندن. استقلّا القطار معاً إلى شاطئ البحر في هاستينغز. لمْ تُحدّثني جدّتي عن هذا الصّيف سوى مرّة واحدة، ربّما لأنّ السّعادة لا تُقال. فقد وصفتْ لي، مرّةً واحدةً فقط، السماء الصافية، والرّياح الفاترة، والاستحمام في البحر، وكيف كان ثلاثتُهم يسوقون المقصورات المتنقّلة حتّى الموج، ويمضون اللّيل خارجها، جالسين على رصيف

= هيئة Le Pauvre Lelian (ليليان المسكين). والمقالات مصحوبة بمختارات من نصوص الشّعراء. (المُراجع)

الميناء حيث تقرأ سوزان بعضَ القصائد، مثل «الطيور المهاجرة» للونغفيلو:

«تساقط الظّلال السوداء
من الزّيزفون الباسق،
إذ يرفع عالياً جدارَه الهائل
في وجه السّماء الجنوبيّة...».

ولبودلير:

«أيّها الإنسانُ الحرُّ، سوْف تَهوى البحْرَ دَوْماً!
البحْرُ مرآتكُ؛ إلخ...».

كانت هذه أوّلَ مرّةٍ على الأرجح يشعر فيها بأنّه قويّ، ويحسّ بدفء الحبّ ووحدة العائلة. استلقى ثلاثتُهم على الشّاطئ المفروش بالحصى، حيث سوزان تتوسّط الأخوَين، وليون يسند رأسه إلى كتفها النّاعمة ويستنشق عطر شعرها. كانت لحظةً من ذلك الصيف، حيث شاهدوا آثار النّيازك في السّماء المُدلهمّة فوق البحر، قبل أن يتبعثرَ كلّ شيء.

ومع هذا فإنّ عليّ العودةَ إلى باريس، إنْ أردتُ أنْ أفهم الأمور فهماً أفضل، إلى تلك الحانة الصّغيرة في شارع مدام، والباب الذي انفتح على مراهقٍ مخمور، أشعث الشّعر، يترنّح على العتبة، بفم طافح بالشتائم ونظرةٍ شوّشها الجنون. كما لو أنّ مِن بعده قد بدأ التّيه كلّه:

فقـدانُ عزبـة آنّـا، ونهايـة عائلـة أرشـمبو. وقـد باتـت تلـك الصّـورة التـي نقلهـا جـدّي جـاك إلى ليـون، ثـمّ إليّ عـبر سـوزان، مختلطـةً بحيـاتي، حبيسـةَ ذاكـرتي. مـا الـذي يبقـى مـن المشـاعر والأحـلام والرّغبـات بعـد أنْ يختفـيَ صاحبُهـا؟ أيكـون رَجـل عـدنٍ، وواضـعُ السّـمّ في هـرَر، هـو ذاتـه المراهـق الغاضـب الـذي فتـح بـاب المقهـى في شـارع مـدام ذات ليلـة، ووقعـت منـه نظـرةٌ عـلى طفـلٍ في التّاسـعةِ مـن عمـره هـو جـدّي؟ أسـيرُ في هـذه الشـوارع كلّهـا، وأسـمع وقـعَ كعبَـي حذائـي يـرنّ في عتَمـة اللّيـل، شـارعِ فيكتـور كـوزان، وشـارعِ سـيرينت، وسـاحةِ موبـير، وشـوارعِ كونترسـكارب، مفتّشـاً عمّـن صـار بـلا اسـم، عمّـنْ هـو أبهـتُ مـن ظـلٍّ، وأقـلّ مـن أثـر، وأضـأل مـن طيـف. مـن يعتمـلُ في نفسـي مثـل اختـلاجٍ أو رغبـة، أو اندفاعـةِ خيـال، أو خفقـة قلـب، فيدفعنـي إلى التّحليـقِ بعيـداً.

وبالمناسـبةِ، فـإنّي مُسـتَقلٌّ الطائـرةَ غـداً إلى نهايـةِ العـالم، والطّـرف الآخـرِ مـن الزّمـن.

واضع السّمّ

أفكّر في بحر عدن كما رآه جدّي مع سوزان وليون، مِن متن السّفينة لافا في صباح يوم 8 مايو عام 1891، ذلك البحرِ المصقول مثل مرآةٍ تحت سماءٍ بلا غيوم. كان الجوّ شديد الحرّ حتّى في السّاعة الثامنة: 41 درجة مئويّة في الظلّ، وهو ما كان ينبِئ بمجيء الصيف قبل موعده المعتاد. أتخيّل المسافرين على السّطح العلويّ من السفينة، أولئك الذين يحظون بكراسيٍّ طويلةٍ للاستلقاء وبالنسمةِ الرّخيّة التي تموّج مياه البحر. وأتخيّل الآخرين: المهاجرين والتّجار العرب، يتمدّدون على أرضيّة الطّابق السفليّ مباشرةً، مختنقين أسفل الممرّات.

ما الذي حدا بجاك وليون إلى ركوب القارب الذي كان ينقل البضائع ذهاباً وإياباً من الباخرة إلى الشّاطئ؟ مشهدُ الخليج الأجرد، ونقطة التّواهي[1]، والتلّة العارية التي تعلوها ساريةُ الإشارة، ومنحنى الهلال[2]، وصَفٌّ من المباني المبيّضةِ بالجير تنتهي بمبنى شركة التلغراف الفخم، وهذا السّد غير المكتمل في منتصف الخليج، جسرٌ عائم متهدّم مصنوعٌ من جذوع أشجارٍ وكُتلٍ من الحمم البركانيّة رُصّت قوارب الصيّادين على طوله رصّاً.

(1) منطقة في محافظة عدن، فيها ميناءٌ يحمل الاسم ذاته، وكانت تُسمّى Steamer Point) la Pointe de Steamer)، أي نقطة التقاء البواخر، خلال الاستعمار البريطانيّ (1839–1967).

(2) حيّ الهلال في منطقة التّواهي، محافظة عدن. وكان يُسمّى أيّام الانتداب البريطانيّ بالـ Crescent.

لعلّه الضّجر، هذا الشّعور بأنّك سجينٌ على متن المدينة العائمة، والرّسوُّ الطويل ثماني وأربعين ساعةً فيما يشرف نائب القبطان على تفريغ البضائع، ورحلةُ الزّوارق ذهاباً وإياباً حاملةً إلى الجسر العائم أكياس الطّحين والبطاطس، وصناديق التفّاح، وأشوِلة قصاصات القطن الإنجليزيّ، وقطع الصابون الثّمينة.

كان قارب الخدمات قارباً كبيراً وسريعاً يقوده ستّة بحّارةٍ صوماليّين. وهو يتبع للميناء، ويمكنه حمل كميّةٍ كبيرةٍ من البضائع الأكثر هشاشةً، والمعدّاتِ والأدوية. جلس جاك على أحد المقاعد في مقدّم القارب، كما يليق بطبيب، ببذلته الرّمادية الكاملة الأناقة وقبعته «البنما». وكان ليون حاسراً مرتدياً قميصاً، يتّخذ من الصناديق مقعداً ويتأمّلُ الماء ينساب على طول هيكل القارب، أزرقَ معدنيّاً، شبيهاً ببحيرة. وحيث الخطّ الأسود الذي يحدّ السّاحل قريبٌ كلّ القرب.

لم تأتِ سوزان. كانت تعاني بسبب الحرّ الشّديد منذ وصولهم إلى السويس. وكانت تحسّ بالاختناق في تلك اللّيلة، فأرادت البقاء على سطح السّفينة حتّى الصباح، غير آبهةٍ بالبعوض القادم من السّاحل. كانت الرّياح تمرّ فوق السفينة فتحرّق جفنَيها مثل الحمّى. وحينَ طلع الصبح، ربَتَت على ذراع جاك النّائم بجانبها على خشبة السّطح: «شُمَّ هذا، تنفّسْ... إنّه منعش!».

دلفَت السّفينة **لافا** إلى خليج عدن دون أنْ يحسّوا بها، فإذا بنسيم البرّ يهبّ مع الفجر حاملاً نضارة الصّحراء وعبقها. «كم أودّ أنْ تنطلق السّفينة مجدّداً، عائدةً بنا إلى البحر». كانت سوزان، منذ استقلّوا القطار من مرسيليا، تتطلّع بنفاد صبرٍ إلى الوصولِ. ذلك أنّ لافا، قبّةَ

الحديد تلك المثبّتة بالمحارق، الدائمةَ الاهتزاز والتي تفوح منها رائحة الشّحم، كانت تصيبها بالغثيان. لم تكن تبالي بمحطّات التوقّف، فكلّ ما كانت تتوق إليه هو جزيرة موريشيوس، بقممها الحادّة التي صوّرها لها جاك، إذ ترتفع مخترقةً الأفق عالقةً في الغيوم؛ البلدُ الذي أرادت أنْ يكون موطنَها.

في تلك اللّيلة في البحر الأحمر، أخذَت تتأمّل النّجوم. كانت السّماء ذات لونٍ نيلي ميّالٍ إلى الأرجوانيّ. «إنّها جميلةٌ جداً...» أطلعَها جاك على أسماء كوكبات النجوم، وأراها النّجم الأكثر تألّقاً بالقرب من الأفق: نجمَ الدّبران. حتّى إنّه أخبرها باسمه الهنديّ، «روهيني»، الذي تعلّمه في طفولته. ثمّ نامتْ في المقصورة بكامل عُريها تحت الملاءة التي بلّلها العرق. وقبل أنْ يغادرا، عانقت ليون وقالت له: «احذر أنْ تضيع!».

جلس ليون في مقدّمة الزّورق وأحسّ هو أيضاً بعينَيه تحرّقانه. كانت الشّمس قد سمّرت وجهَه ويدَيه. فبدا، مع ذلك الشّعر المجعّد، مثل بحّارٍ هنديٍّ شابّ. كان هو أيضاً يتوق إلى الوصول ولمسِ الأرض التي وُلد فيها. هكذا أتخيّله، بعينَيه السوداوَين كالكهرمان حيث تلمع شرارةُ نظرته، لا نظرة آل أرشمبو السّوداوية، وإنّما ذلك التوقّد الذي كان يضرم النّار في قلب الأوراسيّة، ويشي بتعطّشه للمغامرة.

الشّاطئ دربٌ طويلٌ مُغبرٌّ ينعطفُ صوبَ التّواهي شرقاً. وفيها وراء المباني التّجارية والجمارك والمستودعات والمشفى، تبدأ حافةُ الفوّهةِ البركانيّة السوداء. وتلوح على مبعدةٍ منها، خلَلَ ضباب رماديّ، أولى التّلال الصحراوية من شبه الجزيرة العربية، مبتورةً كأنّما قُدّت بفأس، وصفراءَ بلون الرّمل، يتخلّلها في بعض المواضع شريطٌ أبيضُ

طويـلٌ مـن نتـوءٍ صَلصـاليّ. الحـرّ شـديد. ومـع أنّ السـاعة تقـارب الثامنـة والنصـف، فقـد كان الهـواء يلتهـب فـوق المدينـة وعـلى الأرصفـة المتربـة. بـدأ العـمّال يفرّغـون قـارب البضائـع، مكدّسـين الحقائـب عـلى الطّريـق أمام الجسـر العائـم. غبـارٌ في كلّ مـكان، وذبـابٌ صغـيرٌ، وآخـرُ حـوّامٌ عمـلاقٌ يطـنّ حـول صناديـق التفّـاح. وإلى الخلـف بقليـل، ينتظـر العـمّال بعرباتهـم اليدويّـة، عـمّالٌ مـن قبيلـة عيسـى طـوالُ القامـة سـودٌ، يرتـدون مـآزر باليـة، وأجسـادهم مغطّـاةٌ بقـشرةٍ رقيقـةٍ تشـبه الدّقيـق. ومـن ورائهـم، تُلمـح تحـت مظـلاّتٍ سـوداء كبـيرةٍ أطيـافُ الرّجـال الذيـن يمثّلـون الحضـارة في عـدن: التّجـار العـرب في غلائلهـم البيـض، ومسـؤولو الصّحـة الإنجليـز، وبعـض ممثّـلي المؤسّسـات الأوروبيّـة، مثـل لـوك تومـاس، بينينسـولار آنـد أوريتنـال، وشركـة النّقـل البحـريّ ميسـاجري.

وبينـما كان جـاك وليـون يتمشّـيان عـلى رصيـف الميـنـاء، لفَـتَ رجـلٌ انتباههَـما بمظهـره الغريـب، حتّـى في ذلـك المـكان النّائـي. رجـلٌ بديـنٌ في الخمسـينيّات مـن العمـر، يرتـدي سـترةً سـوداء وبنطـالاً رماديّـاً، وصـداراً بياقـةٍ جامـدةٍ، وربطـةَ عنـقٍ رغـم شـدّة الحـرّ. ثـمّ إنّـه الوحيـد الـذي لا يحتمـي بمظلّـة. وكان يعتمـر قبّعـةً مـن القـشّ واسـعة الحـواف ويحمـي عنقـه بمنديـل. لكـنْ مـا لفـت انتبـاه جـاك وليـون هـو لحيتـه. لحيـةٌ خارجـةٌ عـن المألـوف، طويلـةٌ وعريضـةٌ وكثّـة، وسـوداءُ بلـون الفحـم تلمـع فيهـا بعـض خيـوطٍ فضّيـة. كان الرّجـل يقـف عـلى مبعـدةٍ يسـيرةٍ مـن التّجـار العـرب، ويراقـب مشـهد الهبـوط مـن السّـفينة ممسّـداً لحيتـه. لكنّـه في المقابـل لم يصـوّب أيّ نظـرةٍ نحـو هذَيـن المسـافرَين النازلَـين مـن سـفينة لافـا كـي ينشّـطا أرجلهـما.

عرف التّجارُ حقائبهم، وتفحّصوها مع نائب قبطان لافا، ثمّ أصدروا الأوامر دون أنْ يرفعوا أصواتهم، فردّدها أحد رؤساء العمّال، أو سردار[1]-مثلما يسمّيه جاك - وقد بدأ يوزّع الأحمال ويرسلُ الحوذيّين على طول الجادّةِ وصولاً إلى المخازن.

كان يسود في تلك الساعة هياجٌ في الميناء، يتناقض بلا شكٍّ مع صفاء السّماء وخدرِ اللّيلةِ الفائتة الذي لم يكن يكدّره سوى نباح الكلاب، وقد ضاعفه صخبُ أولئك الأطفال نصف العراة الذين كانوا يركضون بين الصناديق على أمل الإمساك بحبّة فاكهةٍ قد تفلتُ من أحدها، ويشكّلون حلقة رقص حول جاك ليطلبوا منه بعض النّقود صائحين: «وَن تالر! وَن تالر!»[2] أو ربّما: «وَن دولار!» وقد وزّع عليهم بضعة سنتيماتٍ فانصرفوا وهم يتصايحون.

وهرباً منهم، أو أملاً في العثور على بقعةٍ أنقى هواءً، سار جاك وليون على طول الخليج حتّى بداية درب البغال الذي يمضي صعوداً نحو الصّخرة الشّاهقة ومقالع الحجارة. جلسا في ظلّ مبنى شركةِ **بينينسولار آند أورينتال** يتأمّلان مشهد المرفأ حيث ترسو سفينة **لافا**، سوداءَ ساكنةً. ولولا خيط الدخان المتصاعد من المدخنة الطويلة، لظنّ المرء أنّه أمام حطام سفينة.

وعلى الجانب الآخر من شبه الجزيرة، يُلمح جُرف البركان الصخريّ بفوّهته المتصدّعة. حينَ وصلَت السفينةُ فجراً، نهض جاك

(1) سردار: كلمةٌ من أصل فارسيّ كانت تُستخدم على نطاق واسع في العصر العثمانيّ، وتعني الرئيس أو القائد أو الأمير.

(2) Taler بالألمانية: عملة معدنيّة من الفضة سُكّت عام 1518 واستخدمت في معظم أنحاء أوروبا على مدى 400 سنة أو يزيد.

بهدوءٍ ومشى عبرَ سطحها نحو المؤخّرة. كان القائد بوالو يتكئ على الدرابزين، فأشار إلى جاك نحو الصّخرة الهائلة الطّالعةِ من البحر: «هذا هو يا سيّدي جبل شمسان، ولعلّه أشهرُ صخرةٍ في العالم بعد جبل طارق». وأردف قائلاً: «وكلتاهما إنجليزيّة».

كان في صمتِ عدنٍ ما يثير الإعجاب ويضمر الشرّ في آنٍ معاً، ولا بدّ أنّ ذلك قد حيّر جاك وليون، كما لو كان مروراً باختبارٍ عصيّ على الفهم.

فبعد انطلاق الرّحلة وما صاحبها من اضطرابٍ محموم: صخبِ رصيف الميناء في مرسيليا، وجلبة المحطّة والقطارات، وهدير محرّكاتِ البواخر إذ تُقلِع في ريح أبريل الباردة، واكتظاظ السفينة، جاء ميناءُ عدنٍ بجبله الأسود ومياه خليجه النّاعمة، ليمنح إحساساً بضخامةٍ غير بشريّةٍ خفق لها قلب ليون بشدّة، وتشوّش بصره. غيرَ أنّ محطّة التوقّفِ هذه لم تكن عند جاك سوى لحظةٍ على طريق العودة. ولعلّ هذا كلّه حاضرٌ في ذاكرته، الأرصفة المتربة، ورائحة الزّيوت، وحركة الزّوارق. أمّا ليون فإنّه يختبره للمرّة الأولى. فهنا يبدأ كلّ ما جاء باحثاً عنه، الحياة الجديدة، والقطيعة مع نُزُلِ روي ماليزون، ونسيانُ الطفولة. هنا يبدأ البحر الذي حدّثه عنه جاك، البحر الذي كانوا يرونه من عزبة آنّا، يهتاج وينبض عند السّاحل في أو بويّي، والشّعورُ بأنّك على طوفٍ منعزلٍ عن بقيّة العالم. إنّ هذا بلا شكّ ما كان يلمع في نظرة ليون مثل لُغزٍ لا يقوى على فهمه، ويحسّ به في البحر، وفي الضّوء الشّديد الوهج، وحرّ الصحراء. كان يظنّ أنّه على وشك الوصول، أنّه عند بابٍ ما، يعبرُ العتبة الأخيرة قبل أن يطأ أرضه. أخذ يرسم

مـا يـرى عـلى كـرّاس رسـم مجلّـدٍ بالخيش أهـداه لـه جـاك قبـل مغادرتـه: هـلالَ الخليـج، والتّواهـي، والمبـاني البيضـاء، وأطيـافَ عـمّال التحميـل والتفريـغ، والجسرَ العائـم حيـث يرسـو قـارب البضائـع وسْـطَ الـزّوارق وقـوارب الصّياديـن، والجبـل الأسـود في البعيـد، ذا النّتـوءات الشـوكيّة كأنّـه طَلـل. ثـمّ في صفحـةٍ أخـرى، رسـم بعنايـةٍ صـورةً لسـفينة **لافـا**، سـاكنةً في وسـط الميـناء، تحيـط بهـا أشرعـة المراكـب.

توقّفَـت حركـة قـارب البضائـع المكّوكيّـة، وعـاد الرّصيـف فارغـاً بعـد أنْ انتعـش للحظِـة. ظلّـت الشـمس متوهّجـةً، وغـادر جـاك وليـون ظِـلّ المخـازن وسـارا إلى طـرف الخليـج. وكان **غـران أوتيـل** أوّلَ مبنـى يمـرّان بـه، وهـو دارٌ مـن طابقَـين وسـقفٍ مـن الزّنـك، يقـع إلى الخلـف قليـلاً في نهايـة حديقـةٍ جافّـة. وعـلى مبعـدةٍ، تبـدأ سلسـلة الـشركات التجاريّـة، مكعبـاتٌ بسـيطةٌ مـن البازلـت مطليّـةٌ بالجير ذات سـقفٍ مستوٍ، مـن بينهـا **لوتيـل دوروب**، وهـو شـبهُ قـصرٍ لم يكتمـل بنـاؤه. عـرف جـاك، في ظـلّ الأروقـة الجصّيّـة، الرّجـل الـذي رأيـاه تـوّاً عـلى الرّصيـف مرتديـاً معطفـه الأسـود وبنطالـه الرّمـادي، وممسّـداً لحيتـه الشّـبيهة بلحـى الأنبيـاء.

كيـف عـرف أنّ جـاك طبيـب؟ لا بـدّ أنّـه سـأل سوسـاك، نائـب القبطـان عـن ذلـك، حتّـى وإنْ تظاهـر باللّامبـالاة تجـاه كلّ مـن يتوقّفـون هنـا أثنـاء رحلاتهـم. هـل عـرّفَ بنفسـه؟ عـلى أيّ حـال، فـإنّ اسـمه لم يـوحِ بـشيء لجـاك ولا لليـون، بـل إنّهـما لم يسـمعاه.

يتكلّـم الرّجـل بلطـفٍ فرنسـيّةً لا تشـوبها شـائبة، ومـن دون لَكْنـة، ولكـن مـع تلـك اللّمسـة المتكلّفـة التـي يمتـاز بهـا أهـل الأقاليـم. خاطـب

جاك كما لو كان محروماً من التّواصل مع معاصريه منذ شهور. وبعد عبارتَين مبتذَلتين أو ثلاث، تحدّث عن الأزمات السّياسية منذ اغتيال الإمبراطور جان[1] وتمرد مِنِليك[2] ضدّ الحكومة الإيطالية. كان متجره قاعةً كبيرةً مظلمةً يطنّ فيها الذّباب، لكنّها أميَلُ إلى البرودة. جلس جاك على كرسيٍّ للتحدّث مع التاجر، بينما ظلّ ليون في الخارج يراقب حركة العمّال تحت الرّواق. وفي عمق المتجر، لمح جاك الموظّفين العرب أو الهنود منشغلين بتفريغ البضائع وتصنيفها. كان هنالك صندوق خمورٍ فرنسيّة، وكان موظّفٌ يُخرج من صندوقٍ آخر ماكينة خياطةٍ كمَن يستخرج كنزاً. بدا التّاجر فخوراً جدّاً بمِلكيّته: «آمل أن أبيع الكثير منها في الحبشة». ثمّ تحدّث عن رجلٍ من شركائه، فرنسيٌّ، يرقد في تلك اللّحظةِ في المشفى العامّ في التّواهي، منتظراً أنْ يعيدوه إلى مرسيليا. قال: «حالته سيّئةٌ جدّاً، وباخرة الأمازون لن تصل إلّا بعد يومَين، ولا أعرف إنْ كان سيصمد حتّى ذلك الحين». لم يقل جاك شيئاً. عليه أنْ يظلّ متحفظاً. وقد فهم الآن أنّ التاجر ما تقرّب إليه إلّا من أجل هذا، من أجل أنْ يخبرَه عن شريكه الرّاقد في المشفى، فيستوضح منه عن حالته. كان جاك يكره الاستشارات المُرتجلة، ولم يكن لديْه أدنى رغبةٍ في الذّهاب إلى المشفى لرؤية شخصٍ يُحتضر، حتّى وإنْ كان ابنَ بلده. ثمّ إنّ الحرّ شديد، ومِن شأن زيارةٍ كهذه أنْ تذهب بكلّ خيرات الصباح الذي أمضاه على أرصفة الميناء. ولا بدّ أنّ سوزان كانت في انتظاره. لكنّ التاجر كان مِلحاحاً، فشقّ على جاك أنْ يرفض طلبه. خطرَ في

(1) امبراطور هايتي بين عامي 1804–1806.

(2) الامبراطور مِنِليك الثاني أعظم أباطرة إثيوبيا (1844–1913).

بالـه أنْ يتـذرّع بقـرب رحيـل لافـا. وأرادَ أوّلاً أن يوصـلَ شـقيقه إلى الزورق، لكـنّ ليـون طلـب مرافقتـه قائـلاً إنّـه سـيبقى واقفـاً عنـد البـاب فقط.

انطلـق التّاجـر وهـو لا يـزال يعتمـر قبّعتـه البيضـاء الغريبـة، وتبِعـه جـاك عـلى مضَـض. لم يطـرح أيّ سـؤال، ولم يحـاول حتّـى معرفـة اسـم الرّجـل التّعِـس الـذي سـيزوره.

ولمّـا دخـل الغرفـة الضيّقـة الشّـديدة الحـرّ، عـدّل نظّارتـه، وهـي الإيـماءة التـي تعلّمهـا في سـان جوزيـف لمنحـه الثّقـة ورباطـةَ الجـأش في المواقـف الصّعبـة. أذهلـه وضـع المريـض. كان شـاباًّ فارعـاً وناحـلاً كهيـكلٍ عظمـيّ، ممـدّداً بكامـل قامتـه عـلى السّريـر القصـير جـدّاً عليـه. وجهُـه هزيـلٌ مصفـرٌّ مـن كثـرة مـا تعرّضـت عظـامُ وجنتَيـه وقصبـةُ أنفـه للشـمس، وجبينُـه محـزّزٌ بخطـوطٍ عميقـة، ومبقّـعٌ بتلـك العلامـات الدّاكنـة التـي تظهـر عـلى البـشرة الفاتحـة في المناطـق الاسـتوائية. لكـنّ أشـدّ مـا أذهـل جـاك هـي نظـرة ذلـك الرجـل، نظـرةٌ زرقـاءُ رماديّـة، بـاردةٌ وذكيّـة، ومشـحونةٌ بالغضـب. عـرف المريـضُ التّاجـر، وقبـل أن يتفـوّه هـذا الأخـير بكلمـة، نهـضَ متّخـذاً موقف مـن يدافـع عـن نفسـه وطـرده: «انـصرف! هيـا انـصرف! ليـس عنـدي مـا أخـبرك بـه!». لكـنّ التاجـر لم يتراجـع، وقـدّم لـه جـاك بوصفـه طبيباً فرنسـيّاً في طريقـه إلى موريشـيوس، فـردّ عليـه الرّجـلُ متنـدّراً: «ومـاذا تريـد منـه أنْ يفعـل بي؟! خُـذْه وانـصرف معـه! تبـاً لكـما!». أنهكَتـه نوبـة الغضـب، فخـرّ مُرتميـاً عـلى وسـادته.

تعجّـبَ جـاك مـن أنّ الرجـل لا يرتـدي لبـاس المـرضى، بـل كان لا يـزال في ثيـاب السّـفر، بنطـالٍ رمـاديٍّ بـالٍ ومُغـبرّ، وقميـصٍ عاجـيٍّ بلا ياقـة، ذي أزرارٍ عظميّـة منحوتـة، عـلى طريقـة أهـل الحبشـة.

ولمّا رأى جاك آثار المعاناة في ملامح المريضِ عدل عن نيّته المغادرة في الحال. كانت إحدى ساقَيه ملفوفةً بضمادةٍ حتّى منتصف الفخذ، لكنّ القدم الأخرى منتعلةٌ حذاءً جلديّاً أسود ثقيلاً، يعلوه بعد غبارُ الطرقات، كما لو كان الرّجل يستعدّ للخروج واستئناف رحلته. وكانت عصا متينةٌ من خشب الأبنوس مُسندةً إلى الحائط المبيّض بالجير قرب السرير، وجميع أمتعته جاهزةٌ خلف الباب في انتظاره: حقيبةٌ جلديّة بحزامِ كتفٍ وحقيبةُ سفرٍ مغلّفةٌ بالجلد شُدّت بالأحزِمة.

جلَس التّاجر على كرسيّ القشّ الوحيد في المكان، عند قاعدة السّرير. بدا مُنهكاً من حرارة الجوّ وأخذ يمسح حول عنقه بمنديله الكبير. ظلّ جاك واقفاً أمام الباب، كما لو كان متأهباً للمغادرة. اقترب ليون، صار في الرّواقِ على عتبة غرفة المريض دون أنْ يجسر على الدّخول، مكتفياً بالمراقبة. نطق التّاجر بملاحظاتٍ مبتذلةٍ حول الحرّ والجفاف ونحو ذلك، لم يردّ عليها الرجل المستند إلى وسادته إلّا بتقطيب وجهه، أو بكلماتٍ من مقْطعٍ واحدٍ تمْتمها بصوتٍ مؤرّق. هنا، ترى المعاناةَ محسوسةً في كلّ تفصيلٍ: على بياضِ الجدران المُجيرّة، وفي النّافذة الضيّقة ذات السّتائر نصف المُسدَلةِ، وعُريِ الأرضيّة، والسّرير ذي الأعمدة المعدنيّة المهترئة حيث يرقد الرّجل بكامل ملابسه، متوتّرَ الأعصاب، وصوتُه أجشُّ كأنّه صرخةٌ مكتومة.

هل نطقَ أحدهم اسمَه؟ هل سمِعه جاك؟ وإنْ كان سمعه، فهل بمقدوره أنْ يعرفَ في هذا الجسد المُستنزَف المحطّم، والمتيبّس من الألم، ذلك اليافعَ الغاضبَ الذي دخل حانةً في باريس القديمة ذات مساء، منذ ما يقرب من عشرين عاماً؟ مَن هدّد الناس بقبضتَيه،

ومَن تقاطعتْ نظرتهُ المشوشّةُ مع نظرة ولدٍ صغيرٍ في عمر التاسعة؟ ذلك الفتى الغريبَ الذي قاده الشاعر فرلين إلى الخارج في عتمةِ اللّيل، وغاب عن الأنظار وهو يصبّ اللّعنات، وقال عنه العمّ وليام هذا وحسب: «لا شيء... شقيّ».

أتخيّل الآن جاك واقفاً في الحجرة المُتوهّجة بالشمس، تلك الحجرةِ العارية حيث يرقد الفتى نفسه وقد صار رجلاً، ووجهه متشنّجٌ من الألم. لعلّ جاكَ قد ميّزَ، في لحظةٍ، ملمحاً ما، بريقَ عينَيه الأزرق الفولاذيّ، أو فمَه المزمومَ تحت شاربَيه، وتلك الشّفة السفليّة الرّقيقة كأنّما تآكلت من الغضب، أو ربّما اليدَين، تَينك اليدَين العريضتَين الكثيرتَي العُقَد كَيدَي فلّاح، المهترئتَين والمبقّعتَين من أثر الشمس، اليدَين اللّتَين هدّدتا نادل الحانة الذي أراد طرده، ودفعتاه بعيداً.

لم يتخلّ التاجر عن رغبته في فحص المريض. مال نحوه، وهمس له ببضع كلماتٍ، لكنّ الرّجل أبى بشدّة، وبصوتٍ جافّ، أجشَّ ومكتومٍ في الآن ذاته، وكلماتٍ مجتزأةٍ وغير متماسكة. ثمّ تحدّث عن مؤامرةٍ، وعن أطبّاء يريدون بتر ساقه، وفي الوقت ذاته تحدّث عن تجارته، وعن الأموال التي سُرقت منه في أفريقيا، والإتاوات التي كان عليه أنْ يدفعها إلى الإمبراطور مِنِليك كي لا يهاجم رجالُه القوافل، وعن الكلاب التي تدفعه إلى الجنون بتسكّعها حول المشفى، وحوله، ليلَ نهار. ثمّ هدأ فجأةً، وقال بنبرةٍ ساخرة: «ثمّ إنّه من العبث المطلق إزعاجُ هذا السيّد. فقد تحسّنتُ كثيراً منذ لزِمت الفراش».

في الغرفة الضيّقة، كانت الحرارة تشتدّ فتُمدّد الهواء ضاغطةً على الجدران. ينظر جاك إلى قطرات العرق التي تتبلْوَر على جبين التاجر

ثـمّ تسـيل عـلى خدّيـه وتبلّـل لحيتـه الطويلـة. واضـحٌ أن التاجـر متوتّـر، ويبحـث عـن وسـيلةٍ للانسـحاب، وهـو لا ينفـكّ يمسـح وجهـه بمنديلـه ويحـرّك بعصبيّـة مروحـةً مـن خشـب الصّنـدل الهنـديّ.

ولا يبـدو أنّ المريـض الرّاقـد في سريـره كان منزعجـاً مـن الحـرّ. إذ لا يـزال وجهـه النّحيـف جافّـاً، ولا أثـر للعـرق في يدَيـه ولا في شـعره البالـغ القـصر. كانـت نظرتـه تُشـعّ بطاقـةٍ أذهلـت ليـون. فدلـف إلى الغرفـة عـلى مهـلٍ ودنـا مـن السريـر. بـدا جـاك أيضـاً مفتونـاً بالمشـهد، كـما لـو كان فيـه شيءٌ لا يقـاوَم. ظـلّ الرّجـل يتحـدّث بـلا مداخلـةٍ مـن أحـد، عـن بضاعتـه الخياليّـة، ويـاردات القطـن الإنجليـزيّ، وكبـب الخيـوط النيليّـة «جانـو»، وصبغـة الفـوّة، و«لولـون»، ومسـك الزّبـاد، والزّبـاد، والقهـوة، القهـوة اللّعينـة عـلى وجـه الخصـوص!

كان ليـون يسـتمع لهـذه الكلـمات الغريبـة يسردهـا الرّجـل كأنّهـا الأسـماء الأهـمّ في العـالم، ثـمّ إلى تلـك التواريـخ، يـومَ مغـادرة القوافـل كأنّهـا سراب، أبريـل ومـارِس، والأيـام الآتيـة أو تلـك التـي مضـت، وكلّ هـذا الخليـط. ثـمّ أخـذ يعـدّد أسـعاراً وأرقامـاً، ويتحـدّث عـن الأسـنان والبنـادق وعملـة التّالـر، كلّ ذلـك بالصـوت المتشـنّج الرّتيـب ذاتـه، كـما لـو كان يتحـدّث عـن مسـألةٍ حسـابيّة غـير مفهومـة. ولّمـا نهـض التاجـر عـن كرسـيّه وهـمّ بمقاطعتـه، رفـع المريـض صوتـه بلهجـةٍ مُنـذرةٍ لهـا رنـين المعـدن، وضرب بيـده عـلى حافـة السّريـر في حركـةٍ قاطعـة.

أراد التاجـر أن يواصـل الحديـث معـه عـن صحّتـه، لكـنّ الرّجـل صرخ قائـلاً: «أجـل، أعلـم، لقـد أقسـمتم جميعـاً أنْ تبـتروا هـذه السـاق!» ثـمّ أراح جِلسـته عـلى السريـر ثانيـةً وعينـاه تقدحـان غضبـاً. «لكنّنـي أنـوي العـودة

إلى بيتي بكامل جسدي. يجب أن أتزوج في فرنسا، أتحسبون أني سأجد زوجةً وأنا بساقٍ واحدة!».

ارتدّ ثانيةً إلى وسادته. كان شديدَ الشحوب، ويداه مسترخيتان على جانبَي جسده، كأنّه مُسجّىً. لم يُطِق التاجر صبراً. فانسلّ حتّى دون أنْ يودّع جاك وليون الواقفَين بعدُ في منتصف الغرفة.

«هل الألم شديد؟ أتريدني أن أصف لك الأفيون دواءً؟». كان في صوت جاك شيءٌ غريبٌ غير نبرة الطبيب.

نظر إليه الرّجل باهتمام لحظةً، متفرّساً فيه بعينَيه الرّماديتَين، وكأنّه يفتّش عن ذكرى ما. ونظر أيضاً إلى الفتى الشّديد السّمرة الذي يقف أمام الباب المفتوح. لعلّ شيئاً ما قد حدث خلال تلك اللّحظة القصيرة، ستارٌ انسدلَ مخفّفاً قسوة نظرته، حيرةٌ أو شجن. لم يُجب الرّجل، تراجع أكثر إلى وسادته وأغمض عينَيه. ثمّ قال أخيراً بصوتٍ خفيضٍ مُتعب: «عطشان. أريد بعض الماء». وما كان يطلب سوى ماءٍ من ينابيع موطنه الأمّ، ماء بلدة روش، ماء الشّباب، وليس ماء هذه الآبار القلويّة في عدن، هذه المياه المنفّرة التي أماتتها مراجل تحلية المياه التّابعة للمشفى. وما دام لا يستطيع الحصول عليها، فقد أغمض عينَيه شارداً في حلمه.

بات الوقت ظهراً، ولا بدّ أن سوزان كانت تنتظر على أحرّ من الجمر، وتراقب حركةَ الزّوارق الصّغيرة في المرفأ. انتهت لافا من تفريغ حقائبها وبراميلها، وتصاعدت رجفةُ المحرّكات مُحدِثةً اهتزازاً مكتوماً وصل إلى غرفة المشفى. التّواهي جزيرةٌ ترزح تحت وطأة

الشمس التي تتوهّج أشعتها على جدران المشفى المبيّضةِ بالجير، وعلى سقفها المعدنيّ. كانت سوزان تلمح في البعيد المساحات البيضاء المتشكّلة من مسطّحات الملح، وجبال شبه الجزيرة العربية. قال لها القبطان بوالو منذ قليل: «بشرى سارة. يمكننا الإبحار اللّيلة». أتُراه أفضى إليها أيضاً بسرّ بهجته الغامرة تلك؟ أي احتمالِ التوقّف المفاجئ في محطّة زنجبار، ولقائه السريّ مع زوجة أحد الضباط البحريّين، من أراد من أجلها أنْ يتحدّى خطَر الوباء والمنع الذي تفرضه شركة النّقل البحريّ ميساجري؟ لكنّ سوزان كانت قد عيل صبرُها، ولم تشأ هي الأخرى أنْ تطرح عليه أيّ سؤال.

في المشفى، كان جاك يستعدّ للانصراف، فأخذ ليون من ذراعه، لكنّ الفتى أبدى مقاومةً ورغبةً في البقاء، لا بل دنا من السرير، ونظر إلى وجه الرّجل النائم. ولم يكن ما سمعه عندها هذيان المريض، بل الكلمات النابضة بقوّةٍ في الكرّاس الذي نَسخ له جاك القصائد فيه، فقط بسبب فرلين.

«أنا الحُرُّ، مَن يتصاعد منه الدّخان وتعلوه سحائبُ ضبابٍ بنفسجيّ،
أنا الذي كنت أثقب السماء المتأجّجةَ كمَن يثقب جداراً،
حاملاً كمِثلِ مربّى لذيذٍ للشّعراء اللّطفاء،
أشناتٍ شمسيّةً ونفاياتِ لازورد»[1].

(1) هذه الأبيات من قصيدة «المركب السّكران» لآرتور رامبو بترجمة كاظم جهاد، مصدر سبق ذكره.

كان ليون في السابعةَ عشرةَ من العمر حين غادر روي ماليزون عامَ 1889 والكرّاس في جيب معطفه، حيث هذه الأبيات الموجّهة إليه، لا إلى أحدٍ سواه، إلى هذا الطفل المنفيّ في شوارع باريس، الحالم منذ الأزل بالعودة إلى الجزيرة، موطنه الأمّ، إلى حفيف الرّيح في أشجار **الكزورينة**، وتسبيح طيور الزّرزور عند الغسق، وتدفّقُ أمواج البحر ليلاً قُبالةَ عزبة آنّا.

ولكنْ كيف يمكنه أن يعرف الشّاعر المفقود في هذا الجسد الطويل المطروح على فراش المشفى، هذا الجسد الخفيف المحطّم من الألم، حيث السّاق المضمّدة تبثّ رائحة الموت في الحجرة؟ فتح الرّجل عينَيه مرّةً أخرى. وسأل بصوتٍ واثقٍ، وقد استعادَ بعضَ هدوئه:

- متى ترحلان؟

- في غضون ساعات قليلة.

بدا كمن يفكّر في أمرٍ ما:

- لولا تلك السّاق اللّعينة، لرحلتُ معكما.

واستوى جالساً في سريره. تصوّر جاك أنّ القروح قد انتشرت في ظهره وردفيه بلا شكٍّ، من كثرة ما لازم فراشه. كان عليه، لكي يحرّك ساقه اليسرى قليلاً، أن يحملها بكلتا يدَيه، مثل كتلةٍ خاملة، وقد قُصَّ بنطاله الرماديّ عند منتصف الفخذ لإفساح مكانٍ للضِّمادة الضّخمة التي تمتدّ من الرّكبة حتّى القدم. «اللّعنة على الأطبّاء، لقد أقسموا أنْ يُجهزوا عليّ!» وتمتَمَ بأسماء، نوك، ستيبين، وجرّاح المشفى. وكان يريد أنْ ينقلوه إلى الفندق الكائن في منطقة الهلال.

سأله جاك في إصرار: «هل تريدني أن أفحصك؟». لكنّ الرّجل رفض بإيماءة اليد الحادّة ذاتها. «كلّا، كلّا، لا جدوى من ذلك»، متحدّثاً عن الأمر كأنّه مسألةٌ ثانويّة. همّ جاك بالانصراف، لكنّ المريضَ اعتدل في جِلسته إلى أقصى حدٍّ هذه المرّة، وقد لاح شيءٌ من القلق في نظرته. كأنّه أراد أنْ يكسبَ لحظةً أخرى على حساب الألم والوحدة.

طَرح أسئلةً بصوت قَلِقٍ عساه يستبقي هذَين الغريبَين، الطبيبَ الشابّ الخجول والفتى ذا العينَين الذّاكتَين الذي يذكّره برعاة هرَر. لكنّها لم تكنْ أسئلةً حتّى، ولم ينتظر إجابات، تطرّقَ إلى الوضع السياسيّ في فرنسا، ومذبحةِ فورمي، وتنامي الحركة الفوضويّة. وتحدّث عن تونكين، وعن غزو الكونغو، وعن ضفّة نهر السّانغا حيث كان ينوي أنْ يفتتِح حانة. وأقْطَعَ القولَ في مِنِليك، وفي كلّ من شاركهم تجارتَه، باردي وسافوري وديشان، وفي تيان الذي أبخسه حقّه، وإلْغ الذي خانه. ولم يوفّر سوى المستكشف بوريلي، رفيق سفره. توتّر جاك، لكنّ ليون كان يصغي بشيءٍ من الانبهار إلى هذيانه العقلانيّ وصوته العدوانيّ الرّتيب. ثمّ غرِق الرّجل ثانيةً في أحلام يقظته. تحدّث عمّا يحبّ، عن الطريق إلى أنكوبار (إثيوبيا)، وجبل بلاد تشرتشر (آبري تشرتشر-تشاد)، وأوبورا وسهل مينجار ومدينة أنتوتو التربة (إثيوبيا). وبرد اللّيل، والجليد على الطرقاتِ فجراً، إذ يصرّ تحت حوافر الخيل. مُمدّداً في تلك الغرفةِ حيث يسود هواءٌ حارّ مُشبعٌ بغبارٍ أحمر، أخذ يحلم بصوت عالٍ بهرَرَ، وبزرقةِ السّماء في شتائها القارس. ثمّ إذا به فجأةً، وبلا تمهيدٍ، في بلدة روش، حيث بيْت العائلة، قربَ أمّه وشقيقته، وأمامَ إبريق المياه المتجمّدة على طاولةِ الزينة في غرفته

في الطّابق العلويّ، يتأمّل عبرَ نافذتها الضّباب المنبسطَ فوق الحقول، ويسمع صيحاتِ الزِّيغان.

انسلّ جاك على أطراف أصابعه، وانتظر لحظةً في الرّواق حينَ لمحَ غيرَ بعيدٍ عن البابِ رجلاً في العشرينيّات من العمر، شابّاً أسود من إريتريا يرتدي القميص البنيّ نفسه بلا ياقة، وبنطالاً أبيض. كان يقف هناك متكّئاً على الحائط، وقد نظر في صمتٍ إلى جاك وهو يمرّ من أمامه.

في الغرفةِ، توقّف المريض عن الهذيان، وارتدّ ثانيةً إلى وسادته، فتبدّى وجهه بقعةً رماديّة داكنةً وسْطَ ذلك البياض الواسع. مشى ليون إلى السّرير لينظر إليه. صار في ملامح المريضِ الآن شيءٌ من الوداعة، كأنّما انبسطت أساريره بعد انقباض. لعلّه حلّقَ بعيداً في حلمه بالمياه وبصباحات الصّقيع، ونسيَ الألم الذي كان يسود غرفة المشفى وما برح يتأجج بوميضٍ أحمرَ مثل وهج الجمر.

بعد ظهيرة ذلك اليوم، عاد جاك إلى متن سفينة لافا. لم تكن السفينة قد أنهت استعدادات انطلاقها، ولن تغادر إلّا فجر الغد. استلقى جاك، وقد أنهكته تلك الجولة الصباحيّة في التّواهي، في القَمرة الضيقة، على الفراش الصّغير اليابس معانقاً سوزان. وقد تطارحا الغرام طويلاً وغمرَ العرق جسدَيهما في الظلّ الأحمر. بقي ليون في الميناء، يسير في الشوارع الخالية وكرّاس الرّسم في يده لا يجد ما يرسم. فلعلّ الصفحات البيضاء هي أبلغ وصفٍ لجزيرة صيرة البركانية.[1]

(1) اسمها غير الرسميّ كريتر، من الإنجليزية crater: بركان.

أســتطيع أن أتخيّــل عــصرَ ذلــك اليــومِ الثقيــلَ الخانــق، والضّــوء الأحمـر بـين جـدران القمْـرة، والكـوّة نصـفَ المفتوحـة تحجبهـا السّـتارة الباليـة. يبـدو لي أنّنـي أحمـل ذكـرى ذلـك اليـوم معـي، بوصفهـا اللّحظـة التـي حملـتْ فيهـا جـدّتي بـأبي. ثِقـلُ الحـرّ عـلى جسـديهما ومـذاق العـرق وخفقـات قلبَيهـما المتضاعفـة كأنّهـما قـد غاصـا معـاً في قـاع بئـرٍ مـن نـار. ولطالمـا حلمـتُ بـأن تكـون أمّـي قـد حمِلـتْ بي عـلى متـن قـاربٍ رسـا في ميـناءٍ يطـلّ عـلى آخـر العـالم، في عـدن.

لم يتحـدّث جـاك عـن رامبـو. ومـن الأكيـد أنّـه لم يسـتطعْ حتّـى أنْ يكـوّن فكـرةً عمّـن قـد يكونـه ذلـك المريـض الهزيـل الـذي يقبـع في فـراش المشـفى، مرتديـاً كامـل ملابسـه ومنتعـلاً حـذاءه مثـل مسـافرٍ لا يصـل أبـداً إلى أيّـة وِجهـة. وقـد قـال لسـوزان هـذا وحسـب:

- رأيت من فوري رجلاً يُشرفُ على الموت.

نظـرَت إليـه في دهْشـة. إذ لم يكـن مـن عادتـه يومـاً التحـدّث عـمّا يـراه، سـواءٌ وهـو في لنـدن أم في مشـفى سـانت جوزيـف، أم في إليفانـت آنـد كاسـل. سـألَته:

- وليون؟

- ظلّ هناك. أخبرَني أنّه سيعود مع آخر زورق.

أتخيّلـه يسـير عـلى طـول الشـاطئ. الشـمسُ عموديّـةٌ، والظّـلال بقـعُ حـبرٍ عـلى الـتراب، والجـدران متوهّجـة. مـا الـذي شـدّ ليـون مـرّة أخـرى نحـو المشـفى العـام، ليجتـاز ممرّاتـه الخانقـة حيـث تطـنّ الذّبابـير، وصـولاً إلى الغرفـة الضيّقـة التـي يرقـد فيهـا الرّجـل المريـض ذو الوجـه الغاضـب

المتشنّج، والنظرةِ الزرقاء الرّماديّة التي لا ترمش ولا تخفُّ حدّتها؟ انتهى تفريغ القارب من البضائع، وأُغلقت المخازن جميعها، وهُجرت الأرصفة، وانشغل التّجار بتناول غدائهم. ونام البحّارة قرب المراكب الراسية، في ظلّ أشرعتها المرْخيّة، وتجمع العمّال تحت أروقةِ البنايات على طول الخليج، يلعبون النّرد ويدخّنون غلايين الحشيش. مرّ ليون من أمامهم حتّى بلغ مستودع الفحم التّابع لشركة النّقل البحريّ ميساجري، ومضى أبعدَ من ذلك، نحو مبنى شركة لوك توماس. وكانت تتقدّم على الطريق التّرابيّ عربةٌ واحدةٌ يجرّها بغلان هزيلان، صوبَ المُعلاّ وجزيرة صيرة البركانيّة.

وهذه هي علامة الحياةِ الوحيدة هنا. فما من طيورٍ ولا حشرات. لونُ مياه المرفأ خليطٌ من زرقةٍ ناعمةٍ وسوادٍ، يلوح فوقها طيفٌ لافا مثلَ قصرٍ معدنيّ محاطٍ بالمياه. وقبل نهاية الخليج بقليل، رأى ليون الكلاب، قطيعاً كاملاً منها. كانت تخرج من بعيدٍ، من بين المباني المهجورة، وتمشي بخطٍ مائلٍ، خطومُها إلى الأرض تتضوّر جوعاً، ولها لون الغبار، كأنّها أشباح. التفتَ إلى الوراء فتوارت الكلاب خلف بعض الجدران، ثمّ استأنفت سيرها متّبعةً إيّاه ومقتربةً منه بهدوء، فشعر فجأةً بالخوف. إنّها هي من تحدّث عنها الرّجل المريض في هذيانه، الكلابُ الضّالة الجائعة والمسعورة التي تطوّق المدينة، فتدخل الباحات، وتتجول حتّى تحت نوافذ المشفى، كلابُ هرَر التي كان يرمي لها قطع لحم مسمومةً كلَّ مساء.

ولّما دخل ليونَ الغرفة مجدّداً، لم يعرفه رامبو. كان الحرّ مُطبقاً، والغبار والألم يصبّانَ على الغرفة وهجاً أحمر مُخضرّاً مثل لهب. وعلى

كرسيّ القشّ الذي شغله التاجر في ذلك الصباح، كان يجلس الشابّ الأسود من شعبِ غالا، ناحلاً فارع الطّول مثل داليـة، يرتدي ملابس أوسعَ كثيراً من مقاسه، وتظهر على وجنتيْه علاماتٌ غريبةٌ أشبه ببرادة النّحاس. أراد ليون أن يقترب، لكنّ الرّجل الأسود نهض ومنعه من التقدّم، دون أن ينبس ببنت شفة، بل اكتفى بمدّ ذراعه، ورمقَه بعينَيه الصفراوين، الهادئتَين والواثقتَين، ظانّاً على الأرجح أنّ ليون واحدٌ من أولئك الأطبّاء، جاء ليبتر ساق سيّده.

في عمق الغرفة، وفي غبشها اللاّمع، كان المريض يهذي، لا صارخاً، بل مُتمتماً بالصوت الرّتيب نفسه الذي كان يردّد به أرقامه وتواريخه، وبالنّبرة المعدنيّة ذاتها.

كان قابعاً هناك لا يبدي حراكاً، مسنداً ظهره إلى الوسادة، وذراعاه ممدودتان على جانبَيه، وساقه اليسرى متدليّةٌ على طرف السرير، كما لو كان يحاول الوقوف. «إنّها هناك، أمام النافذة. توقّعتُ ذلك. يتكرّر هذا كلّ يوم، ولا أحد يفعل شيئاً. أصْغِ! ها هي هناك، أمام النافذة».

والحقيقةُ أنّ ليون كان يسمع بوضوحٍ نباحها الأجّش وهريرَها في صمْت المدينة الميّتة. إنّها سادةُ عدنٍ الحقيقيّون، من يطوّقونها ويخترقونها، أشباحٌ بلون الرّمل، تخرج إليها من التّلال الجافّة والوديان، وتتجوّل على طول شاطئها بحثاً عن الطّعام. وقد اقتفتْ أثرَ الرّجل إلى هنا، قادمةً من أعماق جبال الحبشة، وشوارعِ هرَر الباردة، وصولاً إلى هذه الصّخرة المهجورة، الكلابُ التي تخطف الصغارَ وتنبش قبور الموتى.

سـار ليـون في شـوارع التّواهـي حتّـى المسـاء باحثـاً عـن شيءٍ مـا، وكـرّاسُ الرّسـم في يـده. هـل نجـح هـذا الصبـيّ اليافـع في اكتشـاف الهويّـة الحقيقيّـة للتاجـر الرّحالـةِ، طريـح الفـراش في المشـفى العـام؟ لعلّـه اسـتطاع أنْ يستشـفّ مـن ذلـك الجسـد الـذي عضّـه الألم وقضمـه الجفـاف، نضـارةَ الطفـل الـذي كان يراقـص الكلـمات، ونظرتَـه السّـاخرة التـي تسـتطيع أنْ تـرى فيـما وراء كلّ بهْـرَجٍ زائـف، وغضبَـه كذلـك. لكنّنـي كنـت مخطئـاً. فليـون لم يعرفـه. ومـا كانَ لأحـدٍ أنْ يعرفـه. وحدهـا الـكلاب عرفـت مـن يكـون، وميـزّت رائحتـه، كـما لـو أنّهـا خرجـت مـن أوْكار الأرض وأخـذت تركـض مُقتفيـةً أثـراً خفيّـاً، كـي تعذّبـه كلّ يـوم بنباحهـا.

في التّاسـع مـن مايـو فجـراً، اسـتيقظ ليـون عـلى هديـر الآلات. سـار حافيـاً عـبرْ سـطح السـفينة إلى الـبرجِ الخلفـيّ كـي يشـاهد سـاحل شـبه الجزيـرة العربيّـة الـذي كان ينسـاب وئيـداً في الظّـل. ولا بـدّ أنّ جـاك قـد سـبقه إلى هنـاك، متكئـاً عـلى الدّرابزيـن، وعـلى نظّارتـه أثـرٌ مـن غبـش اللّيـل، فوقفـا يشـاهدان معـاً الصّخـرة الآخـذة بالابتعـاد، وقمّـة التواهـي السـوداء حيـث مصبـاح الزّيـت يلمـع بعـدُ في الضُّـوّة.

كانـتْ طيـورُ بحـرٍ ضخمـةٌ تتبـع مَخْـر السّـفينة محلّقـةً في كسـلٍ ومطلقـةً صرخاتِهـا الكئيبـة، والنهـار يسـكب ضـوءه عـلى الصّحـراء والبحـر، بقعـةً حمـراء هائلـةً فـوق فوهـة الـبركان. هـل كانـا يفكّـران في تلـك اللّحظـة بالرجـل ذي النّظـرة الثّابتـة المُحرقـةِ مـن الأرق، الـذي تـركاه في غرفتـه بالمشـفى، ولا بـدّ أنّـه سـمع مـن بعيـدٍ دويّ صافـرة لافـا؟ أقبلَـت سـوزان أخـيراً، مرتديـةً برنـس الحـمّام اليابـانيَ، واندسّـت بينهـما، لافّـةً ذراعَيهـا

حولهـا، فنسـيا كلّ شيءٍ لمّـا أحسّـا بـدفء جسـدها المحتفـظ بعـدُ بحـرارة النّـوم.

وفي اللّحظـة التـي خرجـت فيهـا لافـا مـن المرفـأ، لاح طيـفٌ باخـرة الأمـازون ببرجِهـا ومدخنتَيهـا العاليتَـين، خُرافيّـاً عجيبـاً يخـترق الأفـق.




الكرنتينة

27 مايو [1891]

تقـع جزيـرة بـلات عـلى خـطّ عـرض 19° 52' جنوبـاً وخـطّ طـول 57° 39' شرقـاً. وتمتـدّ 20 ميـلاً شـمال رأس مالـورو. وهـي جزيـرةٌ شـبه دائريّـة مثـل جزيـرة موريشـيوس وإنْ كانـت أصغـر مسـاحةً. وخلافـاً لمـا قـد يوحـي بـه اسـمها[1]، فـإنّ طرفهـا الجنـوبيّ الغـربيّ يتكـوّن مـن فوّهـةٍ بركانيّـة مزدوجـةٍ انهـارت حوافهـا مـن ناحيـة البحـر. وكانـت هـذه الجزيـرة المُنبثقـة مـن الثـورة البركانيّـة الهائلـة التـي رفعـت قـاع المحيـط قبـل عشرةِ ملايـين مـن السـنين، متصّلـةً مـن قبـلُ بموريشـيوس عـبرَ بـرزخٍ غـرق شـيئاً فشـيئاً في المحيـط. تحاذيهـا مـن الجنـوب الشرقـيّ جزيـرةٌ صغـيرةٌ قاحلـة تُسـمّى غابريـال. وعـن أقـصى نقطـةٍ في طرفهـا الشرقـيّ تنشـقُّ صخـرةٌ بازلتيـةٌ هَرميّـة الشّـكل، تتّخذهـا الطّيـور البحريّـة ملجـأً لهـا، تُسـمّى صخـرة بيجِـن هـاوس. وهنالـك جـزرٌ أخـرى تتناثـر في عـرض المحيـط، شـاهدةً عـلى مـا كان في القِـدم رصيفـاً قاريّـاً: جزيـرة رونـد، وجزيـرة أوسـيربَان، ثـمّ جزيـرة غانـرز كويـن (كـوان دو مـير) قـربَ سـواحل موريشـيوس.

وصلنـا إلى جزيـرة بـلات عنـد التاسـعة صباحـاً وسْط بحـرٍ عـالي المـوج. كان لودالـوزي، وهـو مركـبٌ شراعـيّ قديـمٌ حُـوِّل إلى سـفينةٍ بخاريّـة ترفـع علـم البحريّـة البريطانيّـة، قـد أقلّنـا عنـد الفجـر مـن مرفـأ بـور لويـس،

(1) كلمة Plate تعني بالفرنسيّة مسطّحة أو منبسطة.

عـن طريـق معـبرٍ متّصـلٍ مبـاشرةً بالطّابـق السـفليّ مـن السّـفينة لافـا. وعنـد الظّهـيرة، رسـا المركـب الشراعـيّ جنـوبَ شرقِ جزيـرة بـلات، لكـنّ الرّيـاح القويّـة والأمـواج أجبرتنـا عـلى الانتظـار حتّـى وقـتٍ متأخّـر مـن بعـد الظّهر. ثـمّ أُنـزل أخـيراً زورقـان في البحـر لنقـلِ الـرّكاب. وكادا ينقلبـان عـدّة مـرات، فتشـبّث الـرّكاب بالرافعـات. نظـر جـاك وسـوزان بقلـقٍ إلى الجزيـرة التـي توقّفنـا أمامهـا، حيـث جـدارُ الـبركان المعتـم، والأجمـات التـي تغطّـي المنحـدرات، وألـواح خليـج باليسـاد البازلتيّـة الكبـيرة التـي تتكسّر عليهـا الأمـواج مزمْجـرةً كالإعصـار. لم نـرَ أيّ علامـةٍ عـلى وجـود حيـاة عـلى الجزيرة، إلّا مـرورَ طائـرِ نـورسٍ مدفوعـاً مـع الرّيـح بـين الحـين والحـين، ولا يلبـث أنْ يختفـيَ مطلقـاً صرختـه. احتشـد الـرّكاب عـلى سـطح المركـب الشراعـيّ حول الرّافعـات. كان عـددٌ قليـلٌ مـن الأوروبّيـين مـن رجـالٍ ونسـاءٍ يتلفّعـون بطّانيّاتهـم، ويحتمـون مـن هبـوب المطـر تحـت مظلّاتهـم السـوداء. وعـلى متـن المركـب، عرفـتُ مـن بينهـم السـيّد ميتكالـف وزوجتـه، ورجـلَ الأعـمال فـيران، وأطيـافَ شـخصيّاتٍ أخـرى لم أتبيّنهـا. أمّـا باقـي الـرّكاب فكانـوا مـن المهاجريـن الهنـود الذيـن وصلـوا إلى زِنجبـار، وكان معظمهـم عابريـن قادمـين مـن الهنـد. وكانـت هبّـاتٌ مـن أصـواتٍ ونـداءاتٍ وبـكاء أطفـال تتناهـى بـين الحـين والحـين مـن عنـبر المركـب الشراعـيّ. وفي ظـلّ تلـك السّـماء الخفيضـة المدلهِمّـة، والمطـرِ المتسـاقط أفقيـاً، والأمـواج التـي تجـري في البحـر الأخـضر مُذيَّلـةً بالزّبـد، بـدا المشـهد وكأنّـه واقعـة غـرق سـفينة.

نظـرتُ إلى جاك بجواري، شـديدَ الشـحوبَ والنّحولِ، ملتصقاً بسـوزان. بـدا كلاهمـا مفتونـاً بمنظـر الجزيـرة الدّاكنـةِ المصحوبـةِ بجزيرتهـا الصغـيرة، لكأنّهـا أنثـى حيـوان بحـريّ عمـلاقٍ جنحـت بهـا العاصفةُ مـع صغيرها.

تنامى في تلك اللّحظةِ الشعور بقربِ الكارثةِ. كانت الرّيح التي تصطدم بجدار البركان تزوبع في الخليج مقتلعةً الزّبد من الأمواج المندفعة في الاتجاه المعاكس، فيما الغيوم السود تعبر بسرعةٍ فائقةٍ نحو الجنوب، فبدا وكأنّ الأرض كلّها تميل إلى الأمام. كان الزّورقان قد عادا من الشاطئ بعد أن أنزلا أوّل المهاجرين. فقد ثُبِّت حبلٌ على الشاطئ بعمودٍ ورُبطَ بزورقٍ إنقاذٍ ومُدَّ حتّى سطح المركب الشراعيّ. ولم يسعفني الوقتُ حتّى لأتساءل عن جدوى هذا الإجراء، إذ سرعان ما نقل مكّوكٌ مرفوعٌ على بَكَرةٍ حمولتَه الأولى فوق الأمواج إلى الشّاطئ.

والغريب أنّ مشهد هذا الحبل الممتدّ بين السّفينة والجزيرة بدا مطمئناً للمسافرين، وكانوا في تلك اللّحظة يتزاحمون حول الباب للوصول إلى المنصّة التي ستُنزِلهم إلى الزّورقَين. النساء والأطفال أوّلاً، ثمّ الرجال. اختلط مسافرو الدّرجة الأولى بالمهاجرين، وفي خضمّ العاصفة لم يعد بإمكان المرء تمييز الأجناس ولا الامتيازات. ولا بدّ أنّ الجميع قد تركوا جُلّ أمتعتهم على متن السّفينة لافا، إذ لم يتوقّعوا أنْ يمكثوا هنا أكثر من بضعة أيام. حتّى إنّ السيّد آلار، أمام قلق الرّكاب، قد تحدّث- دون أنْ يرفع صوته- عن بضع ساعاتٍ من الحجر الصحيّ في جزيرة بلات قبل الإعداد لنقلهم إلى لابوانت أو كانونييه في موريشيوس. ومع ذلك، فقد حمل قلّةٌ منهم مستلزماتهم، فأخذ السيّد ميتكالف وزوجته حقيبتَيهما الجلديتَين المحتويتَين على أدوات عملهما بصفتهما عالمَي نباتيّات، والمهاجرون صررَ ملابسهم الكتّان وأكياس مؤنهم.

بدأ الزّورقان حركتهما المكوكيّة بين المركب الشراعيّ والساحل. واضطّر المهاجرون الذين قرّروا أخذ جميع ممتلكاتهم إلى بلات خوفاً من

السّرقـة إلى العـدول عـن قرارهـم لمّـا رأوا المخاطـر التـي تنتظرهـم، إذ كان علـى الزّورقـين أنْ يبقيـا عـلى بعـدِ عـشرة أمتـارٍ عـلى الأقـلّ مـن الشـاطئ، كيـلا ينقلبـا بفعـل الأمـواج المتلاطمـة، فوجـبَ عـلى الـرّكاب أنْ يقفـزوا في البحـر بـين هاويتَـين ويتسـلّقوا الحبـل المكوكـيّ حتّـى البلاطـات البازلتيّـة. وكادَ بعـض المهاجريـن أن يهلكـوا غرقـاً وهـم يتشـبّثون بصررهـم، فـكان عـلى أحـد البحّـارة أنْ ينزعهـم بالقـوّة عـن أمتعتهـم حـينَ رأى الأمـواج تجرّهـم إلى عـرض البحـر.

وسرعـان مـا صـار معظـم الـرّكاب عـلى اليابسـة. كان جـاك وسـوزان آخـر الواصلـين. وكان جـاك يحمـل حقيبتـه الطبيّـة وحقيبـة سـوزان، أمّـا أنـا فلـم أكـن أحمـل سـوى كـرّاسٍ وقلـم الرصـاص الـذي ورثتـه عـن إلياسـان، وديـوان لونغفيلـو الـذي عهِـدت سـوزان بـه إليّ. غمرَنـا المطـرُ وعجـاجُ البحـر، والتصقَـت ملابسـنا بجلودنـا كأنّهـا مـلاءاتٌ مبلّلـة. لكنّنـا لمّا سـبحنا مـع الأمـواج إلى الشـاطئ، بـدا لنـا البحـرُ لطيفـاً دافئـاً، ودفعتنـا موجـةٌ قويّةٌ إلى الرّصيـف البازلتـيّ. فتذكّرنـا في تلـك اللّحظـة البحـرَ في هاسـتينغز حيـث استـحمَمنا الصّيـف المـاضي.

أضـاءت فسـحةٌ مـن الشـمسِ بـينَ الغيـوم خليـج باليسـاد فجـأة. كان هائـلاً مأسـاويّاً، ملتفّـاً حـول سـفح الـبركان، تحـدّه نباتـاتٌ خـضراء داكنـةٌ تحميـه مـن الرّيـح. وكان رجـالٌ يتقدّمـون مـن عمـق الخليـج، هنـودٌ كانـوا قـد سـكنوا الجزيـرة مـن قبـل. ربّـما كانـوا يراقبـون مشـهد نـزول الـرّكاب، محتمـين مـن المطـر بسـعف النّخيـل. ظلّـوا في منتصـف الطريـق، فيـما كان المســافرون الذيــن اجتــازوا المحنــة حــالاً يســيرون في اتّجاههــم. كانــت سـوزان تقـف سـاكنةً عـلى الشـاطئ قبالـة البحـر، تراقـب طيـف السـفينة

الشراعيّة وهو يمضي بعيداً، ومدخنتُه تنفث سحابةً من الدخان وسْط العواصف. وضع جاك ذراعه حول كتفيها: «تعاليْ، دعينا لا نبقى هنا». تبعَتْه على مضَض، وثوبُها الطويل المبتلّ بمياه البحر ملتصقٌ بساقَيها وصدرها، وكان وجهها متوتّراً من الانفعال. فقد انتظَرَت طويلاً هذه الرّحلة، وعودةَ جاك إلى موريشيوس، إلى منزل آنّا، ولم تتخيّل أنّ هنالَك ما هو أسوأ من هذا الانتظار: جنوح السفينة هذا على جزيرة صغيرة ضربتها الرّياح والأمطار. كانت ترتجف. «تعاليْ، دعينا نلتجئ إلى الدّاخل». اتّكأت علينا وسرنا نحو قرية العمّال[1].

وجد معظم المسافرين ملاذاً في كوخٍ كبيرٍ مسقوفٍ بسعف النّخيل أعلى الخليج، قريباً من المزارع. وعلى مبعدةٍ، كان هنالك صفٌّ من بيوتٍ أخرى على طول شارع مركزيّ. وكانت أعمدة دخانٍ تتصاعد من فوق أسطحها. وعلى الشاطئ انهمكَ المهاجرون في نقلِ المؤن الغذائية التي أُنزلت خلال عمليّة العبور المكوكيّة، وحِفْظِ الصّرر والحقائب تحت سقفٍ من ورق الشجر. حملَت الأمواج براميل النّفط إلى الرّصيف البازلتي، ثمّ دفعها الهنود إلى الشاطئ. وقد تمّت العمليّة بأكملها تحت إشراف رجلٍ غريب، طويل القامة نحيل، يرتدي عباءةً طويلة ويعتمر عمامةً لونها أزرق شاحب، متكئٍ على عصاً أطول منه. كانت هذه هي المرّة الأولى التي أرى فيها السّردار الشّيخ حسين. وقد جرت عمليّة إنزال الركّاب بقدرٍ من الصّرامةِ أثار ارتيابي. إذ لم يكن المقصود التوقّف لبضع ساعات، مثلما أوحى لنا السيّد آلار، بل الإعداد لإقامةٍ لا يمكن لأحدٍ أنْ يتنبّأ بنهايتها.

(1) كتب المؤلّف: Coolies، وهي كلمةٌ من أصلٍ صينيّ، وتسميةٌ كانت تُطلَقُ في القرن التّاسع عشر على العمّال الصينيّين والهنود الذين كانوا يُجلَبون للعمل في المستعمرات الأوروبيّة.

لن أنسى ما حييت خطواتنا الأولى على جزيرة بلات، ونحن نجتازُ خليج باليساد نحو مخيّم العمّال الآسيويّين. أقبل اللّيل، وقد عجّلت حلولَه الغيومُ التي حجبت آخر خيوطِ الشمس. يقع خليج باليساد في مواجهة الغرب، فكان في وسعي أنْ أرى السّماء متوهّجةً بين شقوق الغيم، والبحرَ بلونِ الحمم الملتهبةِ، متلألئاً هادراً. همس جاك قائلاً: «إنّه مشهد نهاية العالم».

كان المهاجرون قد وصلوا إلى القرية واستقرّوا في الأكواخ. جاء السّردار لمقابلتنا. وكان برفقته مُسنّ هنديّ اسمه ماري. تظاهر السّردار بأنّه لا يتحدّث إلّا الإنجليزيّة (على الأقلّ هذا ما قاله جوليوس فيران على انفراد) وأوضح لنا عبرَ ماري أنّ الوقتَ قد تأخّر، فلن نستطيع الاستقرار في الحيّ الأوروبّي من الكرنتينة، على الطرف الآخر من الجزيرة. وأرانا الكوخ الذي يُفترَض أن نقضيَ فيه اللّيل، كوخاً خشبياً بسيطاً على حافة مخيّم العمّال. تتألف قرية العمّال من اثني عشر كوخاً مشتركاً، يفصل بينها شارع رمليّ، ويبعد كلّ منها عن الآخر ما يقارب ثلاثة أمتار. يسكن الأزواج والنساء الوحيدات الأكواخ الأولى. أمّا الرجال العزّاب فيشغلون الأكواخ الواقعة في نهاية القرية.

وفيما وراء ذلك، صوب الطّرف الآخر من الخليج، تبدأ مساكن المنبوذين.

كنا مُنهكين. ارتمى جاك وسوزان على الأرض، وأسندا رأسيهما إلى حقائبهما المبلّلة بمياه البحر، من دون حتّى أنْ يتكلّفا عناء تجفيف محتوياتها. جلبَ المسنّ ماري الطعام. ورفض معظم الرّكاب تناول

الأرزّ المجفّف الممزوج بمرق السّمك. أمّا أنا، فقد أكلت بشهيّة.

وعلى الرغم من استمرار العاصفة، فقد كان الهواء في كوخنا خانقاً وثقيلاً ورطباً، كما في عنبر سفينة. ترك الشيخ ماري قبل مغادرته مصباح زيتٍ شقَّ ضوؤه العتمة، وأنار وجوه من هم في الكوخ على نحوٍ بديع. دخلنا الكوخ فإذا برجلٍ مستلقٍ على حصيرته، عدّل قليلاً جلسته متكئاً على مرفقَيه، وقد أضاء فانوسُ الزّيت وجهه الهزيل وعينَيه البرّاقتين. ولربّما تحدّث بصوت أجشّ عذبٍ بلغته ليسألني سؤالاً. ثمّ استلقى ثانيةً.

تناوبنا طيلة اللّيل على حراسة الحقائب. فقد خشي جاك أن تُسرق أدواته. وكان علينا مرافقة سوزان إلى المراحيض، في أعلى المخيّم. وهي كوخٌ خشبيٌّ طويلٌ حُفِرتْ في أرضه حفرٌ بسيطة، تنبعث منها رائحةٌ قاتلة، فقرّرنا أنّ الحقولَ المجاورة ستكون أنسب لنا.

انتصفَ اللّيل، فتوقّفت الرّيح واشتدّ الحرّ حتّى أنّ النّوم جافانا. أصيب جاك بعياءٍ جرّاء استنشاقه الرائحة المنبعثة من الأرض والجدران، ورائحة السّخام. فحملْنا الأكياس إلى الباب كي ننام في مجرى الهواء، دون أنْ نصدر أيّة ضجّة (فسلطة السّردار قد أثقلت علينا سلفاً) وفي لحظاتٍ ما، بلّلتنا زخاتٌ من المطر، لكنّها كانت منعشة. ثمّ إنّ الرّياح تكفّلت بصدّ البعوض الذي كان قد بدأ يلسعنا في قلب الكوخ. نمنا هناك، متلاصقين ثلاثتَنا تحت شال سوزان الكبير الذي اتّخذناه ملاءةً، مصغينَ إلى حفيف الرّيح في الأجمة وهدير الأمواج المتواصل على شاطئ البازلت.

وقبل أن أغفو، رأيت طيف جاك في وهج المصباح الخافت المعلّق قرب الباب، كان متكئاً على حقيبته، مولياً وجهه إلى الخارج،

كأنّـه يحـاول أنْ يـرى السـماء. وسـمعتُ الكلـمات التـي قالهـا لسـوزان، كمـن يهدهـد طفلـةً، كلـماتٍ عبثيّـة: «غـداً سـترين، سـيأتون لاصطحابنـا، سـيحملنا القـارب إلى موريشـيوس ونكـون في عزبـة آنّـا مـع حلـول اللّيـل». ربّـما كان يحلـمُ بصـوتٍ عـالٍ. لكـنّ سـوزان لم تُجِـب.

يوميّات عالِم النّبات

صبيحة 28 مايو

خـروجٌ مبكّـرٌ لتفـادي الحَـرّ. أرضٌ قاحلـةٌ وحصويّـةٌ حـول الكرنتينـة، أنـواع مختلفـة مـن العكـرش[1]، كلّهـا واطنـةٌ، مـن فصيلـة النجيليّـات: بعـض أنـواعٍ مـن الثّـمام الكبـير[2] وعِـرق النّجيـل (الثّيـل)، وكلاهمـا يصلـح علَفـاً.

الأرجـون (الخشـخاش الشّـائك). ونبـاتٌ شـوكيٌّ صادفـتُ أنواعـاً منـه في جزيـرة ماهيـه: الخبّـازة (البنفسـجيّة) التي يسـمّيها السّـود عشـب المكنسـة. وسـيدا رومبيفوليـا، وهـي نوع من عشـب المكنسـة أيضـاً، ولكن بلا أشـواك.

يبـدو هـذا الجانـب مـن الجزيـرة، في أغلبـه، موطنـاً لعشـبة زويسـيا الراتنجيّـة، وهـي ذات جـذعٍ قـويّ وأوراقٍ حـادّة الحـوافّ. تسـود في هـذا الجانـب تربـةٌ فقـيرةٌ ورمـالٌ بركانيّـة وحجـرٌ جـيريّ.

في أقـصى نقطـة في الشـمال، قطفـتُ أنواعـاً مـن عشـبة حشيشـة اللّيمـون، وإذخـر مكّـة ذي الرّائحـة النفّـاذة. جمعـتُ حزمـةً كاملـةً مـزوّدة بجُذَيراتهـا لعلمـي بالفائـدة التـي يمكـن أنْ نسـتخلصها منهـا.

---

(1) عشبةٌ ضارّة من فصيلة النجيليّات.

(2) تَذكُر هذه اليوميّات النباتات بأسمائها العلميّة اللّاتينية إضافةً إلى أسمائها الشائعة. وقد اكتفينا في الترجمة العربيّة بالأسماء الشائعة كيلا نثقل النصّ.

كلّ شيءٍ بديعٌ في جزيرة بلات: السّماء والبحر والبركان وتشكّلاتُ الحمم البركانيّة ومياه البحيرة السّاحليّة وطيف جزيرة غابريال الصغيرة. ليست الجزيرة سوى قمّةٍ سوداء واحدةٍ منبثقةٍ من لمعان المحيط، صخرةٍ بسيطة تضربها الأمواج وتقضمها الرياح، طوفٍ عالق أمام خطّ موريشيوس الأخضر. ومع ذلك، فإنّني لم أرَ من قبل مكاناً على هذا القدر من الاتّساع والغموض، كما لو أنّ حدوده لم تكن تنتهي عند الشاطئ، بل تمتدّ، عندنا نحن الذين كنّا كالسّجناء، إلى ما وراء الأفقِ، لتبلغَ عالم الأحلام.

منذ صبيحة اليوم التّالي، مشينا عبر الجزيرة حتّى بلغْنا الأحياء المخصّصة للمسافرين الأوروبيّين، وكان يُطلق على مباني الكرنتينة بشيءٍ من التّفخيم أسماء المشفى، ومنزل المشرف، والمستودع، إلخ. وهي في مجملها نصفُ دزّينة من البيوت مبنيّةٌ من كتل الحمم البركانيّة المدعّمة بالأسمنت. ولمّا وصلنا، وجدنا مكان إقامةٍ لا يقل سوءاً عن أكواخ العمّال في باليساد: كان يخلو من أيّ أثاث، ومصدرُ الإنارةِ فيه ضوء شمعةٍ أو مصباح بونكا(1)، ومراحيضه بدائيّة غزت الأعشاب أرضيّتها. وكانت المياه الوحيدة المتاحة تأتي من صهريج متصدّع يعجُّ بالصراصير ويرقات البعوض. غيرَ أنّنا هنا نحظى على الأقلّ بالتعرّض للهواء، وبعزلةِ السّاحل الشرقيّ، وهو ما بدا لي ولجاك، بعد اللّيلة الخانقة في باليساد، رفاهيّةً فائقة. كنا ستّةً في المأوى الرئيسيّ. فإلى جانبنا نحن الثلاثة، أنا وجاك وسوزان، كان هناك الزّوجان ميتكالف، وهما

(1) كلمةٌ هنديّة تُطلق على نوعٍ من المراوح والمصابيح المصنوعة من سعف النخيل أو شرائح الخيزران أو الرّتان المجدولة، وتعلّق في السقوف أو على الحيطان. وقد شاع استخدامها في الهند أيّام الاستعمار البريطانيّ.

أستاذان في كليّة مجدّدي العماد في بو باسان، ومفتّشُ بريدٍ سابقٌ يُدعى بارتولي، وجوليوس فيران العصيّ على الوصف. وكان رجلان قد أُنزلا قبلنا ونُقلا مباشرةً إلى مبنى المستوصف بالقرب من رصيف الميناء، قَبالة جزيرة غابريال. إنّهما أحد المسافرين، السيّد تورنوا، ورجلٌ من أفراد طاقم السفينة يدعى نيكولا، وكلاهما حُمِل من زنجبار على نحوٍ غير شرعيّ، وكانا في حالةٍ صحّيةٍ متردّية حتّى أنّ السلطات الصّحية رفضت منح القائد بوالو الإذن بإنزالهما من المركب في بور لويس. وقد أخبرني جاك الذي رأى البحّار نيكولا عن قرب، أنّه كان يعاني من أعراض الجدري المتكدّس جميعها.

أمّا جوليوس فيران فهو النّوع السيّئ بعيْنه من رفقاء السفر، ذلك الذي يتحاشاه المرء. كنت أصادفه كلّ يومٍ على ظهر السّفينة لافا منذ مغادرتنا مرسيليا. وهو رجلٌ في الخمسينَ من عمره، وسيمٌ مزهوٌّ بنفسه إلى حدّ ما، ذو شاربٍ كثٍّ وشَعرٍ أسود قصير، له هيئة ضابط صفٍّ في الحرس الوطنيّ، أو سائسِ خيول. انتشرت سمعته السيّئة على القارب وأضفَت عليه طابعاً كاريكاتورياً، فهو مقامرٌ وزير نساء، متعجرفٌ ومحتال، ويبدو أنّه كان يتعجّل مغادرة فرنسا ليتابع بعض الصّفقات التجاريّة الفاسدة. كان يدّعي أنّه تاجر، وأنّه في طريقه إلى بور لويس لينشئ فيها شركةً لاستيراد النّبيذ الفرنسيّ. وقد كَره جاك على الفور حبّه للمظاهر ولباقته المفرطة مع النّساء، وطريقته في تقبيل يد سوزان. ولقّبه بالسيّد فيران دو فيرو[1] (فيران الفاسد). وقد قضتْ صلتُه ببارتولي- الرّجل الذي يُشتبَه بأنّه جاسوس البريد

(1) Véreux: تعني الشخص الفاسد أو المريب. وتعني أيضاً الثمرة التي أفسدها الدّود.

الـذي أبلـغ السّـلطات البريطانيّـة عـن توقّفنـا في زنجبـار- عـلى أيّ فرصـةٍ لاسـتلطافه.

ليلـةَ أمـس، وفيـما كان جـاك يحـاول طمأنـة سـوزان، سـمعتُ فـيران الفاسـد يضحـك سـاخراً. ولّمـا رآني أراقبـه، هـزّ كتفَيـه وذهـب للاسـتلقاء في عمـق الكـوخ، فتبـدّى وجهـه الأبيـض الـذي خطّـه الشّـارب، في ضـوء مصبـاح البونـكا، خاليـاً مـن أيّ تعبـير، لكـنّ عينَيـه الكثـيرتَي الحركـة كانتـا تبرقـان بنظـرةٍ شرّيـرة. بقيـتُ مسـتيقظاً بعـضَ الوقـتِ أراقبـه. ثـمّ شـعرتُ باهتـزازٍ متواصـلٍ في الأرض لم أسـتطع تحديـد مصـدره، بطـيءٍ وعميـقٍ حينـاً، وحـادٍّ يخـترق أذني حينـاً آخـر. سـألتُ جـاك: «أتسـمع؟». رفـعَ رأسـه محـاولاً تبـيُّنَ وجهـي في العتمـة. «هـذا الضجيـج! إنّـه أقـرب إلى «تـشي تـشي، أو بالأحـرى «تشـا تشـا..» فهـزّ كتفيَـه. ثـمّ داهمنـي النّعـاس مثـل تيّـارٍ عـاتٍ محـا كلّ النّظـرات وأخمـد كلّ ضوضـاء.

كان السـتّردار قـد أودع مخزونـاً مـن الأرزّ والأسـماك المجفّفـة والشـحوم والزيّـت والـكاز في مسـتودع الكرنتينـة. وقـد وَعَدَنـا باسـتقدام طـاهٍ في المسـاء، لكـنّ الطّقـس السـيّئ استمرّ طـوال اليـوم ولم يحـضر أحـدٌ. أعطانـا مـاري، المسـنُّ الهنـديّ السـاكن جـوار المسـتوصف، ذو الوجـه الـذي نقّـره الجـدري والنظـرةِ الأشـبه بنظـرةِ ضريـر، قِدرَيـن شـديدتيّ السـواد، وكان علينـا أن نتعلّـم كيـف نتدبّـر أمرنـا، فأوكِلـتْ إليّ مهمّـة جمـع الحَطـب مـن الأجمـات المحيطـة بالكرنتينـة، واسـتخدمنا إحـدى القِدرَيـن لطهـي الأرزّ والسـمك، والأخـرى لغـلي مـاء الصهريـج الملـوّث. فقـد قرّرنـا الاسـتغناء عـن المسـاعدة التـي وعدَنـا بهـا السـتّردار.

أعـدّ جـون وسـارة ميتكالـف كلَّ شيءٍ بحماسـة البروتسـتانت، فنظّفـا البيـت، وكَنسـا، واقتلعـا الأعشـاب الضـارة، وركّبـا مصراعـاً عـلى النافـذة الوحيـدة وسـتارةً عـلى البـاب. ثـمّ قـرآ مقطعـاً مـن الكتـاب المقـدّس بـلا أيّـةِ طقـوسٍ احتفاليّـة، ذلـك أنّ يومنـا الأول عـلى الجزيـرة كان يـومَ سـبت. أمضيـتُ هـذا اليـوم في استكشـاف المناطـق المحيطـة بالحجـر الصحـيّ برفقـةِ جـون، بحثـاً عـن التّـوت الـبريّ والنباتـات الصّالحـة لـلأكل. جـون ميتكالـف مشـغوفٌ بعلـم النّبـات. وقـد جلـب معـه، في حقيبتـه، كلّ معدّاتـه: قـارورات الفورمالـين وملاقـط ومقصّـات، ومفكّـرةً كبـيرةً لا تفارقـه أبـداً، حيـث يـدوّن اكتشـافاته. ذهبنـا مـع جـاك وسـوزان لجلـب المـاء مـن الصّهريـج في دلاءٍ صُنعـت كيفـما اتّفـق مـن علـب صفيـحٍ أبيـض، يخترقهـا غصـنٌ يـؤدّي عمـلَ المقبـض.

ثـمّ مضَيْنـا بعـد الظهـيرة إلى الشـاطئ، رغـم هطـول المطـر، كـي نترقّـبَ عـودة المركـب الشراعـيّ. كانـت ميـاه البحـر هائجـةً مُخضرّة، تعبرهـا أمـواجٌ أشـدّ عنفـاً مـن تلـك التـي صادفناهـا عنـد وصولنـا. وكانـت الريـاح ترشّـنا بعجـاج البحـر مـن فـوق البحـيرة. وبـدت الغيـوم كأنّهـا تنبعـث مـن الأفـق مثـل دخـان حريـقٍ عمـلاق. ثـمّ اجتاحنـا المطـر ممتزجـاً بميـاه البحـر في دفقـاتٍ جليديّـة، فعدنـا أدراجنـا إلى الكرنتينـة، مرتعشـين مـن الـبرد. حاولـتُ أنْ أشـعل نـاراً، لكـنّ الرّيـاح دفعـت الدخـان إلى داخـل المنـزل فكدنـا نختنـق بـه، فتحسّرتُ عـلى حـرّ الكـوخ حيـث قضينـا ليلتنـا الأولى في قريـة العـمّال.

لم تكـن قـد مضـت سـوى سـاعاتٍ قليلـةٍ عـلى نزولنـا جزيـرةَ بـلات، لكنّهـا بـدت لي أيّامـاً، لا بـل أسـابيع. كانـت سـاعاتٍ طويلـةً جـدّاً، كلّ

لحظـة فيهـا تختلـف عـن الأخـرى، وقـد أمضيناهـا مضطّربـين بحثـاً عـن مـكان نسـتقرّ فيـه، كأنّنـا لا نـزال في خضـمّ العواصـف والأمطـار. سـاعات مـن الصّمـت في انتظـار صـوت صافـرة المركـب الشراعـيّ الـذي سـيعلن لحظـةَ اندفاعنـا نحـو خليـج باليسـاد كـي نسـتعدّ للرّحيـل إلى موريشـيوس. صحـا الجـوّ قليـلاً في نهايـة النّهـار، فركضـتُ إلى أقـصى نقطـةٍ في الجنـوب آخـر الشـاطئ، لأشـاهد خـطّ موريشـيوس الـذي لاح لثانيـةٍ مـا بـين الغيـوم، شريطـاً أبيـض عـلى طـول الشّـعاب المرجانيّـة، ولألمـح كذلـك طيْـف الجبـال العاليـة. ثـمّ أطبـقَ كلّ شيء مـن جديـد وحـلّ اللّيـل.

وعـلى مـرّ الأيـام القليلـة التاليـة، فقـدْتُ الاهتـمام تدريجيّاً بخـط الأفـق. كنـت في الصّبـاح، بعـد أن أشرب قدحـاً مـن الشـاي المـرّ المُسـخّن عـلى الموْقـد، أسـلك درب الشـاطئ، وأسـير جنوبـاً في اتّجـاه الـبركان. ليـسَ الطريـق سـالكاً بـما يكفـي، وأغلـب الظّـن أنّـه مهجـورٌ منـذ أعـوام، ويضيع أثـره في بعـض المواضـع في الغابـة، فيكـون عليـك أن تقفـز مـن صخـرةٍ إلى أخـرى محـاصراً بـين الشّـجيرات الشّـائكة مـن جانـب، والأمـواج المتكسّرة عـلى البازلـت مـن الجانـب الآخـر. فـإذا مـا ازدادت وعـورةُ الصخـور، مضيـتُ أفتّـشَ عـن ممـرّ لي بـين الحشـائش الحـادّة كالسـكين.

بـدّدَت الرّيـح الغيـمَ، وللمـرّة الأولى أرى الشّـمس تتوهّـجُ في حفـرةٍ مـن السّـماء الشـديدة الزّرقـة. فتذكّـرتُ كـم كنـت أتـوق إلى هـذا، إلى الشّـمس والبحـر، أثنـاء شـتاءات رويْ ماليـزون، هنالـك حيـث كانـت النوافـذ في قاعـةِ النـزل المشـتركةِ مقسّـمةً إلى مسـتطيلاتٍ رماديّـةٍ خدّشـتها غصـون أشـجار الكسـتناء المتيبّسـة.

وتذكّرتُ كيف سمعت البحر ذات مساءٍ. حدث ذلك بُعيدَ وفاة أبي. كان هدير البحر صاخباً ملموساً حتّى أنّه أيقظني. عبرت المهجع بقميصي فقط، ومشيت حافياً على الحجَر البارد. علا الهدير في داخلي، واشتدّ صخبُه حتّى أنّني وضعت يدَيّ على أذنَيّ. ربّما كنت أخشى أن يتلاشى الهدير فيتركني وحيداً في عنبر النوم، مثل نَفَسٍ توقّف فجأةً. مشيت إلى الباب، وضغطت على يد المقبض ببطءٍ شديدٍ، مغمضاً عينَيّ لأصيخ السّمع. انفتح الباب على زوبعةٍ باردة، خليطٍ من عزيف الرّيح وهدير البحر وصرخات الطيور، ووقفت بلا حراكٍ في مجرى الهواء أمام الفناء المتجمّد، فإذا بصبيّ يقبل نحوي، ويشدّني إلى الوراء. اسمه فليشو، أتذكّر وجهه ونظرته المذعورة. قال: «ماذا تفعل؟ ماذا دهاك؟» فيما أنا أردّد قائلاً: «أصْغ، أصْغ!» أغلَقَ فليشو الباب، وفجأةً توقّف الصخب، وغاب زمناً طويلاً، إلى تلك اللّيلة التي كان جاك وسوزان يستلقيان فيها أمام الكوخ في باليساد.

لون البحر عند سفح البركان أزرق غامق، مثلما هو في أعالي البحار، زرقةً تصيبك بالدّوار. وهذا هو المكان الذي أُحبّ أن آتيَ إليه كلّ صباح عند الفجر، لكي أجلسَ وأتأمّل البحر، متذرّعاً أمام سوزان بأنّني أراقب وصول قارب العبور. وفي الواقع فإنّني لا آتي إلى هنا إلّا لكي أتأمّل، وأصغيَ إلى الهدير الذي أيقظني حين كنت في الثالثة عشرة من عمري، بُعيد وفاة أبي.

تحلّقُ الطيور البحريّة على طول القناة التي تفصل جزيرة بلات عن ابنتها جزيرة غابريال. وتصبُّ مياه البحيرة المتشكّلةِ بينهما في البحر، متّبعة

حركة المدّ والجزر، أو بالعكس من ذلك، فإنّ أمواج البحر تدفع إليها الماء عبر الممرّ الضيّق. هنا كان أنْ رأيت للمرّة الأولى طيور رئيس البحر[1] تحلّقُ بمشقّةٍ ضدّ الريح، مجرجرةً خلفها راياتها الحمر.

عدت حينَ كانت الشّمس على وشك أنْ تلامس الأفق، والسماءُ مليئةً بالبقع الحمراء. أردت أنْ أصعد شاقّاً دربيَ بين الشّجيرات صوب المنارة كي أرى الطّرف الآخر من الجزيرة، حيث ساحل باليساد وقرية العمّال. ووصلتُ إلى شفَة البركان، ظمآنَ تحرّقني آخر خيوطِ الشّمس. كان البحر أشبه بحمم بركانيّةٍ هائلة متوهّجة. أجبرتني الرّياح القويّة على التشبّث بالحجارة، ومشيت على حافة البركان حتّى المنارة، وهي برجٌ صغيرٌ مبنيٌّ من كتل الحمم البركانيّة، طُليت بالجير قديماً، والجزءُ العلويّ شبهُ المنهار منها يحمل بقايا غرفة الإنارة، حيث يُفترضُ أنْ يُشعَلَ مصباح الكاز كلّ مساء. ولقد أتلفتْها الأعاصير، ولا يبدو أن أحداً قد جشّم نفسه عناء إصلاحها. فلا بدّ أنّ منارةَ لا بوانت أو كانونييه كافيةٌ لتحذير البحّارة من الأخطار في هذه المناطق. ولا أعرف لماذا أخذتُ أحلم منذ ذلك المساء بأن أُصلح الغرفة، وأعيدَ الضّوء إلى المنارة. ربّما رغبتُ فقط في أنْ أرى ضوءها من عمق بيت الكرنتينة، وأتهجّى شعاعها على صفحةِ الغيم.

واصلتُ السيرَ نحو الحافة الأخرى من فوّهة البركان، فألفيتُني مُطلّاً على خليج باليساد مباشرةً.

كنّا قد نزلنا إلى الجزيرة في مثل هذا الوقت تقريباً، وقد مضى على ذلك عدّة أيّام (ثلاثة، أو ربّما أربعة). وفيما أنا جالسٌ على حافة

(1) نوعٌ من الطيور البحريّة له ذيلٌ أحمرُ طويل، ينتمي إلى فصيلة الطيور الاستوائيّة.

الصّخرة البركانيّة، رأيت الجزيرة كما تبدّت لنا من متن قارب العبور في خضمّ العاصفة وعنف الأمواج: جرف البركان الأسود، والشريط الطويل من الأرض الذي تنمو أشجار جوز الهند على امتداده وصولاً إلى الطرف الشماليّ، مُنتهياً بصخرة بيجونيه (بيجن هاوس).

نظرتُ إلى الشّاطئ حيث وطِئت أقدامُنا، وإلى ألواح البازلت الكبيرة التي كانت الأمواج تتكّسر عليها. ثمّ عرّجت بنظري عالياً صوب رَحْبة الغابة حيث بلدة العمّال والدّرب الأبيض الطويل الذي يسلكه المهاجرون. ثمّ إلى الأعلى، ناحيةَ المراحيض والكوخ الذي قضينا فيه ليلتنا الأولى. أحسسنا آنذاك وكأنّنا قد وطئنا مخيّماً للنّاجين من غرق سفينة: بضعة أخصاصٍ من أوراق الشجر في زاوية جزيرة بريّة، حيث منبوذون بائسون ما زالوا على قيد الحياة. قال فيران: «لا تذهبوا إلى هناك، وإلّا عرّضتم أنفسكم للهجوم أو لسرقة أموالكم أو ساعات أيديكم أو حتّى ملابسكم». لاحت على وجهَي الزوجَين ميتكالف علامات الشّك، أمّا سوزان فالتصقت بجاك خوفاً، وبدت مباني الكرنتينة بِكُتلتها البازلتية الكبيرة وكُواها الضيّقة كأنّها حصونٌ بُنيَت لمقاومة هجمات الهنود. يختلف الجوّ في باليساد عمّا هو في الكرنتينة. فالرّيح في حمى البركان هادئةٌ، ولا يُسمع صوتٌ لعاصفة.

صرتُ، كلّما سنحت لي فرصةٌ، أذهب لأتأمّل قرية العمّال. وقد بدأتُ أراها بنظرةٍ مختلفة: الأكواخ كبيرةٌ ومتقنة البناء، سُقوفها من أوراق الشجر المجدولة التي لا بدّ أنّها تُخفحف مع الرّيح، وتصلح كغطاءٍ واقٍ من المطر والشمس. ثمّ هنالك تلك الحافة أعلى الأبواب الأماميّة حيث تستظلُّ النساء والأطفال عند الغسق، أيْ في مثل هذا

الوقت، فيثرثرون ويلهون. الشوارع نظيفةٌ ومستوية، تبيّضها الرّمال المرجانيّة. وقواعد أعمدة البيوت مبيّضة بالجير. ثمّة ستائر على كلّ نافذةٍ، وأزهارٌ على طول الجدران. في تلك اللّحظةِ، أعلنت صافرة السّردار نهاية نهار العمل، فعجّ الشارع بالناس أمام كلّ بيت؛ رجالٌ ونساء يتولّون الأعمال اليوميّة من كنسٍ وتنظيف، ومزيّنٌ يحلق لصبيٍّ صغيرٍ أمام أحد الأكواخ المخصّصةِ للعزّاب. ومن مكاني أستطيع أن أشتمّ رائحة الأدخنة المتصاعدة من المطابخ الخارجيّة، الطيّبةَ جدّاً والخفيفة، رائحة الخبز والكاري والبقدونس التي تنتشر في المحيط ولا تبدّدها العواصف. النساء بأثواب السّاري يتحلّقن حول النيران، فتبلغني أصواتهنّ وضحكاتهن، وأسمع أيضاً أصوات حيوانات، وصِبيةً يتصايحون، وديكاً يطلق صياحه الحادّ. وهذا كلّه بديعٌ مذهلٌ، ولا أطيق فراقه.

حلّ اللّيل، فأومَضت المصابيح من قلب البيوت، وصولاً إلى الطّرف الآخر من الخليج حيث قرية المنبوذين. وتناهت إليّ من بعيدٍ أصوات موسيقى وتراتيل وصلوات، وتهويدة. توهّجَت آخر النيران، وصعَدت رائحة خشب الصندل إلى كبد السماء. أتذكّر ما كان يقوله لي جاك عن الأمسيات الطويلة في المدينة[1]، بعد الانتهاء من قطع القصب، حيث الأغاني حول النار، ورقص الفتيات. أحسست أنّني كنت أحمل هذا كلّه في داخلي، وها أنا أخيراً قد عثرت عليه.

برفقة ل.، عمّقنا استكشافنا في السّاحل الغربيّ (قرب المقبرة القديمة).

---

(1) منطقةٌ في موريشيوس سُمّيت على اسم المدينة المنوّرة.

جمعتُ على الشاطئ عدّة عيّنات جميلةٍ من بلسم جزيرة بلات الشهير: الشّوزم، رؤوسٌ كبيرة وطويلة، 30–40 زهرة في كلّ رأس، خاصة الشوّزم البلسميّ المفضّل، وهو علاجٌ للحروق والالتهابات والجمرة الخبيثة واللّسعات واللّدغات السّامة، إلخ. أوراقٌ بيضاويّةٌ كثيرة العروق، هذا النّوع المنزوع الأعناق عمليّاً. مجموعةٌ متنوّعةٌ تستوطن في بوربون وسيشيل. ثمّة الكثير منها على هذا المنحدر، وقد عاينْتُ أكثر من ستّين نبتةً في غضون ساعاتٍ قليلة. أمّا نوع البلقاء الخماسيّة العروق، فلا وجود له على ما يبدو.

إيقـاع الحيـاة في باليســاد مضبــوطٌ عـلى صافـرةِ السّـردار. كنت قد نسـيت هـذا أيضـاً. كان جـاك يحدّثني دومـاً عن المدينـة. وقد وصـف لي ذات يوم، فيما مـضى، ذلـك الصّـوت البعيـد جـدّاً مثـل ضوضـاءٍ خافتة عنـد الفجـر. كانت تتسـلّل إليـه في غفوتـه كلّ صبـاح الصافـرةُ الصاخبـة التـي تنـادي العـمّال في الحقـول، فتبـدأ الحيـاة، ويبـدأ معها نبـاح الـكلاب، وتصايـح الأطفال.

ينطلـق النّـداء الأوّل قبـل الفجـر مـع انحسـار اللّيـل، فتئـنّ الرّيـح في أكـواخ باليسـاد المشـتركة المسـقوفة بسـعف النخيـل. وقـد اخترقـت آذانَنـا الصّافـرةُ منـذ صبـاحِ اليـوم الأوّل، صـوتٌ حـادّ، وضوضـاء بـاردةٌ وشرّيـرة تتصاعـد مدوّمـةً فتخـترق الأحشـاء وتصيبنـا بقشـعريرة. كانــت العتمــة مخيّمـةً بعـد، استيقظت سـوزان عـلى الضّجيـج فأمسـكها جـاك مـن ذراعها: «لا عليـكِ، إنّهـا إشـارة السّردار. الآن هـو وقـت اسـتيقاظ النسـاء». غـير أنّــه لم يقــلْ «الآن»، وإنّــما «هالسّــاعة» عــلى الطّريقــة الكريوليّــة[1]. لقــد عـادت إليـه الكلمـة مـن دون أنْ يعـيَ ذلـك.

انتظرْنـا في غبـش العتمـة. كانـت المصابيـح مطفـأة. ولم تمـضِ نصـف سـاعة حتّـى سـمعنا صافـرةً ثانيـةً لإيقـاظ الرجـال أطـول وأكثـر إلحاحـاً.

(1) كلمة كريوليّة (créole) تعني المولّدة. واللّغة الكريوليّة في موريشيوس هي لغة التواصل المشترك، وقد نشأت من خليط لغات تُشكلّ الفرنسيّةُ المحكيّة معظم مفرداته، لكنّه يحتوي أيضاً مفرادت من الإنجليزيّة والعديد من اللّغات الأفريقيّة والجنوب-آسيويّة التي كانت منتشرةً في تلك الجزيرة.

تمكّنا من النّهوض والذّهاب إلى الحقل الواقعِ خلف المراحيض المرعبة. كان صباحاً رمادياً ماطراً، شتائيّاً بحقّ.

على الطّرف الآخر من الجزيرة، حيث الكرنتينة، يمكنني سماع صافرة الفجر. لست معتاداً الأمر، ولا سوزان كذلك. وفي كلّ مرّة نسمعها نفزّ قائمَين، كما لو كانت تقصدنا نحن أيضاً. تعبر الصافرة الكئيبة التلّ والمزارع محمولةً مع الرّيح وممزوجةً بهدير المدّ، وتصل في الرّابعة والنصف، فيخفق قلبي، ويُهيّأ لي أنّي في باليساد أسمع بكاء الأطفال ووقعَ الأقدام الحافية على الدّرب، وأتنشّق رائحة النار التي يغلي فوقها الشاي المرّ، ورائحة الأرزّ المُسخّن العذبة. هنا على الطّرف الآخر من الجزيرة، حيث الكرنتينة، لا نعرف سوى البرد والوحدة، وصرخات طائر البلشون المخطّط في الغروب، وأحياناً صافرة السّردار، أو نداء المؤذّن الذي يبدو آتياً من عالم آخر.

كلَّ صباح، لحظةَ يغادر الرّجال إلى العمل، أكون في مكاني أعلى البركان. تنطلق طوابير العمّال، بعضهم إلى المزارع فوق القرية، وبعضهم إلى سفح البركان لملء أكياس الخيْش بما برز على السطح من عروق الطّلق، وآخرون يجلبون، تحت إشراف متعهّد العمّال، كتلاً بازلتيّةً لبناء سدّ باليساد الذي سيهدمه من جديدٍ الإعصار القادم. يخيّم صمتٌ طويلٌ على الجزيرة فيما يعمل المهاجرون، وإنّني لأحسد هؤلاء الرّجال على عزيمتهم الهادئة وصبرهم. وأمّا النساء فيخرجْنَ مرتدياتٍ أسمالاً خصّصنها للعمل في الحقول، ينحنين على الأرض فيجمعن منها الحجارة السوداء واحداً تلو الآخر، ويكدّسنها في سلالٍ من الخوص، ويفرّغنها

عند أطراف الحقول. ويوماً بعد يوم، تنمو بقعٌ من الأرض الرّمادية وسْط النباتات البريّة، مثل مرضٍ جلديّ لا شفاء منه.

أمسِ، قُبيلَ المغيب، انضمّ جاك وسوزان إليّ أعلى البركان. وبقيَ جوليوس فيران للحظةٍ هو أيضاً. نظر إلى المزارع والسّد، وقال في ازدراء: «النّمل!» وتساءلت سوزان متعجّبة: «ما فائدة هذا العمل؟ ماذا سيفعلون بالطّلق الذي يجمعونه؟ وهذا السّد؟» فجاءها الرّد من فيران: «علينا أن نُشغلهم طوال الوقت! ينبغي ألا يتوقّفوا!» وتحدّث، على ما أظنّ، عن الإنكا الذي أجبر الناس على جمع القمل[1]. لم تكن سوزان تستمع إليه. كانت تحدّق بشيءٍ من الافتتان والذّعر في مخيّم المهاجرين حيث الأطياف البعيدة تحوم في خليج باليساد. تبدو قرية العمّال حين تُشاهد من المرتفع نظيفةً ومرتّبةً مثل قرية النّمل، هذا صحيح. كانت صافرات السّردار ومتعهّد العمل تتجاوب وتتسارع، حادّةً وملحاحةً تارةً، وعميقةً تارة، ممتزجةً بهدير البحر على الشّعاب المرجانيّة. سمعتُ جاك يهمس، مُشيحاً بوجهه حتّى لا تسمع سوزان: «إنّنا سجناء».

من عصرِ 29 مايو

أرجأ سوء الأحوال الجويّة والظروف الصعبة استكشاف السّاحل الجنوبيّ الغربيّ (خليج المقبرة).

---

(1) إشارة إلى أحد ملوك حضارة الإنكا الذي أجبر الناس في المناطق التي غزاها على دفع الجزية، ولّما ادّعى بعضهم أنّهم لا يقدرون على دفعها، أمر بأنْ يقدّمَ كلّ منهم، مرّة كلّ أربعة أشهر، ريشةً كبيرةً مليئة بالقمل الحيّ. وكانت هذه طريقةً لجأ إليها كي يدرّبهم على دفع الجزية ويجعلهم يعتادونها.

يـؤدي التعـرّض للرّيـاح والعواصـف إلى اقتصـار الغطـاء النبـاتيّ قـرب البحـر عـلى النباتـات الزاحفـة والدّيـداء والعكْـرش. وعـلى مشـارف الـبركان: الترّاخـس والنجيليّـات.

مسـتعمرات التوتيّـات: التـين المَـرِنُ (نبتـة المطّـاط) والغاريّـة، والحامـول المتسـلّق بـلا نهايـة (اسـم عـلى مسـمّى، فقـد عاينـتُ واحـدةً منهـا بطـول اثنـي عـشر قدمـاً تقريبـاً، زاحفـةً بـين القبـور). وعشـبةُ لحيـة الرّجـل الأكثـر شـيوعاً عـلى طـول الشـاطئ، أو في النّتـوءات المرجانيّـة. وكذلـك: لحيـة الرّجـل مـن نـوع نـوردوس، الهنديّـة الشـماليّة الشـهيرة، ذات الأريـج القـويّ الأقـرب إلى الزّنجبيـل.

في الشـقوق الترابيّـة ينمـو عـددٌ غـير قليـلٍ مـن عيّنـات البرشاوشـان (الزنجبيـل الـبريّ، والبرشاوشـان الشـائك). النـوع الأوّل أكثـر عـدداً، ويمكـن معرفتـه مـن خـلال أوراقـه الكبـيرة المكسـوّة بزغـبٍ إبـريّ إلى الأسـفل. غيـاب الأشـجار يجـبر هـذه النّبتة عـلى الزّحـف في شـقوق الأرض.

وعـلى مبعـدة مـن المنحـدر والخليـج تنتـشر نبتـة الكاذيّـة الجميلـة بـما فيهـا نـوع البنـدان الـكاذي الـذي يصـل ارتفاعـه في بوربـون إلى 20 قدمـاً، أمّـا هنـا فـلا يتجـاوز السـبعة أقـدام. الـكاذي النافـع هـو الصنـف المسـتخدم، وقـد لاحظـتُ منـذ هبوطـي إلى الجزيـرة أنّـه شـائعٌ جـدّاً عـلى السـاحل الشـماليّ الغـربي. ربّـما زرعـه المهاجـرون لصنـع الحقائـب والنّعـال.

8 يونيو

ما عدتُ منذ الآن أكترث للوقت. أسبوع، اثنان، أو أكثر. أقلّ من شهر ربّما. وهذا يكفي لتعتاد ما لا يطاق. كنت أذهب دوماً إلى قمّة البركان، لا سيّما في المساء، كي أتشرّب وشوشة الأصواتِ العذبة الآتية من قرية العمّال، وأستنشقَ رائحة الدخان. عدلْتُ عن مشروع ترميم غرفة المنارة. فلأيّ شيءٍ؟ من الأجدى إصلاح السّد. ولا بدّ أنّ من انحازوا إلى بنائه يعلمون أنّ قارب الخدمات الصحيّة سوف يرسو هناك يوماً ما.

جئت أرى قرية باليساد كي أستعيد كلّ ما قاله لي جاك قديماً في شتاء روي ماليزون. اللّيل إذ يهبط على عزبة آنّا في المدينة، والضوضاء والرّوائح ذاتها، والشمس التي تميل على القصب، وصيحات العمّال في طريق عودتهم، صيحاتٌ أشبه بـ«أووو!» والنساء بالمعاول على رؤوسهنّ، والصرخات، وضحكات الأطفال، ومداخن مصانع القصب الطويلة وسْط الضباب كأنّها قلاعٌ بربريّة، وتحطُّم أمواج البحر الصفراء على السّاحل الأسود أثناء الغروب، حيث ينكسر خطّ الشّعاب المرجانيّة. لم أكن أعلم أنّ ذلك كلّه كان كامناً في أعماقي، حقيقيّاً وقويّاً إلى أقصى حدّ، لكأنّني عرفته من قبلُ فعلاً، ألماً وذكرى حلم تسعدني وتشقيني في آن. وإنّني لِمن هذا صُنِعت: من خُضرةِ القصبِ المتراميةِ المائلةِ إلى الرّماديّ، وظهورِ العمّال المحنيّة فوقها، وأهرامِ الحجارة التي بنتها النساء واحداً تلو الآخر بأناملهنّ التي جرّحتها الحمم البركانيّة وعيونهنّ الملتهبةِ تحت الشمس، ومن أريج عصير القصب النفّاذ الزكيّ الذي يعبق في كلّ مكان، ويضمّخ أجساد النساء، ويعلَقُ في

شعورهنّ ممتزجاً بالعرق. باليساد هي العودة إلى البدايات. ومن هنا تلك الهزّة التي اعترتنا أنا وجاك في فجر اليوم الأوّل على الجزيرة، لحظةَ شقّت صافرةُ السّردار عتمة اللّيل.

في الصّباح، وبعد أن ارتشفتُ الشاي الأسود الذي صُبّ من القِدْر في القدَح المعدنيّ المبعّج، التحقتُ فوراً بجون الذي مضى يجمع الأعشاب على طول الشاطئ، حتّى دون أنْ انتظر الأرُزّ المسخّن الذي تعدّه سوزان وسارة ميتكالف. لم يشعر جون للحظةٍ أنّه سجين. فمنذ نزولنا إلى الجزيرة، شرع يقطف الأوراق والزّهور والبذور، ثمّ يجفّفها بعنايةٍ في الشمس، بعد أنْ يرتّبها في رفوفٍ ويدهنها بالفورمالين مستعيناً بفرشاةٍ صغيرة. كان يبحث بعنادٍ عن عشبة النيلة الزّرقاء. وتشكّلت لديه قناعةٌ بأنّ الموقعَ مثاليٌّ لزراعةِ محاصيل من شأنها أنْ تُحسّنَ ظروف عيش المهاجرين المحجورين صحيّاً.

سِرتُ على طول الشاطئ، قافزاً من صخرة إلى أخرى. هنالك في البعيد تسود بعض الشجيرات والعكْرش. وفي بعض الأماكن، تكون الحشائش طويلةً جدّاً بحيث يختفي فيها المرء حتّى الخصر. والشاطئ على طول الساحل مغطّىً بالأعشاب الزّاحفة ذات الأوراق الكبيرة والزهور الحمراء الصغيرة[1]، التي يسمّيها المسنّ ماري «البطاطس الحلوة»، فيما يسمّيها جون «نجمة الصباح». وهي نَبتةٌ تنكسرُ فيقطرُ منها ببطءٍ حليبٌ شفّافٌ ولزجٌ قليلاً، وحيثما وُجدَتْ، لا يُسمحُ لأيّ شيء غيرها بأنْ ينمو. التقيتُ جون ثانيةً عند الطّرف الشماليّ، قبالة

(1) أي نبتة الدّيداء.

صخـرة لوديامـو[1] بالضبـط. وكنـت أنـا مـن سـميّتُ هـذا الهـرم الـبركانيّ الـذي ينبثـق عاليـاً مـن المحيـط بهـذا الاسـم، لكـنّ جـون أخـبرني أنّ اسـمها الحقيقـيّ حسـب الخريطـة الأميراليـة[2] «بيجِـن هـاوس روك»، أو «بـرج الحـمام»، وبمناسـبة الحـمام فهنالـك بالأخـصّ طيـور زمّـجُ المـاء الكبير والصغـير التـي تحـوّم باسـتمرار حـول الصخـرة وتبيّضهـا بالـذّرق، ويعلـو حفيـف أجنحتهـا وصرخاتهـا العميقـة كاتمـاً هديـر البحـر عـلى الشّـعاب المرجانيّـة. وهنـا، في ضـوء الصبـاح، يتـلألأ عجـاج البحـر. أتخيّـل ثـورة الـبركان التـي ألقـت هـذه الحصـاة العملاقـة وسْـط البحـر منـذ ملايـين السـنين، حـين خرجـت موريشـيوس مـن أعـماق المحيـط.

تركـتُ جـون ميتكالـف يفتّـش عـن عشـبة النّيلـة البريّـة النّـادرة التـي يرغـب في أنْ يطلِـق عليهـا اسـمه، ومضيـت أتأمّـل لوديامـو، لائـذاً مـن الرّيـح إلى حفـرة صخريّـة. كان البحـر يتدفّـق في اندفاعـاتٍ عموديّـةٍ راسـماً قـوس قـزح. بقيـتُ لسـاعاتٍ سـاكناً، أتأمّـل البحـر وحسـب، مصغيـاً لخفقـان المـوج، ومتذوّقـاً الملـح الـذي يرتشـق مـع هبـوب الريـح. بـدالي أنّـه لم يعـد للمأسـاويّ أيّ أثـرٍ. ففـي وسـعنا هنـا أنْ ننسـى صافـرات السّردار الكئيبـة التـي تسـتنهض الرّجـال لتنـاول الطعـام، أو التـي تُطلَـقُ مـع كلّ سـقوطٍ لكتـل الحمـم البركانيّـة في موقـع بنـاء السـدّ. في وسـعنا حتّـى أن ننسـى المريضَـين المحبوسَـين في المسـتوصف، والحمّـى التـي تجفّـف عيونهـما وتيبّـس شـفاههما، وطيـفَ جزيـرة غابريـال الـذي ينتظرهمـا في الجهـة المقابلـة.

---

(1) Le Diamant: الألماسة.

(2) خرائط بحريّة كان يُصدرها مكتب المساحة البحريّة بالمملكة المتّحدة في القرن التاسع عشر.

وعلى الرّغم من الغيوم، كانت الشمس تلتهب في كبد السماء. عاد جون ميتكالف إلى الكرنتينة مع غلّته من الأوراق والجذور. وسيقضي بقيّة يومه في الفرز والفهرسة بمساعدة سارة. كان يشكو من آلام في الرأس وأطراف الجسد. يعتقد جاك أنه قد أصيب بالملاريا منذ اللّيلة الأولى في باليساد. في تلك اللّيلة، كنّا قد نمنا في مجرى الهواء عند عتبة الباب، هرباً من البعوض.

ولمّا عدت إلى لوديامو عند الزّوال، رأيت للمرّة الأولى مَن أسميتها فيما بعدُ سورياڤاتي[1]، أو قوّة الشمس. أهو اسمها حقّاً؟ أم أنّني سمّيتها كذلك تيمّناً باسم ملكة كشمير التي قُصَّت عليها حكايةُ أورفاشي وبورورافاس، وفقاً لكتاب سوماديفا[2] الذي قرأتُه في لندن بترجمة تريلاوني في الصيف السابق على رحيلنا؟ كانت تتقدّم على طول الشاطئ، منحنيةً إلى الأمام قليلاً، كأنّها تفتّش عن شيءٍ ما، وعلى الرصيف أمام جزيرة غابريال، من حيث كنت، بدت لي كأنّها تمشي على الماء. رأيت طيفها الناحل، وفستانها الأخضر الطويل الذي يخترقه الضّوء. كانت تمشي بتؤدةٍ وحذر. فهمتُ أنّها تسير على قوس الشّعاب المرجانيّة الذي يصل جزيرة بلات بجزيرة غابريال ويتبدّى عند انخفاض المدّ. كانت تتلمّس طريقها بأطراف قدمَيها، كأنّها تتوازن على سورٍ غيرِ مرئيّ. من أمامها يمتدّ عمق البحيرة المعتم،

---

(1) اسمٌ سنسكريتيّ.

(2) كاتب سنسكريتيّ من القرن الحادي عشر، نظم الكثير من الحكايات الشعبيّة الهنديّة القديمة في قالبٍ شعريّ، جمعها في كتاب بعنوان «محيط الحكايات»، ولا يُعرف عن حياته الشّيء الكثير.

وعلى الجهة المقابلة، يبسط البحر أمواجه ويسرّح غيماتٍ من عجاج البحر نحو السماء.

لا شكّ أنّها رأتني. لكنّها لم تلتفت. جلستُ على الرّمل، نصفَ مختبئٍ بين أغصان الدّيداء. راقبتُها وهي تواصل السير على طول الشّعاب وسْط الماء، وكان لديّ انطباعٌ بأنّها تمضي نحو عرض البحر. لا أحدَ هناك، فقد دفعت الرّياح الطيور نحو الطّرف الآخر من الجزيرة، وبدا الأمر كما لو كنّا أنا وهي آخر السكّان.

واصلَت دربها على طول الشّعاب المرجانيّة، وكانت تنزل إلى المياه أحياناً حتّى الخصر، مختفيةً في غيمة عجاج البحر. لمحتُ عصا طويلة في يدها، اتّضح أنّها حربةٌ تستخدمها في الصيّد أو في جمع الأصداف وقنافذ البحر. كانت شمس المغيب ترسم طيفها فوق المياه المعتمة، مثل طائرٍ مضحكٍ يترنّح بغرابة. وفي لحظةٍ ما، تناهى إليّ من الدّغل، على بضعِ خطواتٍ من خلفي، صياحُ أطفالٍ مصحوباً بثغاء، وما هو إلّا أن رأيت أطياف الصّبية وهم يطاردون الجديان ويرشقونها بالحجارة. توقّفَت الفتاة في منتصف البحيرة، تردّدَتْ لحظةً، ثمّ سارت نحو الضّفة على سطح الشّعاب المرجانيّة، مواجِهةً الأمواج المتكسّرة، إلى أنْ ظهرَت فجأةً على الساحل، وسرعان ما اختفت في الجانب الآخر من طرف الجزيرة. مكثتُ على الشاطئ طويلاً، راجياً أن تعود. ازدادت مياه البحيرة قتامةً، حتّى أصبحَت مثل مرآةٍ معدنيّة. كنت أتأمّل جزيرة غابريال الصغيرة، الشّديدة القرب والعصيّة على البلوغ في آن معاً، وكان قلبي ينبض كأنّني محمومٌ. ومع حلول اللّيل، انبعث البعوضُ من الدّغل، فقفِلتُ راجعاً إلى حيّ الكرنتينة.

9 يونيو

عدتُ عند الفجر إلى صخرة لوديامو. كان جون ميتكالف مستلقياً في قلب البيت، متعباً محموماً. ولمّا خرجتُ، بدا كأنّه ينظر إليّ موبِّخاً، فأنا لست طالباً نجيباً في علم النّبات، ولم أساعده في فرز عيّناته.

أحبُّ صخرة لوديامو، بشكلها الغريب، ذي الوجوه العشرين، المنتظم، المنبثقِ من البحر وسط دوّامة طيورٍ تغطّيه بالفضلات فيغدو مثل قمة ثلجيّة. إنّه المكان الذي أستطيع فيه أنْ أنسى صافرة السّردار، وأجواء الكرنتينة الثّقيلة، وخُطب جوليوس فيران الجوْفاء. عرضتُ على جاك أنْ يرافقني، لكنّه لم يشأ تركَ سوزان وحدها. فقد أصيبت ليلةَ أمس بنوبةِ حمّى عنيفة، وحرَمها الصّداع النصفيّ من النّوم، كانت شاحبةً متعبة. أعطاها جاك مسحوق الكينين مخفّفاً في ماء الأرُزّ، تعويضاً عن الحليب. وحين خرجْتُ، جلسَ إلى الباب مواجِهاً البحر، لكنْ من حيث هو، لم يكن في استطاعته أنْ يرى غير القبّةِ السّماويّة السوداء فوق جزيرة غابريال.

وفيما أسير نحو الصّخرة، سمعتُ صوت المدّ. هذا الاهتزاز الآتي من قاع المحيط، من مركز الأرض. أعلم أنّه مع انحسار المدّ، ستأتي سوريافاتي بلا شكّ. أنتظرها في مكاني، شبهَ متوارٍ في جوفٍ صخريّ خلف شجيرات الدّيداء. كانت البحيرة تسيل نحو الغرب، مثل خزّان نُزع صمامه. وما هي إلّا لحظاتٌ حتّى تبدّت حافة الشّعاب المرجانيّة السوداء، ونصفُ القمر الرّمليّ الذي يحيط بجزيرة غابريال، وبانت صخرةُ لوديامو على حقيقتها: سطحٌ مهترئ له شكل جؤجؤ. فقدَت الأمواجُ قوّتها، وهدأت الرّيح. ثمّة ما يشبه الصّمت والسكينة. وقد خطر لي أنّ حرارة سوزان، في هذه اللّحظة

ذاتها، قد انخفضت بلا شكّ، فاستلقت على الأرض ورأسُها على ركبتَي جاك. الآن تستطيع أن تغفو.

ظهرت سوريافاتي، وسارت بلا تلكّؤ على الرّصيف المرجانيّ بالرّغم من أنّ المدّ لم ينحسر كليّاً بعد. أخذَت تنبش بين الشّقوق مستعينةً بالحربة، ثمّ التقطَت المحارات ووضعتها في حقيبة معلّقةٍ حول رقبتها. ولكي تُسرّع مِشيتها على البرك، رفعت فستانها وعقدَته بين ساقَيها، مثل سروالٍ داخليّ تركيّ.

كانت تمشي بيسرٍ، متهاديةً بلا عناء. ولمّا حاولتُ أن أتبعها على رصيف المرجان، كانَ الماء معتماً بلون السماء الغائمة، وقد منعتْني الأعشاب البحريّة التي تدفعها وتقلّبها الأمواج من رؤية القناة، فسرعان ما ضِعت. وصلَ الماء إلى خصري، وفي الوقت نفسه كانت الأمواج المتكسرّة تسحبني إلى الخلف فتعيدني إلى لجّة البحر. عانيت وأنا أحاول العودة إلى الشاطئ متشبثاً بحواف الشّعاب المرجانيّة الحادّة. بعيداً، في منتصف البحيرة، لاح طيفُ الفتاة خياليّاً رشيقاً. وحلّقت طيورٌ بحريّة فوق الشّعاب المرجانيّة، بما فيها طيور رئيس البحر التي كانت تُطلق صيحاتٍ حادّة. وفي لحظةٍ ما، التفتَت سوريافاتي. كنت أسير خارجاً من البحيرة نحو الشاطئ، وركبتاي ويداي مخدوشتان. كانت بعيدةً عنّي، وشالُها الأحمر يلقي ظلاًّ على وجهها، لكنْ خُيّل إليّ أنّها كانت تضحك. فلا بدّ أنّني بدوت مثيراً للشفقة بملابسي المبلّلة وبنطالي الممزّقِ عند الرّكبتَين.

كنت أعاني من ألمٍ في باطن قدمي اليُمنى. لا بدّ أنني دُست على قنفذ البحر وأنا أتخبّط وسْط التيار، فقد شعرتُ بلسعةٍ شديدة.

في تلـك اللّحظـةِ عـاد البحـر، وبـدأت الأمـواج تتكـسّر مـن جديـد عـلى الشّـعاب المرجانيّـة. كانـت الريـح تهـبّ مُدومّةً. ولسـت أدري لمـاذا، وقفتُ عـلى الشّـاطئ وناديـت الفتـاة. صرخـتُ «مرحبـاً!» كـما لـو أنّهـا ستسـمعني. عـادت أدراجَهـا مسرعـةً. إذ رأت هـي أيضـاً العاصفـةَ مُقبلـةً.

خرجـتُ مـن البحـيرة إلى الشـاطئ وأنـا أعـرج. ولمّا قلـت لهـا: «مرحباً!» التفتَـت نحـوي. كانـت ترتـدي ثوبـاً بلـون البحـر بلّلـه المـوج. خلعـتْ وشـاحها فانسـدل شـعرها الأسـود عـلى كتفَيهـا. لمحـتُ في حقيبـة الـكاذيّ المعلّقـة حـول رقبتهـا غَلّتهـا مـن قنافـذ البحـر، ورأيـت الأخطبوطـات التـي ثبّتتهـا في طـرف حربَتهـا مثـل أسـمال. وأكثـر مـا لفـت انتباهـي عيناهـا، لونٌ لم أره مـن قبـل، أقـربُ إلى أصفـر الكهرمـان والياقـوت، عينـان شـفافتان تلمعـان في وجههـا الشـديد السّـمرة. نظـرتْ إليّ هُنيهـةً، بـلا خـوفٍ، ودون أنْ ترمـش، فخفـقَ قلبـي بشـدّة، وانعقـد لسـاني.

دعتنـي لأجلـس عـلى الرّمـل. غرسَـت الحربـة بجانبهـا وتناولـت مـن حقيبتهـا سـكّيناً صغـيرة، مجـرّد نصـلٍ مدبّـبٍ بـلا مقبـض. وحتّـى قبـل أن أعـرف مـا كانـت سـتفعل، أخـذَت قدمـي اليُمنـى وقطعـت الجلـد المتيبّـس مـن أسـفلِ الإصبـع الكبـيرة. ثـمّ أرتنـي السـنّ الصّغـيرة المائلـةَ للزّرقـةِ في راحـة يدهـا. «أنـت محظـوظ، إنّهـا مجـرّد كسرةٍ مـن مرجـان». وأشـارت إلى الشّـعاب المرجانيّـة: «المـكان هنـا مـليءٌ بالأسـماك الصّخريّـة». نظـرتُ إليهـا فخمّنَـت أنّنـي لا أفهـم الكلمـة. «أنتـم تسـمّونها سـمكة العقـرب، وهـي قاتلـة». نظـرتُ إليهـا ذاهـلاً، فقـد حدّثتنـي بالفرنسـية، ومـن غـير لكْنـة. أردتُ أن أطـرح عليهـا الأسـئلة، أنْ أعـرف اسـمَها، ولِمَ هـي هنـا، ومنـذ متـى، لكنّهـا نهضَـت، والتقطَـت حوائجهـا وانصرفـت عـلى عجـلٍ راكضـةً

بـين الشـجيرات. ثـمّ صعَـدت المنحـدر في آخـر اليابسـة، ودخلَـت غابـة الكزوورينـة الصّغـيرة التـي تفصلنـا عـن باليسـاد.

وعـلى الرّغـم مـن قدمـي المجرّحـة، حاولـتُ أن أتبـع أثرهـا، كـما لـو كانـت شريكتـي في لعبـةٍ مـا واختبـأتْ خلـف أجمـةٍ صغـيرةٍ لتفاجِئنـي. أو ربّـما تخيّلـتُ أنّهـا جـاءت إلى رصيـف الشّـعاب المرجانيّـة لتلقـاني، لتعثـر علـيّ. أعتقـد أنّنـي أنـا مـن كنـت أفكّـر مثـل طفـلٍ. شـعرتُ بدمـي ينبـض في شرايينـي، وأصابنـي الـدّوار مـن تأثـير الرّيـح والضـوء. اجتـزتُ الأجمـةَ وأنـا أعـرج حافيـاً، واشـتعلت النّـار في ركبتَـيّ ويـدَيّ.

قادتنـي خطـايَ إلى المنحـدر الشّـماليّ عـلى الجانـب الآخـر مـن غابـة الكزورينـة، حيـث يعيـش المنبـوذون، فوجـدتُ نفسـي فجـأةً أمـام قريـة باليسـاد: عرائـشُ مـن غصـون الشـجر، معـزّزةٌ بكتـلٍ مـن الحمـم البركانيّـة رُصّـت بـلا مِـلاط، بأسـقفٍ مُهلهلـةٍ مـن سـعف النخيـل. لا بـدّ أنّ بعضهـا مبنـيٌّ منـذ زمـنٍ بعيـد، تنـال منـه العواصـف المتتاليـة فيُعـاد ترميمـه في كلّ مـرّة. كان الدّخـان يتصاعـد في كلّ مـكان، ويـدوّم مـع العواصـف. ثمّـة خلـف الأكـواخ، عنـد سـفح المنحـدر، حقـولٌ مـن تـرابٍ رمـاديّ زُرِع فيهـا قليـلٌ مـن الخـضروات كالبـازلاء والفاصوليـاء، وبعـضِ أعـوادِ الـذّرة التـي حرّقتهـا الشّـمس. وكانـت الـكلاب الجائعـة تتجـوّل بـين الأكـواخ. اشـتمّت رائحتـي فبـدأت تزمجـر، ودار أحدهـا دورةً كبـيرةً كـي يهاجمنـي مـن الخلـف، مُهـدّداً ومكـشّراً عـن أنيابـه.

تذكّـرتُ مـا علّمنـي إيـاه جـاك في صغـري. قـال إنّـه أخـذه عـن الطبّـاخ المسـنّ توبـسي في عزبـة آنّـا: «حتّـى تشـنّ حربـاً عـلى الـكلاب، لسـت بحاجةٍ

إلى سلاح، بل إلى رمية حجر»[1]. وهو في الأصل مثلٌ يعني: كلٌّ حسب قَدره، وقد وجدتُه ملائماً جداً في هذا الظرف. فالتقطتُ حجراً بركانيّاً حادّاً، وبيدٍ مرفوعةٍ رميْتُ رميَتي وأنا أتراجع إلى منحدر الجزيرة من جهتي. الآن لم يعد السّردار في حاجةٍ إلى حارسٍ يراقب حدوده.

عُدت هذا المساء إلى قمّة البركان لألقيَ نظرةً على قرية العمّال. لذتُ بِظَللِ المنارة وجلست أصغي إلى عزيف الرّيح في الحجارة. كان المطر يهطل في زخاتٍ متقطّعةٍ، والبحر هائجاً مُخضرّاً، مثلما كان يومَ نزولنا إلى الجزيرة. أعتمت السماء حتّى قبل أنْ تأذنَ الشمسُ بمغيب، كما لو أنّ حريقاً شبّ على الجانب الآخر من الأفق. وسمعتُ وسْط أنين الرّيح صافرة السّردار الطويلة تنادي المؤمنين للصّلاة. كانت النيران تتوهّج أمام البيوت في ظلّ الأفاريز، فتنشّقتُ رائحة الأرزّ الذي كان يُطهى مع الكّمون والبهارات. لقد مرّ وقتٌ طويل لم أذق فيه شيئاً، وكنت أحسّ بثقب في معدتي يجعلني أرتعش قليلاً، كأنّما من الرّغبة. أردت أن أُمدّ بصري إلى الطّرف الآخر من الدّرب، حيث تبدأ أكواخ الفقراء، وحيث تعيش سورياڤاتي. انتظرتُ لأرى جسدها النّاحل يسير نحو الصهاريج لجلب الماء، وسْطَ نساءٍ وأطفال آخرين. لكنّها لم تظهر. ربّما عرَفت أنّني أتتبّعها بنظري.

عُدتُ إلى الكرنتينة. شعرتُ للمرّة الأولى بحُمّى تجتاحني، وبألمٍ تولّد من الجرح في قدمي وانتقل إلى أعلى، فاقشعرّت له كلّ شعرةٍ من جسمي وارتعشت عضلاتي. شعر جاك بالقلق: «لستَ مريضاً، أليس كذلك؟» فحص باطن قدمي، ومسحه بالقليل من الميثيلين الأزرق.

(1) بالكريولية في الأصل.

وقدّمَت لي سوزان ماءً أحمرّ لونه من إضافة البيرمنغنات إليه، بدل الشاي الذي نفد. وفي اللّيل، لمعَت في ذهني عينا سوريافاتي، صفراوين مثل حدقتَي قطّة. كنت أرتعش ملتفّاً بشال سوزان. وغفوْت حين هدأت الريح واستحالت زمجرةُ العاصفة همساً بعيداً.

10 يونيو، عصراً

بسبب الحمّى والنّوم المضطرب لزمتُ الفراش طيلة يوم أمس. سماءٌ غائمة. العودة إلى الاستكشاف: الساحل الشماليّ الشرقيّ. عند حافة أشجار الكزورينة، غطاءٌ نباتيّ قصير. عددٌ قليلٌ من شجيرات الأكاسيا في منطقة الظّل. وبعض شجيرات بيمفيس أسيدولا على خطّ الصخر الجيري: شجيرةٌ كثيفةٌ يبلغ طولها نحو ثلاثة أقدام، لها أزهارٌ وحيدة عند القاعدة، وسويقاتٌ قصيرةٌ مزغِبة. على الساحل المواجه للريح، ثمّة عددٌ قليلٌ جدّاً من اللّوزيّات الهنديّة. ليست بتلك الضخامة، ثمارٌ بحجم حبّة الجوز لها قشرةٌ صلبة: الباذان (الهليلج الهنديّ). واجتماعها معاً في حضن وادٍ ضيّق، يوحي لي بأنّها من زرْع الإنسان. يبلغ ارتفاع أطولها اثني عشر قدماً. وعمرها التقريبيّ من ثلاثين إلى أربعين حولاً.

وربّما يعود تاريخها إلى أوّل احتلال للجزيرة (1856: أوّل كرنتينة أُقيمت على جزيرة بلات).

عاد جاك من باليساد منهاراً كَسِيفَ البال. أراد أنْ يقيّم أحوال المهاجرين الصّحيّة، بعد أن زعم فيران الفاسد أنّ وباء الجدري كان ينتشر على الطّرف الآخر من الجزيرة. سار برفقة بارتولي إلى أسفل الفوّهة البركانيّة، وهنالك اصطدم بمتعهّدي العمّال الذين منعوه من التّقدم أكثر. حاورهم جاك طويلاً مستعيناً بالمسنّ ماري، ولكن بلا جدوى. بدأ عمّال المزارع يتجمّعون، فشعر بارتولي فجأةً بالخوف. جرّ جاك إلى الوراء، قائلاً إنّ هنالك أناساً يصيحون مهدِّدين، وإنّهم ألقوا بعضَ الحجارة.

أمّا نهايةُ ذلك النّهار، فكانت مشؤومة. ساد صمتٌ مُطبقٌ في بيت الكرنتينة بعد ساعاتٍ من الجوّ الخانق. كان مصباح البونكا يبثّ ضوءاً راعشاً ينير الوجوه بغرابة. وكان جوليوس فيران يقف في عمق الغرفة، ويتلفّت حوله قلِقاً. ثمّ شرَع في إلقاءِ خطبةٍ حماسيّة طنّانةٍ لم يُصغِ إليها أحد. يريدنا أنْ نتصرّف، أنْ «نتّخذ إجراءاتٍ». وجهُه ناتئ العظم شاحبٌ، تخطّه فاصلتا شاربيه الأسودين، اللّذين يشذّبهما كلّ صباح بالمقصّ. ولم تسهم الإقامة على جزيرة بلات في علاج صلعه. «صديقنا الوسيم»، كما تنعتُه سوزان. غيرَ أنّ ملابسه البيضاء التي كان يتبخْتر بها في قاعة لافا حالت إلى اللّون الرّماديّ المصفرّ، وتفسّخ جيبا سترته.

تحدّث عن المرض الذي يلوح في الأفق، وعن الحجر الصحيّ الذي من المرجّح أن يطول، والتوتّر الذي يشتدّ في مخيّم العمّال. «يلزمنا وضع قواعد. نحن في ظرفٍ حرج. ولا يمكننا الاعتماد إلّا على أنفسنا».

هزّ جاك كتفيه ساخراً من فيران، فهو يعتقد أنّ هذا المغامر الفاشل المحتال كان واحداً ممّن نهبوا أنطوان حين قدِمَ ليستقر في فرنسا، وباعوه أسهماً في شركات وهميّة، أو أراضيَ لا يمتلكونها حقّاً. لقد كَره فيران من النّظرة الأولى. رأى فيه مجرّد «ثمرة جافّة»، «رجلٍ فاسدٍ». وهكذا كان أنْ عثر له على لقب. وتلك عادةٌ موريشوسيّة.

وكان يتحاشاه ونحن على متن لافا. ففي كلّ مرّة كان يأتي فيها الرّجل ليجلس إلى طاولتنا، كان جاك ينهض ويغادر. حتّى سوزان ضاقت به ذرعاً، لكنْ بدا أنّ فيران لم يتّعظ. قالت إنّه «شيطانٌ شقيّ، على كلّ حال». فأجابها جاك: «شيطان؟ هذا كثيرٌ عليه! إنّه مجرّد عفريتٍ صغير».

تابع فيران الفاسد خطبته موجّهاً الكلام إلى جاك، ساعياً إلى نيْل إعجابه. فقد كان جاك يثير رهبته لكونه طبيباً، ولِاسم العائلة الذي يحمله خصوصاً. فالجميع في موريشيوس يعرف آل أرشمبو. زد على ذلك أسطورة كبير العائلة، ألكسندر، الرّجل الفظيع زعيم مجلس **النظام الأخلاقيّ**، ومؤسّس حزب الحكومة الجماعيّة. وما زلت أتعجّب من أنّ جاك، ورغم كلّ ما فعله بنا ألكسندر، لا يزال متمسّكاً باسم عائلته. لقد أدرك فيران الفاسد على الفور المزيّة التي منحه إيّاها جنوح السفينة إلى جزيرة بلات. فنحن بتنا سجناء على هذه الصّخرة، وجاك لا يستطيع مغادرة المكان. أمّا فيران فيستطيع التّحدث، وهنا يكمُن انتقامه.

– علينا أن ننظّم أنفسنا، إذا أردنا البقاء على قيد الحياة حتّى يعود القارب. وقد يستغرق الأمر أياماً أو أسابيع.

– ماذا تريد؟ أن نفرض حظر التجوّل؟ والأحكام العرفيّة؟

تحدّث جاك ببرود، بينما ذُعِرَ جون ميتكالف، ولم يكن متيقناً من أنّه يفهم ما يقال. تابع فيران خطبته. وكان منزعجاً من السّخرية. فتحدّث عن اتفاقيّة القسطنطينية، وطلب أن ننشئ ميليشيا، وأن نشكّل حرساً يراقب كلّ ذهابٍ وإياب، وأن نعزل جميع المرضى في جزيرة غابريال.

– هل تتذكّرون الصبيّ الذي أُغرِقَ قبالة جزيرة ماهيه؟ يُقال إنّه مات من التهابٍ رئويّ. قد نموت من التهاب رئويّ خلال ساعات! وهل تعرفون في أيّ حالةٍ هو البحّار الذي هُرِّب على ظهر السفينة في زنجبار؟ والمسافر الآخر أيضاً حالته متردّية، وفي رأيي أنّهما لنْ يصمدا طويلاً.

نهضَت سوزان على الرّغم من الحمّى التي تحرقها، وقالت غاضبة:

- صه! كيف يمكنك أن تتفوّه بمثل هذه الأشياء!

- أتكلّم عن هذا لأنّه حقيقيّ. وأنت تعرفينه جيّداً مثلي. فعلى الطرف الآخر، هنالك حالاتٌ عديدةٌ بين المهاجرين، كانوا قد أُنزِلوا من القوارب القادمة من الهند وعليهم كلّ أعراض الجدري. هل رأيتَهم يا دكتور؟ (قال مشدّداً على كلمة دكتور).

يعلم جوليوس فيران جيّداً أنّ جاك لم يتمكّن من الوصول إلى باليساد. هكذا حقّق انتصاراً سهلاً.

- أمّا أنا، فقد رأيتهم عند وصولنا. هناك العشرات منهم، وغداً قد يصيرون بالمئات، ولا يوجد لقاح. إنّهم يجتثونهم في أكواخ، ثمّ يحرقون جثثهم على الشاطئ.

اقشعرّ بدن سوزان. وسمعتُها تسأل جاك هامسةً: «هل ما قاله صحيح؟» لقد أتت إلى موريشيوس مع جاك وفي ذهنها فكرة معالجة المهاجرين الهنود، وإنشاءِ مستوصفات، واحتذاء مثالِ فلورنس نايتنغيل[1]، وفجأةً تخيّلت أنّه، هنا، على الجانب الآخر من الجزيرة، ثمّة أناسٌ مرضى مهجورون، ولربّما كانوا يُحتَضرون. يُتقن فيران الفاسد ضرباً من البلاغة تمتزج فيها السخرية بالرّعب، وبتلك النّظرة التي تشي بالخفّة والمكر، وتطفح بالشّر.

- لا تصغي إليه، فهو لا يعرف شيئاً. إنّه مجنون حقّاً.

قال جاك ذلك حتّى دون أنْ يحرص على خفضِ صوته. هل سمعه

(1) Florence Nightingale: مُصلحة اجتماعيّة بريطانيّة ورائدة التّمريض الحديث (1820– 1910).

فيران؟ فقد توقّف عن الكلام، وخلا وجهه من أيّ تعبير، سوى ذلك العنفِ المجّانيّ، والغضب العبثيّ. ثمّ خرج من البيت فجأةً، وغاب في الظّلام. اجتاحت حلكة اللّيل البيت. وبدا لي أنّنا خسرنا الجدال، وأنّ شيئاً ما في داخلنا قد تزَحْزح وتداعى.

ها قد زرع فيران بذور الشّك فينا. ففي تلك اللّيلة، بقيتُ متنبّهاً لأقلّ جلبةٍ، رغماً عنّي. فماذا لو كان يقول الحقيقة؟ ماذا لو كان الشّيخ حسين قد قرّر سرّاً غزو الكرنتينة وقتلَنا عن بكرة أبينا، تخليداً لذكرى من ماتوا في الجزيرة، وانتقاماً للمظلومين؟

نظرتُ إلى جاك في ضوء المصباح، كان وجهه متوتّراً وقد لاح عليه تعبيرٌ غريبٌ لم أفهمه. فعلى الرغم من كلّ ما قلناه، بدا لي أنّ الحيرةَ قدْ تسلّلَت إليه هو أيضاً، وأنّه استسلمَ للخوف. رأيت يده المتشنّجةَ تحطّ على حجر، وكأنّ قطيعاً من الكلاب يتربّص في الخارج.

أرادت سوزان هذا الصّباح، وعلى الرّغم من الحمّى، أنْ تتوجّه إلى المستوصف مقابل الرّصيف الرّمليّ المؤدّي إلى جزيرة غابريال. ظلّت مستيقظةً قسطاً كبيراً من ليلةِ الأمس. كانت قلقةً منفعلة. تحدّثت عن المريضَين نيكولا والسيد تورنوا، وعن الهنود المهجورين على الطرف الآخر من الجزيرة، والنّساء والأطفال الذين تُركوا بلا رعاية. كانت تريد أن يأتوا ويستقرّوا في الكرنتينة. سيعتني بهم جاك، وتكون هي ممرّضتَهم. لا يمكن للحكومة أن تتجاهلهم، ثمّ إنّ أصحاب المزارع في موريشيوس لا يمتلكون بدائل أخرى. كانت متيقّنةً من ذلك. سوف تقدّم تقريراً للحاكم. وتودّ أن تكتب إلى فلورنس نايتنغيل. ثمّ انتهى

بها الأمر إلى أنْ تنام بيننا، مثلما فعلت أوّل ليلةٍ قضيناها في باليساد.

ولمّا بلغنا المستوصف، كان المسنّ ماري يزاول عمله بوصفه ممرّضاً في مكانه المعتاد، جالساً على حجَرٍ أمام الباب يمضغ ورق التّنبول. سمح لنا بالمرور ولم يقل شيئاً. كانت عيناه مغبّشتين بالزّرَق، ووجهه الأسود مليئاً بالجدري. ولهذا فلم يكن لديه ما يخشاه من الرّجلين المطروحَين على سريريهما داخل المستوصف. قلتُ سريرين، وكان عليّ أنْ أقول فراشين حقيرين، لشدّة ما كانت تلك المضاجع بدائيّة؛ مجرّد حشيّاتٍ متفسّخةٍ من القشّ طُرِحت على عددٍ قليل من ألواح الخشب على الأرضيّة مباشرةً.

كِدتُ لا أعرفُ نيكولا، العريف البحريّ الذي أُقِلّ من زنجبار. كان يعاني من حمّى خفيفةٍ منذ صعوده على متن **لافا**، قال القبطان بوالو إنّها نوبة ملاريا. ففي غضون أيّام قليلة، تحوّل هذا الرجل الرياضيّ المورّدُ الوجه إلى جسدٍ خائر القوى، بسحنةٍ صفراء وشفتَين متشقّقتَين ووَدمةٍ في الجبين. وإلى جواره، بدا السيّد تورنوا التاجر الذي حُمّلَ على السفينة في اليوم نفسه، أكثر تماسكاً. ولمّا دخلنا الغرفة، اعتدل في جلسته، وتكلّم بصوتٍ نافد الصّبر ذي جرْسٍ معدنيّ، ظانّاً أنّ قارب الخدمات الصحيّة قد وصل، وأنّهم جاءوا لاصطحابهما.

وبعد سماعه ردّ جاك السلبيّ، استولى عليه غضبٌ مفاجئ أخاف سوزان. نهض ومشى عبر الغرفة إلى الباب. كان يرتدي المنامة الرماديّة ذات الياقة المقوّرة نفسها التي كان يرتديها في عيادة السّفينة **لافا**. سار حافياً مترنّحاً على الأرضيّة الحجريّة، فقد أُحرقت جميع ثيابه في فرن القمامة قبل النزول إلى الجزيرة.

وفي لحظةٍ ما، غرق في نوعٍ من الهذيان. كان يقف على عتبة المستوصف

منبهراً بالشـمس والرّيح.

«سأذهب، سأعود إلى بيتي حالاً، إنّهم ينتظرونني!»

وأيـن هـو هـذا البيـت؟ عـلى بعـد آلاف الأميـال، أبعـدَ حتّـى مـن أنْ يتذكّـره.

أعـماه الضـوء إلى أنْ اغرورقـت عيناه، فانهمـر الدّمـع عـلى أنفـه وجـرَى عـلى وجنتيـه. اقتربَـت سـوزان وكلّمتـه بهـدوء، أرادت أن تطلـب إليـه العـودة إلى فراشـه للاحتـماء مـن الريـح. لكنّـه مـرّ مـن أمامهـا دون أن يراها، دار حـول نفسـه، كـما لـو كان يبحـث عـن شيءٍ مـا، واتّسـع ثوبـه مـع الريـح كاشـفاً عـن سـاقيه النحيلتـين. ثـمّ خـرّ جالسـاً وظهـرُه إلى دعامـةِ البـاب الحجريّـة. كان يتحـدّث إلى نفسـه بصـوتٍ مكسـورٍ متقطّـع، عـن منزلـه في تـارْب بفرنسـا وعـن زوجتـه وأطفالـه. جلسَـت سـوزان بجـواره تحـاول تهدِئتـه، فيـما كنّـا أنـا وجـاك نـرى مـا يحـدث ولا نقـوى عـلى فعـل شيءٍ. ثـمّ نهـض تورنـوا أخـيراً، بمسـاعدة المسـنّ مـاري، وعـاد إلى فراشـه، كـما لـو كان مـلاذَه الأخـير.

انعقـدت ألسـنتنا وانقبضـت قلوبنـا. عـاد جـاك وسـوزان إلى الكرنتينـة، أمّـا أنـا فابتعـدت عـن المخيّـم بـأسرع مـا أمكننـي.

هكـذا، وفيـما كنّـا نمـضي الوقـت منتظريـن في الكرنتينـة، نثرثـر ونتشـاجر، ونلعـب الشـطرنج، أو نحلـم بيـوم تحرّرنـا، كان هنالـك، عـلى بعـد خطـواتٍ قليلـةٍ منّـا، أيْ عـلى الطّـرف الآخـر مـن الجزيـرة، بـشرٌ يُحتَـضرون. هيّـئ إليّ أنّنـي مـا زلـت أسـمع صـوت تورنـوا وهـو يطلـق لعناتـه ويـسرد ذكرياتـه المشـوّشـة، ولم تفارقنـي نظـرةُ نيكـولا الثّابتة الشّـديدة الصّفـاء. ومـا زال يـرنّ في أذني الوقـع المكتـوم لارتطـام جسـد الصبـيّ لحظـةَ

أُغـرق في ميـاه جزيـرة ماهيـه، في المحيـط ذي الزرقـةِ التـي كادت تكـون خارقـةً للطبيعـةِ، واسـتعدتُ معـه صـوت بوالـو وهـو يعطـي تعليماتـه عـلى متـن لافـا بـضرورةِ ألّا يطّلـع أحـدٌ عـلى شيءٍ مـن هـذا، أيُّ مخلـوقٍ عـلى الإطـلاق؛ الأمـر الـذي سـيخلّد اسـمه في سـجلّات شركـة النّقـل البحـريّ (مِسـاجيري) التاريخيّـة.

صعـدتُ بخطـواتٍ أشـبهَ بالرّكـضَ إلى حافـة الفوّهـة البركانيّـة. وجلسـتُ في مـكاني محتميـاً مـن الرّيـح بجـدار المنـارة المتداعيـة الإسـمنتيّ. مـن هنـا، أسـتطيع أن أرى كلّ شيء، خليـج باليسـاد ومدينـة العـمّال والمـزارع، والشريـط الرّمـليّ الطويـل الـذي يطـوّق جزيـرة غابريـال، وقبّـة الغيـم المعلّقـة فـوق جبـال موريشـيوس آخـرَ البحـر، شـبيهةً بـسراب.

11 يونيو

أخـذ جـاك يتحـدّث إلى سـوزان بهـدوءٍ شـديد كـي يطمئِنهـا. كان الوقـت عـصراً، وكنّـا مسـتلقين عـلى الأرض قـرب البـاب، متّخذيـن مـن الشـال الأبيـض الكبـير ذي الأهـداب غطـاء. كنّـا وحدنـا في البيـت. ففـي تلـك اللّحظـة كان جـون وسـارة منشـغلَين، بـلا ريـب، بدهـن أوراقهـما بالفورمالـين، وبارتـولي وفـيران الفاسـد في مكانهـما أعـلى الـبركان، يراقبـان بـلا كبـيرِ أمـلٍ وصـول المركـب الشراعـيّ.

كان الطقـس معتـدلاً، حيـث تراجعـت العاصفـة تاركـةً المـكان لريـح الصّابيـات، وتغطّـت السـماء بوشـاحٍ أبيـضَ رقيـق. شـعرتُ بـردف سـوزان المـدوّرِ قريبـاً منّـي وأحسسـت بحركـة ضلوعهـا وهـي تتنفـس. هكـذا كان

الأمر في هاستينغز الصيف الماضي. كنّا معاً على الشاطئ، وشاهدنا الغيوم تنساب، ومعها أحلامنا، وبدا لي حينها أنْ لا شيء يمكنه أن يفرّق بيننا أبداً.

لا يزال جاك يحتفظ بصوته الشجيّ ولم يفقد لكنتَه الكريوليّة على الرغم من السّنوات التي قضاها في فرنسا، ثمّ في لندن حيث عمل في مشفى سانت جوزيف. وحين أسمعه، أتذكّر صوت أبي حين كان يتحدّث مساءً مع الرّائد وليام في شقة مونبارناس، فأنام إلى جانب طبقي من الحساء مستمعاً إلى صوته.

أخذ يسرد لسوزان ذكرياته عن المدينة وعن عزبة آنّا في زمنٍ بعيد. ولعلّه كان يختلق هذه القصص كلّها، مثل السيّد تورنوا في هذيانه.

«لا يمكنكِ أن تتخيّلي مدى فرحتي حين كنت أعود من نُزل تورهي في أعياد الميلاد، أو في الشتاء، أعني في يوليو أو أغسطس؛ كنت أعود إلى بيتي، وألقى ثانيةً غرفتي. كان في وسعي أنْ أركض في كلّ مكان في حقول قصب السّكّر، وصولاً إلى السّافانا[1]، وإلى البحر. سوف أريكِ الطريق. كان هنالك صبيٌّ في عمري، اسمه بيير، بيير باستور، وآخر كريوليّ يكبرنا بقليل، ابن مزارع في عزبة آنّا، كنّا نناديه مايوك، لا أعرف لماذا، أعتقد أنّهم كانوا يدعونه بهذا الاسم في صِغره لأنه كان يتقافز ويثرثر طوال الوقت مثل الطيور. واسمه الحقيقيّ عزيز.

«أتذكر أنّه كان هنالك، خلف البيت في آنّا، طَلَلُ مصنع سكّرٍ قديم، ذي مدخنةٍ سوداء طويلة، وجدرانٍ تكسوها الأعشاب. وعلى مبعدةٍ منه، عند حافة البحر، قَمين الجير. سوف أريكِ ذلك كلّه،

(1) السّافانا: هي حسب المعاجم أرض عشبيّة منبسطة استوائيّة أو شبه استوائيّة. (المُراجِع)

أنـت وليـون أيضـاً. لا يمكنـكِ إلّا أنْ تحبّيـه، إنّـه أجمـل المناظـر الطبيعيـة في العـالم، حقـولٌ شـديدة الخـضرة تترامـى بعيـداً في المـدى ولا تدريـن أيْـن تنتهـي، وكنّـا نخلـط بينهـا وبـين البحـر. وفي العـام الأخـير، كنـت أتجـوّل مـع الصبيّـين في كلّ الأمكنـة، وفي طَلَـل المصنـع حيـث نصطـاد اليـمام. لم تكن أمّـي تريـدني أن أذهـب إلى الطّلـل، كانـت تخشـى دومـاً أن تنهـار قطعـةٌ مـن الجـدار. كنـا نذهـب ونختبـئ في الأقبيـة المقوّسـة، وهـي جـدرانٌ سـميكةٌ مـن كتـلِ الحمـم البركانيّـة مدعّمـةٌ بالجـير، جوّهـا بـاردٌ رطـبٌ كأنّهـا كهـف. كنّـا نـصرخ لنسـمع الصّـدى، وكان عزيـزٌ يـروي قصصـاً بقصـد إخافتنـا، فيقـول إنّنـا بصراخنـا قـد نوقـظ الموتـى، وإنّ هنالـك شـعباً مـن الأشـباح، يسـمّيهم الجـنّ. أو كنّـا نذهـب إلى البحـر مجتازيـنَ دربـاً ضيقـاً وسْـط أكـوامٍ كبـيرة مـن الحجـارة، لنُلفـي أنفسـنا فجـأةً عـلى الشـاطئ، أمـام البحـر المفتـوحِ عـلى اتسـاعه، بـلا أيّ حواجز مـن الشّـعاب المرجانيـة. كانت الأمـواج تتلاطـم، وكان ذلـك كلّـه جميـلاً حقّـاً...».

كانـت سـوزان تشـدّ عـلى يـدي وتغمـض عينَيهـا مُصغيـةً. كنّـا نبحـر معـاً عـلى طـوْف، محمولـين عـبرَ التيّـار الـذي يمـضي بنـا في الاتّجـاه المعاكـس، معيـداً إيّانـا إلى البدايـات.

«كنّـا لا نعـود إلى المنـزل إلّا وقـتَ الظهيرة. أحيانـاً كانت أمّي ترسـل امرأة للبحـث عنا، فنسـمع الصّوت الحادّ ينادي أسـماءنا، مُنشـداً: «مايـوك! زااك! باسـتوو!» فنظـلّ مختبئـين في الطّلـل صامتـين، وتعـود المـرأة خاليـة الوفـاض. «لم أعثـر عليهـم هنـاك، لا أعـرف أين اختفـوا!».[1] وحـين أعود مسـاءً، أكون منهـكاً، وقـدْ جرّحـت سـاقَيّ أوراقُ القصـب، كان والدي يغضـب، فتقول له

(1) وردت العبارة بالكريوليّة.

أمّي: «اتركه، لقد نسي نفسه في اللّعب، هذا كلّ شيء».

«كان موسم حصاد القصب في المدينة أشبهَ بالعيد، بل حتّى بمعركةٍ يُعدّ لها مسبقاً على مدى أسابيع، ويتطلّع إليها الجميع بفارغ الصبر. كنت أذهب مع مايوك إلى قمّة سان بيير، وإلى أوبون لنتأمّل الحقول، كانت مثل بحرٍ يتماوج في مهبّ الريح. أو ننطلق في الحرّ الشديد على طول دروب القصب لنتنشّق أريجه، فتحرّق الأرض الملتهبة باطن أقدامنا. كنّا في المدينة أوّلَ من يفتتح موسم حصاد القصب كلّ عام، فالمدينة تقع في الغرب، والقصبُ أسرعُ نضوجاً في تلك الجهة. كان هناكَ أيضاً حقول فولمار، وحقول مكّةَ في الشّمال، وأحياناً يبدأ الموسم في فولمار أو في ألبيون، قريباً من كامب كريول. كان من الضّروريّ قطع القصب بالتّناوب كي لا يحدث نقصٌ في عدد العمّال المطلوب. وكان السّردارات يدعون الجميع للاجتماع في فناء مصنع السّكّر، ثمّ تنطلق العربات، تتقدّمها عربة السيّد فيريه التي تجرها البغال، فيصطفّ العمّال على جانبي الطريق، ومعهم سكاكينهم الطويلة، ويعطي رئيسُ السّردارات السيّدَ فيريه سكيناً، ويغادر العمّال إلى الحقول، ويظلّون منتظرين لا يتحرّكون إلّا بعد أنْ يصل السيّد فيريه ويقطعَ أوّل عود قصب، ثمّ يُعطي العودَ لعاملٍ يُلقيه بدوره في العربة، فينطلق الجميع إلى العمل، ولا نعود نسمع طيلةَ اليوم سوى صوت ضربات السّكاكين، وصوت العمّال وهم يحذّرون بعضهم بعضاً، مطلقين صيحاتٍ أشبه بنباح الكلاب: أووا! أووا!

«أمّا أنا، فكنت أركض في كلّ مكان مع الأطفال الآخرين مقتفين أثر العربات على طول الطريق. كانت النساء يرتدين أثواباً واسعةً

باليـة، ويجمعـن عيـدان القصـب ويلقـين بها في العربـات. كنّـا، أنـا ومايـوك وباسـتور نقضـم قطعـاً مـن قصـب السّـكّر، ونركـض في الحقـول، ونصيـح نحـن أيضـاً مثـل العـمّال: أووا! أووا! وذات مـرّة، وصلنـا أنـا وباسـتور إلى موضـع مـا، فوجدنـا بـه شـابّاً أسـود طويـل القامـة مجـدوع الأنـف، أظـنّ أنّـه مصـابٌ بالجـذام، ولمّـا رآنـا رفـع سـكّينه: «مـاذا تفعـلان هنـا؟ هيّـا انصرفـا، يـا لكـما مـن جرذيـن أبيضَـين!». لم أخـفْ يومـاً في حيـاتي مثلـما خفـت آنـذاك».

كانـت سـوزان مسـتلقيةً إلى جانـب جـاك وقـد أراحـت رأسـها في تجويـف كتفـه. لم تـترك يـدي، لكنّنـي شـعرت أنّهـا غطّـت في النـوم. رأيـت وجههـا البالـغَ العذوبـةِ، والطفـوليَ قليـلاً، وشـعرَها الكسـتنائيّ الفاتـح الملمـوم في عقصـة، وعينَيهـا المغمضتَـين المحفوفتَـين بأهـداب كثيفـة. وإلى جوارهـا، كان جـاك مسـتلقياً أيضـاً، عينـاه مغمضتـان، وشـعره الطويـل يرفـرف في الرّيـح. ثـمّ توقّـف عـن الحديـث. كان يفكّـر في شيء آخـر، كأنّـه عـلى شـاطئ في مـكان مـا، يمـضي شـهر عسـل. بـدا لي أنّنـي عرفتهـما دائـماً معـاً، وأنّهـما مثـل أبي وأمّـي. أنـا أيضـاً كنـت متمـدّداً عـلى الأرض، أراقـب الغيـوم وهـي تنسـاب بطيئـةً مـع الرّيـح. وحـينَ أسـندتُ رأسي عـلى كتـف سـوزان، شـعرتُ بيدهـا الخفيفـة تتخلّـل شـعري.



12 يونيو

أمضيتُ شطراً من الصباح في تصنيف الاكتشافات. رائحة الفورمالين. مُجبرٌ على عزل نفسي في مبنى المشفى.

جمعتُ حتّى الآن أنواعاً من الباذنجانيّات والنجيليّات. قريباً من الكرنتينة، جمعتُ «البقليّات» الصالحة للأكل (علامةٌ أخرى على الحضور البشريّ): البقلة الملغاشيّة، والبقلة السوداء (بقلة مارتن). وأنواعٌ أخرى صالحة للأكل: عنب الثعلب (الباذنجان البنيّ، أو الباذنجان البريّ) وصنفه المزروع (الباذنجان الشّائع)، ربّما جلبه المستوطنون الأوائل: ثمرةٌ بحجم تفّاح رينيت الكنديّ، أرجوانيةٌ شاحبة أو مائلةٌ إلى السواد.

باذنجانيّاتٌ أخرى قيّمة: أصناف الفليفلة (الفلفل البريّ والفلفل الشّجري)، وبدرجة أقلّ الياسمين الأُذيني، وهو بديل للتبغ (أوراقٌ دائمةٌ مغطّاةٌ بزغب رماديٍّ ويمكن أن تحلّ على نحو مفيد محلّ القنّب المستورد أو القنب الهنديّ) الذي جلبته الحكومة للعمّال المهاجرين. عاينتُ في المنطقة المتاخمة لبداية الشّعاب المرجانية، على المنحدر الجنوبيّ الشرقيّ، نبتتَي اللّساس (العوسج) والحرنكش (الكرز الأرضي)، وهي من الباذنجانيّات الصالحة للأكل. توتيّاتٌ عنقوديّة، عصارتها تشبه عصارة الكشمش، برتقاليّةٌ إلى صفراء، معروفةٌ في المحيط الهنديّ بالاسم المستعار Pokepoke .

كان البحر أقربَ إلى الهدوء هذا الصباح، مكتسياً لوناً لم أره من قبل، أخضرَ مُزرقّاً، وكأنّ الضّوءَ ينبجس منه مشعّاً في أعماق السّماء.

كان جميلًا إلى حدّ أنّني لم أعد إلى الكرنتية لأشرب قدح الشاي الأسود وأتناول اللّامبانغ، أو طبق الأرزّ المجفّف في القِدْر. ركضتُ على طول الشاطئ نحو قمّة لوديامو. كان المدّ مستقرّاً، وكنت متيقّناً من أنّني سأجد سوريافاتي، سأراها تمشي بمحاذاة الرّصيف المرجانيّ، شاقّةً الدّربَ الذي لا يعرفه أحدٌ سواها، وسْط الأشَنات تحت سطح الماء، لكنّ البحيرة كانت مهجورة.

سكنَت الرّيح أخيراً، فخيّمَ صمتٌ غريب بعد ليالٍ طويلةٍ عاصفةٍ، مثلَ أجراسٍ قُرِعت لساعاتٍ ثمّ توقّفت فجأةً.

كان الحرّ شديداً، والرّمل الأبيض يلمع بين الحمم البركانيّة، حادّاً صلْداً. وفي أقصى نقطةٍ من اليابسة، كانت الطيور البحريّة تحلّق حول صخرة لوديامو، منها ما حطّ على جؤجؤ السفينة الأسود الذي كشف عنه انحسار المدّ، ومنها ما أخذ يحوم حولي: النوّرس وخطّاف البحر والأطيَش. كانت تطلقُ صرخاتٍ أشبه بالتّهديد. ورأيت أيضاً طيور رئيس البحر، بعددٍ أكبر من المعتاد، تحوّمُ فوق البحر متثاقلةً.

خلعتُ ملابسي، مثلما أفعل في كلّ صباحٍ، متوارياً خلف صخرة، فغطستُ في مياه البحيرة وعُمت قرب الشّعاب المرجانية بعينَين مفتوحتَين. كان الماء خفيفاً، وأبرد قليلاً من الهواء. شعرتُ كأنّني طائر، أنا أيضاً. ثمّة شطٌّ رمليّ غيرُ بعيدٍ عن الحاجز المرجانيّ. هنالك توقّفت، إذ لم يكن تحت قدمَيّ ما أخافه من قنافذ البحر أو سمك العقرب.

وهنالك كان أنْ عاد إليّ كلّ شيء، كلّ ما قاله لي جاك في باريس فيما مضى، وصار كأنّه ذاكرتي الخاصّة. البحر عند الفجر قرب عزبة

آنّـا، وميـاه اللّيـل السـاكنة البـاردة عـلى شـاطئ الرّمـل الأسـود، حيـث في وسـعك أنْ تسـبح تحـت المـاء، دون أنْ تُحـدثَ دوّامـاتٍ، مـادّاً ذراعيـك أبعـدَ مـا يكـون أمامـك، ثـمّ ضامّـاً إيّاهمـا إلى جسـدك دون أنْ تتنفّـس، مصغيـاً إلى اعتـلاج الأمـواج المتكسـرة... كنـت أدنـو مـن هـذه اللّحظـة يومـاً بعـد يـوم. البحـرُ في فليـك أون فـلاك، بعـد اجتيـاز فولمـار، ومصـبّ تمـاران الأسـود. لكأنّنـي عشـت هـذا كلّـه، حـين كان أبي وأمّـي يعيشـان بعـدُ في عزبـة آنّـا. إنّـه حلـمٌ قديـمٌ كان يـراودني كلّ ليلـة في روي ماليـزون، قبـل أن أنـام. أمـشي مـع جـاك عـلى طـول الشـاطئ، شـاقّاً الـدّرب الضيّـق عـلى امتـداد السـاحل وسْـط أعشـابٍ بالغـة الطّـول حتّـى أنّهـا تخـترقُ الشـفتَين. وأرى طيـوراً، ربّـما هـي طيـورُ الغـاق السـوداء ذاتهـا التـي تحلّـقُ لامسـةً سـطح المـاء، وكأنّهـا تحثّنـا عـلى مغـادرة المـكان. يبـدو لي أنّنـي عرفتهـا مـن منقارهـا الأحمـر، وبريـق عيونهـا الشريـر. كان البحـر يتـلألأ في التجاويـف مثـل بحـيراتٍ مـن حمـم بركانيّـة ملتهبـة. وقبـل أنْ نصلـه، كان هنالـك، عـلى مـا أذكـر، مسـتنقعٌ وشـجيرات قصـب. وكان يُقـالُ لجـاك: «لا تذهـب في هـذا الاتّجـاه، هـذا خطـرٌ عليـك. وقـد تتيـه، فهنالـك رمـالٌ متحرّكـة». وقـد صـار ذلـك الآن بعيـداً جـدّاً. لكنّنـي، هنـا، في قلـب الصّمـت، وعـلى الشـاطئ الرمـليّ الأبيـض حيـث يلامسـني البحـر، تذكّـرتُ كلّ شيء. ولا يمكننـي أنْ أضيـع بعـد الآن. مَرِضَـت أمـيّ، كانـت الحمّـى تحرّقهـا كلّ ليلـة، وتصيبهـا بالغثيـان. كنـت في بطنهـا لمّـا مشـت نحـو الشـاطئ لتحـسّ ببـرودة المسـاء، وتسـمعَ تسـبيح طيـور الـزّرزور. هـبّ إعصـارٌ في فبرايـر فـضرب البحـر ودمّـر كلّ شيء. وذات ليلـةٍ، عصفـت الريـح بالبيـت عرضـاً وطـولاً، فأطفـأت المصابيـح والمشـاعل. كان أبي في بـور لويـس. وقـد وصـل

على ظهر الحصان عند الفجر، عبرَ الدروب المفروشة بجذوع الأشجار التي اقتلعتها الريح. وكان في اليوم التالي، بعد الإعصار، أنْ وُلِدْتُ.

حرّقت الشمس بشرتي، وتخلّل الملحُ شعري فيبّسه وجعله ثقيلاً مثل خوذة. قالت سوزان ذات مرّة: «عليك أنْ تحذر». وأردفت ضاحكة: «أنت أسود مثل غجريّ، لن يصدّق أحدٌ أنّك من آل أرشمبو». إنّه دم أماليا وليام الذي يجري في عروقي. احتفظ أبي بصورةٍ واحدةٍ لها فقط في شقّة مونبارناس، بباريس، التُقطت لها حينَ قدِمتْ إلى فرنسا في سنّ الثامنة عشرة. كانت نحيلةً سمراء، بوجهٍ بيضاويٍّ وحاجبين مقوّسين يلتقيان مثل جناحين، وشعرٍ طويل فاحمٍ في جديلة واحدة تنسدل كثيفةً على كتفها.

ظهرت سوريافاتي فجأةً، دون أنْ أحسّ بقدومها. كانت تقف في وسط البحيرة، ثوبها الطويل بلون البحر معقودٌ بين ساقَيها، ووجهها متوارٍ خلف الوشاح الأحمر الطويل. كانت تنبش تجاويف الشّعاب بحثاً عن قنافذ البحر والأخطبوطات، وتمشي بهدوء، كأنّني لست هناك. خرجتُ من الماء وارتديتُ ملابسي على عجلٍ خلف صخرتي. عبرَتْ رويداً الشريطَ الرّمليّ إلى الشاطئ، ولمّا صارتْ في مواجهتي، توقّفتْ وأزاحت وشاحها. أضاءت الشمسُ وجهها الناعم، فلمعَت حدقتاها الصفراوان. بدت لي أصغر سنّاً ممّا كانت عليه في ذلك اليوم، طفلةً أو تكاد، بجسدها النحيل اللّينّ، وذراعيها الطويلتين جدّاً، المطوّقتين بأساورَ نحاسية. وكان شعرها الأسود مُسترحاً بعناية، مفروقاً عند جبينها بخطٍّ مستقيم.

هـا هـي الآن تقـف أمامـي، في مواجهـة الشـمس، فـلا أرى إلّا طيفهـا. تتألّـقُ ميـاه البحـيرة مـن خلفهـا، وتنبعـثُ مـن البحـر، فـوق الرّصيـف المرجـانيّ، وشوشـةٌ مطَمئنـةٌ. إنّـه أوّل يـوم يكـون كلّ شيء فيـه هادئـاً بحـقّ. تـردّدتُ في الحديـث إليهـا فـإذا بهـا تقـولُ ببسـاطة، وبصـوتٍ بالـغ الصّفـاء: «أتشـعرُ بتحسّـن؟» لا أسـتطيع أن أتذكّـر إنْ كانـت هـي مـن رفـع الكُلفـة بيننـا أوّلاً. أحببْـتُ صوتهـا، وأسـلوب حديثهـا المبـاشر. قالـت:

- هل تسكنون في البيوت؟

وأشارت نحو الكرنتينة، في الطرف الآخر من الشاطئ.

قلت أجل، وقبل أن يُتاحَ لِيَ الوقتُ لأردّ عليها سؤالها، أردفت:

- أسكن في الطّرف الآخر مع أمّي.

فظننتُ أنّها تقيم هنا مؤقّتاً، مثلنا. لكنّها قالت:

- نعيـش هنـا منـذ عـام. تعمـل أمـيّ لـدى مـن ينزلـون هنـا، وتبيعهـم الأشـياء التـي يحتاجـون إليهـا، وتطهـو لهـم أيضـاً. لكنّهـا الآن مريضـة. وأنـا أصطـاد أسـماكاً أو أخطبوطـاتٍ كـي أبيعهـا.

اعترتنـي دهشـةٌ كبـيرةٌ لِمـا سـمْعت، فانعقـد لسـاني. نظـرَت إليّ لحظـة، ثـمّ قالـت-ولم يكـن سـؤالاً وجّهتـه لي، وإنّـما كانـت تتحـدّث إلى نفسـها-:

- أمّا أنتم، فستغادرون قريباً إلى موريشيوس.

واسـتأنفتْ سـيرها عـلى رصيـف المرجـانِ والحربـةُ في يدهـا. وكـما في أوّل يـومٍ، حاولـتُ اقتفـاء أثرهـا، لكـنّ الطحالـب البحريّـة كانـت تحجـب الـدّرب، ثـمّ إنّ انعـكاسَ الشـمس عـلى الرّمـل قـد غشّـى بـصري. وصلـتْ سـوريافاتي إلى نهايـة رصيـف المرجـان. كِـدْت أسـقط في المـاء عـدّة مـرات،

وأعـادت رؤوس الشّـعاب المرجانيـة فتـح الجـرح تحـت إصبـع قدمـي الكبـيرة. فلـم يبـقَ أمامـي سـوى الرّجـوع إلى الشـاطئ. جلسـتُ عـلى صخـرةٍ أراقـب الفتـاة وهـي تصطـاد وسْـط البحـيرة. وأخـذتُ أنتظـر.

وطـال بيَ الانتظـار حتّـى مالـت الشـمس إلى الجانـب الآخـر مـن السـماء متواريـةً خلـف الغيـوم. بدأ المـدّ يعلـو. وشرعَت الطيـور تحوّم حـول رصيف المرجـان. هـذا هـو الوقـت الـذي تخـرج فيـه الأسـماك مـن جحورهـا، وهـو الوقـت المناسـب لصيـد الأخطبـوط: رأيت سـوريا[1] تغـرز الحربة بـين ثقوب الشّعاب المرجانيّـة، ثـمّ تنزع منها الأخطبوط وتدسّـه في سـلّتها. تـردّد صدى هديـر الأمـواج في قاعدة الجزيـرة، وأعتمت مياه البحيرة ممتلئةً بعروقٍ سـوداء، وهـذا إنـذارٌ بـضرورة التّراجـع. كانـت الفتـاةُ تتبـع الشّـعاب المرجانيّـة نحـو الشـاطئ شـاقّة دربها بين الأمـواج، ثوبُها يصِف جسـدها، وشـعرُها يرفرف في الرّيـح. أظـنّ أنّـي لم أرَ مثلها من قبـل، إنّها أشـبه بإلهة. كان قلبي يخفق بشـدّةٍ، وعينـاي تحترقـان. لكأنّني كنـت برفقتها على رصيـف المرجان، أحـسّ بعجاج البحـر يلامـس بشرتي وشـفتيّ، وضربـاتِ الأمواج عـلى الحاجز المرجـانيّ ترنّ بقـوّةٍ في أعماق جسـدي.

ولّمـا بلغَـت الفتـاة الشـاطئ، التفتـت إليّ سريعـاً دون أن تقـول شـيئاً. بـدا وجههـا، قبالـةَ الضـوء، أسـودَ أو يـكاد، لا يـشي بـأيّ تعبـير، وشـعرُها لامعـاً نحاسـيّاً. لا أفهـم لمَ لمْ أُبـدِ حـراكاً، كـما لـو كنـت في حلـم، حيـث لا أقـوى عـلى شيءٍ سـوى النّظـر. كنـت جالسـاً عـلى صخـرتي منحنيـاً إلى الجنـب قليـلاً، أشـبهَ بطائـرٍ فضـوليّ.

رأيـت أطفـالاً يقبلـون مـن الأجمـةِ، عـلى الطـرف الآخـر مـن اليابسـةِ،

(1) مختصر اسم الفتاة سوريافاتي.

كانــوا يتراكضــون ويصيحــون: «ســوريا! ســوريا-فاااتي!»

لمحــوني، وتوقّفــوا لحظــةً عــلى حافــة الشــاطئ، إذ أحسّــوا بالخــوف، لكنّهــم مــع ذلــك ظلّــوا يضحكــون ويتحادثــون بأصــواتٍ خافتــة. ولا بــدّ أنهــم قــدّروا أنّنــي لســت خطــيراً، إذ واصلــوا عدْوَهــم نحــو الفتــاة وتحلّقــوا حولهــا.

أخــذوا يراقبونهــا وهــي تُخــرج الأخطبوطــات مــن ســلّتها، فتقلِبهــا وتغســلها بميــاه البحــر، ثــمّ تعلّقهــا في نهايــة الحربــة، فيســتولي عليهــا الأولاد كأنّهــا غنيمــة. لم تلتفــت نحــوي، ولا نــدّت عنهــا إيــماءةٌ تقصــدني، وأنــا لم أحــاول اللّحــاق بهــا.

حرّقتنــي الشــمس، فمشــيت مترنحــاً حتّــى بلغــتُ الكرنتينــة. عُــدت إلى عالمــي، إلى حيــث أنتمــي. ولم أبــالِ باســتجواب ســوزان أو توبيــخ جــاك المُبهــم. كان الهــواء في الكــوخ الضيّــق خانقــاً مــن فــرط ســخونته، فاســتلقيتُ عــلى الأرض مريحــاً رأسي عــلى كتلــة الحمــم البركانيّــة التــي اتّخذناهــا مقعــداً. وبعينــينَ مفتوحتَــين عــلى اتّســاعها في غبــش العتَمــة، أخــذتُ أفكّــرُ بالغيــومِ التــي تتكاثــف، راجيــاً أنْ يــأتيَ المطــر.

15 يونيو

في هــدوء الأيــام الثلاثــة الأخيرة، اســتولت الحماســة عــلى ســكّان الجزيرة. فصِرنــا ننتظــر في كلّ لحظــة إشــارة وصــول المركــب الشراعــيّ وهديــر محرّكاته ونــداء صافرتــه. ســادَ شيءٌ مــن بهجــةٍ خادعــةٍ في الكرنتينــة، وصــار جــاك يصطحــب ســوزان فجــراً إلى الشــاطئ، عــلى الرصيــف المقابــلِ لجزيــرة غابريــال، فتفتــح مظلّتهــا الســوداء ويحتميــان بهــا مــن الشــمس، مُفترشَــين

الرّمل، كما لو كانا يقضيانِ إجازةً في مكان ما، في إنجلترا أو بروتاني.

ذهبتُ لأستعيد ثانيةً مركز المراقبة الخاصّ بي أعلى البركان، قربَ المنارة، فكانت في انتظاري مفاجأةٌ غير سارّة، إذ وجدتُ فيران الفاسد هناك، بصحبة بارتولي الذي يلازمه دوماً. وقد نصب في المكان نوعاً من ظُلّةٍ قماشيّةٍ مثبّتةٍ بحجارةٍ ثقيلة، ومُجهّزةٍ بمنظار. كان يتفحّص الأفق الشّديد الصفاء، وكانت هذه أوّلَ مرّة تتحرّر فيها قممُ موريشيوس بالكامل من الغيوم، وتبدو حافة الشاطئ البيضاء بهذا الوضوح.

وعلى قلّة رغبتي في مرافقته، فقد وقفت طويلاً على حافة فوهة البركان أتأمّل الجزيرة الأمّ. لم يسبق لي أنْ رأيتها أقرب من هذا، ولا أكثر أُلفةً: طوْفٌ عظيمٌ من خُضرةٍ ونعومةٍ يرسو عند خطّ الأفق. شعرتُ بقلبي ينبض بقوّة والشّغف يملأ جسدي، حالةٌ أشبه بنشوة السُّكْر، مثلما يحدث حينَ تجد نفسكَ فجأةً، بعد أنْ مشيتَ لساعاتٍ، عندَ حدود المكان الذي خرجتَ باحثاً عنه، فتدرك أنّ الوصول وشيك. وأظنّ أنّني لوّحتُ بذراعيّ مثل غريق، كما لو أنّ عينَين ودودتَين كانتا تبصرانني، وأنّ قارباً كان ينساب بطيئاً نحونا.

علّق فيران قائلاً: «لن يأتوا عاجلاً، سوف ينتظرون الجَزْر الهابط بعد ظهيرة هذا اليوم». كان يقف إلى جانبي، ويتكلّم بنبرةٍ وَدودٍ أو تكاد. وحتّى بارتولي، المتحفّظ عادةً، قد بدا مبتهجاً.

تركتهما يراقبان في مكانهما وعدْتُ أدراجي إلى مباني الكرنتينة. وفيما أنا أهبط الدّرب سريعاً بين كتل البازلت، في وجه الشمس الحارقة، انتابني إحساسٌ غريب. وكأنّ هذا الأمل قد ولّدَ فيّ قلقاً ما، أشبه

بقعة معتمةٍ أو قشعريرةٍ تسارعت لها دقّات قلبي. لم أفهم ما حدث لي. فما كدتُ أتيقّنُ من قربِ الخلاص حتّى أخذَت صورة سوريافاتي تتمايل أمام عينَيّ مثل لهب، أو مثل سرابٍ على مياه البحيرة الملساء، صورة وُلدت من الأمواج المتكسّرة على الحاجز المرجانيّ، وها أنذا على وشكِ أنْ أفقدها إلى الأبد.

ركضتُ حافياً عبر الأجمات، دائساً الحمم البركانيّة الحادّة دون أنْ أشعر بالألم، ودنوْت من الساحل فلم يكن هنالك مخلوقٌ، كان الشاطئ الطويل المبهر خالياً. فقد غادر الجميع مباني الكرنتينة وتوجّهوا لمشاهدة وصول المركب الشراعيّ إلى خليج باليساد. وحده مبنى المستوصف الصغير الواقع قربَ الرصيف لم يُهجر، فقد ظلّ تحت حراسةِ عبّار المياه المسنّ الذي لا ينتظر أحداً ولا شيئاً. وفي الغرفة الحارّة، كان العريف البحريّ نيكولا والسيّد تورنوا راقدَين في فراشَيهما، وجهاهما متورّمان من شدّة الحمّى، بعيونٍ محدّقةٍ لا ترمش، وفاهَين فاغرين يتنفّسان بمشقّة.

كنت آمل أن أصادف سوريافاتي على الشاطئ، عائدةً من صيدها اليوميّ. توقّفت الرياح، وسطَعت الشمس حتّى كادت تغشّي الأبصار، وسْط سماءٍ شديدةِ الزّرقة. فعبرتُ الأجمات بحثاً عن الدّرب الذي كانت تأتي منه، وعن آثار خطواتها في الرّمل. ثمّ عدتُ إلى الشاطئ، كما لو كانت ستظهر فجأة على منحنى الشّعاب المرجانيّة في منتصف البحيرة. أصابني ارتدادُ الضوء بالغثيان والدوار، وتيبّسَ حلقي. سيغادر الجميع ما إنْ يصل قارب موريشيوس، وفق مشيئة مكتب الهجرة. سيختفون، وينتهي كلّ شيء.

اشتدّ ضيقي حتّى أنّني صرختُ باسمها بكلّ قوّتي، مثلما فعل الأطفال في ذلك اليوم: سوريافاتي! كان اسماً سحريّاً يمكنه أن يوقِف كلّ شيء، ويمكنه أن يُديمَ إلى الأبد اللّحظةَ التي رأيت فيها الفتاة واقفةً على الرّصيفِ المرجانيّ، كما لو كانت تمشي على الماء.

كانت الطيور تحوّم مهتاجةً حول صخرة لوديامو، بما فيها طيور رئيس البحر التي قدِمت من أوْكارها في جزيرة غابريال لتحلّقَ في دوائرَ كبيرةٍ فوق البحر الواسع، ومن حينٍ إلى آخر تهوي مثل حجارةٍ ساقطةٍ كي تغطس في الماء. كان المدّ يعلو بسرعة، فأيقنتُ أنّ سوريا لن تأتي. وأخذت الأمواج تضرب قاعدة الشّعاب المرجانيّة، باثّةً دفقاتٍ كبيرةً من بخارٍ متوهّج. هبّت الرّيح من جديدٍ، نسيماً يتبع حركة الأمواج. واضطّربت مياه البحيرة، فلمحتُ على مقربةٍ من الشاطئ ظلّاً يعبر سريعاً، مثلَ كلبٍ في قاع الماء. كانت هذه سمكةَ الباراكودا، أو التّازور، سيّدةَ البحيرة. لم تكن سوريا تهابها، لكنّ المسنّ ماري أخبرني أنّها تعضّ من لا تعرفهم.

جاء جاك ليأخذني معه. كان يرتدي ملابس الرّحلة العظيمة، سترةً رماديّة، وصداراً وربطة عنق، وقبّعته «البنما» المدعوكة، وقدماه عاريتان في حذائه الأسود الذي انتعله على عجل. كان مضطرباً قلقاً.

- تعال، ماذا تفعل هنا؟ قد نرحل اليوم.

وحين نظرتُ إليه مُستفهماً، كاد يصرخ.

- وصل قارب الخدمات الصحّية إلى باليساد. علينا أن نتحدّث إلى الموظّفين كي نقنعهم بنقلنا. ولا بدّ أنْ يروا أنّك لست مريضاً.

- وسوزان؟

- لقد صارت هناك، مع فيران وبارتولي. هي من أخبرتني بمكانك، اعتقدتُ أنك ذهبتَ قبلنا. ماذا كنت تفعل هنا؟

لم يكن من السّهل عليّ إخباره لمَ أنا هنا. قلتُ له وهو يشدّني من ذراعي:

- وماذا عن الآخرين؟

بدا أنّه لم يفهم قصدي على الفور، فردّد ما قاله من قبل:

- سوف أهتمّ بالأمر. علينا أوّلاً أنْ نخرج من هنا. بعد ذلك، في موريشيوس، سنعالج كلّ شيء، سأطلب من ألكسندر أنْ يتدخّل. لكنْ ما دُمنا هنا، لا يمكننا فعلُ أيّ شيء.

كانت هذه أوّلَ مرّةٍ يتحدّث فيها عن ألكسندر بمعزلٍ عن كونه العدوّ المطلق. كانت عيناه تشيان بقلق واضطرابٍ من خلف نظّارته. التفتَ نحو البركان، علّه يلتقطُ إشارةً ما.

- هل ستأتي في نهايةِ المطاف؟ لا أستطيع انتظارك أكثر!

انطلق راكضاً عبر الأجمات في اتّجاه البركان. ولمّا صار بعيداً، التفتَ إلى الوراء صائحاً:

- ليون! أسرِعْ!

كان جاك قد لَمّلم أمتعته على عجل. أمّا أنا، فأخذتُ بدوري حقيبتي المحتويةَ على كتاب شِعر سوزان وكرّاسِ رسمي.

وفي الطريق إلى البركان، تحدّث بعصبيّة عمّا كان يحدث على الجانب الآخر.

- إنّنا مقبلون على موجةِ شغب. علينا أن نتصرّف بسرعة قبل أن تسوء الأمور. المهاجرون كلّهم على الشاطئ. لم أتخيّل قطّ

أنّهم بهذا العدد. لقد فهموا أنّ القارب لم يأتِ من أجلهم، وهم غاضبون الآن، ومستعدّون للقفز في البحر لاقتحامه.

- لكن ألنْ يأتيَ المركب الشراعيّ؟

- لا أعرف. لا أريد أن أنتظره.

أخذ جاك يركض ثانيةً على طول الطريق لاهثاً، وكان يحمل حقيبته الطبيّه وحقيبة سفر سوزان. عبرنا المقبرة القديمة وقفزنا من فوق القبور المدمّرة. توقّفَ لحظةً كي يلتقط أنفاسه. شعر بنخزةٍ في خاصرته، فقطّب وجهه.

- ظلّوا في عرض البحر، ولم ينزل منهم أحد. أتفهم؟ إنّهم لا يريدون حملنا. ولا يريدون حمل أيّ كان. عليك أنْ تكون هناك، فلا بدّ أنْ يرونا جميعاً معاً.

- ولكن لماذا؟

أخذتُ أصرخ أنا أيضاً، إذ لم أعد أقوى على التنفس، وقد خدشَت أوراق الشّجيرات ساقَيّ. انتبهتُ فجأة إلى أنّني كنت حافياً: لقد نسيت حذائي في الكرنتينة. أردتُ أن أعود، لكنّ جاك صاح:

انسَ أمره، ليس لدينا وقت، ستشتري غيره في بور لويس.

كان صوته متوتّراً غريباً. أدركتُ ما كان يحدث في باليساد، إنّه الغضب العامّ.

عبرتُ التّلال التي تفصل بين طرفَي الجزيرة، فتسمّرتُ أمام ما رأيت: تكتّل الحشد على طول خليج باليساد، وقد تجمّع معظمهم في منتصف الرّصيف حيث يعمل العمّال كلّ صباح، واقفين على كتل الحمم البركانيّة، فيما تقدّم آخرون نحو ألواح البازلت الكبيرة على

الرّغـم مـن الأمـواج المتلاطمـة، ومياهُ البحـر تغمرهـم حتّـى الخُصـور. وكان المسـافرون الأوروبيّـون يقفـون عـلى الشـاطئ إلى يسـار الخليـج، بجـوارِ سـقيفة النخيـل التي اتُّخِـذت مسـتودعاً. احتمـت سـوزانُ بالسّـقيفة، متكئـةً عـلى إحـدى دعاماتهـا، وكانـت تنتظرنـا هنـاك. التفتَـت نحونـا. لم تومـئ لنـا، لكنّـني عرفـت أنّهـا رأت جـاك يهبـط راكضـاً الـدّرب المفـضي إلى الخليـج.

ليـس الشـاطئ كبـيراً بـما يكفـي لاسـتيعاب جميـع المهاجريـن. فبقـي كثـيرٌ منهـم في الدّغـل في نهايـةِ الخليـج، متربّعـين عـلى الأرض. وأقبلـت النسـاء بمظلاتهـنّ السـوداء، مِلكهـنّ الوحيـد. لقـد تركـوا جميعهـم العمـل والحقـول، وجلبـوا معهـم عـلى عَجـلٍ بعـض الأمتعـة مـن البيـوت الجماعيّـة، وحـضروا إلى هنـا يراقبـون مركـب خفـر السّـواحل، وهـو سـفينةٌ بخاريّـة صغـيرة تـدور حـول مرسـاتها عـلى بعـد بضعـة أطـوالٍ كَبليّـة[1] مـن الشـاطئ. لا أحـد يتكلّـم، كلّ شيءٍ صامـتٌ خـلا هديـر المحـرّك المنتظـم، ومـن حـينٍ إلى حـينٍ تُسـمع صرخـة طفـلٍ أو صيحـةُ نـداء. حتّـى الـكلاب هـي الأخـرى قـد سـكتت عـن النبـاح. كانـت مُقعيـةً أمـام البيـوت الفارغـة وخطومهـا في الـتراب، كأنّهـا هـي أيضـاً تترقّـب حـدوث شيءٍ مـا.

عـلى الشّـاطئ، غـير بعيـدٍ عـن ركّاب لافـا، رأيـت صُرراً عالقـة، وبراميـل نفـط، وحقائـب عامـت حتّـى وصلـت الشّـاطئ. ولم يتكّبـد أحـدٌ عنـاء سـحبها إلى اليابسـة، وكانـت الأمـواج المتلاطمـة تغمرهـا بالزّبـد وتحملهـا مُلقيـةً بهـا بعيـداً. بـدا أنّ ضابـط السـفينة لا يرُيـد المجازفـةَ بعمليّـة

(1) Encablure: طول كَبليّ، وحدة قياسٍ بحريّة تساوي عُشْر ميلٍ بحريّ.

إنـزال، إمّـا لإدراكـه أنّ أمـواجَ البحـرِ أعتـى مـن أنْ يصمـد أمامهـا زورقُـه، أو لخشـيته مـن هجـوم المتمرّديـن. ولّمـا دنـوت، لاحظـت أنّ بعضـاً مـن أفـراد الطّاقـم كانـوا مسـلّحين. كانـوا يقفـون عـلى سـطح السـفينة ويحملـون بنـادق شـنايدر الثقيلـة التابعـة للجيـش البريطـاني في الهنـد.

ابتعـدَ جـاكَ عنّـي، صـارَ عـلى الشـاطئ. ولّمـا اسـتأنفتُ المسـير هابطـاً المنحـدر بـين الصخـور الحـارّة، سـمعت صخبـاً يمـلأ خليـج باليسـاد بأكملـه. كانـت تلـك صيحـةُ ضيـقٍ وغضـبٍ جماعيّـة، تعلـو ثـمّ تخفـت، ثـمّ تُسـتأنف مـن جديـد، وتسـري في جميـع أنحـاء الشـاطئ مـن فـم إلى فـم، يطلقهـا الرجـال والنسـاء معـاً، عميقـةً تـارةً، وصاخبـةً تـارةً أخـرى. لم أسـمع مثلهـا مـن قبـلُ قـطّ. سَرَت رعشـةٌ في جسـدي كلّـه، فقـد كان ذلـك أيضـاً نشـيداً وموسـيقى بقـدر مـا هـو صرخـة غضـبٍ وأنـين. كان ضابـطُ الصّحـة الـذي ينتظـر عـلى سـطح السـفينة بـين الرّجـال- ويميّـزه عنهـم بيـاض زيّـه الرسـمي المُبهـر-، قـد أعطـى القـرار بالإبحـار فـوراً. رفـع البحّـارة المرسـاة عـلى طـول الجؤجـؤ ودخـل الضّابـط بـرج السـفينة الخلفـيّ لإعـادة تشـغيل المحـرّك، فـتردّد صـدى هديـر المحـرّكات في الخليـج. أثـار هـذا الضجيـج ومعـه مشـهد عمـود الدخـان الأسـود غضـب المهاجريـن. فقـد فهمـوا أنّ مركـب خفـر السـواحل يسـتعدّ للرحيـل، وأنّـه سـيتركنا جميعـاً لمصيرنـا.

ولّمـا بلغـتُ الشـاطئ، كان الحشـد هائـلاً. وكان الرّجـال يهرولـون في كلّ اتجـاهٍ وقـد اسـتولى عليهـم اليـأس والحنَـق. فتركـوا حقائبهـم وأشـياءهم وتوجّهـوا إلى الشـاطئ، وخاضـوا في البحـر رغـم الأمـواج وهـم يصبّـون اللّعنـات. اختفـى متعهّـدو العـمّال وزعيمهـم السّردار الشّـيخ حسـين. ولا

بدّ أنّهم لجؤوا إلى الصّخور أعلى الخليج. فلا أحد يستطيع احتواء غضب الحشود. هؤلاء الرّجال الذين كانوا حينَ رأيتهم أوّلَ مرّةٍ في غاية الهدوء يسيرون نحوَ السدّ في طوابير منتظمةٍ، منحنين تحت وطأةِ سلال الحصى، بدوا في تلك اللّحظةِ ممسوسين، وقد ارتمى بعضهم على الأرض، والدّمُ يقطر من وجوههم. أمّا النّساء والأطفال المذعورون فقد حاولوا الفرار نحو بيوت قرية العمّال، فأجبرهم رجالٌ مسلّحون بالهراواتِ وفؤوس الأدغال على التّراجع. وكنت كلّما دنوْت من المكان الذي لجأ إليه ركّاب **لافا**، شعرتُ بقلقٍ يخنقني: فمِن حيث كنت، لم أستطع أنْ أرى سوى كتلة الحشد المتراصّة تموج في حركةٍ دائريّةٍ حول سقيفة المستودع. أعاد الحصى الحادُّ المتناثر على الرّمل فتح الجرح في قدمي اليمنى فتقدّمتُ بمشقّة. وفجأةً لاحَ لي وجه جاك من خلال ثغرةٍ. كان متشنّجاً من الخوف والغضب. هو أيضاً كان يصرخ ويلوّح بقبضته. أمسك بيد سوزان وحاول التراجع إلى الوراء، لكنّ الحشد كان كثيفاً جدّاً ودفعهما إلى الخلف نحو الشاطئ، فوقف كلاهما للحظةٍ موليَين ظهريهما إلى الأمواج المتلاطمة مغمورَين بزبدها. أمّا ركّاب **لافا** الآخرون، جون وسارة وبارتولي وجوليوس فيران، فقد اختفوا. ربّما أسعفهم الوقت فنجحوا في الفرار إلى جرف البركان. جلتُ ببصري باحثاً أيضاً عن سوريافاتي، حاولتُ أنْ ألمح طيفها، أو وجهها، لكنْ لم يعد من حولي سوى شبّان فارّين، يركضون شبهَ عراةٍ، وعيونهم تقدح جنوناً. ثمّة نساءٌ بالقرب من موضع بناءِ السّد، وإلى جانبهنّ بعض الصّرر، وأطفالهنّ يتسلقون ظهورهنّ، كما لو كنّ سيركبن قارباً حقّاً ويذهبن بعيداً جدّاً. لم تكن سوريا معهنّ.

فلا بدّ أنّها بقيت مع والدتها في حيّ المنبوذين على الطرف الآخر من الخليج. كان يستحيل بأيّ حالٍ الذّهاب إلى هناك. سرتُ متردّداً أترنّح يَمنةً ويَسرةً بين الناس الذين يركضون، فإذا بي أسمع صوت سوزان يناديني. وفجأةً وصلتُ البحر. جعلنا أنا وجاك من جسدَينا درعاً، وتقدّمنا نحو آخر الشاطئ، وكدنا نتزحلق على الأرض البازلتيّة. هنا، على الأقلّ، لا يمكن للمعتدين أن يطوّقونا. لم يتوقّف الصّخب في خليج باليساد، بل علا وازداد اضطراباً مع تلك الأصوات التي تصيح وتنادي، وتهدّد في الوقت ذاته. كان فتيانٌ بأجسادٍ تتلألأ بالعرق ومياه البحر، عراةٌ سوى من مآزرَ، يركضون في الماء من حولنا ويشتموننا، ويرشقون الحجارة نحو مركب خفر السواحل الذي أخذ يبتعد. استدرتُ، ورأيت الأطياف تقف على متنِه، وقد صارت مجرّدَ ظلالٍ في وجه الشمس. بدّد هبوب الرّيح الدّخان، وما عدنا نسمع هدير المحرّكات. اندفعت السفينة وغابت في تجاويف الموج، وسرعان ما توارت خلف قمّة البركان. وتلاشت الاصواتُ البشريّة في اصطخاب الموج. ودفعت دفقاتُ الموج العالي الشبّان الذين كانوا حولنا، فخرجوا من الماء عائدين إلى الشاطئ. اصطحبتُ سوزان إلى حقل الحجارة البازلتيّة عند قاعدة البركان، ملاذِنا الوحيد، هنالك حيث يتدفّق تيّار المياه العذبة. وإذ كنا نتسلّق الصخور، رأيت وجه جاك ينزف. فقد تلقّى أحد الحجارة التي رشقها الصبيان، أصابَه فوق عينه اليسرى، فتحطّمت عدسة نظّارته. بلغنا منحدر البركان الجنوبيّ في اللّحظة التي كانت فيها سفينة خفر السواحل تبتعد مسرعةً في البحر المخضرّ، جارّةً خلفها زورقها الخالي الذي كان يترنّح في مخرها.

15 يونيو

وجـدتُ هـذا الصبـاح مسـتعمرةً مـن نبتـة الأيْميّـة، في أرضٍ قليلـة الشـجر. الورقـة بطـول نصـف قـدمٍ، مدبّبـةٌ، تشـبه عـلى الأرجـح النـوع البولينيـزيّ الطـارئ (جلبـه القراصنـة عـلى مـا يبـدو).

توّغّلـتُ في باليسـاد بهـدف التعـرف عـلى أشـجار النخيـل. نخلـةِ الإيبـورب، مـن نـوع الأماريكاوليـس، وهـي شـبيهةٌ بالنخيـل الكرنبـيّ، لكنّهـا غـير صالـح لـلأكل كـما يبـدو لي.

عـلى مقربـةٍ مـن القريـة، ثمّـة مجموعـةٌ مـن نخيـل اللّاتـان (حـوالى 50 قدمـاً) ذات أزهـار لافتـةٍ إبطيّـة، وأغصـانٍ ذات فرعَـين، وكلّ فـرع مغطّـىً بوعـاءِ طَلْـعٍ مجـدوعٍ ومائـل.

عاينـتُ (مـن مسـافةٍ بعيـدة باسـتخدام المنظـار) بعـض عينّـاتٍ مـن الصبّـار الأمريكـيّ، حـاول زرعَهـا عـلى الأرجـح المحتلّـون الأوائـل لأغـراضٍ طبّيـة.

لا أثـر لفاكهـة الخبـز (بريدفـروت)، التـي لـو توفّـرت لكانـت ذات نفـعٍ للكرنتينـة.

16 يونيو

استمرّ الشّغب طوال اللّيل. نمنا في الكرنتينة، سوزان وسارة ميتكالف في عمق الدّار، فيما تناوبنا أنا وجاك وجون على مراقبة المكان. بين الحين والحين كانت الريح تجلب معها من طرف الجزيرة الآخر صيحاتٍ قويّةً أو وقعَ خطواتٍ في الغابة المحيطة. وكانت الكلاب تنبح على الدّوام. انتشرت رائحة دخانٍ لاذعة، وهُيّئ إليّ أنّني أسمع طقطقة ألسنة لهب في مكان قريب، فخرجتُ وسرت بضع خطوات باتجاه الشاطئ. كان اللّيل حالكاً ومُثقلاً بالغيوم، لكنّني رأيت وهج النيران، بقعةً حمراء تومض فوق الأشجار. قضى بارتولي وفيران الفاسد اللّيل عند فوّهة البركان. وبلغ الأمرُ بفيران أن لوّح بسلاحه متفاخراً: مسدّس رسميّ كان يُخفيه بين مستلزماته، ويُخمّن جاك أنّه قد سرقه من جثّة أحد الفيدراليّين[1]. أبهذه الوسيلةِ كان يبتغي احتواء العصيان؟

هدأ التمرّد عند الفجر. توقّفَ مثلما بدأ، بلا سبب. ربّما لأنّ تلك اللّيلة المجنونة قد استنزفت كلّ القوى.

وعاد فيران وبارتولي. قالا إنّ الهنود دخلوا البيوت لينامو. حُرقَت بعضُ أكواخ المنبوذين حول باليساد. وعلِمنا لاحقاً بما حدث: كان شبّان ثمِلون قد دخلوا بيت عاهرةٍ تدعى رَسامهْ واغتصبوها. ثمّ توقفت أعمال الشّغب عند مشهد العنف العبثيّ والمحتوم ذاك، الأشبهِ بطقوس القتل. وحبَس الشّيخ حسين الجناة في الكوخ الذي نمنا فيه ليلةَ وصولنا.

(1) أطلقت التّسمية على الجنود الفرنسيّين الذين تمرّدوا والتحقوا بكومونة باريس سنة 1871.

كنت قريباً من سوزان، كانت ترتجف، فقد أدّت أحداث اللّيلة الماضية إلى انتشار نوبة ملاريا، فعُقِد اجتماع تفاهم أمام البيت شارك فيه مبعوثان من طرف الشّيخ حسين. سمعتُ أصواتاً عالية، كان جاك يقول: «وماذا عن الماء؟ ومن سيعتني بهما، وأين سيمكثان؟». وكان فيران يتحدّث عن الصّهاريج كملجأٍ مؤقت. فهمتُ أنّه يريد عزل مريضَينا، نيكولا والسيّد تورنوا، وإرسالهما إلى هناك. استولى الغضب على جاك. كان هو من تحدّث عن الهنود الذين نسيَهم الإنجليز في جزيرة غابريال عامَ 1856، أمّا فيران فكان لا يمانع في إرسال هذين المريضَين إلى الموت كي يتمكّن هو من مواصلة رحلته. سمعته يتحدّث عن حالة الطوارئ، ويردّد عبارةً عبثيّةً فارغة: «إنّها مسألة حياةٍ أو موت». كان متحمّساً منفعلاً. ولّما اتّضح أنّ الأغلبيّة لا توافقه الرّأي، اقتُرِحَ اللّجوء إلى التصويت. كان متعهّدا العمّال واقفَين أبعدَ قليلاً، لا ينبسان ببنت شفة. فهما لا يفهمان النقاش بين جاك وفيران، لكنّهما حضرا هنا كي يصطحبا نيكولا والسيّد تورنوا. وكان في هذا المشهد شيءٌ شرّيّر وغريبٌ في الوقت ذاته، لكأنّنا كنّا نشارك في محاكمة هذَين التعسَين طريحَي الفراش في المستوصف.

لم أعد أحتملُ أكثر. عانقتُ سوزان وتركتها مع سارة. مشيت في نسيم الصّبح العليل إلى الشاطئ. وبالقرب من الرصيف، رأيت أنّ المسنّ ماري قد جرّ مسبقاً القارب المسطّح إلى الماء، ووقف ينتظر لحظة المغادرة. كان القمر لا يزال يومض بين شقوق الغيم، وضوء النهار يتلألأ على أعراف الموج.

كنت في حاجةٍ لأنْ أرى سوريافاتي، تملّكتني رغبةٌ قويّة في أنْ ألمح طيفها النّحيل عند البحيرة سالكاً درب الشّعاب المرجانيّة الخفيّ.

أحسست أنّها هي وحدها من تقدِر على محو ما حدث، صخبِ التمرّد في خليج باليساد، والخوف الذي تملّكَ سوزان ونحن نحاول الفرار، والدّم الذي سال على خدّ جاك، وكلّ تلك اللّيلة بجلبةِ أصواتها ووهج نيرانها. لكنّ الشاطئ ظلّ خالياً، ولم تلُح أيّ بارقة أمل.

كنت لا أزال على الشاطئ حين أخذ القارب نيكولا والسيّد تورنوا إلى جزيرة غابريال. حمل متعهّدا العمّال نيكولا على نقّالة مرتجلةٍ من عصوين وملاءة، فيما سار تورنوا خلفهما مرتدياً قميص المشفى الواسع. لم ينظر إلى أحد، ركِب القارب وجلس إلى جانب نيكولا، كما لو كان يرافقه. وكان السّردار قد أرسل معهما اثنين من المرضى الهنود من باليساد، من باب المساواةِ بين الطرفين، كانتا امرأتين، عجوزاً وأخرى أصغر سناً، من حيّ المنبوذين على الأرجح، متلفّعتَين بغطاءيهما. وزُوّد القاربُ بغطاءٍ قماشيٍّ مرتجلٍ لحمايته من الرياح. صعد جاك أوّلاً في المقدمّة، ووقف المسنّ ماري في مؤخّر القارب متكئاً على مُرْدِيِّه الطويل[1]. وفي ضوء الفجر الرّماديّ، أخذ القارب الذي تسلّل إليه الماءُ يبتعد ببطءٍ على صفحة البحيرة، ولم أستطع إلّا أنْ أفكّر في رحلة الملّاح الأخيرة[2]. فكم رحلةً ستتبعها يا تُرى؟

عاد جاك من جزيرة غابريال شاحباً مضطّرباً. لم يرغب في المكوث هناك طويلاً، فقد كان يتعجّل العودةَ إلى جانب سوزان. سِرْنا معاً

(1) المُرديّ: عصا خشبيّة طويلة ينحّي بها الملّاح القارب عن الأرض أو يدفعه بها.

(2) إشارة محتملة إلى مطوّلة الشاعر الإنجليزيّ صامويل تايلور كوليردج Samuel Taylor Coleridge «قصيدة الملّاح الشّيخ» «The Rime of the Ancient Mariner».

حتّى الكرنتينة، دون أن نتبادل كلمة. كنت قد سخرتُ منه لأنّه أذعن لفيران الفاسد. لكنّني فهمت الآن أنّه كان إجراءً لا مفرّ منه. كانت تلك إرادة السّردار الذي على ما يبدو قد تلقّى الأمر من موريشيوس، حين نزلنا من المركب الشراعيّ.

كانت سارة تجلس بجوار سوزان، وتحاول أن تقنعها بتناول بعض ماء الأرزّ، لكنّ الحمّى كانت قد استبدّت بها، فلم تستطع أنْ تأكل أو تشرب. ما عادَ لدينا سوى ذلك الماء الفظيع بالبرمنغنات[1]. ولم يمتلك أحدٌ العزيمة لصنع الشاي في ذلك الصباح.

لم تفارقنا ذكرى تلك اللّيلة ورحيل المرضى. ذهبتُ إلى الشّاطئ أتأمّل البحيرة السّاحليّة. كانت مياهها صقيلةً كأنّها صفحة بحيرةٍ عاديّةٍ[2]. ارتسمَت حدود جزيرة غابريال في الأفقِ الصّافي، وتبدّت قمّة صخرتها حيث تعيش طيور رئيس البحر، وأطلال منارتها. وقد ضُرِبت خيمة المرضى على الطّرف الآخر من الجزيرة في مأمنٍ من الريح، فكان يستحيل رؤيتها.

قال جاك، وكأنّه يريد تفريغ غضبه: «كيف بلغ بنا الأمر هذا الحدّ؟» ولم يجرؤ على النّظر في عينَي سوزان. لقد انضمّ، دون أنْ يدري، إلى معسكر فيران، ملقياً باللّائمةِ على السّردار: «أين كان بالأمس؟ لم نَره. كان هو من رتّب كلّ شيء، ولم يحاول تهدئة الأمور. إنّني لم أسمع صافرته اللّعينة ولو مرّةً واحدة!».

---

(1) permanganate : الاسم العامّ للمركّب الكيميائيّ الذي يحتوي على أيون المنغنات، ويستخدم لأغراض طبيّة.

(2) تختلف البحيرة الساحليّة أو الهوْر (lagune) عن البحيرة العادية (lac) في العمق ونوع الماء، ودرجة حرارته، وعوامل أخرى. فالبحيرة الساحليّة أقلّ عمقاً ومياهها أكثر ملوحةً ودفئاً.

كان قوسا حاجبيه قد تورّما، وجفّ الدّم على جفنه. وقد شطر زجاجُ نظّارته المكسور نظرتَه. كان يتحرّك بعصبيّة، ويداه جافّتان لاهبتان. هو أيضاً قد تعرّض لنوبة ملاريا. أتذكّره وهو يصف ليَ الحمّى التي كانت تزوره في المدينة. كان يتحدّث عنها كأنّها ريحٌ تهبّ في الحقول، أو موجةٌ تغزو كلّ شيء في بيت عزبة آنّا، الأروقةَ وغرف النوم، وتسكن الملاءات المبلّلة وماء الأباريق والهواء وظلّ الفيراندا، وتختلط بدخان المطابخ وصرخات الزّرزور في المساء، وحفيفِ أوراق الكزوَرينة، ووشوَشة البحر، مثل غثيانٍ أو خوفٍ يسرّع نبضَ القلب، ويقشعرّ منه البدن، كما يحدث عشيّة العاصفة.

«لماذا لا يُحرِّكُ ساكناً من أجلنا؟». قَدِمَ جاك إلى الشّاطئ محاولاً أنْ يلمحَ خطّ موريشيوس عبر جزيرة غابريال، حيث الغيوم الحلزونيّة معلّقةٌ برؤوس القمم. «لا أحد يهتمّ لأمرنا، أو يدعو إلى إطلاق سراحنا!» لمْ يشأ أن يلفظ اسم ألكسندر. لكنْ لا بدّ أن كبير العائلة يعرف أين نحن. يستحيل أنّه لم يُبلَّغ بالأمر. وإذا كان لا يفعل شيئاً، فذلك لأنّه يبيّتُ أمراً ما. لسنا سوى أشباحٍ في نظره. فبعد أنْ غادر أنطوان وأماليا موريشيوس منذ ما يقارب عشرين عاماً، لم يعد لنا وجود.

ولم يتبقّ سوى محونا، مثلما حدث للعمّال الذين كانوا على متن سفينة ليداريه في ربيع عام 1856.

حاولتُ طمأنته: «كلّ شيء سيكون على ما يرام. إنّها مسألة أيّام». لكنّ الحُمّى منعته من الاستماع إليّ. حدّقَ فيّ دون أن يفهم. ولربّما أخطأتُ أيضاً وردّدت عبارة فيران: «مسألة حياة أو موت». لم أعد أعرف.

ساعدتُ جاك في العودة إلى الكرنتينة. كان يمشي بمشقّة. قال: «كأنّني أحمل شخصاً على ظهري». فخطرَ لي **شيخ الجبل**[1]، وقلت له: «فلا تقطع به النّهر!» توارى خلفَ شُجيرةٍ كي يقضيَ حاجته، لكنّه لم يستطع. كانت ساقاه ترتعشان وأسنانه تصطكّ من الحمّى. حاول تمالك نفسه حتّى لا تراه سوزان في هذه الحالة. وأعطيته الكينين[2] مع البرمنغنات.

كانت سوزان مستلقيةً، بدت كأنّها نائمة، لكنّها كانت تنظر من بين رموشها، وشعرها الكستنائيُّ الجميل مثقلٌ بالعرق ومُرخىً على كتفَيها. لمّا وصل جاك همسَت باسمه. استلقى إلى جانبها، فنظرتُ إليها بعطف. يكبرني جاك بتسعة أعوام، لكنْ بدا لي في تلك اللّحظةِ أنّني أنا شقيقه الأكبر، وينبغي عليّ حمايته، وحماية سوزان بوصفها أختي. كنت أحبّها.

(1) الأرجح أنّ الإشارة هنا إلى حكاية سندباد الشهيرة الواردة في ألف ليلة وليلة: يلتقي المغامر سندباد على جزيرةٍ مهجورةٍ بشيخ متعب فيشفق عليه ويحمله على ظهره ليعبر به النهر، لكنّ الشيخ الشرّير يشبك قدميه بإحكام على رقبة سندباد فيكاد يخنقه، ولا ينجح المغامر في التخلّص منه إلّا بعد أن يسقيه شراباً مُسكِراً يجعله يتراخى.

(2) Quinine: مركّبٌ شبه قلويّ، أبيض بلوريّ ذو خصائص طبيّة منها خفض الحرارة وعلاج الملاريا.

17 يونيو

استوطن القلق الكرنتينة. شرح بارتولي وجوليوس فيران وضع مخزوننا: عشرون كيلوغراماً من الأرزّ والأسماك المجفّفة لمدّة أسبوع تقريباً. ونفطُ الإنارة سينفد في غضون يومَين أو ثلاثة. كان السّردار قد وزّع ما تركه خفر السواحل من مؤنٍ مستثنياً معسكرنا. لماذا؟ هل يعرف شيئاً نجهله نحن عن موعد رحيلنا؟ أم أنّه قرّر تجويعنا؟ ثمّ إنّ بعض الهنود قد نهبوا المخزون في معمعمة التمرّد، فمُزّقت أكياس المؤن ونُثِرت محتوياتها في البحر، ظنّاً ممّن أقدموا على ذلك أنّ فعلتهم ستجبر القارب على العودة. وما برح جوليس فيران يجترّ كابوسه، كنت أسمعه وهو يستدعي الزّوجين ميتكالف ليشهدا، مردّداً بصوتٍ كئيب: «Remember Cawnpore»[1]. ذات يوم أخبرني جاك بما حدث هناك، في شمال الهند، حين استولى جيش **نانا صاحب**[2] على كاونبور، وقتلوا جميع الإنجليز، رجالاً ونساءً وأطفالاً، وألقوا بهم في مياه نهر الغانج. لكنّ النّظرة التي ردّ بها جون عليه كانت تقول بوضوح إنّه لا يتذكّر شيئاً من هذا.

في الخارج كانت الشّمس تلتهب في تجويفٍ هائلٍ فوق الجزر. ما عدتُ أقوى على المكوث في أكواخ الكرنتينة بعد الآن. كنتُ أختنق، وكنت أكره وجه فيران الشّاحب، والخوفَ الذي كان يبثّه في نفوس الآخرين، وعنف كلماته. حتّى جاك نفسه استسلم للهوس، ولفكرة المؤامرة. عبثاً حاولوا

(1) بالإنجليزيّة في الأصل: «تذكّرا كاونبور».

(2) زعيم هنديّ من أبرز قادة ثورة السّيبوي (سبق ذكرها)، وكان أحد حكّام مقاطعة كاونبور (1820 - 1859).

لـوم الهنـود والسّردار الـذي أصبـح فزّاعتهـم، بينـما هم أنفسـهم من أرسـلوا نيكولا والسيّد تورنـوا إلى جزيرة غابريال. وحدهما سـوزان وسـارة ميتكالف نجتـا مـن هذا الوسـواس، وتلك الكراهية. كانت سـوزان تنتظر لحظـةَ تعافيها مـن الحمّى كـي تتوجّه إلى باليسـاد وتقدّم بعـض الرّعاية، محقّقـةً بذلك حلمها الملائكيّ. حتّـى إنّهـا أقنعـت سـارة بمسـاعدتها. أمّـا جـون ميتكالـف فقـد حرص عـلى استئناف أبحاثـه النباتيّة.

مشـيت عـلى طـول الشـاطئ أمـام الرّصيـف، دون أنْ أشـيح ببـصري عـن طيـف الجزيـرة الصغـيرة. حاولـتُ أن أتخيّـل معسـكرهم، مجـرّد قماشـةٍ واقيـة مرتجلـة، تمنـع تسـلّل الريـح والشـمس، ثُبّـت في ظـلّ الصخـرة.

تبـدو الجزيـرة مهجـورةً عنـد مشـاهدتها مـن هنـا. بضـع شـجيراتٍ وأجمـاتٍ يابسـةٍ مغروسـة في الصخـرة السـوداء. مـا مـن علامـة عـلى الحيـاة، مـا مـن دخـان. لا شيءَ سـوى طيـور رئيـس البحـر التـي تحلّـق عشـوائيّاً راسـمةً دائـرة تطـوّق قمّـة الصخـرة، ومطلقـةً صرخاتهـا المبحوحـة. وكانـت أحيانـاً تـأتي إلى الشـاطئ وتراقبنـي، فتتقـدّم نحـوي مهيبـةً خرقـاء في آنٍ معـاً، تضايقهـا الرّيشـة الحمـراء الطويلـة التـي تطفـو خلفهـا مثـل رايـة. كان الأطفـال الهنـود يأتـون لمراقبتهـا بـين الصخـور، آملـين ربّـما أنْ يمسـكوا بواحـدةٍ مـن تلـك الريشـات الطويلـة. وقـد أخـبرني جـون ميتكالـف أنّ اسـمها العلمـيّ **فينيكـس روبيريـكاودا**[1]، ويبـدو أنّهـم في أفريقيـا يؤلّهونهـا.

هـا أنـذا في مـكاني بـين صخـور البازلـت، أجلـس في جـوفٍ رمـليّ تنمـو فيـه نباتـاتٌ ذات زهـورٍ ورديّـةٍ صغـيرة. إنّـه المسـاء، البحـر منبسـط سـاجٍ،

---

(1) phoenix rubricauda.

وحاجز الشّعاب المرجانيّة مختفٍ في عتمة البحيرة. جزيرة غابريال وجرف البركان الأسود من أمامي، ومن ورائي شريط اليابسةِ الممتدّ على مستوى الماء، حيث غصون الديْداء تميل مع الريح. وفي الأفق ما بين شريط اليابسة وجزيرة غابريال الصغيرة، أرى طيفَي جزيرتَي أو سيربان ورونـد، مثل حيوانَين طافيَين.

الآن أدركتُ الأمر. لقد صار هذا المشهد عندي أكثر أهميّة من نقطة المراقبة في أعلى البركان، حيث فيران وبارتولي يراقبان بلا كللٍ ساحل موريشيوس. أنا هنا أتطلّع نحو الشرق، في الاتّجاه المعاكس. ولن يأتيَ شيءٌ من البحر من هذه الجهة، لكنّ سورياڤاتي قد تظهر هنا في أيّ لحظة، شاقّةً دربها بين الصخور. يبدو لي أنّي عرفت هذا المكان منذ الأزل، الشاطئ واليابسة الخفيضة التي تتداخل مع البحر، والصخرة العظيمة العامرة بالطيور.

وما هو إلّا أنْ ظهرتْ أمامي على الشاطئ، دون أنْ أحسّ بها. بدت في حالةٍ غريبة، فقد كانت تنظر في قلق، وكأنّها تخاف وجود شخص ما. كانت ترتدي السّاري الأخضر المائيّ ذاته، وشالُها الأحمر الذي أبهتته الشّمس يغطّيها بالكامل. وقد رُسِمت على جبينها علامةٌ بلون المَغرة.

- ماذا تريد؟ إلامَ ترمي؟

تحدثت بتؤدةٍ ووضوح، ولكن من غير تكلّف.

دُهِشتُ من سؤالها:

- لا أريد شيئاً، كنت أنتظركِ.

فقالت جادّةً وعيناها تلمعان:

- إذن، أهي أنا من تنتظرها هكذا كلّ يوم؟

جلسَتْ على الرّمـل تنظـر إلى البحيرة. كانت الشّـمس تطلع حينـاً وتغيب حينـاً، مضيئـةً وجهَها وأسـنانَها الناصعة البيـاض. وقد لاحظـتُ للمرّة الأولى أنّهـا تضـع زمامـاً ذهبياً صغـيراً في فتحة أنفهـا اليسرى.

- أين تعلّمتِ التحدّث بالفرنسيّة بهذا الإتقان؟

كان سؤالي سخيفاً استحقّ إجابةً ساخرة:

- مثلك، أعتقد. إنّها لغتي. لكنّها أردفت قائلةً:

- لقـد ربّتنـي الرّاهبـات في موريشـيوس. لكـنّ لغتـي الحقيقيّـة هـي الإنجليزيّـة. فأمّـي إنجليزيّـة.

ثمّ لا أدري لماذا، سألتُها:

- هل يمكنني أنْ أرى والدتَك؟ أودّ كثيراً أن ألتقيَ بها.

- أمّي؟ أتودّ مقابلة أميّ؟

ضحكَت، كما لو كانت تلك أسخف فكرةٍ يمكن أنْ تخطرَ في بال أحد.

- مستحيل.

- لَماذا؟

تردّدت سوريافاتي. كانت تبحث عن سببٍ وجيه.

- لأنّ... لأنّ أمي ليست شخصاً يمكنك مقابلته.

وتردَّدَت أكثرَ بعدُ.

- لأنّ أمّي ترفضُ مقابلة البيض.

قالت عنهم «السّادة البيض»، على الطريقة الكريوليّة.

- لكنّني لست من السادة البيض!

لم تسمع. أو أنّها لم تصدّق ما قلت. نظرت إليّ، ثمّ تابعت تقول:

- قبـل أنْ تـأتيَ إلى هنـا كانـت في موريشـيوس، وعمِلـت لـدى

السّادة البيض في ألما. كان أبي يعمل أيضاً في مصنع السّكّر. ثمّ تعرضَ لحادث، وتوفّي حين كان عمري سنةً واحدة، لذا عهدَت بي أمّي إلى الرّاهبات. وعادت إلى الهند. ولمّا رجعَتْ، رفضت الرّاهبات ردّي إليها. قُلن إنّني بتُّ الآن لهنّ.

حدّثتني سوريافاتي عن هذا كلّه كما لو كان طبيعيّاً، كأنّها تحكي لي قصّةً كنت سمعتها عدّة مرّات من قبل. وكانت تخطّ على الرّمل بقطعةٍ صغيرةٍ من الخشب بعض رسوماتٍ وعلاماتٍ ودوائر، وحول معصمها أساورُ من كلّ لون، من النّحاس المطليّ بالمينا، واسعةٌ حول الرّسغَين وضيّقةٌ أعلى المرفقَين.

- وماذا فَعلَت؟ هل استرجعتكِ في نهاية المطاف؟

- كلّا، كان ذلك مستحيلاً. فالسّادة البيض لا يتركون ملكيّتهم بسهولة. صارت تراني خِفيةً. إذ حصلَت على وظيفةٍ بجوار الدّير كي تظلّ قربي. وحينَ صرتُ في السادسة عشرة من عمري غادرتُ معها. اختبأنا في موريشيوس، وذات يوم وجدَت قارباً، وأتيْنا إلى هنا، إلى جزيرة بلات، لأنّها كانت متيقّنةً من أنّ الراهبات بهذا لن يعثرن علينا. والآن هي مريضة. ولا يمكنها أن تغادر.

تأمّلتُ وجهها، وبشرتَها النّحاسيةَ وعينَيها اللّتَين بلون الكهرمان، لون الغسق. لم أرَ مثل هذه الفتاة الجميلة من قبل، إنّني عاشق.

- كيف هو الحال هناك، من حيث أتيتَ؟

كان صوتُها مكتوماً قليلاً. لم تعد تريد الحديث عن والدتها. أرادت أنْ تكون هي من يطرح الأسئلة.

- كيف هو الحال في فرنسا، في إنجلترا؟ أخبرني عن إنجلترا. هل هي جميلة حقّاً، بحدائق وقصورٍ كبيرة، وأطفال يشبهون الأمراء والأميرات؟

أخرجَت من جيب ساريها قطعةً من الورق بسطتها بعناية. لقد أحضرَتها لي، فقد عرفت أنّها ستجدني هنا. هي صفحةٌ من جريدة **أخبار لندن المصوّرة**، وفيها صورة طفلة فظيعة تبتسم، كتُب أدناها: FRY's Finest COCOA (كاكاو فريز الأجود).

لم أستطع إلّا أن أضحك. فهنا، على هذا الشاطئ، وفي هذه الجزيرة حيث نحن معزولان، ثمّة في صورة الطّفلة الجنلى شيءٌ سخيفٌ يفتقر إلى أيّة جديّة. ضحكتْ سوريافاتي أيضاً، مُخفيةً فمهَا بيدها. ضحكنا حتّى لم نعد نعرف لماذا نضْحك. إنّها المرّةَ الأولى التي أضحك فيها منذ أيام، لحظةٌ من سعادة. كانت الطفلةُ في الصّورة ترتدي فستاناً طويلاً من الدانتيلا وقبعةً ظريفة الشّكل.

- الأطفال هناك ليسوا بالأمراء.

حدّثْتُها عن الشوارع في باريس أو في لندن، عن المطر والبرد، والشّقق التي تدفّئها مواقد الفحم. وعمّا رأيته في لندن، في حيّ إليفانت آند كاسل، وقد أجفلها هذا الاسم. هناك إذن قصورٌ وأفيالٌ في إنجلترا! لكن سرعانَ ما أدركتُ أنْ ليس هذا ما تريد سماعه، إذ لاحَ على وجهها تعبير حزنٍ وخيبة. لذا شرعتُ أحدّثها عمّا لا وجوّد له، عن إنجلترا التي تجعلها تحلّقُ في حلمها، حيث الطرق الكبيرة التي تصطفّ على جانبَيها الأشجار، والحدائق المليئة بالبحيرات والنوافير، والعرباتُ التي تمرّ على طول الجادّات، حاملةً النساء بفساتينهنّ

الجميلـة. وعـن الأوبـرا والمسـارح وكريسـتال بـالاس في لنـدن والمعـرض العالمـيّ في باريـس. اخترعـتُ كلّ شيء، ووصفـتُ لهـا أمسـياتٍ راقصـةً لم أحضرهـا قـطّ، واحتفـالاتٍ كنـت قـد قـرأت عنهـا في **صعـود المحظيّـات وانحدارهـنّ**[1]».

كانـت سـوريا تصغـي بانتبـاهٍ شـديد وهـي تنظـر إليّ بعينَـين صافيتَـين، وتتابـع كلّ جملـةٍ كـما لـو كانت مـن **ألـف ليلـة وليلـة**. تابعـتُ سرد القصص، واختـراع رجـالٍ ونسـاء مجهولـين. ليس الأمـر صعبـاً علـيّ إلى هـذا الحدّ. فلـمّا توفّـي أبي كنـت في الثالثـة عـشرة مـن عمـري، فـكان علـيّ، وأنـا في مدرسـة روي ماليـزون الداخليّـة، أن أختـرعَ كلّ شيء مـن أجـل الآخريـن: أبي وأمّـي ورحـلات إجـازتي وبيتـي. وقـد لعبـتُ هـذه اللّعبـة مـع جـاك أيضـاً. فكنّـا في كلّ مـرّة نلتقـي فيهـا في مونبارنـاس، عنـد العـمّ وليـام، نختلـق المغامـرات، فيصـير لنـا أصدقـاء، ونذهـب معهـم إلى الحفـلات كـي نراقـص فتيـاتٍ صغـيرات مثـل الزهـور، بـل ندخـل حتّـى في علاقـاتٍ مـع نسـاء متزوجـاتٍ غامضـات. كان جـاك مغرمـاً بمينـي موريـل دُوي[2] التـي كانـت تسـافر إلى جبـال الكاربـات متنكّـرةً في زيّ رجـل، مسـلحةً بعصـا ومسـدّس، ومرتديـةً قبّعـةً مثـل شـابٍّ كوكْنـيّ[3]».

---

(1) رواية *Splendeurs et misères des courtisanes* للكاتب الفرنسيّ أونريه دو بلزاك.

(2) Ménie Muriel Dowie: كاتبة بريطانية (1867–1945). كانت تنتمي إلى تيّار «المرأة الجديدة» في الكتابة، الذي كان له تأثيرٌ كبير في الحركة النسوية. عُرفت برحلاتها المتعدّدة وأهمّها الرحلة إلى جبال الكاربات، وهي سلسلة جبال تمتدّ في أوروبّا الوسطى والشرقيّة.

(3) Cockney: تُطلق هذه التسمية على فئةٍ من سكان لندن. يشير المصطلح أساساً إلى المتحدّثين بلهجة كوكني المميّزة التي يستخدمها بعض الناس في لندن وحولها، من أبناء الطبقة العاملة والطبقات المتوسّطة الدنيا؛ خاصة سكّان الطرف الشرقيّ من لندن. وكان المصطلح يُطلق تقليديّاً على الناس الذين ولدوا قريباً من كنيسة سانت ماري لوبون في لندن.

ردّدَت سـورياقاتي الاسـم وكأنّـه سـحر: مينـي موريـل دُوي، فقـد افتُتنَـت بـه. شـعرتُ بالخجـل قليـلاً، لكنّنـي كنـت أعلـم أنّهـا سـتنهض وتغـادر إنْ توقّفـتُ عـن الحديـث.

وفجـأة، مالـت الشّـمس إلى الجهـةِ الأخـرى مـن الـبركان، وأصبـح الشـاطئ في الظـلّ. وقـد مـرّ عـصرُ ذلـك اليـوم بسرعـةٍ كبـيرة. سـمعتُ صـوت البحـر المُقبِـلِ نحونـا، وتلـكَ الهِـزّة الخافتـة التـي تبـدو كأنّهـا تنبثـق مـن قاعـدة الجزيـرة. وشـعرتُ أنّ كهربـاء تـسري في أعماقـي، نوعـاً مـن طاقـةٍ جديـدة. وكانـت هـذه أوّل مـرّة، منـذ أيّـام، لا أشـعر فيهـا بالتّهديـد الـذي يخيّـم عـلى الجزيـرة، حتّـى إنّنـي نسـيت التمـرّد الـذي حصـل. وفي تلـك اللّحظـةِ، لمحـتُ عـلى ميـاه البحـيرة القـاربَ المسـطّح، عائـداً مـن جزيـرة غابريـال مـع عـودةِ الطيـور، وكان المسـنّ مـاري يقـفُ عـلى مؤخّـره.

وبقيـتُ وحـدي عـلى الشـاطئ. فقـد ركَضَـت سـورياقاتي عـبر الدّغـل سريعـةً مثـل دخـانٍ يتطايـر. فصحْـتُ قبـل أنْ تبتعـدَ أكثـر: كال![1] – أيْ «غـداً».

(1) بالهنديّة في الأصل.

18 يونيو

نباتات طبّية أخرى:

نبتة التّيلوفورا (محميّةً تحت غطاء من الفربيون) المعروفة باسم عرق الذّهب المقيّئ.

بحثتُ بلا جدوى عن أنواع تيلوفورا الرّبو المتسلّقة. عثرتُ على فربيون البحر الأبيض المتوسّط، واسمه العاميّ «فانغام».

عدّة أنواع من الفليفلة (الفليفلة الشجيريّة) في المزارع القديمة. وفي بقيّة أنحاء باليساد عند نهاية الشريط الشرقيّ مساءً، كان هناك عددٌ قليلٌ من أصناف عائلة الخِرمال، لكنْ جافةٌ شحيحة الأوراق، أغصانها متعرّجة، وأوراقها جميلةٌ ذات عروقٍ أرجوانيّة، أو بلون خشب الأبنوس أو البلّوط.

وعلى الجرف امتدّت عشبة الحَثْرة المنتشرة، وتُسمّى عشبة الغِرغر.

القطيفيّة: بريّة واطنة، ومُهمَلةٌ لسببٍ أجهله (ليس هنالك أيّ محاولات واضحة لزراعتها).

لمْ تكد تمرّ بضع ساعاتٍ حتّى نُسيَت حركة التّمرّد في باليساد. وفي صباح اليوم التّالي، تعرّض مرتكبو الاغتصاب للضّرب في الشارع الرئيسيّ، ثمّ وَضعت بعضُ النّساء أوراق الهيليكونيا وبلسماً على جروحهم، وعادت الحياة إلى مسارها الطبيعيّ، يَضبطُ إيقاعَها أذان الصّلاة وصافرة السّردار، على فرضِ أنّ هذه حياةٌ طبيعيّة.

شرع جاك في تطهير المستوصف وأكواخ الكرنتينة بمساعدة المسنّ ماري وحارسه. وحضر العمليّة متعهّدا عمّالٍ مندوبانِ عن الشّيخ

حسين. وأُحرِقت الفُرُشُ والأغطية الملوّنة قرب الشاطئ، ورشّ جاك أرضيّات المنازل بسائل كونديز المعقّم. وحين أُضرمت النيران في المفارش، لم أستطع البقاء. شعرتُ بالغثيان في جوفي، فركضتُ لائذاً بطرف اليابسة، في حفرتي بين الصخور. انتظرتُ سوريافاتي حتّى الظهيرة، بلا جدوى، فلم تأتِ حتّى مع هدأةِ البحر. وبدَت جزيرة غابريال تحت السماء العاصفة أكبر من المعتاد، تطوّقها طيور رئيس البحر بتحليقها اللّجوج.

ليلةَ أمس، شاهدتُ على ضوء مصباح البونكا الخابي (كانت صفيحة الكاز على وشك النّفاد وقد امتلأت بالخَبَث) طقساً سخيفاً وشرّيراً في مبنى الكرنتينة. وقد تصدّر المشهد كالعادةِ جوليوس فيران: فبعد ديباجةٍ منمّقةٍ ومتحذلقة، تلاها بصوت أبحّ، مدحرجاً الرّاء من حينٍ إلى آخر[1]، قرأ لنا نصّ المرسوم الذي ينوي إيصاله عبر الهيليوتروب[2] إلى الحاكم، السيّد تشارلز كاميرون ليز. أحاول هنا أن أجمع ما علِق منه في ذاكرتي، لكنّ الأصل كان أشدّ تكلّفاً: «اعتباراً من اللّيلة، وإلى أن تُنهيَ السلطات الشرعيّة هذا الوضع، يُفرَض حظر التجوال في الجزيرة بأكملها على السكان جميعاً، من المسافرين الأوروبيين والمهاجرين الهنود في باليساد على حدّ سواء. سيسري حظر التجوال من غروب الشمس حتّى الفجر، وسيعلَنُ عن بدايته ونهايته

(1) ينطق الفرنسيّون عموماً حرف الرّاء غيناً، إلّا في لهجة بعض الأقاليم، حيث يُلفظ راءً مشدّدة، كما في الإسبانية. ويقال لمن يلفظه على هذا النحو إنّه «يدحرج الرّاء»، وهو التعبير الذي استخدمه المؤلّف هنا.
(2) ويُسمّى أيضاً الهيليوغراف، وهو جهاز لإرسال البرقيّات لاسلكيّاً باستخدام الشمس عن طريق انعكاس أشعّتها في مرآةٍ أو مرايا.

عبر صافرةٍ طويلةٍ تُطلَقُ على طرفَي الجزيرة. وسيُعَدّ كلّ من يخالف حظر التجوال خطراً على المجتمع، ويُقبَضُ عليه فوراً. وأخيراً، فإنّه اعتباراً من مساء اليوم، ستُنشأ حدودٌ على الجزيرة بين الطرف الشرقيّ والطرف الغربيّ للحدّ من حركة سكّانها وخطر انتشار الأوبئة، ولن يُسمح باجتيازها إلّا في حالاتٍ استثنائيّة».

ثمّ مرّر فيران الفاسد على الآخرين هذا النصّ المكتوب بالفرنسيّة والإنجليزيّة، والممهورَ بتوقيعه وتوقيع بارتولي وجاك، وفي الأسفل منه، توقيعَي كبيرَي باليساد، الشّيخ حسين وآتشنا متعهّد العمّال، بأحرف هنديّةٍ أوّلاً ثمّ بالأحرف اللّاتينية. فيما امتنع الزّوجان ميتكالف عن التوقيع، وأغلب الظنّ أنّ جون لم يطّلع على المرسوم.

وانتهت الأمسيةُ بصلاةٍ مشتركة. كان فيران الفاسد هو من خطرت له فكرة هذه المراسيم التي تشبهه. فتلا، واقفاً في منتصف الغرفة العاجّة بدخان مصابيح الزّيت، صلاةَ «أبانا الذي في السّموات»، ثمّ ارتجل، بصوتٍ متحشرجٍ قليلاً تردّد صداه على نحوٍ غريبٍ في الأكواخ، بضع عباراتٍ جوفاء عن مصيرنا. فاحتمَت سوزان بجاك، وعيناها تلمعان من الدّمع أو الحمّى. خفق قلبي بشدّة، فقد شعرتُ بما شعرَت به، شيءٍ أشبه بالكراهية. لقد أفسد جوليوس فيران كلّ شيء. فهذا التّافه اندسّ بيننا، ونجح في جعلنا مثله. ولم أستبعد قطّ أنّه اصطنع تلك الحدود كي يمنع سوريافاتي من القدوم إلى الشاطئ. ففيما هو يقرأ مرسومه ببطءٍ وتكلّف، حطّت نظرتُه عليّ للحظة، وأظنّ أنّني لمحت فيها بريق خُبثه.

ظلَلـتُ أروح وأجـيء طيلـةَ اليـوم بـين الكرنتينـة وطـرف الجزيـرة الصخـريّ منتظـراً سـوريا، عـلى عِلمـي بأنّهـا لـن تـأتي. واكتشـفتُ أن أعشـاب الدّيْداء والشّجيْرات صـارت تحمـل آثـار خطـاي، فمـن فـرطِ مـا خضـتُ هـذا الـدّرب، حفرتُـه مثـل خـطٍّ كالـذي تخلّفـه حوافـرُ حيـوانٍ. وقـد أخـبرني اكتشـافي هـذا أكثـرَ مـن أيّ تقويـم زمنـيّ آخـر، عـن طـولِ الوقـتِ الـذيّ مـرّ. وبـدا لي أنّنـي أعـرف كلّ حجـرٍ عـلى الشـاطئ، وكلّ مسـلكٍ بـين حـواف الشّـعاب المرجانيّـة الميتّـة، كلّ خصلـة مـن الأعشـاب النجيليّـة وكلّ نبتـة.

لم تعـد طيـور صخـرة بيجِـن هـاوس، التـي كانـت تخافنـي مـن قبـل، تهـرب لحظـةَ وصـولي. صرتُ أُحـضر لهـا الأعطيـات، قليـلاً مـن سـمك القـدّ المجفّـف، وقطعـاً مـن البسـكويت مدهونـة بالشـحم. كانـت طيـور النـورس تـدور حـول الصخـرة المسـطّحة التـي تعلـن بدايـةَ الشّـعاب المرجانيّـة، ثـمّ تنكـبّ صارخـةً عـلى الأعطيـات. كنـت أرغـب بالأخـصّ في تدجـين طيـور رئيـس البحـر التـي تحلّـق في مسـاربها بـلا انقطـاعٍ بـين جزيـرة غابريـال وسـاحل جزيـرة بـلات، مـارّة بالقـرب منـي، فأُحـسّ بنظراتهـا الحـادّة تمسـح المشـهد، وأسـمع صرخاتهـا. وكانـت تنسـاب بعـد ذلـك نحـو البحـيرة، مجرجـرةً وراءهـا ألسـنة لهبهـا الحمـراء، بطيئـةً لامباليةً، مثـل الأسـياد.

هكـذا شُـطِرت الجزيـرةُ إلى نصفَـين بخـطٍّ وهمـيّ، وكان هـذا الخـطّ هـو مـا حاولـتُ تتبّعـه آخـر النهـارِ حـين رافقـت جـون ميتكالـف في جولـة بحثه. هبطنـا الصخـرةَ عـبرَ المنحـدر المكسـوّ بالشـجيرات نحـو غابـة الكزورينـة التـي تحتـلّ وسـط الجزيـرة. يتبـع الخـطُّ بعـد ذلـك المنحـدرَ الأملـس شـاطراً

طـرف اليابسـة حتّـى صخـرة لوديامـو. لمّـا دنـوت مـن المنـارة، رأيـت أنّ فـيران الفاسـد قـد أقـامَ هنـاك مـا يشـبه مـأوى مؤقّتـاً، بنـاه مـن خشـب الصناديـق ومـن قـماشٍ واقٍ حصـل عليـه مـن المسـتوصف. قـالَ إنّـه مـن هـذه النقطـة يمكنـه مراقبـة الأفـق والتواصـل مـع موريشـيوس باسـتخدام جهـاز الهيليوتـروب ودليـل شِـفرة مـورس. لكنّنـي كنـت أعلـم أنّـه يراقـب حـدوده مترَصّـداً الهنـود في ذهابهـم وإيابهـم بـين المـزارع والقريـة، وأنّـه يتلصّـص أيضـاً عـلى النّسـاء الذاهبـاتِ للاسـتحمام في الجـدول مسـاءً، عنـد سـفح الـبركان. ولربّـما كان الشّـيخ حسـين، ومعـه متعهـدو العـمّال، يحرسـون الطريـق عـلى الطّـرف الآخـر مـن الجزيـرة، عنـد الحـدّ الفاصـل، وفي أيديهـم عـصيٌّ طويلـةٌ مـن خشـب النّـات[1].

اشـتدّ الحـرّ عنـد الـزّوال، فاضطّـر جـون ميتكالـف إلى اختصار درسـه في علـم النبـات. كان الجميـع في الكرنتينـة يفترشـون الأرض، وجـاك وسـوزان يضـمّ كلّ منهـما الآخـر بـين ذراعيـه، وقـد تـورّمَ وجهاهمـا مـن تفاقـم الحمّـى. لم أشـعر يومـاً بهـذا القـدر مـن الاختنـاق. لقـد سـجنَ ركّاب لافـا أنفسـهم بقبولهـم مرسـوم فـيران الفاسـد، ورغبتِهـم في تجنّـب التواصـل مـع الهنـود مـن أجـل مغـادرة الكرنتينـة في أسرع وقـت.

هكـذا قـرّرتُ أنْ أتحـدّى حظـر التّجـوال العبثـيّ، وأرى سـوريا ثانيـةً. اللّيلـةَ، بعـد أنْ ينـامَ الجميـع، سـأتذرّع بالذّهـاب إلى المراحيـض، وأجتـاز الأجمَـة عابـراً إلى الطّـرف الآخـر. ولشـدّ مـا سـلّتني الخطّـةُ، حتّـى أنّنـي

(1) natte: نوع من الأشجار من الفصيلة السّبوتيّة ينمو في موريشيوس وجزيرة لاريونيون في المحيط الهنديّ.

قبلت طقس الصلاة الجماعية الفظيع، دعاءَ «أبانا الذي في السموات» ذاك الذي ردّده الفاسد قبل الرّجوع إلى موقعه أعلى البركان. ثمّ تقاسمتُ بعض الأرزّ المخمّر والشاي المرّ مع جاك وسوزان. وطلب إليّ جاك أن أجبر سوزان على تناول الطعام وأعطيها الشاي بعدَ أنّ أذاب فيه مسحوق الكينين. كانا يتبادلان الحنان، ويهتمّ كلٌّ منهما بالآخر أيّما اهتمام. تأمّلتهما اللّيلة، فبدا لي أنّهما ينتميان إلى عرقٍ آخر، وعالمٍ آخر. كانا يتحدّثان عن موريشيوس، وعن الحياة التي تنتظرهما هناكَ، ووصفتْ سوزان مدرسة التّمريض التي تريد إنشاءها في المدينة. وقد ارتسم في ذهنها بالفعل مخطّط المبنى الذي ستشيده على قطعة الأرض التي تأمل في الحصول عليها. أمّا جاك فتحدّث عن الأشخاص الذين سيتدخّلون من أجل إنقاذنا، وعن موظّفي شركة النّقلِ البحريّ (مِساجيري) الذين لا بدّ أنّهم أرسلوا البرقيّات. كان لا يزال يؤمن بالحكومة الجماعيّة، ولم يتخلّ كليّاً عن احتفاظه باسم العائلة نفسه الذي يحمله كبير الأسرة.

حتّى جون ميتكالف، ورغم انغماسه في البحث عن عشبة النيلةِ النّادرة، تحدّث هو الآخر عن زملائه في كليّة مجدّدي العماد، وعما سيفعلونه من أجل تنبيه الرأيّ العامّ إلى قضيّتنا، ومن أجل تحريرنا من الكرنتينة.

أمّا أنا، ومثل رَجُل عدْنٍ الذي رأيته طريحَ الفراش في المشفى، وعيناه متيبّستان من الألم، فليس عندي سوى ذكرياتٍ وأحلام. أعلم أنّني لا أتوقّع أيّ شيء خارج هذه الجزيرة. فهنا، في منحنى الشّعاب المرجانيّة هذا، كلُّ ما أملك: طيفُ سورياڤاتي السّحريّ يمشي على الماء،

ونـور عينَيهـا، ونـداوةُ صوتهـا وهـي تسـألني عـن مدينتَـي لنـدن وباريـس، وضحكتهـا حـين تندهـش بـما أقـول.

أحتاجهـا أكثـر مـن أيّ إنسـانٍ آخـر في العـالم. إنّهـا مثـلي، فهـي مـن هنـا وليسـت مـن أي مـكان آخـر، إنّهـا تنتمـي إلى هـذه الجزيـرة التـي لا تنتمـي إلى أحـد. هـي مـن الكرنتينـة، مـن صخـرة الـبركان السـوداء، مـن بحـيرةِ الشـاطئ التـي تقصدهـا في هـدأةِ البحـر. ولقـد دخلـتُ في عالمهـا.

انطلقَـت صافـرة حظـر التجـوال حـول محيـط الـبركان، وانضـمّ جوليـوس فـيران إلى بارتـولي أعـلى الفوّهـة. أطفـأ جـاك المصابيـح. واسـتلقيتُ في العتمـة أصغـي إلى الريـح التـي تحمـل هديـر الأمـواج مـن جهـة الشّـعاب المرجانيّـة. كانـت يـد سـوزان النّـضرة في يـدي. وقـد جعلهـا الكينـين تغـطّ في النـوم. في لحظـة مـا، سأتسـلّل إلى الخـارج فأشـعر بالنّسـمة العليلـةِ الآتيـة مـن أعـالي البحـار، وسأشـقّ دربيَ عـبرَ الأجمـة مقتفيـاً آثـار خطـاي عـلى طـول الشـاطئ المتلألـئ تحـت نـور البـدر.

أنـار القمـر الرّمـال والبحـيرة، وغسـلت الرّيـح صفحةَ السّـماء السّـوداء. كان الجـوّ أميَـل إلى الـبرودة. سـلكتُ دربيَ بهـدوءٍ تـامّ، حافيـاً، لا أرتـدي سـوى بنطـالٍ وقميـصٍ بـلا ياقـة، وقـد بعـث نسـيم اللّيـل رعشـةً لذيـذةً في أوصـالي. كان قلبـي يخفـق مثـل تلميـذٍ قفـز عـن سـور المدرسـة. قُبيـلَ لحظـاتٍ، فيـما كنـت أنتظـر أن ينـام الجميـع، اسـتمعتُ إلى دقّـات قلبـي، بـدا لي أنّ صداهـا يـتردّد في كلّ ركـنٍ مـن الكرنتينـة متسرّبـاً إلى أرضيّتهـا، وممتزجـاً بذلـك الاهتـزاز المنتظـم الـذي يوقّـع مـرور الوقـت. فمنـذ نزولنـا إلى هنـا، تعطّلَـت سـاعتي، ربّـما تسـلّل إليهـا مـاء البحـر أو الرمـل الأسـود، أو مسـحوق الطّلـق الـذي يطفـو ثـمّ يتطايـر مـع الريـح. وضعتُهـا جانبـاً لا أتذكّـر أيـن، ربّـما في حقيبـة جـاك الطبيّـة، مـع أزرار كُمَّـيّ أو قلمـي الذهبـيّ الـذي آلَ إليّ مـن جـدِّ جـدّي إلياسـان. صـار عنـدي الآن مقيـاسٌ آخـر للوقـت، ألا وهـو حركـة المـدّ والجـزر ذهابـاً وإيابـاً، وعبـور الطيـور، والتبـدّلات التـي تطـرأ في السـماء وفي البحـيرة، ودقّـاتُ قلبـي.

خرجـتُ متسـلّلاً مثـل لـصٍّ، فـإذا بعينَـي سـوزان تبرقـان في العتمـة. لم تكـن نائمـة. اسـتدارت نحـو البـاب فأضـاء القمـر وجههـا. قبّلـتُ خدّهـا النـديّ، ووضعـتُ إصبعـاً عـلى شـفتَيها حتّـى لا تقـولَ شـيئاً. كانـت تعـرف إلى أيـن سـأذهب، ولم تسـألني عـن أيّ شيء. إنّهـا أخـتٌ بحـق.

مضى بيَ الدّرب حتّى قمّة لوديامو. انحرفتُ شمالاً، مجتازاً حقل الحجارة البازلتيّة الذي يقطع الجزيرةَ مثل عمودٍ فقريٍّ لحيوانٍ زاحفٍ عملاق. إلى الأعلى من حقل الحجارةِ تمتدّ الحدود. هناك، أثناء النهار، يمكنك أنْ ترى الطرف الآخر من الجزيرة وصولاً إلى خليج باليساد. كان هذا هو المكان الذي قصدتُه عند الغسق، كيْ ألقيَ نظرةً خاطفة على مدينة العمّال وحيّ المنبوذين، دون أنْ أتعرّضَ لخطرِ مصادفة السّردار أو لأنْ يلتقطني المراقبان الرّابضانِ أعلى البركان. كنت قريباً جدّاً من بيت سوريافاتي، وقد رأيت أنواره تتلألأ بين الصخور.

كلُّ شيءٍ معتّم وعدائيٌّ في الكرنتينة. أمّا هنا، فثمّة مصباحٌ يومض عند كلّ باب، والهدوءُ يعمُّ الأجواء، إذ لا أثرَ للرّيح. ولكَ أنْ تعدّها قريةً من تلك القرى الواقعةِ في ركنٍ مسالمٍ من العالم، في مأمنٍ من المحن والحروب. ينيرُ القمر الأزقّةَ المنتظمةَ وسقوفَ النخيل، ويمنحُ أمواج الخليج المتعاقبة بريقاً متلألئاً. ثمّةَ رائحةٌ وديعةٌ تنبعث من القرية، رائحةُ دخان وأريج نُعاس. وبين الحين والحين ينبح كلب، أو يئنّ طفل. كنت وأنا مقرفصٌ بين الصخور أشبهَ بإنسانٍ بدائيٍّ يتجسّس على وادٍ سعيد.

مكثتُ ساكناً لا أبدي حراكاً، أكاد لا أتجرّأ على التنفّس. كنت أتنشّقُ العطر وأصغي إلى الأصوات، كأنّني آتٍ من قاع خندق، من مكانٍ أسود معدنيّ. لست أفهم ما الذي أضعناه، ما الذي حدث في شرق البركان وغيّرنا. لا أصدّقُ أنّ صوتَ الاحتجاج قد علا مدويّاً في ذلك المساء، وأنّ الرجال كانوا يركضون عبر الجزيرة، يغتصبون ويُحرقون.

هبطتُ المنحدر صوب القرية، داكّاً في طريقي التّراب والحصى، ومُغضباً الكلاب، واحداً أو اثنين منها في البداية، ثمّ ثار القطيع بأكمله وملأ الطرقات. وسمعت تدافع الجديان في الحظائر، ونساءً تنادي. وصلتُ الشاطئ وجلست على الرّمل بجوار بيت سوريا. كان كوخاً خشبيّاً مسقوفاً بسعف النخيل، يقوم على مبعدةٍ من الأكواخ الأخرى. وعند بابه أُشعِلَ مصباحٌ شحيح النّور.

ثمّ استلقيتُ على الرّمل مسنداً رأسي إلى حجر، فاستمعت إلى طنين البعوض. هدأت الكلاب وتوقفت تدريجياً عن النّباح. ثمّ أحسستُ بها تتجوّل من حولي، وتناهى إليّ وقع أرجلها على الرّمل، وصوت أنفاسها اللّاهثة.

تحدّث جاك ذات يوم عن الكلاب قائلاً إنّ علينا توخّي الحذر، لأنّنا كنّا في موسم داء الكَلَب. فاقترح جوليوس فيران مطاردتها وتسميمها. ارتعدت سوزان مردّدةً: «موسم الكَلَب!» لكنْ هنا لن يرغب أحدٌ في قتل الكلاب. أتذكّر هذيان رجل عدن: الكلاب التي تهبط من المرتفعات، وتدخل المدينة، وأتذكّره، هو الذي كان يحلُم بأنّه يذرع شوارع هرَر ناثراً كريات اللّحم السّامة.

على أنّني، هنا، لا أشعر بالخوف. أسمع أصواتاً أخرى، صرير السرطانات البريّة، أو ربّما الرّنة المعدنيّة التي تصدر عن زحف الحريش[1] بين الحجارة، أو وَقع حوافر الجديان. أحبّ هذه الأصوات، فهي تسري فيّ مثل إكسير حياة، وتبرّد حُرقتي مثل بلسم، وترّطب عينَيّ وتُرخي عضلاتي. ها أنا قريبٌ كلّ القرب من سوريا، أشعر

---

(1) أي أمّ أربعة وأربعين.

بـدفء أنفاسـها، وأسـمع دقّـات قلبهـا في الرّمـل، إذ تنـام في الكـوخ إلى جانـب أمّهـا، مفترشـةً الأرض ومتلفّعـةً مـلاءة. يبـدو لي أنّهـا تعـرف أنّني هنـا، وأنّهـا تتحـدّث إليّ في نومهـا. كان نـور المصبـاح يومـض عنـد بابهـا، مـن أجلي، وقـد حدّقـتُ فيـه مَليّاً حتّـى غـامَ بـصري فرافقنـي إلى حلمـي.

ثـمّ أيقظتنـي نظـرةُ سـوريافاتي. كانـت تجلـس أمامي عـلى الرّمـل. رأيت، بعينَـين مغمضتَـين بعـد، وجهَهـا وقـوس حاجبَيهـا الأسـودَين، والعلامـة الحمـراء الدّاكنـة بـين عينَيهـا، وزمـامَ الذّهـب اللّامـع في فتحـة أنفهـا.

- لِمَ أنتَ هنا؟

ظلَلْـتُ لحظـةً متسـمّراً حائـراً، ثـمّ لاحـتْ بـوادر الفجـر. لم يكـن نـوراً حقيقيّـاً بعـد، بـل مجـرّد بقعـةٍ رماديّـة في السـماء، حيـث غيـومٌ، في انسـيابها البطـيء نحـو البحـر، قـد علِقـت بقمـم الصخـور. أعـادت القـول:

- لِمَ أتيْت إلى هنا؟ إلامَ ترمي.

هـو السـؤال ذاتـه الـذي طرحَتـه علـيّ حـينَ تحدّثنـا للمـرّة الأولى قـرب الرّصيـف المرجـانيّ. لكـنْ هـذه المـرّة كان في صوتهـا شيءٌ مـن قسـوةٍ، كأنّـه غضـبٌ مكتـوم.

- لَمْ تأتِي منذ وقت طويل.

- لم أسـتطع. حدثـت أشـياء فظيعـةٌ هنـا، ولم أسـتطع تـرك أمّـي. قـال الشّـيخ حسـين إنّـه ينبغـي ألّا نذهـب إلى الطـرف الآخـر، فهنالـك مسـلّحون يمنعـون المـرور.

نظـرتْ إليَّ، كانـت حدقتاهـا الصّفـراوان تلمعـان غضبـاً ونفـادَ صـبر. لا تريـد الحديـث عـمّا جـرى في تلـك اللّيلـة، عـن الرّجـال الذيـن هاجمـوا

رسامه. ظلّت صامتةً للحظة. وطلع النهار رويداً رويداً، كاشفاً الشاطئ والأمواج، ومنازل المنبوذين. ثمّة نساءٌ يُقلبّن الجمر أمام البيوت حتّى في هذا الوقت المبكّر. وكانت الكلاب مُقعيةً على الشاطئ، غير بعيدٍ عنّا، وخطومها في الرّمل. همّت سوريا بالنهوض.

- عليكَ أن تذهب، لا يمكنك البقاء هنا.
- بأوامر من الشّيخ حسين؟
- كلّا، لم يأمر بشيء. هو يقول فقط إنّ علينا ألّا نقترب من السّادة البيض، لأنّ بينكم أناساً ماتوا من المرض.
- لا أفهم ما تقولين: هل الحدود التي وضعها فيران وبارتولي لا وجودَ لها؟ ألم يكن الشّيخ حسين هو من أراد ذلك؟
- عليكَ العودة إلى مكانك في الطرف الآخر. لا أريد أن تقع أميّ في ورطةٍ بسببكم، أنتم الآخرين..

قُلتُ محاولاً استبقاءَها:

- ولكن هذا ليس صحيحاً! لم يمت أحدٌ عندنا. هنالك مريضان، وقد نُقلا إلى جزيرة غابريال.
- لقد ماتا. يقول الشّيخ حسين إنكم أحرقتم جثّتيهما وملابسهما في الجزيرة.
- هذا ليس صحيحاً، إنّه يكذب.
- إنّها الحقيقة، وتريد إخفاءها. أنا أيضاً رأيت الدخان.
- أجل، إنّه الدخان المتصاعد من المراتب والملاءات، لكنهما لم يموتا. فأخي يذهب لرؤيتهما كلّ يوم، ويحضّر لهما الطعام. وهناك هنودٌ معهما أيضاً.

- أنت من يكذب! لقد أحرقتموهما كي لا يعرف أحدٌ بالأمر. ذهبتُ البارحةَ إلى الطرف الآخر، ورأيت الدخان على الجزيرة الصغيرة.

لم يكنْ الوشاح الأحمر على رأسها، فكان شعرها الطويل ينسدل على كتفيها، ولوجهها لمعة المعدن. إنّها جميلة جداً. ولا أعرف ماذا أقول كي أستبقيها. همّت بالانصراف، وسأعود أنا إلى عتمة الكرنتينة. لقد قالت الحقيقة. أدركتُ ذلك فجأةً. ربّما وقعت الحادثة أثناء نومي، أو حينَ كنت على طرف اليابسة، أمام الصّخرة التي تسكنها الطيور. أتذكّر نظرة جاك المتهرّبة لمّا عاد من جزيرة غابريال. فحين سألته سوزان عن أخبار المرضى، أجابها على عجلٍ: «كلّ شيء على ما يرام». ثمّ آوى إلى فراشه، وكان يرتجف برداً.

أمسكتُ بذراع سوريا، وضغطتُ عليها حتّى آلمتُها. لا بدّ أنّها لاحظت كم كنت يائساً، فقد عادت لتجلسَ على الرّمل، وتحدّثَت بصوتٍ مخنوق.

- ثمّة أمواتٌ هنا أيضاً. هناك امرأة عجوزٌ ماتت أمس، أخذَتها الإلهة الباردة[1]. اسمها نصيرة، كانت تسكن في ذلك البيت هناك.

وأشارت إلى أعلى قرية المنبوذين، حيث أطفالٌ يركضون على طول الممرّات، وأردفت:

- كانت أميّ هي من قامت على رعايتها، وقد أحرقناها اللّيلة الماضية قرب السّدّ.

---

(1) الإلهة الباردة شيتالا: هي إلهة تسبّب الأمراض وتُشفيها أيضاً، خاصّة الجدري، وفقاً للمعتقدات الهندوسية. وتُعبد على نطاقٍ واسعٍ خاصّةً في شمال الهند.

بقينا صامتَين، متجاورَين على الرّمل، فيما شمس النّهار تعلو في الأفق. هُيّئ إليّ أنّني أمضيْت اللّيلة معها على الشاطئ، ملتصقاً بدفء جسدها، أتنشّقُ عطر شعرها، وأسْرح مع النّجوم التي تحوم بطيئةً حول الجزيرة. تُعجبني رشاقتها، وأودّ لو أسمع ضحكتها ثانية، تلك الضحكةَ التي ندّت عنها وهي تنظر معي إلى الصفحة المُقْتطَعةِ من أخبار لندن المصورة، أو حينَ حدّثْتُها عن ميني موريل دوي.

هل ستأتين اليومَ إلى طرف الجزيرة الآخر؟

وقفَت ونظَرت إليّ كأنّها تحاول تخمين ما أفكّر به حقّاً.

- لا أعرف. ربّما.

ابتعدَت مسرعةً لا تلْوي على شيء. ثمّ دخلَت الكوخ وأطفأت المصباح. سمعتُها تتحدّث بهدوءٍ وبصوتٍ شجيٍّ كأنّها تهدهد طفلاً. وما هو إلّا أنْ لاح طيفٌ عند المدخل. امرأةٌ فارعةُ القامةِ نحيلةٌ بثوبٍ طويلٍ شديد الزّرقة. مكَثَت هُنيهةً عند مدخل الكوخ، فلمحتُ وجهها ذا القسمات الحادّة، وذراعَيها الهزيلتَين حيث تلمع أساورُ من نحاس. وضعَت يدها اليمنى فوق عينَيها درءاً للشّمس الطالعة، ورسمت باليسرى إيماءةً صغيرة، كمن يطرُد حيواناً غير مرغوبٍ فيه، وقالت بالإنجليزية: «Go...! Go...!». كانت نساءٌ أخرياتٌ يراقبن المشهد، سخرن من ملابسي الممزّقة، وشعري المبعثر. وكان الأطفال يركضون على الشاطئ، فأسرعتُ الخطى نحو الصخور على طرف اليابسة، كما لو كانوا سيرشقونني بالحجارة. كانت عيناي تحرّقانني، وللعابي مذاقٌ غريبٌ بسبب البرمنغنات. سمعتُ دقّات قلبي في شرايين ذراعَيّ وعنقي. لا بدّ أنّني كنت منهكاً من شدّة الإعياء. ولمّا بلغتُ الكرنتينة

ورأيت مباني الحمم البركانيّة القبيحة التي تغزوها الشجيْرات، تولّاني شعورٌ غريبٌ أشبه بالارتياح. كانت جزيرة غابريال تتلألأ في الشّمس قبالة البحيرة، مثل جبلٍ جليديّ أسود.

من 19 يونيو

برفقة ل.، عاينتُ مدى انتشار نبتة الدّيداء وتنوّعها، أو بعبارةٍ أخرى نبتة «البطاطس الحلوة». وحول أصل الاسم: في موريشيوس، يُفهم بوصفه اختصاراً لبطاطس دوران[1]. فمَن هو دوران هذا؟ ولماذا يُخلَّد بإطلاقِ اسمه على النبتة؟ يبدو لي هذا الاسم بالأحرى تنويعةً كريوليّة (أو ملغاشية) على كلمة بطاطس، وقد جلبَتها في الماضي قوارب العبيد التي كانت تربط البرازيل بجزر الماسكارين.

أصبح هذا الجنس من فصيلة الديْداء مستوطناً هنا. وهو ينمو في أنواعٍ متعدّدة من التّربة، من وديان البازلت عند سفح البركان إلى الشواطئ المتكلسة على الساحل الجنوبيّ الشرقيّ. ويشتهر كعلاجٍ لما يلي: الحروق واللّدغات والأكزيا واليرقان. تحتوي ورقته على حليبٍ قابض للأنسجة ورغويّ.

الديْداء العثكوليّة، وهي درنةٌ غير صالحةٍ للاستهلاك. لكن ثمّة حضورٌ لبطاطس إيدوليس الصالحة للأكل، وهي نبتةٌ في حالة جيدة، درناتٌ كبيرة قطفناها أنا ول. هنالك أيضاً الديْداءات البحريّة، وهي درناتٌ مستديرةٌ غير صالحة للاستهلاك، ذات زهور حمراء زاهيةٍ جداً.

(1) اسم النّبتة بالكريوليّة: Batatran.



عند العصر، وعلى الرغم من الإرهاق، عدنا أدراجنا إلى منحدر البركان الشرقيّ. ثمّة الكثير من عشبة المكنسة (من فصيلة الخبّازية). العثور على أمثلةٍ متنوعة من الكاجو ولكن من نوعيّة الشجيرات (يبلغ ارتفاع الصنف الأفريقيّ منها 20 قدماً).

وجدتُ عند سفح البركان نبتةَ الإنديغو (عشبة ذات تويج أرجوانيّ) والرّجلة أو (البقلة). في انتظار أنْ أكتشف قريباً النّيلة النّادرة.

إنّها الظهيرة. أقف قبالةَ جزيرة غابريال، أزاحتْ أشعة الشمس السّوادَ الذي كان يجلّل السماءَ صباحاً حينَ غادرتُ مع جون ميتكالف. ثمّة شاطئٌ رحيب يمتدّ بين طرفَي الأفق، حيث السماء كأنّها مرآةٌ تنعكس فيها صورةُ بحيرتِنا وضفافها.

اصطحبني جون مبكّراً جدّاً، عند السابعة صباحاً. لم أنم طيلةَ اللّيل إلّا قليلاً، لكنّني فضّلتُ الخروجَ معه. إذ لمحتُ في عينَي جاك تساؤلاتٍ تنتظرُ إجابتي، فآثرتُ عليها دروسَ علم النبات.

كان جون متحمّساً جدّاً، يمشي بخطىً سريعةٍ شاقّاً طريقه بين الأجمات. عبرنا المقبرة القديمة وصعدنا منحدر البركان سالكَين الدّرب المفضي إلى باليساد، فإذا بنا على خطّ الحدود، لكنْ لم يبدُ أنّ جون يكترث لذلك. كان يبحث بين كتل البازلت. كنّا بعدُ في الثامنةِ صباحاً، غيرَ أنّ الشمس كانت تحرقُ الوجه والذراعَين. كان جون يعتمر قبّعة البنما الكبيرة، لكنّ الحرّ صبغ وجهه بلون لحيته الصهباء نفسه. كان يمضي قُدُماً في خطٍّ مستقيم دون أنْ يلتفت إلى النباتات التي يدوسها أو الشجيرات التي يدفعها، هو الذي عادةً ما يكون منتبهاً أشدّ الانتباه إلى عالَم النّبات من حوله، كأنّ نوبةَ استعجالٍ قد استولت عليه وجعلته يتحرّك بارتباكٍ وعصبيّة، فكنت أتبعه بمشقّة. وعلى عجلٍ توقّف ليريَني نباتات البقلة اليمانيّة التي تنمو بانتظامٍ بين

صفوف الأحجار الجافّة على نحوٍ يستحيل معه استبعاد أنّها قد زُرعت زراعةً في الماضي: كلّها من الفصيلة الباذنجانيّة، ومن ضمنها مجموعةٌ متنوّعة من الفلفل الشجريّ، ونبتةٌ أخرى قَطفَ منها ورقةً كبيرةً رماديّة كانت ملفوفةً مثل السّيجار، وناولني إيّاها، قائلاً لي: «لا بدّ أنْ تثير هذه اهتمام أخيك، فهو يقيناً لا يستطيع الاستغناء عن التدخين. إنّها التبغيّة، أو «التبغ البنيّ» كما يُطلق عليها».

كان يبحث تحديداً عن نبتة النيّلة الزّرقاء، النّيلةِ البرّية، متيقّناً أنّه سيجدها هنا على منحدر البركان، آمنةً من عجاج البحر وعُرضةً لأكبر قدْرٍ من ضوء الشّمس. سيجد هنا العيّنة المطلوبة، الحلقةَ المفقودة من السّلسلة، التي ستوحّد جزيرةَ بلات بموريشيوس ومدغشقر، وبما وراءهما؛ بالقارّة الجنوبيّة.

تبعتُ جون ميتكالف عبرَ حقل الحجارة أسفل البركان طيلة الصباح. كانت الشمسُ تسطع بقوّةٍ حتّى أنّها في لحظاتٍ ما قد غشّت بصري. النباتات الوحيدة التي استطاعت أنْ تنموَ هنا هي النجيليّة، وذلك الصنف من الخبّازى الذي يسمّى هنا «عشبة المكنسة»، ذلك لأنّ خصلاتها الجافّة تصلح لهذا الغرض. عدنا إلى الكرنتينة قُبيل الظهيرة. اشتكى ميتكالف من صداعٍ شديد ودوار. ظننتُ أنّه أصيب بضربة شمس، فتركته في الكوخ مع سارة وتوجّهتُ لأجلب له بعض الماء البارد من الصهريج. ثمّ اضطّجعتُ متكوّراً في مكاني قرب الباب. استغرقتُ في نومٍ عميقٍ فلم أسمع صافرة السّردار التي تعينُّ وقتَ خروج النساء لجمعِ مسحوقِ الطلق عند سفح البركان. ولعلّ هذه الصافرات لا تقصد أحداً سوانا، لعلّها وسيلةٌ لإبلاغنا من أقصى

الجزيـرة: «نحـن هنـا»، حتّـى لا يغيـبَ عـن ذهننـا للحظـةٍ الطـرفُ الآخـر مـن الجزيـرة، حيـث جمْـع المهاجريـن الصّامـت، وجوعهُـم وخوفهـم في نهايـة الرّحلـة، ولا حركـةُ النسـاءِ البطيئـة وهـنّ يمضـينَ صـوب المـزارع في موريشـيوس وعـلى رؤوسـهنّ سـلالٌ مليئـةٌ بالحجـارة، ولا جيـشُ الحاصديـن الذيـن يقطعـون بسـكاكينهم سـيقان القصـب.

ولّمـا اسـتفقتُ ظننـتُ للحظـةٍ أنّنـي كنـت وحـدي في الغرفـة المعتمـة. ثـمّ سـمعت صـوتَ أنفـاسٍ بطيئـةٍ مزعجـة. كانـت سـارة ميتكالـف تجلـس مسـندةً ظهرهـا إلى الجـدار في عمـق الغرفـة ممسـكةً بيـد زوجهـا. دنـوْتُ منها بصمـت، فرفعـت بصرهـا مرتعـدةً. بـدت عيناهـا مثـل بقعتـينَ شـاحبتَين في وجههـا الـذي لوّحتـه الشـمس، وكان العـرق يلمـع عـلى بشرتهـا ويبلّـل شـعرها. قالـت: «جـون ليـس بخـير»، هامسـةً بهـدوءٍ شـديد، كـما تفعـل دومـاً، وبابتسـامة متشـنّجةٍ عـلى شـفتَيها. بـدت ذاهلـةً أكثـر منهـا قلِقـةً. سـألتُها، «مـمّ يشـكو؟» فتنحّـت جانبـاً كـي تتيـح لي رؤيتـه. كان مسـتلقياً بقميصـه نصـف المفتـوح، عينـاه نصـفُ مغمضتَـين، وجبينـه يغـلي.

- هل تناول الكينين؟

نظرَت من دون أنْ تجيب، وبهذه النظرة الفارغة قالت:

- منـذ قليـلٍ أعطـاه أخـوك دواءً، كانـت حالتـه بالغـة السّـوء حـين عـاد.

لم يقـل جـاك شـيئاً حـين عُـدت إلى البيـت هـذا الصّبـاح. كان يعلـم جيّـداً أنّنـي أمضيـت طيلـة اللّيـل في الخـارج عـلى الرّغـم مـن حظـر

التجـوّل، وأنّنـي قـد أعاقـب. سيحبسـونني في قفـصٍ بـلا أبـواب ولا نوافـذ، أو ينفوننـي إلى جزيـرة غابريـال مثـل مجـذوم. وقـد بـدت لي هـذه الفكـرةُ مضحكـةً لفـرط عبثيّتهـا.

- هل تريدين أنْ أحضر له بعض الماء البارد؟

واصلَـت سـارة النظـر إليّ بعينـين فارغتـين. كانـت شـفتا جـون جافّتـين متشـقّقتين. وكان لا يقـوى عـلى الـكلام، ويتنفـس بمشـقّة. وبـين أجفانـه المتورّمـة كانـت عينـاه تتألقـان بتلـك النظـرة المتّقـدة التـي أذهلتنـي عنـد نيكـولا. شـعرتُ بـشيءٍ أشـبه برعشـة. ركضـتُ إلى الصّهريـج، وخلعـتُ السـدّادة القماشـيّة التـي تمنـع البعـوض مـن السـقوط فيـه. أنزلـتُ دلـو الصّفيـح حتّـى آخـر الحبـل إلى أن امتـلأ بالمـاء. كان مـن فضائـل الأمطـار الغزيـرة التـي هطلـت في الجنـوب قادمـةً مـن المحيـط أنّهـا مـلأت الصهاريـج. فـكان المـاء فيهـا أميَـل إلى الـبرودة، خاليـاً مـن الملـح.

حملـتُ الدّلـو إلى سـارة، فغسـلَت وجـه جـون وصـدره. وشربـت هـي نفسـها مباشرةً مـن الدّلـو، عـلى الرغـم مـن أنّ جـاك قـد منـع ذلـك. كانـت سـوزان متكئـةً عـلى الحائـط قريبـاً مـن جـون. بـدت مرهقـةً. سـألتُها عـن مـكانِ جـاك والآخريـن، فهـزّت رأسـها، واسـتلقت لتنـام.

مـا مـن أحـدٍ عـلى رصيـف المينـاء. والقـارب المسّـطح في مكانـه عـلى الشـاطئ. يبـدو الرصيـف مهجـوراً وقديمـاً إلى أقـصى حـدّ، وقـد صدئَـت دعائمُـه الحديديّـة بـين كتـل البازلـت والوصـلات الإسـمنتيّة المسـودّة. هيّـئ إليّ أنّنـي نمـتُ مائـة عـام، وصحـوتُ فجـأةً لأجـدَني في عـالمٍ شـبحيّ.

مـا زالـت الشـمس تتوهّـج بـين شـقوق الغيـم، فـوق البحـر السـاجي. أرى عـبر ميـاه البحـيرة الـدّرب الهـلاليّ الـذي ينعطـف نحـو جزيـرة

غابريـال. كلّ شيء صامـت. مسـتحيلٌ ألّا تـأتيَ سـوريافاتي الآن. إنّنـا أحـوجُ إليهـا اليـوم مـن أيّ وقـتٍ مـضى.

خلعـتُ ملابـسي وخبّأتهـا بـينْ الصخـور قـرب الرّصيـف المرجـانيّ. هنـا قابلـتُ سـوريا أوّلَ مـرّة، وهنـا عالجتنـي حـين جرحَـت قدمـي إحـدى المرجانيّـات السّـامة. تعلّمـتُ كيـف أمـشي عـلى رصيـف الشـعاب المرجانيّة، وكيـف أخطـو وئيـداً، دون أن أحـاولَ النظـر، كـما لـو أنّنـي أعـرف عـن ظهر قلـبٍ مـكان كلّ إبـرةٍ وحفـرة. بـرّدَ مـاء البحـيرة حروقـي، وقـد سـبحتُ رويـداً في المـاء الشـفيف بعينَـين مفتوحتَـين، فشـعرتُ بالقـاع يمـسّ بطنـي وركبتـي، وكنـت أسـمع صـوت الأمـواجِ البلـوريّ عـلى الرّمـل. سـبحتُ مُـدّةً عـلى سـطح المـاء، ورأيـت وميـض الشـمس يتدفّـقُ مـن كلّ اتجـاه، ثـمّ تقدّمـتُ عـبرَ الممـرّ الضيّـق الـذي صرت أعرفـه جيّـداً، الممـرّ الـذي يهبـط نحـو منتصـف البحـيرة متّسِـعاً ليصـيرَ واديـاً عميقـاً شـدَيد الزّرقـة. ولمّـا أصبحَـت الميـاهُ أميَـل إلى الـبرودة علمـت أنّنـي عنـد مدخـل المحيـط، حيـث البحـيرة تفْـرَغ وتمتلـئ مـع كلّ مـدّ. هنالـك، بعينَـين مفتوحتَـين عـلى اتّسـاعهما ارتشـفتُ الأزرق اللّامتناهـي، ودوّمـتُ منتشـياً مثـل طائـر، باسـطاً ذراعَـيّ وحابسـاً أنفـاسي طويـلاً، حتّـى أصابنـي الـدّوار.

كان جـاك هـو مـن علّمنـي السـباحة بهـذه الطريقـة في الصّيـف الـذي أمضينـاه مـع العـمّ وليـام في بيـل إيـل ببروتـاني. وكان يحدّثنـي عـن البحـر في بلـو بـاي، وعـن السّـد حيـث تعلّـم السـباحة في عمـر السّادسـة. كان المـاء خفيفـاً جـدّاً حتّـى أنّ أسـماك إبـر البحـر بـدت طيـوراً. قـال: «تعـال، سـأعلّمك كيـف تطـير!» لكـنْ في بيـل إيـل كان المـاء بـارداً، فخرجنـا نرتعـش، وقـد تجمّـدت أناملُنـا.

سبحتُ على مَهلٍ نحو جزيرة غابريال، مخرجاً رأسي بين الحين والحين. صرتُ الآن في القناة. رأيت التشكّلات الدائريّةَ من الشّعاب المرجانية وقنافذ البحر والطحالب. ومرّت بالقرب منّي أسرابٌ من السّمك، كانت قريبةً جدّاً حتّى اعتقدتُ أنّني أستطيع لمسها بيدي. وفجأةً تسارعت دقّات قلبي. فقد انساب ظلٌّ من بين الشّعاب المرجانية وجعلَ يتبعني مثل كلبٍ مُزمجر، ثمّ عادَ ليختفيَ فيها بحركةٍ سريعة. لكنّني كنت أعلم أنّه يتعقّبني، وأظنّ أنّني شعرتُ بنظرته الشّرّيرة الفاحصة تحطّ عليّ. كانت تلك سمكة التازور- الباراكودا، سيّدة البحيرة التي حدّثتني سوريا عنها على الشاطئ. إنْ خفتَها، تبعتْكَ وعضّتك. لكنّها حين تعرفُك، تدعك تمرّ.

ويبدو أنَّ سوريا قد حدّثت التازور عنّي، فقد جعلتني أعبرُ البحيرة من غيرِ أنْ تتعرّضَ لي. أنا الآن على الضفّة الرّملية التي تتّصل بجزيرة غابريال. وقفتُ على قدمَيّ ومشيت صوْب الجزيرة الصغيرة. ومع أنّ العبور لم يستغرق أكثر من عشر دقائق، فقد شعرت أنّني وصلت إلى الطّرف الآخر من العالم.

ها هي جزيرة غابريال أمامي، أكبرَ بكثيرٍ ممّا تبدو عليه من شاطئ جزيرة بلات. لِقمّتها المركزيّة شكلٌ مثاليّ، كما لو أنّ يداً عملاقة قد نحتت هذا المخروط عبر تكديس كتلٍ من البازلت، ولونها داكنٌ أقرب إلى السّواد، تتشبّث بخاصرتَيها نباتاتٌ قصيرة، وتفترِش جزءها الغربيّ القريب من الشاطئ غيضةٌ من الديْداء مشكّلةً جداراً منيعاً. وهنالك، في الجهةِ الآمنةِ من الريح، ثمّة غابةٌ صغيرةٌ من الكزورينة

وشـجيرات الحشـف (التـي يسـميها جـاك «العانسـات»). تبِعـتُ الشـاطئ، وأخــذَ شريــط الرّمــل يضيــق ويضيــق إلى أن اختفــى في حقــل الحجــارة، هنالـك حيـث يهـدُر البحـر عـلى راحتـه.

وفيـما كنـت أسـير منعطفـاً إلى أقـصى نقطـةٍ في الغـرب، لمحـتُ دفقـاتِ البخـار التـي تنبجـس مـن الثّقـوب بـين الصخـور، وسـمعت ضربـات البحـر العميقـة في الكهـوف الخفيّـة. شروق الشـمس هنـا أشـدّ سـطوعاً، فأشـعر بلسـعتها في ظهـري وكتفَـيّ. ندمْـتُ لأنّنـي خلعـتُ ملابـسي، ولم أحتفـظ سـوى بهـذا المئـزر الـذي يغطّـي نصفـي الأسـفل. ولا بـدّ أنّنـي، بهـذه البـشرة المسـودّة، والشـعر الطويـل المتيّبـس بالملـح، والشـارب الـذي يُـبرِز شـفتي العليـا، صرتُ أشـبه بعامـلٍ هنـديّ، أو هـذا عـلى الأقـلّ مـا قالـه لي جـاك قبـل أيّـام. إنّنـي أُشـبه أمّـي، الأوراسـية. فأنـا مديـنٌ لهـا بهـذا الشَّـعر الأسـود الشـديد الغـزارة، وهاتَـين العينَـين بلـون الكهرمـان، وقـوس الحاجبَـين اللّذيـن كأنّـما رُسـما بالفحـم، متقاربَـين عنـد زاويـة الأنـف. وهـذا مـا كان يجعـل الأولاد في نـزل روي مالميـزون ينادوننـي: «يـا غجـريّ، يـا غجـريّ!» والآن صـحّ مـا كانـوا يقولـون.

توقّفـتُ في جـوفٍ صخريٍّ ظليـلٍ لألتقط أنفـاسي. البحر جميـلٌ هنا، حتّى أنّـه أنسـاني لمَ قدمـت إلى الجزيـرة، يـزرَقّ حتّى يميل إلى السـواد إذا ما انبسـط، ويغـدو أخـضر زمرّديـاً إذا ما اسـتقامت الأمواج على نفسـها، قبـل أنْ تتكسر. أفكّـر في سـوريا. إلى هـذا المـكان ينبغـي أنْ آتيَ لرؤيتهـا، بعيـداً عـن نظـرات المراقبَـين الفضوليّـة، وعن سـلطة السّردار وصافراتـه. هنا سـنكون حرَّين.

أمامـي مبـاشرةً، ناحيـةَ الجنـوب، أرى سـاحل موريشـيوس كـما لم أره مـن قبـلُ مـن جزيـرة بـلات. إذ لم يبـدُ لي، حتّـى مـن أعـلى بركانهـا، عـلى

نحو ما أراه الآن، شامخاً جميلاً، تضيئه الشمس في بعض النقاطِ فتُسيل زمرّد جباله، وتكشف عن حافته المُزبدة على طول الشّعاب المرجانيّة، بل ترسم حتّى، مثل سرابٍ، سقوفَ المنازل ومداخن مصانع السّكّر البيضاء بين حقول القصب الزّرقاء الرماديّة. وأعلى ذلك كلّه، في قبّة السماء، تنتشر الغيوم مكتنِزةً كثيفةً، ومصطبغةً بطيفٍ من الألوانِ، من الأنصع بياضاً إلى الأشدّ اسوداداً، تحجبها بالكاملِ أحياناً ستائرُ معتمةٌ، كأنّها حجب العذراء تخترقها الأنوار.

تأمّلتُ المشهد كلّه دون مَلَلٍ، حيث البحر يدفع بأمواجه العاتية نحو الساحل ويتدفّق مثل نهر عملاق، والجزرُ السوداء كأنّها تتراجع معنا إلى الوراء، مأخوذةً بعيداً عن موريشيوس، إلى وجهةٍ غامضة.

أسير الآن نحو قلب الجزيرة، بحثاً عن الملاجئ المؤقّتة حيث حُبس المرضى، فهذا ما أريد رؤيتُه. أتقدّم بمشقّة، مرتعشَ السّاقين لما بي من نفاد صبرٍ وخوف. لا ألمحُ درباً، والحصى المدبّب يؤذي قدمَيّ. ثمّة في كلّ مكانٍ حواجز من نباتاتٍ شائكة تسدّ الممرّات، وكأنّ هنالك من لا يريدني أنْ أصل.

فجأةً وجدتُني أمام صهاريج المياه. وهي متوازيات مستطيلاتٍ من حجارةٍ بركانيّة مدعّمةٍ بالإسمنت، لها سقفٌ منحنٍ، به ثقبٌ مركزيٌّ بلا غطاء. انحنيت فوق الثقب فلم أر الماء، لكنّني شممت رائحته، ماءٌ ثقيلٌ أسود ذو رائحةٍ حمضيّة. الصهّاريج هنا أكبر ممّا هي في جزيرة بلات، لكنّها متصدّعةٌ شبه متداعية، يتسرّب من أحدها خيط ماءٍ نَمَت على طوله نباتاتٌ مفترِشة.

اعتليتُ أحد الصهاريج، وجُلْتُ ببصري بحثاً عن مأوى المرضى. ما من شيءٍ، ما من ممرّ ولا درب، لا شيء سوى صخور البازلت الناتئةِ من بين شجيراتٍ تموج في مهبّ الريح. أريد أن أصرخ، وأنادي أسماءهم، نيكولا، السيّد تورنوا، لكنّ صوتي مخنوق، وأعلمُ جيّداً أنْ لا جدوى من النّداء.

في تلك اللّحظةِ لمحتُ القبور على بعد خطواتٍ قليلة منّي، قبالة الصهاريج. كانت تختلط مع كتل البازلت المتناثرة على طول المنحدر. وإلى الأعلى من الصهّاريج، لمحتُ قطعةَ أرضٍ يبدو أنّها جُرّدت فيما مضى من غطائها النباتيّ ثمّ عادت شجيرات الحشف والديْداء تغزوها من جديد. كانت تحوي زهاء عشرين قبراً، وهي في معظمها صخورٌ بسيطةٌ مربّعة الشكل مغروزةٌ في الأرض. سِرتُ بين القبور باحثاً عن الأسماء والتواريخ. لكنّ الريح كانت قد محت كلّ شيء. إلّا أنّ واحداً منها كان أقرب عهداً ولا يزال محتفظاً بشاهدته، كان هَرَماً بازلتيّاً مبتوراً، وعلى واجهته المقابلةِ للبحر أمكنني فكّ شَفرة الاسم والتاريخ:

هوراس لازار بيغرد
توفّي عام 1887 بمرض الجدري
عن 17 عاماً[1]

كان الصّمت والجمود يطبقان على المكان. ما من شيءٍ سوى طيور رئيس البحر القَلِقة التي تحلّق من فوقي مُطلقةً صيحاتها المتذمّرة. وفيما كنت أهبط نحو الشاطئ، عثرت على ما جئت باحثاً عنه:

(1) بالإنجليزيّة في الأصل.

أكـواخ الكرنتينـة. لم يبـقَ هنالـك أسـقفٌ ولا شـادر، وإنّـما فقـط جـدرانٌ حجريّـة، سـوداءُ دائريـةٌ مثـل حظائـر قديمـة.

تقدّمـت بهـدوءٍ شـديد، كـما لـو كنـت أخشـى إيقـاظ مـن فيهـا. لكـن ليـس هنالـك أيّ علامـة عـلى الحيـاة، والشـمس تسـطع بقسـوة عـلى الجـدران الحجريَـة السـوداء وعـلى أوراق الحشـف، فتُكثِّـف الظـلال. ولمّـا عـبرتُ الجـدران إلى الدّاخـل ارتجفـت. كان الهـواء بـارداً وفي الجـوّ رائحـة نـارٍ مُطفـأَة. وكانـت الريـح تُطـيرّ الرّمـادَ المتراكـم عـلى الأرض. لا علامـة تـدلّ عـلى الإقامـةِ في المـكان، مـا مـن أثـاثٍ ولا فَـرش. والكـوخ المجـاور فـارغٌ أيضـاً. شـعرتُ بـما يشـبه الـدّوار، فـكان لا بـدّ لي أنْ أجلـسَ للحظـةٍ أمـام البـاب كـي أسـتجمع قـواي. ثـمّ مضيـتُ سريعـاً نحـو الشـاطئ، شـاقّاً طريقـي بعنـاءٍ بـين متاريـس الشـجيرات. وعـلى حافـة البحـر، في النقطـةِ التـي تنحنـي فيهـا قاعـدة الجزيـرة راسـمةً جؤجـؤ سـفينةٍ قبـل أنْ تنضـمَّ إلى الشّـعاب المرجانيـة، قريبـاً جـدّاً مـن الأمـواج التـي ترشـقني برذاذهـا، هنالـك آثـارُ نـارٍ قديمـة، بقعـةٌ سـوداءُ دائريّـةٌ كبـيرةٌ لا تـزال تتطايـر منهـا ذرّاتٌ مـن مـادّةٍ محترقـة، ذات رائحـة نفّـاذة عنيفـة. لقـد كانـت سـوريا مُحقّة: هـذا هـو المـكان الـذي أُحـرِق فيـه نيكـولا والسـيد تورنـوا والهنديّتـان، بـلا أيِّ مراسـمَ، بـل «خِلسـةً» إنْ جـاز التعبـير.

أتخيّـلُ جـاك يقـف عـلى الشّـاطئ، برفقـةِ فـيران الفاسـد وبارتـولي، وينظـر إلى المحرقـة التـي تلتهـم الجثـث. أتخيّلـه وقـد رشّ الأكـواخ بمعقّـم «كونديـز» السـائل، وأصـدر الأوامـر بنـزع الشّـادر وحـرق كلّ شيءٍ، الثياب والفُـرُش والأغـراض الشّـخصية والحقائـب والأوراق، فلـوّث الدخـان الأسـود سـماء الفجـر، فيـما أنـا مسـتغرقٌ في نومـي.

أيـن جـاك وفـيران؟ أتراهمـا يتفاوضـان في الطَّـرف الآخـر مـن الجزيـرة مـع الشّـيخ حسـين حـول المـؤن الغذائيّـة. أم يراقبـان الأفـق أعـلى الـبركان؟ وسـوريا، لمـاذا لا تـأتي؟ أتُراهـا تختبـئ بـين الشـجيرات قـرب صخـرة لوديامـو، منتظـرةً أنْ أنـصرف؟ مشـيت عـلى طـول الشـاطئ أمـام جزيـرة بـلات، فهيّـئ إليّ أنّي أحـسّ بنظراتهـا مصوّبـةً نحـوي. أودّ أن أقـول لهـا إنّـي لم أكـن أعـرف شـيئاً، وإنّـي كنـت نائـماً حـين احترقَـت الجثـث، وإنّـه ليـس لديهـا مـا تخشـاه منّـي. كلّ شيء هنـا يخصّهـا، دربُ الشّـعاب المرجانيّـة الـسريّ، وقمّـةُ صخـرة غابريـال حيـث تحـوّم طيـور رئيـس البحـر، وميـاه البحـيرة والأمـواج المتلاطمـة، كلّ هـذا لهـا. تهْـتُ كالمجنـون، عاريـاً متحرّقـاً، أصطـدم بصخـورٍ سـوداء، وتُجـرّحُ سـاقَيّ الشـجيراتُ الشـائكةُ وأوراقُ الحشـف الحـادّة. ثمّـة رائحـةٌ مُسْـكرة، نفّـاذة ولاذعـةٌ، مثـل رائحـة جلدهـا. فتّشـتُ بـين الصخـور عـن شيءٍ مـا، عـن أثـر لرجـالٍ ماتـوا هنـا، أثـرٍ مـن نيكـولا والسـيّد تورنـوا، أو قطعـةٍ مـن قـماش الهنديّـينْ. لا شيء سـوى الحجـارة السـوداء، والرّمـاد والخشـب المتفحّـم في موضـع المحرقـة. أودّ أن أتـرك علامـةً تأبينـاً لذكـرى أولئـك الذيـن اختفـوا، لكـنّ الجزيـرة مهجـورة، مـا مـن حَجـرٍ يصلـح لوحـاً، ولا مـكانٍ أكتـب فيـه، والصخـور أشـدّ قسـوةً مـن أنْ أحفـر أسـماءهم عليهـا. وكلّ مـا اسـتطعت ارتجالـه أربعـةُ أكـوامٍ مـن الحـصى قـرب موضـع المحرقـة، حتّـى إنّـي جعلـتُ نيكـولا طويـلاً، والسـيّد تورنـوا قصـيراً ممتلـئ القـوام، كـما كانـا في الحيـاة. ووضعـتُ كومتَـي المرأتَـين أبعـد قليـلاً. بـدا لي أنّ هـذا مـا كانـوا يريـدون. فهـا هـم قـرب الشـاطئ، يتأمّلـون البحـر وحـدود موريشـيوس في الأفـق، موريشـيوس الفائقـة الجـمال تحـت قبـابِ الغيـم.

دُرتُ حول قمّة الصّخرة تتبعني طيور رئيس البحر. في البداية زوجٌ، ثمّ اثنان وثلاثة، حتّى صارت دزينةٌ منها تحوّم فوقي بأجنحتها المتثاقلة، قلقةً لأنّ آدميّاً قد اخترق مجالها؛ قمّةَ الصخرة التي تتّخذ منها أوكاراً. لم تكن تكترث بي حينَ كنت على الشاطئ، أمّا الآن وقد دنوْت منها، فقد صارت كأنّما تهدّدني. إنّها شهودي. فلا بدّ أنّها حلّقت فوق المحرقة حين أشعل جاك وفيران النار في الجثث. ظلّت صرخاتُها الحادّةُ المدوّمة، والمتدافعة مثل صافراتٍ، تَنقل إليّ قلقها حتّى أُصِبت بالدّوار. أرجعتُ رأسي إلى الخلف وكنت واقفاً على سفح القمّة، فجرّح ضوء النهار عينَيّ، وخِلتُ أنّني أسقط في بئرٍ بلا قرار، في المركز منه هذه القمّة.

لم أستطع الصمود أكثر. أغمضتُ عينَيّ وتلمّست طريقي عائداً إلى الشاطئ، إلى أقصى نقطةٍ في الجنوب، وهي نتوءٌ صخريٌّ طويلٌ حيث يصطخب الموج طليقاً، وتعصف الرّيح بلا هوادة. من هنا، تبدو موريشيوس شاسعةً وبعيدةً مثل قارّة. وتُلمح إلى اليسار منها الجزيرتان السوداوان: روند وأو سيربان، ومباشرةً إلى الأمام، تظهر صخرة كوان دو مير الأشبه بحطام سفينة. إنّني هنا في بيتي، في المكان الذي طالما حلمت به، وكان يُفترَضُ أنْ أقصده منذ الأزل. لا أعرف كيف حدث ذلك، لكنّني صرتُ أعرف كلّ جزء وكلّ تفصيل، والأمواجَ والتيّارات التي تغير لون البحر، والشّعابَ المرجانيّة. لم أعد أشعر أنّني سجين. فطيور رئيس البحر بتحليقها القلِق، وضربات البحر العميقة في قاعدة الجزيرة، والرّياح، والضّوء الذي يشقّ دربه متوهّجاً عبر الغيوم، ولمعان

الحجارة البرّاق، والرائحة اللّاذعة المنبعثة من البرك التي يخلّفها المدّ، هذا كلّه هو عالم سوريا الذي أتقاسمه معها. ولا صلة له بالحكايات التي كان جاك يقصّها عليّ قديماً عن المدينة وبيت عزبة آنّا، وتموّج القصب، وعبق مصانع السّكّر، وحفلات الشاطئ شتاءً تحت السماء المرصّعة بالنجوم. فهل بقي لهذه الأشياء وجود؟ هنا في عالم سوريا، كلّ شيء مرٌّ وعارٍ. إنّني هنا في أقصى المعمورة، حيث يبدأ عالم الطيور.

ما زلت أشعر بالدّوار نفسه، تُثْملني ضرباتُ الأمواج في الصخور، ووحشة طيور رئيس البحر، ورائحة الرّماد التي تمتدّ حتّى البحر. ارتميت على الأرض السّوداء السّاخنة في أحد التجاويف. كانت كلّ موجةٍ تمدّ لساناً من الزّبد. وأنا، كمِثلِ ضرير، أخذتُ أمرّر يدي على الصخرةِ الصقيلة النّاعمة كالجلد. أستطيع أن أحسّ جسد سوريا في الصخرةِ، نحيفاً طيّعاً، ينفلتُ ثمّ يستسلم. تحتويني في ظلّها ومائها، ها أنا في كهرمانِ مُقلتَيها الشّفيف، يلفّني سيلُ شَعرها الأسود الذي أرخَتْه لي، ناعماً مثل اللّيل. أحسّ على صدري نهدَيها الفتيّينَ الخفيفينَ، اللّذين كنت ألمحهما خلَلَ ثوبها المبلّل وهي عائدةٌ من الشعاب المرجانية، وأسمع موسيقى الأساور حول معصمَيها، وهفيف الريح حين تطوّقني بذراعَيها البالغتَي الطّول، فتتشابك سيقاننا كأنّنا نرقص.

تصاعدَت فيّ الرّغبة حتّى الألم. فحرقة السماء الهائلةِ ووحشةُ الطيور الأبديّةُ لا بدّ أنْ تعثرَ على سبيلٍ لها. هذه الطّاقة التي تختلج فيّ لا يمكن أن تظلّ حبيسةً، لا بدّ لها أنْ تدْفُق. قلبي يخفق في صدري، يتّقد بلهيب الشمس ولهيب المحرقة التي التهمت الجثث على الشاطئ، ويتوهّج من الرّغبة. فجأةً اخترق الضّوء عينَيّ، فتحتُ جفنَيّ على صعقة ضوء

الشمس، وشعرت بتدفّق مائي على الصّخرة السوداء الملتهبة والرّمل. تسمّرت في مكاني مُنهكاً، وسمعت دقّات قلبي وضربات البحر في قاعدة الجزيرة، وذلك الاهتزاز الواسع المدى الذي امتزج بالضّوء.

تلاشت صرخات رئيس البحر المبحوحةُ رويداً رويداً. لم تعد الطيور تخافني. صارت تتركني عائدةً إلى أوكارها عند خاصرة التلّة الصخريّة.

أفكّر في سوريافاتي التي تمشي على الطّرف الآخر، ربّما صوب النّبع المتدفّق من بين كتل البازلت جنوب باليساد. يبدو لي أنّني أسمع وقعَ خطواتها وصوتَها وهي تلعب مع الأطفال على الدّرب وتنادي على الجديان، صوتَها المختلط بصخب قرية العمّال، وضحكتَها حين تردّ على ثرثرةِ النساء وهنّ في طريقهنّ لمَلْءِ الجرار من النّبع.

الآن أغمضُ عينَيّ، لم يعد بي قلقٌ، ولا خوفٌ من الزّمن. غداً، أو بعد غدٍ، أو فيما بعد، سأظَلّ هنا، في نهاية العالم، بعيداً عن شهوةِ الانتقام. ستجادلني سوريا وأعرف كيف أستبقيها. سأحدّثُها عن إنجلترا وباريس، وعن بلدانٍ لا وجود لها، وأستمع إليها بلا كلَل، ستحدّثني عمّا قرأَتْه في أخبار لندن المصوّرة، أو تقصّ عليّ حكاية أمّها. ستكلّمني بلغتها النّاعمة المرنة، كما لو كانت تغنّي.

دخلتُ الموجة الكبيرة في نهاية الكتلةِ البازلتية، تاركاً الزّبد يغمرني. ربطتُ المئزر حول خصري، وأرجعتُ شعري إلى الوراء. والغريب أنّني في تلك اللّحظة لم أشعر بأيّ خجلٍ. وإنّما بذلك الامتلاء التّام الذي يعقب النشوة، حالةٍ من صحوٍ عصيّةٍ على الوصف.

ولّما غُصتُ في البحيرة، في نهاية لسان الرّمل عائداً إلى جزيرة بلات، تلقّفني المدّ، كان تيّاراً عنيفاً وبارداً. أخذَت الأمواج تتكسّر على الحاجز المرجانيّ مصدرةً هديراً مدويّاً. وتدفّقَ الماء في كلا الاتّجاهين مثل نهرٍ فيّاض، فكان عليّ أنْ أعوم بكلّ قوّتي منزلقاً تحت الماء، مثلما علّمني جاك في بروتاني، كي أشقّ طريقي بين الدوّامات. وفي لحظة ما، انجرفتُ بعيداً إلى عرض البحر، وانحرَفتُ عن المسار فإذا بي فوق الشَعاب المرجانيّة، فخدشتْ رؤوسُها المدبّبة ركبتَيّ وقدمَيّ. ثمّ صار الرّصيف أمامي، قطعةً سوداء من اليابسة تشكّلُ الوصلةَ مع جزيرة بلات. بلغتُ الطّرف الآخر، مثل ناجٍ من غرقِ سفينة، لكنّي لم أرَ ظلّ التازور ثانيةً.

21 يونيو

أمضيتُ القسط الأكبر من ذلك النهار نائماً عند طرف غابة الكزورينة. أُحبّ حفيف الرّيح في أوراقها الإبريّة، وأتذكر القصّة التي رواها لي جاك في باريس، حين التقينا في بيت أبي، وكيفَ كان لوقع اسم الكزورينة (فيلاوس)[1] سحرٌ في أذنَي، كأنّه يحيلُ إلى شجرةٍ لا توجد إلّا في الأساطير: «خلف عزبة آنّا، كانت هناك غابةٌ من الكزورينة على طول الوادي الذي يمتدّ حتّى البحر. ذات يوم، جاء صديقٌ جدّي من فرنسا ليقضيَ بضعة أيّام معه. وعند العَشاء، جلس إلى المائدة، وبدأَت رياح البحر تصفرُ في تلك اللّحظة. قدّمَ له الجَدّ طبقَ الأرزّ، ولما رآه يسكب لنفسه كميّة قليلةً منه، سأله: «أتشكو من شيءٍ؟»

(1) Filaos.

قـال الضّيـف: «كلّا، بـل بالعكـس مـن ذلـك، فأنـا جائـع جـدّاً». وأومـأ ليقـول إنّـه يُصغـي إلى «النّشـيش» الآتي مـن الخـارج: «وإنّـما أدّخـر نفـسي لطبـقِ السّـمكِ المقـليّ!» «كانـت القصّـة مثـيرةً جـدّاً حتّـى أنّ العائلـةَ ظلّـت تتداولهـا، وقـد قصّهـا علـيّ جـاك بـدوره، وكـم كان رائعـاً سـماعها في شـتاء باريـس بأشـجاره العاريـة. كان هـذا هـو كلّ مـا تبقّـى لنـا مـن المدينـة ومـن بيـت عزبـة آنّـا: «نشـيشُ القـلي» الـذي كان يـتردّد في المسـاء حـين تتخلّـل ريـاحُ البحـر أوراق الكزورينـة الإبريّـة. أنـا أيضـاً كنـت أدخّـر نفـسي لتـذوق السّـمك المتلألـئ في الزّيـت الحـارّ.

لم أعـد إلى مبـاني الكرنتينـة طيلـة النهـار. صرتُ لا أحتمـل العتمـةَ الخانقـة وحجـارة الأكـواخ السـوداء، ولا أطيـقُ سـماعَ أنفـاس المـرضى المخنوقـة. كانـت سـارة ميتكالـف أيضـاً خائـرة القـوى. ومـا عـادت تفعـل شـيئاً سـوى أنْ تسـاعد جـون عـلى المـشي إلى المرحـاض، أو أنْ تحـضرَ لـه المـاء مـن الصّهريـج. منـذ مَـرِضَ زوجُهـا، تغـيّرت ملامحهـا، تشـنّج وجههـا مـن شـدّة التوتّـر وصـارت تقـضي أغلـب الوقـتِ منطويـةً عـلى ذاتهـا في رُكنهـا، والمـلاءةُ حـول كتفيهـا، لا تُبـدي حـراكاً، ولا تـكاد تنبـس ببنـت شـفة. كانـت تهمـسُ أحيانـاً بعبـاراتٍ متقطّعـةٍ نصفهـا بالإنجليزيّـة ونصفهـا الآخـر بالفرنسـيّة، ثـمّ تتنهّـد. قـال لي جـاك: «إنّهـا تهـذي». لكنّـه هذيـانٌ مـن شيءٍ آخـرَ غـير الحمّـى. إنّهـا صحّتهـا العقليّـة التـي بـدأت تتزعـزع. المـرأةُ التـي رأيناهـا في قمّـة شـبابها وحيويّتهـا عـلى متـن سـفينة **لافـا**، وقدّمهـا لنـا جـون قائـلاً: «هـذه سـارة، زوجتـي الصغـيرةُ جـدّاً»، بثوبهـا الأزرق المحتشـم كثـوب المدرّسـات، وشَـعرها الأشـقر الملمـوم في عقصـةٍ،

وعينيَها الزرقاوين زرقةَ القيشانيّ، مَن كان نائبُ القبطان سوساك يمازحها فنسمع شلاّل ضحكتها الذي يدير أعناق الجميع، ها هي الآن في حالةٍ يُرثى لها، فقد لوحّت الشمس وجهها، واغبرَّ ثوبها، وصارت تجول على ما حولها بهذه النظرة الفارغةِ، كأنّها عاجزةٌ عن استيعاب ما يحدث.

وقد تغيّر جاك أيضاً. أصبحت تعابير وجهه مشوشّة. وصار كثيراً ما يخلع نظّارته ذات العدسة المكسورة، فتكشف عن بصره الحسير ونظرته الشّاردة غير المبالية. لمّا عُدت، وقد تيقّنتُ من أنّ نيكولا والسيّد تورنوا قد أُحرقا بالفعل في جزيرة غابريال، خمّن جاك غضبي وازدرائي، فأراد أن يتحدّث معي ليبرّئ نفسه. بدأ قائلاً:

- ليون، فلتُصْغ إليَّ...

كان صوته غريباً، مكتوماً، قلت لنفسي إنّه صوتُ رجلٍ كاذبٍ. وانسحبتُ بعيداً:

- دعني وشأني، فأنا متعب.

لم يكن ثمّة ما يقال، فقد فات الأوان. هزّ جاك كتفَيه، كمنْ أحسّ بخطئِه، وعاد ليجلس بجوار سوزان.

ثمّ هدأ غضبي فجأةً. جاك شقيقي وليس لي سواه. فإن لمْ أكُن في صفّه فمن عساه يكون؟ ثمّ ما الذي كان في استطاعته؟ لمْ تكن تلك إرادتَه ولا حتّى إرادة فيران الفاسد، بل إنّ السّردار نفسه لا يملكُ من أمره شيئاً. فالأمر قد صدرَ من مكانٍ آخر، من موريشيوس. كانت تلك إرادة الحكومة الجماعيّة، نادي كبار العائلات، المدفوعين برعبهم من مرض مجهولٍ قد ينتشر في جميع أنحاء الجزيرة، ومن شبح السّفينةِ ليداريه.

رافق جاك المرضى حتّى النّهاية. ثمّ انخرط بالمهمّة القذرةِ المتمثّلة في التخلّص من الجثث لمنع العدوى، ولم يطلعني على شيءٍ من ذلك. كانت سوزان هي على الأرجح من لم ترغب في أنْ يبلغَني بالأمر. فأنا في نظرها مجرّد طفلٍ ينبغي أن يبقى بعيداً عن مشهد الموت. ولطالما فعل جاك الشّيء ذاته. فعندما أصيب والدنا بالتهاب الدّماغ، لم يخبرني، حاول إخفاء الحقيقة، ولعلّه هو نفسه قد شعر بالخوف. وقد ظلّ طويلاً بعد وفاته يتحدّث عنه بصيغة المضارع، كما لو كان لا يزال حيّاً.

ذهبتُ لأجلس إلى جانبه، وأتحدّث إليه كي أطمئنه:

- كيف حالها؟

- لم تأكل منذ يومَين. حتّى الماء يجعلها تتقيّأ، ولا يمكنني إجبارها على تناول الكينين.

التفتتْ سوزان إلينا، لكنّني أحسستُ أنّها لم تسمعنا. كانت تتنفّس بمشقّة وكأنّ ثقلاً كبيراً يضغط على صدرها. ثمّة هالاتٌ سودٌ حول عينَيها، وقد نحل جسدها، وجفّت بشرتها واحتقنت صُلبةُ عينها بالدّم. ولم يكن جون ميتكالف، في الطرف الآخر من البيت، أحسنَ حالاً منها. وكان يُفترَضُ حتّى الآن أنّ الأمر متعلّقٌ بحمّى الملاريا. لكنّ فيران جاء وتفحّصَ المريضَين بعينٍ حادّة، إذ كان يَشتبه في أنّ جاك يخفي أمراً أشدّ خطورة كي يجنّبَ زوجته الرّحلة إلى جزيرة غابريال.

انضممْتُ إلى جاك في الخارج. كان يجلس في ضوء الشفق. أخرج آخر علبة تبغ للفّ سيجارته. لم أخبره عن نبتة التبغيّة، أو التّبغ البنّيّ الذي رآه جونَ على منحدر البركان في ذلك اليوم. قال مازحاً: «حين

لا يبقى المزيد منها، سألجأ إلى الحشيش، مثلما يفعل الآخرون». بدا واجماً. كان يشعر بالذّنب لأنّه جلب زوجتَه الشابّةَ الشديدة الهشاشةِ إلى هنا، إلى فخّ الكرنتينة، وسْط هذا الوباء. انتفضْتُ من هوْل الكلمة:

– وباء؟ وباءُ ماذا؟

نظرَ إليّ مليّاً. أتراني آخر من يعلم؟

– كلّ شيء، الملاريا، الجدري، الكوليرا.

حدّثَني عمّا رآه هذا الصباح في قرية العمّال؛ النّاس خائرو القوى، يحترقون من الحمّى التي تورّم وجوهَهم. وليس هنالك ما يكفي من الكينين، واللّقاحُ غير متوفّر. ينبغي أنْ يرسلوا الأدوية والغذاء، والأهمّ من ذلك أنْ يرسلوا عِجلةً من موريشيوس. لكنْ من الذي سيشغل نفسه بإرسالِ عِجلةٍ إلى هذه الصّخرة النّائية، في حين أنّهم لا يفكّرون حتّى بالبشر؟ تفاوض جاك مع السّردار للحصول على القليل من الأرزّ والعدس والسّمك المجفّف. ولكن إنْ لم يعد المركب الشراعيّ في غضون أربعة أيام، فقد حُكِمَ علينا بالموتِ جوعاً.

حاولتُ أن أكون متفائلاً:

– لا يمكنهم إلّا أنْ يأتوا ويأخذونا.

هزّ جاك كتفَيه.

– لن يأتوا ما لمْ يُحتوَ الوباء. ثمّ إنّ هناك عاصفة قادمة، حسبَ ما يقولون.

كان المقياس الذي في حوزة جوليوس فيران يشير إلى منخفضٍ متسارعٍ منذ وصولنا. ومع ذلك فالسماء بديعةٌ مثاليّة الزّرقة، ولم تعد الغيوم سوى مِزَقٍ خضّبَتها حُمرةُ الغروب.

منذ ساءت حالة جون ميتكالف، ابتعد جوليوس فيران وبارتولي قليلاً، إلى مقرّ الإدارة المتاخمة للمستوصف. وهو مبنىً طويلٌ له سقفٌ من الصّفيح، تحوّله الشمس إلى فرنٍ أثناء النّهار. وحينَ لا يكون الرّجلان في موقع المراقبة، أعلى البركان، فإنّهما يكونان في هذا المكان الأشبه بحظيرة، حيث يُعدّان على راحتهما خطَطاً للحرب ضدّ الهنود وتقسيماتٍ مستقبليّةً للجزيرة. ولكن من عساه يهتمّ بذلك؟ لقد سئم الجميع غطرسة المستبدّ الذي يقلّد على نحوٍ يثير السخرية السّادةَ البيضَ أعضاءَ الحكومة الجماعيّة، ويحلم بأنْ يؤسّس هو أيضاً نظاماً أخلاقيّاً في جزيرة بلات. لكنّه الوحيد الذي يؤمن بذلك. فبعد موجة الشّغب، عاد خمولُ البدايات المحتوم إلى الجزيرة. ولم تعد تُسمع سوى صافرة السّردار التي تُدوّي بثباتٍ معلنةً وقت الاستيقاظ، ومغادرة الرّجال نحو السّد والنساء نحو عروق الطّلْق، أو أذان العشاء الذي تحمله الرّيح مثل نشيدٍ حزينٍ من الماوراء.

يحاذي الدّربُ المفضي إلى باليساد شرمَ الحجارةِ السوداء عند سفح البركان، هنالكَ يبدأ منْجم الطّلق، الذي لم يعد اليومَ سوى مستودع صغير أبيضَ أعلى البحر، تأتي النساء الهنديّات لملء دلاءٍ منه. وفي الجزء السفليّ من الخليج، تقع كتل البازلت العشوائيّة التي تغزوها النّباتات المتسلّقة، حيث بحث جون عبثاً عن شجرة النّيلة الواطنة. وهو المكان الذي توجد فيه المقبرة القديمة التي تآكلت شواهد أضرحتها بفعل الرّيح، فلا يمكنُ قراءتها. لكنّني لمحتُ على شاهدةٍ مقلوبةٍ أتلفتْها الأشنات الاسمَ التّالي:

توماس ميلوت، توفّي عام 1856[1]

كان جاك هو من حدّثني عن آلاف المهاجرين من كلكتّا على متن السّفينة ليداريه الذين تُخُلّيَ عنهم وتُركوا لمصيرهم في ذلك العام على جزيرة بلات، بعد اكتشافِ حالاتٍ من الجدري والكوليرا على متن السّفينة. ومثلنا، فقد انتظر ركّابها يوماً بعد يوم، مراقبين الأفق الخالي وخطّ موريشيوس، آملين أنْ يروا القارب قادماً لنقلِهم. ولا بدّ أنّهم أرسلوا رسائل يائسةً، وأشعلوا حرائق كبيرةً على الشاطئ لجذب انتباه من هم على الجانب الآخر، أولئك المجهولين الذين حكموا عليهم بالموت البطيء. وهو ما حدث فعلاً، فقد وقع غالبيّةُ المهاجرينَ فريسةَ المرض والفاقة. ومضت ثلاثة أشهرٍ قبلَ أنْ تقرّرَ حكومة موريشيوس أخيراً إرسال المساعدة، فلم يجد القادمون إلى الجزيرةِ سوى عددٍ قليلٍ من النّاجين. وقد تناثرت عظام الموتى على التّراب.

لا أحد يأتي إلى المقبرة. ثمّة في حقلِ الحجارةِ والقبور التي أطاحت بها الأعاصير شيءٌ خارقٌ للطّبيعة، شيءٌ مُربِكٌ جعل قلبي يخفق بقوّة، وكأنّ نظرةَ المهاجرين المخذولين لا تزال حيّة، تخترق الأفق مثل اهتزازٍ طويلٍ يتردّد صداه في قاعدة الجزيرة. كان هذا الاهتزاز هو ما سمعته حين استلقيتُ وأذني إلى الأرض في ليلتنا الأولى في باليساد.

أردتُ أن أجد المكان الذي أحرقوا فيه الجثث على الشّاطئ فيما مضى، غيرَ أنّ البحر الواسع كان يضرب في السّاحل، وقد حتّت الأمواج الخليج وصولاً إلى القبور الأولى.

---

(1) بالإنجليزيّة في الأصل.

لكنّني أحبّ القدومَ إلى المقبرة. فهنا أجد سكينةً هائلةً وعذوبة، أشبهَ بما كنت أشعر به أحياناً في الكنائس، هذا الشعور بزمنٍ أبعدَ مدى من حياتي، وبحضورٍ أوسعَ من نظرتي. فكلّما سمعت إشارة السّردار مساءً، تملّكتني رغبةٌ في القدومِ إلى المقبرة المهجورة. وإنّني لا أعثر على تفسير واضح لذلك.

أجلس على القبور طويلاً وأنا أسمع طنين البعوض حول شعري. يحطّ بعضها على ساقَيّ وظاهر يدَيّ، لكنّني أكاد لا أشعر بلسعاتها حين تكون كثيرة العدد، فأطردها بحركةٍ من يدي أو أنفخ عليها. إنّها متهوّرة وعدوانيّة ولها أجسامٌ مُبقّعة، خفيفةٌ وذكيّة. وهناك أيضاً بعوض الرّمل، والنّمل، وأحياناً تأتي حشرة حريشٍ طويلةٌ فتمرّ على القبور مصدرةً خشخشةً أشبه برنين المعدن المهترئ. يكره جاك هذه الحشرة، ويسحقها بغضبٍ تحت كعبه. أمّا أنا فقد ألِفتها. إنّها، هي والطيور، سكانُ الجزيرة الحقيقيّون، وستظلّ هنا، حتّى بعد رحيلنا بأمدٍ طويل.

كلُّ شيءٍ صامتٌ هنا. وما من ريح. مضى يومان كنّا فيهما في قلب خليج هادئ شاسع، تمتدّ حدوده حتّى الأفق. يقول جاك إنّ هذه عينُ العاصفة، وحين تطْرُفُ العين، سنكون تحت المطر مرّة أخرى.

ما زلت أشعر بآثار الحروق التي خلّفتها على جسدي شمسُ جزيرة غابريال. أمسِ انفتح جرحٌ في ظهري بين كتفَي، هنالك حيثُ لامس جلدي البازلت. كلّ شيء هنا مغموسٌ بنظرات ركّاب ليداريه، الذين يسكنون الآن هذا الخليج، نظراتِهم المتألّمة المُرسَلة نحو البحر الخالي. أو لعلّها الحمّى المتصاعدة التي توتّر أعصابي وعضلاتي

كلّ ليلة، وتصبّ ببطءٍ الرّعشة في عروقي. أهمس باسم سورياڤاتي، اسمِها السحريّ الذي يجعل طيفها يتجلّى فوق الشّعاب المرجانية، محاطةً بعجاج البحر مثل إلهة. أحتاجها، بي حاجةٌ ماسّةٌ لأنْ تهبّني ما هو لها: قريةَ العمّال، والأزقّة العاجّة بدخان الطّهو مساءً، وصياح الأطفال، والجديان، وصوت صبيٍّ يغنّي في قلب كوخ، وعزفَ ناي هادئ، وحتّى رائحةَ النار الرّهيبةَ حيث ينتظِر الموتى. أشعر أنّ هذا هو المكان الذي أنتمي إليه الآن، إنّه الطرفُ المقابل، والعالم الآخر.

فجأة وجدتُني على الدّرب الذي يعبر منحدر البركان، ركضتُ عبر السّيل العظيم من الصخور البركانيّة الكبيرة والمدبّبة، بين الشجيراتِ الشائكة والحشف. لأول مرّة أندم على خسارة حذائي، فقد جرّحت حواف الحمم البركانية الحادّة باطنَي قدمَيّ على الرّغم من صلابتهما، وخدشت الشجيراتُ كاحليّ. ثمّة رائحة حيوانيّةٌ تُشتَمُّ على مقربةٍ من البركان، مُسكرةٌ مثل رائحة تخمير، وتزيد من حدّتها حُمرةُ الشّفق التي تكاد لا تتزحزح.

ينحدر الدّرب إلى اليمين صوْب قرية العمّال. لكنّني تابعت طريقي عبر سفح البركان، نحو جدول باليسار، حيث تمضي النساء الهنديّات للاستحمام وجلب الماء عند حلول اللّيل. قفزتُ لاهثاً بين الصخور دون أن أحاول الاختباء. أردتُ أنْ أصل قبل حلول اللّيل. ولمّا اجتزتُ قمّة البركان، ظهر ليَ البحرُ فجأةً من جهة الغرب، متلألئاً بشمس المغيب التي كانت لا تزال تضيء خليج باليسار، ببلاط رصيفه البازلتيّ المصفوف مثل قشور ثعبان.

في سيل الحمم البركانية، يغذّي النّبع سلسلةً من الأحواض تنعكس السماءُ على صفحتها وتغطّيها النباتات. بل إنّ عدداً قليلاً من

الأشـجار نجـح في التشـبّث بخـاصرة الـبركان؛ تورنفوريّـاتٌ فضيّـة، ونخلـةُ أريـكا صفـراء ضخمـةٌ، داكنـة الأوراق. هـذا هـو المـكان الـذي تـأتي إليـه النسـاء كـي يغرفـنَ المـاء في جـرارٍ، أو يغسـلن شـعورهنّ بالميـاه الجاريـة. هبطـتُ مـن صخـرة إلى صخـرة، متشـبثاً بالأجمـات. كان هنالـك العديـد مـن النسـاء، عاريـاتٍ حتّـى الخـصر، يتربّعـنَ عـلى حافـة المـاء وأجسـادهنّ تتألّـق في ضـوء الشّـفق الذهبـيّ. سـمعتُ انسـياب المـاء، وضَحِكاتهـنّ حـين يتراشـقن بالمـاء، متخلّيـاتٍ عـن كلّ حشـمةٍ، كأنّهـنّ في عـالمٍ آخـر، عـلى حافـة نهـرٍ في الهنـد أو كشـمير.

سـمِعنني. فحاولـن رؤيتـي بـين الصخـور وأوراق الحشـف، لكـنّ الشـمس بهـرت أبصارهـنّ. كانـت بشرتهـنّ حنطيّـةَ اللّـون، وقـد أثقـلَ المـاء شـعورهنّ السّـود وسـالتْ قطراتُـه عـلى أكتافهـنّ ونهودهـنّ.

لم تكـن سـوريا معهـنّ. بقـينَ للحظـاتٍ ملتفِتـاتٍ نحـوي، وحاولـن أنْ يلمحنَنـي في مخبئـي. لكنّنـي كنـت لابـداً كالأرنـب، لا أبـدي حـراكاً. ألقـينْ الحـصى عشـوائيّاً، وكُـنّ يصخْـنَ علـيّ كـما لـو كنـت طفـلاً قليـل التّهذيب. ثـمّ التففْـن بأثـواب السّـاري وابتعـدنَ حامـلاتٍ الجـرار الممتلئـةَ عـلى أكتافهـنّ، وهبطـنَ الـوادي صـوب الشـاطئ، واختفَـين للحظـةٍ بـين كتـل الحمـم البركانيّـة، ثـمّ سـمعت أصواتَهـنّ مـن جديـد، ورأيتهـنّ يسِرن عـلى طـول الخليـج صـوبَ البيـوت المشـتركة.

امتـلأت السّـماء بالخفافيـش قبـل اللّيـل. أخـذتُ أصيـح كـما في ذلـك اليـوم: «سـوريا! سـوريافاااتي!» وتخيّلـتُ أنّ صـوْتيَ قـد وصـل إلى قريـة العـمّال، وإلى نقطـة المراقبـة حيث يقـف جوليـوس فـيران والمنظـارُ في يـده. سـأصرخ مـرّة أخـرى، إنّهـا فرصتـي الأخـيرة قبـل حلـول اللّيـل. وفجـأة

أدركتُ أنّها هناك، سمعت وقعَ خطوتِها الرشيقة، ورّنة أساورها القصيرةَ. أقبلتْ من الوادي صاعدةً عبرَ ركام الصخور. لكنْ لم تكنْ هي من سمعتُ أوّلاً، بل جديانٌ تتقافز من صخرة إلى أخرى مطلقةً ثُغاءها الحادّ. ثمّ ظهرَت هي، ومعها صبيٌّ صغير، راعٍ يقود الجديان برمياتٍ من الحصى على طول الوادي. كانت سوريا ترتدي شالها الأحمر الكبير الذي يغطي شعرها. أقبلَت نحوي، وكأنّها تعلم أنّني كنت أنتظرها. نظرَت إليّ، ولم تبدُ متفاجئة بوجودي. حيّتني على الطريقة الهنديّة، ثمّ جلسَت على حجرٍ أمامي، وأخذَت هي أيضاً ترمي الحصى على الجديان المُهرولةِ عبرَ الوادي.

بعدها بقليلٍ توقفَت الجديان أمام حوض للشّرب. واختفى الرّاعي في الدّغل.

لم أعرف ماذا أقول. بدا لي أنّ أيّاماً وشهوراً مضت دون أنْ أراها. قالت ببساطة، «هل تشعر بالجوع؟ أحضرتُ لك بعض الطّعام». أخرجَت بعض قطع حلوى الأرزّ من حقيبتها. كان كلّ شيء غايةً في البساطة، حتّى أنّه لم يُثر استغرابي. وحينَ مددْتُ إليها إحدى الكعكات، رفضَت: «لقد أكلتُ منذ قليل!» قالت «قليل» ماطّةً المقطع الأول، كأنّها تغنّي.

لا أتذكّرُ متى أكلتُ آخر مرّة، ربّما هذا الصباح، قليلٌ من الأرزّ الملتصقِ في قاع القدر، مما تبقى من اليوم السابق. ولّما تناولتُ الحلوى، بدا لي أنّني لم أذق في حياتي ما هو أطيب منها. نظرت سوريا إليّ وقد بدت شاردةً قليلاً، ثمّ قالت بصوتٍ غريب:

- في شيخوختكَ، سأكون أنا من تحضّر الطّعام لك.

ولمّا فرغتُ من طعامي، مضَت بي إلى أسفل الوادي نحو حوض الماء. مياهُ الينابيع عذبةٌ ونقيّة. أمّا مياه الصهاريج عندنا، في الكرنتينة، فطعمها مرّ، ويلزم أنْ تُصفّى بقطعةِ قماشٍ لتنقيتها من يرقات البعوض.

كان نور المساء الخافتُ يلفّ المكان حول النّبع، والأشجارُ من حولنا عامرةً بالطيور، وقد أخذت الزرازير تتنادى مع دنوّ اللّيل. وكان البركان من فوقنا حادّاً قاتماً منذراً بالخطر؛ فقد أحسستُ بنظرة المراقبَين مسلّطةً علينا، مختبئةً في أنقاض المنارة. هبطنا الوادي صوب البحر، وبحثنا عن مخبأ بين الصخور. عاد الصبيّ الصغير إلى باليساد سائقاً جديانه. وجلسَت سوريا على بسطةٍ صخريّة أمام البحر المعتم.

– حدّثني أكثرَ عن إنجلترا.

لا تزال السماء في أوج صفائها، أتأمّل وجه سوريافاتي وانعكاسَ النّور في عينَيها. شعرُها مُسرّحٌ في جديلةٍ سميكةٍ واحدة. وزمامُ الذّهبِ يلمع في طرف أنفها مثل قطرة ماء.

تريد أن تعرف كلّ شيء، كيف يعيش النّاس هناك، في لندن، وما هي أوصاف ملابسهم، وكيف هم أطفالهم. لا أفهم بالضّبط ماذا تريدني أن أقول لها. ذهبتُ إلى لندن للمرّة الأولى في الصيف الذي أعقب وفاة أبي، كان جاك يقيم مع العمّ وليام في مكانٍ يُدعى بِكنهام، فيه بيوتٌ من الطّوب الأحمر، وحدائق كئيبةٌ إلى حدّ ما، وشجيراتُ ورد. آثرتُ أنْ أصف لها ما قرأته في روايات تشارلز ديكنز؛ السّجن الذي أُرسِل إليه بِكْوِك(1)، بفسحته الدائريّة الكبيرة حيث يتمشّى السّجناء كما لو كانوا

(1) إشارة إلى صامويل بِكوِك Samuel Pickwick بطل أولى روايات تشارلز ديكنز «مذكّرات بِكوِك».

على خشبة مسرح. فتحَت سوريا عينَيها على اتساعها وضحكت:

- إنّهم غريبون! وبعد لحظةِ تأمّل قالت:

- لقد وُلِدتْ أمّي في لندن.

ولمعت عيناها كأنّها اغروْرقتا بالدّمع:

- لا تعرف أمّي من هما والداها الحقيقيّان. إنها لا تعرف حتّى اسميهما. خلال الحرب ضدّ الإنجليز في الهند، كانت في كاونبور. عثرتْ عليها جدّتي جيريبالا، كانت في الخامسة من عمرها، وكانت تتشبّث بعنق مربّيتها ساكنةً، بعدَ أنْ مات الجميع. رأت جدّتي أنّ الطفلة ما زالت على قيْد الحياة، فأخذتها بعيداً. ومنحتها اسماً، سمّتها أنانتا.

فجأة شعرتُ بالخجل من ثرثرتي. فما كانت تطلبه منّي سوريا هو أن أحدّثها عن أمّها، عن المدينة التي وُلِدتْ فيها، وليس عن الأكاذيب. قالت:

- قل لي بعض أسماء إنجليزية، فلربّما يكون من بينها اسم أمّي.

أخذتُ أخمّن، كما في لعبة:

- حسناً: ماري، إميلي، أماليا.

- أماليا، هذا اسمٌ جميل.

لم أجرؤ على إخبارها بأنّه اسم أميّ. بحثتُ عن أسماء أخرى:

- أغاثا، فيكتوريا.

أضحكَتْني صرختُها:

- آه! كلّا، ليس فيكتوريا!

- إذَن ربّما آن، أو أَلِيس، أو جوليا. لكنّكِ على حقّ، ربّما كان اسمها أماليا.

- أحبّ أمّي كثيراً.

لم تُضِف شيئاً. جلسنا متجاورَين على تلك الصّخرة الممتدّة في البحر كمن يجلس على مقدّمة مركب. اقترب اللّيل، وبصعوبةٍ تبيّنتُ ملامحَها، لكنّني تنشّقت رائحة جسدها وشَعرها. وبدا لي أنّني أعرفها منذ الأزل.

حدّثَتني عن موريشيوس، عن ديْر ماهيبورغ، وعن أبيها الذي لا تعرفه. «مات إثر حادثٍ وعمري عامٌ فقط. لم تُرِدْ أمّي أن تحدّثني عنه قطّ، أظنّها تزوّجته وهي في السادسة عشرة من عمرها. كان مسيحيّاً من فيل نوار[1]».

ودِدْتُ ألّا تنتهي هذه اللّحظة. تحدّثت سورياڤاتي عن الهند أيضاً، عن النهّر العظيم حيث غسّلت جدّتُها أنانتا بعد أن عثرَت عليها. وعن مدنٍ بأسماء جميلة، الله أباد، وفاراناسي، وكلكتّا. قالت إنّها سوف تصطحب أمّها ذاتَ يوم إلى هناك، وسوف تذهب إلى كاونبور لترى المكان الذي أُنقِذتْ فيه، والنّهرَ العظيم، نهر يامونا، حيث ولد الإله كريشنا.

في تلك اللّحظة أمالت رأسها على كتفي وكأنّها مرهقة. غمرني عطر جسدها وجعلني أرتجف. أمسكَت بيدي، فأحسستُ براحتَيها الناعمتَين والمستنزفتَين، دافئتَين جدّاً. ثمّ ابتعدَت قليلاً. حاولَت أنْ تتأمّلني في العتمة، وكان صوتُها مكتوماً.

- أحبّ أمّي كثيراً، ليس لي سواها. أريدك أن تُحدّثها يوماً ما عن بلدها، أنْ تعيد عليها كلّ ما قلتَه لي. ماتت جدّتي هنا منذ زمنٍ طويلٍ

(1) قريةٌ في منطقة ماهيبورغ، في جزيرة موريشيوس.

قبل ولادتي. وأُحرقت على الشاطئ، لكنّها لا تزال هنا. تقول أمّي إنّ الموتى لا يذهبون بعيداً، بل يعيشون معنا، وحيثما حُرقت جثثهم فذاك مأواهم.

ضممْتُ سوريا إليّ، وأحسست بوجهها على وجهي، وباختلاج رموشها، وبشفتَيها وأنفاسها. اذْلهمّ اللّيل، لكنّي ما زلتُ أرى طيفها في مرآة السّماء الصافية. ضربت الأمواج بعمقٍ واهتزّ الصّخر من تحتي. كلّ شيء فائق الغرابة والجِدّة، ولا يمكن توقّعه. أشعر بالدّوار نفسه، وبالرّغبة نفسها. بدا لي أنّني محمولٌ في رحلةٍ برفقةِ سوريا على متن طوْفٍ حجريّ، والجبل أمامنا كأنّه موج البحر.

مرّرَت بهدوءٍ راحةَ يدها على وجهي، ثمّ نهضَت ومشَت مبتعدةً. ناديْتُها: «سوريافاتي!» ومشيت خلفها، لكنّها كانت تسير بسرعة حتّى أنّني ضيّعتها. كانت تعرف كلّ صخرةٍ، وكلّ شجيرة. وقد تبعتُها إلى باليساد.

ياموना

يبدو الأمر وكأنّني عشت هذا كلّه، كأنّني رأيته بالأمس في منامي: السّفن راسيةٌ على طول نهر توليـز نولّا في حيّ بهوانيبور بكلكتّا، تنتظرُ ركوب المهاجرين. وعرباتُ يدٍ يجرّها عمّالٌ على طول الطريق إلى كلكتّا وعرباتٌ أخرى فُكَّت عن الجياد، وثيرانٌ جاثيةٌ في التراب. والمياه الموحلة تنساب بطيئةً في القناة نحو مصبّ نهر هوغلي، والمراكب السوداء ينبعث من مداخنها دخانٌ خفيف، والأشرعة أعلى الصّواري ترفرف في الرّياح الموسميّة. والسماء تضطّرب فوق صفحة الماء، والمطر الذي انفجر فوق المدينة، غزيراً مثل شلّالٍ رماديٍّ، يمضي إلى عاليةِ النّهر، ويدفع أمامه هبّةَ ريح باردة.

إنّها أنانتا من أفكّر بها. يدُها الصّغيرة المضمومةُ في يد أمّها، وهما تنتظران تحت

ظُلّـة المخيّـم الدائريّـة مـع كلّ هـؤلاء النـاس الذيـن يتحرّكـون مـن حولهـا، هـؤلاء الغربـاء القادمـين مـن جميـع أنحـاء العـالم، مـن ولايـة عَـوَض[1] والبنغـال وتـلال غونـد والبنجـاب وغوجـارات، كـي يصعـدوا إلى متـن مراكـب ليداريـه وكلارنـدون وإشـكندر شـاو.

لا بـدّ أنّ صمتـاً مطبقـاً كان يسـود مخيّـم بهوانيبـور آنذاك. السـماء صفـراء مرقّطة بالأسـود، كأنّهـا شـفقٌ في وضـح النهـار. وطيـور الشـحرور المتغطرسـة تتجوّل من شـجرةٍ إلى شـجرة، مسـتاءةً مـن المطـر، وتحـطّ عـلى أيـدي العربـات. ثمّـةَ أطفـالٌ أيضـاً، وفتيـانٌ عُـراةٌ يلعبون بجـوار القناة، ويغطسـون في الميـاه الموحلة، ونسـاءٌ ينادينهـم. إنّه النهـارُ يوشـكُ عـلى الانتهـاء. سرعـانَ مـا أوقِدت المشـاعلُ في المطابـخ عـلى طـول السّـور المحيـط بالمخيّـم. وجلسـت النّسـاء أمـام المواقـد يطهـين الأرزّ، وفي أيديهـنّ غصونٌ طويلـة. وتجمّع الرّجال عنـد ضفّـة النّهـر، وقـد احتمـى بعضُهـم مـن قطـرات المطـر الأولى بالمظّـلات. كانـت الشـمس أحيانـاً تُطلُّ مـن بين الغيـوم، فتلتمـع بنورها ثياب النسـاء وحُليّهـنّ النحاسـيّة.

(1) «آفد» بالهندية، و «Oudh» في النصوص التاريخيّة البريطانية.

كلّ شيء ينساب على مهلٍ. تنحدر المياه من القناة وئيدةً نحو مصبّ النهر، حاملةً أزهاراً من زبدٍ أصفر، وحُزماً من أغصان الشجر، وأحياناً قماشةً باليةً ملتبسةَ الشّكل تدور في الدّوامات إلى أنْ تعلقَ بمؤخّر سفينةٍ.

سألَت أنانتا الصغيرةُ ويدها حبيسةٌ في يد أمها:

- متى سنغادر؟

فجيريبالا لا تريد أن تترك يد الطفلة. بدا لها أنّها إنْ استدارت لحظةً واحدة، فستختفي ابنتها في دوّامات القناة. كانت حبّات العرق تسيل بانتظام على وجه المرأةِ الشابّة، مبلِّلةً رموشها كالدّموع.

- لا أعرف. في القريب العاجل، ربّما فجرَ غدٍ.

ثمّ أشارت أنانتا إلى الدّخان المتصاعد من مداخن السّفن العالية:

- انظري، هل سيغادرون من دوننا؟

ظلّت جيريبالا ضامّةً يد أنانتا بقوّة، حتّى تألّمت الطّفلة، فقد كانت يقينَها الوحيد، وكلُّ ما سواها عدمٌ: القناة والنهر، وهذه الضّفة حيث رجالٌ ونساءٌ مجهولون ينتظرون بلا انتهاءٍ الرّحيل إلى بلدٍ لا وجود له.

19-20 يونيو

كنت مستلقياً على الشاطئ، غيرَ بعيدٍ عن بيْت سوريافاتي، هنالك حيث يلتقي الحاجز المرجانيّ الصغير، الذي يحيط بمخيّم العمّال، بالشاطئ. وقد سمعتُ صوت البحر يضرب في الشّعاب المرجانيّة كما لو كانت جؤجؤ سفينة. أعطتني سوريا ملاءةً لحمايتي من برد اللّيل. وتركَت مصباح البونكا مشتعلاً أمام بابها، كما يفعل جميع المهاجرين. التفتُّ فرأيت كلّ بؤَرِ الضوء تلك تتلألأ في اللّيل كأنّها النجوم، وكأنّني أمام مدينةٍ حقيقيّة.

وتناهت إليّ أيضاً تلك الأصوات المألوفة، الكلاب التي تتبادل النباح، وثغاء الجديان الخافت الحادّ في الحظائر، وصوت طفل، وامرأةٌ تغنّي في مكانٍ ما أغنيةً طويلةً حزينةً تتلاشى من حينٍ إلى حين. وشيئاً فشيئاً داهمني النعاس، وهيّئَ إليّ أنّني على متن قاربٍ يمضي على غيرِ هدى من جزيرةٍ إلى أخرى. حتّى إنّني نسيتُ في لحظاتٍ أنّنا لم نعد على متن لافا، وانتابني إحساسٌ أنّنا توقّفنا وحسْب في ميناء مجهول، وأنّنا سنستأنف رحلتنا غداً.

هدأت الرّيح ليلاً. أيقظني الحرّ الشّديد وصمتُ الشّعاب المرجانيّة، فكان القمر في سَمْته، متلألئاً وسْط السماء المعتمة. انطفأ المصباح الصغير في بيت سوريافاتي، وكذلك غالبيّة المصابيح من حوله. فلا بدّ أنّنا صرنا على عتبةِ الفجر.

كان الهواءُ الحارّ يضغط بثقله فوق البحر وفوق المدينة. ثمّةَ آلافٌ من النّمل الطائر من حولي، أراها في ضوء القمر تزحف على الرّمل، وتتعلّقُ بملاءتي الناصعةِ البياض. أحسستُ من جديد بشعورِ القلق والتّهديد نفسه الذي اعتراني ليلةَ نزولنا من المركب الشراعيّ في

قلب العاصفة، فمشيت بهدوء على طول الشاطئ. كان المدّ في ذروته في خليج باليساد، وقد علا موج البحر حتّى بلغَ بلاطات البازلت الكبيرة، ولم يُبقِ سوى شريطٍ ضيقٍ من الرّمل تراكم عليه عشب البحر والأخشاب الطّافية.

أذِنتْ ليَ الكلاب بالمرور، رغم عدوانيّتها المعتادة. تشمّمتني مزمجِرةً، لكنّها ظلّت مُقعيةً على حافة الجرف، وخطومها في التراب. لعلّها ألِفت رائحتي، أو أنّها قد بلغت من التّعب حدّاً أعجزها عن النّهوض.

اقتربتُ كثيراً من القرية. فتنشّقت رائحة الدّخان والنباتات العطريّة التي تنمو قربَ البيوت المشتركة. وكان هنالك رائحةٌ أخرى لم أميّزها من فوري تفوح في الجوّ وتلفّني، رائحةُ رمادٍ وعطورٍ مختلطةٍ لا تخفّ أبداً، بل تتكثّف باطرادٍ إلى حدٍّ منفّر.

وصلتُ إلى نهايةِ الشاطئ، عند النقطة التي تفصل أكواخ المنبوذين عن مساكن المهاجرين المشتركة. هناكَ، قريباً من الحاجز حيث تتكسّر الأمواج، ما يشبه منصّةً حجريّة سوداء، تلتمع بغرابةٍ في ضوء القمر. تبدو كأنّها نصُبٌ تذكاريٌّ قديمٌ صامتٌ قد هجَره البشر، ويقف وحيداً أمام البحر. وفي كلّ نقطةٍ حول هذه الصخرة البحريّة، يمتلئ الشاطئ بحجارة الحمم البركانيّة المدبّبةِ والمغطاة بالزّبد. صعدتُ بمشقّةٍ المنصّة الصخرية مُجرّحاً يدَيّ وقدمَيّ. وأخذتُ أتلمّس الواجهات الحجريّة، وهي سورٌ ضخمٌ بلا ملاطٍ، تشكّل من كتلٍ ناعمةٍ وصقيلةٍ حتّتها أمواج البحر، وظلّت محتفظةً بدفءٍ جوّانيّ.

ولمّا صرتُ لِصقَ الجدار، زال عني كلّ قلقٍ، بل إنّني شعرت

بسكينةٍ عظيمة. وقد تغلغلَت فيّ رائحة النار. مررْتُ بيدي على المنصّة الحجريّة، فشعرتُ بغبارٍ فائق النعومة يتسرّب من بين أصابعي، يكاد لا يُلمس. وفهمتُ فجأةً: هنا محرقةُ الموتى، المحرقة التي يراقبها فيران بمنظاره كلّ مساء، ويأتي ليبلّغ عنها في الكرنتينة مثل نذيرِ شؤم: «ما زال هناك وفياتٌ بين المهاجرين».

تُشكّل القمّة الصخريّة نوعاً من شبه جزيرة، تكاد تكون منفصلةً عن السّاحل حيث يعلو المدّ، وحيث ألمحُ، من جهةٍ، الخطَّ المعتم الذي يمتدّ حتّى صخرة لوديامو، ومن الجهةِ الأخرى خليجَ باليساد وطيفَ البركان الشّاهق. إنّه مكان خارج العالم. ليسَ وعراً ولعيناً مثل درب الجمر في جزيرة غابريال، بل رائقاً وادعاً تتراقص من حوله الأمواج.

جلستُ بين الصخور مستنداً إلى الجدار الدّافئ، وأخذتُ أتأمّل البحر. كان الرّماد المتطاير مع الريح يُسكِرني كأنّه دخان أحلام.

وقُبيل الفجر، حين امتزجت السّماء الرماديّة بالبحر، وصلَت سورياڤاتي. رأتني، لكنْ لم أكن أنا من أتت لزيارته. كانت تُمسك بمكنسةٍ من سعف النخيل. وشرعتْ تنظّف مكان المحرقة، وشالُها الأحمر الكبير يخفي وجهها وشعرها. رأيت طيفها في الغبَش مُنحنياً على الأرض، وسمعتُ ضربات المكنسة المنتظمة. ثمّ أخذتْ دلواً كانت قد وضعته عند حافة المحرقة، وبالاستعانة بقرعةٍ مُفرّغةٍ رشّت الماء على الحجارة السوداء.

ثمّ طلع النهار. وجاءت سورياڤاتي لتجلس قربي. وجهها متعب، وعيناها تشيان بتعبيرٍ غريبٍ لم أره من قبل. قالت ببساطة: «أمّي

دوميّـة[1]، وكانـت وظيفتهـا القيـامَ عـلى محـارق الجثـث. والآن لم يعـد في استطاعتها فعـل ذلـك». ثـمّ أردفـت: «الآن كلّ شيءٍ سـيكون مختلفـاً». بـدا لي أنّنـي فهمـت مـا تعنيـه، فـلا ألـوان هنـا ولا أعـمار، بـل هـو البحـرُ يحملنا جميعـاً عـلى أرجوحتـه. «هنـا أُحرقـت جثّـةُ جـدّتي جيريبـالا حـين عـادت مـن الهنـد. أحدُهـم أذكـى نـار محرقتهـا، وآخـرُ ألقـى رمادهـا في البحـر كـي تعـود إلى نهـر يامونـا».

أخذَت يدي، كما فعلَت بالأمس أمام النّبع.

«هـل نخـاف الموتـى؟» ينبغـي ألّا نخافهـم، فهُـم معنـا، لا يتركوننـا. تقـول أمّـي إنّهـا تراهـم في اللّيـل حـينَ يجافيهـا النـوم، تراهـم يمشـون عـلى الشـاطئ بحثـاً عـن مـكان يسـكنونه. إنّهـم في الطيـور، وفي النباتـات، وحتّـى في قلـب البحـر، حيـث الأسـماك».

ثـمّ تناولَـت حفنةً مـن الرّمـاد المختلط بالرمل الأسـود، ومـرّرت أصابعها رويداً عـلى وجهي، وعلى وجنتَيّ وجفنَيّ راسـمةً خطوطاً ودوائرَ، فأحسسـتُ بهـدوءٍ كبيرٍ يـسري في أعماقـي. قالـت بلغتهـا كلـماتٍ أشـبه بصـلاة أو أغنية: **كالا لـوغ غايـا، لايـي لـوغ غايـا**... ثـمّ ضمّـت يدَيهـا حـول عنقـي، وأمالت رأسي نحوهـا، وضمّتـه إلى صدرهـا حتّى أسـمعَ دقّـات قلبها. ونادتنـي للمرّة الأولى باسـمي، الاسـم الـذي منحتني إيّـاه إلى الأبد:

- بْهايْ[2]... أتريد أن تكون أخي؟

(1) الدّوميّون أو الدّوم: مجموعة إثنيّة غجريّة تنتسب لمجموعة الشّعوب الهندو-آريّة، يعيش غالبيّتها في الشرق الأوسط ومناطق من وسط آسيا وجنوبها وشمال أفريقيا. ويعتقد بعض الباحثين بوجود صلاتٍ بين الدّوم وإثنيّة الدّومبا الهنديّة.

(2) الكلمة بالهنديّة، وتعني أخي.

أشرقت الشمس على الطرف الآخر من الجزيرة. وكانت طيورٌ تعبر خليج باليساد في طريقها إلى صخرة لوديامو. مشيت برفقة سوريافاتي نحو خليج المنبوذين. كان الرّجال لا يزالون نائمين في الأكواخ. وفي الخارج ثمّة نساءٌ يشعلن النار، وعددٌ قليلٌ من الأطفال يشْكون متباكين. تولّاني شعورٌ غريب، شيءٌ ما انحلَّ في داخلي وتحرّر، وأحسستُ بطاقةٍ جديدةٍ في جسدي كلّه، رعشةٍ سَرَت في أعصابي وعضلاتي، فلانت مفاصلي، وهدأت أنفاسي، وانجلى بصري.

الدّرب المحاذي للشاطئ ضيّقٌ، يحدّه جرفٌ من ترابٍ أسود. كانت سوريافاتي تمشي بخطواتٍ واسعةٍ أمامي، ثمّ دلفتْ إلى بيتها من دون أنْ تلتفت إلى الوراء. جلستُ في مكاني المعتاد وسْطَ الحصى الذي كشف عنه انحسار المدّ. كان الفجر يضيء هذا الجانب من الجزيرة، وقد أعلنَت صافرةٌ كئيبةٌ طويلةٌ لحظةَ الاستيقاظ العام. أُذكيَ الجمرُ تحت ضرباتِ المرواح اليدويّة فتأجّجت النيران أمام بيوت باليساد. تنشّقتُ رائحة الزّيت الساخن والدّخان، فعضّني الجوع فجأةً، حتّى أنّني انثنيتُ إلى نصفَين ضاغطاً على معدتي، ويبدو أنّني تأوّهت أيضاً، إذ ما هي إلّا لحظاتٌ حتّى أقبل أحدهم. ظننتُ أولاً أنّها سوريا، ثمّ عرفتُ ذلك الطّيف. إنّها أنانتا. توقّفَت أمامي، ووضعَت على الأرض طبقاً مطليّاً بالمينا به أرزٌّ بالكاري وبعض الخضار. قلتُ لها الكلمة اللّطيفة التي علّمتني إيّاها سوريا لتقديم الشّكر: «شوكريا».

تراجعَت أنانتا قليلاً وهي تنظر إليّ. جسدها شديد النحول، يرفرف حوله ثوبُها الأصفر ووشاحُها. ووجهها الهنديّ بلون التّراب مُضاءٌ بأخضرِ عينَيها المائيّ، الباهت والشّفيف. لمْ يكن في ملامحها ما يشي بأيّ ريبةٍ أو استياء. أحسستُ أنّ كلّ مخاوفها قد تبدّدت. ثمّ

أقبلت سوريا بدورها، وناولتني كوباً من الشاي المغليّ. «كلْ واشرب، ثمّ عليك أنْ تعود إلى مكانك في الطرف الآخر».

تناولتُ الأرزّ والخضار بأصابعي والتهمته بشهيّة. ثمّ لسعَ الشاي المرّ حلقي ومعدتي.

في تلك اللّحظة أقبلَ أطفالٌ وتحلّقوا حولنا، أولادٌ صغارٌ عراةٌ ببشرةٍ سوداء وابتساماتٍ مُشرقة. كانوا يلهون، وينادونني بلغتهم أو ربّما باللّغة الدوميّة التي يتحدثونها بالمقلوب. فتصيح سوريافاتي عليهم: «جايي! أوتا! أوتا!» كمن يصيح على كلابٍ تقترب منه أكثر من اللّازم.

وحين فرغتُ من طعامي، غسلتُ الطّبق والفنجان في البحر، ووضعتُهما أمام البيت. بدا لي أنّني أفعل ذلك منذ الأزل، مذْ كنت طفلاً. بقيتُ لحظةً واقفاً أمام البيت. عادت أنانتا إلى فراشها، رافعةً طرفَ ناموسيّتها، وجلست سوريا بجانب أمّها، ثمّ أخذت تضفّر لها شعرها بأناملها. تسلّل ضوء الشمس إلى البيت ودفّأ الجدران. كان صباحاً مثل غيره من الصباحات، بطيئاً وادعاً.

في قرية المنبوذين، وقبل الذّهاب إلى العمل في المزارع أو في بناء السّد، يجلس الرّجال أمام البيوت يشربون الشاي ويثرثرون، وتكنس النساء الممرّات بسعف النخيل، فيثِرْن سُحباً من الغبار الأسود تعود لتحطّ أبعد قليلاً. وأمام بيوت المسلمين يُتمُّ الرجّال وضوءهم وصلاتهم. ثمّ ينتظر الجميع رجالاً ونساءً إشارة السّردار، ومع دويّ الصافرة الثّانية، ينطلقون نحو خليج باليساد.

ثمّة أناسٌ يتجمّعون في أحدِ الأزقّةِ على مبعدةٍ يسيرة، نساءٌ مُتلفّعاتٌ بشالاتهنّ، ورجالٌ نحيلو القامة يقفون منتظرينَ، آملين

أنْ تُطلّ أنانتا، فيحصلوا منها على الطعام ويتلقّوا بركتها. إنّها مثل أمٍّ للمنبوذين، عارفةٌ بالنباتات وطرق الشّفاء، ولها قدرةٌ على طرد الأرواح الشريرة «يانغ». أحسستُ أنّها أمّي التي لم أعرفها قطّ، وأنّها قادرةٌ على منحي الدّفء والحبّ. أفهم لماذا يخافها الشّيخ حسين ويحترمها، ولماذا يدعُها وشأنها. إنّها، مِن الخُصّ الذي يؤويها في قرية المنبوذين، ومن غيرِ خطابات ولا أسلحة، تحكم الجزيرةَ بأكملها.

وحينَ مررتُ بآخر البيوت، خرجَت امرأةٌ تمشي متعثّرة، وأمسكَت بي. امرأةٌ في ريعان شبابها لكنّ الكراهيّة تشوّه ملامحها، عليها ثيابٌ ممزّقة وشعرها أغبر. إنّها رسامه، بائعة الهوى التي اغتصبها الشبّان وضربوها ليلة الاحتجاج. كانت تصيح بكلماتٍ غير مفهومة، وتحثّني على التّراجع. وإلى الخلف منها، على بعد خطواتٍ قليلة، رأيت الصبيّ الصغير الذي يعيش معها، كان يضع يده فوق عينَيه ويراقب دون أن ينبس بكلمة. تحرّرتُ من المجنونةِ أخيراً زاجراً إيّاها بحركةٍ من يدي. فتردّد صدى لعناتها من خلفي مثيراً نباح الكلاب. وقد تركَت في ذراعي، حيث ضغطَت بأظافرها، علاماتٍ على شكل هلال.

وإذ كنت وحيداً تماماً على الدّرب المفضي إلى طرف الجزيرة، حانت منّي التفاتةٌ طويلةٌ صوْب البركان، فانتابني في تلك اللّحظةِ غضبٌ مشوبٌ بالخوف. ففي أعلى البركان، كان يختبئ المراقبان، بارتولي وفيران الفاسد. حدسْتُ نظراتهما، وأحسستُ كأنّما ينصبُّ فوقي برودُ العدسة الهازئة وهي تراقب الجزيرة، بدءاً من أزقّة القرية وصولاً إلى الوادي الظّليل حيث تستحمّ النساء مرتعشاتٍ في النّبع.

لم أتخيـل قـطّ أنّ الرّجـوع إلى الكرنتينـة، وعبـور هـذا الحـدّ المصطنـع، سـيكون بهـذه الصعوبـة.

استحممتُ في ميـاه البحـيرة الفاتـرة، دون أنْ أغسـل آثـار الرّمـاد التـي تركتْهـا سـوريافاتي عـلى وجهـي. فـما دمْـتُ أحملهـا، سـأظلّ محتفظـاً بطاقتـي ومرونـة مفاصـلي، وبلمسـة أنامـل سـوريا الرّشـيقة عـلى جبينـي ووجنتَـيّ وجفـوني.

سلكَت المرأةُ الدّرب الجنوبيّ عبر الحقول المتهالكة، صوب نهر يامونا. وفي ولاية عَوَض، كانت مُدن لكناو وكاونبور وفاتحبور تحترق. وقد غطّى دخان الحرائق السّماء مثلَ شفقٍ لا يبرح مكانه، حيث الشمس تسبح خلف الحجاب الرّماديّ الورديّ. واحتشدَت على الطرقات مجموعاتُ الفارّين من شيوخ ونساء، وأطفالٍ يحملون صرر الثياب والمؤن، أمّا الرجال فقد اختفوا. وانتشرت رائحة الدّم والموت في كلّ مكان. وتسمّمت الآبار من الجثث التي أُلقيَت فيها. وعمّ الجوع. جوعٌ ينهش البطون ويُشقّقُ الأرضَ ويجفّف الينابيع.

كانت جيريبالا تسير حافيةً في الطريق المُتربة، ضامّةً الطّفلةَ إلى صدرها. وكانت تحسّ من حين إلى حين بالصغيرة تتحرّك تحت شالها خفيفةً مثل قطّة، لا تبكي ولا تصرخ أبداً. كانت قد رأت الطفلة في

كاونبـور، ممـدّدةً عـلى صـدر مربّيتهـا النـازف، أمـام الجـدران الطينيّـة المتداعيـةِ. ظنّـت في البدايـة أنّ كلتَيهـما قـد فارقـت الحيـاة. ثـمّ فتحـت الفتـاةُ الصغـيرة عينَيهـا ونظـرتْ إليهـا، ففهمـت جيريبـالا أنّ الـدّم الـذي يغطـي جسـدها مـا هـو إلّا دم مُربّيتهـا. وبـلا أيّ تـردّد، اندفعـت جيريبـالا غريزيّـاً وأخـذت الطفلـة بـين ذراعيهـا. فلاحظـت أنّهـا بيضـاءُ، إنجليزيـةٌ صغـيرةٌ في الرّابعـة أو الخامسـة مـن عمرهـا، ذاتُ شـعرٍ ذهبـيٍّ وعينَـين خضراوَيـن، وثـوبٍ ممـزّقٍ محـترق. لم تـصرخ الطفلـة، بـل تشـبثت بهـا بـكلّ قوتهـا، وكأنّهـا تخشـى أنْ تصدّهـا. ركضـت جيريبـالا مـع الطفلـة دون أن تلتقـط أنفاسـها، حتّـى وصلـت الـدّرب المفـضي إلى نهـر يامونـا. وفي لحظـةٍ، لقيَـت عـلى الطريـق مجموعـةً مـن متمـرّدي السـيبويْ، لكنّهـم تركوهـا تمـرّ. بـدتْ مجنونـةً بملابسـها المهترئـة، وشـعرِها المتشـابك المتـدلّي عـلى كتفَيهـا، وبقِـع السـناج عـلى وجههـا. ولم ينتبـه أحـد إلى الطّفلـة التـي تحتضنهـا تحـت شـالها، تلـك الصغـيرة الغريبـة ذات الوجـه المُدمّـى والعينَـين الفاتحتَـين التـي كانـت تدفـن رأسـها في صـدر أمّهـا.

وصلت جيريبالا إلى نهر يامونا عندما بدأ الجنود الاسكتلنديون من فوج هايرلاندرز 93 بقصْف بلدة لكناو، حيث حَجَب دخانُ الحرائق الأفق مرّة أخرى. كانت الطرقات على طول نهر يامونا مزدحمةً بالناس والعربات وذوي الإعاقات. أخذت جيريبالا تمرّ على بيوت القرى لتطلبَ قليلاً من الحليب والأرز وفطائر العدس للطّفلة. وكانت تتوقّف، خلال ساعاتِ مشيِها الطويلةِ، لتستظلّ بشجرة. وأحياناً لم يكن لديها ما تطعمه للصّغيرة، لكنّ الصّغيرة لم تكن تشكو. كانت تنظر إليها بلون عينَيها الأخضر المائيِّ وحدقتَيها الواسعتَين، دون أن تتكلّم أو تبتسم. كان وجهها بيضاوياً جميلاً، وشعرها البنّيُّ المُذهّبُ ملطّخاً بعدُ بدم مربّيتها.

لم تكن جيريبالا تذهب إلى النّهرِ إلّا مساءً، مثل الحيوانات البريّة، أمّا أثناء النهار، فكانت تسلك الدّروب الوعرة. فقد كان يُشاع أنّ الجنود الأجانب يركبون الأنهار في زوارقهم البخاريّة بحثاً عن المتمرّدين. كانت في بعض الأحيان تسمع صوت المدفع من مكان قريب، وكانت تعرف كيف تميّز طلقات

بنادق السيبوي، وصوت المدافع الإنجليزيّة العنيف حينَ تطلقُ الـ«القذائف المعدنيّة»[1].

ذات مساءٍ، قابلَت على ضفّة نهر يامونا مجموعةً من جنود السيبوي المهزومين. كانوا مسلّحين بالسيوف والحِراب، وكانت بزّاتهم ملطّخةً بالطّين والدّم. رأى أحدهم الفتاة الصغيرة الملفوفةَ في شال. ولا بدّ أنّه لاحظ بشرتها الفاتحة وشَعرها الذهبي. فسأل جيريبالا: أهذا ابنُكِ؟ بدا مريباً. قالت جيريبالا بصوتٍ مهزوز: «إنّها ابنتي». وفيما ظلّ الجنديُّ محدّقاً في الطّفلة وهو يمسّد لحيته صاحت به قائلةً: «وأنت، أتكون أباها؟» فضحك الآخرون، وتمكّنت جيريبالا من مواصلة طريقها.

وكان على ضفّة نهر يامونا أنْ عثرَت جيريبالا على اسم للطفلة. فبالرّغم من الحرب، ومن رائحة الموت وطعم الرّماد، وجدت جيريبالا في مياه النهر العظيم السّكينة والسّعادة. اختارت قبيلَ اللّيل موضعاً تظلّله أشجارٌ عالية، ودخلت الماء على مهلٍ، ضامّةً الطفلة إلى صدرها. فبدا لها أنّها تدخل عالماً

(1) بالإنجليزيّة في الأصل.

آخـر، وكانـت الفتـاةُ الصّغـيرة التـي تضحـك وتهتـاج عـلى صدرهـا تقـف عـلى عتبـة هـذا العـالم، عـالم النهّـر حيـث كلّ شيءٍ وادعٌ، وحيـث لم يعـد هنالـك حـربٌ ولا دمـاء ولا كراهيـة ولا خـوف، عـالم يضمّهـا بقـوّةٍ ويخبّئهـا مثـل حصـاةٍ صغـيرةٍ في كـفٍّ عملاقـةٍ. «الآن صـار لـك اسـمٌ، وعائلـة..».

هكـذا، نطقـت جيريبـالا الاسـم بصـوتٍ عـالٍ، كـما لـو أنّ النهّـر هـو مـن أمـلاه عليهـا: «أنانتـا»، الأبديّـة، الحيّـةُ التـي يتوسّـدها الإلـه[1] حتّـى نهايـة العـالم.

في ذلـك المسـاء، عـلى ضفّـة نهـر يامونـا، صادفَـت جيريبـالا الطّـوْف. كانـت تجـول باحثـةً عـن موضـع آخـر تمـضي فيـه اللّيـل، فـإذا بهـا تسـمع ضجيجـاً. تقدّمـت بـين سـيقان القصـب، فلمحَـت مجموعـةً صغـيرةً مـن النسـاء برفقـة رجـلٍ هَـرِمٍ، كانـوا يسـتعدّون، بعـد أنْ فرغـوا مـن طَعامهـم، للانطـلاق مـن جديـدٍ عـلى طَـوْفٍ مـن أغصـان الشّـجر. ولا بـدّ أنّهـا أحدثـت جلبـةً دلّتهـم عليهـا، ذلـك أنّ بعـض النسـاء جئـن

(1) المقصود هنا الإله فيشنو، حسب المعتقدات الهندوسيّة.

فجـأةً مـن الخلـف، وطرحْنهـا أرضـاً، ودون مراعـاةٍ للطفلـة، انهلْـنَ عليهـا ضربـاً بالأيـدي وركلاً بالأقـدام. اعتقـدَت جيريبـالا أنّ سـاعتَها الأخـيرة قـد حانـت، فبكـت وتوسّـلت، فيـما انتزعـت النسـوةُ الشرسـات الطفلـة مـن حضنهـا وفتّشـنَ أمتعتهـا لنهـب حليّهـا ومالهـا. لم تكـن الحقيبـة تحـوي شـيئاً ذا قيمـةٍ، فالتفتـت واحـدةٌ مـن بينهـنّ، نحيلـةٌ فارعـةٌ، وذات نّظـرة مجنونـة، إلى جيريبـالا قائلـةً: «أتيـتِ تتجسّـسين علينـا، وتشـين بنـا!» كانـت جيريبـالا تتـألّم منهكـةً حتّـى أنّهـا لم تقـوَ عـلى جرجـرةِ نفسـها بعيـداً عـن النهـر. لكـنّ امـرأة أخـرى تحمـل صبيّـاً هزيـلاً عـلى حِجرهـا تدخّلـت وأعانَتهـا عـلى الجلـوس، ثـمّ غسـلت جروحَهـا بميـاه النّهـر وأرجعَـت إليهـا أنانتـا المرتعبـة. «مـا اسـمها؟» نطقـت جيريبـالا اسـم أنانتـا واسـمها هـي. فقالـت المـرأة: «اسـمي لِيـل، والرّجـل المسـنّ، هنـاك، اسـمه سـينغ. أصيـب في الحـرب لكنّـه ليـس شرّيـراً. وتفحّصَـت الطفلـةَ بنظرتهـا المتّقـدة. «إنّهـا لا تشـبهك، لكنّهـا ابنتـك». ثـمّ سـاعدت جيريبـالا في الصّعـود إلى مؤخّـرة الطّـوف. هنـاكَ، عنـد الحافـة، كانـت معـزاةٌ صفـراءُ قـد أوثِقـت

إلى لـوح خشـبيّ. بـدأ الطّـوْف ينسـاب وئيـداً علـى صفحـة النهـر، تحـت رحمـة الدّوامـات، وبقيـادةِ سـينغ الهـرِم الـذي كان يضغـط عـلى مُـرديٍّ طويـل. سـكبَت لِيـل مـن قِربـةٍ جلديّـةٍ سـوداء بعـض حليـب الماعـز في طـاس، وناولتـه لجيريبـالا. كان الحليـب ثقيـلاً ولا يـزال فاتـراً. قالـت ليـل: «هـذه معـزاتي، وهـي كلّ مـا تبقّـى لي». ثـمّ اسـتلقَت عـلى لـوح الطّـوف مسـندةً رأسـها إلى صرّةٍ مـن الكتـان، وأخـذت تشـاهد جيريبـالا وهـي تسـقي ابنتهـا.

- إلى أين تذهبين الآن؟

أجابت جيريبالا:

- لا أعرف،

فقالت ليل:

- نحن ذاهبون إلى فاراناسي.

فردّت جيريبالا:

- سـأذهب إلى أبعـد مـا يمكـن أن يصـلَ إليـه هـذا النهـر.

ضحكَت ليل.

- أنـت ذاهبـةٌ إلى البحـر إذن. فهـذا أبعـد مـا يصـل إليـه النهـر.

تناولَـت ليـل القِربـةَ أيضـاً، وحاولـت أن

تَسقيَ ابنها. لكنّ الصبيّ أغلق فمه. وكانت عيناه تتّقدان من الحمّى. فانسكب الحليب من الطّاسِ وسالَ من زاويتيّ شفتَيه.

قالت ليل في شرود:

- منذ أسبوعين وهو على هذه الحال. وقد يموت».

ثمّ استلقت من جديدٍ على الطّوف مسندةً رأسها إلى الصّرة، وبدأت تغنّي بلغتها الغريبة كي تُنيم ابنها. كانت هذه أوّلَ مرّة تسمع فيها جيريبالا هذه الأغنية، وبدا لها أنّ كلّ كلمةٍ فيها قد سكنتها إلى الأبد، وكانت كأنّها تحمل معنى غامضاً:

«**شورم، كالا، شالو غول لاييه**، أيّها اللّصّ، أيّها اللّصّ، دعنا ندخل هذا البيت، أزِل **الشاكال**»، خذ كلّ شيء، **بهيمْتي، باغاليه**، أشعل الغازاي، وأنتَ **ليتيرا**، ارشق كرةَ الطّين، **لونيولا**، إنْ سمعتَ ضوضاء، **كاجاشاما**! جاسوسٌ يراقبك! **تيبجا**! اختبئ! **باوليه أوخا**! حذارِ! **كينكار كار**! ارشق كرة الطين! **لايي لوغ كايا، كالا لوغ غاييه**، انتهت السرقة ومات اللّصّ!»

انداحَ اللّيل فوق مياه النهر، وما عادَ

بالإمـكان رؤيـة الضفّـة الأخـرى. عـلى الطّـرف الآخـر مــن الطّــوفِ، بجــوار الرّجــل، كانــت المـرأةُ الشرسـة التـي ضربـت جيريبـالا بقبضتهـا تضغـط عـلى مُرديّهـا وتسـير وئيـدةً عـلى حافـة الطــوف لإبقائــه في التيّـار، وفي كلّ مـرّة تنتــزع فيهــا المــرديّ مــن وحــل الشــاطئ، يصــدرُ صـوتٌ أشـبه بالشّـفط. كانـت أزهـارٌ كبـيرةٌ مـن الزّبـد تـدور في الدوّامـات، وأغصــانُ الأشـجار المنجرفــةُ مــع التّيــار تغــوص وتطفــو مثــل أعنـاق الثّعابـين. نامـت جيريبـالا وهــي تتأمّـل الخفافيـش التـي ترنّـح عـلى طـول المياه ثمِلـةً بـما التهمَتْــه مــن حــشرات.

21 يونيو؟

البحث متواصلٌ عن فصيلة البقوليّة. جفاف التّربة يجعل من المستحيل وجود الأتيلوسيا (البازلّاء الهنديّة)، والعرقيص (ديسموديوم). يُرجَّح وجود كليتوريا (البظريّة المُعترِشة)، وكانافاليا (البازلّاء السيّف). التقدّم صعب جدّاً بسبب الأرض المليئة بالحمم البركانيّة. التربة والتعرّض لأشعّة الشّمس مواتيان لنموّ النّيلة. على كتف البركان: النّيلة الفضيّة. واثقٌ من العثور على النّيلةِ الزرقاء.

22 يونيو

نقلوا جون ميتكالف هذا الصّباح. ولمّا دخلتُ الكرنتينة عند الظّهر، كان يسودها صمتٌ مُطبق وجوّ غريبٌ. كانت زرقة البحيرة ساحرة، والشمس تسطع وسْط سماءٍ صافية، وهواء البحر رقيقاً كنسمةٍ هفهافة. كنت لا أزال على الطّرف الآخر أحلُم، وأسمع صوت سوريا، وأحسّ بالرّماد على وجهي ويدَيّ، غبارٍ فائق النّعومة والخفّة. فلم أفهم ما حدث.

كانت سوزان وحدها في بيت الكرنتينة، تتكئ على الصّرر التي تتّخذها وسائدَ، وكانت في غايةِ الشحوب. رأيت كتابها الأزرق الذي يضمّ قصائدَ لونغفيلو إلى جانبها مفتوحاً ومقلوباً. ولمّا دنوتُ ارتسمَت على شفتيها بمشقّةٍ ابتسامةٌ أقربُ إلى تكشيرة. مدّت لي يدها فأحسستُ برودتها. كانت عيناها تتوهّجان ببريق الشّباب، فظننتُ أنّها شُفيت، وخطر لي أيضاً، لا أدري لماذا، وجهُ أنانتا ونظرتُها حين أحضرت ليَ الطعام.

همسَت سوزان قائلةً: «جون. لقد أخذوه هذا الصباح». ثمّ لمستْ وجهي: «ماذا على وجهك؟» مرّرت أصابعها رويداً على الخطوط، ثمّ مسحَتها بطرف ثوبها. «إنّه رماد». بدا أنّها عرفت مصدره، فارتعدت مشمئزّة: «رماد، كيف لكَ أنْ تُقدِمَ على فعلٍ مرعب كهذا! وجاك الذي كان يبحث عنك في كلّ مكان». اتّقدت عيناها غضباً، لكنّها بدت أجمل، وقد تدفّق الدّم إلى وجنتَيها، وبانت تجعيدة عموديّةٌ بين حاجبيها. «أخذوه هذا الصباح، لقد كان...» اغرورقَت عيناها بالدّموع وأخذت تحرّك يدَيها بعصبيّة. «تشبثَت سارة به كي تمنعهم، وكان جاك ينتظر في الخارج، جرّوه، كانت ترفض ذلك...»

حاولتُ أنْ أفهم:

- أخذوه إلى هناك؟

أجابت سوزان في شرود:

- لا أعرف، لم أستطع... طلب منّي جاك أن أنتظره، سيعود على الفور. لا أعرف، أعتقد... لم ترغب سارة في تركه يذهب، كانت تتشبّث به، كان وجهه... وأنفُه ينزف، كانت تناديه، Dear John, dear, dear[1]. لقد أصابها الجنون. أعتقد أنّها رافقته إلى هناك.

كانت الدّموع تسيل على وجنتَيها، وخصلاتُ شعرها المجعّد تلتصق بجبينها وحول عنقها. ضممْتُها إليّ كي أواسيَها:

- كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام، سترين. كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام الآن.

---

(1) بالإنجليزيّة في الأصل.

لكنّها ظلّت تردّد بصوتٍ مكتومٍ رتيب:

- سيموت هناك، لقد نسيَنا الجميع.

كانت متعبةً فاتّكأت على الأمتعة، وأغمضَت عينَيها. وشعرتُ بيدها الباردة تنفلتُ من يدي، مثلَ شيءٍ شديد الثّقل.

ركضتُ إلى الرصيف. كان الزّورق قدْ جُرّ إلى الشاطئ، وماري جالساً بعدُ في ظل المستوصف، بصره مشوّشٌ من إصابته بالسّاد، يمضغ ورق التنبول شاردَ الذهن. وفي الغرفة الضيّقة حيث قضى نيكولا والسيد تورنوا أيامهما الأخيرة، رأيت جون راقداً على حصيرةٍ من القشّ، وإلى جانبه طيف زوجته الهزيل، تجلس على الطريقة الهنديّة ثانيةً ركبتَيها. كان صوت أنفاس جون فظيعاً مفجعاً وهو يستلقي هناك مُرجعاً رأسه إلى الوراء مثل ميّت، ووجهه متورّمٌ خالٍ من أيّ تعبيرٍ وممتلئٌ بالتسلّخات. وقد لمحتُ من بين جفونه المتورمّة نظرة نيكولا نفسها: عينان محدّقتان تلتمعان ببريقٍ ذكيّ.

في تلك اللّحظة جاء السيد بارتولي. وشدّني إلى الوراء بعنفٍ قائلاً:

- أخوك طلب ألّا يأتيَ أحدٌ إلى هنا. فلسوء الحظّ لم يعد باليد حيلة.

وحدّقَ فيّ بقسوة:

- ثمّ، أين كنت؟

سألتُ وقد ارتعش صوتي بغضبٍ مكتوم:

- أين جاك؟

- في المنارة. يحاول جوليوس فيران أن يُبرق إلى موريشيوس ليخبرهم أنّنا بحاجةٍ إلى المساعدة. وقد عثرَ على مرآةٍ أقوى

لجهـاز الهيليوتـروب، لكـنْ لا جـدوى. أؤيّـد نقـل ميتكالـف إلى جزيـرة غابريـال لتجنّـب خطـر العـدوى، فهـو مصـابٌ بالجـدري المتكـدّس وفقـاً لتشـخيص أخيـك.

تجنّـبُ العـدوى أم تجنّـب انتشـار الخـبر الـذي مـن شـأنه أنْ يدفـع الإنجليـز إلى إطالـة مـدّة الكرنتينـة؟ غـادرتُ مضطربـاً. في الخـارج، كانـت الشـمس تبهـر البـصر، وزرقـةُ البحـيرة جارحـةً.

لم أعـرف مـا الـذي علـيّ فعلـه. توجّهـتُ نحـو طـرف الجزيـرة لأسـمع صخـب الطيـور. هنـاك أسـتطيع أن أسـمع في أذني صـوت سـورياڤاتي وهـي تغنـي أغنيـة اللّصّ: «لايـي لوغ غايـا»، وأنْ أتنشّـقَ، في الأجمـات وفي الأرض السـوداء التـي تلهبها الشـمس، عطرَ جسـدها وشَـعرِها الـلّاذعَ، وأحسَّ، على الحجـارة، براحتَيهـا المسـتنزفتَين مثـل راحتَي عجوز. إنّـه حلمٌ رأيتـه ليلةَ أمسِ ولم ينتـهِ بطلـوع النهـار، بـل اسـتمرّ في النـور وفي احـتراق الرّمل تحت قدمَيّ، حقيقيّـاً أكثـر مـن كلّ شيءٍ هنـا، أكثرَ من الخـوف والموت.

اضطجعـتُ قـرب حاجـز الشّـعاب المرجانيـة منكمشـاً عـلى ذاتي، وقـد حرّقـت الشّـمس جفنَـيّ كحرقـةِ التّعـب. وأخـذتُ أتأمّـل نبتـة الدّيـداء التـي تكسـو الأرضَ كالفـراء، وترفـرف أزهارُهـا الورديّـة مـع الرّيـح، حتّـى نسـيتُ مـا بي.

أيقظَنـي الصّخـب الـذي رافـق ترحيـل ميتكالـف. كانـت الشـمس قـد جنحَـت للمغيـب فأضفـت عـلى المشـهد صفـاءً خياليّـاً. وقـفَ جـاك عـلى الجـزء الأمامـيّ مـن الـزّورق، ومعـه زجاجـة محلـول التّعقيـم «الكونديـز». وكان جوليـوس فـيران وبارتـولي يحمـلان جـون عـلى نقّالـةٍ مرتجلـةٍ مـن

عصويْـن ومـلاءةٍ قديمـة، محتاطَـين كلّ الحيطـةِ مـن لمـس المريـض، حتّـى إنّ كلًّا منهـما قـد ربـط حـول وجهـه منديـلاً منقوعـاً بالخـلّ. كان جـون ميتكالـف ثقيـلاً في النقالـة، ملابسُـه مبقّعـةٌ، ولحيتـه وشـعره مغـبرّان. دخلَـت سـارة ميتكالـف الماء حتّـى خصرهـا، فانتفـخ ثوبهـا الأزرق الطويل بالمـاء مثـل تنّـورة الكرينولـين. وكانـت تحمـل بـين ذراعيهـا الحقيبـة الصغيرة حيـث يحتفـظ جـون بعيّناتـه وجميـع مـوادّه النباتيـة، فبـدَت وكأنّهـا ذاهبـةٌ في نزهـة. ولم تكـد النقّالـة توضـع في قـاع الـزّورق حتّـى دخـل بارتـولي وفـيران بدورهمـا الميـاه، ثـمّ أمسـكا بسـارة، ورفعاهـا إلى مؤخّـرة الـزورق. جلسَـت إلى جانـب العبّـار موليـةً ظهرهـا إلى الشـاطئ، بهيئـةٍ بليـدةٍ تتناقـض مـع حالـةِ اليـأس التـي صوّرتهـا لي سـوزان. كان حِمْـل الـزّورق ثقيـلاً بحيـث تعـذّر اصطحـاب فـيران وبارتـولي، فبقيـا عـلى الرصيـف، فيـما المسـنّ مـاري يحـاول عبثـاً الضّغـط عـلى مجذافـه كـي يَخـرج مِـن الشّـطّ الرمـليّ. كان المشـهد سـيبدو هزليّـاً في ظـروفٍ غـير هـذه. وجـبَ عـلى فـيران وبارتـولي أنْ يعـودا إلى المـاءِ كـي يدفعـا الـزّورق في البحـر. ولم أتمكّـن مـن رؤيـة وجـه سـارة ميتكالـف، إذ إنّهـا لم تنظـر إلى الـوراء ولـو مـرّة واحـدة. رأيـت فقـط فسـتانها المبتـلّ ولمعـةَ شـعرها المُسرّح في عقصـةٍ آخـذةٍ في الانحـلال، ولمحـتُ في أذنَيهـا وحـول عنقهـا بريـق حليّهـا التـي لا نفـعَ لهـا ولا قيمـة في هـذه الرّحلـة الأخـيرة. كنـت أقـف عـلى الشـاطئ ودمـي ينبـض بقـوّةٍ في صـدري مـن شـدّة الحمّـى. كان الهـواء لا يـزال حـارّاً سـاكناً، وكنـت أتنفّـس بمشـقّة. فلربّـما أصبـتُ بالمـرض أنـا أيضـاً.

ولـمّا نجـح القـارب أخـيراً في الابتعـاد عن الشـاطئ، اسـتدار جـاك ونظر إليّ. أومـأ ثـمّ جلس. مـا الـذي أراد قولـه؟ لعلّـه فقـط يومـئ لي بالانـصراف

على طريقةِ سورياڤاتي حين تصدّ الأطفال الشّديدي الفضول: «أوتا! جاي!» انساب الزّورق بتؤدةٍ على صفحة البحيرة في طريقه إلى جزيرة غابريال، وبدا لي أنّنا لن نبرح هذا المكان أبداً.

لم أُطق المكوث حتّى رؤية الدخان الأسود يتصاعد في السماء معلناً أنّ أحدهم قد قضى في جزيرة غابريال. ولم أرغب حتّى في مراقبة خطّ موريشيوس المُزرَقّ من أعلى البركان، تحت الغيوم الصّاعدةِ نحو الأفق. وحتّى لو جاء القارب الإنجليزيّ الكبير الآن فلن أنتظره. فلست أبالي بعد الآن. خيرٌ لي أنْ أموت في ركنٍ من الجزيرة، تحت فوهّة البركان الجافّة، وحلقةُ طيور رئيس البحر المدوّخة تدور من حولي. خيرٌ لي أنْ أستسلِمَ لتيّار القناة، يجرفني فأختفي في عُرض البحر.

لا يمكنني العودةُ إلى الطّرف الآخر، إلى باليساد. يبدو لي أنّني ألبس الموت مثل رداء. لقد تلاشت آثارُ الرماد التي خطّتها سورياڤاتي على وجهي، وعدتُ مجرّد ناجٍ من غرقٍ يترنّح في أسماله. بطني متورّمٌ من شرب الماء الكريه الملوّث بيرقات البعوض، ماءِ الصهاريج الأسود ذاك الذي يسبّب لي الزّحار ويصيبني بغثيان شديد. وكلّ ما أستطيعه هو أن أنظر أماماً، حيث الصخور السوداء ومياه البحيرة، وعلى مبعدةٍ منها، مستعمراتُ الحريش والنمل.

جاء جاك باحثاً عنّي. فوجدني على منحدر البركان فوق المقبرة. بدا متعباً. جلس على الصخرة بجواري من غير أنْ ينظر إليّ. كانت ملابسه في حالةٍ يرثى لها، وقدماه عاريتَين في حذائه. وكان وجهه هزيلاً لوّحته الشمس، وقصبةُ أنفه مقشّرةً، ولحيتُه- المشذّبةُ بعنايةٍ في العادة-

شـعثاءَ يخطّهـا الشـيب. إنّـه أخـي، لكنّـه بـدا أغـربَ مـا يكـونُ عنّـي. هـل هـو مـن تغـيّرّ أم أنـا، أم تُرانـا جئنـا إلى هنـا لنفقـد كلّ تلـك الحمولـة الزّائـدة التـي تربـط بيننـا؟ التفـتَ إليّ أخـيراً، ورأيـت نظرتَـه المتشـظيّة عـبرَ العدسـة المكسـورة.

كنت أنا من بادره بالحديث:

- ألن يأتوا؟

هزّ جاك كتفيه:

- ما الفائدة؟ لا يمكننا فعل أيّ شيءٍ بعد الآن.

رسـم دوائـر في الرّمل الأسـود بطـرف حذائه. هـو أيضاً يفكّـر في المرضى، في النسـاء الهنديّـات الـلّاتي التحقـن بميتكالـف عـلى الطـرف الآخـر مـن البحـيرة. قـال جـاك: «أنـا لسـت طبيباً، بـل كنّـاسٌ، وحفّـار قبـور. أرشّ كلّ شيءٍ بالمطهّـر، وأضرم النّـار في الثّيـاب».

- وماذا عنهم؟

- ربّـما سـيكونون بخـير. المسـنّ مـاري يعـدّ لهـم الكِـمادات. هنـاك نبتـةٌ في جزيـرة غابريـال، تُسـمّى بيفيلاكـوا، يقـول إنّهـا جيّـدة لتسـكين الجـروح.

ثمّ قال بشيءٍ من السّخرية:

- بيفيلاكـوا! أيْ بوالـو، اسـم القبطـان الـذي قادنـا إلى زنجبـار مـن أجـل موعـده الغراميّ، وجلـب لنا وباء الجـدري. لا بـدّ أنّ هنالكَ قانونـاً خفيّـاً يحكم الأشـياء...[1].

---

(1) الاسم الذي يطلق على هذه النّبتة في موريشيوس (بيفيلاكوا) هو أيضاً اسم عائلة بالإيطاليّة، ويقابله بالفرنسيّة اسم عائلة بوالو Boileau. ويُقصد بها نبتة «كينتيلّا أسياتيكا» المعروفة باسم سرّة الأرض الهنديّة، وهي نباتٌ عشبيّ معمّر من فصيلة الخيميّة.

لم أفهم تماماً ما قال. كلّ شيء يتداعى ويتفكّك؛ المدينة وعزبة آنّا، والفردوس الأرضيّ، كلّ هذا لم يعد موجوداً. كان جاك متوتّراً. فقد نفد التّبغ منذ يومَين، فطلب إلى ماري التحدّث مع المهرّبين، لكنّهم لا يوفّرون سوى التنبول أو الغانجا[1]. كان يتحدّث بنبرةٍ حادّةٍ قليلاً.

- لقد فهمتُ منبع هذا كلّه. الآن باتَ واضحاً أنّ الأمر ليس من قبيل الصدفة. إنّهم كبار العائلات، أوغادُ الحكومةِ الجماعيّة. لقد أعدّوا لكلّ شيء، واتّخذوا القرارات. لم يبدأ الموسم بعد، وهم لا يحتاجون إلى أيّ عمّال. أرسل فيران رسائل، طلب فيها نقلنا إلى **غران باي**، هناك منشآتٌ تصلح لقضاء فترة الكرنتينة، ومشفىً وأدوية. لكنّ أحداً لم يستجِب. هم من اعترضوا الرسائل. وألكسندر، كبير العائلة، لا يريدنا أن نذهب ونسوّيَ حسابنا معه. فلا وجود لنا في نظره.

كنت بعدُ طفلاً صغيراً، أتردّد في الإجازات إلى بيت والدنا في مونبارناس. لم أكن أعرف شيئاً عن موريشيوس، ولا عن العالم، لكنّني كنت أعرف كبار العائلات وأسماءهم: ليتاني، لامي، فرانشيفيل، مونتكالم، كيرفوال، كيروبستين، كيرفيرن، بييركوست، دي سان بوتروب، ليغريكس دو نوايال... كانوا يسكنون فيّ، يسيطرون على أراضٍ وهميّة، بألقابٍ مألوفةٍ وغريبةٍ يردّدها جاك على سمعي، وكنت أعجز عن نقلها للآخرين: المدينة، مون ديزير، ريتشي أون أوه، بيلومبر، بوسونغز، كامب دو ماسك، مابو، موريل، تماران، اليمن، أليون، سافانا، راما أوبلو، وترو دو دوس... تلك هي الأسماء التي

(1) Ganjah: حشيش بالهنديّة.

عادت إلى ذاكرتي وأنا أهبط عبرَ الشجيرات الدّربَ المفضي إلى المقبرة، برفقة جاك.

أحسستُ أنّ قلبيَ ينبض بقوّة، وقد اغرورقت عيناي بالدّمع، فالتبس الأمر على جاك. إذ وضع ذراعه حول كتفي، كما كان يفعل حين يأتي لاصطحابي من النّزل، وقال:

- انسَ كلّ ما قلته لك حالاً، كنت مُحبطاً. الحال أفضل بكثير الآن. هي بضعة أيام أخرى وسنكون هناك، سترى، سيكون الحال على خيرِ ما تصوّرتَ.

ليس حزناً أو قنوطاً ما شعرتُ به، إنّما هو الغضب والغيظ، أردتُ أن أنتقم بلا هوادةٍ من أولئك الذين أرسلونا إلى المنفى. أردتُ أن أعود دون أن يعرفوا ذلك، باسمٍ آخر، ووجهٍ آخر، لأحطّم كبرياءَهم، وأهدِم بيوتهم، وأقوّضَ مجدَهم، على نحوِ ما فعل إدموند دانتيس[1].

قلتُ:

- وماذا عنهم؟ هل سيَرَون ذلك كلّه؟

ولم أدرِ ماذا أقول بعدُ. ثمّ أشرتُ إلى منحدر البركانِ، وغابة الكزورينة التي تفصلنا عن باليساد، ومياهِ البحيرة الشبيهة بمرآةٍ من الفيروز، معيداً القول بصوتي الغريب الأجشّ: «وماذا عنهم؟» ماذا سيفعلون؟»

لم يجب جاك. أعلم أنّه يفكّر مثلي، ويشعر بما أشعر به من خزيٍ وغضب. لكنّه قلِقٌ بالأخصّ على زوجته، فمن أجلها يستطيع أن ينسى العالم. قال لي، كأنّما قرأ أفكاري:

- إنّني شديد القلق على سوزان. فهي ليست على ما يرام.

---

(1) Edmond Dantès: بطل رواية «كونت مونت كريستو» لألكساندر دوما.

جلسنا على القبور، والبحرُ أمامنا يضرب في الصخور السوداء منقضّاً على البركان. كان الأفق صافياً، فبدا ساحل موريشيوس قريباً جدّاً، وكذلك صخرة كوان دو مير الغارقة، وأعرافُ الموج على رصيف الشّعاب المرجانيّة في رأس مالورو. وكان البحر ممعناً في الزّرقةِ خالياً من القوارب. كلّا، فلن يأتوا اليوم لاصطحابنا!

قال جاك: «سيكون لدينا نقصٌ في الكينين». تحدّث بنبرةٍ حياديّة كأنّه يصرّح بمعطياتِ مشكلة. «تفشّى وباء الحمّى النّزفية، وهنالك وفياتٌ بالعشرات في باليساد. وعلى ما يبدو فإنّنا ماضون نحو وباءٍ مثل الذي انتشرَ بين عامي 1865–1868، وخلّف خمسين ألف قتيل. لهذا لا يريد كبار العائلات إطلاق سراحنا. خاصّة الآن مع هذه الحالات الجديدة من الجدري التي تصيب حتّى من تلقّوا اللّقاح. إنّهم يعرفون جيّداً ما يجري، ولديهم معلومات».

لم يذكر جاك اسمَه، لكنّه فيران الفاسد. إذ يَشتَبِه في أنّه هو من يوصل الأخبار إلى موريشيوس مستخدماً جهازَه الهيليوتروب. أعتقد أنّنا قد بلغنا جميعاً حدّاً من الجنون.

كان جاك يحدّث نفسه، بدا حائراً، كأنّما يحاول إقناع نفسه بما قال. ثمّ مضينا معاً نحو مباني الكرنتينة.

مرّ وقتٌ طويلٌ لم نتجاذب فيه أطراف الحديث، أصبحنا تدريجيّاً غريبَين أحدنا عن الآخر، كما لو أنّ صخرة جزيرة غابريال المحترقةَ قد عرّتنا.

الآن لم أعد أنتمي إلى هذا العالم، أنا من عالم سوريا، من الطّرف الآخر حيث خليج باليساد. رأيت هذا في نظرة سوزان المستجوِبة لمّا دخلتُ الكوخ بعد ليلة المحرقة مُلطّخَ الوجه بالرّماد مغبرَّ الثياب، تلك النظرةِ المحمّلة باللّوم، كما لو كنت قد غدرتُ بها...

لكـنّ ذلـك دَمـي، دمُ أمّـي المختَلِـط. هـذا الـدّم الـذي كان يكرهـه العـمّ ألكسـندر ويخافـه، وبسـببه كان أنْ طَرَدنـا مـن عزبـة آنّـا، ورمانـا في البحـر.

احتجْـتُ فجـأةً أن أعـرف. فذلـك الهاجـس ينهشـني ويؤلمنـي مثـل لكمـةٍ في الخـاصرة. توقّفـتُ في منتصـف الـدّرب قاطعـاً الطريـق عـلى جـاك. ولا بـدّ أنّنـي بـدوْتُ ضائعـاً، لأنّ جـاك سـألني:

- ما خطبُك؟ ماذا تريد؟

أظنّه شعر بالخوف.

- أريد أن أعرف منك. فلا بدّ أنّك تعلم.

- أنْ تعرفَ ماذا؟

- مـن أيـن هـي، أيـن وُلَـدتْ، وإلى أيّ عـرقٍ تنتمـي، وأيّ لـون، ألا تتذكّـر بـما يكفـي؟

مـا كنـت بحاجـة لأنْ أزيـد عـلى مـا قلـت. فحـين توفيّـت أمّـي، لم أكـنْ قـد أتممْـت عامـيَ الأوّل. أمّـا هـو فـكان يناهـز التاسـعة مـن عمـره.

- إنّك تتصرّف كالأطفال!

هـزّ رأسـه، وعـبرّ أمامـي مسـتأنفاً سـيره عـلى طـول الشـاطئ. والحقيقـةُ أنّنـي صرت أعـرف الآن أنّـه يخـاف مـن ذكرياتـه. لم يرغـب قـطّ في الحديـث عـن الأمـر. لكـنْ هـذه المـرّة قـرّرتُ ألّا أسـمح لـه بالهـرب. فقـد حدثـت أمـورٌ كثـيرةٌ، أكثـرُ مـن أنْ نمـرّ عنهـا مـرور الكـرام.

لم أعـد طفـلاً. عليـك أن تجيبنـي. أمسـكتُه مـن طيّـة سـترته. هـو أيضـاً بـدا مثـل متشـرّد.

- انظـر، كانـت والدتنـا أوراسـيّة، وهـذا مـا كان يقولـه الجميـع. وُلِـدتْ في الهنـد، وتبنّاهـا رجـلٌ إنجليـزيّ يدعـى وليـام، وحـين

توفّي اعتنى بها شقيقُه، الرّائد. أقسم أنّني لا أعرف أكثر من هذا، حتّى الرّائد لم يُرِد أنْ يقول المزيد.

- لكنْ ماذا عن اسمها؟ واسم عائلتها، ألم تعرف اسمها الحقيقيّ؟

- لم يُرد الرّائد الحديث عن هذا الأمر. قال إنّها كانت قد نسيَت كلّ شيء. مات والداها خلال التمرّد العظيم، ومنحتها عائلة وليام اسمها. ثمّ أرسلها الرّائد إلى أوروبّا، وكان عليها أن تدرس لتصبح مربيّة، وعلى القارب التقَت بأبي. هذا كلّ ما أعرف.

ثمّ قال وقد ضاق ذرعاً بهذا الحديث:

- هيّا فلنمضِ، سوزان بحاجة إلينا.

ربّما يعرف شيئاً ولا يريد قوله. أو ربّما نسي. لا بدّ من الإمساك بخيطٍ يوصلنا إلى ما هو خفيّ. حتّ جاك الخطى، وكان مُقطّباً جادّاً. حينَ مرِضَ والدُنا فيما مضى، صار هو والدي. كنت أرتجف أمامَه. وكان يسألُني عن درجاتي في الفصل، ويُخضعني لاختبارات. إنّه بالغُ الهشاشةِ، ويشبه أبي، ليس كما عرفتُه مؤخّراً، شيخاً عليلاً يغفو في أريكته ذات الوسادتَين، بل كما كان في الصّور، في بدايات زواجه، متأنّقاً، ذا قسمات حادّة، وشعرٍ أسود غزير ولحيةٍ رومانطيقيّة.

كان هنالك أيضاً صورةٌ لأمّي موضوعةٌ على مكتب العمّ وليام، وهي صورة استوديو، التُقطت في باريس، وتحمل توقيع المصوّر. شابّةٌ ترتدي فستاناً أسود مخمليّاً مزرّراً حتّى العنق، وشعرُها الأسود البديع ملمومٌ في عقصة، شديدُ الغزارةِ حتّى أنّه يتدلّى على جانبَي وجهها. حاول المصوّر أن يخفّف غرابةَ ملامحها، لكنّه أخفقَ في محو تعبيرِ عينَيها المحْميّ تحت قوسَي حاجبَيها الكثيفَين؛ وَهجِ الحياة ذاك الذي كان يلتمِع في حدقتَيها.

كنت سأمنح كلّ شيء مقابل أنْ أمتلك تلك الصّورة. لكنْ لمّا عاد الرّائد إلى إنجلترا بعد وفاة أبي، أخذها معه، ولم أرها مرّة أخرى. شعرتُ بحاجةٍ لأنْ أتحدّث عنها، فلحقتُ بجاك، وسرت بجانبه.

- هل تتذكّر ما قلتَه لي؟ إنّه أمرٌ غريب ألا يكون هنالك صورةٌ تجمعهما معاً.

- صحيح، كان الصديق كورديه هو من يُفترَضُ أنْ يلتقط لهما صورةَ زفافهما، قال أبي إنّه أفضل اختيار، فقد كان عنده آلة تصوير ألمانيّة. لكنّه حينَ أخرجَ لوحَ الفوتغراف، وجد الصورة مغبّشة.

حينَ كان أبي يسرد هذه الحكايةَ فيما مضى، كان جاك ينفجر ضاحكاً، لكنْ هنا بينَ القبور، على هذا الدّرب المفضي إلى الكرنتينة، بدَت بالأحرى حكايةً كئيبة.

واصل جاك الحديث أثناء سيره. كان صوته مخنوقاً، والريح تُقطّع كلامه. تحدّث عنها كما لم يفعل من قبل. كان يكره المشاعر، ولا يريد أن يكون مثيراً للشّفقة. كان يقول عنها «أماليا»:

- لم تكن أماليا فارعةَ الطول. وقد خفّت غزارة شعرها في أعوامها الأخيرة، قالت إنّها فقدَتْه على إثر إصابتها بالتيفوئيد بعد ولادتي، وبعد قرار أبي الانتقال إلى بيت عزبة آنّا. لكنّه ظلّ محتفظاً بسواده ولمعانه. كان لها شامةٌ على خدّها بالقرب من فمها، يسمّيها أبي «ذبابة». وكانت تحبّ المزاح مع الخدم، وقد تعلّمت التحدّث بالكريوليّة بسرعةٍ كبيرة. لم يَسعَد أبي بذلك، قال إنّه أمرٌ لا يصحّ، لكنّها لم تستطع مقاومته. ولهذا

فـإنّ الجميـع في عزبـة آنّـا أحبّهـا حبّـاً جمّـاً. وحـين اضطُررنـا إلى الرّحيـل، خـلال أعيـادِ الميـلاد، جـاءوا جميعـاً إلى الميـنـاء وكانـوا يبكـون. أتذكّـرُ ذلـك، عانقَتهـا يايـا العجـوز طويـلاً حتّـى لم يعـد بالإمـكان فصلُهـا الواحـدةَ عـن الأخـرى. أمّـا أنـتَ، فكنـتَ في مهـدِك بعـد، لا تـدري شـيئاً.

ثـمّ انكسـر صوتُـه، ولم يُضـف شـيئاً. وسـار بخطـىً واسـعةٍ، هابطـاً الـدّرب نحـو بيـوت الكرنتينـة السّـوداء.

شـاهدتُه يمـضي مسرعـاً، وقـد انفطـر قلبـي، إذ لم يبـق شيءٌ مـن الرّجـل القـويّ الطويـل القامـة الـذي كان يثـير إعجـابي وأنـا في الثانيـة عـشرة مـن عمـري، الرّجـلِ الـذي قـرّر أنْ يحـلَّ مـكان أبي.

كان أيّامهـا قـادراً عـلى التحـدّث عـن المدينـة وعزبـة آنّـا بصـوتٍ ملـؤه الغضـب. كان يقـول إنّـه سـيعود ليسـوّيَ حسـابه مـع العـمّ أرشـمبو، وإنّـه سـيجعله يُعيـد مـا اسـتولى عليـه. أو إنّـه سـيُلحِق بـه إهانـةً كبـيرة، إذ سيشـتري منـه بيـت عزبـة آنّـا راميـاً بقطـع النقـودِ الذهبيّـة في وجهـه، ثـمّ يعـود أدراجـه. كنـت أحبّـه عندمـا يقـول ذلـك، وكان البريـق في عينَيـه والمبالغـةُ في كلماتـه يعيناننـي خـلال الشـهور الطويلـةِ التـي لا أبـرح فيهـا نـزل روي ماليـزون. ثـمّ غـادر إلى لنـدن ليـدرس الطـبّ، ومـا عـاد يحدّثنـي عـن ذلـك كلّـه، كأنّـما قـد نسـيه.

أمّـا أنـا، فـما زلـتُ أحمـل الشّـعلة، ولا أريدهـا أن تنطفـئ. فجـدران الكرنتينـة السـوداء الشـبيهة بسـجنٍ يحـاصره المـوت، ووهـج الشّـمس والبحـر، وكلُّ شيءٍ هنـا يوقـظ فيّ شرارة الانتقـام. ولي بـين الضلـوع قلـبٌ قُـدَّ مـن صخـرِ الجزيـرةِ البازلتـيّ.

أبحَرَ الطّوفُ أسابيعَ وشهوراً على طول الشطآن. كان الوقت طويلاً جدّاً، شديدَ الرّتابة، حتّى أنّ جيريبالا لم تعد تتذكّر بدقّةٍ كيف بدأت رحلتَها. تذكرت اليوم الذي ضربتها فيه الدوميّات، ونهبْن حقيبتها، لكنّ ما تبِع هذه الحادثةَ ظلّ غامضاً حُلميّاً مثل ضوء الشّفق.

في الظهيرة، حيث الشّمس تتوهّج في كبد السماء، كان الدوميّون يدفعون طوفَيهما نحو الشاطئ في ظلّ الأشجار، ويمكثون هناك حتّى المساء. كان بعضهم يستلقي على ألواح الطوفَين في ظلّ قِطَعٍ عتيقةٍ من قماشٍ رُميَت على الأغصان. وكانت جيريبالا ولِيل تنزلان إلى اليابسة، وتبحثان عن مكانٍ تحت الأشجار تمكثان فيه حتّى المساء. تتشكّل ضفاف نهر يامونا من تلعاتٍ طينيّةٍ عاليةٍ تغوص فيها الأجسادُ حتّى الرّكَب، لكنّ التربةَ تحت الأشجار ناعمةٌ جدّاً، والأوراق المتساقطةُ تنفرشُ فوقها بساطاً مريحاً.

كانت جيريبالا ولِيل تتركان طفليهما أحياناً في رعاية امرأةٍ عجوز، كي تجوبا القرى

وتسرقـا بعـض الثـمار وسـطَ دخـان الحرائـق المنتـشر بعـدُ في الأفـق، إذ كان متمـرّدو السـيبوي ينسـحبون شـمالاً حارقـين في طريقهـم الحقـول والبيـوت. كان هنالـك أفـواجٌ مـن الفارّيـن عـلى الطّـرق، وأنـاسٌ يختبئـون في الحقـول. وكانـت جيريـالا ولِيـل إذ تدنـوان مـن القـرى، تطاردهـما النّسـاء بحفنـاتٍ مـن الـتّراب والحـصى، ويلوّحـن لهـما بعصيّهـنّ شـاتماتٍ. لكنّهـما، عـبر المراوغـة، تنجحـان في الاسـتيلاء عـلى دجاجـةٍ هرِمـةٍ أو سرقـة بعـض الخـضروات، فتطهوانهـا عـلى الضّفـة، قبـل العـودة إلى الطّـوف.

ذاتَ يـوم، وفيـما كانـت جيريـالا عائـدةً مـن جوْلـة النّهـب، التقَـت بفتـاةٍ صغـيرة في عمـرِ السادسـة عـشرة أو السـابعة عـشرة، ترتـدي الأسـمال، ووجهُهـا مسـودٌّ بالدخـان، وشـعرها مُلطّـخٌ بالوحـل. وكانـت تحمـل طفـلاً عـلى حِجرهـا، ولـداً عاريـاً حليـقَ الـرأسِ ذا جسـدٍ شـديد الهـزال ممتلـئ بالبثـور. جفلـت الفتـاةُ للوهلـة الأولى، لكنّهـا أدركـت أنّ جيريـالا كانـت وحيـدة، فزايـل الخـوفُ ملامحهـا وتقدّمـت عـلى مهـلٍ شـديدٍ مـتردّدةً، دون أن تنبـس ببنـت شـفة، ويدُهـا اليـسرى ممـدودةٌ إلى

الأمـام. تسـمّرت جيريبـالا في مكانهـا لا تبـدي حـراكاً، محدّقـةً في هـذه الشـابة الصغـيرة والطفـل الـذي تحملـه كمـن يقـف أمـام صورتـه.

فجـأةً، أقبلـت لِيـل مـن رَحْبـةٍ بين الأشـجار. وبلمحـةٍ واحـدةٍ رأت كلّ شيء، الفتـاةَ المترنحّـة باسـطةً يدهـا، وطفلَهـا الميـت، وجيريبـالا متسـمّرةً مذعـورة. فالتقطَـت حجـراً، ورفعـت يدهـا كـما لـو كانـت تصـدّ كلبـاً، وسـارت إلى جيريبـالا وشـدّتها بعنـفٍ إلى الخلـف. ثـمّ هـدّدَت الشـابّة المتسـوّلة بنـبرةٍ قاسـيةٍ ولكـن دون أن تـصرخ: «انـصرفي مـن هنـا! إيـاك أنْ تقـتربي!» جـرّت جيريبـالا إلى النهـر، وبعـد أنْ ركـب الجميـع الطوفَـين، دفعَـت بـكلّ قوّتهـا وحـلَ الضّفـة مسـتعينةً بمُرديّهـا، إلى أنْ حملهـا التيّـار بعيـداً. شرحَـت ليـل لهـا الأمـر لاحقـاً: «هـذه المـرأة مـع طفلهـا، عرفـتُ جيّـداً مـن تكـون، إنّهـا شـيتالا، الإلهـةُ البـاردة، وهـي تحمـل المـرض، ولـو لمسَـتكِ، لكانـت تلـك نهايتـك».

كانـت النّسـوة عـلى الطّـوف الآخـر يثرثـرن بأصـوات قويّـةٍ ذات نـبرةٍ خشـنة. والآنَ، بسـبب حادثـة الفتـاةِ في الغابـةِ، بتْـنَ يُـردّدن أنّ جيريبـالا سـتجلب لهـنّ النّحـس. لكـنّ ليـل تصـدّت لهـنّ،

خاصّةً للمرأة النّحيلة الفارعة الطّول التي ضربتها بقسوة، وقد تحدّثت ليل مع تلك الشرسة بلغةٍ أخرى، تُنطَقُ فيها الكلمات بالمقلوب، ويختلفُ معناها، هي لغة الدّوم.

ذات يوم سألتْها جيريبالا:

- بأيّ لغةٍ تتحدّثون، فيما بينكم؟

ضحكَت لِيل:

- ماذا، ألا تعلمين؟ إنّنا متشرّدون، ونتحدّث لغة اللّصوص.

نظرَت إلى جيريبالا نظرةَ تحدٍّ، فأغْضَت جيريبالا خائفةً. ومع هذا فلم تكن لِيل شرّيرة، وباستثناء تلك الشّرسة، فإنّ النّساء الأخريات كنّ يتقاسمْن كلّ ما يسرقن. وكان هناك دوماً حصّةٌ لجيريبالا. وقد اعتنينْ بأنانتا كما لو كانت ابنتهنّ. وعلى مرّ الأيام، نسينَ شيئاً فشيئاً حادثة الإلهة الباردة.

أخذ الطّوفان ينسابان على طول الشاطئ الموحل مساءً بعد مساء، حيث المطر يصبغ النّهر بالأحمر. كانت جيريبالا، بيدَيها اللّتين تيبّستا ووجهها الذي سوّدته الشمس، تقف في مقدّمة الطّوف وتدفع المرديّ موثقةً بشالها الطّفلة أنانتا إلى خصرها. كانت تعرف تماماً

كيف تُلقي بالمُردي إلى الأمام وتغرُزه في القاع الموحل، وكيف تمشي على حافّة الطوف حتّى مؤّخرته، ثمّ تنزع المرديّ بحركةٍ سريعة. وكانت تعرف أيضاً كيف تتلمّس الخطر. فقبل الوصول إلى دالمو، وفي انعطافةِ النّهر العظيم، كانت مجموعةٌ من السيبوي قد نصبت كميناً. بدؤوا بإطلاق النار على الدوميّين، فدفعت جيريبالا الطّوف في التيّار أبعدَ ما أمكنها دون أنْ تُبالِيَ بطلقات الرّصاص التي كان يُسمع دويّها. في ذلك اليوم، عانقَتها ليل ومسحت على وجهها، بل قالت لها أيضاً: «إنّك شجاعةٌ مثل لاكشميباي»[1]. وحكت لها قصّةَ ملكة جانسي هذه التي قاتلت الإنجليز وحدها دفاعاً عن مدينتها، وماتت على ضفّة النهر.

وفي فجرِ أحدِ الأيّام، وصل الطّوفان أمام خليج واسعٍ تقوم عليه مدينة. فرأت جيريبالا في الضباب، عند ملتقى نهرَي يامونا والغانج،

(1) راني لاكشمیباي: ملكة ومحاربة هندية (1828–1858)، حكمت مدينة جانسي بعد وفاة زوجها، وهي من أشهر قائدات حرب التمرّد ضد الاستعمار البريطانيّ عام 1857، وتعدّ بطلة قومية في الهند.

الأبـراج والمـآذن، والسـور الكبـير بحُمرتـه الدّاكنـة. وكان في الخليـج أمـام المدينـة جيـشٌ مـن قـوارب صيـدٍ بأشرعـةٍ طويلـةٍ سـاكنة. بـدا كلّ شيء صامتـاً غافيـاً. وانسـاقَ الدوميّـون ببـطءٍ جالسـين عـلى طوْفَيهـما، محدّقـين في طيـف المدينـة الشـبَحيّ. قالـت ليـل بصـوتٍ خفيـضٍ وكأنّهـا تخشـى أن يسـمعَها أحـدٌ هنـاك: «هـذه الله أبـاد» (مدينـة الله). كانـت جيريبـالا تضـمّ أنانتـا إلى صدرهـا. ولم يكـن يخـترق الصّمـت سـوى النّفـسِ المُخشـخِش قليـلاً الـذي كان ينبعـث مـن صـدرِ نـات، ابـن ليـل، ونخـيرِ العنـزةِ الهَرِمـةِ وهـي تحـاول قضْـم لحـاء الطّـوف.

ثـمّ طلعـت الشـمس خلَـل الضبـاب، وصـار الطوْفـان قبالـةَ المدينـة، ودارا وئيـداً حـول نفسـيهما أمـامَ السّـور، مثـل حزمـة مـن الأغصـان في دوّامـة. غرسـت النسـاء المَـراديَ في الميـاه العميقـة، محـاولاتٍ التجديـف للوصـول بالطّوْفَـين إلى الضّفـة الأخـرى. وفي كلّ مـرّة تُقتلـع فيهـا المَـرادي مُهتـزّةً، كانـت النّسـوة يُطلقـن صيحـةً طويلـةً، «إيّيـيـي!...» كانـت جيريبـالا هـي أيضـاً تجـدّف بقطعـةٍ مـن خشـب، مُنحنيـةً عنـد مؤخـر الطّـوف، وتصيـح مثلهـنّ

وتغنّـي، وبجوارهـا أنانتـا ونـات محشـورَين بـين صرر الثّيـاب ضـاحكَـين، لِظنّهـا أنّ الأمـر يتعلّـق بلعبـة. حتّـى العنـزة الهَرمـة بـدت مهتاجـةً عـلى نحـو غريـب، وكانـت تتمطّـى وتنفـض رأسـها ثاغيـةً.

كان الهـرِمُ سـينغ عـلى طـوْف النسـاء يجـدّف بالمُـرديّ هـو أيضـاً، عـلى الرغـم مـن الجـرح في فخـذه. وبـدا الطّوْفـان من مسـافةٍ بعيـدة، بالعصيّ البـارزة على جوانبهـا مثل أشـواكٍ، كأنّها حشرتان تكافحـان وسْـط بحـرٍ مـن طـين.

دوّمَ تيّـار النّهرَيـن العملاقَـين فدفـع الطّوفَـين بعيـداً مشـتّتاً شـملهما، ثـمّ، في نهايـة مُنعـرجٍ طويـل، عـادَ ليجمـعَ بينهـما، فتلاصقـت حافتاهمـا، وأخـيراً دخـلا معـاً الميـاه الهادئـة في المنعطـف أمـام مدينـة الله أبـاد. وللمـرّةِ الأولى منـذ أيـام وشـهورٍ تشـعر جيريبـالا بالسـكينةِ في أعماقهـا، كـما لـو أنّهـا وصلـت حقّـاً إلى آخـر محطّـةٍ في رحلتهـا، حيـث لا رائحـةَ للـدّم أو الحرائـق، وحيـث يمكنهـا العيـش بحرّيّـةٍ مـع أنانتـا.

23 يونيو

استقرّت الإلهة الباردة في باليساد، موجةً آتيةً من طرف العالم الآخر، ولن يوقفها شيء. كان ركّاب لافا حبيسي الكرنتينة، متقوقعين فيها، منكمشين على أنفسهم كمن يتهيّأ لاستقبال العاصفة. أمّا أنا، فكنت كلّما هبط اللّيل، توجّهتُ إلى الطرف الآخر من الجزيرة، مجتازاً غابة الكزورينة. وقد تعلّمتُ أن أتحرّك مثل كائنٍ بريّ، هادئاً حافياً بين الحمم البركانيّة والشّجيرات الشّائكة. وكان حفيف الرّيح في أوراق الكزورينة يصيبني بقشعريرة. هكذا صار لي طقسيَ اليوميّ، وكنت أحبّ أيضاً أن أصغيَ إلى هدير البحر وهو يقضم الجزيرة من جميع جهاتها. وأحسستُ أنّ هذا الارتعاش يسكنني، ويختلج في أعماقي.

أبلغُ قمة الجُرف فأمكث هناك لأتأمّل أضواء باليساد. صار الموت الآن يكرّر ضرباته، والنيران تشتعل على طول الخليج، بدءاً من الصخور القريبةِ من السّد وحتّى حيّ المنبوذين. فتصعد إليّ رائحة المحارق، لاذعةً وعذبةً في آنٍ معاً، ممتزجةً بحموضة الزّيت الذي يسكبه الخدم على ألسنة اللّهب لإذكائها.

وإلى الأعلى من بلدة العمّال حيث أنا، لا أسمع أيّ كلمةٍ أو شكوى، لا شيء سوى هدير البحر، وحفيف الرّيح في أوراق الكزورينة الإبريّة.

ثمّ يتبدّى القمر وسط سماءٍ شديدة الصفاء، مكتنزاً يتألّق جمالاً. وتمسح الرّيح السّماء شاقّةً فيها خليجاً أوسع من البحر الذي يحيط بنا. ويضيء نورُ القمر الجزيرة متلألئاً فوق الأمواج. أرى كلّ تفصيلٍ في الخليج، كلّ صخرة وبيت. ثمّةَ أطيافٌ تحوم بين المحارق على طول أزقّة المدينة. وقد تكون سورياڤاتي وأنانتا من بين تلك الأطياف التي

ترتـدي ثيابـاً مـن الخيـش، وتحمـل قواريـر مـن الزّيـت، أو تقلّـب الجمـر بعصيّهـا الطويلـة. لم تمـضِ سـوى أيّـام قليلـةٍ عـلى نزولنـا إلى الجزيـرة، ومـع ذلـك يبـدو لي أنّنـي أرى هـذا المشـهدَ منـذ الأزل. لم أعـد أخـاف المـوت. وقـد أرتْنـي سـورياڤاتي وجهـةَ الجنـوب، حيـث يقيـم ياما، إلـه الموتـى.

لم أنـسَ لحظـةَ نطقَـتْ اسـمه. أخـذَت بعـض الرّمـاد مـن المحرقـة ومزجَتـه بلعابهـا وبالـتّراب الأسـود، ورسـمَت ببـطءٍ علامـاتٍ عـلى وجهـي، فشـعرتُ بشيءٍ أشـبه بالنّـار يتّقـد في جسـدي. كان صوتهـا غايـةً في الرّقـةِ، مثـل لمسـةِ أناملهـا عـلى جبينـي، وعـلى وجنتَـيّ وجفـوني. «ياما هـو ابـن الشّـمس، وهـو ينتظـر أختـه، يامونـا[1]، وحـين تـأتي، ستشـعل نـاراً كبـيرة، وتخـطّ بالرّمـاد جبهـة أخيهـا، كـما فعلـتُ أنـا، حتّـى لا ينتهـي حبّهـما أبـداً».

ثـمّ أهبـط إلى باليسـاد. لا تـزال الحفريّـات القديمـة التـي منحـت الخليـج اسـمها[2] عـلى حالهـا في بعـض المواضـع، حيـث طُرِحـت جـذوع الأشـجار الضّخمـة في مُخمَّسـات. يثـير الصّـوت الـذي أُحدثـه وأنـا أقفـز بينهـا نبـاحَ الـكلاب. لكنّهـا تصمـتُ حـينَ أبلـغ الشـاطئ. لقـدْ بدّلـتُ رائحتـي، فلـم تعـد تكرهنـي بعـد الآن.

تُشـعَل معظـم المحـارق عـلى الشـاطئ، ولا يُسـمَع هنـا سـوى صـوت المـوج وطقطقـة ألسـنة اللّهـب. البحـر طافـحٌ كالسّـماء، يحتضـن هـو أيضـاً البـدرَ في تمامـه. إنّنـي في عـالمٍ آخـر يغيـب عنـه الخـوف، ويتـلألأ فيـه ضـوء الجمـر الملتهـب، ويعبـق برائحـة خشـب الصّنـدل والزيـت الزكيّـة. أمـشي

(1) اسم هذا النّهر مؤنّث، كما في «دجلة» عند العرب. (المُراجِع)

(2) كلمة Palissades تعني أجراف.

نحـو ألسـنة اللّهـب الرّاقصـة وأتذكّـر فجـأةً؛ كان جـاك هـو مـن تخيّـل هـذا منـذ زمـنٍ طويـل ذات أمسيةٍ عـلى شـاطئ بيـل إيـل، في آخـر إجـازةٍ صيفيّـةٍ لنـا مـع والدنـا: أيقظنـي ليـلاً، بـدا في هيئـةٍ غامضـةٍ محيّرة. قـال: «تعـال، سـأريك شـيئاً». كان هنالـك عـلى الشـاطئ مصـبٌّ صغـيرٌ أسـود مختلـطٌ بالطّمـي. كانـت ليلـةً صافيـةً مثـل هـذه، بنسـيمها العليـل وهديـر بحرهـا. انحنـى جـاك فـوق المـاء، وأشـعل شـمعةً ودسّـها في عنـق زجاجـة معبّـأة. ثـمّ وضـع أضـواءً أخـرى في قـواربَ مـن ورق، وفي عُلـبٍ كرتونيّـة. أخـذتُ أتأمّـل الأضـواء وهـي تنسـاب عـلى مهْلهـا في المصـبّ، ثـمّ تختفـي في العتمـة وتبتلعهـا الميـاه. تملّكتنـي الرّغبـة في العـودة إلى الكرنتينـة لإيقاظـه هـو وسـوزان، كـي ينضـمّا إليّ هنـا أمـام المحـارق، فـلا يعـودا يخشـيان شـيئاً بعـد الآن.

لكـنْ لا وقـتَ لـديّ. تجذبنـي ألسـنة اللّهـب، فأسـعى بـين المحـارق، وأقابـل الخـدم، منبوذيـن لا يرتـدون إلّا السّـواد، ورؤوسُـهم ملفوفـةٌ بالخِـرق. لا يبـدو أنّ أحـداً يـراني. عـلى الشـاطئ، تَصنـع المحـارقُ جـداراً مـن دفءٍ، وتطـوّح الريـحُ باقـاتٍ مـن الـشّرر صابـّةً فوقـي دخانهـا الـلاّذع. أبحـث عـن سـوريافاتي، فأمـشي محمومـاً حتّـى طـرف اليابسـة- هنـاك حيث انتظرتُهـا منـذ ليلتَـين- فـلا أرى سـوى المنبوذيـن، رجـالٍ ناحلـين ذوي عيـونٍ متّقـدة، دوميـنّ خـدّامَ محـارق، يتنقّلـون ويدفعـون الجمـر إلى قلـب المواقـد، أو ينبشـون الـرّكام بأغصـانٍ طويلـةٍ رَمِـدَة. وبـين الحـين والحـين يقلّبـون الرّمـاد آملـين أنْ يعثـروا فيـه عـلى شيءٍ ذي قيمـة، قطعـة نقديّـة، أو جوهـرة منسـيّة. إنّهـم يشـبهون الجـوارح. لكـنّ سـوريافاتي وأنانتـا ليسـتا

بينهم. بعيداً في العتمة، ثمّة نساءٌ ملتفّاتٌ بشالاتهنّ الحُمر، وبعضُ رجالٍ يراقبون المشهدَ بلا كلماتٍ ولا دموع.

أفكّر في محرقة غابريال، حيث اختفى نيكولا والسيّد تورنوا. نحن أيضاً حفّارو قبور. وددْتُ لو كان جاك هنا، وددْتُ لو يأتون جميعاً، بمن فيهم جوليوس فيران وبارتولي بهيئتَيهما المتبجّحتَين، فيقلّبون الجمرات ويصبّون الزّيت على النّار، ويستنشقون الدّخان، ويسمعون أجيج النّيران وهي تلتهم الجثث.

أمّا أنا، فقد جثوْت بدوري جوار محرقةٍ خبا لهيبها، متسلّحاً بغصن طويل، وأخذتُ أقلّب الجمر وأُثير دوّاماتٍ من الشرّر. لم يتوجّس أحدٌ منّي، فأنا مثلهم، بملابسي البالية، وقدمَيّ الحافيتَين وشعري المرمّد، ووجهي المسودّ بالدّخان وكذا ذراعَيّ. أنا مثل الدوميّين خادمُ محارق. فأنّى لي أنْ أعود إلى هناك، إلى الكرنتينة، بعد ما رأيت؟ وهل سيكون بمقدور سوزان أنْ ترى فيَّ غيرِ طيرٍ جارحٍ يحمل علامةَ الموت؟

جلستُ طويلاً على الشّاطئ أمام المحرقة الآخذة في الانطفاء رويداً رويداً. كانت الرّيح تهبّ أحياناً، فتشعل بقعاً حمراءَ في الرّماد. وكنت أتنسّم عبق البحر.

وقبيل الفجر، كانتْ أطيافٌ تتمشّى على طول الشاطئ، وتمرّ من أمامي. عرفتُ من بينها الشّيخ حسين وراماساومي. كانا يتقدّمان على مهلٍ، بعكّازَيهما الطويلَين، مثل شبحَين. ثمّ توقّف السّردار للتحدّث إلى الرّجال والنساء الذين كانوا يقفون على مبعدةٍ، وقدّم لهم العزاء أو ربّما تمتَم بدعاءٍ، ثمّ تابع طريقه. كان كلّ شيء صامتاً، فلا يُسمع سوى حفيف الرّيح في غابة الكزورينة أعلى البلدة، وهمسِ البحر عند الشّعاب المرجانيّة.

طلع النهار فإذا بسوريا مقبلةٌ برفقة الرّاعي الشابّ شوتو. كانت تحمل حقيبةً من الكاذي[1] مليئةً بالطّعام لخدّام المحارق، وشوتو يحمل إبريق الشاي. كنت أحسّ بالخدَر من التّعب، وقدْ حرّقت النيران شعري وحاجبَيّ. ولمّا صارت سوريا في مواجهتي، توقّفتْ ونظرتْ إليَّ دون أن تقول شيئاً، ودون أنْ ترتسمَ على وجهها ملامحُ الدّهشة. أعطتني طبق الأرزّ والخُبز المقليّ. وسكب ليَ الفتى الشّاي في كوب. انتظرا في صمتٍ حتّى فرغتُ من الطّعام والشّراب، ثمّ تناول شوتو منّي الطبق والكوب المتّسخَين، وقد أضاء نور الفجر وجهه كاشفاً عن عينَيه الواسعتَين العميقتَين. أومأتُ إليهما معاً- هو الذي لا يسمع، وسوريا- أنّ الطعام طيّب، باسطاً يدي اليُمنى إزاء صدري ثمّ مادّاً إيّاها إلى الأمام. شاهدتُهما يتعدان ببطءٍ نحو خادم آخر، فشعرتُ بنورٍ ما يولَد في أعماقي. ثمّ بدأتْ أوّل الطيور تصرخ بين الصخور.

كانت طيور البلشون المخطّط تحلّق معاً ماسّةً صفحة البحر في طريقها إلى صخرة لوديامو. لم يكنْ هنالك ما يدعوني للمغادرة. وبدا لي أنّ هذا الصباح لا بدّ أنْ يستمرّ إلى الأبد. تمدّدتُ على الرّمل الأسود مستمعاً إلى حسيس نيران المحارق الآخذة في الانطفاء.

(1) أيْ مصنوعة من أوراق شجر الكاذي.

هنا كان أنْ رأت أنانتا النساء يرقصن للمرّةِ الأولى. كان الأمر غريباً، إذ كانت الحرب لا تزال قريبةً، وأسوارُ المدينة مليئةً بالثقوب التي أحدثتها القذائف، والبيوتُ القديمة شبهَ متفحّمة، وأسراب الذباب والنسور في كلّ مكان. كان البريطانيّون قد بنوْا معسكرهم على الضفّة الأخرى من نهر يامونا، قبالةَ المدينة، ووجّهوا مدافعهم صوبها.

يقع الشاطئ الذي جنح إليه الطَوفان قبالَة المصب، بعيداً عن تيّار النهرَين، وهو خليجٌ كبيرٌ تحتلّه المياه الرّاكدة، حيث ينمو القصب. هنا، منذ شهورٍ، استقرّ بمشقّةٍ اللّاجئون الذين قدِموا من جميع أنحاء عَوَض. فمنذ سقوط نانا صاحب، أقام جنود اللّورد كانينج الإنجليز معسكرهم المنيع في المدينة من أجل حملةٍ لاستعادة دلهي والمقاطعات الشّمالية، فأصبحَ هذا الشاطئ بلدةَ نساءٍ وأطفالٍ، دمّرتها المجاعة والمرض، بلدةَ أكواخ من الخصّ والطّين، يلزم إعادةُ بنائها في كلّ مرّة بعد موسم المطر.

هنا أوقدَ الدوميّون ذات مساءٍ ناراً. وتناول الهَرِمُ سينغ نايَه، وصُنعت طبولٌ مائيّةٌ

مـن ثـمار القـرع الهنـديّ المفرّغـة العائمـة في دلاء، وانطلقـت الموسـيقى، بطيئـةً في البدايـة، ثـمّ أخـذ إيقاعهـا يتسـارع. فخـرج النـاس مـن أكواخهـم، سـالكين دربهـم بـين القصـب، وقـد جذَبتهـم الموسـيقى. أطفـالٌ متسّـخون مثـل العناكـب، بأطـرافٍ نحيلـةٍ وبطـونٍ متورّمـة، ونسـاءٌ يرتديـن السّـاري، بشـعورٍ متلبّـدة، وعيـونٍ ذاهلـة، وقليلٌ مـن الرّجـال أيضـاً، عـمالٌ مـن المناطـق المجـاورة، قدمِـوا مـن الشّـمال هربـاً مـن هجـمات أتبـاع عـلي نقـي خـان[1] الانتقاميّـة.

كانـت أنانتـا متكـوّرةً في حضـن أمّهـا، تنظـر بمـلءِ عينَيهـا حابسـةً أنفاسـها. وكانـت النسـاء يرقصـنَ عـلى إيقـاع الطّبـول والنـايّ أمـامَ اللّهـب العـالي داقّـاتٍ الأرض الصّلبـة بباطـن أقدامهـنّ، فترنّ أسـاورهنّ وقلائدهـنّ النحاسـيّة الثّقيلة. كنّ يرتديـن أثـواب السّـاري الجديدةَ بلون مـاء البحر، لـون الفـيروز، ويضعْـنَ عـلى شـعورهنّ السـوداء المضمّخـة بالزّيـت شـالاتهنّ الكبـيرة بلـون النـار.

ثـمّ بـدأت لِيـل ترقـص بمفردهـا، فيما النسـاء الأخريـات الجالسـات حولهـا يصفقـن عـلى إيقـاع طبـول الماء.

(1) وزير الملك الحادي عشر، آخر ملوك ولاية عوض، واجد علي شاه، بين عامي (1847–1856).

وأخـذت جيريبـالا تعلّـم أنانتـا كيـف ترقـص بيدَيهـا راسـمةً علامـة الـرّب كريشـنا، اليـدان أمـام الفـم والأصابـع مرفوعـةٌ، كمـن يعـزف عـلى النّـاي. علّمَتهـا كلّ مـا تعـرف مـن حـركات: علامـة طائـر الجـارودا، اليـدان مفتوحتـان مثـل جناحَـين، وعلامـة العَجَلَـة، حيـث تـدورُ كلّ راحـةٍ أمـام الأخـرى، وعلامـة ألابالافـا، أو زهـرة اللّوتـس، حيـث اليـد منبسـطةٌ أمـام الصـدر، وعلامـة السـعادة، اليـدُ أمَـام الجبهـة، وعلامـة الحُـبّ وقلـب الطائـر النّابـض، يـدان مفتوحتـان، متشـابكتان بالإبهـام والأصابـع الأخـرى ترتعـش.

غمـرَت الدّهشـة ملامـح الطّفلـة، تلـك هـي المـرّة الأولى التـي ترقـص فيهـا أمـام والدتهـا، بسـاقَيها الصغيرتَـين المرتبكتَـين، ملتفّـةً بـرداءٍ طويـلٍ، ومعصماهـا مثقـلان بأسـاور مـن نُحـاسٍ. في ذلـك اليـوم، أعطَـت لِيـل أنانتـا سـوارها ذا الخـرزات الخمـس البلوريّـة، الـذي يحمـل ميداليـة يِلامّـا إلهـةِ الرّقـص، وكانـت قـد حصلـت عليهـا وهـي في السادسـة مـن عمرهـا. لاحظـت جيريبـالا ولِيـل أنّ أنانتـا قـد رقصـت طويـلاً، داقّـةً الأرض الجافّـة بقدَميهـا الحافيتَـين،

وسْطَ رائحة دخان خشب الصّندل المُسكِرة. وبرؤيتها، نسيَت جيريبالا الخوف والحرب، وصدْرَ المربّية الدّامي حيث وجدت الطّفلة، ورحلةَ هروبها عبر الحقول وصولاً إلى النّهر حيث اخترعَت اسم أنانتا.

كانت ليلةً طويلةً جداً، قضتها جيريبالا أمام النّار المشتعلة على الشاطئ، تستمع إلى إيقاع طبول الماء مع كلّ هؤلاء الناس الذين يتمايلون بين القصب. ولّما هدّ التّعب أنانتا، مدّدتها جيريبالا لترتاح على الحُصر. واصلت النساء الرّقص طوال اللّيل، ثمّ قصّت ليل على الجمْعِ حكاية لاكشميباي الجميلةِ التي ماتت منذ شهرَين وهي تدافع عن مدينتها ضدّ العدوّ. قلّدت قتالها ضدّ الإنجليز وهي على صهوةِ حصانها حاملةً سيفها ومحاطةً بصديقتَيها العزيزتَين، ماندرا وكاشي. سقطت ماندرا أوّلاً بعد أنْ أصيبت برصاصةٍ في القلب. لم ترغب المَلِكة في التخلّي عنها، فحزّت رأس الرّجل الإنجليزي بضربةٍ من سيفها وفرّت مع كاشي إلى النهر. أسقطت رصاصةٌ ثانيةٌ كاشي أرضاً. فَجُنّت لاكشميباي من الألم، وأخذت تدور وتدور على حصانها أمام النهر، فدارت ليل حول نفسها أمام الجمْع الذي يشاهدها، باسطةً

ذراعيها حتّى سقطت أرضاً، مثل لاكشمياي التي اخترقتها حِرابُ العدوّ.

بقي الدوميّون في فاراناسي طيلةَ موسم المطر. كانت مياه النّهر السوداء تدوّم جارفةً معها نحو الضّفاف جذوع الأشجار المُقتلعة. فباتَ الإبحارُ فيه مستحيلاً. لم يعد النّهر وديعاً، وصار يحمل اسم هارا ساكارا، عُرْفِ الإله شيفا المدمِّر. غرِقت السّهول وضاعت المحاصيل، وبسبب المجاعة، قيل إنّ هنالك قراصنةً على النّهر؛ متمرّدين سابقين ينهبون القرى ويغتصبون النساء.

وصل العنف إلى تخوم المدينة. وذات صباح، استفاقت جيريبالا على صيحاتٍ آتية من وسط المدينة، تتصاعد مثل إعصار. فتذكّرَت ما حدث في كاونبور، وصيحات السّيبوي التي كانت تتعالى عبر الحقول وتطوّق المدينة، فخفق قلبها بشدّة.

كانوا شُبّاناً يرتدون، على سبيل التحدّي، شعارَ بهادر شاه[1]، وكانوا يفرّون عبر المدينة،

(1) أبو الظّفر سراج الدّين محمد بهادر شاه، آخر أباطرة مغول الهند (1775-1862). اتّهمه الإنجليز بتعاونه مع الثورة فحكموا عليه بالإعدام ثمّ خُفّف الحكم إلى النّفي إلى بورما حيث مات حبيساً. وبنفيه سقطت دولة المغول الإسلاميّة في الهند.

تلاحقُهم فرقةُ الخيّالة البريطانيّة، فيركضون على طول الشاطئ ويختبئون في المعابد وأحواش البيوت. ظلّت جيريبالا متسمّرةً في مكانها، تعانق أنانتا المرتعدةَ خوفاً، وتكرّر لها، ناطقةً بهدوءٍ اسمها: «لا شيْء هناك، لا تخافي يا أنانتا».

عاد الهدوء. لكنْ في ذلك المساء نفسه، أقام البريطانيّون منصّةَ شنقٍ طويلةً على ضفّة النهر قرب المدارج[1]، فأعدموا عشرات الفتيان الذين أسرهم السّيخ. كان بعضُهم لا يزالون أطفالاً. كانوا يحملون على ملابسهم ألوان المتمرّدين مثل شاراتٍ وطنيّة: الأزرق والأحمر شعارَ بهادر، والأخضرَ والذهبيّ شعار مدينتي جانسي وڤاليور[2]، والمَلكةِ لاكشميباي.

أرادَت لِيل وبعض النسوة أنْ يركَبن الطّوف ويهربن، لكنّ الهَرِمَ سينغ لم يؤيّد هذا الرأيّ. قال إنّهم في فاراناسي، أيْ على أدراجِ المعابد، لذا فهم في أمان.

(1) Ghats: كلمة تُستخدم في جنوب آسيا للإشارة إلى الدّرجات المؤدّية إلى أيّ تجمّع مائيّ وخاصّة الأنهار المقدّسة لدى الهندوس.
(2) المدينة التي تحصّنت فيها الملكة لاكشميباي في حربها ضدّ الإنجليز، حيث قلعة ڤاليور الشّهيرة.

كان طوْفا الدوميّين راسيَين أسفلَ المدارج. وكانت النساء تتولّى العناية بالمحارق ليلاً، لقاء بضع آناتٍ[1] أو قليلٍ من الطعام، فيشترين من الفلّاحين أعواد حطبِ السفرجل وبلّورات الرّاتنج، وينظّفن أماكن المحارق ويكنسنَها ويجهّزْنها، ويعتنَين أيضاً بالموتى، فيلبسْنهم، ويَدهنّهم بالعطور ويرشُشنَهم بالصّندل. هكذا أمضت جيريبالا شهوراً من التّواصل مع الموتى. فبرفقة لِيل وأنالا الشّرسة (وكانوا يدعونها أيضاً لَيا، تذكيراً بالملك كارداما الذي تحوّل إلى امرأة، لطول قامتها ونحولها، وشفتِها العليا المخطوطةِ بشارب) كانت جيريبالا، مرتديةً ثوباً بلون الزُّنْجُفْر الأسود[2]، تذرع المدارجَ بحثاً عن محتَضَرين. كان عليهنّ أوّلاً الوصول إلى اتّفاقٍ مع العائلة، ثمّ يحملن الجثّة التي بدأت تتخشّب، ويغسلنها في مياه النهر ويرطّبنها بالسّمن، ويعلّقن بأطرافها حزماً صغيرةً من خشب الصندل. فكانت المحارِق تُشعَل في أعلى المدارجِ عند الغسق، فتنتشر فوق المدينة سحابةٌ من الدّخان اللّاذع تطرد الذّباب.

---

(1) آنة: عملة هنديّة قديمة.

(2) مادّة كبريتيد الزئبق، وهو معدنٌ صخريّ موجود في الطبيعة، مسحوقه أسود اللّون أو أحمر.

كثُرت الوفيات في ذلك الشّتاء من جرّاء الحرب والأوبئة والمجاعة، وكانت الجثث تصل على عرباتٍ أو زوارقَ كبيرةٍ يقودها ملّاحون سودٌ كانت الناس تخافهم. قالت ليل إنّهم «رجالٌ بريّون يسكنون الجبال، لا دين لهم ولا يعرفون الملح. ويأكلون القرود والببغاوات، وحتّى الثعابين».

كانت أنانتا ترافق جيريبالا أحياناً إلى أدراج المعابد. وكانت تشعر بالخوف في البداية، فتظلّ نصف مختبئةٍ، تنظر إلى أمّها والنساء الدوميّات وهنّ يجهّزن الموتى، شعثاواتِ الشّعر، ووجوههن معفّرةٌ بالرّماد. ثمّ تشجّعت مع الوقت. كان الموتى لا يتحرّكون ولا يقولون شيئاً، ولا يقدرون على الإيذاء، دمى كبيرةً ذابلةً، بعيون مسودّة وشفاهٍ مزرقّة. وحدها أسنانُهم كانت تلمع حين يُغسَلون في مياه النّهر.

حتّى إنّ أنانتا اعتادت الرّائحة النفاذة التي تنبعثُ ما إنْ تبدأ النيران تلعق الجلود المرطبّة بالسّمن، مُشعلةً كراتِ القار تحت الإبطينْ.

كانت المحارق تظلّ متّقدةً شطراً كبيراً من اللّيل، بينما النساء منهمكاتٌ في الأشغال:

يكنسن ويرشُشن الماء على الجمر، أو يُضفن الأغصان الجافّة. وكانت لحظةُ خُبوِّ النيران هي الوقت الأثير عند أنانتا، حيث تستلقي جيريبالا على الأرض قرب الجمر، فتتكوّر الصّغيرة في حضنها وتدفن رأسها تحت شالها الكبير -كما فعلتْ أوّل مرّة حين انتزعَتها أمُّها من الموت- فتشعر بدفء جسدها وتستنشق عطره. لكنّها لا تنام، بل تظلُّ منتظرةً طلوع الفجر كيْ يحرّرها أخيراً من خوفها. كانت تسمع أنفاس أمّها النائمة وطقطقةَ الجمر الذي أخذ يبرد. فتعاودها أصوات الماضي: الحيواناتُ وهي تحوم حول السّور في كاونبور، والقتلة الذين يحفرون ببطءٍ الجدار الطينيّ فيما هي تبحث عن صدر مربّيتها. عندها، تتشبّث بحضن جيريبالا بكلّ قوّةٍ فتوقظها. «ماذا بك؟ ماذا تريدين؟» فتشدّ الصغيرةُ على فكّيها كي لا تصرخ أو تبكي.

ويطلع النّهار أخيراً خَلل الضباب. فترى أطيافَ المعابد كأنّها عمالقةٌ يقفون أمام النّهر. ويَصير في وسعها أنْ تنام أخيراً. وحين تستيقظ تجد نفسها على الشاطئ أمام الطوفَين الرّاسيَين في الجوّ المُشمس.

ولّما انتهى موسم المطر، جمع الدّميّون ما يكفي من المال على أمل أنْ يمكثوا في فاراناسي، لكنْ ذات يوم جاءهم رجلٌ، أرسله كاهُن مَحارقٍ. كان هذا الرسول قد شاهد رقص النساء، وكان يعلم أنهنّ غجريّاتٌ، من طبقة الشامار المنبوذين، نساءٌ بلا أزواجٍ. ولاحظ، بين النساء، الفتاة الصغيرة ذات العينَين الفاتحَتين والشّعر النحاسيّ، ولمحَ قلادة الإلهة يِلامّا حول عنقها. فنقلَ الأخبارَ إلى الكاهن، ثمّ عادَ حاملاً رسالة إلى الدوميّين: يريد الكاهن شراء الطّفلة ذات العينَين الفاتحَتين وإرسالها إلى مدينة ماثورا، على نهر يامونا، لتتعلّم الرقص. لن ينقصها شيءٌ هناك، وستكون زوجةً لهاري[1] وستجسّد الإلهة رادها الدُريّةَ البشرة. وعرَض على الدوميّين مبلغاً من المال، واعداً الأمَّ بقطعٍ من القماش حصل عليها من الإنجليز.

ضمّت جيريبالا أنانتا بقوّةٍ إلى صدرها. كانت ترتجف غضباً وخوفاً:

- لكنّها مجرّد طفلة!

ابتسم مبعوث الكاهن بهدوء:

(1) هو أحد أسماء الإله الأعلى فيشنو وفقاً للمعتقدات الهندوسيّة، ويعني «القادر على جذب كلّ شيء إليه».

- بالضّبط. فهي في سنّ التعلّم. وأشار إلى القلادة:

- وهي تنتمي بالفعل إلى ماهي[1]. وعاد إلى الهيكل في انتظار الجواب.

لم تقل جيريبالا شيئاً. لكنّها لملمَت حوائجها وركبتْ طوفاً مع أنانتا، قابضةً على مُرديّها الطويل، عازمةً على الاستعانةِ به في حال منعها أحدٌ من المغادرة.

وتبعها الدوميّون. صعدت لِيل وابنها على الطّوف. ثمّ ركبت النساء الأخريات الطّوْف الثاني. واكتفى الهَرِم سينغ بالقول: «على أيّ حال، كنّا سنرحل يوماً ما». لكنّه انحنى غاضباً على المُرديّ، وغادر الطَّوْفان الضّفّة ودخلا من جديدٍ في تيّار النّهر.

---

(1) ماهي أو بُهومي، وتُعرف بأسماء عديدةٍ أخرى: هي الإلهة التي تمثّل الأرض وفقاً للمعتقدات الهندوسيّة.

24 يونيو

لم أعـرف تاريـخ هـذا اليـوم إلّا لأنّـه صـادفَ عيـد مـيلاد سـوزان. حتّـى هـي نفسـها قـد نسـيَته. لكـنّ جـاك أراد الاحتفـال بـه. كان قـد أعـدّ كلّ شيءٍ في الخفـاء. فذهـب مبكّـراً إلى بلـدة باليسـاد، وتفـاوض مـع عامـلٍ عـلى شراء ثمـرة بابايـا جميلـةٍ وبعـضِ البيْـض.

سخر جوليوس فيران منه بلطف: «بيْض! لم أعد أعرف حقّاً ما هو!».

أمّـا أنـا، فبعـدَ أنْ احـترتُ مـاذا أُهديهـا، أحـضرتُ لهـا قطعـةً مـن المرجـان كنـت قـد كسرتهـا في قـاع البحـيرة، وقـد غلّفتُهـا بورقـةٍ مـن زنبـق القنـا الهنـديّ، نـضِرةٍ ونديّـةٍ مثـلَ منديـلٍ معطـر. كانـت سـوريا هـي مـن أرتنـي كيـف أنتـزع الورقـة مـن قلـب النّبتـة دون أنْ أتلِفهـا، كـي أسـتخدمها كضـمادة.

كانـت سـوزان مسـتلقيةً في الغرفـة المعتمـة وعيناهـا مفتوحتـان عـلى اتّسـاعهما، فقـد عـادت إليهـا الحمّـى ليلـةَ أمـس، وكان وجههـا محتقنـاً وذراعاهـا وسـاقاها متشـنّجةً مـن تصلّـب المفاصـل. التمعـت عيناهـا حـين رأت الهدايـا:

- شكراً، شكراً جزيلاً لكما.

أعجبهـا البيـض والبابايـا، ثـمّ نظـرَت إلى المرجـان الأرجـوانيّ الجميـل، السّـام، وهمسـت:



- يا لها من زهرةٍ جميلة.

- نعم، لكن عليكِ ألّا تلمسيها وإلّا حرّقتك.

وضعـتُ قطعـةَ المرجـان عـلى حجـرٍ مسـطّح، فصبغهـا ضـوء الصبـاح بلـونٍ مائـلٍ إلى الزّرقـة قليـلاً، كـما لـو أنّهـا قـد تشرّبـت مـاء البحـيرةِ.

بعد لحظةِ الفرح بعيد الميلاد، عاد القلق إلى جاك. كانت سوزان ترتجف مضطّربةً. أرادت النهوض. وقالت:

- أنا عطشانة، عطشانةٌ جدّاً.

ناولها جاك الكوب، فتراجعت مرتعشةً من الاشمئزاز:

- لا، ليس ماء الصهريج الفظيع هذا.

قلت:

- سأحضر لك بعض الماء العذب. أعرف مكان النّبع.

أراد جاك أن يأتيَ معي، فقلت له متحدّياً:

- أمتأكّدٌ أنت؟ إنّه على الطرف الآخر من البركان.

تردّد. فشعرتُ بغضب يتملّكني:

- إنّك لن تتركها هكذا، فقط لإرضائهم؟

بحثتُ بحماسٍ شديدٍ عن آنيةٍ ودلاء. ثمّ اتّخذ جاك قراره:

- حسناً، سأرافقك.

اجتزنا سريعاً الأجمات وصولاً إلى المقبرة. ثمّ صعدنا منحدرَ الفوّهةِ الشّمالّي. كان جاك يتبعني بمشقّة مُثقَلاً بدلْويه، فكنت أسمع ورائي أنفاسه المتعَبة بسبب الرّبو. لكنّني لم أشعر بالشفقة نحوه. كانت الشمس لاذعة، وشفةُ البركان السوداء تنتصب جداراً من فوقنا. لم يكن يُسمع أيُّ صوتٍ، سوى ارتطام الرّيح في الصخور البركانيّة. بدا الأمرُ وكأنّني أعرف كلّ صخرة وشَقّ، وكلّ شجيرةٍ شائكة، كما لو أنّني مشيْت في هذا المشهد من الطّبيعة أعواماً وأعواماً، دون أنْ أتوقّف أبداً.

تسلّلْنا بصمتٍ بين الصخور، مثل لصَّين ذاهبَينِ لسرقةِ المياه المحرّمة من باليساد. لم أستطع إلّا أنْ أتصوّر الأمر على هذا النّحو.

ممّن كنّا نختبئ؟ من المستبدّ فيران وصاحبه، القابعَين في أنقاضِ المنارة مسلحَين بمنظارهما، وبمسدّسهما المرخّص وجهازهما الهيليوتروبِ المزيّف؟ أمْ مِن السّردار ومتعهّد عمّاله اللذَين يسيران على طول الشاطئ وفي يدِ كلّ منهما عصا، وفي عنقه صافرةٌ معلّقةٌ مثل تعويذة؟

لقد حوّلتنا الأيّام القليلة التي قضيناها في الكرنتينة إلى مجانين، نرتجف من أجل قليلٍ من الماء العذب، وقليلٍ من الأرزّ، ونترصّد ظهور الأعراض القاتلةِ على الآخرين، البقعِ على الوجنتَين والكدَمات، ونزيفِ الشّفتين، واتّقاد العيون من الحمّى. وحدَهم المنبوذون ظلّوا على طبيعتهم، أولئك الذين يحيطون ببيْت سورياقاتي، خدّامُ المحارق، من يتجوّلون ليلاً بأسمالهم السوداء، مثل أطيافٍ شبحيّةٍ لا تنتمي إلى أيّ عالم.

- انظر.

أطلعتُ جاك على سرّ الماء الذي يتدفّق بين البازلت، تحت غطاءٍ من أشجار النيّمِ الهنديّ والنبات المتسلّق والخطميّة. وكانت نبتةٌ داتورا ضخمةٌ بأجراسٍ ورديّةٍ تنمو فوق الوادي باسطةً ظلّها الكبير على الماء. المكان جميلٌ جدّاً حتّى أنّنا توقّفنا هنيهةً، دون أنْ نجرؤَ على الاقتراب. لا شيءَ يُرى عند ذلك الجزء السفليّ من الوادي الضيّق الشبيه بشقٍّ بين صخور البركان، غيرَ السّماء الزرقاء الداكنة، لا البحرُ ولا بلدة باليساد. وللحظةٍ هُيّئ إليّ أنّني في عزبة آنّا، فيما رواه لي جاك عنها، ذلك الوادي المظلم حيث كان الأطفال يستحمّون بالماء البارد صباحاً.

ولا بدّ أن جاك كان يفكّر هو الآخر في عزبة آنّا. ركعَ أمام النّبع، وخلع نظّارته، ثمّ مرّر يدَيه المبلّلتَين على وجهه طويلاً ومسّد شَعره. شربنا معاً، انحنَينا فوق الماء مثل حيوانينَ، وكان عذباً بارداً، وخفيفاً جدّاً في حلقَينا.

ملأنا الدّلاء، وتسلّقنا سفح الوادي عائدَين إلى الكرنتينة، وكان في تلك اللّحظة أنْ لمحتُ طيف سوريافاتي أسفلَ السّيل في ظلّ أشجار التورنفوريّة. كانت تقف ساكنةً، ووجهُها محتجبٌ بوشاحها الأحمر الكبير. وكانت تنتظر، كأنّها تريد أن تسألَني شيئاً. تركْتُ دلاء الماء على الأرضِ لأركَض نحوها، لكنّ جاك صاحَ عليّ بصوت غاضبٍ قَلِقٍ أوْقفني: «ليون!». ثمّ أردف قائلاً: «ليون! سوزان تنتظرنا، فلنسرع!» وما هي إلّا لحظةٌ حتّى اختفت سوريا.

لم نكن قد تحدّثنا أنا وجاك عن سوريافاتي قطّ، لكنّني أعرف أنّه يعرفها. ولا بدّ أنّه يعرف أيضاً أنّها ابنة أنانتا، تلك المرأةِ الغامضة التي تحكم بلدة المنبوذين في الطّرف الآخر من الجزيرة، قالت لي سوزان ذات مرّة ممازحةً «راقصتُك الهنديّة». هكذا تُسمّيها، لكنّني أحببتُ هذه التسميةَ كثيراً. أعتقد أنّها تليق كثيراً بسوريا، فهي رشيقةٌ مثلها، ومثلَها جميلةٌ أيضاً. ولا بدّ أنّ المسنّ ماري قد تحدّثَ عنها وعن أمّها، وعن بيوت المنبوذين حيث كنت سأقضي تلك اللّيلة.

ممَّ؟ ممَّ يخافون؟ كان جاك يمشي سريعاً متخبّطاً بين الشجيرات، فيتعثّر بالحجارة ويسكب نصف الماء. ثمّ لحقتُ به عند خليج الأضرحة، فوجدته جالساً في المقبرة، وعلى جانبَيه دلوا الماء. بدا مُنهكاً، بلحيته المُهمَلة وشعره الطويل الملتصق بعنقه، وقميصه الممزّق

وحذائه الذي ارْمَدّ لفرطِ ما تغبّر. إنّه الآن أشبه بروبنسون في جزيرته.

- ألستَ بخير؟

- بلى، بلى، أنا بخير. لكنْ أريد أنْ أرتاح قليلاً.

أتذكّر أزمته الصحّية الأولى في شتاء عام 1881 في باريس، عندما مرض والدنا وذهبنا للعيش مع العمّ وليام. كان جاك يختنق، استفقتُ ليلاً على صوت نفَسه القويّ. لفّته العجوز ماري، خادمةُ العمّ، ببطّانية، وجعلَته يستنشقُ الدّواء ذا الخلطة السحريّة، مزيجاً من القثّاء الهنديّ ذي الرائحة الكريهة والريحان، كانت قد جلبته معها من موريشيوس، ثمّ أخذَت تفرك ظهره. كان شاحباً جدّاً، فاغرَ الفم مثل سمكةٍ تختنق. خفتُ كثيراً عليه. وأتذكّر ما أخبرني به لاحقاً: قال إنّه أرادَ أنْ يضحك لمّا قُلتُ: «لا أريده أن يموت، لا أريده أن يموت».

جلستُ إلى جانبه على أحد القبور. البحر الأزرق الدّاكن أمامنا، والأمواجُ تنساب بهدوءٍ على حاجز الفوقس[1] في قاع الخليج، ورائحةٌ قويّة مُسكِرة تعبق من حولنا.

- عليك أنْ تأتيَ معي إلى باليساد. إنّهم بحاجة إليك. أنت الطّبيب الوحيد، وهناك الكثير من المرضى، ليس لديهم دواء، ليس لديهم شيء.

لم يردّ على الفور. مسح نظّارته في حركةٍ آليّةٍ بمنديله المُتّسخ، دون أنْ يحترس من زجاجها الذي كسره المحتجّون في ذلك اليوم.

- أجل، أعتقد أنّني يجب أن أذهب إلى هناك. ثمّ نهض وتناول دلوَيه، وواصل السير نحو الكرنتينة.

(1) نبات أخضر خفيف يقذفه البحر.

لمّا رأت سوزان الماء، جثت على ركبتَيها وغمست يدَيها في الدّلو وغسلَت وجهها وما وراء أذنَيها بعناية، ثمّ مسحت بطرف فستانها على صدرها وتحت ذراعَيها. كانت شاحبةً هزيلة. قال جاك:

- إنّه نبع. عند الهنود نبعٌ بالقرب من باليساد. عليكِ أنْ تذهبي لرؤيته حين تتعافين، ليون سيصحبك إليه.

- أين هو؟ هل هو بعيد؟ أودّ الذهاب إلى هناك حالاً.

كانت تنتفض من الحُمّى. أجبرها جاك، بإيماءاتٍ بالغةِ اللّطف، على العودةِ إلى الفراش، متحدّثاً إليها كأنّها طفلة:

- ليس بهذه السرعة يا عزيزتي. فهو بعيد جدّاً، والشّمس لاهبة.

فقالت بعينَين دامعتَين:

- من فضلك. فأنا في أمسّ الحاجة إلى ذلك، أنت لا تعرف. أحسّ بشيءٍ كالنّار في أعماقي. أؤكد لك أنّني أستطيع المشي، خذني إلى هناك.

لم أستطع تحمّل صوتها المتوسّل ودموعها. فأشحْتُ ببصري بعيداً نحو الباب. ثمّ قُلت:

- سأحضر لك دلواً آخر إنْ شئتِ.

فغلبها البكاء:

- كلّا لا أريد. ما أريده هو أنْ أذهب إلى هناك وأرى النّبع. سأموت إنْ لم أفعل.

تشبّثَت بقميصِ جاك، متراجعةً كأنّها على وشك السقوط إلى الخلف. أعطاها جاك الكينين لتشربه، ووضع قطعةَ قماشٍ مبلّلة على

جبهتها. كانت ترتجف. ثمّ ذهبَت إلى فراشها وأغمضَت عينَيها. جلس جاك بجوارها والقماشةُ المبلّلة في يده. وقد بدا عليه التّعب.

وسمعتُه يتساءل هامساً: «متى سيأتون لنقلنا؟» ثمّ يجيب في الوقت ذاته: «لن يأتوا أبداً!» كان صوته مكتوماً، يخلو من الغضب. ثمّ أوْمأ إليّ بأنْ أتوقّف عن الكلام. غطّت سوزان في النّوم. كان قد خلط لها صبغة الأفيون بمسحوق الكينين، كي يخفّف آلام الحمّى المتصاعدة.

غادرتُ بهدوء. في الخارج، كانت الشمس تضيء جدران بنايات الكرنتينة السوداء المواجِهة لجزيرة غابريال، فبدت كأنّها أبراجُ مراقبةٍ قديمة.

تراجعت الشمس، وغطت الغيوم السّماء شيئاً فشيئاً. كنت في مقدّمة القارب الذي كان يجتاز البحيرة المتضخّمةَ بفعل المدّ. شغل جاك وجوليوس فيران المقعدين، وأخذ ماري المسنّ يدفع المُردِيّ ببطء. كان وجهُه المتآكل من الجدري خالياً من أيّ تعبير، وبصره المُغبّش مرفوعاً نحو السماء، مثل ضرير. وكان يمضغ بلا توقّف ورقة التنبول التي أدمَت لثّته. لا نراه يأكل أو يشرب أبداً. ولعلّه لا يقتات سوى على جوز الفوقل (النّخل الهنديّ) الملفوف في ورقته الخضراء الداكنة، كنزِهِ الوحيد المُخبّأ في حقيبته الصّغيرة البالية التي تلازمه أينما ذهب، مانحةً إيّاه هيئةً ظريفةً؛ هيئةَ تاجر رحّالةٍ غرقت سفينته. يقول جوليوس فيران إنّه يشرف على عمليّاتِ تهريبِ بضائع غير شرعيّة إلى جزيرة غابريال، مثل التّنبول والحشيش والكحوليّات التي يسلّمها له الصيّادون في موريشيوس ليلاً، ويبيعها بالمُفرّق.

كان هـذا العبّـار المسـنّ، واقفـاً في مؤخّـرة القـارب، وإحـدى قدمَيـه عـلى الحافـة، يضغـط عـلى المُـرديّ طويـلاً كـي يدفـع الجؤجـؤ إلى الأمـام، منحرفـاً بـه قليـلاً ليحـاذي الشّـعاب المرجانيّـة. لم أكـن قـد عـدتُ إلى الجزيـرة منـذ اكتشـفتُ فيهـا، في ذلـك اليـوم، آثـار المحرقـة التـي التهمـت جثتـيّ نيكـولا والسـيّد تورنـوا. وحـين طلبـتُ مـن جـاك الإذن بمرافقتـه، رفـض جوليوس فـيران في البدايـة، قائـلاً إنّ جزيـرة غابريـال ينبغـي أن تظـلّ مقتـصرةً عـلى المـرضى الذيـن لا أمـل في شـفائهم وعـلى مـن يتولّـون رعايتهـم. هـزّ جـاك كتفَيـه وأذن لي بالقـدوم. وشـدّد علـيّ قائـلاً: «يجـب ألّا تدخـل المخيّـم، فهـذا أمـرٌ بالـغ الخطـورة».

انسـاب القـارب رويـداً عـلى الميـاه الشّـفيفة، الزرقـاء والرماديّـة. كنـت منحنيـاً إلى الأمـام أشـاهد الشّـعاب المرجانيّـة تتتابـع كالغيـوم. كانت مسـيرةً طويلـةً جـدّاً، كأنّهـا عبـورٌ بـين عالمـين.

عرفـتُ بمشـقّةٍ ملامـحَ الجزيـرة. لم ألمـس تغيـيراً حقيقيّـاً، لكـنْ ثمّـة شيءٌ مختلـفٌ تعـذّر علـيّ فهمـه. ربّـما لأنّ العـمّال قـد نظّفـوا الـدّرب المفـضي إلى صهاريـج الميـاه. ولمّـا دنونـا مـن الأكـواخ، أقبل هنـديٌّ للقائنـا. فإذا بـه الرّجل نفسـه الـذي حسِبته مـن قبـلُ متعهّـد العـمّال لـدى الشّـيخ حسـين، رجـلٌ طاعـنٌ في السّـن، نحيـلٌ لا يرتـدي سـوى قطعـة ثيـاب واحـدة يربطهـا مثـل مئـزر، أسـودُ حليـق الـرأس، طُبعـت عـلى جبينه علامـةٌ كبـيرةٌ بصبغـة المُغرة. أمّـا الملمـح الحديـث الوحيـد في هيئته فهـو ارتـداؤه نظـارةً فولاذيّة بعدسـتَين دائريّتـين، منحَـت عينَيـه تلـك النظـرة الحـادّة لطائـر هَـرِم. إنّه راماسـاومي.

حدّثـه جـاك في البدايـةِ بالكريوليّـة: «Ki ou fer?» (كيـف الحـال؟). فـردّ عليـه المُسـنّ بلغـةٍ إنجليزيّـةٍ ممتـازة. اقـتربَ جـاك وفـيران مـن المخيّـم.

كانت خيمةٌ من الكتّان المشمّع قد نُصبتْ إلى الشّمال من الكوخ، محاطةً بالشّجيرات والصخور ومشكّلةً ظُلّة. قال راماساومي إنّ الحرّ شديدٌ أثناء النهار، حتّى أنّ المرضى ينقلون أسرّتهم إلى ظلّ الخيمة لاستنشاق بعض الهواء.

ورغمَ الحظْر، مررْتُ من أمام الحارس، ودخلتُ إلى الظلّة دون أنْ ينتبه لي. فقد كان مُنهمكاً بتسخين الماء في قدرٍ سوْداءَ نُصِبَتْ على أثافٍ. كانت عشرةُ أجسادٍ، أكثرَ أو أقلّ، تستلقي تحت الخيمة، رجالٌ ونساءٌ يتكئ بعضهم على مِرفَقه ناظراً إلى الأمام، فيما يتلفّع بعضهم الآخر بملاءاتٍ مُبقّعة، كأنّها أكفان. رأيت الوجوه المتورّمة والشفاه المسودّة والكدمات. وكانت رائحةٌ كريهةٌ تنبعث مع كلّ هبّةِ ريح، رائحةُ موت.

كانوا هنوداً كلّهم. ولمّا ولجتُ إلى البيت مجتازاً الظلّة، فقدتُ البصر لبضع ثوانٍ، ثمّ سمعتُ أنفاس جون البطيئة، عرفتها من فوري، إنّه الصّوت نفسه الذي كنت أسمعه ليلاً في الكرنتينة قبل أن يغادر. سرتُ داخل الكوخ، فإذا بصوت فيران الفاسد ذي النبرة البغيضة يرنُّ من خلفي. إذ صاح قائلاً: «توقّف! لا تذهب أبعد من ذلك!» تابعتُ سيري. فلمحتُ ملاءتَين لاحتا في الغبش الخانق بقعتَين شبحيّتَين.

كانا هناك، جنباً إلى جنب: جون ميتكالف مُمدّداً على الأرض. وجهُه مثل قناع، ونظرته تشعّ بلَهبٍ غريب يُذكّر بالجنون. كان رأسه الثقيل مائلاً إلى الوراء، وفمه المتورّم يسحب الهواء ببطءٍ فينبعث منه صوْتٌ أشبه بتمزيق قماشةٍ. وقد تشقّق جِلدُ جبهته وصدرِه ويدَيه في بعض المواضع مخلّفاً نُدباً. ثمّ لمحتُ سارةَ إلى الخلف منه. وجهها

متشنّجٌ مثله، وعيناها نصف مفتوحتينَ قد انطفأ بريقهما. كانت متكئةً إلى الجدارِ لا تبدي حراكاً، فظننتُ للحظةٍ أنّها ميّتة. ثمّ رأيت صدرها يرتفع كأنّها تتنهّد. لم تكن مريضةً وإنّما شاردة الذّهن.

تراجعتُ ببطء. شعرتُ بالدوار وتخيّلت أنّي سقطت، فأمسكَني جاك وقادني إلى الخارج. ساعدني في الجلوس على صخرةٍ، وأسندتُ ظهري إلى أحد أعمدة الخيمة. «سيموتون... سيموتون...» هذا كلّ ما أمكنني قوله. أقبل جوليوس فيران. رأيت حذاءه المغبرّ أمامي. كنت أكرهه كما لو كان متورّطاً على نحوٍ ما بما حدث لجون وسارة. كأنّه منبع ذلك الشرّ.

لم يقل جاك شيئاً. قادني إلى الشاطئ الأبيض حيث يرسو القارب. فترك ماري المسنُّ ظلّ الكزورينة كي ينقلني إلى الطّرف الآخر. شعرت باشمئزازٍ شديدٍ من نفسي، بل حتّى بالغثيان، إذ خانَتني الشجاعةُ فلمْ أقوَ على مواجهة الواقع. تقدّم القارب عبر البحيرة ذات الزّرقةِ المُشعّة، تحت دوّامةِ طيور رئيس البحر في غدوّها ورواحها المُهتاجَين.

بدت ليَ البيوت السوداء في الكرنتينة أشدّ وحشةً وعدوانيّةً من ذي قبل. فقد ألهبَت الشمس الساطعة جدران البازلت، وجفّفتْ أشجارَ الكاذي والصبّار في الأجمات المحيطة. ما من نبتةٍ مألوفةٍ هنا، ما من زهرةٍ ولا شُجيرة عَطِرةٍ. لا شيءَ سوى أوراق الدّيداء الكثيفة، التي تضغط وتخنق مثل الحيوانات.

سرتُ نحو البيوت وأنا أفكّر في بلدة العمّال وأكواخ المنبوذين على الطرف الآخر من الجزيرة، بطرقاتها النّظيفة، وحدائقها المزروعة بالحبق

والبطاطس والقصب وقرع الشايوت والبامية، وبمزارع النخيل وجوز الهند أعلى البلدة. وأحسستُ أنّ موطني هناكَ، لا هُنا في هذا المكان البريّ المهجور، الشبيهِ بمعسكرٍ مؤقّتٍ لناجين من الغرق أبديّين.

كانت سوزان تنتظر في الكوخ المعتم، وتتّطلع نحو الضّوء المتسلّل من الباب. نظرَت إليّ وكأنّها لا تعرفني. وقالت بصوتٍ أجشّ غريب: «هل هم هنا؟ هل حضروا؟» بدت وكأنّها لا تعرف بالضبط عمّن تتحدّث، وكرّرت في انفعالٍ: «حسناً، أجِبني! هل جاؤوا لاصطحابنا؟ أخبرَني جاك أنّ...».

ثمّ سكَتت. كان صوتها ثقيلاً، فقلتُ في نفسي إنّها صبغة الأفيون. ثمّ بدأَت جملةً أخرى: «الهنود ليسوا خدّامنا ولا عبيدنا». ولم أفهم ما قصدته.

إنّها لا تختلف عن جاك وبارتولي وفيران، فهي تنتظر فقط عودة القارب، ولا تتوقّف عن التفكير في الأمر، هذا هو الأمر الوحيد الذي يعنيها، أن تهرب، وتبتعد عن كلّ شيء. وهذا ما كان يتقّد في عينَيها: حمّى وجنون.

ولمّا رأتني لا أحير جواباً، استوت جالسةً، فتبدّت عُنُقها الرّفيعة بشريانَيها المشدودَين، والتمعت عيناها بشيءٍ من الكراهيّة لم أصدّق أنّها قادرةٌ عليه، كما لو كنت أنا من يقف حائلاً بينها وبين من سيأتون لاصطحابها.

- أنت لا تفهم، لا يمكنكَ... أنت، لا يهمُّكَ، لا تعرف ماذا يعني أن يكون جاك سجيناً هنا، وأنْ يكون عاجزاً عن تقديم أيّ شيءٍ لمَن يعانون مِن حوله. أنتَ، لا تفكّر إلّا في

تلـك الفتـاة، تلـك الهنديّـة، أنـت تخونـنا معهـا، تخـون جـاك معهـا. إنّهـا تكرهنـا، تريـد لنـا المـوت!

وانفجـرت باكيـةً، ربّـما خجـلاً ممّـا قالـت، ثـمّ اسـتدارت نحـو الجـدار، فلـم أعـد أرى سـوى كتلـة شـعرها المتشـابك المتلبّـدِ مـن فـرطِ التعـرّق. وسـمعتُ صـوت أنفاسـها المختنقـة. لم أعـرف مـاذا أفعـل، فخرجـتُ متقهْقـراً بهـدوءٍ، وطيـفُ سـوزان يتلاشـى في الضـوء الخافـت رويـداً رويداً، حتّـى لم يعـد سـوى بقعـةٍ شـاحبةٍ عـلى الجـدار الأسـود.

كانـت الشـمس تصـبُّ أشـعتها عـلى أوراق الـكاذي الحـادّة، وعـلى الصخـور والبحـر، وفي البعيـد كانـت تطفـو الجـزرُ العتيقـةُ التـي تشـكّلت مـا قبـل الطوفـان الأعظـم: جزيـرة رونـد، وجزيـرة أو سـيربان، وجزيـرة غابريـال. انتابنـي شـعورٌ بالوحـدة والضّيـق، ولم يعـد في وسـعي البقـاءُ في بنايـات الكرنتينـة. أردْتُ أنْ أكـفّ عـن التفكـير بجـون وسـارة ميتكالـف، وبالأجسـادِ المتلفّعـةِ بأغطيتهـا تحـت الظلّـة. ومـا عـدتُ راغبـاً في مواجهـة نظـرة جـاك الباهتـة، خلـف نظارتـه الزجاجيّـة المكسـورة، ولا أن أرى عبوتـه الأزليّـة مـن مطهّـر الكوندويـز السـائل. ركضـتُ بأقـصى سرعـةٍ عـلى طـول الشـاطئ نحـو المقـبرة المهجـورة. وعزمـتُ عـلى أنْ أواصـلَ الـدّرب حتّـى الكهـف.

أُحـبّ وقـت المسـاء في خليـج باليسـاد، لحظـةَ تعلـنُ صافـرة السـّردار نهايـة اليـوم، ويصـدح صـوت الأذان، وتشـعّ السّـماء بلـونٍ أصفـر. هـي لحظـة هـدوءٍ عظيـم، أشـبهُ مـا تكـون بالسّـعادة، أودّ أنْ أنسـى فيهـا كلّ شيء، وأشـعر برغبـةٍ قويّـةٍ في أن أتقاسـمها مـع جـاك وسـوزان، كـما لـو كنـا معـاً عـلى شـاطئ هاسـتينغز، نشـاهد اللّيـل وهـو يرخـي سـدوله عـلى البحـر. أودّ

أن أقتلعهما بعيداً عن جدرانِ الكرنتينة السوداء ومن جزيرةَ غابريال، هما، وجون وسارة- وحتّى بارتولي وفيران البغيض.

لمَ يحبسون أنفسهم؟ ولماذا اخترعوا القوانين والمحظورات التي تحرمهم هذه السّكينة؟ الآن أدرك أنّنا احتجزنا أنفسنا بأنفسنا، ولا يدَ لأحدٍ غيرنا في ذلك. لا علاقة للإنجليز بهذا، وإشاراتُ فيران من أعلى قمّته، مسلّحاً بجهازه الهيليوتروب ومنظاره، لم تجلب أيّ تغيير أو تعديل. إنّ خوفنا هو الذي يحتجزنا على هذه الصخرة، وهو الذي يعزلنا. وكلّ مريضٍ جديدٍ يعيدنا خطواتٍ أخرى إلى الوراء، ويُطيلُ لسانَ البحر الذي يفصلنا عن موريشيوس. على أنّني لا أستطيع في الوقت ذاته أن أنسى ما اقترفَته تلك الأقليّةُ الحاكمة، أعضاء الحكومة الجماعيّة أولئك الذين أنشؤوا هذا المخيّم كي يحبسوا المهاجرين فيه. والآن أصبح جوليوس فيران أداةَ العمّ أرشمبو ورسوله. ربّما لن نرحل من هذا المكان أبداً، وربّما قد حُكِمَ علينا بالعيش فيه حتّى يومنا الأخير، منقسمين بين هذه الحدود المصطنعة، بين خطابات هذا الجوفاء، وصافرات ذاك. وما الذي سيكونه فيران والشّيخ حسين إنْ نحنُ رحلنا؟ لا شَيء على الإطلاق، سيعودانَ ما كانا عليه من قبل، الأوّلُ حارسٌ بحريّ عند أصحاب مصانع السّكّر الأثرياء في موريشيوس، والثّاني راكبٌ من بين ركّابٍ آخرين على متن باخرة مِساجيري، «ثمرةٌ جافّةٌ» ومغامرٌ فاشلٌ يتحاشاه الجميع.

ما إنْ اجتزتُ الأجماتِ فوق المقبرة القديمة، وعبرتُ حقل الحجارةِ البازلتيّة تحت شفة البركان، حتّى وجدتُني فجأةً في بيتّي، في موطني الذي طالما حلمت به، عالمِ سوريافاتي الذي أرى فيه أوّل ما أرى

الأدخنةَ ومواقد الجمرِ، حيث تُخبَز فطائرُ العدس، وتُطهى قدور الأرزّ، وتعبقُ رائحة الحبق والكزبرة، وكذا رائحة خشب الصندل في المحارق. ثمّ أسمع الأصوات: تصايُح الأطفال ونباح الكلاب وثغاء الجديان في الحظائر. وأعرف جيّداً أين هي سوريافاتي. فإلى الجنوبِ من جرفِ البركان، وعلى مبعدةٍ من الدّربِ، يقع كهفنا. هنالك في وِسعنا أنْ نرى دون أنْ نُرى، بعيداً عن مرمى بصرِ السّردار، وعن العدسة التي يراقب بها المستبدّ حدوده الخياليّة.

إنّه كهفٌ سحريّ. هذا ما قالته لي سوريا حينَ حدّثتني عنه أوّلَ مرّة. وهو تجويفٌ منحوتٌ في البازلت، يحميه جدارٌ من نبات الحشف والشجيرات الشائكة. وقبل الولوج إليه، تُقدّم سوريافاتي القرابين للإله ياما سيّد الجزيرة، ولأخته يامونا. فتضع في ورقةِ شجرٍ كعكاتِ الأرزّ وفطائرَ العدس، أو قطعَ جوز الهند التي تفركها بالفلفل الحارّ. تقول إنّه يجب الخلط دوماً بين الحلو والحارّ، وبين العذب واللاّذع، حتّى يكون القربان جيّداً. يأتي الإله ياما من العالم الآخر عبر فوّهة البركان، وفي كلّ ليلة تمرّ رسولته الخفيفة مثل نسمةٍ، فتقشعرّ أبداننا. وقد أحسستُ بهذا أوّل ليلةٍ جلستُ فيها قرب المحرقة، حين رسمَت سوريا على وجهي علاماتٍ برماد الموتى، فلم أعد أخافهم.

جلستُ مع سوريا عند مدخل الكهف نشاهد دخان المحارق المتصاعد في وجه الشمس. البحر معتمٌ أرجوانيّ، والأفق يشقّ السماء المُبهرة.

هنالك على الدّوام بعض خفافيش تخرج من الكهف متدافعةً. ويبدو لي أنّ رؤيتها لم تسعدني يوماً بقدر ما تفعل الآن. يستهويني

الشّفق حينَ أتأمّله من هذا التجويف، في ظلّ خليج باليساد، ويدُ سوريافاتي الناعمة القويّة في يدي، فأشعر بدفئها يسري في راحتي ويتغلغل في كامل جسدي.

حدّثتني يومها عن يوم ميلاد أمّها، حينَ غطّستها جدّتها في مياه نهر يامونا لتغسلها من دماء ضحايا كاونبور. في ذلك اليوم وهبَتْها اسمَها، ونطقته عدّة مرّات، أنانتا، أنانتا، أيّتها الأبديّة! تُردّد سوريافاتي هذا الاسم بلا كَلَل، وتقصّ الحكاية عليّ، مثلما قصّتها أمّها عليها، ومن قبلُ جدّتها على أمّها، الحكايةَ الأصدق والأجمل في العالم.

- جدّتي جيري ما زالت تحيا هنا، فحين أحرقوا جسدها، ظلّت روحها هنا على هذه الجزيرة. لذلك أرادت أمّي أن تأتيَ إلى هنا مثلها، والآن هي على أبواب الموت.

قالت ذلك بلا مبالغةٍ، وببساطةٍ تامّة. وكانت هذه أوّلَ مرّةٍ تتحدث فيها عن موت أمّها.

- لِمَ تقولين هذا؟ أمّك لن تموت.

نظرَت سوريافاتي إليّ. وقد التمع في عينَيها بريقٌ حادّ. ثمّ قالت بنبرةٍ ساخرة:

- ماذا، ألم ترَ بنفسك؟ إنّني متيقّنةٌ من أنّ أخاك الطبيب سيعرف هذا على الفور. فأنتم، أيّها السّادة البيض، تستطيعون رؤية هذه الأشياء جيّداً.

- ماذا تقصدين؟

- أمّي مريضةٌ منذ سنوات، والمرض ينهش أحشاءها. أخبرها الطبيب في مشفى بور لويس أنّه ما من شيءٍ يمكن فعله. قال

إنّ أمامها بضعة أشهرٍ فقط. ذهبتُ لزيارة مداوٍ بالأعشاب، فشرِبَ جُرعةً من البهانغ(1) ثمّ كرّر ما قاله لها الطبيب. لكنّه أعطاها أيضاً بعض أوراق الشّجر لتخفّف آلامها. حدث ذلك العامَ الماضي. فأرادت أنْ تأتيَ إلى الجزيرة، لتكون بجوار أمّها، وتلقاها بعد وفاتها.

بدأَت العتمة تجتاح الكهف. فأشعلَت سوريا مصباحاً أرضيّاً صغيراً.

- وأحضرَتْكِ إلى هنا؟

- لم تكن تريد منّي أن آتيَ معها. أرادت أن أعود إلى الرّاهبات في ماهيبورغ، هنالك حيث نشأت. لكنّني أردتُ مرافقتها. فكما ترى، ليس لها ابن، وسأكون أنا من تشعل محرقتها حين تموت.

سارت إلى حافة الجرف، لتطلّ على بلدة باليساد. ثمّ قالت فجأةً بنبرةٍ قَلِقة:

- أنتَ وحدَكَ من يعرف بالأمر الآن. أمّي لا تريدني أن أتحدث عنها. فهي لا تريد أن تُؤخَذ إلى الجزيرة. لن تخبرَ أحداً، أليس كذلك؟ لن تؤذيَها؟

أمسكتُ بيدها بدوري، وضممْتُها بشدة. تأمّلتُ وجهها وجبهتها المستقيمة التي تبدو مليئةً بمعرفةٍ غامضة. وقلت جادّاً:

- كلّا يا سوريافاتي، لن أخبرَ أحداً.

ربّما كانت تتحدّث إلى نفسها، دون أنْ تنتبه إليّ:

---

(1) Bhang : خلطة غذائيّة في شكل شرابٍ أو مسحوق تُحضَّر من أوراق القنّب الهنديّ (الحشيش).

- كـم أودّ أن أعـرف مـن هـم والداهـا الحقيقيّـان، الإنجليزيّـان اللّـذان قُتـلا في كاونبـور. مـا اسـمهما، ومـن أيـن أتيـا؟ هـذا هـو الـشيء الوحيـد الـذي ينقصنـي. يبـدو الأمـر كأن جـزءاً منّـي قـد مـات إلى الأبـد. أودّ لـو ...

لاحظـتُ أنّهـا تبكـي في صمـتٍ، سـاكنةً. وضعـتُ ذراعـي حـول كتفَيهـا وعانقتهـا. لم أكـن أعـرف مـاذا أقـول لأواسـيَها. قلـتُ كلمـةً أعرفهـا باللّغـة الهنديـة، «بِهِـن»، «أخيّتـي»، فأضحكتُهـا. ابتعـدت عـن الحافـة وأمسـكت بيـدي.

- تعالَ، علينا النّزول قبل حظر التّجول.

ولـمّـا وصلنـا باليسـاد، تخلّفـتُ عنهـا قليـلاً حتّـى لا يرَونـا معـاً، اعتقـدْتُ أنّ هـذا مـا تريـده. فقالـت لي:

- والآن؟ ماذا تنتظر؟

كانـتْ أوّلَ مـرّة ندخـل فيهـا البلـدة معـاً. سرنـا في الشـارع الرئيـسيّ، سـوريا بقامتهـا المسـتقيمة ومِشـيتها اللّامباليـةِ الشـامخةِ نوعـاً مـا، عـلى طريقـةِ الغجـر في شـوارع مرسـيليا، بوشـاحٍ أحمـرَ كبـيرٍ يهفهـف على شـعرها وكتفَيهـا، وسـترةٍ قصـيرةٍ تُظهـر بـشرة خصرهـا الدّاكنـة، وتنّـورةٍ طويلـة مبرقشـة لوّحتهـا الشـمس. كانـت حافيـةً وكاحلاهـا الدّقيقـانَ مطوّقـان بخلخالَـين مـن نحـاس، وأنـا في ظلّهـا، خلفَهـا مبـاشرةً. إنّنـي لم أمـشِ مـن قبـلُ مـع فتـاةٍ بهـذا الجـمال، كان الأمـر أشـبه بعيـد. وقـد نسـيتُ مظهـريَ الجسـديّ: ملابـسيَ الممزّقـة المغـبرّة، وشـعريَ الطويـل جـدّاً والمتيبّـس مـن العـرق، والشـاربَ النّابـت عـلى شـفتي، ووجهـيَ الـذي لوّحتـه الشـمس كـما لوّحـتْ ذراعَـيّ.

وقـف النـاس أمـام البيـوت يشـاهدوننا نمـرّ. عرفـوا سـوريافاتي، ابنـة شريـماتي[1] أنانتـا. نـادوا عليهـا، ومازحَتهـا النسـاء الثرثـارات ببعـض النـكات، فأجابتهـنّ سـوريا بالطريقـة ذاتهـا. وكان صِبيـةٌ يتبعوننـي ويمسـكون بقميـصي وهـم يصيحـون: «جنـاب»[2]، فـإذا التفَـتُّ اختفـوا ضاحكـين. تظاهـرت سـوريا بأنّهـا سترشـقهم بالحـصى مثـل الجديـان. فتبعونـا مـن بعيـدٍ إلى آخـر البلـدة، عـبر المحـارق، ثـمّ تركونـا عنـد مدخـل حـيّ المنبوذيـن.

في ذلـك المسـاء، وللمـرّة الأولى أيضـاً، اصطحبتنـي سـوريا إلى بيتهـا. كنـت قـد مكثـت عـلى الشـاطئ، كالعـادة، في انتظارهـا، لكنّهـا أخذتنـي مـن يـدي ومضـت بي إلى البيـت. وهـو بيـتٌ مـن غرفـةٍ واحـدةٍ ضيقـة، جدرانُهـا مـن صخـور بركانيّة وسـقفُها مـن سـعف النخيـل، بالغَـةُ النظافـةِ والترتيب. ثمّـةَ مذبـحٌ صغـيرٌ وُضـعَ فـوق صنـدوقٍ عـلى يمـين البـاب، ومعـه صـورةٌ زرقـاء وحمـراء تمثّـل التريمـورتي[3]، أُشـعِل أمامهـا قنديـلٌ صغـير. أرضيّـةُ الغرفـة مفروشـةٌ بحصـيرةٍ مـن خيـوط الـكاذي، وتتـدلّى مـن السّـقف، في عمقهـا، ناموسـيّةٌ بيضـاء كبـيرةٌ هـي علامـة الرّفاهيـة الوحيـدة في البيـت.

دعتنـي سـوريا إلى الجلـوس عـلى الحصـيرة. في الخـارج، كانـت أنانتـا تجلـس متربّعـةً أمـام الموْقـد، تطهـو الأرزّ وتقلّـب فطائـر العـدس عـلى الصّـاج. ذهبَـت سـوريا لتنضـمّ إليهـا. وسـمعتها تتحدّثـان، تـارةً بالهنديـة،

(1) كلمة هنديّة تعني السيّدة.

(2) كلمة هنديّة تعني السيّد المبجّل.

(3) صورة تمثّل الثالوث الهندوسيّ أو الثالوث الأعظم الذي يجمع آلهة الوظائف الكونيّة: براهما، وشيفا وفيشنو، وفقاً للمعتقدات الهندوسيّة.

وتـارةً بالكريوليّـة، وتضحـكان بـين الفينـة والأخـرى.

تسـلّلَت عتمـة اللّيـل إلى البيـت فـازداد ضـوء القنديـل ألقـاً أمـام صـورة العمالقـة الثلاثـة بعيونهـم المُكحّلـةِ، والنّمـلُ الطائـر يحلّـق حولهـم راقصـاً. وتناهـى إليّ ذلـك الضّجيـج المألـوف: الأصـوات والضحـكات، ورائحـة الأرزّ والجمـر. ثـمّ جـاءت سـوريا لتقـدّم لي شـيئاً آكلـه، طبقـاً مليئـاً بـالأرزّ مـع قطـع الأخطبـوط في صلصـة الـكاري، وأوراق القلقـاس الحاذقـة الدّاكنـة، وجثـت عـلى ركبتَيهـا عنـد مدخـل البيـت تراقبنـي وأنـا آكل.

- ألا تشاركينني؟ وأمّك، ألا تريد أن تأكل؟

- إنّها ليست جائعة. تأكل القليل جدّاً الآن، مثل العصافير.

ولمّا أبقيتُ الملعقةَ على الطبق قالت:

- فلتتفضّـل أنـت. فأنـت شـابٌ بعـد، وأمّـي تقـول إنّـك شـديد النحـول، وإنّـك عـلى مـا يبـدو لا تـكاد تسـدّ رمقـكَ عنـد السّـادة البيـض. وتـرى أنّـكَ سـتحظى بقبـولٍ أكـبرَ في وسـطهم لـو كنـت أسـمن قليـلاً.

بـدتْ مُبتهجـةً، وعيناهـا تلمعـانْ. وكانـت بـين لحظـةٍ وأخـرى تعـود إلى الخـارج، فتغـرف مـن القِـدر مزيـداً مـن الأرزّ والصلصـة وقطـع الأخطبـوط، وتمـلأ طبقـي مـن جديـد، ثـمّ تسـكب الشـاي الأسـود في كـوبي.

- أمّي تسأل إنْ كانوا جميعاً مثلك نحيفين في إنجلترا.

ضحِكـتُ، ونسـيتُ كلّ شيء، الكرنتينـة وجزيـرة غابريـال، وحتّـى بـرج المراقبـة حيـث جوليـوس فـيران يراقـب حـدوده.

- في إنجلـترا، هنالـك نسـاءٌ يصُمـن عـن الطعـام ليصبحـن أكثـر رشـاقة، ويرتديـن مشـدّاتٍ ضيقـةً جـدّاً بحيـث تضطّـر الخادمات

إلى وضع إحدى ركبهنّ على ظهور سيّداتهنّ كي يربطْنها،
وأحياناً يخنقْن.

فتحَت سورياڤاتي عينَيها على اتّساعهما. هكذا أحبّذها، بتعبير البنت الصغيرة هذا على وجهها، وبشفتيَها اللتَين تكشفان عن أسنانٍ ناصعة البياض. بدا لي أنّها الأخت الصغيرة التي لم أحظَ بها يوماً، وكانت تنتظرني لأرويَ لها، وحدها دون سواها، حكاياتِ الجنيّات والأميرات الإنجليزيات، لأُنسيَها اللّيل في الخارج. ولهذا كنت أسميّها «بِهِن»، الاسم الذي يُضحكها، فتناديني بدورها باسميَ الذي يقطر عذوبةً، مادّةً المقطع الأخير: «بهاييي..».

في تلك اللّحظة دخلَت أمّها، منحنيةً تحت الباب، بدت صغيرةً هشّة، وجسدُها النحيف ملتفٌّ بالأوشحة. جلستْ على فراشها رافعةً طرف ناموسيّتها.

«تحدّثْ إليها بْهاي. أخبرْها بكلّ ما قلتَه لي، عمّا يحدث في لندن وفي باريس. تقول إنّها تتذكّر الحدائق، الحدائقَ الكبيرة، حيث تُعزف الموسيقى ليلاً. بعد لندن، اصطحبَتها أمّها إلى الهند، لأنّ أباها كان في صفوف الجيش، في مدينة كاونبور. حدِّثْها عن الحدائق الكبيرة. هذا ما تريد أن تسمعه».

حاولتُ التحدّث عن المتنزّهات، ونطقت الأسماء كلّها على مهلٍ، معتقداً أنّ ذلك سيعينها على التذكّر، مثل كلماتِ شِعرٍ غامض، وانحنت سورياڤاتي لتصغيَ جيّداً. وظلّت أنانتا ساكنةً.

- هايد بارك، كنسينغتون، هولاند بارك، سانت جيمس، حدائق كيو...

كانت عينا سوريافاتي تبرقان. صاحت قائلةً:

- أنا واثقةٌ من أنّ الأمر يتعلّق بأحد هذه الأسماء. إنّها تتذكره، وتقول إنّه مكانٌ كانت تُعزف فيه الموسيقى.

شدّتني نحو والدتها، وأجلستني أمامها. كانت أنانتا تنظر إليّ بعينَيها الغريبتَين الفاتحتَين جدّاً وسْط وجهها الدّاكن.

فسألْتُ:

- أيّ موسيقى؟ كيف كانت تلك الموسيقى؟

قالت أنانتا بضع كلماتٍ بلغتها، فأوضحَت لي سوريا:

- يصعب عليها أنْ تتذكّر، فقد مضى على ذلك زمنٌ طويل. قالت إنّها تتذكّر أنّ تلكَ الموسيقى لا يُمكنُك سماعها في أيّ مكان آخر، وإنّها موسيقى ملائكة.

ردّدْتُ في دهشةٍ:

- موسيقى ملائكة؟

تحقّقَت سوريافاتي من الكلمة.

- نعم، هذا ما قالته. تقول إنّها سمعتها مرّةً واحدة فقط، في حدائق لندن، ثمّ ركبت القارب إلى الهند.

ظلّت مائلةً نحوي تنتظر. حتّى أنانتا بدت وكأنها تنتظر، لكأنّه بفضل موسيقى الملائكة هذه سأعثر على مفتاح ذاكرتها، واسم أمّها وأبيها، ومسقطِ رأسها، وبيتها وعائلتها، وكلّ ما التهمتْه مذبحة كاونبور. لم أستطع الكذب، فقلت:

- لا أعرف. لم أسمع قطّ موسيقى كهذه في لندن أو في أيّ مكان آخر.

- حتّى في تلك الحدائق التي ذكرتَ أسماءها؟

شرحتُ لها أنّ لندن مدينةٌ شاسعة، بآلاف الشوارع، ومئات الآلاف من الأسماء. ولا يمكن للمرء أبداً العثور فيها على الناس الذين أضاعهم. غضبَت سوريافاتي، إذ لم تستطع قبول هذه الإجابة. وردّت عليّ بنبرة قاسية:

- أنتَ لا تريد مساعدتها، لا تريد مساعدتنا. مثلكَ مثل الجميع، لا تهتم ولا تريد أن أجد اسم عائلتي.

أمسكَت أنانْتا بيدها محاولةً تهدئتَها، وضمّتها إلى صدرها ومسّدت شعرها بلطف. هممْتُ بالمغادرة، لكنّها ردعتني. نظرت إليّ، وخاطبتني للمرّة الأولى بالإنجليزيّة، طالبةً منّي البقاء. كانت نظرتُها من الحزم بحيث لم أستطع إلّا أنْ أبقى. وأكثر من ذلك، فقد اقتنعتُ لحظتها بأنّها تقول الحقيقة، وأن كلّ شيء قد جرى وفقَ ما أخبرتني به سوريا. لقد فهمتُ أنّ كلّ شيء آخر كان صحيحاً أيضاً، وأنّ أنانتا قد جاءت هنا لتموت.

الطريقة الوحيدة للعثور على اسمَي جدّيكِ هي الذّهاب إلى لندن، إلى مكتب المستعمرات، والعثور على قائمةٍ بأسماء جميع من ماتوا في كاونبور أثناء الحرب.

كان هذا كلّ ما في جعبتي لمواساة سوريا. وقد أشرقَ وجهها لسماعه:

- أتعتقد أنّه يمكنني اصطحابها إلى هناك؟

لكنْ سرعان ما فتَرت حماستها فأردفت:

- كلّا، لندن بعيدةٌ جدّاً. ولنْ يكون في مقدورها الانتظار كلّ هذا الوقت، لن ترغب أبداً في الذهاب إلى هناك، بعيداً جدّاً. وإنْ هي فارقت الحياةَ، فبماذا يفيدني أنْ أعرفَ؟

شدّت على يدي، وزالَ الغضب من عينَيها.

- أنتَ حقاً بْهايْ، أنتَ حقّاً دوجي، «أخي الكبير».

كان اللّيـل مُدلهـماً، بـلا قمـرٍ، محتشـداً بالنجـوم. مشـيت مـع سـوريا عـلى الشـاطئ الضيّـق حتّـى رأس الجزيـرة. وكان حظـر التجـوّل قـد بـدأ منـذ وقـتٍ طويـل، لكـنْ ظـلّ بعـضُ النّـاس في الخـارج؛ نسـاءٌ يرتديـن السـاري، وأطفـالٌ يركضـون بـين الأكـواخ. وكانـت الـكلاب الجائعـة تحـومُ عنـد الأبـواب شـاكيةً.

أَرَتنـي سـوريا كلّ النقـاط المضيئـة في السـماء: الوسـيم شـوكرا (الزُّهـرة) جنـديّ الملـك رامـا في المنتصـف، وتريشـانكو (النجـم الثلاثـيّ) في كوكبـة الجبـار، والخطايـا الـثلاث، في غـرب المحيـط. وأرتنـي الموضـع مِـن السـماء حيـث تتجـلّى نجمـة روهينـي، والـدة الإلـه بالارامـا، التـي يسـميها البحّـارة نجـم الدّبـران.

كانـت تعـرف أشـياء مدهشـة، وتقولهـا ببسـاطةٍ بصوتهـا الطفـوليّ كـما لـو كنـت أعرفهـا أنـا أيضـاً، وكان علـيّ أن أتذكّرهـا: جانـو، الحكيـم الـذي شرب مـاء نهـر الغانـج، وداتـا وفيداتـا، العـذراوان اللّتـان ضفّرتـا حبْـل القـدر، والطائـر شـاتاك الـذي يتكلّـم في اللّيـل أحيانـاً دون أن يـراه أحـد، ولا يـشرب سـوى قطـرات النّـدى.

هبّـت الريـح عنـد رأس الجزيـرة، ومـلأت آذاننـا بنشـيدها الحـادّ. ولـمّـا دنوْنـا مـن صخـرة لوديامـو، سـمعنا هديـر الأمـواج المتكـسّرة عـلى الصخـور. كنّـا وحدنـا، عـلى جؤجـؤ سـفينةٍ سـوداء كبـيرةٍ تمـضي بنـا شـمالاً نحـو المجهـول.

جلسنا لائذَين بالصخور، بين شجيرات الحشف. كان مخبأً جميلاً، يعبق فيه من حولنا أريج النباتات الفلفليّة، وعلى شفاهنا طعم الملح. كنت أشعر بخفّةِ جسدها ودفء وجهها. أسندَت رأسها إلى تجويف كتفي. بحثتُ عن شفتَيها ووجهها، وكنت أرتعش بقوّةٍ حتّى أنها سألتني:

- أتشعر بالبرد؟

فقلت:

- لا بدّ أنّني محموم.

لكنّها كانت الرّغبة، والإحساس بوجهها وجسدها قريبَين منّي كلّ القرب. وضعتُ شفتي على شعرها. بحثتُ عن دفء عنقها، وأردتُ أن أتشرّب أنفاسها. فصدّتني بشيءٍ من القسوة، ثمّ قالت:

- ليس الآن..

ابتعدتْ عني، وفي الوقت ذاته بقيَت واقفةً أمامي، طيفاً لا يكاد يُلمَح. قالت:

- يجب أن أذهب إلى أمّي، إنّها متعبةٌ. وتنتظرني.

تردّدْتُ. كنت قريباً جدّاً من الحدود، على بعد خطوات قليلة من الدّرب الذي يعيدني إلى الكرنتينة، إلى جاك وسوزان. شدّتني سورياڤاتي من ذراعي، وكانت نبرة صوتها عنيفةً وغاضبة إلى حدّ ما:

- تعالَ، بْهايْ! ماذا تنتظر؟

ولمّا رأتني متردداً بعد، فقدَت نبرةَ صوتها الحازمة وتوسّلت إليّ:

- فلتأتِ يا بْهاي، ولتبقَ معي حتّى الصباح.

لم أعرف ماذا أريد، كنت أخشى الاختيار. لقد أحببتُ التجوّل بين الشجيرات ليلاً، متحديّاً مرسوم المستبدّ فيران، وصافرة الشّيخ حسين.

وأحببتُ تنشّقَ العطرِ في شَعرِ سوريا، والإحساسَ بخصرها الخفيف تحت أصابعي، وبراحتيها الناعمتَين كحجر مصقول، ودفء وجهها، وبالرغبة تهتزّ في كلّ ذرّةٍ من جسدي. ولا أدري لماذا خشيتُ فجأةً أن يصبح هذا كلّه راسخاً وحقيقياً أكثر ممّا ينبغي. كما لو أنّ هنالكَ حدوداً بالفعل، وأنّ عليّ أنْ أعبرها بلا رجعة.

سِرتُ إلى جانبها، يدي في حضنِ يدها، وأقدامنا تخطو على آثارها السابقة.

في تلك اللّيلة، نامت سوريا بجانب والدتها تحت الناموسيّة، ونمتُ أنا عند الباب مُلتفّاً بملاءةٍ ومستنداً رأسي إلى حَجَر، أصغي إلى الرّيح والمطر وهما ينهشانِ بمخالبهما سقف النّخيل.

25 يونيو، في باليساد

استيقظْتُ قبل الفجر، مع أنفاس البحر الباردة والشّقوقِ الورديّة الطويلة في السماء. ظننتُ أنّني سمعت في البعيد، كما في حلمٍ، صافرة السّردار تعلن استيقاظَ النساء وإشعال الأنوار، جاءتني من بعيدٍ جداً، محمولةً مع الرّيح كأنّها آتيةٌ من موريشيوس. ويا له من أمرٍ غريب! فالصافرة التي بدت لي كريهةً حين نزلنا جزيرة بلات، أصبحت الآن مألوفة لي ومُطَمْئِنة، مثلها مثل صرخات الطيور البحريّة حين تعبر البحيرة كلّ صباح، وأصواتِ الحياةِ حين تصحو في القرية.

عادت سوريافاتي من النّبع. كانت تمشي على طول الشاطئ حاملةً جرّة الماء العذب على كتفها اليُمنى. خرجَت بهدوء، بينما كنت لا أزال غافياً، خَدِراً من البرد متدثّراً بملاءتي. وصلَت إلى سفح البركان قبل

النســاء الأخريــات، وصعــدَت بمحــاذاةِ الشّــق حتّــى النّبــع. كان معظــم النــاس يتّجهــون نحــو الأســفل، حيــث يشــكّل التيّــار جــدولاً قــرب الشــاطئ، لكــنّ ســوريا كانــت تقــول إنّ الميــاه ليســت نقيّــة هنــاك.

كنــت أتأمّلهــا مــن خــلال البــاب. جثــتْ أمــام الأثــافي كــي توقــد النــار موليــةً ظهرهــا إلى الريــح، أمّــا أنانتــا فلــم تنهــض مــن فراشــها. مــضى وقــتٌ طويــلٌ وهــي حبيســة ناموســيّتها. أحــضرتْ لهــا ســوريا الشّــاي الســاخن.

وفيــما كنــت أشرب كــوبي، غــادر العمّــال الأوائــل إلى الخليــج كــي يتابعــوا بنــاء السّــدّ. ثــمّ دوّت الصافــرة الثانيــة، أقــربَ وأشــدّ. لا بــدّ أنّ ركّاب لافــا قــد اســتيقظوا الآن في الكرنتينــة، عــلى الطّــرف الآخــر، وألقــوا نظرتهــم الأولى التــي تُســائِل الأفــق مــن حيــث يُفــتَرَض أن يــأتيَ مركــب خفــر الســواحل. تلوّنــت الســماء بأصفــر شــديد الشّــحوب، وسرعــان مــا تجلّى قــرصُ الشــمس فــوق الدّغــل.

كنــت مــع ســوريا في الطريــق إلى المــزارع. يقــع حقــل أنانتــا إلى جانــب خليــج الأضرحــة، شرق المقــبرة. وكان الشــابّ الأبكــم ذو البــشرة الســوداء، المدعــوّ شــوتو، يمــشي أمامنــا ويحــثّ حيواناتــه عــلى الرّكــض مســتعيناً بالحــصى. لم أكــن أرى الجديــان لكنّــي ســمعتها تعْــدو عــلى خــاصرة الــبركان، وتقفــز فــوق حواجــز الأجــراف.

هــذه أوّلُ مــرّةٍ تطلــب فيهــا ســوريا منّــي أنْ أرافقهــا إلى الحقــول. ليلــةَ أمــسِ، روى المطــر التربــةَ، وكانــت آخــر قطراتــه تســقط عــن أوراق الحشــف. لكــنّ الســماء صافيــة، وفي ضــوء الصبــاح تبــدّت كلّ الأشــياء بوضــوحٍ اســتثنائيّ، يــكاد يكــون جارحــاً. كان جــرف الفوهّــة الســوداء ينتصــب جــداراً في وجــه الســماء. لا أحــدَ هنــاك. وغابــة الكزورينــة تقــف عائقــاً أمــامَ

نظـر المراقبَـين في أعـلى الـبركان. وحدهـا طيـور النّـورس وخطّـاف البحـر تعـبر فوقنـا، ولا وجـود لطيـور رئيـس البحـر. فليـسَ هـذا مجالهـا.

- انظر، هذه لنا.

أشـارت سـوريافاتي إلى وادٍ بـين صخـور البازلـت، تحـدّه أشـجار الكاذي مـن الجنوب.

- أمّـي هـي مـن زرعـت كلّ شيء. وقـد اختـارت هـذا المكان. تقول إنّ والدتهـا كانـت تعيـش هنـا، في هـذا الحقـل، قبـل أن تموت.

في البدايـةِ لم أر شـيئاً. هُيـئ إليّ أنّنـي كنـت أمـام الدّغـل نفسـه، وحقـلِ الحجـارة السـوداء نفسـه. لكـنْ لمّـا شرعنـا في الهبـوط، رأيـت الأسـوار الحجريّـة الخفيضـةَ والحوْطـات. كنّـا بعـدُ في التاسـعة صباحـاً، ومـع هـذا كانـت أشـعّة الشـمس لاسـعةً كألسـنة النّـار.

انكبّـت سـوريا على عملهـا. فلفّت وشـاحها الأحمر حول رأسـها وعينَيها، ومضـت تزيـل الحجـارة مـن أرض الحقـل. كان نبـاتٌ متسـلّقٌ يزحـف عـلى التربـة حامـلاً توتـاً أصفـر وأحمـر. أخـذت سـوريا تقطـف الثـمار وتضعها في سـلّة القشّ. والتفتـتْ إليّ:

- ساعِدني.

سألْتُ.

- ما هذا؟

نظرَت إليّ ذاهلةً.

- حسناً، إنّه تفّاح الحُبّ[1].

جثـوْتُ بجانبهـا لألتقـط الطماطـم الصغـيرة القاسـية مثـل رصاصـات. وإلى الأبعـد قليـلاً، أرتنـي ثـماراً أخـرى عالقـةً بـين أغصـان نبـاتٍ متسـلّق:

(1) من الأسماء التي تُطلَق على الطّماطم.

البامية. هنالك أيضاً الفلفل الشجريّ، ومجموعة متنوعة من الباذنجان البريّ، أو (الباذنجان البنّي) كنت لاحظتها خلال جولات البحث عن النباتات مع جون ميتكالف.

اصطحبتني سوريا إلى الأجراف السّفلية التي تغزوها الأعشاب ويملأ الحصى تربتَها. شرعْتُ أزيل الحجارة مقتلعاً الكبيرة منها بعصا، فتعيد بها سوريا أوّلاً بأوّل بناء الأسوار الخفيضة. في الأسفل، كان هناك قطعة أرض مربعةٌ، مغطاةٌ بما حسِبته عشباً، فأوْضحت سوريا:

- إنّه أرزّ. سأزرع الأرزّ في كل مكان هنا، وسيكون لدينا ما نأكله في الرّبيع.

وأشارت إلى الأبعدِ قليلاً، نحو مشارف غابة الكزورينة، حيث تمرّ حدود جوليوس فيران الخياليّة:

- هناك، زرعت أمّي القمح والعدس وقرع الغيرامون. فحينَ قدِمَت إلى هذا المكان لم يكن فيه سوى الحجارة والحشف المقوّس.

في قمّة الجرف، عند النّقطة التي نهبط منها نحو خليج باليسار، رأيت أيضاً أسواراً خفيضةً وحوْطاتٍ، ولمحت بُقع القصب الرماديّة الخضراء، وسيقان الذرة الحادّة، وعرائش قرع الغيرامون. توقّفَت سوريا لترِيَني هذه الحقول كلّها.

- ذاكَ، في الأعلى، يعود لراماساومي. وإلى اليسار منه حقل المُسنّ بيهار حكيم، فيه نباتاتٌ تعالج الأمراض. وهناكَ بجانب الصخرة، حقل لسيتاماتي، توفّي زوجها بداء الرّاصّات

البـاردة[1] قبـل شـهرَين، وهـي لا تريـد الرّحيـل. علـيّ أن أحضر لهـا المـاء لـتروي خضرواتهـا، لديهـا أيضـاً نباتـاتٌ عطريّـة.

لم أتعـب قـطّ مـن النظـر واكتشـاف الحقـول والأسـوار الحجريّـة، وقـد جهرَتْـني الشـمس. وشـيئاً فشـيئاً، أخـذت أسـوارٌ أخـرى تتكشّـف أمـام بـصري، بـرزتْ مـن تلقـاء نفسـها عـلى المنحـدر الأسـود بـين الـبركان والبحـر، ومـا حسـبته أجمـاتٍ يابسـةً كان في الحقيقـة مـزارعَ مـن الريّحـان والباميـة وتفّـاح الحُـبّ والفاصوليـاء. ورأيـت، بـين شـجيرات الدّيـداء، أوراق البقلـة الدّاكنـة وثـمار البطاطـس. لقـد أصـابَ جـون ميتكالـف: النباتـات هـي مـن ينقـذ البـشر.

ثـمّ لمحـتُ بـين كتـل الحمـم البركانيـة أطيافـاً شـبحيّة تتحـرّك، رجـالاً منشـغلين في إزالـة الحجـارة واقـتلاع الأعشـابِ الضـارة مـن التربـة، ونسـاءً يرتديـن أثوابـاً مـن الخيـشِ بلـون الـتّراب. وسـمعتُ صـوت المعـاول تـدقّ الأرض الجافّـة، ورنّـة السـكاكين الحـادّة تـضرب الحجـارة. تَلاهمـا وشوشـةٌ أكثـر خفوتـاً، أشـبهُ بصـوت الأيـدي والأنفـاس، تتداخـل مـع صفـير الريـح وهديـر الأمـواج عـلى الشّـعاب المرجانيّـة.

كانـت سـوريا منحنيـةً عـلى الأرض تقتلـع نباتـات العكْـرش والديـداء التـي تغـزو الحوْطـات، وتعـزق الأرض بيدَيهـا حـول الـذّرة والطماطـم لتحضـير أحـواضِ الـرّي. كانـت الشـمس تسـطع فـوق الأوراق والحجـارة السـوداء، وتُشـعل زُرقـة البحـيرة. وبـدت قمّـة جزيـرة غابريـال المخروطيّـة الشـكل صخـرةً نائيـةً، عالمـاً غريبـاً، وأشـدُّ منهـا نأيـاً بعـدُ خطُّ موريشـيوس

(1) أو فقر الدّم الانحلاليّ، وهو مرض نادرٌ يتمثّل في إنتاج جهاز المناعة لأجسامٍ مضادّة تهاجم كريات الدّم الحمراء بدلاً من مهاجمة البكتيريا.

الأخضر الرّفيع، المكلّل بالغيوم. وكان زورق صيدٍ، ناحيةَ جزيرة كوان دو مير، ينساب وئيداً بشراعهِ المائل، مختفياً في ثنايا الموج. كنت أقتلع الحجارةَ من التربةِ، فأشعر بالعرق يسيل على وجهي وفي عينَيّ. ولا شيء يشغل بالي، لا شيء سوى قطعة الأرض هذه والأجراف المحيطة بها، والأسوار الحجريّة التي ينبغي بناؤها في وجه العواصف.

ربّما كان جوليوس فيران وصديقه في تلك اللّحظة يتفحّصان الأفق من مرقبهما، ويرسلان إشاراتٍ إلى خليج بوانت أو كانونييه في موريشيوس، تطلب منهم أنْ يأتوا بالمركب لنقلنا. وربّما كان جاك ينتظر أمام رصيف الميناء ويدخن سيجارته من الحشيش، ناظراً إلى جزيرة غابريال. حاولتُ ألا أفكّر كثيراً في سوزان، القابعةِ وحدها في بيت الكرنتينة، ولا في جون ميتكالف وسارة، سجينَي مخيّم غابريال. هنا شعرتُ بحريّةٍ قاسيةٍ كهذه الأرض الجافّةِ، لاهبةٍ كالحمّى، وجارحةٍ كشظايا حجر الأبّاش[1].

كان كلّ شيءٍ هادئاً، فلا يُسمع سوى تلك الأصوات المُنتظمة؛ دبيبِ الحشرات، وخشخشة الأيدي والأنفاس مختلطةً بصوت الريح والبحر، تتخلّلها بين الحين والحين ثغوةُ جديٍ حادّةٌ خافتة، ونقرةُ لسان شوتو[2]، آتيةً من تجويفٍ ما بين الصخور.

سطعت الشمس بقوّةٍ حتّى أنّني شعرت بالدّوار. فاسودّ كلّ شيءٍ من حولي، وسقطتُ على ركبتَيّ ممسكاً بعدُ بالحجر الكبير الذي اقتلعتُه حالاً. أمسكتْني سورياڤاتي: «مسكينٌ يا دوجي، لا قِبَلَ لكَ بهذا، فأنت

(1) نوعٌ من الأحجار الكريمة، ويُسمّى أيضاً بالسَّبج، والزّجاج البركانيّ.
(2) النّقر: صوت اللّسانِ لسوْق الدّواب.

لسـت عامـلاً حقيقيـاً». ظلّلتنـي بجسـدها، وبسـطت وشـاحها الأحمـر الكبـير جانبـاً لتحميَنـي مـن الشـمس. شـعرتُ بنبـضٍ قـويٍّ في صـدري وفي شراييني. كان الماء قـد نفَـد، بعـدَ أنْ صبّـت سـوريا آخـر قطراتـه عـلى الخـضروات. لـذا تناولَـت مـن سـلّتها ورقـة شـجرٍ مـرّةٍ لاذعـة ووضعتهـا في فمـي الـذي امتـلأ باللّعـاب قائلـةً: «هـذه ورقـة التنبـول البنـيّ». ثـمّ سـاعدَتني في خلـع قميـصي، وشـقّت بأسـنانها قطعـةَ قـماشٍ كبـيرةٍ ولفّتهـا حـول رأسي مثـل عمامـة، ونظـرَت إليّ ضاحكـةً: «بهـذه، لم تعـد تشـبه السـادة البيـض. صرت مثـل عامـلٍ حقيقـيّ».

بقينـا في المـزارع حتّـى مغيـب الشـمس، وغادرنـا مـع صافـرة السـّردار في خليـج باليسـاد. في تلـك اللّيلـة بقيـتُ منطرحـاً عـلى أرضيّـة البيـت في نهايـةِ حـيّ المنبوذيـن. كانـت كلّ عضلـةٍ في ظهـري تؤلمنـي، وذراعـاي وسـاقاي مخـدّرةً مـن التّعـب، ومـا برحـتُ أشـعر بنـيران الشـمس عـلى وجهـي وفي جـوْفي. وقبـل أنْ تذهـب سـوريافاتي للانضـمام إلى أنانتـا تحـت الناموسـيّة، دنَـت منّـي. ودون أن تقـول شـيئاً التصقـت بي، ووضعـتْ ذراعَيهـا حـول رقبتـي، مريحـةً رأسـها عـلى صـدري لتسـمع دقّـات قلبـي. لم أجـرؤ عـلى الحركـة. وقـد بـدّد جسـدها الرّشـيق كلّ تعبي، ودخلـتُ في حُلمهـا حتّـى قبـلَ أنْ يغلبَنـي النّعـاس.

بعد أنْ تركوا فاراناسي، توقفوا في أسافل النّهر في مدن جانغبور وبهاجالبور ومرشد أباد. كان النهر شاسعاً حتّى ليخاله المرءُ بحراً، وقد تلاشت ضفافه في ضباب الفجر. وكان الدخان المنبعث من الحرائق يغطي أحياناً اليابسة والمياه، وفي كلّ مكانٍ رائحةُ حربٍ ومحارق. شعرَت جيريبالا وكأنها على الطوْف منذ الأزل، تتأمّل الضّفاف المنسابةَ بعيداً على إيقاع الهَرِمِ سينغ وهو يضغط على المُرديّ.

كانت الشمس تسطع بقوّةٍ أثناء النهار فيشتدّ الحر، وكان على جيريبالا أن تغرف الماء باستمرار براحتَيها كي ترطّب جبين أنانتا وشعرَها.

مرّ الطَوْفان عبر بلدانٍ غامضةٍ غزتْ غاباتِها قلاعٌ قديمة، وجفّت المزارعُ في أدغالها. وكانت بنات آوى تتجوّل ليلاً حول المقابر الجماعيّة، فكان لا بدّ من إشعال النيران لإبقائها بعيداً. وفي القرى، كان سينغ يعزف على النّاي والنساء يرقصن، ولِيل تمثّل قصّة ملكة جانسي التي سقطت عن حصانها تحت رصاص الإنجليز. وكان أهل القرى يقدّمون لهم أعطياتٍ من

الطعام، من لبنٍ رائبٍ وفاكهة. صارت أنانتا الآن تجيد الرّقص حقّاً على إيقاع طبول الماء، وقد غدت فتاةً ممشوقةَ القوام لبشرتها لون الصّلصال، مثل دوميّة حقيقيّة، لكنّها احتفظت بمِسحات الذّهب في شعرها وبلون عينَيها الفاتح. وكانت جيريبالا تفخر بها وتسمّيها ديفي أنانتا[1].

لم يخطر في بال جيريبالا على الأرجح أنْ تهجر الدّوميّين، لكنْ ذات يوم اشتدّ المرض بابن لِيل ثانيةً، بسبب الجفاف ربّما، أو نتيجةَ لدغةِ أفعى سامّة. لم يعد يقوى على تناول الطّعام والشّراب، وتصفّى كلّ دمه نتيجة نزيف المستقيم. ثمّ غاب عن الوعي وتوفّي ليلاً. حفرَت لِيل قبره بنفسها على ضفّة النّهر، ووضعَت كوْمةَ حجارةٍ كبيرة فوق جثّته حتّى لا تنبش بنات آوى التّراب فوقها. دُفِنَ بلا مراسمَ ولا صلاة. كان الهَرِمُ سينغ يقول إنّ الدوميّين يولدون ويموتون مثل الحيوانات، دون أن ينتبه إليهم أحد.

ومنذ ذلك اليوم، أُصيبت لِيل بالجنون. توقّفَت عن الكلام والاستحمام وتسريح

(1) Devi: وتعني بالسنسكريتيّة الإلهة، التجسيد الأنثويّ للرّبّ الأعلى في الهندوسيّة.

شعرها. وما عادت تقوى على تأدية الرّقصة التي تمثّل بها أسطورة لاكشميباي الجميلة. وكان أهل القرى حين يرونها شعثاء غبراء، يرشقونها بحفناتٍ من التراب.

وصارت تُبدي تجاه جيريبالا كراهيّة ليس لها ما يسوّغها. أخذت تهينها وتضرب ابنتها، وتشدّ شعرها وتسرق طعامها. وفي هذيانها، تخيّلتها المتسوّلةَ الصغيرةَ التي التقت بها جيريبالا في الغابة وكانت تحمل طفلها الميّت. فأخذت تلعنها وتتّهمها بتسميم ابنها. وكان الهرِمُ سينغ يتدخّل، فيمشي نحو ليل ويمسك بيدها، فتتراجع الشّابة إلى الوراء، والزّبد في فمها، وتنسحب لتجلس منكمشةً على ذاتها في آخر الطّوف، مثل حيوان يئنّ. وكانت تنام طيلةَ النهار ملتفّةً في ملابس ابنها وملاءاته.

وصل الطّوفان أمام مدينة إنجليش بازار عندَ مدخل الطريقِ المفضي إلى الجنوب. فقال الهَرِم سينغ لجيريبالا: «لن نمضيَ أبعد. سنعود شمالاً قبل هطول الأمطار. فلترحلي الآن! لعلّ ليل تتعافى».

هكذا جمعت جيريبالا أغراضها وتركت الطّوف. أخذت أنانتا من يدها وتوجّهتا

جنوبـاً، مـع كلّ العابريـن إلى الوطـن البعيـد، إلى
ميريـش تابـو، ميريـش ديـش[1].

26 يونيو

اليـومَ، قبـل الثانيـة فجـراً، عـاد مركـب خفـر السّـواحل. كنـت مـع العـمّال الذيـن يعملـون عنـد السّـد حـينَ أُعطيَـت الإشـارة. أعلـن الخـبرَ «كنّـاسٌ» شـابٌّ يُدعـى أوكا، وهـو خـادم محـارق مـن قريـة المنبوذيـن كان الشّـيخ حسـين قـد أرسـله منـذ عـدّةِ أيّـام إلى الطـرف الجنـوبيّ مـن الـبركان، ربّـما لمراقبـة الكرنتينـة وتحـرّكات فـيران الفاسـد ذهابـاً وإيابـاً.

خيّمَ صمـتٌ عظيـم، وظـلّ الجميـع متسـمّرين في أماكنهـم عـلى بلاطات البازلـت. كان الطقـس بديعـاً، حيـث الرّيـح تجلـو صفحـة السـماء والبحـر، والمـوج العـالي يحمـل الزّبـد حتّـى السّـد.

تجـاوز مركـب خفـر السّـواحل طـرف الجزيـرة منسـاباً ببـطءٍ عـلى الأمـواج. ومـا هـي إلّا صيحـةٌ واحـدةٌ حتّـى هُـرِع عـمّال المـزارع والنسـاء والأطفـال إلى الشـاطئ، يلّوحـون بأيديهـم وينـادون. حاوَلـت صافـرة السّردار وصيحـاتُ متعهّـدي العـمّال اسـتعادة النّظـام دون جـدوى. فسـار الشّـيخ حسـين بين الحشـد، ومـرّ مـن أمامـي دون أن يلتفـتَ إليّ، وقد ارتسـم تعبـيرٌ صـارمٌ عـلى وجهـه المسـمرّ كوجـه جنـديٍّ هـرِم، بلحيـةٍ بيضـاء أنيقـةٍ، وعمامـةٍ كبـيرةٍ صفـراء باهتـةٍ تتنافـر مـع سـترته الممزّقـة. كان يمـشي بسرعـة، وعصـاه الطويلـةُ مـن خشـب الأبنـوس في يـده، مثـل قائـد جوقـةٍ أو نبـيّ. ومـن خلفـه لاح طيفـا راماسـامي وبيهـار حكيـم، هشّـينِ، شـبه عاريَـين

(1) العبارتان بالهنديّة في الأصل ومعناهما: جزيرة موريشيوس، موريشيوس الوطن الأمّ.

ونحيلَين، يلفّ كلٌّ منهما قطعةَ قماشٍ باليةٍ حول رأسه. وقد أجبرتني حركة الحشد على التراجع، فلجأتُ إلى أعلى نقطةٍ من الشاطئ.

توقّف مركب خفر السّواحل في الخليج قبالةَ السّد الجاري إنشاؤه. رفع الموج جؤجؤ القارب جاعلاً إيّاه يدور حول طرف قَلْسه. وكنا نسمع هدير المحرّك، تحمله الرّيح أحياناً مع حلقات الدخان الأسود. كانت الأطياف تتحرّك على ظهر القارب، موظّفو الصحّة، والبحارة القُمريّون. ثمّ انفصل الزّورق عن مركب خفر السواحل، وألقى البحارةُ بحبلٍ على الشاطئ، وعلى الفور غاص الأولاد الصغار في البحر لالتقاطه. جلستُ على الشّاطئ، وأخذتُ أنتظر. لم يأتوا لَحملنا، بل ليقيموا جسر إمداداتٍ لتفريغ الطّعام وبراميل المياه العذبة وحسب. إذ لم يشأ أعضاء الحكومةِ الجماعيّة أنْ يخاطروا بتركنا نكابد الجوع والعطش على صخرتنا.

كان الجمْع على الشاطئ كثيفاً متراصّاً. وبدأَت تُسمع صيحات غضبه واستيائه. جُلْتُ بنظري بحثاً عن سوريا، لكنّني لم أرها. لم تأتِ إلى الشاطئ، فعودة سفينة خفر السواحل لم تكن من أجلها على أيّ حال.

بدأ إنزال المُؤن في شيءٍ من العجلة والتخبّط. ألقى البحّارة الصناديق في الماء، حتّى من دون أن يربطوها بالحبال، فتحطّم بعضها بعد رمْيه على بلاطات البازلت. ودخل الأولاد المياه حتّى الخصر، بكامل عريهم، وأخذوا يلاحقون الصناديق والبراميل ويدفعونها نحو الشاطئ. كانت الأمواج بطيئةً قويّة، والزبدُ يتلألأ على الصّخور السوداء، والبحرُ ممعنٌ في زرقته. وكان المشهد ينطوي على شيءٍ من اليأس والمأساوية؛ الناس المتجمهرون على الشاطئ تحت أشعة الشمس، وطيف القاربِ

المُعتم الذي ظلّ في عرض البحر قبالة الساحل. ولمّا جُمعت المؤن كلّها من الشاطئ ووُضِعت تحت الظُّلّة، بدأ الزّورق يتراجع نحو أعالي البحار، فعَلِم سكّان الجزيرة أنّ الأمر قد انتهى. عاد أغلبهم إلى المدينة أو إلى المزارع. غيرَ أنّ عدداً قليلاً من الرجال ظلّوا قربَ السّد، وأخذوا يلقون الحجارة صوبَ البحر ويهتفون بتهديدات عبثيّة. كان مركب خفر السّواحل لا يزال واقفاً أمام الخليج، يدور ويترنّح مع الموج. وبين الحين والحين يُسمَع هدير محرّكه، ويتصاعد دخانٌ أسودُ من مدخنته تشتّته هبّات الريح. وفجأةً رأيت أوكا الكنّاس عند نهاية السّد. بدا أنّه يعاني نوعاً من انهيارٍ عصبيّ، إذ وقف على حافة ركامٍ من الحجارة متوازناً في وجه الريح، وذراعاه مبسوطتان مثل طائرٍ كبيرٍ داكن. أخذ يدور حول نفسه ونظرتُه تتقّد جنوناً. ثمّ ألقى بنفسه في البحر واختفى في الزّبد، وما هو إلّا أنْ رأيته يسبح بغضبٍ نحو الزّورق. وقف الجميع على الشاطئ وعند السّد يراقبونه. وفي تلك اللّحظةِ هدأ التمرّد، وخيّم صمتٌ طويلٌ لا يخترقه سوى هدير الأمواج المتلاطمة.

تفاجأ بحّارة الزّورق لبضع دقائق وتوقفوا عن التجديف. وشاهدنا جميعاً وجه أوكا يختفي ثمّ يعود للظهور وسط الأمواج، كما لو أنّه قد حقّق هدفه بالفعل وتمكّن من الهرب. ثمّ انطلقت شرارةٌ من متن الزّورق، سُمِع في إثْرِها دويّ انفجار. كان بحّارٌ يقف في مؤخّرة الزّورق حاملاً بندقيّة، فيما أطلق بحّار آخر النار. وعلى الفور غادر جميع الرّجال الذين كانوا على السّدّ ولاذوا بالشاطئ، مُحتمين بالصخور. واصل أوكا العوم باتجاه مركب خفر السواحل، وسرعان ما اتّضح أنّه لن يقدر على الوصول إليه. أخذ البحّارة يجدّفون من جديد، وما هي إلّا لحظاتٌ حتّى وصل الزورق إلى

حافة القارب، وبدا أوكا مجرّد نقطةٍ وسْط الخِضمّ، فَضلةٍ تتقاذفها الأمواج. لوّح مرّةً أخرى بذراعَيه، كمن يطلب النّجدة، ثمّ استسلم خائرَ القوى، تاركاً الأمواج تعيده إلى الشاطئ.

وفي تلك اللّحظةِ لمحتُ جماعةً تصل إلى الشاطئ هابطةً منحدر البركان، في مقدّمتها بارتولي، يليه جوليوس فيران ومسدّسه في حزامه. وفي الخلف، عرفتُ طيف جاك. اقترب الرجال الثلاثةُ من السّدّ، فيما كان العمّال يجرّون أوكا من الشاطئ المغمور بالضّوء والزبَد، متّجهينَ به نحو الظُلّة وسْطَ صمتٍ غريب. وعلى بعد أقل من مائة متر، كان الزّورق يدور حول مركب خفر السواحل مترنّحاً، كمن يحاول الاقتراب من لعبةٍ بعيدة المنال.

جرّب فيران أنْ يلفّ قطعة كرتونٍ ويتّخذها مكبّر صوتٍ كي يتواصل مع ضبّاط خفر السواحل. لكنّه صاح بكلام لم يكن مفهوماً، إذ تلاشى صوته في هدير الموج. وما هي غير ثوانٍ حتّى تكثّفَ عمود الدخان، وسُمعَ صوت سلسلة المرساةِ وهي تدور في الرّافعة، وتعالى هدير المحرّك. انحرف مركب خفر السواحل للحظة، كما لو كان متجّهاً إلى الشاطئ، لكنّه تراجع من جديد، دار ببطءٍ ثمّ تقدّمَ في الخِضمّ، وسرعان ما تجاوز قمّةَ البركان التي أخفته عن أعيننا. وفي الأثناء، ظلّ الجميع متسمّرين على قمّة الشاطئ، وكان بعضهم لا يزال كامناً خلف الصّخور احتماءً من طلقات النار. أمّا مجموعة ركّاب لافا فظلّت تنتظر تحت الظُّلّة، وكأنّ القارب سيعود على أيّة حال. ووقف الشّيخ حسين على الشاطئ غارساً عصا قيادته في الرّمل. بدا كأنه تمثالٌ قديم، محاربٌ في ملابس رثّة. ثمّ استدار، ووضع طرف صافرته في فمه مصدراً صوتاً طويلاً جدّاً أخذ يتّسع ويتّسع

ويـزداد حـدّةً، إلى أنْ هـدأ أخـيراً ليصـيرَ نغمةً خفيضـةً أشـبهَ بالأنين.

وقـد رأيـت مشـهداً لـن أقـوى عـلى نسـيانه مـا حييـت. كان صامتـاً بالـغ القسـوة: اصطـفّ العـمّال أمـام السـّردار في طابـورٍ طويـلٍ كـي ينقلـوا المـؤن مـن ظُلّـة النخيـل إلى أكـواخ باليسـاد المشـتركة. كانـت الحركـة في المشـهدِ شـديدة البـطء تخلـو مـن أيّـة حـدّةٍ، حيـث الشّـيخ حسـين بقامتـه النخّيلـة يقـف عـلى الشّـاطئ متوكّئـاً عـلى عـكّازه الأبنـوسيّ، وحيـث العـمّال أطيـافٌ داكنـةٌ، ينحنـونَ تحـت ثقـلِ الصناديـق، وأكيـاسِ الأرزّ، وبراميـلِ الزّيـت، وقواريـرِ الميـاه العذبـة، لا يتحدّثـون ولا يجولـون ببصرهـم، كأنّهـم طالعـون مـن قـاع الزّمـن السّـحيق ماضـون نحـو نهايتـه القصيّـةِ، حاملـين معهـم زادَ رحلتهـم التـي لا تنتهـي.

لم يكـن ركّاب لافـا الثلاثـة يتحرّكـون. كانـوا متسـمّرين في مكانهـم، ومعهـم كلّ أدواتهـم السّـخيفة، فـيران بمسدسـه ومكـبّر الصّـوت الكرتـونيّ الـذي بـدأ يتفسّـخ، وبارتـولي يمسـك بكلتـا يديـه بالهيليوتـروب الـذي يومـض لا إراديّـاً بـين الفينـة والفينـة، وجـاك مـع حقيبتـه الطبيّـة التـي أحضرهـا دون جـدوى، ربّـما ليـداري بهـا الانطبـاع السّـيئ الـذي قـد تتركـه ملابسـه الممزّقـة ونظارتـه المكسـورة.

لكنّـه هـو الآخـر لم ينبـس بكلمـة، ولم يفعـل شـيئاً لمنـع جماعتـه مـن احتجـاز المـؤن للأسـابيع القادمـة. ولا شـكّ أنّـه كان أوّل مـن هـزّ كتفَيـه مستسـلماً، كعادتـه حـين يقـدّر أنّ مسـألةً مـا تسـتعصي عـلى الحـلّ. ثـمّ عـاد إلى الكرنتينـة، وفي إثـره المراقبـان العاجـزان.

مـرّوا قريبـاً مـن الجـرف حيـث أقـف، ورفـع جـاك نظـره إليّ، فأغشـت الشّـمس بـصره. رأيـت وجهَـه الـذي كاد يكـون غريبـاً عنّـي، شـاحباً تغـزوه

لحيةٌ كثّةٌ، والغبار الرّمادي يعفّرُ شعره ونظّارته. فضلاً عن سترته العبثيّة التي كان يزرّرها حتّى العنق مانحةً إيّاه هيئةَ حانوتيّ. أردتُ أن أنهض وأركض نحوه وأعانقه، لكنّه عاد والتفت بعيداً ففهمت أنّه لم يرَني، أو لم يعرفْني. لقد بتنا منذ الآن بعيدَين جدّاً أحدنا عن الآخر، كما لو أنّنا لم نكبر يوماً معاً. كان فيران يسير خلفه متبوعاً ببارتولي، وفجأةً بدوا لي مجموعةً من مُشاةٍ عاديّين، متنزّهين قدموا من مدينة ما ليتيهوا في هذا الريف المغبرّ المحروق، ثمّ هاموا على وجوههم باحثين عن عربة أجرةٍ تعيدهم إلى ديارهم.

لم أكن أعرف إلى أين أذهب. جُلت ببصري على طول الخليج بحثاً عن سوريا. كان الشاطئ خالياً. خِلتُ أنّني لمحتُ الفتاة الشّابة أمام أحد البيوت المشتركة، بين جمْعٍ من النساء والرجال كانوا يجرّون جسد أوكا نحو الظّلّ. لكنّني لما دنوت من المكان، لم يكن الجسد هناك.

مشيْت إلى الكهف حيث توقِد سوريا المصباح كلّ ليلة لياما وأخته يامونا، سيديّ الجزيرة الحقيقيَّين. لكنّني لم أجرؤ على الاقتراب. وحدها سوريافاتي من يمكنها اصطحابي إلى هناك. فكّرتُ أيضاً في الوادي الضيّق حيث يتدفق النّبع. وكنت كلّما وصلت إلى مكانٍ، سمعت صافرة السّردار وقد عادت تضبط بإيقاعها عملَ ناقلي الحجارةِ، كأنّ شيئاً لم يحدث. ومثلما أفعل كلّما استبدّ بيَ شعور القلق والكراهية، ذهبتُ إلى قمّةِ الطيور، تلك التي تطلّ على ما وراء صخرة لوديامو نحو الهند ومصبّ الأنهار العظيمة. وهو موضعٌ أشبه بمقدّمة لافا التي تعبر المحيط إلى صخرة عدنٍ وصولاً إلى الأراضي الخرافيّة.

مكثتُ طيلة العصر أشاهد الطيور وهي تدور حول صخرة بيجِن هاوس تحتَ سماءٍ أحالت الرّيحُ غيومها إلى أشلاء. كان هنالك النورس وخطاف البحر، وخطّاف الذباب الفردوسيّ الناصع البياض. وكانت تصرخُ معاً وتحطّ على الصخرة، ثمّ تنطلق من جديد، فأسمع حفيف أجنحتها الشّبيه بأزيز مِرجل.

وفي آخر النهار، قبلَ حتّى أنْ أسمع صافرة السّردار، عُدت إلى قرية المنبوذين. كانت أسراب البلشون المخطط تحلّق ماسّةً مياه الخليج ومطلقةً صيحاتها الحزينة. تنشّقتُ رائحة الأبخرة العذبة، كما هو الحال في أيّ قرية في العالم حين يجلس العمّال حول النار بعد يومِ عملٍ شاقّ، ويثرثرون في انتظار وجبة المساء.

ولمّا دخلتُ القرية، رأيت مرّة أخرى بائعة الهوى رسامه جالسةً أمام بابها. بدت بهيئةٍ غريبةٍ، ووجهها المحتفظُ بعد بطفولته مثقلٌ بالمساحيق. وكان مسحوق الطلق الذي تضعه كبودرة أساس يمنح بشرتها مِسحةً مِن اخضرار. وقد حدّدَت شفتَيها باللّون القرمزيّ، ورسمتْ دائرتين باللّون الأحمر على وجنَتيها. وكانت ترتدي فستانها الأحمر، وشعرُها مُسرّح بعناية ومنعّمٌ بزيت جوز الهند، وفي يدها سيجارة حشيش، فبدت بهذه الهيئةِ كأنها آتيةٌ من عالمٍ آخر. وعلى مبعدةٍ منها، كان شقيقها اليافع يقفُ متوازناً على ساق واحدةٍ، ويرمقني في ارتياب.

لم تقل شيئاً في البداية، لكنّني حين واصلتُ طريقي نحو بيت أنانتا، صاحت في وجهي ساخرة مستهزئة كما فعلَت في ذلك اليوم. حتّى إنّها التقطت الحصى ورمتني به، كما يفعل الأطفال مع الكلاب الضّالة. هل كُنت واقعاً تحت تأثير هلوسات؟ فقد بدا لي أنّ المجنونة كانت

تصيحُ باسمي مقلّدةً صرخة الطاووس، كما كانوا يفعلون في نزل روي مالميزون: «لي-وون! لي-وون!»

كانت أنانتا تستريح على حصيرتها في الكوخ المعتم، مسندةً رأسها إلى حجر، وقد رفعت طرفاً من ناموسيّتها لتنعم بنسمة اللّيل العليلة. وكان شعرها المُرسل منبسطاً حولها وشاحاً من حريرٍ، دافئاً نضِراً يتنافر مع وجهها الهزيل الهرِم. استقبلتني بنظرةٍ طويلة تخلو من الدّهشة. وبدا أنّ حدقتَيها الفاتحَتين تخترقان عتمة الكوخ. لم أجرؤ على الدخول، لكنها أومأت لي بيدها داعيةً إيّاي للجلوس إلى جانبها. همسَت ببعض كلمات بلغتها الشجيّة، أسئلةٍ ربّما، أو أدعية. ثمّ أشارت إليّ أن أعطيَها يدي. شدّت عليها طويلاً فأحسسْتُ براحتها الذابلة الفائقة النعومة، مثل حصاةٍ صقلها البحر.

لم أكن أعرف ماذا تريد. بدأتُ أتحدَّث إليها بالإنجليزيّة، كما أتحدث إلى سوريا، لأخبرها بما أعرفه عن لندن، عن الحيّ الذي عاش فيه جاك وهو يدرس في مشفى سانت جوزيف، في إليفانت آند كاسل. ردّدت هذا الاسم ببطء، كما لو كان مألوفاً، إليفانت آند كاسل، وأظنّ أنّها بفضل سحر هذا الاسم، استطاعت فجأةً أنْ تتخيلَ تلك المدينة على صورةِ عواصم الهند الرئيسيّة، حيث تتمشّى الفيَلة في الحدائق على ضفّة الأنهار، تحت شرفات القصور.

وفيما أقصّ عليها هذا كلّه، تذكّرتُ الرّبيع في لندن بصحبة جاك، أيّامَ كان يعِدُّ لزواجه. كنت مريضاً بالالتهاب الرّئويّ القصبيّ، فحصل

جاك على إذنٍ لي من السيدة لو بير بمغادرة النّزل كي أقضيَ فترة النّقاهة معه. كان هذا ما أردتُ أن أتذكّره، تلك الشّهور التي أخذت الآن تتلاشى من الذاكرةِ حتّى باتت كذرّاتِ الغبار يتعذّر الإمساك بها. الأشجار المزهرة في الحدائق، والسماء المتلألئة على الرغم من زخّات المطر، ونهر التايمز حيث تنساب المراكب بطيئةً. كنت أهيم على وجهي في الشوارع وسْط المدينة قربَ سانت بول، حيث يحتشد الناس على الأرصفة، وفي سانت جيمز أيّام الأحد، حيث الفتيات الجميلات يتجوّلن بمظلّاتهنّ في الأزقّة، تحت المطر الخفيف.

لم أكن أعرف إنْ كانت أنانتا تصغي إليّ. فقد أغمضَت عينيها، وكان وجهها النحيل يلتمع بخفوتٍ في الظّلّ، لكنّها لم تترك يدي، كانت تمسكها بإحكامٍ في يدها، كأنّها تريد أن تتسلّلَ طاقتي إليها. إنّني لم أختبر شيئاً مثلَ هذا من قبل. لقد جعلتني أرتجف. حين ماتت أمّي، كان عمري عاماً واحداً، ويبدو لي كأنّها لم تكنْ يوماً. أمّا أنانتا فهي حاضرة، شعرتُ بدفئها ونبض الحياةِ فيها. وفكّرتُ في كلّ ما مرَّت به، وما قالته لي سوريا عنها، وفي المذبحة التي وقعت في كاونبور، وجيريبالا التي انتزَعتْها من جسد مربّيتها وحملتْها بعيداً، ثمّ غسّلتها بمياه نهر يامونا. فكّرتُ فيما رأته عيناها وما لمسته يداها، وشعرْتُ أنّ كلّ شيء قدْ سرى عبر راحة يدها الناعمة متسلّلاً إلى أعماقِ قلبي.

بدأ اللّيل يهبط في الخارج. توقفتُ عن الكلام فسحبَت أنانتا يدها. وأسدلتْ طرف النّاموسية دون أن تنظر إليّ. لذا أشعلتُ المصباح الصغير أمام بابها وخرجْت. ولم يمضِ وقت طويلٌ حتّى عادت سوريا من النّبع. أخذت المصابيحُ تومض في معظم البيوت، والنيران

تنطفـئ رويـداً رويـداً. فكّـرْتُ في جـاك وسـوزان في الكرنتينـة، وفي جـون وسـارة اللّذيـن يصارعـان المـوت في جزيـرة غابريـال. لقـد نفـدَ عندهـم زيـت المصابيـح، ولا بـدّ أن العتمـةَ قـد غمـرت كلّ شيء. ثـمّ إنّـه لم يتبـقَّ لديهـم سـوى القليـل مـن الأرزّ وميـاه الصّهاريـج المُـرّة.

أقبـلَ الأطفـال إلى الشـاطئ. لم يعـودوا يخافون منّـي بعد الآن، بـل صاروا يتجـرّؤون ويجلسـون جـواري عـلى الرّمـل وينادونـني. وكان الرّاعـي الصغير الأبكـم شـوتو الـذي يتجـوّل دوماً مـع سـوريا، يقف على مبعـدة منّا، ويسـلّي نفسـه برمـي أشـياءَ في الرّمـل، مثل العظـام. «ما هذا؟» سـألته حـينَ أراني أحدَ تلـك الأشـياء. كانـت مجـرّد قطعـة مـن الحديـد الصـدّئ، ربّما مـن بقايا السـدّ القديـم، أو مـن حطام قـارب. وقد حـتَّ البحر قطعةَ المعـدن تـاركاً إيّاها مثل عظـم أحفـوريّ. وفيـما كنـت أتفحّصهـا أغلـق يـدي وأشـار لي أنْ احتفـظ بها لنفـسي. كان وجهه يُشـعّ نعومةً تحـت كتلة شـعره المجعّد، ولعينَيـه بريق حجر الأبـاش. إنّـه شـبيهٌ بِكَنزِه، غريـبٌ وعـاديٌّ في آنٍ معـاً، قطعةٌ من هـذه الجزيرة التـي تُخبِرُ عـن الزمـن والموت.

أذِن لي بالجلـوس إلى جـواره عـلى الرمـل. فتسـلّينا بعـض الوقـت بكِسـرَ العظـامِ التـي جمّعهـا. مـرّر أصابعـه بخفّـة عـلى ذراعـي متحسّسـاً شـعرها، والعتمـةَ تـكاد تخفـي ملامحـه، لكـنّ عينَيـه كانتـا تلتمعـان ببريـقٍ أصفـر.

ثـمّ وصلـت سـوريافاتي أخـيراً، وقـد جلبـت المـاء الـذي ستسـتحمّ بـه أنانتـا بمسـاعدتها. تفـرّق الأطفـال، ولم يبـقَ سـوى شـوتو الـذي بـدأ يعـزف عـلى النّـاي بهـدوء، فانسـابت أنغامـه عـبر اللّيـل، قادمـةً لا أدري مـن أيّ مـكانٍ عـلى طـول الشـاطئ. حتّـى هـو نفسـه لم يكـن يسـمعها، بـل كان يعـزف وحسـب، متذكّـراً الحـركات التـي عليـه أنْ ينفّذهـا بأناملـه.

بـدأت المحـارق تشـتعل في خليـج باليسـاد، لا مـن أجـل أحـدٍ، وإنّـما فقـط مـن أجـل أنْ يسـعد الـرّب يامـا برائحتهـا. واختلطـت رائحـة خشـب الصنـدل والزيـت بعبـق البحـر، وبموسـيقى النّـاي وصـوت سـوريا وهـي تهدهـد أمّهـا. كنـت لا أزال أفكّـر في سـوزان التـي تنتظـر عـلى الطّـرف الآخـر ميـاه النّبـع، ولربّـما كنـت أهـذي مـن الحمّـى.

أحـضَرت لي سـوريافاتي طبـق الأرزّ. كان في حركاتهـا شيءٌ مـن توتّـر وفـراغ صـبر وغضـب. وضعَـت الطّبـق عـلى الأرض، فـوق حجـرٍ منبسـط، وجلسَـت عـلى مسـافةٍ منّـي ووشـاحها الكبـير يغطـي كامـل وجههـا. ولمّـا فرغْـتُ مـن الطّعـام قالـت:

عليك أنْ تتصرفَ الآن.

كان صوتها مرهقاً، ونبرتها غريبةً علـيّ:

- لا يمكنكَ البقاء أكثر.

- لماذا؟

نهضُـت. كانـت العتمـة قـد أطبقـت عـلى الشـاطئ، وغـادر الأطفـال، فيما واصـل شـوتو عـزف موسـيقاه البسـيطة الخالية مـن الهموم.

- لماذا تريدينني أن أذهب؟ هل الشّيخ حسين هو السبب؟

قالت غاضبةً:

- كلّا، لا علاقـة للشّـيخ حسـين بذلـك. أنـا مـن تطلـب منـك ألّا تعـودَ إلى هنـا بعـد الآن.

كان صوتها يرتجف قليلاً، كأنّها تبحث عن كلماتها.

- أنتـم، السّـادةَ البيـض، كلّكـم كاذبـون. تقولـون إنّكـم تحبّونـنـا ثـمّ تنسـوننا. أمّـي سـتموت، لا أريـدك أن تزعجَهـا، لا أريـدك أن تؤذيَهـا.

ولمّا حاولتُ الاحتجاج، نهضَت بدورها، وشالها يرفرف في الريح، وقد استطال ظلّها في غبش العتمة. لم أفهم ما كانت تقول. وفي الوقت نفسه، كنت أعرف جيّداً أنّ ما حدث في باليساد، وما تخلّله من إطلاق البحّارة المسلحين الأعيرةَ الناريّة، وصراع أوكا المسكين مع الموج، هذا كلّه قد غيرّ شيئاً ما. قالت مُحتدّةً:

- تأتي إلى هنا وتُحدّث أميّ بلطفٍ في غيابي، بينما أنتم هناك ترسمون الخطط فيما بينكم - أنتم السّادةَ البيض - كي يخرجِوكم من هنا وحدكَم، من دوننا، ويُتخلّى عنا كما حدث من قبل، فنُترَكُ لنموتَ هنا عن آخرنا.

- عن أيّ خططٍ تتحدثّين؟ لا أعرف ماذا تقصدين.

لكنْ كان هناك شيء كاذب في صوتي، فقد كنت على علم بالرسالة التي أراد فيران وبارتولي إرسالها إلى الحاكم يطلبان فيها نقل ركّاب **لافا** وحدهم إلى لابوانت أو كانونييه.

خفقَ قلبي بشدّة، لم أعرف بماذا أجيب كي أدافع عن نفسي. قُلت:

- ولكن ما المطلوب منهم أنْ يفعلوه؟ لقد صادر الشّيخ حسين كلّ الطعام. لم يبقَ لديهم ما يأكلونه على الطرف الآخر!

ندّت عنها ضحكةٌ خافتة مزدرية. وكان صوتها بارداً لا مبالياً. فهمتُ فجأةً كم تمقتهم جميعاً، هؤلاء السّادة البيض الأنانيّين والقساة، من عَمِلتْ والدتُها في خدمتهم طيلة حياتها وما كان منهم إلّا أنْ تخلّوا عنها.

- لكنْ... ألا تفكّرون إلّا في الطعام! تريدون أنْ تأكلوا طوال الوقت! اختنقَت الكلماتُ في حنجرتها، وكادت تنفجرُ باكيةً.

- أمّـي... أتعلـم كـم من الوقت مـضى عليهـا دون أنْ تـأكل؟ إنّها على وشـك الرّحيـل، وأنت قلـقٌ لأنّه لا يتوفّـر كلّ ما تريـد من أرزّ!

كانـت ظالمـةً ولئيمـة، لكنّنـي أحببتُهـا أكثـر. شـدّت يـدي وقادتنـي إلى الطريـق حيـث تُـرى أكـواخ المنبوذيـن وهـي تومـض جميعـاً بنـور المصابيـح.

- انظـر! هـل يـأكل هـؤلاء؟ هـل كان لديهـم أرزّ حـين تركهـم السّـادة البيـض هنـا لشـهورٍ، خوفـاً عـلى أنفسـهم مـن الأمـراض، ومـن حـرب الكاونيـور؟

ثمّ أردَفَت في نوبة غضب:

- أنتم الذين تأكلوننا، أنتم من تقتاتون على فقرنا.

تركَتنـي وعـادت إلى البيـت مندسّـةً تحـت الناموسـيّة، لتمنـح أنانتـا بعـض الـدّفء.

غمـر الدّخان المتصاعد من المحارق الشّـاطئ، فأحسسـتُ بطعـم الرمادِ في فمـي، وطعـم المـوت. وأخذتُ أركـض نحو طـرف الجزيرة. لم أعـد أرغب في استنشـاق تلـك الرائحـة بعـد الآن. أردتُ أن أكون كما يكون المـرءُ على جؤجؤ سـفينة؛ يشـقّ الريح والمـوج، ويلتحم بعالم البحـر والطيور.

كانـت الريـاح تهـبّ محمّلـةً بالمطـر البارد، وقـد عـلا المـدّ فـوق الشّـعاب المرجانيـة هـادراً بـلا كلـل. جلسـتُ في مـكانيَ الأثـير بـين تجاويـف البازلت، أمـام صخـرة بيجِـن هـاوس، وشرعـتُ في رحلتـي البطيئـة لعبـور ذلـك اللّيـل الطويـل.

اسـتفقتُ عنـد الفجـر عـلى دويّ انفجـارات. كان قريبـاً جـدّاً، قادمـاً مـن جهـة الصّهريـج. اعتقـدتُ للحظـة أنّ أعـمال الشّـغب قـد اسـتؤنفت، وأنّ

الشّيخ حسين قد أطلق قوّاته ضدّ الكرنتينة. فتسلّلتُ عبر الأجمات. ولمّا بلغتُ الصهريج، سمعتُ صوتَ عدْوٍ. مرّ أحد جديان شوتو من أمامي هارباً بأقصى سرعة. لا بدّ أنه أصيب بجرحٍ، فقد لمحتُ دماءً على الأرض حيث كان. ومن فرجة الشّجيرات قرب الصّهريج، رأيت في ضوء الفجر الشاحب طيف بارتولي الثّقيل، يتبعه جوليوس فيران حاملاً مسدّسه في يده. ولمّا رأياني، قفَلا راجعَين دون أن ينبسا ببنت شفة. كانت هذه المطاردة شديدة الهزليّة والوحشيّة في آنٍ معاً، وما كان منّي بعد مشاهدتها إلّا أنْ هربت إلى الشاطئ وغُصت في مياه البحيرة. وقد بدا ليَ الآن أنّنا تخطّينا عتبة الجنون.

27 يونيو

في طريق عودتي إلى الكرنتينة عصراً، بدت المباني في ضوء الشمس شبه جديدة، تُزيّنها باقات الرّيحان التي زرعها المسنّ ماري حول المستوصف، والدّيداء الشديدة الخضرة الزّاحفة حتّى البحر مثل سياجٍ شجريّ إنجليزيّ. وإذا تجاهلنا السّبب الذي جعلنا سجناء على هذه الجزيرة، فإنّ هذا الوصف يكاد يكون هو ذاته الذي رسمه جاك لفردوس طفولته. البناياتُ في عزبة آنّا، والبيتان، بيت الشّهاب وبيت كبير العائلة المحاطان بحديقة كبيرة سريّة. هناك، كما قال، لا يُسمَع سوى هدير الموج حين يضرب في رمل الشّطآن الأسود، حيث تلتحم السّماء بزرقة البحر الوسيع.

من أجل هذا عدتُ إلى الكرنتينة، أردتُ أنْ أصغيَ إلى جاك ثانيةً وهو يتحدّث عن ذلك الزّمن. فلم يعد هنالك ما من شأنهِ أنْ يغيّر

حياتي، لا شيء آخر يمنحني الأمل في الغد. أردتُ أنْ نتحدّث ونتحدّث، كما كنّا في إنجلترا حين اصطحبني جاك وسوزان في رحلةِ هاستينغز بداية الصّيف حيث قضيا شهر العسل. كنّا آنذاك نبقى معاً، تحت بطانيّة كبيرة، نتحدّث عن المدينة وعن عزبة آنّا. كنت أنا وسوزان نصغي، وعيوننا تلمع دهشةً، كان ذلك ساحراً: حقول قصب السّكّر الممتدّة بلا نهاية حتّى الجبال، والطريقُ على طول البحر إلى أوه بوبّي، وخليج فْليك أو فْلاك، ثمّ شمالاً، حيث نهر بيل آيل ومدينتا طِيبة ومكّة. كانت هذه الأسماء تُعيّن أماكن لا يمكن أن توجد إلّا في الأحلام.

دخلْتُ البيت. كانت سوزان وحدها، وكانت أحسنَ حالاً. لقد تعافت وأشرقَ وجهُها، واستعادت ابتسامتها وعينَيها السّاخِرتين.

- ليون؟ ألم تعرف؟ سيأتون لأخذنا. سوف ينقلوننا إلى موريشيوس، وإلى لا بوانت أو كانونييه. جاك ذاهبٌ لتسليم رسالةٍ إلى الحاكم، سيأتي قاربٌ لينقلّه.

لم أجب. فكّرتُ فيما قالته سوريافاتي بالأمس، وفي غضبها.

- ما بكَ؟ تبدو غريباً. هل رأيْتَ جاك؟ أين كنتَ؟ لقد استبدّ بي التّعب بالأمس، ولا أتذكّر أيّ شيء.

قلت بلا حماسةٍ:

- يمكنني أن أحضر لك بعض الماء العذب من النّبع.

أخذت يدي. وكانت راحتاها حارّتَين كالجمر. قالت في توتّر ونفاد صبر:

- كلّا. كلّا. لا داعي لذلك. غداً سنكون في موريشيوس، سيكون لدينا كلّ الماء الذي نريد. يقول جاك إنّ هناك نهراً صغيراً

غير بعيدٍ عن المدينة، ماؤه باردٌ في الشتاء، وبحيرةً صغيرةً أيضاً تأتي إليها الطيور لتشرب أثناء تحليقها، مليئةً بالأسماك الذهبيّة، وتقصدها النساء الهنديّات مساءً للسباحة. أريد أن أذهب للسّباحة هناك أيضاً، حتّى لو لم يعجب ذلك العمّ أرشمبو. سأذهب للسّباحة في النّهر، لقد سبحتُ قبل ذلك في النّهر، فأنا أتقن السّباحةَ كما تعلم، وفي المدرسة الدّاخلية كنت الفتاة الوحيدة التي تجيدها، كنت أذهب سرّاً إلى النّهر، وكان الماء بارداً، وعذباً، لا تتخيّل...

لم تستطع التوقّف عن الحديث. كانت تهذي إلى حدّ ما. وعلى الرغم من المرض، فقد استعادت تعبير وجهها الذي طالما أحببْت، ولمعةَ عينَيها الزرقاوَين الضاربتَين إلى الرّماديّ، وحمرة وجنتَيها، وشفتَيها اللّتين تكشفان عن أسنانٍ ناصعة البياض. تذكّرتُ كيف أُغرمتُ بها حين زارت العمّ وليام في باريس أوّلَ مرّةٍ، وقد قدّمها جاك للعم قائلاً: «سوزان موريل، من جزيرة لاريونيون، مقيمةٌ في باريس، يتيمةٌ مثلنا». وكان هناك عشاء كريوليّ، كستناءٌ وشاي، وكعكة الفلفل.

كانت تلمسُ كلّ شيءٍ وتضحك وتحتضن أخي، لا أعتقد أنّني رأيت أحداً مثلها. نسيَت يومها حقيبتها ومنديلها في الحمّام، فدفنْتُ وجهي في منديلها لأستنشق عطرها، وشعرْتُ بالخجل لاحتمال أنْ تراني. بدا لي أنّني أشتمّ هذا العطر الآن أيضاً، عطراً عذباً مدوّخاً، ولاذعاً نوعاً ما.

- أتذكُرُ هاستينغز؟

لم أنسَ شيئاً. وكأنّها قرأَت ما يجول في ذهني.

- لمّا رأيْتُكَ، اعتقدتُ أنّك أصغر سنّاً ممّا أنت عليه، وكان

شعرك أسودَ مثل الغجر، ولكي أناكِفَك قلتُ لك إنّ لك عينَين خاملتَين، ورموشاً عجيبةً من فرْط طولها وانحنائها.

كانت جالسةً بجوار الباب تحيط ركبتَيها بذراعَيها، مثلما كانت تفعلُ دوماً عندما نذهب إلى شاطئ البحر. إذ لم تكن تحبّ الجلوس على المقاعد، فكانت تختار مرْجاً أو ركناً من الشاطئ بعيداً عن الرّيح. وكان جاك يقول إنّها مثل أمّي، لا تكترث لأقاويل النّاس.

- أتَذكُر؟ ذاتَ مساءٍ قبّلتُ جاك على الشّاطئ، فدنت منّي امرأةٌ وأهانتني. قالت لي بالإنجليزيّة: فلتمضِي إلى فندقٍ تقترفين فيه قذارتك!

ثمّ ضحكَت، أمّا أنا فكان قلبي ينفطر حزناً لِيقيني أنّ جاك لم يكتب تلك الرّسالة، وأنه حتّى لو كتبها، فلن يتمكّن على أيّ حالٍ من تسليمها إلى الحاكم. كان فيران وبارتولي في تلك اللّحظة على قمّة البركان، بين أنقاض المنارة، يحاولان مثل أخرقَين تشغيل الهليوتروب المرتجل مع آخر خيوط الشّمس، ملتفتَينَ صوب ساحل موريشيوس البعيدِ اللّامبالي والضارب إلى الرّماديّ، حيث تتكاثف الغيوم.

شعرَت سوزان بالعطش. ناولتُها كوباً من مياه الصّهريج السوداء الفظيعة، التي كان لا بدّ من استخراج يرقات البعوض منها واحدةً واحدةً بساقِ عشبة.

همسَتْ قائلةً:

- آخرَ مرّة...

كانت متعبة جدّاً. وثِقلُ عينَيها يرهق وجهها. قالت مستعيدةً للحظةٍ روحها السّاخرة، وابتسامة عينَيها:

- وماذا عن حبيبتك، راقصتِك الهنديّة تلك؟ عليك أنْ تعرّفني بها.

قلت:

- سوريا؟

فحرّكت شفتيها كأنّها تعيد الاسم بهمس. ثمّ خطر لها أمر:

- قال لي جاك أمس: لن أتخلّى عنهم أبداً. وطلب في رسالته أن يُنقَلَ الجميع إلى لا بوانت أو كانونييه، وقال إننا لن نرحل من دون المهاجرين.

- أعرف...

- إنّه يدافع عنك دوماً. ليلة البارحة، لم تكن هنا، كنتَ معها... قال فيران إنّه ينبغي أن تُسجَن، وتُمنَع من الذّهاب إلى هناك، وأنك أصبحت خطيراً. فغضب جاك وصرخ في وجهه: مَن تظنّ نفسك؟ ووصفه بالمجنون، والمحتال.

كانت تحاول أن تقول شيئاً مضحكاً، لتسلّيني، وتبقيَني برفقتها، مثلما فعلت حين أتت إلى بيت العمّ وليام، وكنت أترقّب كلّ نكتةٍ من نكاتها.

- حسناً، سيكون لديهم ما يثرثرون به في موريشيوس إذا أتيتَ معها! ستجعل حياتهم صعبة!

وتَلَتْ قصيدة بودلير:

«حين، مُغمضَ العينَين، في مساءٍ خريفيٍّ حارّ
أتنشّق عَبير نهدِكِ الدّافئ،
أرى شواطئَ هانئةً تنبسطُ أمامي،
تتلألأُ تحتَ نيرانِ شمسٍ رتيبة».

أصابني الذهول. فهي التي عاشت لأيّام لم تعرف فيها سوى الحمّى والماء، كانت أصفى منّي ذهناً. وكانت عيناها تلمعان في غبش العتمة.

- هل نسيتَ يا ليون؟

قلت بصوت خافت:

- كلاّ، لم أنسَ.

- حدّثتني عن بودلير فكرِهْته. وجدتُه رجلاً شرّيراً، زد على ذلك رعبَه من النساء! فقلت لكَ لا أريد سماعه. ومع ذلك، فقد قرأتَ عليَّ الخادمة ذات القلب الكبير:

«الموتى، الموتى المساكين، ما أعظم ألَمهم!»

فاقشعرّ بدني، أتذْكُر؟ فألقيتُ بدوري قصيدة أغنية هيواثا للونغفيلو. كان الأمر أشبه بمعركة، كلماتُك مقابلَ كلماتي. أمّا جاك الذي لم يكن يفهم ما يجري، فقد همّ بقراءة قصيدة لامارتين «البحيرة». أيّ فظاعة!

لقد أصبح هذا كلّه بعيداً جدّاً الآن. وقد بدا هنا، بين جدران الحمم البركانية، وفي هواءِ الغروبِ الحارّ والعزلة، شديد الغرابةِ، عصيّاً على الإدراك أو يكاد.

- قرأتَ لي قصيدة بودلير الدّعوة إلى السّفر. ولم أُرد أنْ أخبرك بما شعرتُ به آنذاك. إنّني لم أسمع قطّ أجمل من ذلك.

كنّا نفكّر في الشيء ذاته، في اللّحظة ذاتها.

- تتذكّر عندما نزلْتَ إلى اليابسة في عدن؟ كنت على ظهرِ السفينة، متمدّدةً على كرسيٍّ طويل أستنشق بعض الهواء النقيّ. كان الحرّ شديداً، وكان القائد بوالو حاضراً. عاد

جاك شاحبَ الوجه وقال لي: «لقد رأيت قبل قليلٍ رجلاً يُحتَضر». وكان صوتُه يشي برغبته في البكاء.

ثمّ تراجعَت إلى الوراء، وتمدّدت على الأرض السوداء مغمِضةً عينَيها. أمسكتُ يدَها، كانت ناعمةً ودافئة وممتلئةً قوّةً. شدّت على كفّي وقالت بحسرة، كأنّها عرفت حقّاً من يكون ذاك الرّجل:

- يا إلهي، كم كرهتُ رامبو هذا!

كانت الرّيح تهبّ على جدران البيت، فتناهى إليّ صوت جاك. كان قد وصل إلى رصيف الميناء على زورق ماري. سمعتُ كلماته في نفحاتٍ متقطّعة مترنّمة، كما لو كان يتحدث الكريوليّة. أردتُ أن أذهب وأختبئ، لكنّ سوزان أمسكتني من يدي، وتكلّمَت سريعاً، كي تنهيَ حديثها قبل أنْ يصل جاك.

- صاحبُك رامبو هذا رجلٌ شرّير، لكنّه كتب قصائد جميلة.

ربّما عليك أن تكون شرّيراً كي تنظم قصائد جميلة.

- أو ربّما العكس، فلعلّه أصبح شرّيراً لأنّه كتب أشياء جميلة.

- كلّا، لا أعتقد أنّ هذا صحيح. ثمّ نظرتْ إليّ، وقالت بصوتٍ يكاد يكون همساً:

«بينا أَنزِل أنهاراً واجمةً
لم أعد أحسُّ بي مقطوراً من لَدُنْ ساحبي الحبال
كان هنودٌ حمرٌ قد تخِذوهم أهدافاً
بعدما سمّروهم عراةً على الأعمدة الملوّنة».[1]

(1) من قصيدة «المركب السكران» لآرتور رامبو بترجمة كاظم جهاد، مصدر سبق ذكره.

كان ذلـك أيّـامَ هاسـتينغز، حيـث كنـت أحمـل معـي، أينـما ذهبـتُ، الكـرّاس الـذي كُتبـت فيـه هـذه القصائـد. لقـد وُهِبَـت سـوزان ذاكـرةً استثنائية. إذ لم أكـن قـد قـرأت لهـا هـذ القصيـدة سـوى مـرّةٍ واحـدةٍ، وقـد أصغـت إليهـا بجديّـة الأطفـال.

غـادَرتُ الغرفـة. كان الشّـفق في الخـارج مبهـراً، واعـتراني إحسـاسٌ بأنّنـي أسـمع صـوت الضـوء، كأنّـه ارتعـاشٌ مُتّصـل. دخـل فـيران وبارتولي مُلحـق المسـتوصف، وأقبـل جـاك نحـوي.

- كيف حالها؟

- تبدو أفضل. فهي تتحدّث كثيراً.

لم أسـتطع التقـاط نظـرة جـاك في ضـوء النّهـار. لكنّنـي رأيـت طيفـه الهـشّ، وانحنـاءة ظهـره، ولحيتـه وشـعره الأشـعثَين، وصلعتـه الناشـئة، وهـي العلامـةُ التـي تميّـز عائلـةَ أرشـمبو وتسـخر منهـا سـوزان. كان صوتـه متعبـاً مـتردّداً:

- لم يتبـقّ عندنـا شيءٌ تقريبـاً، لا مـن الكينـين ولا مـن المطهّـرات، فـكان علـيّ أن أذهـب لتسـوّل المـؤن مـن باليسـاد. كان فـيران يفكّـر بالسّـطو عليهـا بمسدّسـه! لقـد أصبـح خطـيراً.

نظرَ حوله تائهاً.

- سيتعيّن علينا صنعَ الجير، الكثير من الجير.

- هل استطعت التّواصل مع المحافظ؟

هزّ جاك كتفَيه.

- سوزان من أخبرتْك؟

جال ببصره بحثاً عن فيران الفاسد.

- إنّها فكرة هذا الوغد المتبجّح. ظنّ أنّهم سيرسلون قارباً لنا بناءً على طلبه. ما كان ينقصه إلّا أنْ يشترط أنْ يكون قاربَ أفيزو![1]

بدا في غاية اليأس حتّى أنّني كنت أنا من حاول تهدئته هذه المرّة، مستعيداً العبارة القديمة: «قلقٌ ورجاء...» وإنْ كنت لا أؤمن بما أقول.

ونظرتُ إلى وجهه في ضوء السّماء الصافية: اللّحية والأنف المعقوف والجبين العالي الأصلع. إنّه هو، وإنّه كلُّ ما تبقّى لي من أبي، أستطيع أن أتخيّل كيف كان لمّا التقَت به أميّ عام 1860 على متن السفينة البخارية إنديا، في الطريق إلى إنجلترا. كان في عمرِ جاك اليوم، أكملَ دراسة القانون في لندن وصار محاميّاً لامعاً، شابّاً رومنطيقيّاً في مُقتَبَلِ العمر، يثيرُ إعجاب النساء. وقد وقع على الفور في حبّ هذه الفتاة الغريبة الأوراسيةِ، الجريئة والمتحفّظة في آنٍ معاً، التي كانت ذاهبةً للعمل في الطرف الآخر من العالم. احتفظ جاك بالورقة الكبيرة حيث كتبت أماليا الاستبيان الطويل الذي كانت الفتيات الشابّات في ذلك الزّمن يطرحنَه على من يخترنَه ليكون فارسهنّ في السّهرة:

- ماذا تحبّ اللّيلةَ؟
- أنْ أنظر إليكِ.
- ماذا تكره؟
- أنْ ينظر الآخرون إليكِ.

(1) نوعٌ من السّفن الحربيّة الفرنسيّة السريعة.

- رقصتكَ الأثيرة؟

- لا شيء، لا أعرف الرّقص.

- بطلُك؟

- ألكسندر.

- بطلتك؟

- جولييت.

- بماذا تحلم؟

- بالأرض البعيدة.

- في أي بلد تودّ أن تعيش؟

- لا أعرف. ربّما في لابي[1]

- الصّفة التي تفضلها في الرّجل؟

- الصّراحة.

- في المرأة؟

- الرّقة.

- لو كانت لك أمنية؟

- أنْ أراكِ كلّ يوم.

- حالتكُ الذّهنية في هذه اللّحظة؟

- قلقٌ ورجاء.



لم أعرف قطّ ما الذي فعله جاك بتلك الورقة. لكنني نسختها بدوري، وحفظتها عن ظهر قلبٍ لأتلوَها على نفسي ليلاً، مثل

(1) مقاطعة ممتدّة على عدّة بلدان في شبه الجزيرة الاسكندنافيّة.

مسرحيّة، في نزل السيدة لو بير في روي ماليزون، وأكثر ما أحببته فيها، وكان يجعلنا نضحك دوماً أنا وجاك حين يقرأها كلّ منّا للآخر هو هذه الإجابة الأخيرة: «قلقٌ ورجاء»، وكلّما واجهتْنا عقبةٌ في الحياةِ، أو خشينا أمراً ما، كان يخلُص أحدنا دوماً إلى القول: «قلقٌ ورجاء».

ابتسم جاك ابتسامةً طفيفة. فقد تذكّر هو الآخر.

خيّم اللّيل على الكرنتينة. وبعد أيّام من المطر والريح، انجلت السماء وتألّقت. لا أستطيع النّوم من فرطِ الضوء، ومن هذه الهِزّة الآتية من قاعدة الجزيرة مثل موجةٍ تسري في البازلت لتتسلّل إليّ فتجعلني أرتعش على ساقيّ. لكأنّ الجزيرة بأكملها ذاكرةٌ تنبثق من قلب المحيط، حاملةً في ثناياها شرارة الولادة الدّفينة.

حين كنا معاً في فرنسا، في حيّ مونبارناس، كان جاك يحدّثني طيلةَ الوقت عن جزيرتنا، عن بحرها الذي تُرى فيه زرقةُ العالم كلُّها، معتماً غاضباً تارةً، وشفيفاً عذباً وساجياً تارةً، مثل نهر دائريّ يتدفّق عبر البحيرة حاملاً أزهاراً من الزّبد. وعن سمائها أيضاً، والنجوم التي تشعّ في ليلها. ومن كثرة ما استمعت إليه انتهى بيَ المطاف إلى الاعتقاد بأنّني رأيت هذا كلّه حقّاً، وأنّني أتذكّره الآن بعدَ أنْ جلبْتُه معي مثل كنز حينَ رحلتُ عن موريشيوس. وفكّرتُ في سوريا. فقد عاشتْ هي أيضاً حياةً عبرَ أمّها، ومثلي تحمل ذكريات تختلج في أعماقها وتمتزج بحياتها، ذكريات الطّوْف الذي أبحرَ بأنانتا وجيريبالا على طول الأنهار، وذكريات أسوار مدينة الله أباد ومدارج المعابد في فاراناسي، واهتزازات السفينة التي اجتازت بهما المحيط نحو المجهول، نحو الطرفِ الآخر من العالم.

هـو ذاك، وأعلمُـه الآن جيّـداً: إنهـا الذّاكـرة التـي تهتـزّ وترتعـش في أعماقـي، هـي الأرواح الأخـرى والأجسـاد المحترقـة المنسـيّة التـي تصعـد ذكراهـا إلى سـطح الجزيـرة. هكـذا تحدّثـت سـوريا عـن جدّتهـا التـي اختفت في النـار، في مـكان مـا عـلى شـاطئ باليسـاد، وظلّـت روحُهـا المُنعتِقـة تتنقّـلُ بـين الحجـارة السـوداء والأجـمات الشـائكة ممتزجـةً بأنفـاس الريـح، جاعلـةً طيـور رئيـس البحـر تحـوّم فـوق بحـيرة غابريـال مثـل حـراس أبديـين. وحـين تمـوت أنانتـا، سـتعودان معـاً إلى نهـر يامونـا.

نمـتُ في الكرنتينـة عنـد البـاب، وهـو المـكان الـذي اخترتُـه منـذ البدايـة كـي أتجنّـبَ لدغـات البعـوض. واسـتعدت وسـادتي، الصخـرةَ البركانيّـة القديمـة التـي حتّهـا المطـر والريـح. وأخـذتُ أسـتمع إلى حفيـف الريـح في أوراق الحشـف المقـوّس وسـعف النخيـل. كانـتْ ليلـةً أشـبهَ بأمسـيةٍ صيفيّـة، حيـث كلّ شيء يعـزف لحنـه الخـاصّ. سـمعتُ بوضـوحٍ أزيـز السرطانـات البريّـة، وصريـر الفئـران الخفـيّ بـين النخيـل الكرنْبـيّ، وحتّـى دبيـب الحريـشِ بقشرتهـا الحديديّـة. لم أسـتطع النـوم عـلى الرغـم مـن التّعـب الـذي يحـرّق جفنَـيّ. سـمعتُ أنفـاس سـوزان الهادئـة، وشـخير جـاك في عمـق الغرفـة. وفي لحظـة مـا، خرجـتُ لقضـاء حاجتـي، فرأيـت البـدر يلمـع في مـرآة البحـيرة. كان المـدّ يعلـو ويعلـو، لا في موجـاتٍ كبـيرةٍ عاتيـةٍ مثـل تلـك التـي أحاطـت سـوريافاتي بهالـةٍ وهـي في طريقهـا إلى الشّـعاب المرجانيـة، وإنّـما بلطـفٍ، غامـراً بهـدوء كلّ تجويـفٍ وثلـمٍ بـين الشّـعاب. وتناهـى إليّ مـن بعيـد، مـن جهـةِ صخـرة بيجِـن هـاوس، هديـرُ المـوجِ المتـكسّر عـلى الرصيـف المرجـانيّ. ثـمّ سـمعتُ وقـع خطـىً فخفـقَ قلبـي

بشدّة لظنّي أنّها سوريافاتي. ولمّا دنا الطيف منّي، عرفتُ أنّها سوزان. كانت تقف بقميصها الأبيض الطويل، وشعرُها المُسرّحُ يرفرف في الريح مثل مُسرنَمةٍ. قلت بِنبرةٍ ساخطة. وقد أحسستُ أنّ مشاعري قد استبدّت بي.

- إلى أين؟

بدت خائفة. كانت بيوت الكرنتينة تلمع في ضوء القمر. لم تُرِد أنْ توقظَ جاك.

همست قائلةً:

- لا إلى أيّ مكان، لست ذاهبةً إلى أيّ مكان، كنت أبحث عنك.

كانت متردّدة. انتَظَرَت أنْ أمسك بذراعها وأُعينها على المشي.

- ليون، لن تذهب، أليس كذلك؟ لن تتركنا؟ ليس لجاك أحدٌ سواك، ولا لي أيضاً.

بقيتُ ساكناً. وكنت أشعر بالبرد.

- كلّا بالطبع، إلى أين تريدينني أن أذهب؟ عودي إلى فراشك، سيقلق جاك عليك.

أرادت التوجّه إلى المرحاض، لكنها لا تقوى على المشي بمفردها، ولا تجرؤ على قول ذلك. أمسكتهُا مِن تحت ذراعيْها وكأنها مصابةٌ بالشلل، وجعلتُها تخطو خطواتٍ صغيرةً فوق الحفرة. أردتُ أن أساعدها في الجلوس لكنّها طلبت منّي الانصراف.

- كما ترى! فما زال بي بعض قوّة لأتدبّر أمري.

في طريق العودة، كادت تسقط أكثر من مرّة، وكانت تتصبّب عرقاً. ابتعدتُ قليلاً كي لا استنشق أنفاسها. ولكي لا تحسّ بذلك حاولتُ

أنْ أمازحها.

- هيا، خطوة أخرى، أنتِ أحسن حالاً مما كنت عليه قبل يومين أو ثلاثة. لم تكوني قادرةً حتّى على الوقوف.

أمسكتُ بها.

- هذا فظيع يا ليون، إنّني... إنّ ركبتَيّ تنثنيان إلى الوراء.

- ماذا تقولين؟ مستحيل!

- بلى، بلى. أؤكد لك إنّها الحقيقة. لم أكن أعرف أنّني وصلت إلى هذا الحدّ.

غلبها البكاء. وتهالكت على الأرض أمام جدار البيت.

- لا أريد العودة إلى البيت، لا يمكنني تحمّله بعد الآن. رائحته الكريهة والجدران وكلّ شيء، أرغب في التقيّؤ. أشعر أنّني إنْ عدت إليه، فسأموت اللّيلة.

استيقظ جاك.

- ماذا يحدث؟ ما بها؟

فاجأني أنْ يتحدّث عن سوزان بضمير الغائب، كأنها لم تعد موجودة.

- ليون، ساعدني كي نحملها إلى الداخل.

غضبتْ سوزان وقاومت، ثمّ انفجرت باكيةً.

- اتركاني وشأني، لا أريد العودة إلى البيت، أنتما شرّيران، ابتعدا عنّي!

تراجعتُ، وقد انعقد لساني. لكنّ جاك أكّد قائلاً:

- لا يمكنها البقاء هنا في مجرى الهواء، فقد تتعرّض لالتهابٍ رئويّ مع هذه الحمّى.

أثارت الجلبة انتباه جوليوس فيران وبارتولي. فوقفا أمام ملحق

المستوصف محاولَين معرفة ما يجري. حتّى أن فيران صاح متسائلاً:

- من هناك؟

وفجأة استعادت سوزان شيئاً من قوّتها وشجاعتها، فصاحت:

- ولكن ماذا تريدان؟ انصرفا، دعاني وشأني.

استطاعت النهوض بمفردها متشبّثة بحافّة السلسلةِ الحجريّة. وعادت إلى البيت.

ذهب جاك لجلب الماء من الصهريج، وأذاب مسحوق الكينين في القدح. وسمعته يقول لها بهدوء كمن يتحدّث إلى طفلة:

- اشربي أرجوك يا عزيزتي، اشربي، وإلّا فلن تتعافي أبداً.

قالت وصوتها لم يزل مختنقاً:

- كلّا، اتركني، إنّني منهكة.

لا أعرف إنْ كانت قد شربت في نهاية الأمر. فلمّا دخلتُ البيت بعد هنيهة، رأيتهما على ضوء القنديل، متعانقَين، ساكنَين، كما لو كانا نائمَين.

كـم يومـاً مـضى مـن دونـك يـا سـوريا؟ مُـذ طرَدتِنـي إلى الطـرف الآخـر لم أقـترب، ولم أحـاول معرفـة مـا يجـري، ولم أعـدّ الأيـام. كنـت أسـير كلّ صبـاح عـلى الـدّرب المفـضي إلى خليـج الأضرحـة عنـد سـفوح الـبركان. مـن هنـاك، أرى في الأفـق السـاحل الأخـضر الباهـت جليّـاً في الأفـق، وألمـح الزّبـد عـلى قمّـة مالـورو. لم أعـد أعـرف إنْ كانـت موريشـيوس بعيـدة أم قريبـةً، فمـن فـرط النظـر إليهـا، صـارت تبـدو لي أحيانـاً طوفـاً هائـلاً آخـذاً في الابتعـاد عنّـي، منسـاباً تحـت أشرعـة الغيـم التـي تسـوقها الرّيـح.

كانـت الأخبـار الوحيـدة التـي نتلقّاهـا مـن الطّـرف الآخـر تأتينـا عـبرَ المسـنّ مـاري، ثـمّ يردّدهـا ويضخّمهـا بارتـولي وفـيران الفاسـد.

وقـد تحـدّث جوليـوس فـيران مسـاء أمـس بعـد تنـاول الطّعـام (أرزٌّ وعـدس مسوّس)، عـن شـابّ مـن المنبوذيـن بنـى طوفـاً مـن جـذع شـجرة جـوز هنـدٍ متعفّـنٍ ومـن خيـوط الـكاذيّ، كـي يمكّنـه مـن الإبحـار إلى موريشـيوس. وانطلـق إلى البحـر مـن جهـة خليـج باليسـاد. تحـدّث فـيران عـن هـذه المحاولـة كأنّهـا مشـهدٌ هـزليّ. انجـرف الفتـى إلى البحـر للحظـة ضاربـاً بيدَيـه وقدمَيـه كـي يدفـع طوْفـه إلى الأمـام، لكـنّ موجـةً دفعتـه مـن جديـد نحـو الرّصيـف البازلتـيّ، وكادت تغرقـه.

– ما اسمه؟

بدا فيران متفاجئاً بسؤالي.

– وما أدراني؟ فتىً صغيرٌ من المنبوذين.

لم أكـن بحاجـة لسـماع المزيـد، أعلـم أنّـه كان أوكا، الكنّـاس، الـذي كاد يغـرق في ذلـك اليـوم وهـو يحـاول السّـباحة إلى القـارب.

قلتُ بشجاعةٍ مُتحدّياً:

- أنا أيضاً سأفعل مثله.

هزّ فيران كتفَيه.

- إذا أردت، فلن أمنعك. لكنّك لن تصل أبداً. هناك الكثير من التيّارات. لماذا تعتقد أنّ رجال موريشيوس سجنونا في هذه الجزيرة؟ وأردف قائلاً:

- ولا تنسَ أيضاً بعض أنواع سمك القرش البيضاء الجميلة!

لم يكلّف جاك نفسه حتّى عناء الإصغاء إلى هذا الحوار. لكنّ سوزان نظرتْ إليّ مرتابةً. كانت تخشى أنّني سأنفّذ حقّاً هذه الخطة، تحدّياً فقط لهذا الرّجل الذي أمقته. قال بارتولي:

- هذا غير عمليّ. فلو كان هناك أدنى فرصة، لأقدمَ كثيرون من قبلك على ذلك.

رمقَني فيران بنظرةٍ غريبة، وكأنّ هذه الفكرة المجنونةَ أغْوَته في نهايةِ الأمر.

- سنحتاج إلى قاربٍ حقيقيّ. وعلى كلّ حالٍ، فقد نجح فرانسوا ليغوا في الإبحار من رودريغز إلى موريشيوس على جذع شجرة.

كان يفكّر بصوْت عالٍ.

- سنحتاج إلى خشبٍ متين، وإلى أنْ نبنيَ سطحاً وعوّاماتٍ وصاريَةً مع قائمِها. ثمّة بالفعل خشبٌ من الصناديق، ورافعةُ حبلٍ مكّوكيّ في باليساد، إلّا إذا ألقى بها العمّال في محارقهم. هناك أيضاً زورق غابريال. وهذا في مجموعه سيسمح بنقل ما يقارب عشرة أشخاص.

كان بارتولي متشكّكاً:

- أوَتُسمّي هذا قارباً حقيقيّاً؟ وحافته لن ترتفعَ، بطبيعةِ الحال، سوى قدر أصبعَين عن سطح الماء، وأقلّ دوّامة يحدثها سربُ أسماكٍ ستجعله ينقلب؟

قال جاك:

- وعلى افتراضِ أنّنا وصلنا، ما الذي سيحدث؟

- سيجبَرون على الاستماع إلينا، وتلبيةِ مطلبنا بأنْ نُنقَلَ إلى لا بوانت أو كانونييه. لن يعيدونا إلى هنا بأيّ حال!

- إليك ما سيفعلونه بالضّبط. قبل أنْ تجتازوا كوان دو مير، سيكون مركب خفر السّواحل هناك بالفعل، وعندها لكم أنْ تختاروا: إمّا أنْ تصعدوا على متنه عائدين إلى هنا، وإمّا أن يلقوا بكم في عمقِ المحيط بطلقاتٍ ناريّة.

واختتم بارتولي حديثه قائلاً:

- إذن فقد كان المنبوذ على حقّ. لم يكن مجنوناً إلى هذا الحدّ على أيّ حالٍ. فالحلّ الوحيد هو أنْ تبنيَ عوّامتك وتنطلق سابحاً بمفردك، على أمل ألا تقابلك أسماك القرش.

لم يكن هذا الحوار مطَمئِناً لسوزان. وحين خرجتُ من الكوخ، شعرتُ بنظرتها مسلّطةً عليّ، كما لو كنت في تلكَ اللّيلةِ سأرمي نفسي في الماء حقّاً.

منذ عودتي إلى هذا الطرف من الجزيرة، صرنا نمضي أغلب الوقت محبوسين في مبنى المستوصف، حيث يعدّ المسنّ ماري الطعام. ولـمّا كان جاك يقطع دوره في لعبة الشطرنج كي يذهب ليعود المرضى

في جزيرة غابريال، كنت أمكث في رفقةِ سوزان، ونظلّ جالسينَ عند العتبةِ لأنّها كانت ترتعب من عتمة الغرفة وجوّها الخانق. فأسلّيها بالحديث قليلاً، وأساعدها في الوصول إلى المرحاض. وكانت تأتيها لحظاتٌ من جلاء بصيرة عميقة ومتّقدة. فتلتمع عيناها ببريقٍ ثابتٍ يقلقني، إذ يذكّرني بنظرة نيكولا. وكانت بشرة وجهها مشدودةً جدّاً، خاليةً من أيّ ثنيةٍ، إلى حدٍّ منحها تعبيرَ دمية، حيث الألم والخوف كأنّما أزيلا بممحاة.

عصرَ أمس، طلبَت سوزان من جاك أنْ يقصّ لها شعرها. ظلّت أسابيع غير قادرةٍ على غسله أو تصفيفه. لم يكن عند جاك مقصّ، فتناول موسى الحلاقة الذي يشذّب به لحيته وأخذ يُقَطّع به الشَّعر الكستنائيّ الغزير الدّاكن ذا اللّمعة الذهبيّة الذي كنت أعشقه. لكنّ هذا المشهد الذي كان سينطوي على مأساويّةٍ لا تُطاق، قد أصبح بفضلها مبهجاً وجنونيّاً نوعاً ما. كانت تجلس على حجرٍ أمامٍ الكوخ، بقميص نومها ذي التقويرة الواسعة، وعلى كتفَيها شالٌ هنديٌّ اشتراه لها جاك أثناء توقّفنا في عدن. وكانت تضحك كلّما أسقط جاك خصلةً غليظةً من شعرها. ولمّا فرغ من المهمّة، وقفَت شادّةً قامتها أمامي كي أنظر إليها. بدت أشبه بفتاة صغيرةٍ هاربة من دير، جبينُها متورّم، وعنقها مستقيمٌ، وأذناها شديدتا الاحمرار. وفكّرتُ أنّه، من أجلها، ومن أجل كلّ ما هي عليه، لن يكون في وسعي أنْ أغادر، لن أقدر على الهرب. وبسبب وجهها وجبينها ونظرتها الزّرقاء الرماديّة، سأبقى سجين الكرنتينة. لماذا عليّ الاختيارُ بين شقيقتَين؟

كانت الحُمّى تعاودها عصرَ كلّ يوم حين يتلاشى الضّوء فوق البحيرة. وهي الساعة التي تكون فيها في ذروةِ صفائها الذّهنيّ. تبدأ ترتجف، وأرى الخوف يتصاعد في عينَيها مثل موجة، فأخلط لها في القدح مسحوق الكينين مع ماء الصهريج الفظيع، وأعطيها إيّاه لتشرب. كان جاك هو من كلّفني بهذه الخدمة، لأنها كانت ترفض ذلك منه. ثمّ على سبيل المكافأةِ، أفتح كتابها الصغير الذي أكل العفن غلافه الملوّن بالأزرق والأسود. فتلمع نظرتُها تَوْقاً.

قرأتُ أغنيةَ هيواثا كما لو كانت حكاية أطفالٍ، وهي قصيدةٌ بلا معنى خفيّ، مجرد موسيقى كلماتٍ تبعث على الحلم. وكان يبدو لي أحياناً أنّني أقرأ هذا المقطع نفسه إلى ما لا نهاية.

«أتُراها شمس المغيبِ
تحطُّ فوق صفحة الماء؟
أم البجعة الحمراء تعوم وتحلّق
وقد أصابها السّهم السّحريّ
صابغةً الموج كلّه بالقِرمزيّ
قِرمزيّ دمها النّابضِ بالحياة..».

كانت سوزان تتأمّل تحوّلات الضّوء على البحيرة، فيما طيور البلشون المخطط الكئيبة تحلّق ملامسةً رصيف الشّعاب المرجانيّة.

لا تهمّ الكلمات. ما يهمّ هو البريق في عينَي سوزان. بريقُ الترقّب.

في ذلك المساء، ذهبتُ لأتمشّى على طول الشّاطئ في انتظار عودة جاك من جزيرة غابريال بأخبار جون وسارة. راقبتُ أولى علامات

المدّ على الحاجز المرجانيّ. كان البحر هادئاً، سوى من بعضِ غيماتٍ من عجاج البحر ترسم من حينٍ إلى حين قوس قزح، وهبّات من الرّيح الشرقية بمذاق الملح. بدت الجزيرة أمامي جرداء قاتمة، بلا حياة. كنت بالضّبط في المكان الذي رأيت فيه سوريافاتي أوّلَ مرّةٍ، بطيفها الواقف في منتصف البحيرة أشبه بطائر بلشون أبيض. أمّا الآن فرصيف الشّعاب المرجانية خالٍ، والدّرب الذي يحاذيه يكاد لا يرى، لقد هُجِر المكان. فمنذ صبيحةِ اليومِ الذي أطلق فيه فيران نيران مسدّسه على جدي ضالّ، في مشهدٍ هزليٍّ دراميّ، لم يعد الأطفال يأتون لجمع الأصداف البحرية. والآن يبدو لي أنّ الحاجز المرجانيّ باتَ يمثل الحدود الحقيقيّة بيننا وبين الطرف الآخر من الجزيرة.

تناهت إليّ مع هبوب الرّيح صافرةُ السّردار الطويلة وصوت الأذان. وأحسست أنّ ترتيلَ المؤذّن هذه المرّة أقرب إليّ من أيّ وقت مضى. وللحظةٍ، حلمتُ بأنْ أكون هناك على الطرف الآخر، أقربَ ما يكونُ إلى هذا الصوت.

ولّما عدتُ إلى الكرنتينة، رأيت جاك يتحدث مع بارتولي وفيران. بدا صوت هذا الأخير عنيفاً، يوشك أنْ يكون خطيراً، وكان جاك مرعوباً. قال بصوتٍ خفيض وكأنّه لا يريد أنْ تسمعَ سوزان:

- يريدون مني أن آخذ سوزان صباح الغد.

لم أفهم.

- إلى أين تأخذها؟

- إلى جزيرة غابريال، في الجهةِ الأخرى، إلى مخيّمِ المصابين بالعدوى.

فما كان منّي إلّا أنْ صرخت:

- لكنّها محمومةٌ فقط!

قاطعني جاك بشيءٍ من الفظاظة.

- سوزان مصابة بالجدري المتكدّس. لا شّك في هذا.

كان يتحدّث بيأسٍ شديد حتّى أنّ عينيّ اغرورقتا بالدّمع. لم أعرف ماذا أقول أو أفعل. خرجتُ أتمشّى حول الكرنتينة متأمّلاً آخر أنوار المغيب الآخذة في الانطفاء فوق البحيرة، وكتلةَ غابريال السوداء في البعيد، وأصغي إلى هدير البحر وهو يضرب في الساحل. كيف سمحنا بأنْ تقع سوزان في هذا الفخ؟ تعاظم الشعور بالخواء في نفسي، في نفسَينا، خواءٍ لا شيء يقْدر على ملئه. وتذكّرتُ فجأةً كلّ ما سبقْ: التهيّؤ للرّحيل، والقطار إلى مرسيليا، والصّعودَ على متن لافا، وأمسيةَ الوداع، والقناديل المعلّقة على حبال الأشرعة، والشرائط الملوّنة، والأوركسترا التي عزفت لحنَ رقصةٍ رباعيّة لركّاب الدرجة الأولى، وجاك وسوزان متعانقَين يرقصان في فضاء الدّرجة الأخيرة، وأحواض المياهِ الناعمة السوداء في المرفأ، وانعكاسات أضواء المدينة القديمة، وزوارقَ الصّيد ذات المصابيح تنساب وئيدةً قبالةَ السّاحل.

اعتصر الألم قلبي حين دخلتُ الغرفة. كان جاك يجلس بجوار سوزان، وكأنّه ينتظر حدثاً أو قراراً. وعلى ضوء قنديل الكاز، لاحظتُ لأول مرّة ما رآه جوليوس فيران بلمحة واحدة: وجهَ سوزان المتشنّج، وجفونها الثقيلة، وشفتَيها الجافّتَين المتورّمتَين، وتعبيرَ الألمِ المكتومِ والذهول ذاته الذي طالعته في وجه جون ميتكالف قبل نقله إلى جزيرة غابريال.

وشعرتُ بغضبٍ مفاجئ حين فكّرتُ كيف أنّ فيران الفاسد كان يأتي كلّ يوم لرؤية سوزان، مدّعياً بوقاحةٍ أنّه لم يأتِ إلّا ليسأل عن حالها، فيما هو في الواقعِ قد جاء يعاين عليها أولى علامات المرض كي يُرسلها إلى جزيرة غابريال، وينفيَها بعيداً عن الأحياء. لم أعد أستطيع السيطرة على نفسي، ارتجفتُ غضباً، ومشيت نحو المستوصف بحثاً عن الطاغية، فلم أجد سوى ماري جالساً في مكانه أمام الباب، يدخّنُ غليونه مثل فيلسوف. ولمّا سألته عن مكان فيران، بالفرنسية أولاً، ثمّ بالكريولية، نظر إليّ بعينَيه اللّامباليتَين دون أن يجيب، لكنّي لم أكن في حاجة إلى إجابته. ركضتُ عبر الصخور إلى خليج الأضرحة وصعدتُ سفح البركان دون أن ألتقط أنفاسي. أردتُ أن أبلغ القمّةَ قبل حلول الظلام، هناكَ حيث حقلُ الحجارةِ البازلتية الذي يحضر إليه فيران كلّ مساء ليراقب باليساد. وجدته جالساً على صخرة مسطّحةٍ أعلى النّبع مباشرةً. وفي الأسفل، حيث ينبسط الظلّ، كانت النّساء الهنديّات يغرفْنَ الماء، بعضهنّ عارياتٍ حتّى الخصر، يغسلن شعورهنّ الطويلة.

لمحتُ ملابسهنّ الصفراء والحمراء تجفّ على الصخور السوداء. تملّكني الغضب. إذ لم أستطع أنْ أتقبّل نظراته الفاسقة في هذا المكان الحميم، وعلى هذه المياه النقيّة. وفكّرتُ فيما اقترفه، في الرّصاصات التي أطلقها على جذْيِ شوتو، وفي يأس أوكا.

وما كان منّي إلّا أنْ هجمتُ عليه بوثبةٍ واحدة. أدار رأسه وأنا أضغط على عنقه بثنيةِ ذراعي. تفاجأ للحظة وانحنى للأمام فضربْتُه بقبضتي اليسرى. ثمّ استقامَ، فصرت تحته، وقد اصطدم رأسي بالصخرة. «أيّها الوغد الصغير، سوف أربّيك!» ووضع ركبةً واحدة

على ذراعي. كان قويّاً شديد الثقلِ فلم أستطع حراكاً رغم محاولاتي المسعورة، ثمّ حاولَ، بغضبٍ باردٍ، أنْ يخنقني. ضغطَت يداه على عنقي وسحقت حنجرتي. نظرتُ إلى وجهه فوقي، مجرّد قناع بعينَين سوداوين غائرتَين، شنّجَه تعبيرُ الكره والجنون. لم ينبس ببنت شفةٍ ولم يتزحزح، كان يضغط فقط بيديه على عنقي ويخنقني. ولمّا كدتُ أفقد وعيي، سمعتُ صوت بارتولي الأجشّ. كان يشدّه من كتفَيه إلى الخلف محاولاً أنْ يفكّ قبضته وهو يصيح قائلاً:

- اللّعنة، فلتتركه! إنّه مجرّد طفل، سوف تقتله!

فانفتحت أصابع يده واحدةً تلو الأخرى، وأرخى قبضته في نهايةِ الأمر.

- اتركه! لقد جُننتَ!

صار في وسعي أنْ أتنفّس ثانيةً. نهض فيران مستنداً إلى بارتولي. كان شديد الشحوب، وآثار تورّطه في جريمة قتلٍ باديةٌ بعدُ على وجهه.

سرتُ مترنّحاً بين الصخور، وكلّما استنشقت الهواء حرّقتني أنفاسي وملأ الدّمع عينَيّ، دون أنْ أعرف ما الذي كان يوجعني أكثر، اختناقي أم غضبيَ العاجز.

مضيتُ لا ألوي على شيءٍ، هابطاً المنحدر نحو المقبرة. صبغَت شمس المغيب البحيرة بلون الدّم، وبدت الجزر مثل تخثّراتٍ دمويّة سوداء غيّبتها الغيوم وطواها اللّيل. وفيما أعبر المقبرة القديمة، رأيت سوريا. كانت تقف وسْط الصخور ملتفتةً قليلاً إلى الوراء، وكأنها تتأهّب للهرب. إلى الأعلى يمتدّ حقل أنانتا حيث عَمِلْت، والمدرّجات والحوْطات. كلّ شيء صامتٌ خاوٍ. أقبلتْ سوريا نحوي ومرّرت يدها على وجهي. كان الدّم قد ألصق

شعري بصدغَي، في موضع اصطدام رأسي بالصخرة. قالت، كما لو أنّ شيئاً لم يحدث بيننا، وكأنّنا التقينا البارحة:

- ماذا بك؟ هل تشاجرت مع أحدهم؟

سارت معي إلى الشاطئ. ثمّ تركتني كي تعود إلى والدتها. وقبل أنْ تغادر همست قائلةً:

- سأنتظرك اللّيلة هناك.

وأشارت إلى المنحدر حيث يقع الكهف.

في تلك اللّيلة لم ننم. كنّا وحدنا نحن الثلاثة في الكرنتينة، محاطين بالرّيح ووشوشة البحر. إنّه آخر مساءٍ لنا هنا. فقد اتّخذ جاك قراره. وغداً سنكون في جزيرة غابريال.

كانت سوزان مستلقيةً في آخر الغرفة، وبجانبها مصباح البونكا يضيء وجهها. كانت نظراتها تتسرّب من بين جفونها، وشفتاها متشقّقتَين. لربّما غاصت في حلمها المحموم، منتقلةً إلى عالمٍ وزمنٍ آخرَين، إلى مروج هاستينغز اليانعة الخضرة، أو إلى رصيف النزهة البحريّ حيث تَعزف الأوركسترا افتتاحيّة فليديرماوس[1]، وتحلّقُ طيور البحر مدوّمةً.

أحسستُ كأنّها تستمع إلينا من عمق نومها. فقلت لجاك:

- احكِ لنا المزيد عن بيت عزبة آنّا.

نظر إليّ حائراً. خلع نظّارته فبانت علامة الأنف المعقوف التي يمتاز بها أبناء أرشمبو.

(1) أوبريت «الخفّاش» ليوهان شتراوس.

- هل وِلدْتُ في بيت عزبة آنّـا؟

- أجـل وُلـدتَ فيـه، في غرفـةٍ بالطابـق العلـويّ عـلى مـا أذكـر. كان ذلـك خـلال عاصفـة رهيبـة، وكان الجميـع يخشـى مـن قـدوم إعصـار. لم يكـن هنالـك طبيـب، كان لا بـدّ مـن إحضـاره مـن **كاتـر بـورن**، انطلـقَ أبي في عربـة يجرّهـا حصـان تحـت المطـر الغزيـر، وعـبرَ الطريـق الـذي يمـرّ بـين الجبـال. هبـط اللّيـل، وكان الجميـع في انتظـار عـودة أبي، وكـم طـال الانتظـار! أتذكّـر أنّـه انتهـى بِيَ المطـاف إلى النّـوم أمـام البـاب، وقـد وُلِـدْتَ وأنـا نائـم، فلـماّ عـاد أبي مـع الطبيـب، كنـتَ قـد جِئـتَ إلى الدّنيـا.

كانـت هـذه هـي المـرّة الأولى التـي يخبرني فيهـا عـن يـوم مولـدي، وعـن العاصفـة. لقـد آلمني ذلـك، وفي الوقـت نفسـه، مـلأني قـوّةً ودفئاً. فكـرّتُ في سـوريا، وبـما همسَـت لي بـه عنـد مغـادرتي. فتمنّيـتُ أن يمـضيَ اللّيـل سريعاً.

سـمعتُ صفـير الرّيـح، وكان عـلى شـفتي طعـم البحـر، كـما في أوّل يـوم وصلنـا فيـه إلى الجزيـرة. وبـدا لي أنّنـي أسـمع صافـرة السّردار عـلى الطـرف الآخـر، ولكـن كيـف؟ فالفجـر لا يـزال بعيـداً، واللّيـل طويـل.

- وكان في اليـوم التّـالي أنْ رأيتـك للمـرّة الأولى، أو ربّـما في الأسـبوع التّـالي، فقـد قـال الطبيـب إنـك وُلِـدتْ مبكـرّاً، وكنـت هشّـاً. أتذكـرك جيّـداً، طفـلاً رضيعـاً بوجـهٍ جميـل، ليـس مثـل حديثـي الـولادةِ المعتاديـن عـلى الإطـلاق، شـعرُك أسـود فاحـمٌ وغزيـر. وكنـتَ كأنّـما وُلـدتَ بعينَـين مفتوحتـين، فعـلى الفـور حدّقـتَ في كلّ شيءٍ مـن حولـك بانتبـاهٍ كبـير.

لم تُبدِ سوزان حراكاً، لكنّني متيقّنٌ من أنّها كانت تسمع. كانت تتنفّس ببطء وعناء. لم أرِد أن أسمع صوتها المخنوق، أردتُ سماع المزيد من هذه الكلمات.

- هل حصلتُ على غرفتي حالاً؟

- كلّا، ليس كما تعتقد! لم ترغب أمّي في تركك، حتّى في اللّيل، أرادت أن تبقى بجانبها، فحصلْتَ على مهديَ المصنوع من الخشب والكتّان الخام، وكان يُصرُّ كلّما حرّكه أحد.

لم تشأ أميّ أنْ يأتوا لها بخادمة، أرادت أن تعتني بك بنفسها. كانت تُبقيكَ تحت ناموسيّتها، وكانت تخشى عليك كثيراً من الحمّى. وقالت أيضاً إنّها سمعت الفئران تتجوّل في البيت.

كان جاك يتمايل قليلاً وهو يتكلّم، كما لو أنّه يحاول إنعاش ذاكرته. وكان العمّ وليام يقول إنّ أبي كان يفعل الشيء ذاته، مثل الأطفال حين يُستَجوَبون.

- وهل كان هناك فئرانٌ في آنّا؟

- نعم، فئران كبيرة. فانتهى الأمر بأبي إلى شراء كلب أوْكارٍ[1]، وكانت هذه هي الوسيلة الوحيدة للتغلّب عليها. كانت تركض بين أشجار النخيل الكرنبيّ، فنسمع صوت مخالبها ليلاً وهي تخدش العوارض الخشبيّة في مخزن الغلال، حتّى أنّ أبي كان يطلق عليها النارَ من بندقيّته، لكنّه كان يسيء التصويب، فيُحدِث ضوضاء كبيرة.

ضحكنا. غريبٌ أنْ نتحدّث عن عزبة آنّا كما لو كان كلّ ما يجري طبيعيّاً، لكأنّنا كنا نستعدّ للعودةِ حقّاً إلى ديارنا بعد رحلةٍ إلى الطرف الآخر من العالم، وكأنّ كلّ شيءٍ يمكن أن يبدأ من جديد.

جَلَت الريح صفحةَ السماء، فائتلقت النجوم، وطلع القمر فوق البحيرة، هلالاً متناقصاً مائلاً مثل ثمرةٍ مقضومة. ثمّ تحدّث جاك

(1) Fox-terrier: كلب صيد صغير الحجم، مدرّبٌ على ملاحقة الطّرائد حتّى في أوْكارها.

عن سوزان. لكنّه لم يذكر اسمها، وإنّما تابع حديثه ببساطةٍ، بل يُمكنُ القول بلا انتباهٍ، عائداً إلى الصّيف الذي أقاما فيه حفل زفافهما في هاستينغز.

- كانت تصرّ على الاستحمام كلّ صباح رغم الرياح والمطر، فتحملُ ملاءةً كبيرة لتتّخذ منها ما يشبه خيمة، وكنت أرافقها إلى الماء... حتّى أنّ الصحيفة المحليّة قد تحدّثت عنها، مطلقةً عليها لقبَ «الجمال المستحمّ!»

بدتْ ليلةً بلا نهاية. هبطَ المدّ، فانبسطت مياه البحيرة وتلألأت تحت القمر. كان مشهداً فائق الجمال والسّكينةِ، يستحيلُ معه التّصديقُ بأنّ شبح الموتِ كان يحوم من حولنا. فكّرتُ في أنانتا، في جسدها الذي تنسلُّ منه الحياةُ شيئاً فشيئاً.

سكَتَ جاك عن الكلام، وأشعل سيجارته الأخيرة من التّبغ الإنجليزيّ، فتبعثرَ خيطُ الدخانِ الرّقيق مع هبّةِ الريح القادمة من الباب. كان يحلم بتلك الجنّة القريبة جدّاً، على الجانب الآخر من ذراع البحر، حيث حقول قصب السكّر تتماوج في الريح، والبيوت ذات الحدائق، والممرّاتُ المحفوفة بأشجار الكزورينة، وشوارع المدينة النابضة بالحياة أيّام الأحد، وبيت عزبة آنّا، والمكان الأثير عند أمّي، في نهاية الدرّب المفضي إلى البحر، الذي كانت تسمّيه مسرحَها، وتقصده كلّ مساء قبيل اللّيل، فتجلس لتصغيَ إلى شدو طيور الزّرزور.

اختفى طيف جاك في عتمة اللّيل، ولم أعد أرى سوى جمر سيجارته. اعترتني هِزّةٌ، فما زلت أشعر في أعماقي بذلك الارتعاش الشّبيه بهدير محرّكات لافا حين غادرنا ميناء مرسيليا، منذ أمدٍ بعيد، منذ الأزل.

سرتُ ليلًا إلى المقبرة القديمة. أردتُ أن أصل إلى قمّة الجرف، فقط كي أتنشّقَ رائحةَ خشب الصندل في دخان المحارق، وأسمع نباح الكلاب، وقد أضاء القمر البركان والقبور البازلتيّة. استدرتُ كي أنظرَ إلى البحر فيما وراء جزيرة غابريال، كان هائلاً بلون المعدن، وبدت الجزر كأنّها حجارةٌ نيزكيّة.

ثمّ شعرتُ بحضورها وبنظرتها القريبة جدّاً، متواريةً في الظّلمة. وأحسستُ بتنهيدةٍ، رعشةٍ اختلطت بوشوشةِ الرّيح والبحر، كان ذلك صوتها حين همست باسمي: بْهايْ...

بعيداً إلى الأعلى، تألّق القمر فوقَ الشّجيرات التي تُخفي مدخل الكهف. تسلّقتُ الصخور فرأيت سورياڤاتي. كان المصباح مشتعلاً عند مدخل الكهف، لكنّ ضوء القمر هو من كشف عنها. كانت جاثيةً على الأرض ترتدي شالها الكبير، وشعرُها الأسود مرسلٌ مفروقٌ إلى نصفين. بقيتُ واقفاً بين الصّخور، فنادتني مرّة أخرى بنفاد صبر: «تعال!»

جلستُ بجانبها عند مدخل الكهف. الرّيح هنا ساكنةٌ، ومصباح الكاز يتلألأ مثل نجم، وانبعثَت من قلب الكهف رائحة بخور بالغة العذوبة ومدوّخة. تحدّثت سورياڤاتي معي بلغة أمّها، كأنّها تهمس بأغنيةٍ تتسلّلُ إلى أعماقي. وكلّمتها أنا أيضاً. لا أدري ما قلت، ربّما أخبرتها عن إنجلترا، وعن المدينة التي كانت تحلم بها، ليس لندن ولا باريس، بل مدينةٌ مليئة بالحدائق والنوافير، حيث «إليفانت آند كاسل» هو اسم بيت الـ«راو صاحب»[1] في جانسي، وبها ممرّاتٌ تصطفّ على

(1) راو صاحب: لقب تشريفيّ كان يُمنح لشخصياتٍ قدّمت خدماتٍ جليلةً للعرش البريطانيّ خلال حقبة الاستعمار في الهند.

جانبيها الأشجار، حيث قاومت الملكةُ لاكشميباي الإنجليز على صهوة حصانها مع صديقتيها العزيزتين، ماندرا وكاشي، وشالاتهنّ الطويلة الملوّنة ترفرف خلفهنّ مثل راياتٍ، هنالك عند ضفّةِ النّهر الفائضِ، حيث فارقن الحياةَ معاً، مؤثراتٍ الموت على الهزيمة.

كان صوت سوريا غريباً، خفيضاً وأجشَّ:

- أمّي ذاهبة إلى يامونا.

ولمّا نظرتُ إليها نظرةً مستفهمة أردفت:

- عندنا، لا نقول عن أحدٍ إنّه يُحتضَر. بل نقول إنّه ذاهبٌ إلى فريندافان، أرض نهر يامونا.

أردتُ أن أقول لها شيئاً، عبارةً مبتذلةً، أو أنْ أعرض عليها مساعدتي، لكنّها أمسكت يدي ووضعتها على فمي. كنّا متقابلَين، وكان القمر يضيء وجنتَيها، وبياضُ عينَيها يبرقُ بين الحين والحين. تنشّقتُ عطر جسدها الدافئ وأنفاسها، كما في اللّيلة التي قضيناها معاً على الشاطئ حيث كان شوتو يعزف موسيقاه. كان اللّيل بديعاً، لم أختبر مثله في حياتي، وكنت متيقّناً من أنّه لن يتكرّر. كانت الرّيحُ قد جلت السماء، وأحالَ نور القمر الصّخور والشّجيرات وأوراق الكاذي نصالاً من معدن. تخيّلتُ القبور من حولنا منتصبةً كأنّها كائناتٌ حيّة. وأصغيتُ للريح، ولنبضِ دمي، وهمس البحر، وذلك الاهتزاز الذي بدا آتياً من قاع المحيط، وأخذ يشتدّ في أعماقي كأنّه اختلاج الذاكرة.

وضعت سوريا يدَيها على كتفي، وبحركةِ مصارعٍ طرحتني على أرضيّة الكهف، لم أستطع مقاومتها. غمرنا عطر خشب الصندل ودخان

البخور، وشعرتُ بطعم الملح والرّماد في فمي. كنّا مثل عصفوريَن على قمّة جرفٍ، أعلى من البحر وطيوره، ولا شيء فوقنا، معلّقَين في الفراغ. قبّلتُ سوريا، يديها أولاً، ثمّ وجهها وجفونها وزاويتي فمها. وعانقتُ جسدها الرّشيق. أدارت وجهها بعيداً للحظة، ثمّ قبّلتني.

استنشقتُ رائحة الرّماد على عنقها، وعند جذور شعرها، وفككْتُ عرى ثوبها كي أقبّل نهدَيها. ارتعشتُ من الرغبةِ حتّى أنّني لم أقوَ على التنفّس، فظننتُ أنّني مريض. كان ذلك بسبب ما حدث منذ عودة خفر السواحل، حين أطلق البحارةُ النار على أوكا، وصادر الشّيخ حسين المياه العذبة والطّعام. لم أفهم ما كان يحدث لي. كنت أريدها، وأتوقُ إلى لمسها، وأنْ أغمر نفسي بعطرها، وأتذوق شفتيها وبشرتها متوحّداً بها، وفي الوقت ذاته كنت خائفاً منها، شعرتُ بما يشبه الكراهية. أحسّتْ سوريافاتي برجفتي، فابتعدت.

– ماذا بك؟ ثمّ بشيءٍ من الترفّع أردفت:

– ماذا تريد منّي؟

كنت يائساً. خطر لي أنّني لم أعرف ما الذي عليّ فعله، وأنّني سأضطر إلى العودة إلى الكرنتينة، إلى سجننا الأسود. عدّلَت ثوبها، وكان شعرها الأسود ينبسط وشاحاً أسود كبيراً على كتفَيها. ورأيت الخطّ المصبوغ بحمرةٍ داكنةٍ أعلى جبينها.

أجلستني قبالتها، قريباً جدّاً منها حتّى أنّ ركبتَينا تشابكتا.

– انظرْ إلي.

أعطتني قرعةً مليئةً بماء جوز الهند اللاّذع الحلو. شربتُ طويلاً، وقد هدّأ الماء المنعش رجفتي. أردتُ أن أكلّمها، ربّما لأقول لها–

بالنبرةِ المتهدّجة عندَ من فتنهم الشعر في مثل سنّي -، إنّي أحبّها، لكنها أشارت إليّ أن أصمت. وضعَتْ قطعاً من الرّاتنج على الموقد بجوار المذبح، فتحوّل اللّهب إلى اللّون الأصفر الفاقع. وقالت مّرة أخرى:

- انظر إليّ، هذه هي المرّة الأولى التي تراني فيها.

على ضوء المصباح، كان وجهها قناعاً من ذهب وعيناها بئرين من عتْم. شعرتُ بنظرتها كما لو كانت مادّةً نابضةً بالحياةِ، موجةً، أو لمسةً مُداعِبةً تخترقني وتملأ كياني مصحوبةً بصورتها وعطرها. تذكّرتُ الصخرةَ السّوداء عصر ذلك اليوم حيث كنت وحدي على جزيرة غابريال، وملمسَ غُبارها، ونشوتي تحت الماء.

لم أعد في حاجةٍ لأنْ أكلّمها أو تكلّمني. فهمتُ كلّ شيء عنها، تسلّل كلّه من قلبها إلى قلبي، ربّما ترنّمَت به في عمقِ حنجرتها لحناً امتزج بعزيف الريح، أو قالته بإيماءةٍ من يدَيها، مثلما فعلت تلك اللّيلة قرب المحرقة، مردّدةً اسمها وهي ترقص رافعةً يدها اليمنى، وإبهامُها وسبّابتُها متشابكتان، وراحتها اليسرى منبسطة، وأناملها ممدودةٌ مثل ريش البلشون الأبيض. كنت ثمِلاً، وعيناي متقدّتين كالجمر، واللّيل بلا بداية ولا نهاية.

أحسستُ بلمسةِ يدها على جلدي؛ على وجهي وصدري وكتفي. كانت تمرّرها على جسدي راسمةً دوائر وخطوطاً، يدَها الناعمة المُستنزَفة مثل يدِ عجوزٍ، يدَها الجافة الحارّة، والمعفّرة بالرّماد والكركم. فكّت عرى ثوبها فرأيت نهدَيها الرّشيقين في غبش العتمة، والعلامة الغريبة التي رسمتها على نهدها الأيمن، على شكل قرصٍ أو عجَلة، زهرةٍ أرجوانيّةٍ أشبهَ بحلمة نبتت على بشرتها الصافيةِ.

أمسكتْ بيدي اليمنى ووضعتْها على صدرها لأشعرَ بدفئه ونعومته، وبرجفةِ قلبها العميقة.

كنت أعلم أنّ اللّحظة قد حانت. كانت أهمَّ لحظةٍ في حياتي. ولم أكن أعلم أنّه كان من أجل هذه اللّحظة أنْ أبحرتُ على متن لافا، ومن أجلها أرسى القبطان بوالو السفينة في زنجبار على الرغم من الحظر، لِيُتخلّى عنّا في جزيرة بلات. لا شيء كان رهين الصدفة، لقد فهمتُ أخيراً.

كنت قد عدت إلى الكرنتينة ظانّاً أن الأمر قد انتهى، وأنّني لن أرى سورياڤاتي مرّة أخرى، وأنّني سأعود قريباً إلى عالمي، إلى موريشيوس، أو فرنسا، فأنسى هذا كلّه: النّهارات واللّيالي في باليساد، والدخانَ المنبعث من محارقها، ومياه النبع العذبة، وصيحاتِ الأطفال في القرية، وموسيقى شوتو، وكوخَ أنانتا، وأُصبح واحداً من آل أرشمبو، فأدير مكتب أعمالٍ في شارع الرومبار، وأتسوّق في شو دو مارس، وأقع في حبّ فتاةٍ صغيرةٍ من زُمرةِ الحكومةِ الجماعيّة، وأكتب قصائد في صحيفةِ سيرنيان، ومقالاتٍ انتقاميّةً ضدّ كبير العائلة في لا كوميرسيال غازيت. كنت سأغدو شخصاً آخر، غيرَ مبالٍ، ابن صاحب مصنع سكّر، حفيدَ تاجرِ رقّ. لكنّ سوريا كانت قد رسمت بالرّمادِ على الأرض نجمتَين بستّة فروع (علامة الثالوث الأعظم)، وشارةَ إله الحرب سوبرامانيا الذي يطرد الأرواح الشريرة، ويلغي قانون كبار العائلات، ويحطّم كبرياء آل أرشمبو. كانت نظرة سوريا لا تقاوم، تلمع بالحقيقة الصافية، مانحةً عتمةَ اللّيلِ شمساً صغيرة.

شعرتُ بموجة جسدها تغمرني. وبشظايا البازلت القاسيةِ والتراب والرّماد تحت جلدها، وطعم الملح على جفنيها، وصوت الدّمِ في

شرايينـي، ونغمـة صدرهـا؛ سـمعت أنفاسـها تختلـط بأنفـاسي، وأحسسـت بجسـدها عذبـاً مثـل ميـاهٍ جاريـة، صرتُ النـار، صرتُ الحمّـى والـدّم، فضمّتنـي إليهـا بقـوّة.

لقـد عرفـت هـذا كلّـه منـذ الأزل، ورأيتـه في منامـي ألـف مـرّة. بلّـل العـرق جبهتـي، وسـال عـلى ظهـري، وأحسسـت أيضـاً بعـرق سـوريا عنـد تجويفَـي خاصرتَيهـا. وشـعرتُ بدقّـاتِ قلبـي، وبالهـزّة الطويلـةِ الآتيـة مـن قلـب الكهـف متسـلّلةً أيضـاً إلى قلبهـا. تذوّقـتُ أنفاسـها، وطعـم الرّمـاد والبحـر في شـعرها. وتأمّلـتُ وجههـا وقـوْس حاجبيهـا الأسـود، كجناحَـي السّـنونو، وحدقتَيهـا اللّتَـين بلـون النّحـاس، حيـث تتداخـلُ عـروقٌ زرقـاء وخـضراء. لم أعُـد وحيـداً، كنـت متحـدّاً بهـا، وكانـت هـي البحـر، تمـوج مـن حـولي عذبـةً هادئـةً، ورقـةَ زنبـقٍ تحتضـنُ حجـراً. تذكّـرتُ لعبـة الحجـر والـورق. وتذكّـرت يـدَي سـوريا في اللّيلـة التـي رقصـت فيهـا مـن أجـلي قـرب المحـارق، ونـورَ عينَيهـا، وشـارة الإلـه التـي رسـمَتها أمامـي، وقبضتُهـا اليُمنـى ذاتُ الإبهـام الممـدود متّكئـةٌ عـلى راحتهـا اليـسرى.

لم أعـد مـن كنتُـه، صرت آخَـر، صرتُ هـي، وقبلَهـا، كنـتُ جيريبـالا التـي هربـت عـلى طـول النّهـر حاملـةً الطفلـة أنانتـا عـلى ذراعيهـا، واجتـازت بهـا الرّيـف المشـتعل مختبئـة في القصـب نهـاراً، إلى أنْ غطّسـتها في ميـاه يامونـا الموحلـة هامسـةً لهـا باسـمها.

نـدّت عـن سـوريا صرخـةٌ، أحسسـتُ بجسـدها يرتجـف كـما لـو أنّ الموجـة ذاتهـا تسـللت منّـي إليهـا، متدفّقـةً مـن العـالم، مـن صخـور الـبركان السـوداء، ومـن رصيـف المرجـان حيـث يـضرب البحـر. انتابنـي خـوفٌ، خـوف ممّـا كان يحـدث، ومـن هـذه الطّاقـة التـي لا تقـاوم. نظـرتُ

إلى وجهها الـذي كدّرتـه تكشـيرة، إذ بـدا أنّهـا تألّمـت. سـمعتُ حشرجـة أنفاسـها، وأحسسـتُ بالعـرق ينهمـر عـلى كتفَيهـا وظهرهـا وصدرهـا، مثبّتـاً شـعرها بصدغَيهـا. ربّـما هـي أيضـاً شـعرت بالخـوف ذاتـه. أغمضَـت عينَيهـا وشـبكت يدَيهـا حـول عنقـي وشـدّتني، كمـن يتطـاولُ بجسـده. ثـمّ همسـت باسـمي، الاسـم الـذي منحتنـي إيّـاه بلُغتهـا: بْهـايْ، الأخ، الاسـم الـذي قالتـه ونحـن نسـير عـبر الشّـجيرات، وشـوتو يتقافـز أمامنـا ويسـوق قطيـع جديانـه برشـقاتٍ مـن الحـصى، وكنـت أحـبّ الطريقـةَ التـي تنطقـه بهـا.

استلقينا في ظُلمـة الكهـف متعانقَـين، قريبَـين جـدّاً مـن المصبـاح الآخـذ بالانطفـاء. لم يكـن لنـا سـوى إهـابٍ واحـدٍ، ووجـهٍ واحـدٍ، وكانـت عيناهـا المتّسـعتان بئريْـن مـن الكهرمـان أُبصرُ بهـما، وكنـت أتنفّـسُ بفمهـا. لـن يكـون خـوفٌ بعـد الآن ولا ألمٌ ولا شـعورٌ بالوحـدة. لفّنـا هديـر البحـر وعزيـف الرّيـح وضاعفانـا، وكان البعـوض يطـنّ حـول شَـعرنا، وضجيـج قريـة العـمّال عـلى الجانـب الآخـر مـن الـبركان يتناهـى إلينـا. كان هـذا كلّـه يختلـج في وفيهـا، ويمتـدّ ويتّحـد في الفضـاء. لم يكـن موجـةً بـل رعشـةً، هـي أنفـاس شـيتالا البـاردةُ المنـذرة بالمـوت، أو العاصفـة قبـل المطـر. هـي الحمـم البركانيّـة السّـوداء، طـوْف الحمـم السـوداء هـذا العائـم في المحيـط المتأجّـج، وهـي السّـماء والنّجـوم البعيـدة، والنّـاس البعيـدون جـدّاً، هنـاك، في فردوسـهم المحـاط بالبحـر، النّـاس في مدنهـم المنيعـة، لنـدن وباريـس، وشـوارع إليفانـت آنـد كاسـل، وأرصفـة مرسـيليا، وشـارع سـان بيـير المفـضي إلى لاكونسيبسـيون، وعـلى متـنِ قواربهـم الرّاسـية عنـد مصـبّ نهـر توليـز نـولا، وأمـام نهـر هوغـلي الـذي تموّجـه الريـاح الموسـميّة، منتظريـن

يـوم الرّحيـل إلى الطـرف الآخـر مـن المحيـط، إلى ميريـش ديش، وديمـيرارا، وجـورج تـاون، وترينيـداد فيجـي، تلفهّـم عـلى الـدوام سـحابات الدخـان التـي تنبعـث مـن المحـارق فتغمـر ضّفـاف الأنهـار، أو تَجـرّ نفسـها بتكاسـل فـوق الشـطآن، مُذيعـةً عطرهـا العـذب المـدوّخ.

أردتُ أن أحـسّ إلى الأبـد بمـذاق الـدّم والرّضـاب والعـرق، فهـو مـذاق سـوريا، ورحيـقُ حياتها. أردتُ ألّا أكفَّ عن الإحسـاس بالرّعشـة التي تسري فيهـا، صاعـدةً مـن باطـن قدمَيهـا إلى راحتيهـا النديّتَيْن، حتّـى منبت شـعرها المتعـرّق، وأنْ أغـرق في عينيهـا. كان صوتها ينطق بهدوء اسـمي «بْهـايْ» كما لو كان مُسـتجوباً أو شـاكياً، ويداهـا تطوّقـان عنقـي لا تتركانه، وجسـدها يرتفع عـلى مهلـه خارج البحـر، بينما هي تتنفّـس بعمق. كنا ننسـاب معـاً عائِمَين، بل محلقَـين عاليـاً عـلى جناح اللّيـل الأسـود، كناّ طيرَيـن حقّاً.

ثـمّ هبطـتُ رويـداً رويـداً. وشـعرتُ بحـواف الحجـر الحـادّة كشـظايا الأبـاش. كان الكهـف حـارّاً ورطبـاً، والعـرقُ يتصبّـب جـداول عـلى ظهـري وبـين كتفـيّ. ثـمّ نهضَـت سـوريافاتي، ورأيتهـا تلّـف نفسـها بشـالها الأحمـر الكبـير وتنسـلّ إلى الخـارج عـبر الشـجيرات. غـادرَتْ، فصرخـتُ في صمـتِ اللّيـل المطبـق مناديـاً اسـمها بحماقـةٍ، قلـت أنـا أيضـاً: «بِهـن»، أُخيتّـي! كانـت شـعلةُ المصبـاح قـد انطفـأت، فـلاح أمامـي سـفحُ الـبركان بصخـوره الفسـفورية الصّلبـة، ولمحـتُ النجـومَ تتـلألأ بـين مِـزَقِ الغيـم. عـادت سـوريافاتي لتسـكِتَني. ثـمّ جلسَـتْ عنـد مدخـل الكهـف، وكان وجههـا مبلّـلاً بالمـاء البـارد، وكـذا يداهـا.

مشـينا في صمـتٍ حتّـى غابـة الكزورينـة الصغـيرة، بمحـاذاة المـزارع. كان صـوت الريـح يـدقّ كالمطرقـة والبحـر يـضرب في الشّـعاب المرجانيّـة.

كنّا على بعد خطوات قليلةٍ من بيوت الكرنتينة، نسير على طول شريطٍ من الرّمل الفسفوريّ تحت سماء متألّقة. كلّ شيء هنا باردٌ ومنذرٌ بالخطر. الآن فهمتُ لِمَ لا يرغب شوتو والأطفال في المغامرةِ بالمجيء إلى هنا. لم يكن ذلك بسبب مسدّس جوليوس فيران فقط. فكلّ شيء هنا يذكّر بالموت. هي بضع تلعاتٍ فقط، وجذوع الكزورينة السوداء التي تفصلنا عن خليج باليساد القريب جدّاً، حتّى أننا نسمع نباح الكلاب. هنا الساحلُ مهجورٌ، متروكٌ نهباً للرّيح وعجاجِ البحر، لا يعرف سوى أقدام مُغرِقي السّفن وناهبيها.

مررْنا بالقرب من المراحيض والصّهريج، وسْط سحابةٍ من بعوض ينفذ إلى الحلق. كانت سوريا تمضي مسرعةً، عارفةً بدقّةٍ مواطئ قدمَيها على حجارة الطريق، ومنسلّة بين الأغصان دون أن تلمسها. ولمّا بلغنا الشاطئ، نزلَت إلى الماء دون أن تنتظرني وغطست فيه. كان البحر عاليَ الموجِ أشبهَ ببحيرةٍ سوداء. وعلى الجانب الآخر من الحاجز، كانت الأمواج المتكسّرة تضرب بشدّةٍ فترجُّ قاع البحيرة، وكنت ألمح أحياناً، في ضوء القمر، نفثاتِ البخار بين الصخور السوداء أعلى قمّة لوديامو.

نزلتُ أنا أيضاً إلى الماء البارد الفائق النعومةِ، بحثتُ عن سوريا. ثمّ شعرتُ بجسدها أمامي، كان ثوبها ملتصقاً بجسدها، وشعرها منبسطاً في الماء كعشب البحر. لم أشعر يوماً بمثل هذه الرّغبة، وهذه السعادة. وقد زال عنّي كلّ خوف. كنت إنساناً آخر، إنساناً جديداً.

«انظر يا بْهايْ، لقد طلع النهار».

كان الموجُ يتهادى من حولنا مثل نهر، رماديّاً متلألئاً، يتدفّقُ عبر قناةِ الشعابِ المرجانيّة الشماليّة والمضيق بين الجزيرتين، نحو القناةِ الجنوبيّة.

بحَثَت شفتاي عن فم سوريا. عانقتُ خصرها اللّيّن، فضحكَت. ثمّ عدنا لنغطسَ في الماء معاً، وشعرتُ بساقيها تلتفّان حول ساقَيّ، وذراعَيها تطوّقانني. كنّا نختنق. ثمّ استقمنا لحظةً نلتقط فيها أنفاسنا. عدنا طفلَين من جديد. لقد وُلِدتُ ثانيةً في ماء البحيرة الجاري، بلا ماضٍ ولا آتٍ.

لم يعدْ للموت وزنٌ، ما هو إلّا أنفاسُ الإلهة الباردة حينَ تعبرُ فوق الجزيرة. قالت عنه سوريا ذاتَ مرّة: «إنّه مثل النّهر الذي وُلدتْ فيه أمّي».

كانت تقف أمامي يغمرها الماء حتّى خصرها، وتشعّ بجاذبيّةٍ غريبة. أخذت السّماء تصفو شيئاً فشيئاً، لكنّني لم أرَ من سوريا غير طيفها وشعرها المُثقل بالماء. غسلتني البحيرة بعذوبتها وأراحتني، فشعرت بالسّكينة، وبما يشبه البراءة.

قالت:

- لقد منحتْني أمّي بركتها. أخبرَتْني إنّه يمكنني أنْ أكون زوجتك. هي راحلةٌ الآن إلى فيندافان.

كان قلبي ينبضُ ببطءٍ، وكلّ شيءٍ ينساب سلساً مثل الماء. أخذ النور يكشفُ عن ملامح سوريا، ويتلألأ على شعرها وكتفَيها. ثمّ عدنا إلى الشاطئ. كانت ضربات الأمواجِ على الحاجز المرجانيّ مكتومةً بقدر ما هي بطيئةٌ ومتّصلة. سكَنت الريح، وأخذ البعوض يحوم حول شَعرنا. كان النسيم عليلاً أميَلَ الى الدّفء، وقرصُ الشمس على وشكِ أنْ يتجلّى فوق صخرة لوديامو.

رمَت سوريا شالها الكبير على شجيْرات الديداء كي يجفّ. وأرخْتُ رأسي على صدرها. ثمّ سألتها هذا السؤال مثل طفلٍ شكّاء:

- هل ستأخذينني؟ هل سنبقى دائماً معاً؟

لم تُجب. فسألتُها مثلما سألتني يوماً عن لندن:

- هل تأخذينني معك حتّى يامونا؟

وضعتْ يدَيها الدافئتين على وجهي. ربّما أرادت أن تقول لي إنّ هذه مجرّدُ كلماتٍ، حكاياتٌ لا حقيقة لها.

غفوتُ وخدّي على صدرها مصغياً لدقّات قلبها التي اختلطت باهتزاز الموجِ في قاعدة الجزيرة. وقُبيل انبعاث الشمس من الأفق، نهضَت على مهلٍ وأسندَت رأسي إلى ذراعِيَ المطويّةِ وهمّت بالانصراف. أمسكَتْ بيدي للّحظة، فحاولتُ وأنا نصفُ غافٍ أنْ أستبقيَها، فكان عليها أنْ تفكّ أصابعي واحدةً تلو الأخرى.

إنّها هي من أفكّر بها الآن: تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تتشبّث بيد أمّها، وهما تعبران سلّماً للصعود إلى متن القارب الرّمادي الذي كانت مدخنته العالية تنفث دخاناً سميكاً، وكان على وشك أنْ يبحرَ بهما إلى ميريش تابو، إلى موريشيوس، البلد الذي لا يعود المرء منه. كانت تمطر، فقد وصلت الرّياح الموسميّة بعد شهورٍ من الحرّ والجفاف على طول النهر، بعد تلك الأيّام التي لا نهاية لها في مخيم بهوانيبور، على قناة توليز نولّا، في كلكتّا.

كانت القوارب كلّها قد غادرت بالفعل إلى الطرف الآخر من العالم. ولم يبق راسياً أمام المخيّم سوى قارب «إشكندر شاو» الذي سيحمِل المهاجرين إلى موريشيوس، كانوا زهاء مائتي رجلٍ وستيّن امرأة، ومعهم الأطفال والأغنام والدّواجن.

فيمَ كانت البنتُ تفكّر وهي تجتاز الجسر الخشبيّ المتهالك على سطح القارب؟ أتُراها التفتَت كي ترى المخيّم للمرّة الأخيرة، كما لو أنّ شيئاً منها ظلّ عالقاً بذلك المشهد، حيث الجدار الطينيّ الذي يسدّ المخيم، والبوابة الخشبيّة العالية، وبيوت العمّال

المشتركة بجدرانها الخشبيّة التي بلا نّوافذ وأسقفها المصنوعة من ورق الشّجر، والأكواخ الممتدّة على طول الجدار محاذيةً إيّاه في قوس نصفِ دائريّ، حيث يعدّ الرجال والنساء العزّاب الطعام كلّ صباح، وصهريج المياه، وبضع شجيراتٍ هزيلة يجلسُ الرّجال تحتها عند المساء كي يثرثروا. كانت أنانتا تشدّ على يد أمّها وتنظر إلى المخيّم دون أن تنبس بكلمة. ولسوف يبقى ماثلاً في ذاكرتها حتّى المهات.

أفكّر في أنانتا كأنّني عرفتها، كأنّها واحدةٌ من الأجداد الذين أحمل دمهم وذاكرتهم، وظلّت روحه حيةً فيّ. لا أعرف عنها غير اسمها، وأنّها انتُزعت من صدر مربّيتها القتيلة في كاونبور أثناء تمرّد السيبوي العظيم عام 1857. هذا كلّ ما أخبرتني به جدّتي سوزان حين كنت طفلاً عن أسطورة شقيق جدّيّ المفقود.

لكنّي لا أعرف شيئاً عن المرأة التي أنقذت حياتها وأسمّيها جيريبالا تذكاراً لرابندرانات طاغور[1]. لقد صارت رحلةُ أنانتا وجيريبالا

(1) جيريبالا: عنوان قصّة قصيرة للشّاعر والكاتب الهنديّ الشّهير رابندرانات طاغور.

أصـدق عنـدي مـن أيّ مغامـرة أخـرى، حيـث ضيـاء الفجـر المُشعّ رغـم الغيـوم التـي تُراكمهـا الريـاح الموسـمية عنـد مصـبّ نهـر توليـز نـولّا، وتحليـق طائـر «أبـو منجـل» عـلى صفحـة الميـاه متمايـلاً مـع انحناءاتهـا، وسُـلّم القـارب الـذي لم يكـن سـوى لـوحٍ خشـبيٍّ لَـزِق، أخـضر ضـارب إلى الرّمـاديّ، تجازفـانِ بالسـيرِ عليـه، متشـبّثة كلٌّ منهـما بيـد الأخـرى، وأناتـا تنظـر وراءهـا نحـو المخيـم كـي لا تنسـى أبـداً.

انـزاح اللّيـل حامـلاً معـه رائحـة المـوت وصرخـات النّسـاء الـلاّتي طعنهـنّ القتلـة بحـدّ السـيف، وأطيـافَ الأطفـالِ المروّعـةَ عـلى مشـانق فارانـاسي، وراياتهـم حـول أعناقهـم. وذلـك النّهـر الشـديد الاتّسـاعِ حتّـى أنّ ضفّتـه الأخـرى تتـوارى خلـف الضبـاب، ومياهـه الفيّاضـة الموحلـة التـي تهبـط وئيـدةً كثيفـةً يومـاً بعـد يـوم، وشـهراً بعـد شـهرٍ، وصـولاً إلى كلكُتّـا، وإلى معسـكر بهوانيبـور.

التفتـت جيريـالا هـي الأخـرى، وتوقّفـت لثانيـةٍ عـلى الرغـم مـن تعليـمات متعهّـدي العـمّال الرّادعـة عـلى سـطح القـارب. ولعلّهـا في تلـك الثانيـةِ قـد فكّـرت هـي أيضـاً في كلّ مـا بقـي

على الشاطئ، وفي سقيفةِ المهاجرين، كما لو صارَ فجأةً فصلاً من حياةٍ ماضية.

في مدينة جانبور، التقَت بمتعهد العمّال الذي باعها وابنتَها للفرنسيّ لومير، ممثّلِ شركة بيرد وشركاه، وهو شابٌّ بدين، يرتدي بذلةً مثاليّة من الكتّان، ويعتمر قبّعةَ «هِلمت» على الطريقةِ الإنجليزيّة، يلازمه تُرجمانه الذي لا يقلّ عنه كذباً ومكراً. كان يروي القصّة نفسها لكلّ النساء القادمات؛ عن العمل الذي ينتظرهنّ هناك في جزيرة المعجزات، في قصور «السركار»[1] الإنجليزيّ بحدائقها وأنهارها، وعن المال الذي كنّ سيدّخرنه كي يصنعن لهنّ حياةً جديدة، ويتزوّجن. كان هو من نظّم الرّحلة إلى هوغلي وكلكتّا، مستخدماً جاذبيّته للترغيب تارةً، ومهدِّداً تارةً أخرى كلما عدلت امرأةٌ عن رأيها وحاولت الانصراف، فيطالبها، بلسانِ الترجمان، بأنْ تُرجع له كلّ شيءٍ، من الروبيّة المدفوعة إلى المتعهّد حتّى تكلفة رحلة القارب، زد على ذلك البطّانيّة التي حصلت عليها، وكلّ الأرزّ المقشور والأسماك المجفّفة التي تناولتها منذ وصولها إلى المخيّم.

(1) كلمة من أصلٍ فارسيّ وتعني السيّد أو الزّعيم.

لكنّ جيريالا لم تبكِ ولم تشكُ. وبلا تردّد، وضعتْ بصْمتها بالحبر الأحمر في سجلّ شركة بيرد وشركاه في الخانة التي كُتب فيها: «برفقة طفلةٍ تبلغ من العمر زهاء سبعة أعوام».

وقد حصلت لقاء ذلك على «القلادة»، أو الميدالية النحاسيّة التي كُتبَ في زاويتها الرّقم 109، وعلى علبةٍ صغيرة من الصّفيح كي تحفظ فيها جميع أوراقها: عقد العمل وجواز السّفر الذي يسمح لها بمغادرة المستعمرة. وقد سمعت للمرّة الأولى اسم المبنى الذي كانت ستعمل فيه، وهو اسمٌ غريبٌ أخذت تردّده في ذهنها حتّى ألِفته كما لو كانت تعيش فيه منذ الأزل: ألما.

في ذلك المساء، تجمّعت النسوة بعد أنْ وقّعن العقود قرب مطابخ المخيم المحميّة من المطر، وشرعن يروين قصصاً لا تصدّق عن أطفال اختُطفوا كي تُعصَر جماجمهم مثل جوز الهند ويُستَخرج منها الزيت، ومسنّين رماهم البيضُ طعاماً لكلابهم، وعن الأطعمة الفاسدة التي كان يخلطها الإفرنج في طعام العمّال، كي يعذّبوهم.

كانت جيريالا تستمع إلى هذه الخزعبلات

هـازّةً كتفَيهـا. فـلا شيءَ منهـا كان يضاهـي في فظاعتـه مـا رأتـه في كاونبـور؛ النسـاء والأطفـال الذيـن قتلـوا بضربـات العـصيّ عـلى يد السـيبوي، وانتقـام الإنجليـز الذيـن كانـوا يربطـون الرجـال في فوّهـات المدافـع ويسـحقونهم فـوق الحقـول.

كانـت تضـمّ ابنتَهـا، ملكَهـا الوحيـد، وكنزَهـا، إلى صدرهـا. كانـت مسـتعدّةً لأنْ تفعـلَ أيّ شيء مـن أجـل أنانتـا ديفـي، أنْ تعـبرَ بهـا المحيـط وتتحمـل مخاطـر الرّحلـة وشرور البـشر. فمِـن أجلهـا، وكرمـى لعينيْهـا اللّتـين بلـون الياقـوت، وشـعرِها الطويـل ذي اللّمعـةِ الذهبيـة، كانـت سـتذهب إلى الطـرف الآخـر مـن العـالم، إلى ميريـش تابـو، ميريـش ديـش.

الأوّل من يوليو

انطلقنا إلى جزيرة غابريال هذا الصّباح. أسند جاك سوزان حتّى الرصيف المتصدّع، وكنت على يمينها ممسكاً بيدها. كانت الحمّى تحرّقها، وفي منتصف الطريق تباكتْ قليلاً: «لا أستطيع، لا أستطيع، انظر! لم أعد قادرةً على السيْر!» جلستْ على صخرة. كانت الشّمس صفراء ساطعةً تعبرها بعضُ خيوطٍ من غيم. بدت الجزيرة على الطرف الآخر من البحيرة، أمامنا، قاتمةً عدوانيّة مثل هرم جنائزيّ. وكانت طيور النورس والبلشون الأخضر تحلّق ملامسةً صفحتها، لكني لم أرَ سادة الجزيرة الحقيقيّين، طيورَ رئيس البحر ذات الذّيل الأحمر.

«هيّا، فلنمضِ، ها نحن على وشك الوصول». لم تستطع المشي فحملها جاك بين ذراعيه. بدتْ خفيفةً مثل دميةٍ من قماش، بقميصها الأبيض الطويل الذي ينسدل حتّى الأرض مثل مروحة، وشعرها القصير المتجعّد من شدّة الحرّ. كانا وكأنّهما يحتفلان بالذكرى السنويّة الثانية لزواجهما. لكنّ وجه جاك كان متشنّجاً، وكان بزجاج نظّارته المكسورة، ولحيته المفرطة الطول، وملابسه المغبرة، شبيهاً بمتشرّد. لمحتُ على الرصيف طيف جوليوس فيران الضّخم، وإلى الأبعدِ قليلاً، كان الشّيخ حسين ومتعهّد العمل يقفانِ في وضعيّةِ من يراقب المكان. ولمحتُ أيضاً بضعَ نساءٍ لم أكن أعرفهنّ، وجوههنّ مغطاةٌ بالأوشحة، وأطفالاً شبه عُراة. كان مشهداً صامتاً مهيباً، ومُنذِراً بالخطرِ على نحوٍ غريب. سوزان تمشي مثل محكومٍ بالإعدام نحو القارب البائس الذي كاد ينقلب، إذ كان الماء ينفذُ إليه بسرعة فيلزم نَزْحُه طوال الوقت خلال العبور القصير إلى جزيرة غابريال.

كان المدّ لا يزال عالياً، لكنّ الجزر الهابط بدأ يتدفّق عبر الممرّ الجنوبيّ. وفيما كنت منشغلاً بنزح القارب، كان المُسنّ ماري وجاك يكافحانِ ضد التيار، أحدهما على المجذاف الخلفيّ، والآخر (جاك) يقف في مقدّمة القارب يبحث عن موضعٍ يغرسُ فيه المُرديّ. ولمّا صرنا على مقربةٍ من القناة، عشنا لحظة ذعرٍ. إذ لم يعد جاك يعثر على القاع، فانجرف القارب نحو القناة. كان قد وضع قدماً واحدة على الحافة وحاول التجذيف بالمُرديّ، لكنّه لم يفعل سوى أنْ أدخل المزيد من الماء إلى القارب. فصاح عليه المسنُّ ماري: «هاتِ المُرديّ يا بُنيّ! هات!»[1] في ظرف آخر غير هذا، كان المشهد سيبدو هزلياً حقّاً، لكنّه في تلك اللّحظة بدا فظيعاً مأساوياً. كانت سوزان تجلس شاحبةً تماماً تحت مظلّتها الباهتة وقد أسندت رأسها إلى الصُّرر والفُرُشِ المطويّة. تذكّرتُ رحلة جون وسارة ميتكالف، وكان قد مرّ عليها وقتٌ طويل حتّى أنني لم أعد أتذكّر التاريخ بدقّة. ربّما يومان أو أسبوع، وربّما عامٌ أيضاً. فكم من أشياءَ حدثت منذ ذلك الحين!

مرّر جاك المُرديّ لماري المسنّ في نهاية المطاف، وبقليل من الدّفعات القويّة هبطنا إلى ضفة جزيرة غابريال الرمليّة. استغرق النزول والسير إلى المخيّمات وقتاً طويلاً. لكنّ سوزان استعادت فجأة شجاعتها، وكأنّ هذا العبور مثّلَ لها أولى علامات رحيلنا إلى موريشيوس. حملتُ الفراشَ بمعونة ماري. وقد سارت سوزان أمامنا وذراعها حول كتفَي جاك، ومظلّتها السّوداء مفتوحة خلفنا، كما لو كنّا في نزهة.

نُصِبت خيمات المرضى عند سفح القمّة المركزيّة، محميّةً من رياح

---

(1) بالكريوليّة في الأصل.

الصابيات، غيرَ بعيدٍ عن فرجة الدّغل التي أُحرقت فيها جثّتا نيكولا والسيد تورنوا، وحيث بنيْتُ نُصْبَي الحجارة تخليداً لذكراهما. لم أعد إلى هنا منذ ذلك اليوم، والآن تبدو ليَ الجزيرة أقلّ رعباً. كانت هناك الخيمة الأولى، تلاها ملجآن مرتجلان يؤويان جون وسارة والعمّال المرضى. أمّا الكوخ الذي يُفترَضُ أن تقيم فيه سوزان فكان جداراً من الحمم البركانيّة جُعِل له على عجلٍ سقفٌ من القماش وأوراق الشّجر. كان جاك قد أعدّ كلّ شيء ونظّف المكان. فقد رُشَّت الأرض بالمعقّم، وطُليَت قاعدة الجدران بالجير وأزيلت الحجارة والحشائش من أرضيّته بعناية. لقد جهدَ على مدارِ أيّام، ودون أنْ يحسّ به أحدٌ، ليُضفيَ على هذا المكان المشؤوم شيئاً من القبول.

ولمّا وصلنا المخيم، لاح طيفٌ بين الأجمات، بدا شرساً برّياً، عرفتُ فيه بمشقّةٍ سارة ميتكالف. دنت لتعانق سوزان. لكنّها على ما يبدو لم تتذكّرنا أنا وجاك. كانت في غايةِ النحول، وقد اسودّ وجهها ويداها من الشمس والسناج. بدت مسرورةً إلى حدّ الابتهاج برؤية سوزان من جديد. وكانت تفوح منها رائحة غريبة من درنٍ ودخان، رائحةٌ لاذعةٌ قليلاً جعلتني أبتعد. ثمّ عرفتْني. لم أدرِ ماذا أقول لها. قادتني من يدي، وكانت تتحدّث بصوت عالٍ ووضوحٍ على الرّغم من ثقلِ نبرته:

- تعالَ، كمْ سعدتُ بقدومك، أتمنى أن تأتيَ لرؤيته، فهو يسأل كثيراً عنك.

تذكّرتُها يومَ غادرَت مُلتصقةً بجون، وشعرتُ أنّ ذلك قد حدث منذ زمن بعيد.

– إنّه هنا، سيُسرُّ برؤيتك. قال لي إنّك في مقام أخيه.

تبعْتُها عبر الأجمات، إلى رحبةٍ ثانيةٍ بينَ الأشجار حيث أُقيمت أكواخ المرضى. كنّا على طرف جزيرة غابريال تقريباً. ومن هناكَ تراءى بين الصخورِ خطُّ الأفق، وشريطُ موريشيوس الطويل الأخضر.

– هو ذاكَ، قربَ الباب، هنا يمكنه أن يرى فردوسه طيلة الوقت؛ يمكنه رؤية جزيرته، ولا بدّ أنّ هذا يفرحه، كما تعلم.

كان الكوخ في نهاية الرّحبة خالياً، وفي حقل الحجارة، ثمّةَ لوحٌ منصوبٌ مُثبّتٌ بكوْمةٍ صغيرة من الحجارة السوداء، يتأرجح مع الرّيح المتواصلة، وقد تمكّنتُ من قراءةِ ما كُتب عليه بحجر الفحم وبالخطّ المائل:

جون ميتكالف 5 سبتمبر 1847 / 28 مارس 1891.

فهمت فجأةً ولم أفهم. كان هذا التاريخ على وجه الخصوص هو ما أفزعني، وكأنّه لا يصحُّ ولا يُحتمل ولا يُطاق. أعدْتُ قراءته بانتباهٍ كما لو كان أهمّ من حقيقةِ موت جون ذاتها. فالتّاريخ الذي كتبتْه سارة على اللّوح بوصفه تاريخ وفاته هو بالضبط تاريخُ اليوم الذي وصلنا فيه إلى الكرنتينة. هل هذا نابع من جنونها المحض؟ أم أنّها تتذكّرُ حقّاً اليوم الذي تركَنا فيه خفرُ السواحل على الجزيرة كما لو كنّا نقضي عقوبةً؟ وهل ثمّةَ فرقٌ حقّاً؟

جلست سارة ميتكالف عند القبر في مهبّ الريح التي طوّحت شعرها وأسمالها. طلعت شمسُ الصباحِ على البحر الجميل، مقرّبةً إلى أقصى حدّ الجزر الصغيرة وصخرة كوان دو مير النيزكيّة الغائرةِ

في المياه. ولاحَ أمامنا ساحل موريشيوس أخضر رحيباً، وقممُه الزرقاء معتمِرةٌ قبّعاتٍ من غيم.

تبادَر إلى ذهني بيت هوغو: «الجبلُ الرّاعي بقبّعته من الغيم»، كما لو كان في وسع سارة أنْ تفهم قصدي، وكذلك كلمات المركب السّكران التي تتلوها سوزان بإتقان:

«أعرف السموات المتفجّرة بروقاً وخراطيمَ مياه
والأمواج المرتدّة والتيّارات: أعرف المساء،
والفجرَ الطّائر كمثْلِ سربِ يمامات».[1]

ثمّةَ أسفلَ القبرِ، بين الصّخور التي حتّتها الرياحُ وعجاج البحر، ملجأٌ من أغصانٍ جافّةٍ رُصّت كيفما اتّفق، وغُطّيت بقطعةٍ من الكتّان المُشمّع مثبّتةٍ في مكانها بالحجارة، شيءٌ أشبه بجُحر، أو بخيمة متشرّدين عُلِّقت بين دعامتَي جسر. هذا هو المكان الذي دلفتْ إليه سارة بسرعة، زاحفةً على أربع، ولم تعد تنظر إليّ بعدها، كأنّها نسيَتني فجأةً. وحين عدت إلى كوخ الكرنتينة، لم أكن في حاجة لأنْ أسأل جاك، فقد بادرَ بالقول، وبصوتٍ شِبْهِ مكتوم حتّى لا تسمع سوزان: «لقد مات في اللّيلة التي وصل فيها إلى هنا. لم يكن هنالك ما يمكن فعله». كنت قد سمعت جوليوس فيران يقول ذلك، ولم أشأ أنْ أصدّق الأمر: لقد أصيبت سارة بالجنون.

سرتُ نحو القمّة الوسطى. كانت الشمس تسطع بقوّة فينعكس بريقها على حواف الصّخور البازلتيّة. فجزيرة غابريال أشدّ حرّاً

(1) آرتور رامبو، «الآثار الشعريّة»، ترجمة كاظم جهاد، مصدر سبق ذكره.

وقسوةً من بلات. وتبدو كأنها المخطّط الأوليّ لجارتها، أو رسمها البيانيّ. تكثر فيها الزوايا والصّدوع وانهيالات الصخور البركانيّة، فضلاً عن غابةِ الأشجارِ ذات الأوراق الإبريّة. ويطوّقها هدير الأمواج المتكسِّرة على الساحل الجنوبيّ الغربيّ، بينما يحدّها من الشمال البحيرة الزمرديّة التي يخترقها شريطٌ طويلٌ من الرّمل الأبيض.

لا أعلمُ لماذا انتابني إحساسٌ بالارتياحِ ما إنْ نزلنا إلى شاطئ جزيرة غابريال. بدت سوزان مرتاحة البال أيضاً، كانت تمشي متّكئة على جاك، وتضحك تقريباً. إذ مثّل لها العبور إلى جزيرة غابريال الخطوة الأولى على طريق العودة. فهُم عزلونا كي يصبح بالإمكان حملُنا في سفينة خفر السّواحل وإعادتنا إلى أوروبا. لكنْ لعلّها شعرت بالنشوة لاكتشاف هذه الصخرة الجرداء، وعزلةِ البحر القصوى، وعنف الرياح، حيث لا مأوى سوى هذه الأكواخ المحفوفة بالخطر، بعيداً عن نظرة فيران وصافرات السّردار. وكأنّ لسعات الصّخور الملتهبة ووخْزات الأغصان يمكن أن تُبرِئنا من المرض والحمّى والخوف. ولعلّنا سنستسلم للجنون تباعاً، منضمّينَ إلى سارة ميتكالف في وهمها، بوجوهٍ سوّدها الدّخان وعيونٍ مبهورةٍ من فرطِ التحديق في خط موريشيوس الذي يلوح في الأفقِ عصيّاً على الوصول!

بلغتُ القمّة من ناحيةِ الشمال. بدا لي أنّني روبنسون لحظة اكتشافه حدودَ ملكيّته، يطوّقُه المحيط اللّانهائيّ! كانت الريح العاصفة تدفعني وتخنقني. اتّكأتُ على منصّة اسمنتيّة قديمة حيث نُصِبَ فيما مضى عمود الإشارة، وقد هدّمت الأعاصير الضّاري، ولم يبقَ منه سوى حطام دعامته الصّدئة مثل هيكلٍ عظميٍّ نخره البحر. ينحدر سفح

القمّة إلى البحيرة، ومن مكاني أستطيع أنْ ألمح بوضوح وشفافية هلالَ الحاجز المرجانيّ حيث الدّرب المعتم الذي يمكّن سوريافاتي من المجيء إلى جزيرة بلات، تلك الجزيرة التي تراءت أماميَ وحيدةً مهجورة، وبدت فيها بيوت الكرنتينة السوداءُ المكعّبة الشّكل أشدّ خواءً. كم هو مضحك أنّ جوليوس فيران أراد الدفاع عن هذا بوصفه مملكته، هذي الصّخور القاحلة حيث الرّيح تلوي غصون الشجر، وحيث الشاطئ القاسي، والأكواخ ذات النّوافذ العارية المطلّة على الخلاء. أمَا زالوا في تلك البنايةِ المحرومةِ من النوافذ بجوار المستوصف؟ إنّني لا أرى أيّ علامة على الحياة. حتّى المسنّ ماري قد اختفى. ولا بدّ أنّ المراقبَين قد عادا إلى موقعهما في أعلى البركان، مسلّحَين بالمنظار والمسدّس تأهبّاً لحربٍ ما! أَنظر إلى جزيرة بلات من غابريال، فأراها أكبر مساحةً، مثل أرضٍ مجهولةٍ بلا حدود، لا سيّما مع هذا الشّريطِ الطويل الممتدّ نحو الشّرق بمحاذاة البحر، منتهياً بصخرة لوديامو العشرونية السّطوح، والمتوّجة بهالةٍ من الطيور.

أتأمّل البركان، وأحاولُ أنْ أحدس بحركةِ الحياة حوله: شوتو يراقب الجديان مختبئاً بين الشّجيرات، والنساء العاملات في المزارع ناحيةَ المنحدر يسقين الأرزّ والبطاطس، والعجائزُ والأطفال منهمكون في البحث عن أعواد الحطب من أجل إشعال النّار. وعلى الجانب الآخر من فوّهة البركان، تجويفُ البازلت الرّطب الدافئ، والعاجّ بالحشرات، حيث تغسل النساء ملابسهن في ماء النّبع البارد بين شجيرات القُلقاس والديداء، مستظلّاتٍ بشجرة الداتورا العظيمة.

أتذكّر ساعة العصرِ مع جون، حماستَه ونحن نهبط الوادي «هذا المكان هو الجنّة!» كان يأخذ العيّنات، ويفصل الجذور حافراً برفق حول الجُذيرات، واضعاً كلّ ورقة بين الرّفوف المبطّنة باللّباد الرّطب. وفي المساء، على ضوء السّراج، يفتح جرّة الفورمالين وتفوح رائحته في جميع أنحاء الغرفة، فيصيح جاك في وجهه قائلاً: «ميتكالف، إنّك تجعلنا نستنشق رائحة الموت!» فيما هو منحنٍ بجسده الضخم إلى الأمام، ورأسُه الأحمر يتصبّب عرقاً من حرارة المصباح، يدهن الأوراق والجذور بفرشاة الحلوى بعد أنْ يغمسها في إكسير الخلود، ثمّ يُملي الاسم على سارة ببطء، فتكتبه بحجر الفحم في دفتر الملاحظات، مثل عبارةٍ سحريّة.

في ذلك المساء، عِوَضَ شجرة النيلة الواطنة، اكتشفنا في صدع قرب النّبع عيّنةً نادرةً من السرخس، نبتةً عارشةً طويلة ومرقّطة، لمْ أنس اسمَها العلميّ (Adiantum caudatium)[1]، ومجموعة متنوّعة من حشيشة اللّيمون ذات رائحةٍ حادّة مثيرةٍ للحواسّ، غرِقت بدورها في رائحة الفورمالين.

وأتأمّل شِعْبَ البركانِ حيث مشينا طويلاً حتّى اللّيل، مثل الباحثين عن الذّهب، دون أنْ نبالي بلسعةِ الشمس. كنا قريبَين جدّاً من باليساد حتّى أنّنا سمعنا أصوات النساء والأطفال في البيوت. كان راماساومي هو من طردنا، ليس بعنفٍ على طريقةِ السّردار، وإنّما بظهوره فقط في نهاية الطريق، محدّقاً فينا دون أن يقول شيئاً. وكان في ذلك المساء نفسه أنْ لحقتُ بسوريا عند المحارق.

---

(1) أي البرشاوشان المذيّل.

أتأمّل جزيرة بلات، فيبدو لي أنّها تحمل شكل الماضي عينه، كما لو أنّني، جاثماً على مرقبٍ خارج الزمن، قد دخلتُ حياة أخرى. أرى المشهد بكامل تفاصيله، وكل حجرٍ وشجيرة تشهد على ما عشت. أو كما في الأحلام حيث يرى المرء نفسه يحيا ويتحرّك في قلب الغرفة المجاورة، عبر فتحةٍ في شبّاكٍ صغير.

ما أودّ رؤيته هو السّفح الآخر، الجهة الأخرى من البركان، أي خليج باليساد، حيث كلٌّ ما بات يعنيني الآن: سوريافاتي وأنانتا، وكلّ ما يخيفني ويجذبني في آنٍ معاً. أشعر بالجوع، جوع الذهاب إلى هناك، لأتمتّعَ بروائح أدخنة المساء من جديد، بأريج خشب الصندل والكركم. جائعٌ لسماع الأصوات والضحكات، واللّغة الهنديّة التي تنساب بعذوبةٍ، وموسيقى البنغاليّة والأُرديّة والتامول، وعذوبةِ ناي شوتو قبالة البحر.

ليس سوى هذا المضيق الرّفيع يفصلني عمّا أُحبّ، سوى لسان الرّمل والشّعاب المرجانيّة التي يغمرها المدّ. أجلس على جدارِ عمود الإشارة الإسمنتيّ. وفيما ورائي، وعن يميني وشمالي، البحرُ المفتوح الهائج وساحل موريشيوس. أرضي على مرمى حجرٍ منّي. فَلِمَ أنا هنا في المنفى؟ ينتابني شعورٌ بأنّني عشت طوال حياتي على جزيرة بلات، هي أرضيَ الأمّ، فيها تعلّمت كلّ شيء، لم يكن شيءٌ من قبل، ولن يكونَ مِن بعد.

امتلأت عيناي بالدّمع، وأحسست بدوار وغثيان وجوع شديدٍ، وقد حطّمت الحمّى أوصالي وبعثت نفحاتٍ باردةً في أحشائي. أعلم أنّ الإلهة الباردة شيتالا هي التي تحكم هذه الجزر وتبشّر بقدوم الإله ياما.

تملّكتني رغبةٌ في أنْ أغوصَ في المياه الشّفيفة وأسبح حتّى الطرف الآخر. وكنت أعلم في الوقت ذاته أنّني لم أعد أمتلك القوّة، وأنّه يتعذّر عليّ اجتياز السيل الذي يتدفّق في القناةِ. فإنْ فعلْت، حملتني الأمواج ورمت بي على حوافّ الشعاب المرجانية. ثمّ إنّ قارب العبّارِ بعيدٌ عن الأنظار، متوارٍ خلف شجيرات الديداء قرب الكرنتينة. صحيحٌ أنّه مجرّد سطح خشبيّ قديم ومتهالك تنفذ إليه المياه من كلّ جانبٍ، لكنّني من دونه لا أستطيع الوصول إلى الشاطئ الآخر.

لا بدّ أن المسنّ ماري يجلس في ظلّ المستوصف ويمضغ ورقة التنبول. أشعرُ بنظرته الفارغة التي غبّشها الزّرَق، نظرتِه التي لا تنتظرُ شيئاً. ربّما كنا جميعاً مخطئين، فليس السّردار ولا فيران، ولا حتّى كبير العائلة من يحتجزوننا هنا. إنّه العبّار من يفعل ذلك، بعناد الضّرير.

أنا أيضاً أحلم في أعلى مرقبي، وقشعريرةٌ بطيئةٌ تسري في أوصالي بسبب الحمّى. أحلم بسوريا، كما رأيتها أول مرّة، تمشي على ماء البحيرة بمحاذاة الرّصيف البركانيّ، أمام جدار الزّبد، نحيلةً رشيقةَ الخطوِ مثل إلهةٍ. أودّ أنْ أراها الآن تتجلّى أمامي، أودّ أنْ أصرخ باسمها، حتّى تحمل الرّيح صوتي إليها. عساها تعود إلى هناك، إلى شاطئ بلات المتلألئ بضوء الشّمس، وعسى أن يبدأ كلّ شيء من جديد.

أتُراني صَرخْت؟ أخذتُ أترنّح أعلى القمّة، ثمّ هبطتُ من صخرةٍ إلى صخرة نحو البحيرة، حتّى بلغتُ أعلى الصهاريج، الذكرى الوحيدة الباقية من العمّال الذين تُركوا على الجزيرة عام 1856. وهي صهاريج كبيرة الحجم، أحسنُ حالاً من مثيلاتها في بلات، فقد احتفظ كلّ منها

بغطائه من الحديد المصبوب الذي عُلّقَ به دلوٌ من الصفيح. جاثياً على السطح، أدرتُ الغطاء الثقيل، وأرخيْت الدلو إلى قاع الصهريج. الماء باردٌ، عذبٌ أو يكاد، وخالٍ من يرقات البعوض التي تجعل الناس في الكرنتينة يتقيّؤون.

عببتُ منه كثيراً كي أُطفئ النار التي تحرّقني، والبردَ الذي يهبُّ في أحشائي. فكّرت في جاك وسوزان، عليَّ أنْ أساعدهما وأعتنيَ بهما، أنْ أجلبَ لهما الماء، وأعدّ لهما الطّعام.

كان جاك ينام في الخيمة وقد أنهكته الحمّى. لكنّ سوزان لم تكن نائمة. كانت مستلقيةً على الأرض بقميصها الطويل المُترِب. في البداية لمحتُ قدمَيها الحافيتَين النّاصعتَي البياض وذراعَيها. كانت ساكنةً تماماً ويداها منبسطتان على الأرض، فتملّكني للحظةٍ خوف شديد. نطقتُ اسمها: «سوزان!» ففتحتْ عينَيها، وابتسمت ابتسامة خفيفة. كان وجهها متشنّجاً متورّماً، وجفناها ذابلَين، وشفتاها المتيبّستان تكشفان قليلاً عن أسنانها الأماميّة، لكنّ نظرتها كانت تلمع ببريق مُقلِق، ولم أكن في حاجةٍ لِلَمس جبهتها كي أعرف أنّها تحترق من الحمّى.

- أتريدين بعض الماء؟ أتشعرين بالظّمأ؟

نظَرَت إليّ دون أن تجيب. حرّكت جفنيها وحسب. كانت تتنفّس بألم ومشقّة، وقد وظهرت بعض التقرّحات عند زاويتَي فمها وعلى عنقها وثنيتَي مرفقيها.

هُرِعتُ إلى الصّهاريج، وملأتُ قربةَ الماء من الدلو، ثمّ أعدتُ الغطاء. وانتابني وأنا أقوم بذلك شعورٌ بأنّني بين العمّال الذين ماتوا هنا، بين أبناء باليساد، ومع سورياقاتي وأنانتا.

استطاعتْ سوزان أنْ تشرب قليلاً، متكئةً على كتفي. كانت تتحدّث بصوتٍ خفيضٍ كيلا توقظَ جاك. شَكتْ من آلام الظهر والدّوخة. وقالت بهدوء، بلا تبرّم ولا مبالغة:

- أتعتقد أنّني سأموت مثل جون؟

- لا أدري.

ما عدتُ أعثر على كلماتٍ أواسيها بها، لا أستطيع أن أكذب عليها بعد الآن.

ثمّ تحدّثَت عن سارة.

- أتعلم؟ لقد أرادت أن تموت، لكنها لم تستطع. ربّما تكون قصّة الإلهة التي تأتي كلّ ليلة وتبثّ أنفاسها في وجوه الناس حقيقيّة.

أخبرني جاك عن النساء الهنديّات اللاّتي يعبرن كلّ صباح في قارب ماري كي يُحضرن الطعام للمرضى، ويصلنَ حتّى إلى جحر سارة، حاملاتٍ الأرزّ وخبز البراتا الهنديّ، فيضَعْنه على حَجرٍ مثل قربانٍ ويذهبن. وحين يبتعدن تخرج سارة من مخبئها قرب القبر، فتأكل بسرعة وتعود إليه ثانيةً.

هل تعرف سوزان ذلك؟ رأيت دموعها تنهمر على وجنتَيها وتبلّل شعرها، لكنْ ربّما هو التورّم الذي يسدُّ القناة الدمعيّة. إنها جميلةٌ بهذه النار التي تحترق داخلها ماحيةً كل أثرٍ للمعاناة. دنوْتُ منها بهدوءٍ شديد وقبّلت جبينها كطفلة. رفّ جفناها لكنّها لم تقل شيئاً.

لا أستطيع أن أنسى الصيف في هاستينغز، والحفلات اللّيليةَ على الرصيف البحريّ، والأوركسترا التي تعزف ألحان الرّقصة الرّباعيّة،

والسّادة الذين يرتدون بذلاتٍ فاتحة اللّون، والشبّان المتأنقين، والفتيات بفساتينهنّ الطويلة وقبعاتهنّ المصنوعة من القشّ، وسوزان التي أخذتني من يدي، وأرادت بإصرارٍ أن تعلّمني رقصة الفالس. «واحد اثنان ثلاثة، واحد اثنان ثلاثة!» ذات مساء كنّا في السيرك أمام الشاطئ، حيث فرسانٌ ببذلاتٍ سوداءَ وقبعّاتٍ عريضة يسيرون على إيقاع موسيقى المارياشي[1].

استبدّ التعب بسوزان في تلك اللّيلةِ حتّى أنّها نامت على كتفي، لم أجرؤ على التحرّك، استنشقتُ عطرها، وأحسست بخفّة شعرها، ويدها الآخذة في الارتخاء. وقد ظننْتُ أنّ ذلك كلّه صارَ بعيداً جدّاً، فإذا به هنا، بالضبطِ تحت جفنيها المُثقَلين بالنّعاس.

أتذكّر جاك ببذلةٍ رماديّةٍ جديدةٍ تماماً، وقميصٍ أبيضَ، وربطة عنقٍ سوداء من الحرير، وقبّعة عاليةٍ يحملها في يده، وتلك العصا-السّيف من خشب الكزورينة التي نُحتَ على مقبضها رأس كلب درواس، عصا جدّنا أرشمبو، الشيءِ الوحيدِ الذي احتفَظ به من زمن عزبة آنّا في موريشيوس، وصار يستعين بها في الشّجارات في إنجلترا (كان قد حدّثني، في روي ماليزون، عن أشقياءِ إليفانت آند كاسل). ولإضحاك سوزان في ذلك اليوم، استلّ السّيف على الشاطئ ووجّه طعنةً مزيّفةً إلى حزمةٍ من الفوْقس. كان يرتدي هذه النّظارة المستديرة نفسها ذات الإطار الفولاذيّ التي تتنافر مع لحيته وشعره البنيّ الدّاكنِ ذي المسحةِ الرومنطيقيّة، وتُظهره، على نحوٍ غريب، بما هو ليس عليه؛ شاعراً ربّما أو موسيقيّاً. هذه النظارة التي كُسرِ زجاجها الآن، وكلّما خلعها من أجل النّومِ، بان الخطّ الذي حفرته على قصبة أنفه.

(1) نوعٌ من الموسيقى المكسيكيّة التقليديّة، مُدرجٌ ضمن قائمة التراث الإنسانيّ.

يـا لهـا مـن كائنَـين بالغَـي الجـمال والهشاشـة، كلاهمـا! لا أسـتطيع أن أهجرهمـا، فـلا أعـود أراهمـا أبـداً. أحسسـتُ أنّنـي إنْ رفعـت بـصري عنهـا ولـو لسـاعةٍ واحـدة، تلاشـيا، التهمتهـما الإلهـة ذات الأنفـاس البـاردة.

جلسـتُ في الظـلّ طويـلاً إلى جانبهـما. كانـت الرّيـح تعصـف بالخيمـة وتصفِـر في الشّـجيرات. صـوت البحـر هنـا ليـس همسـاً بعيـداً مثلـما هـو في جزيـرة بـلات، بـل دويّ متّصـلٌ قريـب، يهتـزّ لـه الصّخـر والـتراب. ربّـما كانـت هـذه الضوضـاء هـي مـا أفقـد سـارة ميتكالـف صوابهـا. ضوضـاءُ تبعـثُ عـلى الخـوف، وتمحـو مـن داخـلي كلّ مـاضٍ ومسـتقبل، تاركـةً إيّـاي بـلا ذاكـرة. والآن يُخيّـلُ إليّ أنّنـي أصبحـت صلْـداً معتـماً، مثـل جزيـرة غابريـال.

الشـمس عموديّـةٌ والهـواء لافـحٌ. مشـيت إلى مخيّـم العـمّال. ولمحـت في حقـل الحجـارة مـا يشـبه تجويفـاً واسـعاً، في قلبـه كـوخٌ كبـيرٌ مبنـيٌّ مـن الحجـارة الجافّـة والخشـب، سُـدّت فجواتـه بالجـير. مـا مـن أثـرٍ للبيـوت التـي سـكنها المهاجـرون في ذلـك العـام حـين تخلّـت الحكومـة عنهـم وتركتهـم عـلى الجزيـرة.

عـلى العتبـة، تحـت ظُلّـة البـاب، ثمّـة عجـوزٌ سـوداء ضامـرةٌ ملتفّـةٌ في ساريها الباهـت. دنـوتُ منهـا فحدجَتْنـي بنظرتهـا اللاّمعـة، وعـلى وجههـا تعبـيرٌ وحـشيّ- أو ربّـما خـوف- سـمّرني في مـكاني. ثـمّ نهضـتْ وعـادت إلى الكـوخ مُدمدِمـةً.

انحنيـتُ لأدلـف إلى الكـوخ. كان معتـماً فلـم أرَ شـيئاً، وقـد كـدّر غيـابُ الضـوء جـوّه، فغـدا أقـرب إلى سَـلْع. رأيـت امرأتـين ملتفّتـين بوشـاحيهما. ثـمّ لمحـت صبيّـاً شـبه عـارٍ يركـض إلى الخـارج ويرمقنـي بنظـرةِ خـوفٍ

وتحدٍّ: إنّه بوتالا، شقيق بائعة الهوى. والمرأتان هما رسامه وأمّها مُريامه، العجوز التي لم أعرفها.

نهضَت رسامه، ومشت إلى الباب. رأيت في ضوء الشمس وجهها الجميل المتناسق وعينَيها العسليّتَين. كانت تضع العلامة على جبينها، وشعرها الأسود مسرّح بعناية، ومَفرقُه مصبوغ بالكركم. ارتسم على وجهها، هي أيضاً، تعبير قلقٍ وريبة. كانت شديدةَ الوهن حتّى أنّها عادت وجلست إلى الأرض، ثمّ تقدمّت إلى الأمام زاحفةً على أربع، وباسطةً يدها كأنّها تريد التحدّث معي. أتذكّرها حين كان الشّيخ حسين يذهب لرؤيتها في كوخها. وأتذكّر نظرتها المتغطرسة، ثمّ لعناتها في اليومِ الذي تلا أعمال الشّغب. كانت مُريامه واقفةً في آخر الكوخ وعيناها تلمعان كالجمر في غبش العتمة. لقد نُفيت العائلةُ على إثر ما حدث، ونبذتْها قرية باليساد.

كان ثمّة نساءٌ أخريات من الهنود على قارب ماري. فإلى أين مضَين؟

وكما لو أنّها خمّنت سؤالي، وبالصوت الأجشّ القبيح نفسه الذي شتمتني به، والمتناقضِ مع جمال وجهها، ردّدت قائلةً: «ماتوا جميعاً، ماتوا جميعاً». لم تُبدِ أمّها حراكاً. كنت لا أرى سوى البريق المتّقدِ في عينَي رسامه، مزيج من غضب وخوف وكراهية. أتذكّر أيضاً ما أخبرتني به سوريا عنها. فقد بيعت إلى متعهّد عمل، وضُربت وأُجبرتْ على البغاء في كلَكُتّا، حتّى اختطفتْها والدتها وحملتها إلى القارب ذاهبةً بها أبعد ما يكون. وأتذكّر هذه الكلمات التي قالتها لسوريا، ولن أقوى يوماً على نسيانها: **«لماذا وهبني الإله هذا الوجه**

وهـذا الجسـد ليجعلنـي أعيـش في مسـتنقع؟» صاحـتْ مـرّة أخـرى بصـوتٍ قـاسٍ: «ماتـوا جميعـاً!» ثـمّ فتّشـتْ في كلّ زاويـةٍ عـن حصـاةٍ ترمينـي بهـا، مثلـما فعلـت ذلـك الصبـاح حـينَ مـررْتُ أمـام بيتهـا في قريـة المنبوذيـن.

كانـت الرّيـح تُزَوبـع عـلى طـول الشـاطئ حيـث يسـطع الضـوء. عبثـاً ابتعـدتُ، ماضيـاً إلى أقـصى نقطـةٍ في الجنـوب، فقـد ظـلّ صـوت رسـامه يتناهى إليّ. وكـما هـو الحال مع سـارة ميتكالـف، كانت النسـاءُ الهنديّات يأتـين إلى هنا أيضـاً كلّ صبـاحٍ ويقدّمـن الطعـام، مثل قربـانٍ صامـتٍ، لعائلةِ رسـامه.

في الخيْمـة، اسـتيقظ جـاك. وضـع طاسـاً مطليّـاً بالمينـا قـرب الفـراش، ووسّـع فتحـةَ قميـص سـوزان وأخـذ يغسـل بهـدوء جلدهـا المجـرّح. لمحـتُ صدرهـا الأبيـض وقـد ظهـرت عليـه بقـعٌ داكنـةٌ بلـون الـدّم الجـافّ. ولـمّـا دخلـتُ الكـوخ، أدارت سـوزان رأسـها نحـوي ونظـرت إليّ محاولـةً الابتسـام. وكان هـذا أشـدّ مـا آلمنـي: ذهولهـا عـن كلّ حيـاءٍ، متمـدّدةً عـلى الأرض عاريـةً حتّـى الخـصر، وجسـدُها لامـعٌ ومُجـرّح.

عـَصَر جـاك قطعـة قـماشٍ مشرّبـة بمحلـول البوراكـس[1]، ثـمّ مسـح عـلى جسـدها برفـق شـديد، بحـركاتِ عاشـقٍ لا طبيـب. وحـينَ أحـسَّ بوجـودي، توقّـف وقـال:

- سيستغرق الأمر بضعة أيام، بضعة أيام فقط.

ولمّا لم أفهم أردف قائلاً:

- ينبغـي منـع التسـمّم. وإذا اختفـى الطّفـح الجلديّ، فسـتكون بخير. لقـد اكتسـبتْ مناعةً وسـتقاوم. إنّها مسـألة يومَـين فقط.

(1) أو البوْرق: من مركّبات عنصر البورون. واسمه العلميّ بورات الصوديوم أو رباعيّ بورات الصوديوم، ويدخل في صناعات متعدّدة مثل مساحيق الغسيل والأصباغ.

رجعتُ إلى الصهاريج لملء مزيد من الماء العذب. الخّزان هنا لا ينضب، وماؤه أجوَدُ من ماء الصهاريج في جزيرة بلات. أحبّ أن ألمس إسمنت الصهاريج الحارّ، وأشعر في الوقتِ ذاته ببرودة أعماقها. يبدو لي أنّني أرى لمحاتٍ من حياة العمّال الذين عاشوا هنا قبلنا، عابري سبيلٍ مهجورين. هم من بنوْا هذه الآبار، وجلبوا الحجارة كلّها، ورصّوها بعضها إلى بعضٍ بالمِلاط. إنّهم ما زالوا يعيشون هنا، في هذه الصّخور السوداء عند سفح القمّة، أمام أزرق البحيرة الخياليّ وأمواجِ البحر المتهادية. أشعر بنظراتهم إليّ في ارتداد الضوء. كم راقبوا يوماً بعد يوم خط موريشيوس في انتظار القارب الذي لا يأتي أبداً! إلى أنْ أُحرِقوا واحداً تلو الآخر على الشاطئ، وذُرَّ رمادُهم في المحيط. وها أنذا الآن في المكان نفسه أمشي على رفاتهم، طعمُ رمادهم في حلقي، وغباره النّاعم يختلط بشَعري، وينساب على جسدي.

جنحَت الشمس للمغيب. واستأنفت طيور رئيس البحر تحليقها الدّائريّ حول قمّة الصخرة، وشرائطُها الحمراء الطويلة ترفرف خلفها مثل راياتٍ صغيرة.

أبحرَ مركب إشكندر شاو عند الفجر، وانسابَ على طول نهر توليز، وهو لا يكاد يصدر ضجيجاً، نحو مصبّ نهر هوغلي. كان المطر ينهمر فوق النّهر وسطْح المركب، فتَتَسلّلُ قطراته إلى القاعِ عبرَ ثغرات الألواح الخشبيّة وخراطيم التهوية.

كانت جيريبالا في الجزء الخلفيّ من الدّرجةِ الأخيرةِ المخصّصةِ للنسّاء الوحيداتِ والأزواج، تتلذُّذ بعذوبة الهواء النقيّ ورذاذ الماء المتسرّب من الكُوى التي لم يُحكَم إغلاقها. فبعد كلّ تلك الأيام تحت الشمس الحارقة على طريق مدينتَي جانبور وإنجليش بازار، والانتظار الطويل في معسكر بهوانيبور، جاءت الرياح الموسميّة كأنّها فرَجٌ بعدَ ضيقٍ. وكان هدير الآلات مكتوماً أيضاً مثل موسيقى، فنامت أنانتا أخيراً، متكوّرةً على ركبتَي أمّها.

كانت الجزيرة الموعودة على مسافةِ أيام وليالٍ أمامهما، بعيدةً جدّاً حتّى أنّ أحداً لا يستطيع القطعَ، يقيناً، بوجودها. كانت على الطّرف الآخر من هذهِ اللّيالي الطوال التي ستقضيانها قابعتَين في بطن إشكندر شاو، كما لو أن وحشاً بحريّاً ابتلعهما، وحيث

الستارة المُشمّعةُ تتأرجح فوق الكُوى، مُرسلةً رشقاتٍ من المطر.

عثرت جيريبالا على مكانٍ لها قرب أضلاع المركب، مع المهاجرين الآخرين. كان كلّ منهم قد بسط حصيرته (التي قدّمها لهم السيّد لومير مع حزمةٍ من ملاءاتٍ شكّلت «عُدّة العمّال» الوحيدة) ووضعَ صّرة ثيابه على رأسه، حذَرَ السّرقة.

كان في مقدّمة المركب، على الناحيةِ الأخرى من مرجل البخار، حيزٌ مخصّصٌ للعزّاب من الرّجال، وفيه أيضاً منفذٌ يوصل إلى عنبر السفينة حيث يُحتَجَز أفرادٌ من السيبوي مقيّدين بالسّلاسل، وذلك لإرسالهم إلى سجن الأشغال الشاقّة في موريشيوس، ليشيّدوا الطرق والسكك الحديديّة. دخل إشكندر شاو مياه هوغلي مطْلعَ النهار، فتجمّعت نساءٌ أمام النوافذ المغبّشة القليلة أملاً في إلقاء نظرةٍ على مدينة كلكتّا وقصر الحاكم. كانت شفاههنّ مزيّنةً بالوشوم. قالت ماني إنّهن بريّاتٌ (دوغليج لوكيه)، لا يعرفن البحر. كنّ يتحدّثن بلغةٍ لا تفهمها جيريبالا، يهمسنها همساً، وكانت تندّ عنهنّ أحياناً ضحكاتٌ

مكتومـة، فقـد تلاشـى قلـق الرّحلـة مفسـحاً المجـال لحالـةٍ مـن تشـوّفٍ طفـوليّ.

كانـت جـارةُ جيريبـالا تُدعـى مـاني. وهـي شـابّةٌ أذبلـت الحمّـى وجههـا، تحمـل طفـلاً صغـيراً وتلفّـه بوشـاحها. كانـت تتحـدّث بضـع كلـماتٍ بالإنجليزيّـة. وقـد تعاطفـت عـلى الفـور مـع جيريبـالا التـي تحمـل طفـلاً مثلهـا. وهـي مـن أشـارت لهـا بمـكان المرافـق: صنبـورٌ نحـاسيٌّ متّصـلٌ بمـوزّع قـرب المحـرّكات، ينقـل خيطـاً مـن المـاء فاتـراً لا طعـم لـه إلى طـاسٍ مـن الصّفيـح. أمّـا المراحيـض فتقـع عـلى يسـار المحـرّكات، وهـي كـوخٌ خشـبيّ ذو فتحـةٍ جانبيّـة في خـاصرة المركـب، مـزوّد بلـوحٍ مثقـوب ودلـو لغـرف الميـاه مـن البحـر. وعـلى الرغـم مـن وجـود دلـو المـاء، فقـد كانـت الرائحـة كريهـة وتنتـشر في جميـع نواحـي الطابـق السـفليّ. أمّـا الرّجـال فكانـوا يقضـون حاجتهـم في مقدّمـة المركـب، مبـاشرةً عـبرَ أحـدِ منافذهـا، ولم يكـن يُسـمح للسـجناء المقيّديـن بالسلاسـل إلّا بدلـوٍ في قعـر السـفينة.

اسـتغرق عبـور هوغـلي نهـاراً كامـلاً. وكان الحـرّ يشـتدّ ويشـتدّ داخـل المركـب كلّـما ارتفعـت

الشّمس، فيستلقي غالبيّة المهاجرين على حصرهم ويغطّون في النّوم.

وُزِّعت وجبات الأرز والسّمك المجفّف عند الخامسةِ صباحاً، لكنْ لا جيريبالا ولا أنانتا استطاعتا أنْ تأكلا شيئاً منها. فأكلت ماني حصّتها ثمّ أبرزت من ثوبها ثدياً مُشقّقاً وألقمَتْه لابنها.

اشتدّت الرياح فجأةً مع قدوم المطر. وسُمع صوت البّحارة وهم يركضون على سطح السّفينة، وبدأ الشراع الرئيسيّ يصطفق مع الريح محدثاً أصواتاً كالانفجار كانت تهزّ أضلاع المركب، فيزداد تأرجُحه.

وعلى الرغم من الحظر، صعدت جيريبالا إلى الكوّة لكي تنظرَ من تحت الستارةِ المُشمّعةِ رافعةً أنانتا على السلّم، وأخذتا تراقبان معاً. كان النّهر ينبسط أمامهما في نهايةِ المركب فضاءً شاسعاً بلونِ الطّين، بحراً لوّنه الغروب بالذّهب. وكان الأفق يمتدّ بلا حدودٍ، ويتلاشى في دوّاماتٍ من سحبٍ سوداءَ عظيمةٍ يحزّزها البرق، وفي القلبِ منه، مباشرةً أمام السفينة، امتدّت شجرةُ المطر باسقةً مثل عملاق يتقدّم فتهرب من أمامه الطيور. لم ترَ

جيريبالا في حياتها ما هو أروع من هذا ولا أشدّ رعباً. كانت تتشبّثُ بأنانتا ضامّةً إيّاها بقوّة إلى صدرها، وعيونها تحملقُ بمشهد النهرِ الوسيعِ مثل بحر. كانت ضفّتاه تتباعدان إلى أنْ اختفتَا في سحابة المطر، ولم تعودا سوى شريطَين طويلَين من رملٍ رماديٍّ يطفوان ويتلويّان، ويبدّلان هيئتهما مثل ثعبانَين. وفجأةً، ارتفعت موجةٌ ضخمةٌ ساكنةٌ أمام مقدّمة المركب مباشرةً، ثمّ أخذت تتكسّر في نقطةِ التقاء مياه هوغلي بالمدّ. بدت مقدّمة المركب كأنّها تنجذب مستسلمةً للزوبعة، وارتجّت محرّكاته كلّها في محاولةٍ للتغلّب على الدوّامات، وشرع البحّارة المسلّحون بمراديَّ طويلةٍ يجسّون الماء في جنونٍ وهم يصيحون: «رام رام!»[1] سمعَت جيريبالا دقّات جذوع الشجر المكتومة وهي تضرب الجؤجؤ، وصريرَ أرينة[2] المركب على الضفاف الرمليّة، ولم تستطع أنْ ترفع بصرها عن الموجة التي كانت تتقوّس أمام المركب. أخذت بعضُ

(1) صيحةُ استغاثة بالإله رام أو راما، وهو إلهٌ هندوسيّ وبطل الملحمة الهنديّة الشهيرة رامايانا.

(2) رافدة القصّ في السّفينة: أي الجسر الممتدّ على طول قعر السّفينة وتستند عليه. واسمها الشائع أرينة.

النســاء أنانتــا وأرجعنهــا إلى الــوراء لتكــون في مأمــنٍ، لكــنّ جيريبــالا لم تكــن تســمع صيحاتهــنّ، كانــت تحــدّقُ في الكــوّة برعــبٍ ودهشــة ووجههــا يلتمــع بقطــرات المطــر. اصطــدم إشــكندر شــاو بالموجــة، فأخــذ الهيــكلُ بأكملــه يــصِرّ ويئــنّ في محاولــةِ اجتيــاز الجــرف الرمــليّ، ومــا هــو إلّا أنْ وجــد نفسَــه في البحــر يــدور ويتأرجــح، فانحنــت جيريبــالا وتقيّــأت طويــلاً عــلى ســطح الســفينة، دون أنْ تســمع ســخرية البحّــارة.

عــادت مــاني بعــد هُنيهــة مــن المطبــخ. وقــد حصلــت، لقــاء قطعــةٍ نقديّــة واحــدة، عــلى إنــاءٍ مــن المــاء الســاخن نُقعــت فيــه أوراق الزعــتر. «اشربي هــذا، فســوفَ يشــفيك».

كان الــشّراب ســاخناً مــرّاً، لكــنّ جيريبــالا اســتطاعت أخــيراً أنْ تســتلقيَ عــلى الحصــيرة بجــوار أنانتــا، وسرعــان مــا غطّــت في النّــوم، كأنّــما حُرمــت منــه شــهوراً وأعوامــاً.



2 يوليو، فجراً

استيقظتُ في السادسة صباحاً، مع طلوع النّهار على قمّة الصخرة. أمضيتُ لياليَ عند مدخل الكوخ في ظلّ الخيمة. تكاد جزيرة غابريال تخلو من البعوض، وذلك بفضل ريح الصابيات التي تهبّ دوماً فوق البحيرة، ولنُدرة المياه والغطاء النباتيّ. واللّيلُ فيها نديٌّ بقدر ما هو في بلات، وأقربُ إلى برودة الصّحراء. هنا لم تعد نوباتُ الحمّى تزورني. وصرت أنعمُ بنوم عميقٍ ومريح، في فراشٍ هو في الواقع قماشةٌ بسيطةٌ ألتفُّ بها وحجرٌ أسند إليه رأسي. لكنْ ليست خشونة الفراش ما كان يعذّبنا في جزيرة غابريال، بل الجوع. فكلّ ما لدينا هو الحد الأدنى من الحصص الغذائية التي منحها لنا الشّيخ حسين، حصّتينْ من أرزّ سايغون لكلّ شخص، وحصّةٍ من دقيق الذّرة، وكوبٍ من العدس، وقليلٍ من الدّهن.

كان جاك قد جلب معه علب شايٍ وقطعَ صابونٍ استهلكها باقتصادٍ شديد. وكنّا نتناوب على الطّهو على موقدٍ بدائيّ، حيث الأغصان والأخشاب الطافية وقودنا الوحيد. كنت أجمعها من على الشاطئ، وكان ينبعث منها دخانٌ أخضرُ كريه. كانت مُريامه تطهو في المخيّم الآخر، وفي الصباح، رغم العزلة والشّح، كنت أتنسّم عبقَ حضارةٍ ما يصل إلينا. وكنت حالما أفرغ من وجبة اليوم الوحيدة، أذهب إلى موضعٍ أعلى البحيرة كي أتأمّل جزيرة بلات، وشريطَ الرّمل الطويل الذي يصل إلى صخرة لوديامو. ولكي أنتظر سوريافاتي.

في تلك اللّحظاتِ تصفو السّماء بعد أنْ تجلوها الرّياح، وتسطع الشّمس ما إنْ تجتاز الأفق. ومن ناحية الشطّ الشماليّ، ينفتحُ البحر

أمامنـا بأزرقـه الضّـارب إلى السّـوادِ، مفروشـاً بالزّبـد. كلّ شيء هنـا هـادئٌ ساكنٌ، خـلا الأمـواج التـي تنسـاب وئيـدةً، وطيـور رئيـس البحـر التـي تمـرّ مـن حـينٍ إلى حـينٍ لتراقبنـا، مطلقـةً صرخـاتٍ أشـبه بصريـر البكَـرة.

في غابريـال، لا نعـرف شـيئاً عـمّا يحـدث عـلى الطـرف الآخـر. فلـم يعـد ممكنـاً سـماع صافـرات السـتردار وأذان الصّـلاة فجـراً، ولا ترنيمـة المـؤذّن مسـاءً. لم نعـد نـرى شـيئاً مـن الحيـاة في باليسـاد، أو عمـل النّسـاء في المـزارع، أو العمـل الأبـديّ في بنـاءِ السّـد، أو جمـع الطّلـق مـن عـروق الصّخـر عنـد سـفح الـبركان. أحـاول أن أتذكّـر الـوادي الضيّـق حيـث تـتلألأ الميـاه العذبـة في الـبرك المخبّـأة بـين أوراق القلقـاس والداتـورا الضخمـة السّـامّة، قـرب الموضـعِ الـذي تقصـده النسـاء للاسـتحمام وغسـل ملابسـهن. أجلسُ الآن في مـكاني بـين الصّخـور، أفتّـش بعينَـيّ المبهورتَـينِ بالشّـمس والريـح عـن علامـات الحيـاة. تبـدو مبـاني الكرنتينـة مهجـورةً، مثـل أطـلالِ قَـرنٍ آخـر. جوليـوس فـيران وبارتـولي في موقعهـما عـلى قمـة الـبركان لا يبرحانـه، ربّـما تحسـبّاً لهجـوم نهائـيٍّ لـن يـأتي أبـداً. أمـا المسـنُّ مـاري، فبعـد أنْ ينقـل النسـاء الهنديّـات الـلاّتي يجلبـن القرابـين كلّ صبـاح، يقـضي بقيّـة نهاراتـه قـرب الرصيـف، في ظـل جـدار المسـتوصف، يحلـمُ يقِظـاً ويدخّـنُ، مثـل حـارسٍ منسـيّ.

اليـوم، مـع انحسـارِ المـدّ، جـاءت سـوريا إلى الشّـعاب المرجانيّـة معلّقـةً حقيبتهـا مـن الـكاذي عـلى كتفهـا، ومتّكئـةً عـلى حربتهـا الطويلـة. توقّفَـت للحظـة في القنـاةِ وسْـط البحـيرة، والميـاهُ تصـل إلى خصرهـا. ثـمّ صعـدت صـوب جزيـرة غابريـال حتّـى بلغـت المنعطـف الرمـليّ المفـضي إلى الشـاطئ.

كانـت ترتـدي السّـاري ذا اللّـون الأخـضر المائـيّ الـذي ارتدَتـه ليلـة

ذهابنا إلى الكهف أعلى باليساد، وكان يمتزج بلون البحيرة. نزلَت إلى الشاطئ، فأحسستُ أنّ نبضيَ يتسارع، وحواسّيَ تتضاعف، رأيت وجهها بوضوح، والجديلةَ الغزيرة المنسابة على كتفها اليسرى، والنقطة الحمراء على جبهتها، وزِمام الذّهب في أنفها، وهالتَين سوداوَين حول عينَيها. كانت آيةً في الجمال.

صارت أمامي على الشاطئ، وبحركاتٍ شديدة البساطة وضعَت حقيبتها الكاذيّة على الرّمل وفتحتها لتريَني ما جلبت: بعض الفطائر، وحبّاتِ طماطم من حديقتها، وحزمةً صغيرةً من الأعشاب والأوراق الجافّة.

- هذه من أمّي، إنّها جيدة لشفاء جروح الرّاصات الباردة وتطهير الجلد.

ولمّا تفحّصتُ الأوراق عرفتُ فيها البيفيلاكوا التي وجد جون مزرعةً كاملة منها على المنحدر قرب باليساد، يوَم منعنا راماساومي من الدخول. حتّى أنّني تذكّرت اسمها اللاّتيني (Hydrocotile asiatica).[1]

خبّأتْ سوريا حقيبتها داخل شجيرة ديداء ضخمة. ثمّ أخذتني من يدي. وكما لو أنّ شيئاً لم يحدث، وكأنّنا قد التقينا البارحة، قادتني نحو القمّة. «تعال، سأقطف بعضَ النباتات التي تصلح مرهماً».

تسلّقنا الصخور معاً. كانت الرّيح تعصف بعنفٍ فتجعلنا نترنّح ونحبس أنفاسنا. حثّت سوريا الخطى. كانت تقفز برشاقةٍ من صخرة إلى صخرة وهي تجول ببصرها مفتّشةً، إلى أنْ عثرَت على مُرادها في صَدعٍ بازلتيّ، فقالت بفرحةٍ تكاد تكون طفوليّة: «تعال وانظر!».

(1) صُحّح الاسم العلميّ لهذه النبتة ليصبح «Centella asiatica».

كان هنـاك نبتـةٌ تلتمـع في الشـمس ذات أوراقٍ خـضراء داكنـة، مسـننةٍ وشـائكة قليـلاً. وفي قلبهـا رأيـت عنقـوداً مـن زهـيرْاتٍ خـضراء شـاحبة. قطفَـت سـوريا كلّ شيء بسرعـة كبـيرة، الأوراق ومجموعـة الأزهـار، وربطتهـا في طَـرفِ سـاريها.

بلغنـا القمّـة أو كدنـا، فصرنـا تحـت عمـود الإشـارة الاسـمنتيّ. جلسَـت سـوريا في ظـلّ صخـرة، آمنـةً مـن الريـح. البحـر مـن حولنـا صاخـبٌ وبهـيّ. وفي الأفـق يلـوح الخـطّ الـذي يحـدّ أرض موريشـيوس، وعُـرفُ الزّبـد عـلى رأس صخـرة مالـورو، وأخـضرُ حقـولِ القصـبِ الضـارب إلى الرمـاديّ، وحتّـى أطيـافُ البيـوت وأبـراج قمائـن الجـير. إنّهـا قريبـةٌ جـدّاً، في الطـرف الآخـر مـن العـالم!

اقتربـت منّـا طيـور رئيـس البحـر وقـد أقلقهـا حضورنـا، فأخـذت تطـير بعصبيّـة منعطفـةً نحـو القمّـة. وأقبـل زوجـان منهـا نحونـا مبـاشرةً، ثـمّ انحرفـا وهمـا يصيحـان، وريشـتا ذيلَيهـا الأحمريـن الطويلـيَن ترنّحـان في الريـح. عـبرا قريبـاً جـدّاً منّـا حتّـى أنّنـي رأيـت بوضـوح منقاريَهـا الأحمرَيـن، وأرجلهـا المزرقّـة، وحدقاتهـا الصلبـةَ المصوّبـةَ نحونـا مثـل ماسـاتٍ سـوداء. كانـا يضطّربـان في الريـح مطلقَـين صرخـاتٍ طويلـةً مبحوحـةً، ممتلئـةً تبرّمـاً وغضبـاً. أومـأتُ بيـدي لأبعدَهـا، لكـنّ سـوريا دفعـت ذراعـي إلى الخلـف.

– لا تفعـل. إنّهـا خائفـة، فنحـن قريبـان جـدّاً مـن أعشاشـها، وتظـنّ أنّنـا نريـد إيذاءهـا.

وقادتني إلى طرف القمّة الآخر، من جهة الريح.

– تعالَ، سأريك عشّها.

سرنـا وئيـداً منحنيَـين إلى الأمـام كـي لا نكـون مرئيّين بوضـوح. الرّيـح أقـلّ عنفـاً عـلى هـذا المنحـدر، والغطـاء النبـاتيّ أكثـر سـمكاً، حيـث تكثـر شـجيرات الديـداء والفِربيـون والحشـف. كانـت صرخـات الطيـور تـزداد إلحاحـاً وحـدّة كلّـما تقدّمنـا، وصـارت أربعـة أزواج منهـا تحـوّمُ حولنـا، فدفعتهـا الرّيـح نحـو عمـود الإشـارة، لكنّهـا عـادت للظهـور مـن خلفنـا.

وقفـت سـوريا، وهمسـت في أذني كأنّهـا تبـوح لي بـسرّ: «انظـر يـا بْهـايْ، هـذا بيتهـا».

كانـت أمامنـا تلعـةٌ يبـدو سـفحها كأنّـما حُـرث واستُصلح للزراعـة، وقـد تناثـرت في مواضـع مـن تربتـه السـوداء بعـض حفـرٍ كأنّهـا مداخـل أوكار، لكـن لا يمكـنُ رؤيتهـا مـن الشـاطئ. وكانـت شـجيرات الحشـف تسـدّ تلـك المداخـل، فبـدت مثـل جحـور الأرانـب. أحصيْـت مـا يزيـد عـلى الخمسـين منهـا. لقـد كنّـا أمـامَ قريـة طيـور رئيـس البحـر.

واصلنـا التقـدّم زاحفَـين عـلى أربـع، دون أنْ نحـدث أيّـة ضجّـةٍ أو حركـةٍ فجائيّـة. همسَـت سـوريا في أذني: « لقـد فقَسَـت بيوضهـا وصـار لهـا أفـراخ، ولهـذا تـصرخ علينـا، تطلـب منّـا أنْ ننـصرف».

صرنـا عـلى بعـد عـشرة أمتـار فقـط مـن الأوكار، أسـفل التّلعـة. كانـت طيـور رئيـس البحـر تحلّـق عشـوائيّاً فـوق رؤوسـنا. سـمعتُ مِـن كثـب حفيـفَ أجنحتهـا ممتزجـاً بـما يشـبه صفـيراً مكتومـاً يصـدر مـن مناقيرهـا المفتوحـة عـلى اتّسـاعها، كأنّهـا صرخـة غضـبٍ بكـماء. كـم هـي سـاحرةٌ وخرقـاء بريشـها الـذي بلـون الزّبـد وراياتهـا الحمـر الطويلـة. كانـت تتصـادم فيسـقط بعضهـا عـلى الأرض أمامنـا. وقـد مشـى أحدهـا نحونـا وهـو يحـدّقُ فينـا بطـرف عينـه بهيئـة مُهـدِّدة، وريـشُ حوصلتـه منتصـبٌ.

كان يريـد إخافتنـا، لكـنّ مِشـيته كانـت مهـزوزةً مضحكـة. وبـدا أشـبه بدجاجـةٍ غاضبـة.

نظـرتُ إلى سـوريافاتي. كانـت متمـدّدة عـلى الأرض، وعـلى وجههـا تعبـير دهشـةٍ طفوليّـة. «انظـر يـا بْهـايْ، هـذه هـي الأمّ. إنّهـا مسـتعدّة للقتـال دفاعـاً عـن صغيرهـا».

وإلى الخلـف منهـا، أبعـد قليـلاً، كان طائـرٌ آخـر يزعـق. قالـت سـوريا: «إنّـه الأب». كان يسـير ذهابـاً وإيابـاً بـشيء مـن الغضـب، ويشـحذ منقـاره بـالأرض. هـذه الطيـور التـي تبـدو في السـماء كبـيرة جـدّاً، بأجنحتهـا البيضـاء الطويلـة الشـبيهة بأنصـال المناجـل الكبـيرة، وتحـوم حـول القمّـة وتسـقط في البحـر كالحجـارة، باتـت الآن عـلى الأرض صغـيرةً عاجـزةً، ولا تـكاد تفـوق اليـمام حجـماً.

اقترَبَـت سـوريا أكثـر مـن الأوكار، زحفـت مسـتندةً إلى مرفقيهـا، ونظرَتُهـا مصوّبـةٌ إلى العمـقِ مثـل قطّـة مُسـتنفَرة. وحـين صـارت أقـرب مـا يكـون، طـار واحـدٌ مـن رؤسـاء البحـر زاعقـاً، لكـنّ واحـداً آخـر واجههـا ومشـى نحوهـا مِشـيةً منحرفـةً إلى حـدّ مـا، بحوْصلـةٍ منتفخـة ومنقـارٍ نصـف مفتـوح، وأصـدر صفـيراً يَـشي بكراهيـة وخـوف، ثـمّ أخـذ يحـوم في مكانـه ويتظاهـر بأنّـه عـلى أهبـةِ الهجـوم. فحـان دوري كـي أزحـف، عندهـا أدرك الطائـر أنّـه لـن ينتـصر في هـذه الحـرب، ففَـرّ فجـأة مصفّقـاً بجناحيـه بـكلّ مـا أوتيَ مـن قـوّةٍ، ولكـن بـلا زعيـق، وارتفـع عاليـاً في السـماء مجرجـراً خلفـه شُـعلته الحمـراء، الباذخـة والعديمـة النّفـع.

صرنـا عنـد مدخـل الوكْـر. في بدايـةِ الأمـر لم أتمكّـن مـن رؤيـة شيء في العتمـة، سـوى بقايـا طعـام وبعـض الأصـداف وعظـام الحبّـار. ثـمّ لمحتُ في

عمقِ الحفرةِ فرخاً أشعث مرقّطاً، شبه متوارٍ في العشّ الملوّث بالذرْق، رأسه كبير مُثقلٌ بمنقاره الأسود، وجلد جمجمته مزرَقٌّ. كان يُسقسق في تبَرم محاولاً الوقوف على رجليه في العشّ، لكنّ ثقل رأسه الضخم جعله يتعثّر. كان دميماً مُحزناً. أنّى لهذا الجهيضِ أنْ يستحيلَ واحداً من تلك الآلهة المجنّحة المتغطرسة والناصعةِ البياض، التي تنساب وتحلّقُ فوقَ المحيطِ، مؤرجحةً ذيلها النّاريّ الطويل، كما لو كان لا يجدر بها أنْ تستريح أبداً؟

عادَ الزوجان يحوّمان فوقنا، مطلقَينِ صرخاتٍ مروّعة، فما كان من الطيورِ الأخرى، وقد جذبها المشهد الفاضح، إلّا أنْ انضمت إليهما: النوارس، وطيور النوء، وحتّى طيور الأطيش. كان ضجيج أصواتها يصمّ الآذان. شدّتني سوريا إلى الخلف، وهبطنا معاً المنحدر نحو البحيرة ذاهلَين من صرخات الطيور، مبهورَين من شدّة الضوء والريح. ثمّ وصلنا إلى الظّل عند أشجار الكزورينة، فاسترحنا طويلاً على الرّمل. مِلتُ بخدّي على صدْر سوريا، مصغياً إلى دقّات قلبها مرّة أخرى، فانتابني الإحساسُ بأنّنا لم نفترق يوماً.

ثمّ أكلنا من الزّاد الذي جلبَته. شعرتُ فجأةً بجوعٍ شديد، والتهمتُ فطائر العدس من فوري.

وخجلتُ من نفسي لأنّني لم أفكّر في تقاسمها.

فقلتُ مشيراً إلى مخيّم جاك وسوزان، ومخيّم النساء الهنديّات:

– ربّما عليّ أن أبقيَ شيئاً للآخرين، هناك؟

نهضَت سوريا متردّدة. وتطلّعت نحو البحيرة.

– ينبغي أن أعود قبل المدّ.

وقفَت قبالةَ الشمس والرّملُ من حولها يبهر البصر. ثوبُها بلون الماء، ووجهها نحاسيٌّ داكن. شعرتُ بالاستياءِ، بل بالغضبِ ربّما.

-لا يمكنكِ الذّهاب الآن. لا بدّ أنْ تقابلي أخي وسوزان. لا يحقّ لأحدٍ أن يفرّق بيننا.

تبعتني على الدّرب المفضي إلى المخيّمَين لافّة شالها الأحمر الكبير على وجهها. كانت مثل أيّ امرأة من قرية المنبوذين. وقد سمعتُ رنّة خلخالها وحفيف فستانها الطويل، وكان قلبي يخفق بشدّة، فهذه أوّل مرّة ترافقني فيها إلى بيت أخي.

أنا أيضاً كنت حافياً. ولكي أتقّيَ الشمس، لففْتُ قطعةً من القماش الأبيض حول رأسي.

كان الحرّ خانقاً تحت الخيمة، وأسرابُ الذّباب تنتشرُ في المكان. وحينَ وصلنا، نهض جاك ونظر نحونا. أدركتُ أنه لم يعرفني. فقد سأل:

- مَن حضرتُك؟ وعمّن تبحث؟

فهو بخلاف السّادة البيض، لم يعتد مخاطبة الهنود برفع الكلفة.

ثمّ عدّل نظّارته ليرى على نحوٍ أفضل. أمّا سوزان فعرفتني. وقد شقّ عليها الابتسامُ بسبب تورّم وجهها، لكنْ بدا لي أن عينَيها تلمعان بالبريق الجميل نفسه الذي لمحتُه فيهما حين رأيتها للمرّة الأولى عند العمّ وليام.

وقفت سوريا عند مدخل الخيْمة، مثل تلميذةٍ لا تجرؤ على نطق اسمها. فدعَتها سوزان للاقتراب وشفتاها المتيبّستان تحاولان الكلام بمشقّة، وصوتُها متخدّرٌ متثاقل. لكنّها قالت على كلّ حال: «ما

أجملها!» وحاولَت أنْ تسألَ متشوّقةً: «ما اسم...» دون أنْ تقوى على إنهاء جملتها. فأجبتُها، «اسمها سوريافاتي».

كنت أقفُ أمامها، فأزاحتني سوزان بحركةٍ غاضبةٍ قليلاً كي تتمكّن من رؤيةِ سوريا بوضوح! قالت مرّة أخرى «ما أجملها... تعالَي، أرجو المعذرة، فأنا لا أستطيع... لا أستطيع النّهوض».

غيرَ أنّ الجهدَ الذي بذلته في الكلام قد أنعشها قليلاً.

وفجأة هالني حالُها. كانت نحيلةً جدّاً، وبشرتها جافّةٌ تتناثرُ فيها بقعٌ حمراء دميمة. كانت الجروح حيّةً عند قاعدة العنق وثنيتَي مرفقيها. استنزفت نفسها محاولةً الترحيب بسوريا. ثمّ تراجعَت إلى الخلف وهي تلهث، جبينُها ملتهبٌ ويداها متجمّدتان، وكان جاك يجلس بجانبها، وبالقرب منه قليلٌ من الماء الملوّث في طاسِ المينا، والقماشة التي اتُّخِذت ضمادة.

قال في هدوءٍ يائسٍ أوجعني:

- لقد نفذ البوراكس، لم يعد هناك شيء.

ثمّ أردف:

- ولن أذهب لأجلب لها مسحوق الطّلق على كلّ حال!

اقتربَت سوريا من الفراش. ودون أن تنظر إلى جاك، أخذت حفنةً من ورق الشجر، ونقعتها في ماء الطاس، ودعكَتها بين راحتَيها، فسال منها خيطٌ رقيقٌ من عصارةٍ أقرب إلى السّواد. وحين صارت الأوراق عجينةً، وزّعَتها بعناية على القروح. ولا بدّ أنّ الضمادة كانت باردة، لأنّ سوزان ارتجفت.

وسألَتْ سوريا بصوتٍ واهنٍ:

- ما هذا؟

فأجابتها بالاسم فقط:

- بيفيلاكوا.

وأعـدّت كـمادات أخـرى. وجثـت ثانيـةً أمـام سـوزان، وفكّـت أزرار ثوبها العليا كي تغسل الجلد المتضرّر بالطّفح، بإيماءات شديدة اللّطف. وكانت بالطريقةِ ذاتها تعتني بأنانتا، حيث تحمّمها كلّ صباح لتخفّف من قروح الفراش.

ابتعدنا أنا وجاك قليلاً، وقفنا في الخارج أمام الباب، وقد خفّت وطأةُ الحرّ، وتناهى إلينا حفيف أوراق الحشف معلناً قدومَ رياح المدّ.

ثـمّ سـمعنا وقـع خطـى، فاعتقـدتُ للحظـةٍ أن فيران أو السّردار قد جاءا للتّفتيش. لكنّهما كانا بوتالا وأمّه. كان الولد الصغير شبه عارٍ، لا يرتدي سوى مئزرٍ حول خصره. وظلّ واقفاً أمام الكوخ، هازّاً ساقه وعاقداً ذراعيه. ودخلَت مُريامه بصمت. وألقت وشاحها البرتقاليّ. كان لها وجه إلهة إغريقيّة، شائخةٍ برونزيّة البشرة، وشعرُها الرماديّ مصفّف في ضفيرتَين طويلتَين. وقفتْ أمام سوزان ونظرت دون أن تنطقَ بكلمة.

التَفَتَت سوريا، وجالت ببصرها بحثاً عن شيءٍ ما، ثمّ أخذت إحدى الملاءات التي تُستخدم كناموسيّة وثبّتتها بمساعدة مُريامه بدعامتَي الخشب على جانبَي الكوخ، مثل ستارةٍ. ثمّ التفتت إلى جاك وقالت له: «ينبغي أنْ يُغسلَ الجسد بكامله». قالت هذا بإيجاز، كأنّه أمر، حاثّةً إيّانا على مغادرة الكوخ. لم يعترض جاك. خرج أولاً، وجلس في الخارج على حجر. بدا في ضوء الشمس أشدّ إرهاقاً، أشعثَ

الشّعر واللّحية، مغبرّ الملابس، عاريَ القدمين في حذائه الممزّق. وكان يُحدّث نفسه بصوت رتيب.

- هذا الصباح كانت الانتكاسة مخيفةً... لم تكد تعرفني. علينا أنْ نكسب بضعة أيام، بضع ساعات.

ثمّ لفّ سيجارةً بطريقةٍ آليّة. فبثّ الدخانُ المتطاير مع الرّيح رائحةً غريبةً مُسْكِرة. كان جاك هو الآخر يتعامل مع رجال المسنّ ماري من الصيّادين المهربّين، فقد كان يدخّن الحشيش.

بقي بوتالا واقفاً على مقربةٍ منّا بين الصخور، بمئزره الأبيض وشعره الأشعث، نحيلاً مثل داليةٍ سوداء. وقد ذكّرني بماوكلي. حاولتُ التحدّث معه عدّة مرات، وكان يصغي باهتمام، لكنّه يظلّ على تجهّمه، ولا يجيب إلاّ بكلماتٍ قصيرة. وبين الفينة والفينة يهتزّ بدنه بنوبات السّعال القصبيّ.

في تلك اللّحظة أنهت سوريا ما بدأت به. وفكّت الستارة. دخل جاك أولاً، وجئنا إلى جوار سوزان. تسلّل شعاعٌ ذهبيّ إلى الكوخ عبرَ شقوق السقف وأنار وجهها. بدت هادئة، وكانت تلتفّ بملاءةٍ تلتصق بجسدها المبتَلّ وترسم شكل نهدَيها وركَيها، وكانت تردّ شعرها القصير إلى الخلف. ولّما دنوتُ منها بدوري، مدّت لي يدها النديّةَ المرتخية، وهمستْ: «يا لها من ملاك!»

لكنّ مهمّةَ سوريا لم تنتهِ بعد. فقد أخذتها مُريامة من ذراعها وقادتها نحو المخيّم الآخر. مشت أمام سوريا ملتفتةً بنصف جسمها، على طريقةِ من لا مكانَ لهم في أيّ طبقةٍ من المجتمع. لم يكن صعباً تخمين ما تريد. فرسامه كانت في أسوأ حالاتها، إذ أصابها داء الرّاصات الباردة وخلال ساعاتٍ انتشر في سائر جسدها.

حين دخلتُ إلى ملجئها، صدّتني رائحة عنيفة، رائحة موت. كانت رسامه مستلقية على حصيرة في هواء الكوخ الحارّ. وعلى الرغم من الغبش، أمكنني رؤية وجهها المسودّ الذي شوّهه التورّم، كان فمها نصف فاغر، وعيناها تلمعان بين جفنَيها المتورّمَين ببريق الحياة والذّكاء القاسي نفسه. لكنّ شفتيها لا تقويان على النّطقِ بكلمة.

بقيتُ على العتبة مع بوتالا. كانت سوريا جاثيةً أمام رسامه. طلبت من مُريامه أن تقترَبَ وتحضر بعض الماء، لكنّ العجوز لم تستطع الحركة. ظلّت واقفة في زاوية الكوخ، ونظرتها مثبتةٌ على ابنتها، كما لو كانت أمام مشهد لا يُحتَمل ولا يُقاوَم في آنٍ معاً.

كان جاك بجواري أمام الكوخ. نظرَ طويلاً هو أيضاً دون أن ينبس ببنت شفة. ثمّ عاد إلى المخيّم. ولمّا حاولتُ استبقاءه، هزّ رأسه: «لم يبقَ ما يُمكنُ فعله». وتمتم شيئاً، وحينَ لم أفهم، كرّر بهدوءٍ أخافني: «ينبغي أن نجهّز المَحرقة في أسرع وقت». تملّكني الذهول. وفكّرت بأنّنا جميعاً نفقد صوابنا شيئاً فشيئاً، لقد أصبحنا مثل فيران الفاسد، مستعدّين لإراقة الدماء من أجل القليل من الطعام، أو من أجل القتال وحسْب. سمعتُ في لحظةٍ صوتاً خفيّاً قادماً من بين الشجيْرات، خلف مخيّم مُريامه. وأظنّ أنّي لمحتُ طيف سارة ميتكالف وهي تهرب نحو جحرها في الطّرف الجنوبيّ، وبوتالا يلاحقها بالحجارة. لقد جُنّ الجميع.

عادت سوريا إلى البحيرة. غادرت دون أن تنظر خلفها، وسرعان ما اجتازت الصخور نحوَ الشاطئ. كان وجهها النحاسيّ الدّاكن يخلو من أيّ تعبيرٍ، وكانت تردّ طرفاً من فستانها الأخضر على شعرها.

ارتفع الموج عالياً واختفى مسار المرجان، وغرقت الشواطئ الرّمليّة. لم تكن سوريا في حاجةٍ لأنْ تلوّحَ أو تومئ. فقد عبر قارب المسنّ ماري البحيرة منحرفاً قليلاً بسبب التيّار. وقبل حتّى أن يلمسَ الجؤجؤُ الشاطئ، قفزت الفتاة إلى متنه، ووقفت في المقدّمة، ثمّ اتكأت على المُرديّ ومضت صوب بلات، كأنّها لن تعود أبداً.

كان الغروب بديعاً مثل كلّ مساء، حيث سكنت الريح، وخُطّت السماء بخيوطٍ أرجوانيّة وبنفسجيّة. وانسابت مياه البحيرة حريريّةً باهرةَ الزُّرقة، كأنّ ضوءاً يطلع من أعماقها. كلّ شيء هادئٌ تماماً هنا، سوى من هدير الموج المتكسّر على الحواجز في الطرف الآخر من الجزيرة، وعبور الطيور البطيء نحو الصّخور عند قمّة لوديامو. أمّا طيور رئيس البحر فقد عادت باكراً إلى أوكارها أسفل عمود الإشارة.

هذه هي السّاعة التي أجلس فيها بجوار سوزان، فيما ينشغل جاك بغلي الماء على نار الحطب. إنّها لحظاتٌ أشبه بطقسٍ، حيث أقرأ بصوت عالٍ القصائد التي تحبّها سوزان من كتيّبٍ أزرقَ داكنٍ ملطّخٍ بالرّماد والطين، وقد بات عندي أهمّ كتاب في العالم. فقد بدا لي أنّ كلّ كلمة وكلّ عبارةٍ فيه تحمل معنى غامضاً ينير عتمةَ واقعنا. وكنت كلّما بدأتُ أقرأ منه، تألّقَ وجه سوزان واشتدّ بريق عينَيها، وأحسستُ أنّها تتنفّس بارتياحٍ أكبر.

قرأتُ المدينةَ والبحر، فإذا بالكلمات التي كتبها لونغفيلو في 12 مايو 1881، تتسلّل إلى أعماقها، فتخفّف أوجاعها وتجلو ذهنها. ولمّا شرعتُ في القراءة، سمعتُ خطى جاك تدنو من المدخل، وحركة

بوتـالا الخفيفـة تتقـدّم عـبرَ الدّغـل، أو ربّـما تكـون سـارة التـي توقّفـت لتصغـي وهـي تختبـئ بـين الصّخـور حابسـةً أنفاسـها:

«شكت المدينة اللّاهثة إلى البحر قائلةً:
الحرّ أضناني، فأنعِم عليّ بأنفاسك!
قال البحر: هاكِ! انظري ها أنا أتنفّس، لكنّ أنفاسي
للبعض ستكون حياةً، وللآخرين موتاً
هكذا، مثل بنات أوقيانوس[1]
إذ يأتين إلى بروميثيوس
لِيواسينه في ألمه
أتت ريح الشرق إلى المدينة
المشتعلةِ بلهيب شمسٍ لا ترحم
أتتها طالعةً من أعماق اليمّ الجيّاشة
صامتةً مثلما هي الأحلام، مباغتةً كالنّعاس
أتُراكِ ستمنحين الحياةَ أمِ الموت
أيا أنفاس البحر الرحيمة والقاسية!»

(1) حوريّات مياه، بنات أوقيانوس إله المحيطات والبحار. (المُراجع)

بعد أنْ عبر مركب إشكندر شاو مصبَّي نهرَي الغانج وهوغلي مساءً، دخل المحيطَ العظيم تحت سماءٍ خفيضة، في ليلةٍ اشتدّ برقُها. كانت رحلةً كالنّعاس أو الخدر الذي يعقب مرضاً طويلاً، اجتازها المسافرون يوماً بعد يوم، ليلةً بعد ليلة، محمولينَ على الأمواج البطيئة التي كانت تدحرج المركب وتهزّه، فتئنّ أضلاعُه، وتهدرُ مروحته كلّما اخترقت الموج، بينما يُثقِلُ هبوبُ الريح شراعه، ويكبح ترنّحه.

أخذت جيريبالا تعدّ الأيام، وتدوّنها في كرّاسٍ مدرسيّ صغير كانت قد اشترته من دكّان المخيّم في بهوانيبور. كانت لا تعرف الكتابة إلّا بالإنجليزيّة، وكلّ ما تعرف كتابته بها هو أيّام الأسبوع. فهذا ما بقي لها من زمن المدرسة الإرساليّة في كاونبور. وقد دوّنت بحماسةٍ قبل يومٍ من إبحارها على القارب كلمةَ: الاثنين. ورسمت خطّاً تحتها.

كانت كلّ صباح، حين تستيقظ، تتناول الكرّاس من صرّة ثيابها وتسجّلُ اليوم الجديد، راسمةً خطّاً تحته، ثمّ تغلق الكرّاس وتعيده إلى مكانه بعناية. كان هو الشيء الثمين الوحيد

الـذي تملكـه.

في الخامسـة والنصـف صباحـاً، كان متعهّـد العـمّال يطلـق صافـرة طويلـة معلنـاً وقـت الاسـتيقاظ. فيطـوي كلّ عامـلٍ حصيرتـه، ويسـارع إلى وضـع المـلاءة وملابـس النـوم بـين متاعـه، ويـدسّ صرّتـه في الفجـوات بـين أضـلاع السـفينة. وفي السادسـة يبـدأ الطاهـي بتوزيـع الأرزّ عـلى النسـاء الوحيـدات أوّلاً، ثـمّ عـلى الأزواج، فيتقـدّم كلّ منهـم بـدوره أسـفل السـلّم حامـلاً قصعتـه ليتلقّـى حصّتـه، وهـي كـرةٌ مـن الأرزّ تُغـرَف بمغرفـة. وكان المتعهّـدان يشرفـان عـلى التوزيـع للتأكّـد مـن أنّ الأشـخاص لا يكـرّرون أدوراهـم. كان كلّ شيء يتـمّ بالترتيـب وفي أقـصى درجـات الصمـت. وكان كل منهـم يتلقّـى قدحـاً مـن الشـاي الأسـود يُصَـبُّ مـن وعـاء سِـماوَر[1] نحـاسيّ كبـير. وبعـد الوجبـة التـي تـؤكل سريعـاً عـلى ضـوء المصابيـح، تنتظـم النسـاء في طابـورٍ لاسـتخدام المرافـق، حيـث يدخلـن اثنتَـين اثنتَـين في كـوخ المَراحيـض، وسْـط الطابـق السـفليّ.

(1) كلمةٌ روسيّة تشير إلى نوع من الأباريق لغلي الماء وإعداد الشاي، وكان يُستخدم أيضاً في أوروبّا الشرقيّة والشرق الأوسط.

وكانت جيريبالا في بدايةِ الأمر تشعر بالحرج من قضاء حاجتها والاستحمام أمام ماني. فحتّى عند السّفر مع الدّوميّين، كانت كلّ امرأةٍ تذهب في اتّجاه مختلف وتجلس القرفصاء في النهر، والمياه تتدفّق حتّى عنقها. ثمّ اعتادت الأمر مع الوقت. كانت تغسلُ جسد أنانتا بعناية، لكنّ ماء المضخّة المالح كان يترك قشرةً لزجةً على البشرةِ ويدبّقُ الشَّعر. وكان لا بدّ من انتظار لحظة الصعود على سطح السفينة أملاً في الاغتسال تحت المطر.

ثمّ يحين وقتُ الصّلاة: المسلمون، في القسم المخصّص للرّجال في وسط السفينة، يركعون باتّجاه مشرق الشمس، ويعلو صوت متعهّد العمّال مُرتّلاً، فتدنو أنانتا من الباب لتشاهد المصلّين دون أن تطرح أسئلة، فيما رجال ونساء آخرون على السّطح الخلفيّ يقدّمون أولى القرابين للشّمس، غارفين قليلاً من الماء براحاتهم.

وكان جدالٌ قد اندلع في مقدّمة السفينة بعد لحظاتٍ من الانطلاق. إذ أراد مهاجران هنديّان إشعال شمعةٍ أمام صورة يسوع النّاصريّ. كانا مسيحيّين من بونديشيري،

الأوّل يُدعى لازار والثاني جوزيف. همّ متعهّد العمّال بإطفاء الشمعة ومصادرة الصّورة، فتشاجر الرّجلان معه، فأمرَ القبطان بوضع الأغلال في أيدي الرّجلين، وأرسلهما إلى العنبر حيث يُحتجَزُ متمرّدو السيبوي.

كلّ صباحٍ، تبدأ النزهةُ في الهواء الطلق على سطح السفينة. فبعد الإفطار والصلاة يتناوب المهاجرون في مجموعاتٍ من عشرين على الصعود إلى السطح لاستنشاق الهواء النقيّ مدة نصف ساعة. كان الفريق الأول، الذي يتغير يومياً، يُكلّفُ بغسل سطح السفينة بماء البحر والصابون الأسود. أمّا الفِرَق التالية فتتولّى مهماتٍ أخرى، مثل تعقيم الحصائر والمراتب بمحلول كونديز السائل، أو غسل أدوات المطبخ، فيما ينهمك آخرون بإصلاح الأشرعة وجدْل الحبال أو ترميم خشب الدّرابزين.

وعلى الرغم من العمل، فقد كان جميع المهاجرين يتطلّعون إلى لحظة الخروج من جوّ الطّابق السفليّ الخانق، كي يتسنّى لهم استنشاق الهواء ورائحة المطر، أو تشرّب دفء الشمس. ولم يغِب عن هذا النشاطِ سوى رجلين من الشمال يرتديان ملابس بيضاء،

فقد بدأ منذ اليوم الأول يلعبان الشطرنج، وكان ذلك يشغلهما حتّى المساء.

كان فريق النساء العازبات الذي تنتمي إليه ماني وجيريبالا يصعد إلى السّطح في نهاية الصّبيحة بين العاشرة والحادية عشرة، ضمن الجولة الثامنة، فتكون جميع أعمال التّنظيف قد أُنجزت، والسطح المغسول يتلألأ مثل رخام مصقول، والملابس وآنيةُ المطبخ مصفوفةً في صناديق لتجفّ، والصّنبور النحاسيّ المتّصل بموزّع المياه العذبة يلمع كما لو كان من ذهب.

ولم تكن النساء يأخذن معهنّ سوى غسيلهنّ، فيغسلنه بمياه البحر المسحوبة بمضخّة، جاثياتٍ مباشرةً على سطح السفينة. كان لهنّ الحقّ في شطفه بماء الصّنبور العذب الفاتر، إلّا إذا كان وابل المطر كافياً لإذابة الملح، ثمّ يعلّقنه على سطح المركب وينتظرنه حتّى يجفّ، بإشراف متعهّد العمّال الذي يراقبهنّ من تحت مظلّته السّوداء الكبيرة. وفي أغلب الأحيان، يكون عليهنّ تعليقه في الطّابق السّفليّ، على حبلٍ مثبّت قرب المرجل.

كانت جيريبالا تحبّ هذه اللّحظات كثيراً، حيث تجلس مع أنانتا قرب الغسيل، وساقاها مثنيّتان كما لو كانت لا تزال في بيت خالتها في كاونبور. وكان الضّوء الحادُّ يبهر بصرهما ما إنْ تخرجا من الطابق السفليّ، فتمتلئ عيونهما بالدمع وتتعثّر خطواتهما، فتحمي جيريبالا وجه أنانتا بطرف ثوبها، شاقّةً طريقها إلى مكانها على ظهر المركب، في ظلّ الشراع.

وشيئاً فشيئاً تألفان الضوء، فتجولان ببصرهما، حيث لا شيء على مدّ النّظر سوى المحيط بزرقته الدّاكنة، مائجاً متلألئاً. كان المركب كأنّه متوقّفٌ لا يتقدّم، يعلو ويهبط فقط في تجاويف الموج، وشراعه الأحمر الهائل ينتفخ مع الرّيح الشرقيّة. وكانت مدخنته في البرج الخلفيّ تنفثُ موجاتٍ من الدّخان الأسود تنحرف مدوّمةً باتجاه المقدّمة، وكلّما هبّت عاصفةٌ أعادت سحابةَ الدّخان إلى المؤخرة، فتغطّي جيريبالا رأسها ورأس أنانتا بشالها. كان الدّخان يترك نقاطاً متوهّجة صغيرةً على سطح المركب تحرّق الجلد إذا ما وقعت عليه، وتترك بقعاً من السّناج على الملابس التي غُسلت حالاً.

في الأيّام الأولى، رفضت نساء «دوغليج لوكيه» البريّات الخروج من الطابق السّفليّ. كنّ يتشبّثن بأضلاع الهيكل ويصِخْن، كما لو كانوا سيُلقونهنّ في البحر. لكنّ ماني تحدّثت إليهنّ بهدوء شديد، مستعينةً بالإيماءات. وذاتَ صباحٍ، وافقن على صعود السّلّم والسّير على سطح المركب في الرّيح. لكنهنّ ذهبن للجلوس مقابل البرجِ الخلفيّ أبعدَ ما يكون عن الحافة، وتسمّرن في مكانهنّ متراصّات، دائخات البصر من فرطِ الذّهول.

كانت الأيام طويلةً في جوف السفينة. أرادت جيريبالا أنْ يدوم مشهد البحر الممتدّ بلا نهاية، بزرقته التي تحرّق العينين، ورياحه التي تضع الملح على الشفاه، وتوقُّدِ شمسه، والشراع الأحمر الكبير الذي يرفرف منتفخاً. كانت أنانتا تتشمّم الغسيل الذي جفّ على سطح السفينة مفتّشةً عن رائحة المحيط فيه، ثمّ تستلقي على شال أمّها، وتريح خدّها على القماش البالي، وتنسلُّ إلى حلمها يهدهدها ترنّح السفينة، فتظنّ جيريبالا أنّها نائمة، فتأخذ تُهوّي عليها بمروحةٍ من القشّ كانت قد ضفّرتها خلال أيام الانتظار في مخيّم بهوانيبور. وكانت تغنّي لها

بهـدوءٍ ترانيـم الأطفـال، وكأنّ أنانتـا مازالت تلك الطفلـةَ الرضيعـةَ التـي انتزعتها عن صـدر مربّيتها النـازف.

لكـنّ أنانتـا كانت تحلـم حلـماً غريباً جـدّاً حتّى أنّهـا لم تسـتطع أنْ ترويَـه لأحـد، وبعيداً جـدّاً حتّى ليخيّـل إليهـا أنّه قـد ابتدأ قبـل ولادتها.

كانـت تحلـم بمركـبٍ آخـرَ، لا بهيـكل إشـكندر شـاو القديـم هـذا، ذي المؤخّـرة المرفوعـة كأنّـه كَرافيـل[1]، والشراعِ الأحمـر الـذي رُقِّـع ألـف مـرّة، والمحـرّك الـذي يسـخن حتّـى الغليـان فيتعطّـل كلّ مسـاء، بـل بمركـبٍ عمـلاقٍ بحجـم مدينـة، غـارقٍ كلّـه في الضـوء، بصاريـاتٍ ثـلاثٍ تحمـلُ أشرعـةً عاليـة مثـل جبـال، وهـي عـلى متنـه، تعـبرُ المحيـط بهـدوءٍ مسـتلقيةً عـلى سريـر أبيـض كبير، يظلّلهـا قـماشٌ رقيـقٌ شـفيفٌ مثـل غيمـة، فتنسـاب بـلا نهايـةٍ، وبـلا عنـاءٍ، كمـن يبحـر في حلـمٍ طويـلٍ، في الاتّجـاه المعاكـس.

وكانـت تسـمعُ في حلمهـا أحيانـاً موسـيقى فائقـةَ العذوبـة لم تسـمعها مـن قبـلُ في أيّ مـكان، ولم تكـن تعـرف مـا هـي. وفي تلـك اللّحظـات

---

(1) سفينة شراعيّة سريعة من القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

لا تعــود في المركــب، بــل في حديقــة شاســعةٍ يانعــة الخـضرة، حيــث تتدفّــق شــلاّلات الميــاه، وترفــرف آلاف الطيــور والفراشــات، وتتــلألأ آلاف الأزهــار العطـرة في ضــوء الشــمس.

أثنـاء إقامتهـا في مخيـم بهوانيبـور عنـد مصبّ النهــر، اســتيقظت أنانتــا ذات ليلــةٍ، وأرادت أن تخــبر أمّهــا بــا ســمعته في حلمهــا. اســتمعت جيريبــالا إلى حديثهــا، ثــمّ عانقتهــا قائلــةً: «مــا تســمعينه إنّـا هــو موســيقى الملائكــة». فطمــأَن هــذا التفســير أنانتــا، وعــادت إلى النّــوم بســلام.

هكــذا كان صــوت الموســيقى يعلــو ويقــترب أكثـر فأكثـر كلّـما تقـدّم إشـكندر شـاو وانسـاب مترنّحــاً في المحيــط، كــما لــو كانــت كلّ موجــة تجتازهــا مقدّمتــه عــلى طريــق ميريــش ديــش، تدنيهــا خطــوةً مــن حديقــة حلمهــا، ومــن الملائكــة.

4 يوليو

مرّ يومان لم تأتِ فيهما سوريا. أوّل أمس، كانت قد عبرت البحيرة باكراً، مستقلّةً القارب مع النساء اللاّتي يجلبن الأرزّ والدّهن. وقد أحضرت في حقيبتها الكاذيّة بعضَ الفاكهة وأوراق البيفيلاكوا لسوزان. مكثتْ في الكوخ مدّةً، وعلى وجهها تعبيرُ قَلَقٍ غريب. وكانت تتحدّث إلى سوزان بصوت خفيضٍ أثناء تحضير الكمادات. ولمّا غادرت، رافقتُها إلى الشاطئ، وفي لحظةٍ ما، عبر زوجٌ من طيور رئيس البحر فوق البحيرة، وراياته الطويلة ترفرف في الريح. قالت: «إنّهما مثل البشر. ليس لديْهما سوى صغيرٍ واحد». ثمّ سألتني عن سوزان، أرادت أن تعرف أين التقيا هي وجاك. وأتت على ذكر إنجلترا. ولم أفهم لِمَ ترغب في معرفةِ ذلك كلّه.

بعد عودةِ سوريا إلى القارب مع النساء الأخريات، أدركتُ أنّ أنانتا قد ماتت. فقد مكثَت سوريا طيلة اليوم على التّلعة بالقرب من جدار عمود الإشارة الإسمنتي. أردتُ أن أراها، أنْ أناديَها. ظلّ المدّ منخفضاً حتّى منتصف العصرِ تقريباً. وكان الشاطئ الرّمليّ يرسم منحناه الضخم الممتدّ إلى مضيق القناة المائيّة، حيث أناسٌ يسيرون على الضّفة الأخرى، باحثين عن المحار، وأطفال يصطادون الأخطبوط في البرك السّوداء. وهذه هي المرّة الأولى التي يغامرون فيها بالقدوم إلى هذا المكان. فلا بدّ أنّ شيئاً ما قد تغيّر.

لم يظهر فيران. خرج بارتولي وحده من المستوصف، وأخذ يتطلّع ناحيتنا واضعاً يده على جبهته، ثمّ عادَ إلى المبنى. تُرى كيف يُمضي

وقتـه؟ أتصـوّر أنّـه يلعـب مباريـاتٍ شـطرنج متخيّلـةً، موليـاً ظهـره إلى الحائـط، أو لعلّـه يحلـمُ يقظـاً مثـل مـاري، ويدخّـن الحشـيش.

انتظـرتُ سـوريا. ثـمّ لم أعـد أنتظرهـا. فقـد تيقّنـتُ الآن: رحلـت أنانتـا، «عـادت إلى نهـر يامونـا»، كـما تقـول سـوريا.

بحثـتُ عـن بعـض أوراق النبـات بـين الصخـور قريبـاً مـن القمّـة. فـدروس جـون ميتكالـف لم تذهـب هبـاءً. وجـدتُ عـلى المنحـدر الغـربيّ أوراق الشـوْزم ذات الأطـراف المسنّنة الكبـيرة، والمفيـدة كمرهـم للجلـد. بـل إنّنـي عثـرتُ في ركـنٍ محمـيٍّ عـلى بعـض القطيفـة الرّيفيـة التـي تسـميها سـوريا «بقلـة مالبـار»، وعـلى نبتـة الأملـج أيضـاً. وإلى الأبعـد قليـلاً، أسـفل المنحـدر الـذي يحـوي أوكار طيـور رئيـس البحـر، عثـرتُ عـلى حشيشـة اللّيمـون، التـي أسـتطيع أنْ أصنـع منهـا الشـاي لسـوزان.

وقـد تسـنّى لي بفضـل سـوريا أنْ أميّـز آثـار النـاس الذين عاشـوا شـهوراً هنـا، العـمّال مـن ركّاب السّـفينة ليداريـه الذيـن تُرِكـوا لمصيرهـم عـلى جزيرة غابريـال قبلنـا. وجـدتُ في كلّ مـكانٍ قِطعـاً مـن الحديـد الصـدِئ والفخّـار، وحتّـى مـن العمـلات القديمـة، الهنديّـة والصينيّة.

وفي تجويـفٍ بـين الصّخـور، وجـدت علامـاتٍ غريبـةً محفـورة بحجـارة الحمـم، دوائـرَ ومثلّثات، وبعض أشـكالٍ أشـبه بالزخـارف الورديّـة. مَن ترك هـذه العلامـات؟ تخيّلـت امـرأةً، بوجـهٍ لوّحتـه الشّـمس، تخـطّ هذه الرّسـوم عـلى مهـلٍ يومـاً بعد يوم مثـل صلاة، وهـي تتأمّل خـطّ موريشـيوس الأخضر الـذي يطفـو في البعيـد مثـل سراب. أو رجـلاً مُلَثّـماً بقطعةِ قـماشٍ، يجلس على الصخـرة سـاكناً أمـام البحر، مثـلَ حـارسٍ أبديّ.

هـمُ مَـن زرعـوا القطيفـة وحشيشـة اللّيمـون ولسـان الحمَـل التـي يُعثـر عليهـا في الأسـفل، قـربَ الصّهاريـج. ويبـدو لي أحيانـاً أنّنـي أسـمع وقـع خطاهـم وصـدى أصواتهـم وأسـمائهم تـتردّد حـول قمـم الصخـور مختلطـةً بصرخـات طيـور رئيـس البحـر، مثلـما هـو الحـال في باليسـاد مسـاءً، حـين يتنـادى الأولاد صائحـين: **شـوتا، أوكْلهـا، سـابرا آم! أوي!**

كانـت الطيـور السّـاحرة تحـوّم في الريـح حـول عمـود الإشـارة. وحـين أقـترب كثـيراً مـن أوكارهـا تصفـع شـعري مطلقـةً صرخاتهـا المكتومـة. ربّـما كان الجنـون هـو مـا يتربّـصُ بي هنـا، في هـذه الجزيـرة الصغـيرة، حيـث أنـا أسـيرُ شـظايا البازلـت والزّبـد، واهتـزاز المـوجِ الدّائـم في أعـماقِ جسـدي!

مـا مـن أحـدٍ غـيرَ سـورياڤاتي. هـي وحدهـا مـن تربطنـا بعـالم الأحيـاء. بنظرتهـا، والنـور في عينَيهـا، ودفء يدَيهـا. في البـدء، كانـت سـوزان تقـول لي، بتلـك السـخرية التـي تتنـاول بهـا دومـاً كلّ مـا يخصّنـي: «راقصتـك الهنديّـة». وهـا هـي الآن تنتظرهـا كلّ يـوم، ونظرتُهـا مصوبّـةٌ دومـاً نحـو البـاب، نظـرةٌ محمومـةٌ يشـتدّ بريقهـا كلّـما تجـاوز أحدهـم العتبـة.

في المسـاء، أخـذ قلبـي يخفـق بقـوّة، شـاعِراً بذلـك الارتعـاش العميـق في داخـلي يمتـزجُ بصـوت البحـر عـلى الشّـعاب المرجانيّـة، وبسقسـقة الطيـور المتواصلـة. وشـعرتُ بالحمّـى تعـود إليّ، وبقشـعريرةٍ تـأتي مـن بعيـدٍ جـدّاً، وتتصاعـد رويـداً. نظـرتُ إلى وجهـي في زاويـة المـرآة التـي وضعهـا جـاك قـرب البـاب لتشـذيب لحيتـه. مـرّ وقـت طويـل دون أنْ أرى نفسـي في المرآة، ربّـما لأنّنـي لم أعـد أبـالي، أو لكثـرة الانشـغالات اليوميـة. وقـد أدهشـني مـا طـرأ علـيّ مـن تغيـير؛ اسـودّت بشرتي مـن حـرّ الشّـمس، وصـار شـعري

لُبـدةً داكنـة. وبـدا لي أنّـي أنـا أيضـاً اكتسـبتُ هيئـة مجنـون. قالـت لي سـوريافاتي أنّـي أبـدو مثـل أنغـولي مـالا، قاطـعِ الطريـق الـذي كان يبـتر أصابـع النـاس في الغابـة، إلى أنْ أبـرأه بـوذا مـن جنونـه. لكنّـي لم ألحظ علـيّ أيّ بقعـةٍ أو علامـة عـلى المـرض.

غـادرتُ البيـت فتبعتنـي سـوزان بنظراتها، وعـلى وجهها تعبـير القلق ذاته الـذي لمحتـه حـين تسـلّلتُ في اللّيل ذاهبـاً إلى باليسـاد. لكنْ، هنا، أين عسـاي أهرب؟

عـدتُ إليهـا. قالـت شـيئاً بصـوتٍ خفيـض حتّـى لا تزعـج جـاك الـذي كان ينـام متكـوّراً في آخـر الكـوخ. ظننـتُ أنّهـا بحاجـةٍ إلى شيءٍ مـا، القليـل مـن المـاء مثـلاً، أو أنْ أسـاعدها في الذهـاب إلى المرحـاض. لكنّهـا قالـت فقـط هـذه الكلمـة: «أنقِذنـا». ثـمّ اسـتدارت نحـو الجـدار.

نزلـتُ إلى البحـر جـذِلاً. كانـت ميـاه البحـيرة سـوداءَ سـاكنةً، تحـت سـماءٍ لا تـزال صافيـةً. مشـيت عـلى طـول المنحنـى الرّمـلي، ثـمّ قفـزتُ إلى التيّـار وكـدت أنجـرف معـه. ولّمـا غصـتُ سـمعت تلاطـم الأمـواج قريبـاً في أذني. سـبحتُ عـلى مهـلٍ، آخـذاً نفسـاً عميقـاً كـي أنسـلّ بـين ممرّيـن مائيّـين، عينـاي مفتوحتـان في العتمـة، ولا هـاديَ لي غـير هديـر البحـر.

كانـت رحلـةُ العبـور طويلـةً. وفي لحظـةٍ مـا، عرفـتُ أنّـي أمـام قاعـدة جزيـرة بـلات، وصخـور بركانهـا المقـدّدة. كلّ مـا فيهـا سـاكنٌ معتـم، كأنّهـا حيـوان ضخـم يرقُـد عـلى البحـر.

بلغـتُ اليابسـة قـرب الرّصيـف المتداعـي، أرضِ السـمك الصخـريّ المرجـانيّ ذي الأشـواك السّـامّة، حيـث عالجتنـي سـوريا أوّل مـرّةٍ عندمـا جرحَـت قدمـي كِسـرةُ المرجـان.

كانـت الرّيـاحُ بـاردةً حـين خرجـتُ مـن المـاء، وقـد انتـشرت في الجـوّ رائحـةُ مطـر، مصحوبـةً بـها مـا يشـبه سـحابةَ ضبـابٍ تعـبرُ أمـام القمـر. ركضـتُ عـبر الأجمـات، عـلى طـول دربيَ المعتـاد، حتّـى وصلـتُ طـرف الجزيـرة. مازلـتُ قـادراً عـلى تخمـين مسـاري، فقـد عثـرتْ قدمـاي عـلى آثارهـا، وتبيّنَـت العوائـق التـي تعترضهـا. لم أنـس شـيئاً. مـررتُ ببيـوت الكرنتينـة المهجـورة؛ حيـث لا يـأتي فـيران وبارتـولي إلّا نهـاراً مـن أجـل النّـوم، بينـما يقضيـان لياليهـما أعـلى الـبركان يراقبـان وصـول أعـداء وهميّين، محتمـين بالجـدران الحجريّـة التـي شُـيّدت بـلا مـلاط. حتّـى الصهريـج بـدا منسـياً، وقـد زحفَـت إليـه نباتـات الحشـف. تقدّمـتُ مبتعـداً عـن رائحـة المـاء الفاسـد ودوّامـات البعـوض. هكـذا فقـد أصبحـت الحـدود التـي اخترعهـا المسـتبدّ حقيقيّـةً، كـما لـو أن كلّ شيء عـلى هـذا الطـرف مـن الجزيـرة قـد تسـمّم.

هربـتُ مـن تلـك الأطـلال. كان هنـاك مـا يشـبه نفحـةً بـاردة جعلتنـي أرتعـش. أخطـأتُ الـدّرب مرّتـين في اللّيـل مصطدمـاً بممـرّاتٍ شـائكة، ثـمّ وجـدتُ نفسـي فجـأةً عـلى الطّـرف الآخـر، فـوق المُنحـدر الـذي تبـدأ عنـده مـزارع جـوز الهنـد. كنـت أمـام قريـة المنبوذيـن، ورأيـت خليـج باليسـاد.

كانـت الأضـواء تشـعّ في كلّ مـكان، في البيـوت وأمـام الأبـواب. وكانـت المحـارق عـلى طـول الشـاطئ تتوهـج باللّـون الأحمر. استنشـقتُ رائحـة طعامٍ خفيفـةً، مختلطـةً بدخـان المحـارق، أخـذتُ أتشـمّمها مـن أعـلى الجـرف مثـل كلـب. كـم من أسـابيع وأشـهر مضـت من دونهـا! لقـد صرتُ أنتمـي إلى عالمٍ مـن الحجـارة والريـاح، عـالمٍ بـلا عِطـرٍ، ولا حركـةَ فيـه سـوى تحليـق الطيور ذات النّظـرة القاسـية، ولسـعات البحر والشّـمس.

خشيتُ النـزول، فسـلكت منعطفـاً كـي لا أنبّـه الـكلاب، ولكـي أمـشي مـع الريـح. رأيـت كـوخ مُريامـه في قريـة المنبوذيـن. كان خاويـاً، لكـنّ مصباحـاً صغـيراً كان يومـض عنـد بابـه.

وكان بيـتُ أنانتـا خاويـاً هـو الآخـر، ينـوس المصبـاح عنـد مدخلـه وقـد أوشـك زيتـه عـلى النفـاد. وفي الموضـع الـذي كانـت تسـتلقي فيـه أنانتـا، كانـت الأرضيّـة نظيفـة ومكنوسـة. لم يعـد هنالـك ناموسـيّة ولا مـلاءات. واختفـى صندوقهـا المصنـوع مـن خشـب الصنـدل وتصاويرهـا الدينّيّـة ومبخرتهـا. ركضـتُ بقلـبٍ خافـقٍ عـلى طـول الشـاطئ حتّـى بلغـتُ المنصّـة وسـط البحـر، لم أرَ سـوريا مـن فـوري، لكنّـي لمحـتُ أطيافـاً عـلى ضـوء المحـارق، نسـاءً منهمـكاتٍ بإشـعال النـيران، ورجـالاً يقلّبـون الجمـر بغصـونٍ طويلـة. وعـلى المنصّـة، كان هنـاك جسـدٌ مُسـجّى، ملفـوفٌ في رداء.

ثـمّ لمحـتُ سـوريا. كانـت جالسـة عـلى حافـة المنصّـة والدخـان يحجبهـا بالكامـل كـما لـو كانـت هـي أيضـاً تحـترق. وكانـت أنانتـا ممـدّدة أمامهـا، جثّـةً صغـيرةً كأنّهـا لطفلـة، وقـد بـدأت تتفحّـم في اللّهـب. وعنـد قدميهـا وُضِـع صنـدوق خشـب الصنـدل الـذي يحـوي كلّ مـا امتلكـت، حياتهـا كلّهـا، ومجوهراتهـا وأمشـاطها وأدوات زينتهـا. لكـنّ سـوريا احتفظـت بصنـدوق الصفيـح الـذي يحمـل علامـة شركـة بـيرد، ويحـوي بطاقـة الهجـرة الخاصّـة بجدّتهـا، والقـلادة النحاسـية ذات الرّقـم 109، التـي كانـت أنانتـا تضعهـا حـول عنقهـا حـين صعـدت إلى القـارب في بهوانيبـور.

وصلـتُ في اللّحظـة الأخـيرة. لم أقـترب مـن سـوريا، بـل بقيـتُ عـلى الطّـرف الآخـر مـن المحرقـة أسـفلَ المنصـة، حيـث قضينـا ليلتنـا الأولى أمـام البحـر.

كان رجلٌ يقف إلى جانب سوريا، وبين الحين والحين يصبّ الزيت على النار فتشبّ وتطقطق. عرفتُ فيه المسنّ راماساومي، الذي حسبته خطأً مساعد الشّيخ حسين، فيما هو في الواقع زعيم باليساد الحقيقيّ. لم يكن يتكلّم، كان يصبّ الزيت فقط، والدخان يحوّم حول طيفه النّحيل.

كان كلّ شيء صامتاً، سوى من زفيرِ ألسنة اللّهب في مهبّ الرّيح وطقطقة الشرر.

وعلى مبعدةٍ يسيرةٍ، في الشارع الكبير، كان هناك أناسٌ يروحون ويجيئون، وأطفال لا ينامون، وكلابٌ تتسافد ثمّ تتناهش مطلقةً نباحاً حادّاً. وكانت خفافيش الكهف، وقد جذبتها الأضواء، تحوم مترنّحةً في تلافيف الدخان. وانتشرت رائحة بخور خفيفة منفّرة، ورائحة عرق أيضاً. كنت أرتجف. فقد كانت الحمّى تتصاعد شيئاً فشيئاً، وتصيبني برعشة البرد. جلستُ بالقرب من ألسنة اللّهب مستدفئاً. كان صبيٌّ يجلسُ على إحدى الدّرجات ساكناً كتمثال. تبيّنَ لي أنّه شوتو، عازفُ النّاي الذي كانت أنانتا تحبّه. كانت سوريافاتي تشاهد النيران، ساكنةً مثله، وإنْ كانت بين الحين والحين تفرك عينَيها اللّتين هيّجهما الدخان.

استلقيتُ على الأرض في دفءِ المحرقة. توقّفَت الضوضاء تدريجياً، فغُصتُ في سباتٍ عميقٍ ثبّتني إلى الأرض. ولمّا فتحتُ عينَيّ عند الفجر، كان الجمر قد خمد. وغدا كلّ شيءٍ رماديّاً، كأنّ طبقةً رقيقةً من رمادٍ غلّفت الجوّ والبحر.

ذهبتُ لقضاء حاجتي مقرفصاً في الدّغل. ثمّ مشيت إلى الشاطئ لأغتسل. كان المدّ منخفضاً والماء فاتراً. وكانت الكلاب تتسكّع حول

الشاطئ بحثاً عن بقايا تنهشها. وقد نبحتْ في وجهي، فمشيت رافعاً ذراعي والحجر في يدي. كانت شوارع قرية المنبوذين خالية. بينما لاحت على الشاطئ أطيافُ رجالٍ ونساءٍ يقفون في الماء من أجل الصّلاة، وقد انطفأ مصباحُ الكاز في كوخ أنانتا.

سلكتُ درب الجديان نحو المنحدر. كان وهج النار يُشعّ خلف البيوت هنا وهناك، حتّى في ذلك الوقت المبكّر. هي لحظةٌ وتنطلقُ صافرة السّردار طالبةً من النّساء تحضير الماء للأرزّ والشاي، ثمّ تمضي فِرَقُ الرجال والنساء إلى المزارع، رافعينَ المعاول بثباتٍ على رؤوسهم، أو حاملين سِلال الكاذيّ لنقل الحجارة السّوداء إلى السّدّ.

وحين صرتُ أسفل الكهف، رأيت نجمة الصّبح تتوهّج. كانت سورياڤاتي قد وصلت. تخيّلتُ أنّها تنامُ ملتفّةً في ملاءةٍ، ورأسها مرفوعٌ نحو السماء الرّمادية، مُنهكةً من التّعب والحزن.

انتظرتُ لحظة، لم أجرؤ على الاقتراب. أردتُها أن تشعر بوجودي، وأن تناديَني مثلما نادتني في سرّها، في اللّيلة التي قضيناها معاً.

لم تكن نائمةً. كانت تنتظرني. بدت ملامحها في ضوء الفجر شائخةً. وقد تناثرت بقعٌ من رمادٍ على وجهها، وعلى يدَيها وثوبها. ولمّا بلغتُ الكهف، أطفأتْ ذبالة المصباح بين أصابعها، وقادتني إلى أسفل المنحدر نحو المقبرة المتداعية. كانت فوّهة البركان تنتصب فوقنا جداراً أسود منذراً بالخطرِ، غارقاً بعدُ في الضباب. هُيّئَ إليّ أنّني سأسمع في أيّ لحظةٍ صوت فيران وهو يتوعّد ويُنذر صائحاً: «من هناك؟» وكأنّه مازال في الحرس الوطنيّ، أيّامَ المتاريس.

تقدّمنـا مدفوعَـين بزخّـاتِ المطـر. وعبرنـا غابـةَ الكزورينـة الصّغـيرة وسـط عزيـف الريـح. استلقينا في حُلكـةِ اللّيـل تحـت الأشـجار مفترشَـين أوراقهـا المتسـاقطة. ودنـت سـوريافاتي منّـي وعانقتنـي. كنـت أشـعر بـبردٍ شـديدٍ حتّـى أنّنـي مـا برحـتُ أرتجـف. وضعـتُ شـفتي عـلى جفنَيهـا، وذُقْـت دموعهـا. لم أعـد أتذكّـر مـا قلتـه لهـا، لكنّهـا أسـكتَتني. «انتهـت القصّـة، ولـن أعـود كـما كنـت أبـداً». ثـمّ هـدأَت ونامـت قليـلاً، فبقيـتُ مسـتيقظاً أحـرسُ نومهـا. ولـمّـا بانـت الشـمسُ خلـفَ الغيـوم، حملَـت حقيبتهـا الكاذيّـة حيـث تضـع ملاءاتهـا وحاجياتهـا وعلبـة الصفيـح التـي احتفظـت بهـا مـن أنانتـا. كان مـاري المسـنّ يقـف عـلى الرّصيـف. بـدا أنّـه لم يكـن ينتظـر أحـداً سـوانا. فعـبرَ بنـا إلى الطّـرف الآخـر، إلى جزيـرة غابريـال.

كنـت مـع سـوزان في الكـوخ عندمـا ظهـر فـيران الفاسـد. ربّـما عِلـمَ بمجـيء سـوريا معـي إلى غابريـال، وكان يبحـث عنهـا ليمنعهـا مـن تكـرار ذلـك. قـال إنّـه جـاء للاطمئنـان، وإنّـه يأمـل أنّ المـرضى يتماثلـون للشّـفاء. لكنّـه كان يحمـل مسدّسـاً في حزامـه، مثـلَ جنـديٍّ مشـؤومٍ مـن جنـود الجيـش الشـعبيّ. ومـن فـرطِ اليقظـةِ ليـلاً والنـوّم نهـاراً، صـار وجهـه بلـون الـترّاب. كانـت نظراتـه حاقـدةً مسـتجوِبة، وحـينَ دخـل الكـوخ، أراد جـاك طـرده، لكـنّ فـيران دفعـه إلى الجـدار. عندهـا اسـتوت سـوزان جالسـةً في فراشـها، وكان وجههـا يتّقـد غضبـاً، ونظرتُهـا تلتمـع ببريـقٍ داكـنٍ:

- هـل تريـد أن تعـرف كيـف حـالي؟ عـمّ تبحـث؟ ألا يكفيـك هـذا؟ هـل تعتقـد أنّ موتنـا تأخّـر أكثـر من الـلاّزم؟

حاولـتُ تهدئتَهـا، فيـما بقـي جـاك لِصـقَ الجـدار، عاجـزاً عـن الإتيـان بحركـة.

اسـتبدّت بسـوزان في تلـك اللّحظـة نوبـةُ غضـب ضاعفـتْ قوّتهـا. فاسـتجمعت همّتهـا ناهضـةً بمفردهـا، ومشـت بضـعَ خطـواتٍ في الغرفـة وهـي تختنـق. وفجـأةً شـقّت قميصهـا بيدَيهـا مـن فتحـة العنـق حتّـى الخـصر. وفي غبـش العتمـة، شـعّ نصفهـا العلـويّ عـلى نحـوٍ غريـب، وكان جلدهـا الأبيـضُ ممتلئـاً ببقـع الجـروح السـوداء في المواضـع التـي تيبّس فيهـا الـدّم.

- تريـد أن تعـرف؟ حسـناً، هـا قـد عرفـتَ الآن! ورأيـت! فلترحـل! انـصرف! ولتبعـث رسـائلك إلى موريشـيوس، إلى الحكومـة وكبير العائلـة! أخـبره أنّـه لم يعـد أمامنـا وقـتٌ طويـل!

تراجـع فـيران. كان وجهـه يتـلألأ بالعـرق، وعينـاه الضيّقتـان طافحتَـين بالخـوف والكراهيـة. ثـمّ خـرج مـن الكـوخ متقهقـراً وهـو يتمتـم «لقـد جُنّـت المـرأة».

وحـين رأيتـه يهـرب عـبر الأجمـة متّجهـاً إلى الرصيـف، فعلـتُ مـا فعـلَ بوتـالا. رميتُـه بالحجـارة صائحـاً: شـودا حافـظ[1]! كـما لـو كنـت مجنونـاً، أنـا أيضـاً.

رأيتـه يصعـد إلى قـارب مـاري ويمـضي بعيـداً عـبرَ البحـيرة، منعطفـاً قليـلاً، إلى أنْ اختفـى في الغابـة، عنـد سـفح الـبركان.

أخـذتْ سـوريا يـدي. كانـت راحتُهـا ناعمـةً دافئـة. وجلسـنا معـاً أمـام كـوخ جـاك وسـوزان، تحـت ظُلـة الكتّـان.

(1) Shuuda hafiz!: عبارة باللّغة الأرديّة تعني «في حفظ الإله».

وجاء بوتالا ليصحبنا. وقف ببساطةٍ أمام الخيمة، دون أنْ يقول شيئاً، وقد علا وجهه تعبيرٌ جامد. حاول جاك عبثاً حثّه على الدّخول، وتقديم بعض الأرزّ له. لكنّه لم يقترب. وحين سرنا نحوه ولّى هارباً. بدا طيفه أمام الشمس نحيلاً مترنّحاً، ظلّاً مستطيلاً. تبعتْه سورياڤاتي إلى المخيّم الثاني، وسرنا أنا وجاك خلفها. وقُبيل وصولنا، رأيْت سارة ميتكالف. كانت نصفَ مختبئة خلف الدّغل تراقبنا أثناء مرورنا. أردتُ التحدّث إليها، لكنّها عادت لتختفيَ في الدّغل مطلقةً صيحاتٍ عاليةً غريبة، مثل حيوان مذعور. كان بوتالا قد وصل المخيّم، وجثا عند الباب محدّقاً في الداخل.

ثمّة مصباحٌ صغير مضاء في عمق الكوخ، حيث تجلسُ مُريامه ثانيةً ركبتَيها، تتأرجح قليلاً يمنةً ويسرة. كانت تهمس همساً غريباً أشبه بطنين حشرة، دون أنْ تفتح فمها. ولمّا دخلت سوريا التفتَت العجوز نحوها، فرأيت العلامات التي رسمتْها على وجهها بالرّماد. كان في نظرتها تعبيرٌ متثاقلٌ فاتر. وتراجعَت قليلاً كما لو كانت خائفة. مشت سوريا إلى الجدار، ولمحْتُ جثّة رسامه مسجّاةً على الأرض، ملفوفةً في ملاءةٍ قديمةٍ قذرة. كان وجهها شديدَ النّعومة، نضِراً مثل وجه طفلة. ولم تظهر عليها علامات المرض إلّا في زاويتيّ الفم وأسفل العنق.

كانت الرائحة لا تطاق، على الرغم من عطر البخور في المواقد. قادنا جاك أنا وسوريا من ذراعَينا إلى الخارج. لم أستطع رفع بصري عن وجه رسامه: جبهتُها العالية الملساء، وخطُّ أنفها الجميل، والظلّ على جفنَيها، وفمها نصف المفتوح حيث تلمع أسنانها، وهيئة جسدها الشّابة تحت الملاءة العتيقة المبقّعة، وذراعاها الممدودتان. وبدا لي أنّني

سـمعتُ الكلـمات التـي قالتهـا لي سـوريا، الكلـماتِ التـي كلّـما سـمعتها ارتجفـت، كأنّهـا عبـارة في مسرحيّـة تراجيديّـة: «لمـاذا وهبنـي الإلـه هـذا الوجـه وهـذا الجسـد ليجعلنـي أعيـش في مسـتنقع؟».

جمعـتُ أنـا وسـوريا، بمسـاعدة بوتـالا، مـا أمكننـا العثـور عليـه مـن الأعـواد الجافّـة، والأخشـاب الطافيـة عـلى الشـاطئ، وقطـع الصناديـق المتبقيّـة مـن سـفينة غارقـة، متآكلـةٍ بفعـل الملـح. كانـت سـوريا ملتفّـةً بالشّـال الأحمـر الكبـير الـذي ارتدتـه ليلـةَ شـاركت في خدمـة المحـارق. كـم تغـيّرت منـذ وفـاة أنانتـا! اكتسـت ملامحهـا شـيئاً مـن القسـوةِ، وصـارت تبـدو شـاردةً، أو حالمـةً ربّـما، لم أعـد أعـرف.

لم يسـعفنا الوقـت لبنـاء مذبـحٍ قبـل حلـول الظّـلام. قـال جـاك بصـوتٍ بـارد:

- ينبغي أنْ نعجّل، علينا أنْ نحرق كلّ شيء في مكانه.

سـاعدَني في إزالـة الشّـادر المشـمّع، الـشيءِ الوحيـد ذي القيمـة، وطوينْـاه عـلى الأرض. وبـزوال السّـقف، لم يعـد يحيـطُ برسـامه غـير الجـدران الحجريّـة السـوداء، وقـد بـدت صغـيرة هشّـة في ذلـك الإطـار العبثـيّ، كأنـما حُبِسـت مسـبقاً في تابـوتٍ حجـريّ.

بـدأ الرّمـاد يغطّـي وجههـا، وأخذنـا نلقـي فوقهـا الأغصـان الجافّـة. كانـت الريـاح الدافئـة تلـفّ الجزيـرة جالبـةً إلينـا هديـر البحـر. صبّـت سـوريافاتي الزيـت عـلى جسـد رسـامه. كنّـا في آخـر لحظـات الغـروب، حيـث السـماء شـاحبةٌ، والبحـر أزرق ميّـالٌ إلى الأرجـوانيّ. ثـمّ أعطـت سـوريا الشّـعلة لبوتـالا، وأرتـه أيـن يضعهـا. لم يحـدث شيءٌ لبضـع دقائـق، لأنّ ملـح البحـر العالـق بالخشـب حـال دون احتراقـه. سـمعتُ ضربـات

مروحـةٍ قويّـة، وهـي قطعـةٌ مربّعـة بسـيطة مـن القـشّ المجـدول أخـذت مُريامـه تلـوّح بهـا، فنتـج عنهـا صـوتٌ مألـوفٌ شـبيهٌ بذلـك الـذي كان يُسـمَع كلّـما أوْقـدتْ نـاراً تحـت قـدر الأرزّ. ثـمّ اندلـع لهـبٌ شـديدُ الحمـرةِ وسـطَ دوّامـةِ الدّخـان. تابـع جـاك المشـهدَ لحظـةً أخـرى ثـمّ عـاد إلى سـوزان في المخيّـم الآخـر.

لم أسـتطع رفـع عينـيّ عـن اللّهـب. أطبقـت عتمـةُ اللّيـل وخفّـت حـدّة الرّيـح. وأخـذت الخفافيـش تحـوم حـول النـيران وتطـارد الحشرات. كانـت سـوريا منهمكـةً في إذكاء النّـار، فترمـي العيـدان وتقلّـب الجمـر. وكانـت مُريامـه قـد أحرقـت أغـراض رسـامه جميعهـا، حتّـى المجوهـرات ومسـاحيق التجميـل. كأنّهـا قـرّرت ألّا يبقـى منهـا شيءٌ عـلى الأرض. ظـلّ بوتـالا سـاكناً متسـمّراً عـلى الطـرف الآخـر مـن الكـوخ. وفي لحظـةٍ مـا، رأيتـه وقـد اسـتلقى عـلى الأرض في مكانـه، ثـمّ استسـلم للنـوم.

وأنا أيضاً غرِقتُ في النّوم مراقباً الشّرر المتطاير.

لمسَـت سـوريافاتي كتفـي لتوقظنـي. لم أفهـم مـا كانـت تقولـه لي. ردّدتْ: «سـوزان تريـد رؤيتـك». عُـدت مترنّحـاً إلى الكـوخ. كان جـاك ينتظـرني أمـام المدخـل، وقـد منـح ضـوء المصبـاحِ وجهَـه تعبـيراً غريبـاً، وكان داخـل الكـوخِ مغمـوراً بالنـور الخافـت نفسِـه الـذي رأيتـه في غرفـةِ رسـامه. كانـتْ سـوزانَ ممـدّدةً عـلى فراشـها، وبـدتْ منهكـةً للغايـة. قـال جـاك:

- إنّهـا تهـذي. تقـول اسـمك باسـتمرار، وتقـرأ القصائد التـي علّمتها إياهـا، قصائـد رامبـو وبودلـير. إنّها تريـدك، تطلـب رؤيتك.

وحينَ تردّدتُ في الاقتراب، أضاف جاك ببرود:

- ربّما لن تموت، وستقاوم.

أتذكّـر أنّـه حـين كان متدربّـاً في مشـفى سـانت جوزيـف في لنـدن، أخـبرني عـن امـرأةٍ كانـت تـشرف عـلى المـوت مـن حمّـى النفـاس:

- لعلّها تنجو، بعكس ما يتوقّع الأطباء.

لا أتذكّـر إنْ كانـت قـد تعافـت، وكأنّ لهـذا التفصيـل صلـةً مـا بحيـاة سـوزان.

وضعـتُ يـدي عـلى جبينهـا الحـارّ. أدارت رأسـها ببطْء ومشـقّة. كان لها نظـرة رسـامه نفسـها، حيـث المعانـاة التـي تشـحذ الـذّكاء أضعافـاً. قالـت هـذا بصـوت خافـت حتّـى لا يسـمعها جـاك:

- هل سأموت، هل حانت اللّحظة؟

شـددْتُ عـلى يدهـا. أردتُ أن أمنحَهـا قـوّتي. وتذكّـرتُ جيّـداً حـين كنّـا نحـن الثّلاثـة في هاسـتينغز، نتقـدّم عـلى الشّـاطئ في مواجهـة الريـح. تلـك الرّيـحِ المنعشـةِ التـي حمَلـت إلينـا أريـج البحـر موقظـةً فينـا الرغبـةَ في السّـفر. فقـد كان في ذلـك اليـومِ أنْ قرّرنـا الرّحيـل إلى موريشـيوس. ولربّـما كانـت هـي تفكّـر في الأمـر ذاتـه.

كانـت تقـول كلـماتٍ غـيرَ واضحـة، كـما لـو أنّهـا ثمِلـة. اسـتلقى جـاك بجانبهـا ونـام مـن فـوره. واسـتمعتُ إلى خشخشـة أنفاسـه، وإلى عبـارات سـوزان المتداخلـة، وأصـواتِ اللّيـل، وصراخِ الطّيـور بـين الصخـور. ثـمّ عـلا المـدّ، وعصفـت الرّيـح.

اسـتفقتُ عند الفجر. كانت سـوزان تتنفّـس بهدوء. لقد اجتـازت الأزْمة. ولم يعـد وجههـا متورّماً، وقد ألصـق العرق خصلاتِ شـعرها بجبينها.

تلاشــت رائحــة الحريــق في الخــارج. وبعثــرَت الرّيــحُ الرّمــاد. رأيــت طيــف مُريامــه وبوتــالا، وعــلى مبعــدةٍ منهــما كانــت ســوريا تنــام في ظــلّ

صخـرة. كانــت الرّيــح بــاردةً كأنهـا خارجـةٌ مـن أعـماق المحيـط. لمســتُ وجـه سـوريا، فالتفتَـت وشـدّتني إليهـا في تجويـف الرّمـل الدّافـئ. شـعرتُ بشـفتَيها عـلى شـفتَيّ. وتوحّـدت أنفاسـنا.

في اليـوم السـابع مـن الرّحلة، كتبـت جيريبالا: **الأحـد.** ورسـمت الخـطّ الكبير تحـت الكلمة. وفي ذلـك اليوم، دخلت الإلهةُ الباردةُ شـيتالا السـفينة. فعندمـا نـزل البحارة إلى العنـبر فجراً، كـي يختاروا اثنـين مـن السـجناء لتنظيف سـطح السـفينة، كان أحـد أفـراد السـيبوي منحنيـاً عـلى هيكل السـفينة في هيئـةٍ فظيعـة، وقـد رُبطـت سـاقه بسـاق رفيقه. حـضر الطبيـب، السـيّد سِـن، ووضـع مـرآةً أمـام فـم المحكـوم عليـه فلاحـظ أنّـه ميـت. ولم تـترك الرائحـة الكريهـة التـي انتشرت في العنـبر وقذارة الجسـد شـكّاً حـول سـبب الوفـاة. نقـل الطبيـب الأخبـار السـيّئة إلى القبطان الذي استشـاط غضباً، واسـتدعى متعهّـدي العـمّال وسـألهم لِمَ لَمْ يحيطـوه علـماً بالأمـر. الآن صـارت الكولـيرا عـلى متـن السـفينة، وكان هـذا يعنـي تأخُّـرَ الرحلـةِ، ومزيداً مـن المـرضى والوفيـاتِ عـلى الأرجـح. وسـيكون القبطـان مسـؤولاً أمـامَ شركـة بـيرد وشركاه عـن حملـه رجـلاً مريضـاً عـلى متن سـفينته.

فـكّ البحّـارة وثـاق الجُثّـة، ولفّوهـا بخِـرَقٍ مشـبّعة بالأمونيـوم، ورفعوها إلى سـطح السـفينة. وفي تلـك اللّحظـة بـدأ المهاجـرون يتحدّثـون عـن الإلهـة البـاردة.

وكان هناك بدايةُ ثورةٍ في الطّابق السفليّ، طالب بعضهم بالعودة إلى الهند، وأراد آخرون ترك الطابق السفليّ والذهاب إلى الهواء الطلق هرباً من الجوّ العفِن. وتنامى الخوفُ في ركن النساء أيضاً، فتكدّس معظمهنّ في الخلف، ليبتعدْن قدر الإمكان عن المراحيض وعن مكان احتجاز المساجين. وحدهنّ نساء «دوغليج لوكيه» لم يبدين حراكاً، وقد اتسعت أعينهنّ من الخوف غير مدركاتٍ ما يحدث. بقيت ماني وجيريبالا معاً. ولمّا سمعت أنانتا تلك الجلبة المتعاظمة عانقت أمّها، كأنّها أحسّت بأنّ زمن كاونبور قد عاد.

أخذ البحّارة، مسلّحين بالعصيّ، يفكّون قيود متمرّدي السيبوي الباقين ويقودونهم إلى سطح السفينة. وسُمِع دوّيٌّ ناجمٌ عن ارتطامِ جسدٍ في البحر، وعاد الصمت التامّ إلى الطابَق السفليّ. بعدها بقليلٍ أحضر البحارة دلواً وعبوةً من الكونديز لتطهير العنبر. وأوضح واحدٌ من بينهم لمهاجرٍ تكفّل بإذاعةِ الخبر، أنّه من الآن فصاعداً سيُنقَلُ المحكوم عليهم إلى سطح السفينة، ويحتجزون في غرفة المستوصف الضيّقة، لتجنّب العدوى.

هـزّت مـاني رأسـها قائلـةً: «الآن صـارت الإلهـةُ البـاردة عـلى متـن القـارب، وسـيكون هنـاك وفيـاتٌ عـلى أيّ حـال». وعلّقـت تميمـةً حـول عنـق ابنهـا: بـذرة سـوداء وقطعـة مـن خشـب الصنـدل لحمايتـه. أمّـا أنانتـا فـما كانـت تملـك سـوى القـلادة ذات الميداليـة النحاسـيّة التـي تحمـل رقـم تسـجيل والدتهـا.

سـادَ نـوعٌ مـن البلبلـة في قلـب إسـكندر شـو؛ مزيـجٌ مـن تهديـدٍ وخـوفٍ علِـقَ في كلّ شيء: اسـتقرّ في عتمـة الطابـق السـفليّ، ومـلأ الهـواء، وأخـذ يهتـزّ مـع هديـر المحـرّكات. كان حـاضراً في ترنّـح المركـب، وفي أدنـى صريـر تصـدره أضـلاع السـفينة. وقـد طبـعَ مـرورَ السّـاعات، وتبـدُّلَ لـون السّـماء إذ يُلمَـح مـن بـين فجـوات السـتائر المشـمّعة.

كانـت الإلهـة البـاردة تتجـوّل أثنـاء اللّيـل خاصّـةً، فتظـلّ جيريـالا مسـتلقيةً عـلى الحصـيرة وهـي تعانـق ابنتهـا. كانـت تسـهر مترقّبـةً، وعيناهـا مفتوحتـان في الظّـلام، فتغفـو للحظـةٍ كمـن يسـقط مـن عـلٍ، ثـمّ تسـتيقظ فزعـةً بقلـبٍ خافـقٍ ووجـهٍ يتصبّـب عرقـاً، فتضـمّ أنانتـا إلى

صدرها. تسأل الصغيرةُ هامسةً:

-متى سنصل يا أمي؟

- قريباً يا عزيزتي، ربّما غداً، أو بعد غد.

لكنها كانت تعلم جيّداً أنّ الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً، نهاراتٍ ولياليَ، وربّما شهوراً.

كان يسري في العتمة أحياناً صوت نَفَسٍ أو تنهيدةٌ، نفحةٌ باردةٌ يقشعرّ لها البدن، فتحسّ جيريبالا أنّها تعبر فوقها وفوق أنانتا، فلا تجرؤ على الحركة أو التنفّس. كانت تلك أنفاسُ شيتالا التي تعلن وصول الرّب ياما، سيّد الموت. تذكّرَت جيريبالا اليوم الذي صادفَت فيه بين شجيرات القصب على ضفاف يامونا الشابة الفارغة العينَين التي كانت تحمل طفلها الميّت بين ذراعيها وتتقدّمُ نحوها مادّة يدها، دون أنْ يردعها رادعٌ، إلى أنْ جاءت ليل وشدّت جيريبالا إلى الخلف منقذةً إيّاها من نظرات الشابة.

وصار المهاجرون حين ينهضون كلّ يومٍ في ضوء الفجر الرماديّ، بعد سماع صافرة المتعهّد، يتفقّدون بعضهم بعضاً بالنظرات، ليروا من سقط منهم في اللّيل، ومن مسّته أنفاس الإلهة.

ذات صباح لم يستفق طفلٌ من نومه. كان ممدّداً على كومةٍ من الغسيل المتّسخ على بعد خطوات قليلةٍ من أنانتا، شفتاه زرقاوان شديدتا الشحوب، وعيناه مفتوحتان، وكانت أمّه تحاول إيقاظه هازّةً إيّاه بنواحٍ رتيب.

كان المرض قد تفشّى سريعاً في جسد الطفل، اخترقه البردُ حتّى ازرقّت أصابعه وشفتاه، ونزفَ كلَّ دمه في بِضع ساعات. ولمّا حضر الطبيب، كان الطفل يُحتَضَر. حمله أحد البحّارةِ بعيداً، ملفوفاً في خِرَقٍ مثل دُميةٍ قديمة. ولم يبقَ سوى نواح الأم، تلك التّرنيمةِ التي صارت كأنّها تتدفّقُ من كلّ صوبٍ دفعةً واحدة، في غبشِ الطابق السفليّ، يتخلّلها دويُّ ارتطام الجثث بالماء، وصوت البحر حينَ يُطبِق عليها.

لم يعد سطح السفينة، في الهواء الطلق، كما كان. ظلّت جيريبالا وأنانتا -كلّما جاء دورهما- تشعران بالانبهار نفسه أمام زوبعة السماء والبحر، والرياح الحارّة التي تدفع الشراع الرئيسي، ودوائر الدّخان المتدفق من المدخنة العالية فوق برج السفينة، لكنّ الخوف قد تسلّل إلى النفوس الآن، خوف

يشـبهُ نظـرة الفتـاةِ عـلى ضفّـة نهـر يامونـا، ورائحـة جسـدها الباهتـة، وأنفاسـها الجليديّـة.

ظلّـت النسـاء عـلى سـطحِ السـفينة يعملـن ويغسـلن ملابسـهنّ، لكـنْ في صمـتٍ تـام. وقـد وُضعـت علامـةٌ بجانـب الـزّوارق في الموضـع الـذي تُلقـى منـه في البحـر كلّ صبـاحٍ الجثـث التـي أخذتهـا الإلهـة.

حتّـى ليـل نفسـها قـد توقّفـت عـن الـكلام. كانـت تقبـع في مكانهـا طـوال الوقـت، بـين أضـلاع السـفينة، وشـالها منسـدلٌ عـلى وجههـا، ضامّـة ابنَهـا بقـوة إلى صدرهـا المتجعّـد.

كان أفـراد الطّاقـم يعملـون في صمـتٍ هـم أيضـاً. فمنـذ حُبـس أفـراد السـيبوي في غرفـة المسـتوصف، صـار البحّـارة ينامـون عـلى سـطح السـفينة الخلفـيّ تحـت المحـرّكات. لم يعـودوا ينزلـون إلى الطابـق السـفليّ. وكان الطّاهـي يضـع قِـدْرَ الأرزّ الكبـيرة أسـفل السـلّم، فيتنـاوب المهاجـرون عـلى تنـاول حصّتهـم تحـت أعـين متعهّـدي العـمّال السّـاهرة. وحدهمـا الرّجـلان القادمـان مـن الشـمال، بردائيهـما الأبيضَـين الطويلَـين، وعمامتَيهـما العاليتَـين، واصـلا لعبـة الشـطرنج عـلى منديـلٍ كبـيرٍ بمربّعـاتٍ حمـراء،

كـما لـو أنْ لا شيء آخـر في العـالم يهـمّ. وكانـت أنانتـا تتسـلّل عـدّة مـرّاتٍ لتشـاهد لعبهـما، ولم يكونـا حتّـى يلحظـان وجودَهـا.

كانـت جيريبـالا قـد مـلأت ثـماني وعشريـن صفحـةً مـن الكـرّاس. وفي اليـوم الـذي كتبـت فيـه للمـرّة الرابعـة كلمـةَ **الاثنـين**، حـدث أمـر جديـدٌ أذهـلَ جميـع المهاجريـن. وقـع ذلـك في الصبـاح الباكـر، حيـث كانـت الرّيـحُ قـد هدأت، ولم يعـد للبحـر تلـك الأمـواج الطويلـة التـي أرهقـت هيـكل السّـفينة وجعلـت عوارضهـا تئـنّ، بـل باتـت أمواجـاً قصـيرة، كتلـك التـي عـبروا بهـا مصـبّ نهـر الغانـج، عنـد رأس **لـو سـابل**.

وفجـأةً تناهـى إلى الأسـماع ضجيـجٌ غريـبٌ، مثـل صريـرٍ أو أنـين، حتّـى أنّ جميـع النسـاء، وعلى غـير المعتـاد، رغبـنَ في التطلّـع عـبرَ زجـاجِ الكُـوى المبقّـع بالزّيـت. كانـت مـاني هـي مـن عرفـت الصّـوت. ضغطـت عـلى ذراع جيريبـالا، وأشرق وجههـا بالفـرح: «اسـمعي! اسـمعي! نحـن قريبـون جـدّاً مـن اليابسـة! اسـمعي!»

شـقّتْ طريقهـا إلى النافذة جـارّةً معها جيريبالا التـي رأت مـن خـلال الزّجـاج البحـر بلونـه

الزّمـرّديّ، وخـطّ الجـزر، وأطيـافَ شـجر جـوز الهنـد البديعـة. أمّـا الضجيـج الأشـبهُ بالصّريـر فاتّضـح أنّ مصـدره طيـور البحـر التي كانـت تتبع المركـب، محوّمـةً في السـماء قريبـاً مـن سـطحه.

لم تحُـن لحظـةُ الخـروج، لكـنّ جيريبـالا وأنانتـا هُرِعتـا إلى أعـلى السـلّم، تتبعهـما مـاني والنسـاء الأخريـات. كانـت الجـزر عـلى ميسرتِهـنّ، تنسـاب وئيـدةً أمـام مقدّمـة المركـب. لقـد مـرّ وقـتٌ طويـل لم يرَيـن فيـه اليابسـة حتّـى أنّ هـذه الجـزر بـدت لهـنّ خياليّـة بعيـدةَ المنـال مثـل مصـبّ نهـر عمـلاق. وفي الأفـق كان هنـاك بـرٌّ آخـر يمتـدّ أمامهـنّ مبـاشرةً، ويحجبـه جزئيـاً الـشراع والمدخنـة. بـدا أرضـاً بـلا نهايـة، مغطّـاةً بالزبـد، تـبرزُ منهـا جبـالٌ شـاهقةٌ ضاعـت قممُها في الغيـوم. أشـارت مـاني إلى خـطّ اليابسـة: «هـا هـي هنـا. لقـد وصلنـا. إنّهـا ميريـش ديـش».

اغرورقـت عينـا مـاني، مـن فـرطِ الانفعـال ربّـما، أو بسـبب الضّـوء السـاطع. شـدّت أنانتـا عـلى يـد جيريبـالا. «هـل وصلنـا حقّـاً يـا أمّـي؟» لكـنّ جيريبـالا كانـت عاجـزةً عـن الـكلام. لم تسـتطع إلّا أنْ تتأمّـل هـذه الأرض الممتـدّةَ طويـلاً، الناصعـة البيـاض، الكثـيرة الجبـال

والغيوم، ففاضَ الدّمع من عينَيها أيضاً. إذ لم تستطع أن تصدّق أنّهم قد وصلوا حقّاً.

بدأ المهاجرون الآخرون يصلون شيئاً فشيئاً إلى سطح المركب، ومن قبلهم ركّاب الدّرجةِ الأولى، وصعد متعهدّو العمّال أيضاً، ووقفوا على المقدّمة في منطقةِ التّشغيل، ولكنّ البحّارة لم يفكّروا في إخلاء السطح. كان إشكندر شاو قد أنزلَ شراعه بالكامل، وتقدّم وئيداً مستعيناً بمحرّكه البخاريّ فقط، كما لو كان يستعرض قوّته للمرّة الأخيرة.

ظهرت أمامهم ثلاثُ جزرٍ معتمةٍ تبدو كأنّها تنجرفُ ببطء مثل حيوانات جانحة، وعلى مبعدةٍ، في منتصف الخليج الصغير، شوهد طرفُ صخرةٍ بارزٌ من المحيط. عندها استعاد القبطانُ حَزمه، فأصدر الأوامر لمتعهّدي العمّال الذين أطلقوا صافراتهم مجبِرين الجميع على العودةِ إلى الطّابق السفليّ. وعلى الرّغم من برودة الصباح، فقد كانت الشمس تدفّئ الجزء الدّاخلي من المركب. كان الهواء في الخارج ساكناً، والبحر هادئاً. أسرع المهاجرون إلى طيّ أمتعتهم وربط صُرَرهم، وعلَت الأصوات: صراخٌ واندفاعٌ وتطلّعٌ محموم. لقد وصلوا.

تواصل هبوب الرّيح بلا انقطاع، مبعداً أيّ تهديدٍ بالعاصفة. كانت زرقةُ السّماء تجرّح البصر، والبحر معتماً قاسياً يتعذّر ركوبه. أقمنا أنا وسوريا خيمتَنا على سفح القمّة في أقصى الجنوب، تحت أوْكار طيور رئيس البحر. هي من اختارت المكان. قالت إنّها تريد العيش قرب الطيور وترى الأفقَ مثلها، الطيورِ التي ترى من بعيدٍ ساحل الجزيرة الكبيرة ولا تصلُه أبداً.

أعطتْ كلَّ ما لديها قبل أنْ تغادر جزيرة بلات، النّاموسيّة وآنية الطّبخ. واحتفظت فقط بحقيبتها الكاذيّة. وأحرقَت دفاترها المدرسيّة وصفحات أخبار لندن المصوّرة التي تحكي عن لندن وباريس. وحينَ أدركْتُ الأمر؛ حين عرفتُ أنّه لم يبقَ لديها شيء، شعرتُ برعشةٍ، الرّعشةِ التي يُحدثها الإحساس باقتراب الحقيقة.

كانت الرّيح تعصفُ فوق حواف البازلت وتُبعثر أوراق الدّيداء والشّجيرات، ريحٌ آتيةٌ من بعيدٍ، لها مذاق أعالي البحار. وكانت الشّمس تتقّد منذ شروقها إلى لحظة انغماسها في البحر، فتتلألأ بنورها صخورُ البازلت، وحتّى أشجار الكاذيّ كانت تمتلئ بالشّرر. وأحياناً تطير حشرةٌ إلى النور، دبّورٌ تحمله الرّيح إلى البحر.

وكانت القمّة تهتزّ طوال الوقت. في البداية، لا يشعر بها المرء. يظنّ أنّه يسمع هدير البحر، أو تكسّر الأمواج على الشّعاب المرجانية السوداء عند طرف الجزيرة. لكنّها هِزّةٌ شبيهةٌ بالرّيح، تأتي من أعمق

أعماق الأرض، وتصعد إلى الصخرة التي نعتليها، ونظلّ نسمعها حتى عندما نستلقي على الأرض في عمق التجويف. أخذت سوريافاتي يدي، وضغطت عليها بقوّة «سنبقى دوماً معاً، أليس كذلك؟ بْهايْ...» ولعلّ الحمّى هي التي تهتزّ على هذا النّحو، صاعدةً إلى أجسادنا من الأرضِ؛ الإلهة الباردةِ التي نعيش عليها.

غيرَ بعيدٍ عن ملجأنا، تسكنُ سارة ميتكالف.

منذ وفاة رسامه، صارت سوريا هي من تعدّ لها الطعام، أُعطيةً من الأرزّ وبعض الفاكهةِ والمحار. حاولتُ التحدّث إليها، لكنّها أصبحت شديدة الفزع حتى أنّها لم تعد ترغب في الخروج من مخبئها. وكانت طيور بلشون القطعان هي من أتت على طبق الأرزّ والأسماك المجفّفة هذا الصباح. لكنّ سارة لا تخاف سوريا. وحين لا يكون أحدٌ في المكان، تجلس على حجرٍ وتأكل بسرعةٍ دون أن تنطق بكلمة، وتشرب من الصهريج، مباشرةً من الدلو. كانت ترتدي أسمالاً ورائحتها منفّرة. ممّ تخاف يا ترى، أو ممّن؟ تقول سوريا إنّها تختبئ كي لا يحبسها فيران. تقضي اليوم كلّه مختبئةً في جحرها مثل وحشٍ طريد. ولا تخرج إلا عند المغيب، للشّرب أو البحث عن المحار في البرك عند انحسار المدّ.

أطاحت الرّيحُ اللّوح الذي كتبت عليه سارة اسم جون، لكنّها لم تعد تهتمّ بإعادة نصبه. ومع ذلك، فقد كنت أراها أحياناً قرب الأهرام التي نصبتُها تخليداً لذكرى موتانا الأوائل، نيكولا والسيّد تورنوا والهنديّتَين. لكنْ لعلّها لا تذهب إلى هناك إلّا للاحتماء من الريح. وظلّ بوتالا يرميها بالحجارة على الرّغم من تحذيرات جاك،

ربّما لأنّه يخافها. وكانت تهرب منه مطلقةً صيحاتٍ حادّة مثل الطيور.

وبالمناسبةِ، فالطيور تعيش هنا. كانت سوريا تصحبني عند الفجر إلى القمّة، إلى أوكار طيور رئيس البحر. كنّا نزحف عبر الشّجيرات الجافّة في صمت، حيث الرّيح تصفر في الصخور، والبحر شديد الزرقةِ طليق! صرنا نراه الآن بنظرة الطيور، نظرةٍ ثاقبةٍ تتفحّص كلّ عمقٍ وتيّار. هذا الصباح، أشارت سوريا إلى خيالٍ داكنٍ ينساب على السّطح في عرض البحر: «انظر! «انظر!» كان دلفين **أوركا** يتقدّم جاعلاً المياه تفور من حوله، ثمّ ينقلب على ظهره، كاشفاً عن بطنه الأبيض.

كانت طيور رئيس البحر تحوم بحثاً عن فرائس. وقد عبرَ واحدٌ من بلشون القطعان قرب القمّة زاعقاً، وبسطةُ جناحيه الواسعة ذات الأهداب السود ترفرف في الريح. رأى سمكةً فهوى عليها مثل حجر، فتبعَته طيور رئيس البحر التي أخذت تهوي واحداً تلو الآخر، وكنّا نسمع اصطدام الأجسامِ في البحر والمعركة التي تلي ذلك. إذ لا أحد يستطيع اختراق حِماها دون أنْ يلحق به العقاب.

كنّا نعرف كلّ وكْر. وكانت سوريا تتقدّم أولاً، زاحفةً حتّى المدخل. الآن صارت طيور رئيس البحر تعرفها، فلم تعد تهاجمنا، بل تكتفي بالمشي عرجاء بمحاذاةِ التّلعة، وتزمجر فاتحةً مناقيرها. تحدّثها سوريافاتي بهدوء، بلغةِ الدوميتين النّاعمة الانسيابيّة، اللّغة السرّية التي علّمتها إياها أنانتا. قالت: «إنّهم مثلنا متشرّدون ولصوص». وقد علّمتني بضع كلماتٍ كي تسمعني وأنا أردّدها: **شورم** «أيّها اللّصّ»، **كالا غول لايه**، «فلندخل البيت». لكنّها لم تكن تأخذ من الطيور شيئاً. كانت تستلقي على الأرض لتتأمّلها طويلاً في غدوّها ورواحها،

بينما أبقى إلى الوراء قليلاً، بين الصخور. أُحبّ اللّحظة التي تنطلق فيها الطيور نحو البحر، حيث تتماوج راياتها الطويلة مع الريح، وتلمع أجسامها مثل عِرق اللّؤلؤ.

لم نكن نتحدّث، كنّا فقط نتبادلُ بضعَ كلماتٍ كأنّها أغنية. وأحياناً حين نكون متكوّرَين في كهفنا، والريّح تصفر من حولنا، وأنفاسها تمتزِج بأنفاسي، تنظرُ إليّ بعَينها الواسعةِ وتردّد بهدوءٍ اسمي: نْهاييْ...

أهبط المنحدرَ عصر كلّ يوم، وأذهب لأجلب الماء من الصهاريج في قربةٍ من الجلد أعطاني إياها ماري. ثمّ أعرّج على المخيّم لآخذ حصتنا من الأرزّ. بدأت سوزان تقف على قدمَيها، ناحلةً جدّاً، وثوبُها الطويل يرفرف حولها. وصارت تساعد جاك في طهي الأرزّ، وتأكل بشهيّة جيّدة. لها طريقةٌ فائقة الأناقة في التقاط الأرزّ بثلاثة أصابع. كانت سوريا هي من علّمتها إيّاها. ضحكتْ عندما لمّحتُ إليها بذلك. وقد مضى وقتٌ طويلٌ لم أسمع فيه ضحكتها.

نقلَ لي جاك بعض الأخبار:

- زارنا بارتولي. يدّعي أنّ سفينة خفر السّواحل ستأتي لاصطحابنا اليوم أو غداً. ويقول إنّ العمّال يحتشدون على الشاطئ منتظرين.

كنت أصغي إليه شارداً وأنا أملأ طبق المينا بالأرزّ. تُحبّ سوريا اللّامبانغ، أيْ قشرة الأرزّ الملتصقة في قاع القِدْر. كنت أغرف منها بعناية.

- لقد جنّ فيران على ما يبدو. إنّه يحبس نفسه في أعلى الحفرة،

ويراقب طوال اللّيل، ويقول إنّها اللّيلة الكبيرة، حيث سيقتلوننا عن آخرنا.

علّقت سوزان قائلة:

-ولكن ألا يهبط من وقتٍ لآخر كي يأكل؟

هزّ جاك كتفَيه:

- لا بدّ أنّ لديه ما يكفي من الزّاد، مع كلّ ما سرقه منا. ثمّ إنّ النّبع قريبٌ منه، تحت قمّته مباشرةً.

وقال بصوتٍ خفيضٍ حتّى لا تسمع سوزان:

- يُقال إنّه نحر جدياً اللّيلة الماضية كي يجمع دمه ويحاول نقله إلى جسمه بغرزِ أنبوبٍ في فخذه. لقد جُنّ الرّجل، ولم يعد أحدٌ يجرؤ على الاقتراب من عرينه بعد الآن.

قبل أيّام، كان لأخبار جنون فيران أنْ تملأني بهجةً: فيران ملطّخاً بالدّم يتحصّن في أطلال المنارة والمسدّس في يده، منتظراً هجوم الأشباح. أمّا الآن فما عاد يعنيني أيّ شيء من هذا. إنّه مثل حلم مزعجٍ مُستَهلَك، يعاود المرءَ أثناء تعافيه من مرضٍ طويل، ويتبخّر مع العَرق.

أخذتني سوزان من يدي. بدت شاحبةً في نور المغيب، وبعيدةً. قالت في خجل:

- لِمَ لا تأتيان إلى هنا معنا؟

لم تجرؤ على نطق اسم سوريا. وكانت تشعر بالخجل من قولها ذات مرّة: «راقصتك الهنديّة».

لكنّ رياح غابريال كنست كلّ شيء. ما عاد هناك شِعرٌ، وما عدتُ أرغب في قراءة عبارات لونغفيلو الطويلة، والمفخّمة إلى حدّ ما. حتّى كلمات رجل عدن العنيفة بدت لي كأنّها اختفت في الفضاء، طوّحتها الرّيح وابتلعها البحر. سأجمع الأرزّ وأملأ القربة بالماء البارد، وأسرع نحو التّلعةِ حيث تنتظرني سوريافاتي مستلقيةً تحت دوّامةِ الطيّور- النيّازك، في تحليقها المحموم.

شعرَت سوزان أنّ شيئاً ما كان يتسرّب من بين يديها، ولم تدرِ ما تفعل، أرادت أن تستبقيَني. حاولَت التحدّث معي كما في السّابق، عن لندن وهاستينغز، وعن أغنية هيواثا. وودّت لو يستأنف جاك سرد القصص عن موريشيوس وحقول المدينة وبيت عزبة آنّا. قالت:

- هل سمِعْت؟ غداً أو بعد غد، سنكون هناك أخيراً.

أتُراها نسيَتْ حقّاً؟ لقد مرّتْ عليها فكرة الانتقام من كبيرِ أرشمبو دون أن تترك عندها أيّ أثر.

ثمّ خطرت لها فكرةٌ أخرى، بمثابة حلٍّ لجميع مشكلاتنا.

- سوف نذهب إلى ريونيون بدلاً من ذلك، يبدو أنّهم في حاجة إلى أطبّاء وممرضاتٍ في لا رافين أجاك[1]. إنّه اسم يناسبنا - وهي بلدي على كلّ حال. في الصيف سنذهب إلى المرتفعات، إلى سيلاوس، سننتقل إليها في كراسيَ محمولة. إنّ طقسها بارد، وفيها شلّالاتٌ جليديّة، وغاباتٌ مليئةٌ ببساتين الفاكهة، إنّها الجنّة.

دبّت الحياة فيها من جديد، فتدفّق الدّم إلى وجنتَيها واتّقدت

(1) الاسم Ravine-à-Jacques يعني سيل جاك، أو وادي جاك.

عيناها. وعادت لتضع الخطط، وتستأنف أحلامها. وكان جاك إلى جانبها يحتضنها ويقبّلها. وقد شوّش قِصر النّظر بصره. حاول أنْ يقولَ شيئاً، لكنّه لم يعد يستطيع الحديث عن موريشيوس كما كان يفعل سابقاً. يبدو كأنّه لم يعد يؤمن بذلك كلّه. التفتَ نحوي، وللمرّة الأولى أرى في ملامحه تعبير البرود هذا، بل حتّى الكراهية، تجاه كبير آل أرشمبو، وأدركتُ أنّه قد عقدَ العزمَ على ألّا يدين بعد اليوم بشيء، ومهما حصل، لاسم هذه العائلة.

ركضتُ إلى قمّة الصخرة قاصداً مكانَنا أنا وسوريا. وصادفتُ في طريقي بوتالا هائماً على وجهه في الدّغل، أسودَ شديد النحول، بجسدِ طفلٍ وعينَي راشدٍ قسّتهما التّجربة. أستطيع أن أتخيّل مقدار ما عاشه منذ غادرَ كلكُتّا.

حاولتُ استمالته ببعض الطعام، فقدّمت له صحن المينا الذي يحتوي على قطع أرزّ اللّامبانغ. كانت عيناه تتّقدان ببريق من يتضوّر جوعاً، لكنّه كان يتراجع كلما دنوْت منه. قلت له بالفرنسية: «تعال، تعال، لا تخف! لن آكلك! إنّك هزيلٌ جدّاً». لم يكن يتكلّم أيّ لغة. تقول سوريا إنّه ووالدته «غجريّان»، **كولهاتيس** من جبال الهند، وهؤلاء مشعوذون ولصوص، يسرقون الأطفال، ويدرّبون القرود على دخول المنازل، ولهم ثعابينُ تحرسهم مثل كلاب حراسة.

الآن وقد احترقَت خيمتُهما، لم يعد لهما مكانٌ يؤويهما. وهما على قدرٍ من الشراسةِ لا يمكّنهما من العيش مع جاك وسوزان. ولكيْ يحتميا من حرّ الشمس نهاراً، كانا يلجآن إلى غابة الكزورينة قرب

الشاطئ، ويظلّان مختبئين بين شجيرات الديداء، فألمحهُما بين الأوراق. وفي المساء، ينامان في رحبة الغابة، قريباً من الصهاريج والمراحيض. وكانت مُريامه تأتي كلّ صباح للحصول على حصّتها من الأرز، دون أن تنبس ببنت شفة. فجزيرة غابريال تجفّف الكلام. وقد غدت الرّيح وقساوة الحجارة وهدير الأمواج على الشّعاب المرجانية هي كلماتنا الحقيقيّة.

جاء جاك أيضاً إلى الطرف الجنوبيّ ليلقي نظرةً على خطّ الجزيرة. أخذ يحدّقُ وعيناه تكادان لا ترمشان. بتُّ أعرف كلّ تفصيلٍ وكلّ علامةٍ في هذا الخطّ. ويمكنني رسمه على الرّمل وعيناي مغمضتان. على اليمين مباشرةً، هنالك جزيرة كوان دو مير الأشبهُ بمقدّم سفينةٍ غارقٍ، ومن ورائها شريط الرّمل الطويل الذي يمتدّ شرقاً ملتحماً بالسّماء والبحر، ثمّ منحدراتُ القصب الخضراء، وسلسلةُ القمم الاثنتي عشرة التي تتلاشى ذراها في الغيوم، قمم ريفيير نوار، وجبل الرومبار وكور دو غارد، وجبل أوري، وبوس، ودو ماميل، وبيتر بوث ذي القبّعة، وجبل كلاباس، والجبل الأبيض، وجبل بامبو، وكامب دو ماسك.

كان جاك هو من علّمني أسماءها، كنت أتلوها مثل ابتهالٍ كلّ مساءٍ، مستلقياً على فراشي في نزل مدام لو بير في رُوي. وقد دوّنتُها في كرّاس. وكنت أتخيّلني وأنا أتسلّق قمّة بيتر بوث. كان ذلك مثل وعدٍ قطعناه على نفسَينا أنا وجاك.

«كان أبي قد قال لألكسندر: «أراهن أنّك لن تستطيع مجاراتي إلى القمّة». رافقه ألكسندر حتّى قبّعة الجبل، هناك حيث ثُبّت سلّمٌ من حبال. لكنّه شعر بالدّوار. فصعد أبي إلى الأعلى بمفرده، وجلس على

القبّعة الحجريّة. وقال إنّه لم يرَ في حياته أجمل مما رآه في تلك اللّحظة».
أعلم الآن جيّداً أنّنا لن نذهب إلى قمّة بيتر بوث. لقد حدثت أمورٌ كثيرة. ويبدو الأمر كأنّ هذا الجبل لم يعد له وجودٌ منذ الآن. أصبح بيتر بوث مثل أيّ جبلٍ آخر، مجرّد سنّ بارزةٍ على هذا الخطّ المزرقّ الذي لفرطِ ما تأمّلته أُصبتُ بالدوارِ حتّى الغثيان.

لكنّ جاك لم يأتِ ليرى المناظر الطبيعية، ولا ليرى كيف هي خيمتنا، بل جاء يستجوبني. سألني:

- ما هي نيّتك؟

فأجبته:

- ماذا تقصد «بنيّتي»؟

- أنت تعرف ما أعنيه. غداً أو بعد غد، سيكون القارب هنا. عليك أنْ تحسم قرارك.

- إذا كان هذا ما تريد معرفته، فلن أبقى هنا.

لم تُرضِه نبرتي السّاخرة:

- أتحدّث عن تلك الفتاة. بماذا وعدتَها؟

جاء دوري الآن لأغضب.

- بلا شيء! بماذا تريدني أن أعدَها؟ وهل في وِسع المرء أنْ يعِدَ بأيّ شيءٍ هنا. في هذا المكان؟

غضب جاك بدوره. وهو حين يغضب يخلع نظّارته ويمرّر إصبعه على قصبة أنفه. يبدو أنّ أبي وعمّي أرشمبو كان لهما هذه الحركةُ نفسها، وكم كانت تسليني. أمّا الآن، فأجد مشقّة في التّعامل مع هذا التشنّج اللّاإرادي.

تحدّث جاك ببطءٍ، فصارت له هيئةُ طفلٍ حردان.

- ما أعنيه، وما ينبغي أن نخبركَ به أنا وسوزان، هو أنّك لست بالنكرةِ في موريشيوس، فأنت تنتمي إلى عائلةٍ، إلى آل أرشمبو، وهم أناسٌ أقوياء، يشكّلون جزءاً من الأقليّة المتنفّذة، تلك الدائرةِ الذائعة الصّيت داخل الحكومة الجماعيّة.

قاطعتُه.

- هل تقصد كبار العائلات؟

- أجل، كبار العائلات إن شِئت. أنت تنتمي إلى هذه الطّبقة رضيت بذلك أم لم ترضَ. ثمّ إنّك لا تستطيع أنْ تنكرَ أنّ هذه الشابّةَ تنتمي إلى طبقةٍ أخرى. هذا لا يهمّ هنا. فهذه أرضٌ محايدة، جزيرةٌ مُقفِرة. ولكن بمجرد الخروج منها، سيعود كلّ شيء كما كان من قبل. هل فكّرت في الأمر؟ عليك أن تكون صادقاً معها، عليك أن تصارحها بالحقيقة.

نظرتُ إلى خطّ الجزيرة في الأفق. كان كلّ شيءٍ يتغيّر بين لحظةٍ وأخرى. ارتفعت الغيوم في البعيد سقفاً مائلاً يزداد ثقلاً كلّما تقدّمَ غرباً نحو جزيرة كوان دو مير، واختفت الجبال في ضباب المطر. هبّت رياحٌ أشدّ برودةً مبعثِرةً شَعر جاك ولحيته، فلمحتُ خيوط الشّيب التي خالطتْها عند فكّيه.

أساء جاك تأويل صمتي. لفّ ذراعه حولي بحركةٍ وصيٍّ مخادِعة. هل نسيَ أنّ سوريا قد أنقذَت زوجته؟

قلت:

- ربّما أنت على حقّ. لقد أصبحنا غريبَين.

لاحظتُ أنّه لم يفهم ما قلته. أشار لي نحو الأفق:

- انظر، إنّه وطننا. لم يكن لدينا، في أيّ وقت، وطنٌ آخر غيره. لقد وُلدنا هناك، في عزبة آنّا.

بسطَ يده وكأنّه يشير إلى قرىً وبيوتٍ خياليّة، رأيت بعينَين رامشتين أكواخَ الصّيد تتلألأ في غران غوب ومنارة لابوانت أو كانونييه، وأبراج قمين الجير ناحيةَ أنيون، وهاريل.

كنت أعلم أنّه مخطئ. حدّثني عن سوزان، عن مشروعها الذي يلامس الجنون: أنْ تصبح فلورنس نايتنغيل الموريشوسيّة، وعن إنشاء مستوصفات، وتحسين ظروف العمّال. سيكون جاك طبيبَهم. لا أدري لماذا بدا كلّ شيء بعيداً عنّي الآن، وما عدتُ أؤمن به.

- ألا تفهم عمّ أحدّثك؟

نظر جاك إليّ ذاهلاً. فقد صار لي صوتٌ لا يعرفه، قاسٍ وحازم.

- لقد أصبحنا غريبَين واحدنا عن الآخر، ولم نعد ننتمي إلى العالم نفسه.

بكلماتي هذه، وبوجهي الذي لوّحته الشمس، وشعري المتشابك الذي زاده الملح كثافةً، أَحسَّ أنّه يراني للمرّة الأولى:

- هل جُنِنت؟

- لكن، انظر إليّ. انظر إلى نفسك. لم يعد لدينا ما يجمعنا. لن نكون كما كنّا من قبل. ستمضي أنت وسوزان في درب، وأنا في دربٍ آخر. وقد لا نلتقي مرّة أخرى. سيأتي القارب ليقلّكما، ستذهبان إلى المدينة، وبور لويس، أو لا أدري أين. وستظلّ أنت دوماً واحداً من آل أرشمبو. قد تعود إلى فرنسا

أو إلى إنجلترا. أمّا أنا فباقٍ مع سوريا، وسأظلّ دائماً معها، هي الآن عائلتي. حتّى كبيرُ آل أرشمبو لن يجد إليّ سبيلاً.

كنت واقفاً بين الصخور، مولياً ظهري إلى البحر، وقد استبدّ بيَ الغضب، كنت مستعدّاً لأنْ أمسك بجاك وأصفعه. لم أتخيّل قطّ أنّني يمكن أن أكرهه، ليس لذاته، ولكن لما يمثّله، روحِ كبار العائلات التي تسكنه. إنّه مثلي في أسماله، شاحبٌ يتضوّر جوعاً، تنهشه الحمّى والزّحار، قدماه عاريتان في حذائه، ونظارته مكسورة، وها هو مع ذلك يَنهى ويأمر، ويتحكّم مثل سيّد:

- ما تقوله غيرُ معقولٍ، بل إنّه سخيفٌ. كيف يمكنك التنكّر لعائلتك، لنفسك، لي ولسوزان، وكلّ ما فعلناه من أجلك...

قاطعتُه، واندلق فجأةً ما طفح من حقدٍ لديّ:

- فلتفتح عينَيك جيّداً! إنّ كبار العائلةِ هم من فعلوا هذا كلّه. كبار العائلةِ هم من تخلّوا عنا، مثلما تخلّوا من قبلُ عن ركّاب ليداريه، وتركوهم شهوراً لمصيرهم على هذه الجزيرة. أنت لا تعني شيئاً لهم! فلا شيء يهمّهم سوى حقول قصبهم. إنّك تتحدث باسم آل أرشمبو، لكنّك ابنُ رجلٍ أهانه آل أرشمبو، وطردوه! أنت عندهم مجرّد ثمرة جافّة! هذا ما قاله لأبيك العمّ أرشمبو بعد مطالبته بتسوية الحسابات. ولمّا حصل على ما يريد، طردَنا جميعاً، وأرسل أمّي إلى الموت، لأنّها لم تكن من علية القوم، لأنها أوراسيّة! وأنت تريدني الآن أن أعود إليهم متظاهراً بأنّ شيئاً لم يحدث؟ إنّك أنت المجنون حقّاً. لن يقبلوك أبداً، لا أنت ولا سوزان. أمّا أنا،

فلـن أكـون يومـاً مـن أجلِهـم. لـن يعرفـوا حتّـى مـن أنـا. لـن ألقاهـم أبـداً، إلّا وهُـم يمضـون مسرعـين في عرباتهـم، فأنحـدرُ إلى الرّصيـف كـي لا يدهسـوني.

شـعرَ جـاك بخيبـة أمـلٍ عظيمـة. ولم يُجـب. جلـس عـلى صخـرةٍ ووجهـه يلتمـع بنـور الشـمس، وقصَبـةُ أنفـه المكسـورةُ شـاحبةٌ قليـلاً. كان يحـدّق بعيـداً في غمـوض، ناحيـةَ الأفـق حيـث تمّحـي الجبـال تحـت المطـر. خجلِـتُ مـن نفـسي لأنّنـي استسـلمتُ للغضـب:

- انظر، عليك أن تعرف هذا: لم يعد لدينا شيء هنا، لا بيتٌ ولا عائلة.

أعلـم أنّنـي آذيتـه، فقـد قلـتُ مـا كان يستشـعره هـو نفسـه منـذ وقـتٍ طويـلٍ. وكأنّـه لم يـأتِ إلى هـذه الجزيـرة برفقـة سـوزان إلّا لِيُنفـى مـن موريشـيوس إلى الأبـد.

انضمّـت إلينـا سـوزان عـلى الطّـرف الآخـر. وصلَـت مترنّحـةً، وفسـتانها الطويـل يرفـرف فـوق جسـدها الشـديد النّحـول. كانـت واهنـةً، لكـنّ وجههـا مشرقٌ بابتسـامة. خمّنَـت أنّنـا نتشـاجر. وكـما كانـت تفعـل في المـاضي، عـلى شـاطئ هاسـتينغز، مالـت عـلى كتـف جـاك وأخـذت تمسّـد شـعره. كانـت تـودّ أنْ تعثـرَ ثانيـةً عـلى تلـك الإيـماءات التـي اعتاداهـا حـين كانـا عاشـقين، وكانـت الحيـاة كلّهـا أمامهـا. أمسـكَت بيـدي، وحاولَـت أنْ تشـدّني كـي أجلـس معهـا.

- لمـاذا لا تـأتي للعيـش معنـا؟ قريبـاً سـوف نجتمـع مـن جديـد هنـاك، كلّ شيء سـيكون رائعـاً كـما خطّطنـا لـه؟

لكنّهـا قالـت ذلـك بنـبرةٍ متسـائِلة، كـما لـو أنّها هـي نفسـها لا تصـدّق ما تقـول، كـما لـو أنّ ذلك كلّـه مجرّد حلـمٍ مكتوبٍ في دفـتر ذكرياتها. ثـمّ أردفت:

- سوف نذهب ونلاقي أفراد العائلة. ولن نفترق أبداً، أليس كذلك؟

لم يُجب جاك. كنت أعرف ما يجول في خاطره، طالعتُه في برود نظرته حين حدّق فيّ. لم يعد لدينا عائلة، وربّما لم يكن لدينا عائلةٌ أصلاً. كان مجرّد حلمٍ أداوم عليه في وحدتي، في عنبر النوم البارد في نزل لوبير، لأخادع به جوعي. حين ماتت أمّي، محى العمّ أرشمبو كلّ شيء، حتّى أبسط آثارنا. أوْصد في وجهنا باب عزبة آنّا، وفقدْنا كلّ شيء، الأرضَ الزّرقاء، وبحرَ القصب الزمرّديّ، والقممَ حيث تولَد الغيوم، وحتّى جبلَ بيتر بوث. كانت تلك إرادته. ولو كان الأمر غير ذلك، فهل كنّا لنُتركَ لمصيرنا على جزيرتَي بلات وغابريال؟

كانت سوزان ترتجف.

- إنّني متعبة، أسنداني كي نعود إلى سقيفة المجانين تلك.

كانت تنجح دوماً في إضحاكنا، حتّى حين يكون كلّ شيءٍ من حولنا مأساويّاً.

وما كِدنا نسلك درب العودةِ حتّى سمعنا صوتاً في الدّغل، وحركة حيوانٍ متخفٍّ. كانت تلك سارة ميتكالف. خرجَت من مخبئِها وقد جذبها على الأرجح صوت سوزان. كانت تقف بين الصخور وعيناها تطرفان في الضّوء الساطع. وقد احمرّ وجهها الفتيُّ بسبب الشمس، وتبعثر شعرها، وامتلأ بالعُقَدِ والقشّ. أومأَت سوزان مناديةً إيّاها. ولكنْ سرعان ما تورات المجنونةُ في الدّرب المفضي إلى جُحرها.

انعطفنا حتّى لا نمرّ أمام الأهرام السّوداء. وفي لحظةٍ، شعرتُ برجفة سوزان تسري في ذراعي. كانت تبذل جهداً كبيراً.

- قلبي يخفق بقوّة، لم أعد أحتمل.

شبكنا أنا وجاك أيدينا لنصنع لها كرسيّاً محمولاً، وبهذه الوسيلةِ أوصلناها إلى «سقيفة المجانين». وكانت تلفّ ذراعَيها حول أكتافنا. كنّا، بهذه الوضعيّةِ، لنشكّل لوحةً بديعةً على غرار بول وفيرجيني في خليج تومبو[1]. وعلى مبعدةٍ يسيرة منا، كان بوتالا يشاهد مرورنا، متوارياً بين نباتاتِ الدّيداء.

وصلنا إلى المخيّم. كنت أشعر بالخزي لأنّني استسلمتُ لغضبي وخُنت ثقة سوزان. تذكّرتُ وصولنا إلى جزيرة بلات، حينَ رأينا، من متن سفينة خفر السّواحل، الشاطئ القاسي، وألواح البازلت حيث تتكسر الأمواج، والزورق الذي بدأ برحلة النّقل المكوكيّة. انتابني انطباعٌ أنّ ذلك قد حدث في الطرف الآخر من حياتي، وفي الوقت نفسه، كنت أحفظ كلّ تفصيلٍ فيه، وكلّ نبضة. ثمّ تذكّرتُ جاك وسوزان على متن لافا، هو في قمّة شبابه وأناقته، مرتدياً بذلة الفلانيل الرّمادية وصداراً، ومنتعلاً حذاءه الأسود الملمّع بعناية. وهي في فستانها الطويل من قماش الأورجانزا، المزرّر حتّى العنق، وقبّعتها البيضاء المثبّتة بمشبكٍ في عقصة شعرها الذهبيّة السّميكة.

وما هي إلّا لحظاتٌ حتّى خرجت سوزان من الكوخ. كانت قد اغتسلت وسرّحت شعرها القصير، فكان مُبتلاًّ بعدُ. وكانت تمشي حافيةً على الأرض، متحمسّةً واثقةً، فبدت مثل شابةٍ أمريكيّة من

(1) إشارة إلى الرّسوم واللّوحات التي زيّنت طبعاتٍ مختلفةً من الرواية الشّهيرة «بول وفيرجيني» للفرنسيّ جاك هنري بيرناردان دو سان بيير Jacques-Henri Bernardin de Saint-Pierre أو استُلهمت من مشاهدها وأحداثها التي تدور في خليج تومبو بجزيرة موريشيوس.

المستوطنين الأوائل، أو مثل فتاةٍ من البوير[1]. وبينما كنّا نتجادل أنا وجاك، كنسَت ورتبّت كلّ شيء. وعلّقت قطعة قماش عند المدخل كستارة، وأشعلت النّار، ووضعت فوقها بعض الأرزّ. كم هي رائعة! لقد نجحت في منح هذا الرّكن من التعاسة أجواءَ كوخٍ إنجليزيّ. وقد لمس ذلك كلّه قلب جاك، فذهب ليجلس بجانبها في ظلّ الخيمة. ثمّ طلبت إليّ بإيماءةٍ أنْ أنضمّ إليهما.

- تعال، اجلس هنا، أين سوريا؟

كان لصوتها نبرةٌ مرحةٌ كأنّ كلّ ما عشناه كان طبيعيّاً.

- لا أعرف. ربّما عبرَت إلى الطرف الآخر.

شعرتُ بالقلق ثانيةً، خشيتُ أنّ كلّ شيء قد ينهار في أيّة لحظة، وأنّ سوريا قد ترحل إلى الأبد.

وسرعان ما نسيَتْ سوزانُ أمرَها. وبدأَت تتحدّث عن شيء آخر، عن موريشيوس، وعن العائلة، وآنّا، ابنة لويس، حفيدة كبير العائلة، التي وُلِدت في أبريل الفائت، ويقولون إنّها سمراءُ مثلي.

كنت أستمع إليها، وتذكّرت أنّ هذا كلّه، قبل شهرٍ واحدٍ فقط، كان يبدو غايةً في الأهميّة عندي. كنت أنظر إلى ألبوم الصّور أيّام شبابها، وصور عائلة موريل، والبيت في سيلاوس[2]. وكان جاك يحتفظُ بصورتها وهي تتناول القربان المقدّس للمرّة الأولى، إلى جانب رسالةٍ صادقةٍ كتبتْها إليه، وإنْ شابتها بعض الأخطاءِ الإملائيّة: «سترى يا

(1) Boers: جماعةٌ من المستوطنين المسيحيّين الهولنديّين والألمان والفرنسيّين الذين هاجروا إلى جنوب أفريقيا بين القرنَين السابع عشر والتاسع عشر. وظلّت التّسمية تُطلَقُ حتّى اليوم على أحفادهم.

(2) Cilaos: اسم بلدة في جزيرة لاريونيون.

حبيبي، حين نذهب إلى هناك، ستكون ساعة المصالحة قد حانت».
كانت طفلةً صغيرةً عاقلةً، جادّةَ النّظرةِ، بشعرٍ طويلٍ وجبينٍ عالٍ.

إنّني لستُ هنا إلّا من أجلها. وقد بقيتُ كرمى لها. إنّها عائلتي الوحيدة، هي التي لم تكنْ سوى أجنبيّة، طالبةٍ في مدرسة بنات المحاربين القدامى ممّن حصلوا على وسام جوقة الشرف، ترتدي زياً مخطّطاً بألوان قوس قزح؛ شابّةٍ ريونيّةٍ هاجرت إلى باريس، إلى حيّ مونبارناس، وقطعت على نفسها عهداً بأنْ تكون لأخي وهي لا تزال في الرّابعة عشرة من عمرها. أُحِبّها ولن أقوى على نسيانها. وهذا ما يغضبني، ويملأ عينَيّ بالدّمع.



حين ينحسر المدّ، تمضي سوريا للصّيد على طول الرّصيف المرجانيّ. هذا هو الوقت الذي يخبو فيه الضّوء وتهدأ الريح. هي الآن مع الطيور؛ النوارس والمَكاو وبلشون القطعان الآتيةِ من صخرة لوديامو. تمشي سوريا بينها على الشّعاب المرجانيّة، محاطةً بصرخاتها، مثل إلهة بحر، كما رأيتها أوّلَ مرّة، ناحلةً طويلةً القامة تمشي بخفّةٍ على صفحة الماء، وتلوّح بالحربة، وتضرب في الماء لتسحب منه الأخطبوط فتلتفّ أذرعه حول عصا الحربة. وبحركاتٍ دقيقة، تفعل ذلك الشيء الرّهيب المتمثّل في قلب الأخطبوط كما يُقلَب الجَيب، ثمّ تربطه بحبل الكاذي حول خصرها، مثل علم ملوّن. كلّ شيءٍ جميلٌ هنا، وحيدٌ وصامت إلى حدٍّ يمزقُ أعماقي. إنّها صورةٌ هشةٌ ستمّحي عمّا قريبٍ ولن أتمكن من إنقاذها.

على الطّرف الآخر من البحيرة، في جزيرة بلات، أضحت بيوت الكرنتينة أطلالاً عبثيّةً. ثمّةَ عددٌ قليلٌ من الأطفال يسيرون على طول الشاطئ المرجانيّ. وإلى الأبعد قليلاً، لمحتُ رفيق سوريا الأثير شوتو، عازفَ النّاي الذي تسميه «الرّب كريشنا». وفي نهاية الشاطئ، ثمّة طيفٌ طويلٌ، أخرقُ المِشيةِ نوعاً ما يجمع الأخشاب الطّافية من أجل النار. عرفتُ فيه أوكا الكناس، الذي أراد أن يسبح عبر المضيق، ويختفيَ في البحر. وهناك أيضاً نساءٌ يرتدين أثواب الساري، منكبّاتٌ على ملء أكياسهنّ بالصّدف كي يصنعن به ماء الجير.

أشـعرُ بالسّـكينة والسّـعادة. لقـد كان فـيران الفاسـد مخطئـاً، ولم يفهـم شـيئاً. إذ لجـأ إلى أعـلى حِصنـه مسـلحّاً بمسدّسـه في انتظـار الهجـوم، لكـنّ الهنـود اسـتولوا عـلى الجزيـرة بـلا ضجيـج، ودون أن يطلقـوا صيحـةَ تهديـدٍ واحـدة، بـل، ببسـاطة، عـبر حركـةِ النسـاء بإيقاعهـا البطـيء، ولَهـوِ الأطفـال. تفحّصـوا المنحـدرات كـي ينشـئوا حقـولاً جديـدةً لـزرع خضرواتهـم، وسـحبوا الميـاه مـن الصّهاريـج لسـقْيِ مشـاتل الأرُز. هكـذا تحوّلـت شـفةُ الـبركان السـوداء إلى جزيـرةٍ داخـل الجزيـرة، ولم يعـد بإمـكان فـيران الخـروجَ منهـا.

عـبرَ قـاربُ المُسـنّ مـاري البحـيرة وئيـداً في الشّـفق. كان رجـلٌ يقـف في مقدمّتـه والمُـرديّ في يـده. عرفـتُ فيـه طيـف بارتـولي. أوقـفَ مـاري القـارب وحانـت لحظـةُ إنـزالِ الرّاكـب وممتلكاتـه. وضـعَ بارتـولي قدمـه عـلى لسـان الرّمـل الـذي عـرّاه المـدّ. رآنـا لكنّـه لم يلـوّح ولم يومـئ. كان يحمـل كيـس الأرُزّ عـلى كتفـه ويتّجـه إلى المخيـّم. الآن صـار فـيران وحيـداً أعـلى بركانـه، متمترِسـاً خلـف جـدار الحجـارة المرصوفـة المتـآكل بفعـل الرّيـح، يترقّـب حلـول اللّيـل واشـتعال النـيران في خليـج باليسـاد، موقـداً هـو الآخـر نـاره مـن حطـام الصناديـق والأخشـاب الطافيـة التـي جمعهـا مـن تجاويـف الصخـور البازلتيّـة. لقـد نـسيَ أمـرَ جهـازه الهيليوتـروب، ولم يعـد يرسـل إشـاراتٍ إلى موريشـيوس ولا بوانـت أو كانونييـه. صـار يجلـس هنـاك كلّ ليلـة، يشـاهد ألسـنة اللّهـب وهـي تتمايـل في العاصفـةِ مطلقـةً وابـلاً مـن الـشّرر. كان يراقـب بنظرتـه الفارغـة، كأنّ النّـار تقـف جـداراً منيعـاً أمـام خوفـه، وأمـام جيـش العـمّال، وقُطّـاع الطـرق، يسـهرُ والنـار تحـرّقُ حاجبيـه، ومسدسُـه عـلى صخـرةٍ، في متنـاول يـده. لقـد تسـلّلت

النــار إليــه، النــارُ هــي حُمّــاه وجنونُــه الــذي يلتهمــه ويغذّيــه في آنٍ معــاً.

عــادت ســوريافاتي مــن الشّــعاب المرجانيّــة وحــول خصرهــا حزامُهــا مــن أســماك الأخطبــوط. وفي عينَيهــا نظــرةٌ غريبــةٌ بلــون قــرص الشّــمس نفســه حــين يغــرقُ في الأفــق بــين الجــزر. وضعَــت صيْدهــا. فانبســطَت الأخطبوطــات عــلى الرّمــل، وتفتّحــت أزهــاراً ملوّنــةً، بينــما كان سربٌ مــن ذبــابِ الشَّــعْراء يطــنّ حــول السّــكين. إنّــه مشــهدٌ عنيــفٌ وعــاديّ. قطّعــت ســوريا الأخطبوطــات، ثــمّ نزلــت إلى المــاء كــي تغتســل، كأنّهــا تــؤدّي صــلاة. وسرعــان مــا التفتَــت نحــوي ونادتنــي: تْهايــي، مــيرا تْهايــي[1]....

وحــينَ لاحظَــت تــردّدي، أخذتنــي مــن يــدي وجرّتنــي إلى المــاء. لم يكــنْ ثمّــةَ فــرقٌ بــين الهــواء والمــاء، كلاهمــا خفيــفٌ عديــم اللّــون، وبالــغ العذوبةِ. انزلقنــا معــاً إلى البحــيرة، يغمرنــا المــاء الشّــفيف بضبــاب الأحــلام.

هبــطَ اللّيــل، فاجتــاح المــدّ البحــيرةَ بأنفاســه. لم يســبق لي أنْ شــعرتُ بــه عاتيــاً إلى هــذا الحــدّ. كان تيّــاراً مندفعــاً يجــرفُ كلّ ســدٍّ. عانقَتنــي ســوريا، وســاقاها ملتفّتــان حــول ســاقَيّ، ويداهــا معقودتــان حــول عنقــي. كان وجههــا قريبــاً كلّ القــرب منّــي، فتأمّلــتُ عينَيهــا الواســعتَين، وشــعرها إذ يطفــو حولهــا وينســاب عــلى وجهــي مثــل عشــب البحــر. كانــت تتحــدّثُ بهــدوءٍ، بلغــة الدوميّــين السريّــة، هامســةً بكلــماتِ اللّصــوص الذيــن يدخلــون البيــت، بأغنيــة لايــي التــي كانــت أنانتــا تهدهِدهــا بهــا (شــورم، كالا شــالو غــول لاييــه، أيّهــا اللّــصّ، أيّهــا اللّــصّ، فلندخــل هــذا البيــت...)

شــدّتني إلى قــاع المــاء فيــما يشــبه لعبــةً، وأنا أيضــاً غمــرت رأســها في الماء، إلى أنْ شــعرنا بالاختنــاق. بــدت جزيــرة بلات من طــرف البحــيرة الآخر مجرّد

(1) Mera: ضمير الملكيّة للمتكلّم في اللّغة الأرديّة.

صخـرةٍ داكنـةٍ تقـوم في وجه السـماء الذهبيّـة. كانت موجـة المـدّ تدفعنا بلطف عـلى طـول الضّفـة الرّملية، وسْـطَ تيّارٍ أشـبه بنهـرٍ كبير.

غَرُبـت الشّـمس فتخيّلـتُ أنّنـي في يامونـا، حيـث غطّسـت جيريبـالا أنانتـا بعـد أنْ انتشـلتها مـن المـوت. كانـت سـوريا تمـضي بي في النّهـر، في مياهـه العذبـةِ المتدفّقـةِ بـين أنقـاض العـالم، ملتصقـةً بي، وجذعُهـا يمتـدّ باسـتقامة خـارج المـاء. جنحنـا نحـو الضّفـة الرّمليـة فشـعرنا بلمسـة أسـماك الرّمـل التـي تجـرّأت وعضّتنـا. كنّـا وسْـط المـاء في قلـب البحـيرة، فـوق لسـان الرمـل، والجُـزرُ تمتـدّ في البعيـدِ أمامنـا ظـلالاً سـوداءَ تنسـاق مـع التيّـار. مـرّت بعـضُ الطيـور قادمـةً مـن صخْـرة بيجـن هـاوس: البلشـون المخطّـط الحزيـن الـذي حلّـقَ ملامسـاً صفحـة المـاءِ، وأسرابٌ مُسرعـةٌ مـن الكـروان والمَـكاو كانـت تتقلّـب في الفضـاء ثـمّ تفـترق زاعقـةً، كـما لـو كنّـا وإيّاهـا آخـرَ سـكّان الأرض.

دفـع المـدّ أنفاسـه إلى البحـيرة. ففـاض المـاء فـوق الشّـعاب المرجانيّـة ولم نعـد نلمـس القـاع، وسـبحنا مـن غـير أنْ نفـترقَ نحـو شـاطئ غابريـال.

ثـمّ خرجنـا مـن المـاء إلى عتمـة اللّيـل الحالكـة، كنـا نرتجـف عـلى الشـاطئ. وفي ظـلّ غابـة الكزورينـة أوقـدتُ نـاراً بالخشـب الجـافّ وأوراق الشّـجر الإبريّـة. ابتلّـت أعـواد الثقّـاب التـي بحـوْزة سـوريا، فـكان علـيّ أن أركـض إلى المخيّـم للعثـور عـلى المزيـد. وحـين وصلـتُ تعثّـرتُ ببعـض آنيـة المطبـخ، فخـرج أحدهـم مـن الكـوخ. ظننـتُ للحظـةٍ أنّـه جـاك، ثـمّ تبـيّن لي أنّـه بارتـولي. نسـيتُ أنّ جوليـوس فـيران بقـيَ عـلى قمّـة الـبركان، فعدّلـتُ قامتـي متأهّبـاً لأيّ طـارئ. سـأل بارتـولي:

- مَن هناك؟

أتـراه هـو الآخـر مسـلّحاً وأتـى ليقيـم هنـا نقطـةَ مراقبـةٍ ضـدّ الهنـود؟ أيّـاً كانـت الإجابـة فقـد دمْدَمْـتُ:

- أعوادَ ثقاب!

لم يبدِ اعتراضاً:

- آه! حسناً!

ثمّ سمعته يتوجّه إلى جاك.

- إنّه أخوك، جاء يطلب أعواد ثقاب.

هـل كانـت سـوزان نائمـة؟ للحظـةٍ ظننـتُ أنّهـا قادمـة، ثـمّ سـمعتُ صـوت جـاك يسـتأنف محادثـةً متقطّعـةً مـع بارتـولي. كانـا يتحدّثـان عـن المغـادرة، والإجـراءات التـي ينبغـي اتّخاذهـا، والرسـالة الشّـهيرة التـي سيرسـلانها إلى الحاكـم. ثـمّ تابعـا لعبـة الشّـطرنج التـي كان قـد قطعهـا جنـونُ فـيران ورحيلُنـا إلى غابريـال. سـمعتُ جـاك يقـول بفتـور: «كِـش مـات»، وكأنْ لا شيءَ ذا بـالٍ قـد حـدث.

ركضـتُ عائـداً إلى غابـة الكزورينـة بقلـبٍ منفطـر. أحسسـتُ أنّ أمـراً مـا يوشـك أنْ يقـع، حدثـاً يُستَشـعَرُ قدومُـه رغـمَ أنّـه عـصيٌّ عـلى التحقّـق، رعشـةٌ، أو تغيـيراً مـا. وهـذا مـا يجعـل قاعـدة الجزيـرة تهتـزّ ليـلَ نهـار، ويمنعنـي مـن النّـوم.

كنـت مشـوّش الذّهـن إلى حـدّ أنّنـي لم أهتـدِ إلى سـوريا. وخشـيتُ للحظـةٍ، وبخـلاف مـا هـو متوقّـعٌ، أنْ تكـون قـد غـادرت، وأنّ العبّـار جـاء ليقلّهـا في قاربـه ويعيدَهـا إلى الطّـرف الآخـر.

مشـيت عـبر الشـاطئ، دون أن أُبصر، مناديـاً بصوت حزين: «بِهِـن! أوهيه، بِهِن!» أسـكتتْني: «ششـش!» كانـت جاثيةً قرب مياه المدّ تغسـل الأخطبوطات.

وحين تأجّجت النار، وضعَت أطراف الأخطبوط على شبكٍ أخذ يُطقطق في اللّهب. فجذبَت رائحتُه مُريامه وبوتالا. اقتربا بصمت، وَرَبضا أمام النّار وعيونهما تلمع مثل الجمر. كانا يتضوّران جوعاً. تقاسمنا الأطراف المشويّة والملتوية مثل قصاصات من الجلد، بعد خلطها بالأرزّ البارد، وأكلنا في صمتٍ تامٍّ قرب الموقد. وبعد أنْ تلقّينا بردَ البحر، لفحَنا لهيب النّار وقِطع الأخطبوطِ المشتعلةِ فوقه. كانت وليمةً لم أشهد مثلها قطّ.

لم تتكلّم مُريامه. كانت تنظر إلى النّار وهي تخبو، وبين الفيْنة والفيْنة تدفع بأصابع قدمَيها الفحم المتناثر. ولمّا فرغ بوتالا من طعامه، عاد ليجلس في الدّغل، مُستنفَراً مثلما هو على الدّوام.

لفّت سوريا نفسها بشالٍ أحمرَ كبيرٍ غطّى شعرها ووجهها. وما زال ثوبُها الذي بلون البحر مبللاً وملَطخاً بالرّمل والرّماد. ولمّا انتهت، ذهبت لتغسل وعاء الأرزّ في البحر، ثمّ ملأته مرّة أخرى بالأرزّ وقطع الأخطبوط، وناولتْني الطبق «هاكَ بهايْ، هذا لأخيك وسوزان»، قالت بهدوء تامٍّ، وكأنّه الشّيء الأكثر طبيعيّة في العالم. ثمّ وضعت بعض الأرزّ وآخر بقايا الأخطبوط في قطعة قماشٍ أحكمَت ربطها من الزوايا الأربع، ووضعَتها كأعطيةٍ على الحجر المنبسط، عند عتبة جُحر سارة ميتكالف.

ذهبتُ لأنتظر سوريا في مكاننا المعتاد، تحت التّلعةِ حيث طيور رئيس البحر تتّخذ أوْكارها. وصنعتُ ما يشبه حَشِيّةً مُستعيناً بورق الكزورينة. وقد شكّل هذا، مع خيمة الشّادر، كهفاً معتدل الحرارة،

أشبه ما يكون بعشّ الطيور. من هنا، أسمع بوضوح الاهتزاز المتصاعد من قاعدة الجزيرة، تلك الضجّةَ الشبيهة بطرقِ الحديد، أو حتّى بفوران الدّم. كانت طيور رئيس البحر قد عادت إلى أوْكارها فوقنا، على سفح التّلعة، وقد اهتاجت مع وصولِ سوريا، فأخذت تصفّق بأجنحتها وتسقسق، واحدٌ أوّلا ثمّ اثنان، ثمّ انتفضت مستعمرة الطيور بأكملها في غابريال.

تسلّلَت سوريا إلى الملجأ، وتمدّدت ملتصقةً بي، فشعرتُ ببرودة البحر في صدرها وساقَيها. قالت: «هي لا تريدنا، تطالبنا بالرّحيل، والعودة إلى حيث كنّا!»

كانت تعلمُ أن يوم العوْدة قد اقترب. لم نتحدّث في الأمر، لكنّي أحسستُ أنّها تخشاه مثلي.

بقينا ساكنَين متعانقَين، لا نكاد نتنفّس، إلى أنْ هدأَت الطيور.

كان ليلاً بارداً. أحسستُ برعشةٍ تصعد من الحجارة السوداء. كنّا محاطَين بعالمٍ من جمودٍ، حادٍّ وصلب، ونحنُ فيه فائقا الهشاشة. وحدَها الطيور مَن يحقّ لها العيش هنا، بعيونها الحادّة التي لا ترمش أبداً. فهي لا تنام ولا تحلم البتّة.

شعرتُ برأس سوريا المتثاقلِ على كتفي وسمعتُ أنفاسها المُتراخية. نامَت على صدري كطفلةٍ مهجورةٍ في هذا الملاذ الضيّق الشبيه بتجويف الزّورق. كان ذلك فائق العذوبةِ، ولست أدري لماذا كان في الوقت ذاته يخنقني ويسرّع نبضات قلبي. قالت هامسةً حتّى لا تنتبه جيراننا: «بهايْ، لقد هدّني التّعب. ما الذي سيحلّ بنا؟ أتمنّى لو تدوم هذه اللّحظة إلى الأبد».

أنـا أيضـاً كنـت قلقـاً خائفـاً ممّا سـيأتي؛ مِـن القـارب الـذي سـيغادر يومـاً مـا، لا أعنـي مركـب خفـر السّـواحل الصّحـيّ، وإنّـما بواخـر ميسـاجري الضخمـة، تلـك المُـدُن المعدنيّـة ذات المداخـن، تلـك المراكـب التـي تحمـل أسـماء الأنهـار وكانـت فيـما مـضى تُلهـب مخيّلتـي، **لافـا، أمـازون، جيمنـا، يانـغ تـسي، بيهـو، وإيـراوادي**. كنـت أحفـظ عـن ظهـر قلـبٍ محطّاتهـا ومواعيـد انطلاقهـا. والآنَ صرت أرتعـش كلّـما تبـادرت إلى ذهنـي.

ربّـما لم يبـقَ أمامـي سـوى أنْ أسـتقلّ السّـفينة مـن جديـدٍ عائـداً إلى أوروبّـا، إلى المـدن الصّاخبـة، مرسـيليا وبـوردو وباريـس ولنـدن. لم تبـكِ سـوريافاتي حـين ماتـت أمّهـا. ولم تقـل أيّ شيء. لكنّهـا لّمـا قَدِمـت إلى غابريـال وصـارت زوجتـي، أتـت عـلى ذكـر لنـدن، فقـط لتعلمَنـي أنّهـا مـن دون أنانتـا، لـن تذهـب إلى أيّ مـكانٍ أبـداً.

ولكـن إلى أيـن سـأمضي؟ إلى لنـدن؟ هـل لهـا وجـودٌ مـن دون سـوريا؟ ومـع ذلـك، فقـد حلمـت أنّني أصطحبهـا إلى هنـاك، وأنّنـا نسـير في شـوارع المدينـة، مثـل السـيدة آوودا بـين ذراعـي فيليـاس فـوغ[1]، وسـوريا ترتـدي فسـتانها الطويـل بلـون البحـر، وشـالُها الـذي بلـون اللّهـب عـلى رأسـها، وقطـرةُ الذّهـب في طـرف أنفهـا، وأسـاورها النحاسـيّة حـول ذراعيهـا، تسـير مثـل أمـيرةٍ بـين هـؤلاء النـاس المتشـابهين جميعـاً، المُطرِقـينَ تحـت مظلّاتهـم السـود، وسـط العربـاتِ، ودخـان الحمّامـات العامّـة، والمصانـع عـلى طـول الشـوارع المكسـوّة بالثلـج، في شـيفردز بـوش، وبايزوتـر، وإليفانـت آنـد كاسـل.

---

(1) إشارة إلى شخصيّة أوودا، الأميرة الهنديّة الأوروبيّة في رواية «حول العالم في ثمانين يوماً» لجول فيرن، والعلاقة التي ربطتها ببطل الرّواية فيلياس فوغ.

لكنّـي لا أريـد التّفكـير في الأمـر بعـد الآن. أريـد فقـط أن أعيـشَ هـذه اللّحظـة، وأشـعرَ بأنفـاس سـوريا قـربي، وبرأسـها المتثاقـل عـلى كتفـي، وأستنشـقَ عطـرَ جسـدها المرهَـف، مصغيـاً إلى هديـر المـوجِ الـذي لا ينقطع، وحفيـفِ الرّيـح، وسقسـقةِ طيـور رئيـس البحـر التـي تسـهر مراقبـةً.

مـا مـن آتٍ ولا غـدٍ. لا بـدّ أنّ اللّيـل أبـديّ، يـدور وئيـداً مـع النجـوم حـول المحـور المغـروس في قلـب الجزيـرة، مثـل صـاري عمـود الإشـارة القديـم.

أنانتـا هـي مـن أردتُ رؤيتهـا ومـا زلـت. كـما لـو أنّ كلّ شيءٍ هنـا قـد بـدأ بهـا.

في ذلــك الزّمــن كانــت بنايــات الكرنتينــة في جزيــرةِ بــلات جديــدةً تمامــاً: جــدرانُ الحمــم البركانيّــة المتماسـكةُ قبالـةَ البحـيرة، والرصيــفُ أمامهــا، والصهاريــجُ المهيّــأة لاســتقبال ميــاه الأمطــار، والمنــارةُ المضــاءة كلّ ليلــة في أعــلى الـبركان. وفي خليـج باليسـاد، كان مخيّـم المهاجريـن نظيفـاً مثـل معسـكرٍ، بشـارعه الطويـل المسـتقيم الـذي يصـل بـين سـاحتَين، كلّ منهـما يتكـوّن مـن سـتة بيـوتٍ مشـتركة، مسـاحةُ الواحـد منهـا زهـاء عشريــن قدمــاً في عــشرة أقــدام، وتفصــل بينهــما حجـرةُ المطبـخ، وتحيـط بهـما ظُلَـلُ سـعف النخيـل التــي تُســتخدم كمســتودعات، وحيثـما وليّــتَ وجهـك ثمّـة مـزارعُ جـوز الهنـد وقصـب السّـكّر، وبســاتينُ متدرّجــة، نظيفــةٌ ومخدومــةٌ بممــرّات. وبــين شــطريّ المخيــم، يمتــدّ الرصيــف المنحنــي المشـيّد مـن كتلٍ كبـيرةٍ مـن البازلـت، ليتيـحَ النزول إلى الشــاطئ في أيّ وقــت. وعــلى الجانــب الآخــر مـن البحـيرة، وفي أعـلى قمّـة جزيـرة غابريـال، كان صـاري عمـود الإشـارة يرتفـع عاليـاً حامـلاً شـعلةَ الإمبراطوريــة البريطانيــةَ الحمــراء.

لكـنْ، أليـسَ مـن المحتَمَـل أنّ شـيئاً مـن هـذا كلّـه لم يوجـدْ حقّـاً؟ أيكـون مجـرّدَ رسـم عـلى أوراق جغـرافيٍّ حكومـيٍّ يُدعـى كـوربي، كـي يمحـوَ بـه مـن الأذهـان المشـهد الرّهيـب للرّجال والنسـاء الذيـن تُركـوا وحدهـم ليواجهـوا مصيرهـم عـلى الجزيـرة قبلهـا بعـام واحـد؟

في الأيـام التـي تلـت نـزول المهاجريـن عـلى الجزيـرة، ظلّت السـماء محتفظـةً بصفائهـا، والرياح تهـبّ برفـق. عاشـت جيريبـالا ومـاني في البيـت الأول المخُصّـص للنسـاء الوحيـدات في المخيّم، في ظـروفٍ أفضـلَ ممّـا وجدتـاه في بهوانيبـور. وكانت أنانتـا تـردّد مـن وقـتٍ إلى آخـر: «متـى سـنغادر؟» فقد كانوا ينتظرون قرار الحكومة.

تَوقّـف الوبـاء. وعُـزِل أفـراد السـيبوي في غابريـال عـلى الطّـرف الآخـر مـن البحـيرة، في ملاجـئ أُعـدّت مـن الأغصـان والأوراق. كانـت جيريبـالا تصطحـب أنانتا مسـاءً إلى الجهة الأخرى مـن الـبركان، فتريـا النيران المشـتعلة على الشـاطئ في إشـارةٍ إلى وجـودِ المحكومـينَ هنـاك. كانـت الأخبـار المتداولَـةُ جيّدة. قالـت ماني إنّـه قبل نهاية الأسـبوع سـيقلّهم القـارب إلى موريشـيوس لبـدء العمـل في حصـاد القصـب.

متى أدركَت جيريبالا ما حدث؟ هل وُجِدَ في الجزيرة شاهدُ عيانٍ عليه، عجوزٌ مجنونةٌ مثلاً، كانوا قد نسوها، واختبأَت في الغابة حينَ جاء القارب بحثاً عن الناجين؟ سارت جيريبالا برفقةِ أنانتا على طول الشاطئ، عابرةً الّدروب وسْط الشجيرات. كانت هناك آثار محارق في كلّ مكان على امتداد الشطآن، وصولاً إلى شمال الجزيرة. وكان الناس في المزارع القديمة يدوسون على رفاتِ العظامِ أثناء سيرهم.

لم تعد ماني ترغب في الخروجِ من مخيّم باليساد. فقد رأت هياكل عظميّة نصف محترقة، وشقوقاً انفتحت في العاصفة كاشفةً عن جماجم بشريّة. وحتّى في المقبرة، جنوبَ الجزيرة، كانت هناك عظامٌ محترِقةٌ وسط القبور.

ذات مساء، ذُكِرَ اسم السفينة ليداريه. كانت امرأةٌ قد التقت بالمجنونة واستمعت إليها، فروَت ما حدث قبل ثلاثة أعوام: حكايةَ النّاس الذين تركتهم السفينة على الجزيرة، ربّما بسبب عواصف هوجاء، أو لأنّ أصحاب المزارع في موريشيوس خشوا موجةَ

تمـرّدٍ مثـل تلـك التـي كانـت قـد بـدأت تـوّاً في الهنـد. ظـلّ المهاجـرون في الجزيـرة ينتظـرون يومـاً بعـد يـوم، وأسـبوعاً بعـد أسـبوع. لم يكـن لديهـم مـا يقتاتـون عليـه، فحفـروا الأرض بأظافرهـم لاقتـلاع درنـات البطاطـس الحلـوة. وكان أطفالهـم يغرقـون قـرب الشّعاب المرجانيّـة وهـم يبحثـون عـن المحـار. ثـمّ استقرّت الإلهـة البـاردة عـلى الجزيـرة، وأخـذت تحصـد الجثـث كلّ ليلـة.

وبـدأ الناجـون يشـعلون النـيران عـلى الشـاطئ لإحـراق الموتـى، ولإرسـالِ إشـارةٍ بطلـب المسـاعدة مـن سـكّان موريشـيوس. لكـنّ أحـداً لم يـأتِ. إلى أنْ مـات أغلـب المهاجريـن في الجزيـرة، إنْ لم يكـنْ جميعهـم.

كانـت جيريبـالا تصغـي إلى هـذه القصّـة مرتعـدةً، فضمّـت أنانتـا بشـدّة. إذ أحسّـت كـما لو أنّهـا أوقعَتهـا في فخّ. ومنـذ تلك اللّحظـة باتَ لكلّ شيءٍ مـن حولهـا طعـمُ الرّمـاد ولونُـه.

إلّا أنّـه بعـد أيـام قليلة، جـاء قـارب الخدمات الصحّيـة. وصـل في البحـر الهـادئ عنـد الظّهـيرة تقريبـاً، ورسـا أمـام خليـج باليسـاد، وأرسـلَ أحـدَ زوارقِـه إلى السّـد، وعـلى متنـه ضابـطٌ

إنجليـزيّ، رجـلٌ طويـل القامـة متـين البُنيـة، ذو لحيـة شـقراءَ جميلـةٍ تلتمـع بنـور الشـمس، وبذلـةٍ بيضـاءَ غايـةً في الأناقـة. أخـرج دفـتراً أحمـر كبـيراً مـن حقيبتـه، ووقـف عـلى السّـدّ، وأخـذ يتلـو الأسـماء والأرقـام التـي كان متعهـدو العمّـال يردّدونهـا وراءه صائحـين.

وفجـأة، ولسـببٍ غـير معـروف، هربَـت أنانتـا. انطلقَـت تركـض عـبرَ الشّـاطئ الملتهـب شـاقّةً طريقهـا بـين النـاس المنتظريـن، لاهثـةً دامعـةَ العينَـين. سـمعتْ صـوتَ والدتهـا تناديهـا، وتصيـح باسـمها مطيلـةً المقطـع الأخـير أنانتـاا! كانـت تجـري عـلى طـول الـدّرب نحـو الـبركان، وتقفـز مـن صخـرة إلى صخـرة، سريعـةً مثـل جَـدْيٍ، وسـيقانُ الحشـف تجـرّحُ وجههـا. كانـت تجهـلُ أيـن تقودهـا خطواتُهـا، وتجهـلُ سـبب هروبهـا. وبحثَـت عـن مـكانٍ تختبـئ فيـه، تجويـفٍ بـين الصخـور، أو حفـرةٍ في الأرض تتـوارى فيهـا، فـلا يهتـدي إليهـا أحـدٌ. فكـم مـن أمـورٍ خطـيرةٍ حدثـت؛ الكثـير مـن الموتـى، وهـذه الشـمس الحارقـةُ عـلى شـاطئ باليسـاد، ومـن قَبلهـا الانتظـارُ في قلـب المركـب. تتذكّـر أنانتـا، بقـدرِ مـا تسـتطيع الرّجـوعَ في ذاكرتهـا، أنّهـا

لم تتوقّف يوماً عن التنقّل والهرب وانتظار القوارب والسيرّ على الطرقات. والآن لم تعد تريد أن تسمع هذا الرّجل ينادي الأسماء، لم تعد ترغب في ركوب القارب بعد الآن، ولا في الذهاب إلى ذلك البلد، ميريش ديش، تلك الجزيرة التي لا يعود منها أحدٌ.

ولعلّ ما أرادته حقّاً هو أن تأخذها الإلهة الباردة كما أخذت الصبيّ على متن إشكندر شاو أثناء نومه، معيدةً إيّاها إلى الطّرف الآخر من البحر، عند مصبّ النّهر العظيم، إلى صدر مربيّتها حيث يمكنها أنْ تغفوَ أخيراً، بينما صيحاتُ القتَلةِ تبتعد وتبتعد، حتّى تختفي إلى الأبد.

عثَرت أناتنا على باب الكهف، في أعلى الجرف بين صخور البازلت. كان جوفاً مُعتماً بين سيل الحمم البركانيّة، مدخلُه نِصفُ مسدودٍ بالشجيرات الشائكة. تسلّلَت أناتنا إليه وقلبها يخفقُ بشدّة، تعَباً من الرّكضِ عبرَ التلّة، وخوفاً. وما كادت تدلف إليه حتّى اعتادت عيناها غبشَ عتمَته. وقد لاحظت أنّ الكهف مسكون. إذ كان هناك ما يشبه مذبحاً في نهايته، صخرةً منبسطةً وُضِعت

عليها بعضُ فاكهةٍ وفطائر، وإلى جانبها إناءٌ من الطّين مملوءٌ بنشارةِ خشب الصندل. وكان ثمّة قنديلٌ مُطفأٌ عند قاعدة المذبح.

كان الكهف هادئاً بارداً، يعبقُ برائحة الدخان والأعشاب، ويُسمع فيه ما يشبه خريرَ ماءٍ خلف الصخرة. شعرتْ أنانتا، بعد هذه السّاعات من الانتظار على الشاطئ الملتهب، والجرْيِ عبر الشجيرات الشائكة، كأنّها وصلت إلى مدخل القصر الذي طالما انتظرته، حيث السكينة والدّعة. أرادت أن تناديَ أمّها، لتطلب منها أن تنضمّ إليها، وأن تأتيَ وتستقرّ في هذا الكهف بعيداً عن القوارب والغرباء، لكنّها خشيَت أن يعثرَ عليها متعهّدو العمل، ويعيدوها إلى السّد. كانت ترتجف من التّعب، والدّموع ملءُ فمها. ثمّ نامت على أرضيّة الكهف قرب المذبح. ولمّا استفاقت، كانوا جميعاً قد ابتعدوا، وكان قارب الرّجل ذي اللّحية الذهبيّة قد حملهم استعداداً لنقلهم إلى الجزيرة الكبيرة على الطرف الآخر. وفكّرت أنانتا أنّ أمّها ستأتي باحثةً عنها، وستعرف كيف تجد الطريق إلى الكهف، فتمكثان فيه إلى الأبد دون خوفٍ من المستقبل.

وكانت السيّدة العجوز التي نعتَها مهاجرو السّفينة إشكندر شو بالمجنونة، هي من عثرت على أنانتا في الكهف قبلَ المغيبِ. فجثتْ بجوارها ولمَست وجهها كي توقظها، ولمّا رأت أنّها خائفة، طمأنَتها قائلةً:

- إنّك تشبهين ابنتي.

فقالت أنانتا حين طالعت الحُزن في ملامح العجوز:

- هل ماتت؟

حكتْ لها العجوز ما حدث، حكايةَ الناس الذين أتوا إلى هنا على متن المركب وتُركوا وحدهم، والإلهةِ الباردةِ التي أخذتهم واحداً تلو الآخر. كانت ابنتُها من بين أوائل الموتى، وقد أحرَقَت جثّتَها على الشاطئ. ثمّ لجأَت إلى الكهف. ولمّا عاد القارب بعد شهور، لم تشأ المغادرة من دون ابنتها. فاختبأَت كي لا يعثروا عليها.

لم تعد أنانتا خائفة. أخذتْها المجنونة إلى خليج باليساد، فتبِعتْها البنتُ دون اعتراض. كانت السماء ذهبيّة، والبحر برّاقاً، حيث كلّ موجةٍ فيه تلتمع كأنّها شرارة. وكان آخر الرّكاب ينتظرون أمام الزّورق، على السّد.

عرفت أنانتا طيف أمّها. فهبطت المنحدر على مهلٍ، زامّةً عينيها بسبب الضوء، ثمّ ركَضَت عبر الدّغل، قافزةً من صخرة إلى صخرة. ولّما وصلت إلى الشاطئ، عانقتْها جيريبالا بقوّة. نفد صبر الضابط الإنجليزيّ الواقف على السّدّ، فصعدتا أخيراً إلى الزّورق وجدّف البحارةُ مندفعين في الموج. جالت أنانتا ببصرها على الشجيرات عندَ سفح البركان. لكنّ العجوز لم تكن هناك.

لم أستَطع النـوم. وفي لحظـةٍ ما، تسـلّلتُ خـارج الملجأ، مـن دون أن أوقظ سـوريا. زحفـتُ ببـطءٍ شـديدٍ عـبر الصخـور كـي لا أسـتثير الطيـور. كانـت الرّيـح عاتيـةً، فبحثـتُ عن مأوى وسْـط حقل البازلـت لأتأمّل السّـماء والبحر في صفـاء اللّيـل المزيّـن بالنجـوم. وقد لمحـتُ في الأفـق وميضاً متقطعّـاً ينبعث مـن منـارة لابوانـت أو كانونييـه، وإلى اليسـار منـه توهّجـت البيـوت في غران غـوب. بـدا كلّ شيءٍ قريبـاً مألوفاً، وخياليّـاً في الوقت ذاته مثـل خريطةٍ فلكيّة. وفي نسـيم اللّيـل الذي صقلَ صفحة البحـر، أخذتُ أُصغـي إلى صوت ارتطام الموجِ في الشّـعاب المرجانية، وانسـياب البحيرة وهي تصـبّ في القناةِ. ووددتُ لو أُمسـك بهـذا كلّه وأحتفـظ به إلى الأبـد. فقد صـار مِلكي، وحيـاتي، وأصلَ وجـودي. كانـت عينـاي تتحرّقـان مـن التّعـب أو الحمّـى، ووجهـي قاسـياً كحجـر. سـمعتُ نبضَ الدّم في شراييني مختلطاً بهديـر المدّ والجـزر. وتذكّرتُ انبهـاري أوّل مـرّةٍ زرتُ فيهـا هـذه الجزيـرة، ومائي الذي سـالَ عـلى الصّخرة السـوداء ممتزجـاً بالزّبد.

يبـدو ليَ الآن أنّنـي مـا عشـتُ إلّا مـن أجـل هـذا، مـن أجـل العثـور عـلى سـوريا والعيـش معهـا في هـذا الصـدّع بـين صخـور غابريـال، جارَيـن لشـعبٍ مـن الطيـور السّـحرية، ذاتِ العيـون التـي لا يُطبـقُ لهـا جفنْ، نترقّـب معهـا لحظـة انبعـاث الشّـمس مـن البحـر.

انتفضْـتُ حـين لمسـتني سـوريافاتي. فقـد جـاءت دون أنْ تحـدث أيّـة ضجّـة. ربّـما باتـت طيـور رئيـس البحـر صديقتنـا، وتقبّلـت وجودنـا في نهايـة الأمـر. ربّـما أصبحنـا في عدادهـا.

جلسـنا في اللّيـل طويـلاً نتأمّـل البحـر. ثـمّ عدنـا إلى الصّـدع تحـت الخيمـة. «أتَـرى كـم أشـعر بالحـرّ، بْهـاي!» مـرّت سـوريا براحتهـا عـلى

وجهي وعنقي كي أحسّ بحرارتها. غضبت الطيور من حركتنا جيئةً وذهوباً، فعادت تصفِق بأجنحتها مُتجاوبةً، واحداً تلوَ الآخر، حتّى سرى الجنون في المستعمرة بأسرها. فبقينا ساكنَين لا نبدي حراكاً، متلاصقَين، مُتّحِدَي الأنفاس، لا نجرؤ على الضّحك أو الهمْس، حتّى هدأ الصخب.

عِشقُ سورياڤاتي متّقدٌ كالشمس، بطيءٌ هادر كالبحر، حقيقيّ كالريح. كنّا في عشّنا، في موقعنا، متكوّرَين مثل عصفورَين.

لم أشعر قطّ بمثل هذه السعادة من قبل. ما عادَ شيءٌ بعد الآن أسيرَ العقلِ أو الحلم: تكفي حركةُ البحر الذي يقضم قاعدة الجزيرة ويضربها، وحركةُ المدّ والجزر المكّوكيّة البطيئة، وطعمُ الملح على شفاهنا، وفي حلقَينا، والصخرةُ السوداء الفائقة النعومةِ، والغبار الذي ينساب على جلدَينا، ويتسرّب بخفّةٍ بين أناملنا مثل رمادٍ عتيقٍ جدّاً. وصرخاتُ الطيور على القمّةِ، حادّةً، مبحوحةً ونزقةً. إنّها لسانُ الجزيرة الوحيد، في أوكارها تسهر الأزواجُ مراقبةً، وتتطلّع بعينٍ واحدةٍ نحو عتمةِ السماء، منتظرةً طلوع الفجر.

عرفتُ ذلك الارتعاشَ الذي هزّ جسدي. كان هو ما شعرت به منذ اللّيلة الأولى، حين كنت مستلقياً بجوار جاك وسوزان في كوخ باليساد لا أقوى على النّوم. إنّه لا يشبه الضجيج، بل هو خفيضٌ وبطيء مثل ضربات القلب، أو نبضِ الدّم في الشرايين، مثلَ هدير البحر أو حفيف أجنحة الطيور حول صخرة بيجن هاوس. ولا اسم له.

أرخْتُ أذني على صدر سوريا، في تجويف نهديها الفائق النّعومة، فسمعتُه. كان يأتي، ثمّ يتوقّفَ للحظةٍ، ثمّ يعود ويرتفع متدفّقاً على

طـول شرايـين الأرض، إلى شَـفةِ المحيـط البـارزة، ثـمّ إلى جسـد سـوريا. فأرتشـفُ الحيـاة مـن شـفتيها، وأستنشـقُ أنفاسـها، وأغـرفُ مـن دفء يدَيهـا. تضمّنـي إلى حضنهـا، فتحضننـا الصخـور وتيّـارات البحـيرة.

فجـأةً زالَ خـوفي مـن القـادم، فعـلى شـفتي طعـم رمـاد المحـارق، طعـم الملـح الأبـديّ. لم أعُـد وحـدي، إنّنـي أسـكن سـوريافاتي. هـي أنـا وأنـا هي، توّحِّدنـا طاقـةٌ شـديدة القـوّة والعذوبـة. نغـدو نحـنُ أيضـاً قـشرةَ الجزيـرة السّـوداء، ريحَهـا وبحرَهـا وأرواحَ طيورهـا التـي ترقّـب أوّل خيـوطِ النـور. يطوّقنـا ليلُهـا مسـتلقياً عـلى الجبـل والدّغـل، ليلُهـا الملتحـم مـع الريـح، حيـث قطـرات المطـر تـدقُّ عـلى قـماش خيمتنـا في زخّـاتٍ متتاليـة، وتندفـع الريّـح إلى الصّـدع ممـرّرةً يدهـا البـاردة فوقنـا.

أشـعر بضربـات قلبهـا تـدقّ في صـدري، أختبـئ تحـت جلدهـا، فيسري نبـضُ حياتهـا في وريـدي رعشـةً عميقـةً حقيقيّـة. وسرعـان مـا تبلغنـي أنفاسُـها، وأشـعر بقطـرات العـرق النّاعمـة حـول عنقهـا، وعنـد مفـرق شـعرها، وفي تجويـف خاصرتيَهـا، وأسـفل ظهرهـا. يسـيلُ عرقُنـا واحـداً. أنـا فيهـا وهـي فيّ، كأنّنـا الحجـر والورقـة، كأنّنـا القبضـة والرّاحـة التـي تضمّهـا. لا يمكـن أنّ شـيئاً قـدْ كان مـن قبـلِ هـذا أو سـيكون مـن بعـده، غـير هـذه الصخـور السـوداء، العاريـة الخشـنة، والريّـح التـي تصفـر في الدّغـل، والبحـر الـذي يكـسّر أمواجـه. لا شيء غـير البازلـت والغبـار والرّمـاد، والسّـماءِ حيـث تسـيلُ الغيـوم ملتحمـةً بالنجـمات، وطيـور رئيـس البحـر في أوكارهـا ترقّـب الشـمسَ بعيـونٍ لا يُطبـقُ لهـا جفـنٌ.

تـصرخُ تـارةً وتئـنّ تـارةً. وتمـشي أيضـاً، وأسـمع اصطـكاك مناقيرهـا أحيانـاً، وانتفـاضَ ريشـها. تتعـالى أصواتُهـا، تتحّـد ثـمّ تخفُـت. طوّقتنـي

سوريا بذراعَيها، مشيحةً بوجهها قليلاً. وفجأة اندلع ذاك اللّهب، كما لو أنّ القلب توقّف ومات الزّمن. مجرّدُ نقطةٍ في الأعماق، نجمةٍ من ألم. أنّت دافعةً إيّاي قليلاً براحتَيها. تغلغَلتُ فيها، مشدوداً، لاهثاً. واستمرّ الخفقان، ثمّ تراجع، وابتعد. سقطنا جنباً إلى جنب في صدع الصخرة، وخيّم صمتٌ عميقٌ لا يقطعه سوى زمجرة البحر. وصمتت الطيور بدورها، ولربّما توقّف الاهتزاز. كما لو أنّه لسانُ الأرض قد مُدَّ ثمّ عاد إلى جوْفها، غائراً في دهاليزها. هكذا تلاشى الاهتزاز متباطئاً مبتعداً نحو كبدِ السماء، بين النّجوم المنسيّة.

عانقتني سوريا. كنت في حاجةٍ إلى دفئها. همستْ في أذني « اللّيلةَ، صار لي طفلٌ منك». لا يمكنها أن تُثبت ذلك، لكنّني كنت متيقّناً من أنّها تقول الحقيقة. لدينا الآن طفل.

كان ليلاً طويلاً. نهضَت سوريافاتي وانسلَّت إلى الخارج. لم تصرخ طيور رئيس البحر. كنت أنتظر والعرقُ يجفّ على جسدي. اشتممتُ رائحة الطيور اللاّذعة، رائحةَ بولٍ وذرْق، ممتزجةً برائحة الحشف الحرّاقة. ثمّ غفوْتُ قليلاً. لكنّ جسد سوريا النديّ أيقظني. اغتسلتْ في البحيرة، وكان ثوبها مبلّلاً وشعرها مثقلاً بملح البحر، والقشعريرة تسري في ذراعَيها.

قُبيل الفجر، شملِ الهدوء المكان. حتّى طيور رئيس البحر كفّت عن السّقسقة. وبدأ البحر يهبط، وكان للبحيرة وهي تصبّ في القناةِ خريرُ نهرٍ خافتٍ. نامت سوريا في الصّدع البازلتيّ ملتصقةً بي، طيفاً يفيضُ حياةً ودفئاً في بردِ الصّباح.

7 يوليو، صباحاً

عاد المركب الشّراعي. كان جاك قد توقعّ ذلك: سيبدأ موسم حصاد القصب في موريشيوس، وسيحتاج أصحاب المزارع إلى كلّ الأيدي. وقد غادرت الإلهةُ الباردةُ شيتالا الجُزر. ربّما لأنّه لم يبقَ لها ما تلتهمه.

لم أشهد قدومَ المركب. كان راسياً منذ الفجر في القناة، قبالةَ خليج باليساد. لا أتذكّر أنّه كان كبير الحجم. وحينَ لمحناه أوّل مرّةٍ، من أعلى متن السّفينة **لافا**، عصر ذلك اليوم المطير في ميناء بور لويس، تراءى لنا قارباً عادياً، أقرب إلى زوْرقِ صيدٍ مهترئ. وبشراعه المستطيل وغيمةِ الدخان السوداء الطالعةِ من مدخنته التي لا تتناسب مع حجمه، بدا أشبه ما يكون بالقاطرات البحريّة القديمة في ميناء لندن.

كان يدور ببطءٍ حول المرساة أمام البركان. وكان ثمّة ما يثير القلقَ في هيئته. فهو معتمٌ جداً، بلا لوحةِ تسجيلٍ ولا رقم، وبلا علَمٍ بحريّ أيضاً. يدور محرّكه ببطء، ومع هذا كنّا نسمع ضرباتِ أذرعِ التوصيل يتردّد صداها في كلّ اتّجاه على طول البحيرة، كأنّه قاطرةٌ في وضعيّة انتظار. لكنّني سرعان ما نسيت ضوضاءه. إذ كانت أذني ممتلئةً بصوْت الأمواج المتكسّرة على الشّعاب ليلَ نهار، وصراخ الطيور، وعزيفِ الرّيح المتّصل في الصخور. أمّا هذه الضوضاء فهي ميكانيكيّة، ضوضاءُ بشريّةٌ، غريبةٌ وجبّارة، لم تألفها جزيرتنا.

ذُعرت الطيور. كانت هيَ من تنبّه لقدومه أولاً، قبل حتّى أن نشعر بهدير محرّكه. طارت جميعاً معاً، دارت وحوّمت فوق القناةِ زاعقةً. فظننتُ في لحظةٍ أنّ عاصفةً في طريقها إلينا، أو أنّ التمرّد قد استؤنف في باليساد، وأنّ العمّال على وشكِ عبور البحيرة كي يقطعوا أعناقنا.

كان جاك وبارتولي في حالة تأهّبٍ قصوى، وهَمّا بوضع الحواجز. تقدّمتُ إلى الشاطئ فرأيت مُريامه وبوتالا متسمّرَيْن لا يبديان حراكاً، وسورياڤاتي واقفةً أمام البحيرة تنظر إلى القارب.

عندها وصل العبّار، دافعاً قاربه القديمَ بمُرديّة. لم يغرس طرفَ القارب في الرّمل، لكنّه غرس فيه المُرديّ فقط، كي يثبّتَه أثناء الانتظار.

كنت على الشاطئ بجوار سوريا. وكانت مباني الكرنتينة في الجهة المقابلة، على شاطئ بلات، لا تزال مهجورة. لمحتُ أطفالاً يتراكضون على طول السّاحل، ونسوةً ينادين. قالت سوريا:

- حانت اللّحظة، اليوم سنرحل عن هذا المكان.

قالت ذلك بصوتٍ مكتوم، كأنّها خائفة. أنا أيضاً شعرت بالخوف، وبالرّغبةِ في أنْ أختبئ مثل سارة في الطرف الآخر من الجزيرة، في صدْعنا بين الصخور. بدا المركب الشراعيّ ضخماً وسْطَ البحر ذي الزّرقة الشّفيفة، كأنّه صورة خياليّة، بلا أيّ طيفٍ على متنه، لولا الدخان المتصاعدُ من مدخنته الطويلة ودويُّ محرّكه الهادر؛ قعقعتُه المخيفةُ تلك، الشبيهةُ بأنفاس وحش خرافيّ.

ردّدت سوريا: «سنرحل...» شادّةً على يدي بقوّة. كانت نحيفةً هشّة، أقربَ إلى الطفولةِ، وقد أبهتَ القلقُ وجهها الدّاكن. لكم تشبه أنانتا! خطرت لي فجأةً فكرةٌ صبيانيّة، وأعتقد أنّني قلتها بصوت عالٍ: «وماذا لو بقينا؟ سنختبئ في الصّدع، عند السفح، حيث أعشاش طيور رئيس البحر، ولن يبحث عنّا أحدٌ هناك. وفي صخب الحشد، سيعتقدون أنّنا صعدنا إلى متن القارب. سيكون الجميع في عَجَلةٍ من أمرهم متشوّقين إلى الصّعود».

لم تجب سوريا.

سمعتُ صوت جاك يصيح بنفاد صبر، كان يجمع كلّ أمتعتهما. لا بدّ أنّ سوزان تبحث عن حقيبة سفرها وقبّعتها ومظلّتها. وعلى الطرف الآخر من البحيرة، أسرعت النّساء إلى المزارع يلتقطن البابايا والقرْع، وجمع الأطفال القناديل من البيوت الفارغة في الكرنتينة، والأطباق القديمة المطليّة بالمينا، والقوارير الفارغة، وكلّ ما أمكنَهم العثورُ عليه.

وصل جاك وسوزان أخيراً إلى الشاطئ، وكان هو يحمل حقيبة الطّبيب التي تحتوي على مشارطه وسمّاعته، ومعه حقيبة سوزان. أتخيّل أنّها وضعت فيها على عجل، وكيفما اتّفقَ، كلّ أوراقها، ودسّت كتاب قصائد لونغفيلو الأزرق الصّغير بين الملابس. ساعدها جاك في الصعود إلى قارب العبّار. وكان بوتالا ومُريامه قد جلسا في عمقِ القارب الذي يتسلّل إليه الماء. راكبٌ إضافيّ واحدٌ وسيغرق حتماً. دفعه جاك إلى البحر، وكان حافياً، وبنطاله مدعوكٌ حتّى ركبتَيه، وحذاؤه معلّقٌ حول رقبته، كما كان يفعل وهو يركض في الحقول حوْل عزبة آنّا. كان ينتظر بفارغ الصّبر رؤية القارب يغادر حتّى أنّه لم يعبأ بمصير سوريا. لكنّني طالعتُ على وجه سوزان تعبيراً متكلّفاً في شمس الصباح، وكأنّها تريد الاعتذار عن مغادرتها بهذه السرعة.

وها هو بارتولي يستعدّ لرحلته الثانية. لم يأخذ شيئاً معه، وترك كيس الأرزّ في الكوخ. كان وجهه السّميك يتصبّب عرقاً، وكان يتطلّع حوله في قلق. وحينَ صرنا جميعاً وسْط القارب، صعد جاك إلى المقدّمة، وأمسك بالمُردي الطويل. وكان المسنّ ماري يوجّه القارب بالمجداف الخلفيّ.

ورغم انحسار المدّ، كان التيّار قويّاً جدّاً حتّى أنّ القارب ظلّ مائلاً. حاول جاك أن يجدّف بالمُرديّ ولم يتقدّم إلّا قليلاً. أخذ ماري الواقفُ في المؤخرة يجدّف على مهلٍ، ونظرتُه التي لضرير مصوّبةٌ نحو أعالي البحار. وكما هو الحال في العبور الأوّل، فقد كان ثمّة شيءٌ هزليٌّ في هذه الرّحلة العوجاء أيضاً، حيث كلّ شيءٍ يمكن أنْ يتحوّل إلى حطام سفينة في أيّة لحظة. لم تكن صيْحات العبّار الحادّةُ كافيةً لتصويب وِجهة القارب، فكانت سوريا هي من أمسكت بالمُرديّ هذه المرّة. وجلس جاك إلى الخلف قليلاً دون أنْ يبديَ اعتراضاً. وقفَت سوريا على الحافة، وأخذت تغرس المرديّ بعمق، وقد نجحت في مهمّتها، حيث أعادتنا بدَفعةٍ واحدةٍ إلى الطريقِ نحو شاطئ بلات.

كانت سوزان في انتظارنا على الرّصيف المُتهالك، مستظلّةً للمرّة الأولى بمظلّتها المذيّلة بالدّانتيلا التي كانت معها على السّفينة لافا خلال إبحارنا عبر البحر الأحمر. كانت تقفُ هناك، بثوبها الطّويل المزرّر حتّى العنق، وشعرها القصير، حاملةً حذاءها بين يديها. لم يعد فيها أثرٌ من المرض الذي كانت سوريا تعالجه بالمرهْم كلّ مساء في جزيرة غابريال، حيث كانت ترتعش على عتبةِ الحياة. أمّا الآن فتبدو كأنّها شابّةٌ مغامرة، مستعدّةٌ للذّهاب إلى نهاية العالم، مثل ميني موريال دوي. أخذت تضحك وتصفّق حينَ لمسَ القارب حجارة الرّصيف. ووضعَت مظلّتها وحذاءها جانباً لمساعدتنا في تفريغ أمتعتنا: حقيبةِ السّفر وقارورة الكونديز السائلة التي لم يرغب جاك في تركها في غابريال. أمّا أنا وسوريا فلم نكن نملك سوى ملابسنا، وحقيبة الكاذي الصّغيرة وحربة صيد الأسماك. حتّى إنّه لم يكن لي حذاءٌ. كنت

مثل ناجٍ من الغرق، بلا ماضٍ ولا أمتعة، شبيهاً بحجارة غابريال، بَرَتْني الرِّيح والملح، وسوّدتني الشمس ويبّست بشرتي.

كان جاك لا يكاد ينظرُ إليّ. أمسك بذراع سوزان وقادها على الدّرب أعلى المنحدر حيث يتجمّع المهاجرون. التفتَت إلينا، بدا لي أنّني لمحتُ في نظرتها أثراً من ندم وحسرةٍ وهي تبتعد عن البحيرة. لكنْ ربّما أنا من أسقطَ عليها هذه المشاعر.

مشينا أنا وسوريا على الدّرب نفسه. لم يبق أحدٌ على شاطئ الكرنتينة غيرَ المسّن ماري. فالسّفر لا يعنيه. عليه أن يبقى هنا للتّرحيب بالمهاجرين القادمين. كان يجلس على صخرته في ظلّ جدار المستوصف القديم، ويمضغ ورق التنبول مسرّحاً نظرته المائلةَ إلى الزّرقةِ صوب البحيرة.

استدارت سوريافاتي فجأة. وحدّقت مليّاً في جزيرة غابريال، للحظة اعتقدتُ أنّها تريد أن تتأمّلها قبل الرّحيل. ثمّ قالت:

- سارة؟ هل هي مع الآخرين؟

توقّف جاك في منتصف الطريق، وكان يتحاور مع بارتولي. ولمّا دنوْت منه، قال بنبرةٍ قلِقةٍ:

- سيبدأ صعود الركّاب، عليكَ أن تأتيَ حالاً. يبدو أنّ فيران قد صار بالفعل على متن المركب».

لم يكن مصير ركّاب لافا ما يقلقني. بل كنت أفكر في سوريافاتي، وشعرتُ للمرّة الثانية بغضب وعجز. فلمّا أخبرتُ جاك عن سارة ميتكالف التي ظلّت سجينةً في جزيرة غابريال، هزّ كتفيه.

كانت عيناه مغبّشتين بضباب نظّارته، ويداه ترتعشان.

- ينبغي العودةُ بسرعةٍ للبحث عنها، فالمركب لن ينتظر أكثر.

التفتَ إلى سوزان محاولاً إقناعها بأنْ تمضيَ إلى خليج باليساد من دونه. ابتعدتْ عنه على مضضٍ وهي تحملُ حقيبة سفرها الضّخمة، ومظلّتُها الشمسية مائلةٌ على كتفها، ومضت مع بارتولي ومُريامه، فيما بقي الصبيّ بوتالا معنا. كانت نظرته تلمع بوميضٍ غريب، وقد جذبتْه فكرة مطاردة المجنونة.

عُدنا إلى القارب الذي تولّت سوريا قيادته، فيما أمسك بوتالا بالمجداف الخلفيّ وأخذ يجدّف بقوة، فتخيّلتُ أنّه ابن صياد بنغاليّ. بقي ماري جالساً في ظلّ جداره. حتّى إنّه لم يلتفت بنظرته الشاحبةِ حين دفعنا القارب نحو القناة.

وما كدنا نطأ جزيرة غابريال حتّى مضينا أنا وجاك وسوريا راكضين نحو الطرف الجنوبيّ بحثاً عن سارة. اتّبع بوتالا مساراً آخر عبر الأجمات. لم نَصِح كي لا نخيف المجنونة المسكينة. كان المركب الشراعيّ لا يزال قبالة جزيرة بلات موثَقاً إلى المرساة، مغطى بعمود من الدخان الأسود، ومحرّكُه متوقّفٌ عن العمل. وكان الصّعود قد بدأ على الأرجح. في غابريال، لم تكن تُسمَع أيّ ضجّة، لكأنها جزيرة ميتة. فقد هربت طيور رئيس البحر إلى مكانٍ آخر، ولا شك أنّها انضمّت إلى الطيور الأخرى حول صخرة بيجن هاوس. أو اختبأت في أوْكارها خوفاً من خفر السّواحل.

صار بوتالا الآن في الطّرف الجنوبيّ. وكان رابضاً على صخرة. أتخيّل أنّه لا بدّ قد ولج إلى الجُحر، كما لو كان يصطاد وحشاً. مرّت سورياڤاتي من أمامه دون أن تقول شيئاً، وهبطت حقل الحجارة شاقّةً الممرّ الشوكيّ وهي تصيح: «سارة!»

لا يوجد أحد. الجُحر فارغٌ. وعلى الحجَر المبسوط عند المدخل، لا يزال هنالك بقايا الأرزّ الذي تركته سوريا أمس. إذ لم تلمسه الطيور. تقدّمتُ مُنحنياً فرأيت فراش سارة، ملاءةً ملطّخةً بالرّماد والأوساخ، وحقيبةً نصف مفتوحةٍ تحوي آثارها القليلة: مشط هنديّ، وبعض الروبيّات وحفنة من الآنات، ونسخة مهترئة من العهد القديم، وحزمة من الرّسائل مبقّعة برذاذ المطر. كان مشهد هذه البقايا مثيراً للسخرية ومحزناً في آنٍ معاً، مثل تلك الأشياء العديمة الجدوى التي نعثر عليها في بيتٍ يشهد حداداً. لفَت انتباهي دفترُ يومياتٍ أسودُ ملقىً على الأرض قرب الفراش، ومُغلقٌ بشريطٍ أحمر. كانت تلك المفكّرة الثمينة التي كان جون ميتكالف يصطحبها معه أينما ذهب، ليسجّلَ فيها كلّ ملاحظاته واكتشافاته. وعلى الغلاف ملصقٌ خَطّت عليه يد سارة المائلةُ المثابرة، التي كانت تنسخ أسماء النّباتات الغريبةِ كلّ مساء، ما يلي:

«Flat Island, 28, May, 1891» [1]

بينما ظلّت الخانةُ المخصّصة لتاريخ إغلاق المفكّرةِ بيضاء.

كان هذا تاريخ دخولنا الكرنتينة، وهو ذاته التاريخ الذي كتبته سارة باليد نفسها على اللّوح الذي غرزته في التّراب، هناك حيث صار جون رماداً.

تركتُ النّقود والرسائل وأخذتُ المفكّرة السوداء. تخيّلتُ أنّ جون قد تركها لي، لا لأحدٍ سواي. أرادني أنْ أتذكّر كلّ ما كان، وأواصل دروس علم النّبات من بعده. لا أنسى ما قاله لي حين كنّا نبحث عن شجرة النّيلة: «النباتات هي من ينقذُ البشر».

(1) بالإنجليزيّة في الأصل: جزيرة بلات، 28 مايو، 1891.

كانت الرّياح عند الطرف الجنوبيّ تثير رشقاتٍ من الزّبد، والأمواجُ القويّة تتكسّر على الرّصيف المرجانيّ كاشفةً عن جوفها الأخضر الزمرّديّ. أحسستُ أنّ علينا الإسراع، فلا بدّ أنّ المركب قد بدأ يتأرجح بين قُلوسه، ولن ينتظر أكثر. فأين هي المجنونة؟

مضَت سورياڤاتي تبحث عنها بين رُكام الصّخور السوداء، قرب الموضعِ الذي اتّخذنا فيه ملجأنا. كانت تمشي بصمتٍ كأنّ سارةَ طائرٌ ينبغي عدمُ إخافتِه. ربّما تودّ هي أيضاً أن تختبئ وتتركَ القارب يرحل بكلّ هذا الجمع من البشر. فلعلّ سارة محقّة، علينا أن نعود إلى صدع صخرتنا ونعيشَ بقيّة حياتنا مع أسراب طيور رئيس البحر، وأنْ ننسى موريشيوس، مثلما نسيَتْنا.

سمعتُ صوت جاك. لم يعد يطيق صبراً. نزل من قارب العبّار وصعد منحدر القمّة ليطلب منّا العودة. شتّتت الريح كلماته، فتناهت إلينا أصواتاً غير مفهومة: هيه!... هو!... تخيّلتُ سوزان، واقفةً على الشاطئ تتطلّع نحو الدّرب المفضي إلى المقبرة في انتظار عودتنا، فيما النّاس يصعدون إلى الزّورق.

طُفْتُ جزيرةَ غابريال بأكملها، يتقدّمني بوتالا مفتّشاً بين الأجمات مثل كلب الصّيد. لم نعثر على سارة في أيّ مكان. ربّما لجأت إلى أعلى القمّة، أسفل جدار عمود الإشارة. لكنّ هذا مستحيل، وإلّا لأخافتها الطيور، ولاهتاجَت وصرخت عليها فاضحةً مكانها. وصلْتُ قربَ التّلعة. فأخذت طيور رئيس البحر تحوّم فوقي وتهدّدني. ولم يجرؤ بوتالا على الاقتراب أكثر. لقد عادت لترانا غرباء وأعداء. وكانت هي من طردَتنا هذه المرّة.

نسيَ بوتالا أمر سارة، وزحف بين الصخور بحثاً عن الرّيش الأحمر الرائع. ولو استطاع لقبضَ على واحدٍ من الطيور كي ينزع ريشته.

هبطنا عائدين إلى الشاطئ، وصعدَ جاك إلى القارب ثانيةً صائحاً:

- ماذا؟ هل وجدتموها؟

هززتُ رأسي نافياً. فقال بنبرةٍ قاسية:

- ليس في وسعنا الانتظار أكثر. وأضاف شاعراً بوخزة ضمير:

- لعلّها غادرت الجزيرة.

وما هو إلّا أنْ ظَهرت سوريا على الدّرب المفضي إلى المخيّمات، مُسندةً سارة ميتكالف. كانت المرأةُ الشابّة تمشي بخطىً وئيدةٍ غير متوازنةٍ، فالحرّ وقلّة الغذاء أصابا ساقَيها بالشلل. حتّى أنّها لم تستطع الصمود حين رفعها جاك على متن القارب، فسرعان ما استلقت على ظهرها ملتفّةً بأسمالها.

وكانت سوريافاتي آخرَ من صعد على متن القارب، وبينما هو يعبر القناة منحرفاً لثقل حمولته، ظلّتْ مُلتفتةً نحو صخرة غابريال الدّاكنة. انتابني انطباعٌ بأنّ نظرةً ما أخذت تتبَعنا من جهة المخيّم والصّهاريج. لعلّها ليست سوى عينْ الطيور القاسية التي تحوّم حول عمود الإشارة. وفي صخب البحر الهائج الذي كان يُعلي ماء البحيرة، سمعتُ الاهتزاز الآتي من بعيدٍ مثل أنفاسٍ، لكأنّ كلّ منْ تخلّينا عنهم في هذا المكان ما زالوا على قيد الحياة.

كانتْ دواماتٌ كبيرةٌ تدور في القناة، فشقّ على بوتالا الحفاظ على مسارنا نحو رصيف بلات. وفيما كنّا ننزلق فوق غابة الشّعاب

المرجانيّة السّوداء، لمحتُ في لحظةٍ ظلاًّ يحوم ويتبعنا مثل كلب غاضب. عرفتُ فيه سمكة التازور، سيّدة البحيرة. وبدا لي أنّ أبديّةً بأكملها قد مرّت منذ سمحتْ لي أنْ أخترق مجالها. واليوم، عُدْت لأصير غريباً في نظرها.

وصلنا إلى باليساد قُبيل الظّهيرة، وفيما كنّا نهبط المنحدر صوب الخليج شعرتُ أنا وسوريا بالخدَر، لم نعد نقوى على السّير، كان قلبانا يخفقان بسرعةٍ وقوّة. وكنّا نرغب، مثل سارة، في الهروب عبر الدّغل.

كان خليج باليساد يعجُّ بالنّاس بدءاً من منحدر البركان حتّى البيوت المشتركة. فقد جاء الهنود من جميع أنحاء الجزيرة، مِن الأكواخ والحقول وغابة الكزورينة، وتجمّعوا على الشّاطئ الأبيض أمام الرّصيف غيرِ المكتمل. ولقد نسيتُ ذلك، غابَ عن ذهني أنّهم كُثُرٌ إلى هذا الحدّ. كانوا حشداً من ألفٍ أكثر أو أقلّ. وقد شكّلوا كتلةً متراصّةً، معتمةً وصامتة. وحدها أثواب النساء كانت تلمع هنا وهناك. كانوا يقفون أمام البحر المبهر تحت أشعة الشّمس اللاّذعة، بلا فيءٍ يستظلّون به. حتّى أنّ جاك نفسه قد توقّف للحظةٍ، محاولاً أنْ يتمالك نفسه. ولم يكن يريدني أن أنتبه إلى ما كان يختلج في قلبه من مشاعر.

- أين سوزان؟ لا أرى سوزان.

منعه ضعفُ البصر من فهم ما يجري، لكنّه لمح جمعاً من البشر مصطفّين على الشاطئ مثل جيش صامت.

وفي أقصى يسار الخليج، قريباً من السّقيفةِ التي كانت تُحفَظُ بها المؤن، لمحتُ سوزان في ثوبها الخفيف، وإلى جانبها طيفُ بارتولي البدين، بشعر رأسه المنتوف الذي يتنافر مع شعور الهنود الغزيرة.

- زوجتُكَ هناك، تنتظرك.

كانت سوريا هي من تحدّثت إليه بصوتها العذب، وقد أخذتْه من ذراعه وأرتْه أين ينظر. إنّها أكثرُ قدرةً على الصّفح منيّ.

هبط جاك أولاً، فتبعتُه على نحوٍ كاد يكون آليّاً. هبطنا نحو الخليج عبر الدّغل، وسْطَ عصفاتٍ من رياحٍ حارّةٍ تجلو السماء والبحر. وكان دخان المركب الشراعيّ يتدفّقُ ويرتدّ نحونا. فتنشّقْتُ فجأةً رائحة المحرّك النفّاذة، رائحة الفحم والزيت الحارّ. كِدتُ أنسى أنّ هذه أمورٌ موجودةٌ حقّاً، لذا أخذتُ أتشمّم الهواء مثل حيوانٍ، وأتذوّقه بلساني. ثمّ اشتدّ الاهتزاز، واجتاز البحرَ ليتسلّل من تحت قدمَيّ الحافيتَين، فتسارعت نبضاتُ قلبي. أتذكّر المرّة الأولى التي صعدتُ فيها على متن لافا في مرسيليا، وبدأت السّفينة في الإبحار. كان هو الصّوت القويّ والمزعج ذاته.

واصلتُ الهبوط دون أنْ أنظر ورائي، متخلّفاً كثيراً عن جاك.

ولّما بلغنا الشاطئ، أدركتُ أنّنا كنّا نهرول من أجل لا شيء: لم يبدأ الصّعود بعد. واصل المركب الشراعيّ دورانه حول محور السلسلةِ موثَقاً إلى المرساة العائمة. كان يدور كثيراً، وكان الضّابط الإنجليزي يقفُ على مقدّمه محاطاً بطاقم البحّارة. وبين الحين والحين يوجّه نحونا منظاره. لا بدّ أنّه يقيّم الموقف. إذ يستحيلُ بأيّ حالٍ حملُ جميع المهاجرين على المركب الشراعيّ. سيحتاج الأمر إلى قوارب أخرى، وعدّة رحلاتٍ على مدى يومَين أو أكثر ربّما.

كان على المقدّمِ أيضاً بحّارةٌ من جزر القُمر يرتدون بذلاتٍ فاتحة اللّون، مسلّحون ببنادق شنايدر الشّهيرة التي رأيتها يوم الشّغب. ولو

رآها فيران لقال: «بهذه، يُمكنني أنْ أصرع رجلاً على بعد خمسمائة متر».

وبالمناسبة، أين ذهب هذا المحتال؟ ظننتُ للحظة أنّه يقف على قمّة البركان، وحيداً في معسكره المنيع مثل قبطان يغرقُ بسفينته، فإذا بي أراه بين مجموعة مسافري لافا. لم يحتفظْ بشيءٍ من أُبّهته. كان يجلس على الرّمل مُحتمياً بدعامات مستودع المؤن الخشبية، شديدَ الشّحوب مُنهكاً من الأرق، حاله حال بارتولي. والآن مع اقتراب الرّحيل، عادَ ليكون رجل الأعمال المثابرِ المستغلّ، التاجرَ الدّائم الإفلاس الذي لا يستطيع إلّا أنْ يكونه. وحينَ اقترب ليجلسَ إلى جانب سوزان، لم تُعِره انتباهاً، حتّى إنّها لم تلتفت نحوه.

كان الحشد متراصّاً على الشّاطئ، فوجدنا مشقّةً في العبور. وكان الرّجال يقفون والعَرَق يتصبّب من وجوههم ويبلّل ملابسهم. وصل جاك حاملاً حقيبته الطبيّة وعبوة محلول الكونديز، فأفسحوا له دون عداء. لم يعودوا يشبهون في شيءٍ أولئك الرّجال الذين ألقوا عليه الحجارة. كانت ملامحهم تشعّ طيبةً وعيونُهم الجميلةُ تشي بعمق نظرتهم. ربّما اعتقدوا أنّ جاك هو من سينقذهم، ويمكّنهم من مواصلة رحلتهم. أمّا أنا فعبرْتُ من بينهم بسلاسة. كانوا صامتين، وكان بينهم فتيانٌ صغار، أطفالٌ بأذرعَ وسيقانٍ طويلةٍ، وأجسادٍ ليّنة مثل داليات، عارينَ سوى من مئزرٍ أبيض حول خصورهم. ولكنْ أين أوكا، وأين الرّاعي شوتو؟ هناك أناسٌ آخرون لم أرهم من قبل، يقفون في الشمس بملابس سفرهم، كما لو كانوا على رصيف محطّةٍ في انتظار القطار، يرتدون المعاطف والسّترات فوق ثيابهم، وينتعلون

أحذيّة ملمّعةً، ويحتمون من الشمس بمظلّاتٍ سوداء كبيرةٍ، مثل السّادة النّبلاء في وسط لندن.

سمحوا لي بالمرور، ولم ينظروا إليّ، بل كانوا ينظرون إلى المركب الرّاسي أمام الخليج وهو يدور حول سلسلته ويتأرجح في الموج. خيّمَ صمتٌ طويلٌ على الشاطئ، تحتَ الشّمس الحارقةِ، لا يتخلله سوى هدير محرّكات المركبِ الرّاسي.

فجأةً انتبهتُ إلى أنّ سوريافاتي ليست إلى جانبي. لقد جعلتني أذهب مع جاك، وبقيَت بين الصّخور. همَمْتُ أنْ أعود للبحث عنها، لكنّ سوزان أقبلت نحوي وعانقتَني:

- خفتُ كثيراً، ظننتُ أنكم لن تصلوا أبداً.

ثمّ ضمّت سارة إليها وأجلستها في الظلّ بجوار جوليوس فيران، وطوّقت جاك بذراعَيها. كانت تتحدّث بسرعةٍ لمداراة قلقِها، وبدت، في ضوء الظّهيرة الحادّ، شديدةَ النحول، وبشرةُ وجهها الجميلةُ متيبّسة، فقد لوّحتها الشّمس مثلما فعلَت بسارة. لم يكن جاك يسمع ما تقول، لكنّه حاول طمأنَتها: «أعتقد أنّ صعودنا إلى المركب لن يتأخّر». كانت كثرةُ الناس على الشاطئ تثير خوفه:

- علينا حتماً أنْ نكون أوّل من يصعد. ثمّ أردف وكأنّه يشعر بالخجل:

- أعتقد أنّهم سيرسلون قارباً ثانياً.

هزّ بارتولي كتفَيه:

- إذا غادروا مثل المرّة الماضية، ستكون ثورة.

تيبّستْ شفاهنا من الحرّ والرياح، ومع هذا لم يفكّر أحدٌ في الذهاب إلى الصهاريج أو تسلّق الصخور نحو النّبع. كان الشّيخ حسين يقفُ على ما

تبقّى من الرصيف متكئاً على عصاه -عصا السّردار-، ثيابه باليةٌ، وعمامتُه الممزّقة ترفرف في الريح، محتفظاً مع ذلك بهيئته المتكبّرة. لم يكن يبدي حراكاً، وكان يميلُ قليلاً إلى الجنب اتّقاء الشمس، متخذاً موقف المزدري اللّامبالي، ومترفّعاً حتّى عن النظر إلى ركّاب لافا. لقد كنا على أيّ حالٍ سننتقلُ في غضون لحظاتٍ قليلة، أو ساعاتٍ، إلى عالمٍ آخر. لكنّ الشّيخ حسين قد نسيَنا سلفاً.

فجأةً، ومن غيرِ تفسيرٍ واضح، بدأ تشغيلُ المركب استعداداً لتحميل الرّكاب. انفصل الزّورق عنه، واتّجه مباشرةً إلى خليج باليساد مدفوعاً بالأمواج. كان على متنه أربعةُ بحّارةٍ قُمريّين ذوي بشرةٍ شديدة السواد في زيٍّ ناصعِ البياض. أبقى اثنان منهم الزّورق ثابتاً فوق خطّ الأمواج المتكسرة مستعينَين بالمجاديف، فيما عُنِيَ الآخران بحركة النّقل ذهاباً وإياباً، فأوصلا طرفَ حبلٍ إلى الشاطئ، ورُفعَ أوائلُ النّاجين إلى متن السفينة عبرَ هذا الجسر المُرتَجل، تُبلّلهم الأمواج بالكامل. كانوا عدداً قليلاً من العمّال الذين اختارهم الشّيخ حسين من بين كبار السنّ، وكانوا يحملون صررهم المعقودة فوق رؤوسهم. ثمّ تبعَتهم مجموعةٌ من النساء، مُريامه وابنها بوتالا، ونساءٌ هنديّات أخرياتٌ، وقد رشقَ الموج أثوابهنّ الطويلة الملوّنةَ فالتصقت بأجسادهن. وعلى الرّغم من الأمواج والخطر، فقد جرى هذا كلّه دون أنْ تُطلَقَ صيحةٌ واحدةٌ، إذ لم يكن يُسمَع سوى أنين الصّغار وهم يتشبّثون بأمّهاتهم كلّما تكسّرت موجةٌ أمامهم على رصيف البازلت محدثةً دويّاً. وأخيراً جاء دور ركّاب لافا. كان الشّيخ حسين هو من أصدر الأمر، فتنحّى الهنود جانباً طائعين.

تقدّمت سوزان أولاً جارّةً معها سارة ميتكالف، وقد رافقهما جاك إلى البحر متشبّثاً بالزّورق المكّوكيّ، مرّر أولاً حقيبة السّفر وممتلكاته الخاصة، بما فيها عبوة الكونديز الشهيرة. ثمّ عاد إلى المرأتين، وظهرُه إلى الأمواج، فمدّ يده إليهما. تمكّنت سارة ميتكالف من الوصول إلى حافة الزّورق، ولكن لمّا تقدّمت سوزان بدورها، غمرَتها موجةٌ أعتى. وحين عادت للظهور، انْفلَت منها الحبل ولم تعد تعثر على القاع. سَبحت في الزبد، وفقدَت قبّعتها ومظلّتها. فقفز جاك في الماء، وللحظةٍ سبحا معاً طليقَين في البحر المتلألئ، تُدافعهما الأمواج، كما في ذلك الصيف عندما تحدَّت سوزان كلّ المحظورات واندفعَت في البحر الأخضر في هاستينغز، أسفل رصيف الميناء. أمسكَ بهما البحّارةُ القُمْريون ورفعوهما واحداً تلو الآخر على متن الزّورق. ولا أدري لماذا اعتصرَ قلبي مشهدُ صعودهما إلى الزّورق جذِلَين. إذ لم يعودا سوى طيفَين بين أطياف أخرى، محمولَينِ على الأمواج في زورقٍ ما. ثمّ نزل بارتولي وفيران بدورهما إلى البحر، وانزلقا على طول جسر الحبل المكّوكيّ. التفتَ بارتولي نحوي قبيلَ مغادرتهما وقال لي: «هل ستأتي؟» لاح على وجهه المتجعّد مثل وجه جنديّ هرم تعبيرٌ جادّ. فجأة لم أعد أكنّ له أيّةَ ضغينة. فقد كان في عينَيه الصافيتَين بريقٌ عاديّ ومألوفٌ، وكأنّني عرفته منذ زمنٍ بعيدٍ دون أنْ أتحدّث إليه. هززتُ رأسي ولم أُجب. دخل البحر، ودون أن يمسك بالحبل، سبح حتّى بلغ الزّورق.

حدث كلٌّ شيءٍ بسرعةٍ. وامتلأ الزّورق الصّغير عن آخره، ولفرط حمولته كانت الأمواج تعلوه كلّما مال. ثمّ رفع البحّار الحبل، وأخذ المجدّفون يضغطون للابتعاد عن الشاطئ. كنت أقف أمام الرّصيف

مـع الهنـود. ولم أفكّـر حتّـى في التّلويـح لجـاك وسـوزان. ابتعـدَ الـزورقُ مترنّحـاً، ومـضى وئيـداً نحـو المركـب الشراعـيّ. لم أعـد أعـرف مـكان جـاك وسـوزان، فقـد غابـا عـن نظـري. ولا بـدّ أنّ الرّيـاح وسـط البحـر كانـت قارسـةً، فتخيّلـتُ جـاك يحتضـن سـوزان بـين ذراعيـه ويحميهـا مـن أمـواج البحـر. ربّـما حاولَـتْ أنْ تلمحنـي عـلى الشـاطئ، فلـم تـرَ غـيرَ جمْـع المهاجريـن الأسـود، يقـف كأنّـما عـلى ضفّـة نهـرٍ عظيـم.

كيـف اسـتطاع النّـاس عـلى الشـاطئ أنْ يحتفظـوا بهدوئهـم؟ جعلـتُ أمـشي عـلى طولـه بحثـاً عـن الوجـوه التـي أعرفهـا، عـن النّـاس الذيـن التقيـتُ بهـم حـينَ ذهبـتُ إلى بيـت أنانتـا، كبـارِ السـنّ الذيـن يعـودون مـن بيتهـا محمّلـين بالأعشـاب السـحريّة، والعـمّال ذوي العمامـات، وهنـودِ الشـمالِ بنعالهـم المدبّبـة، والصِّبيـة الذيـن ينطلقـون في مغامـراتٍ عـبرَ الجزيـرة، متاعهُـم الوحيـد منديـلٌ معقـودٌ يخفـون فيـه بضعـة دولارات، والنسـوةِ بأوشـحتهنّ الحمـر، وقاماتهـنّ النحيلـةِ المتينـة، وبشرتهـنّ التـي بلـون الصلصـال، وزمـام الذّهـب الكبـير في فتحـة أنوفهـنّ، وعـلى جبينهـنّ علامـة الـرّب يامـا. سِرتُ عـلى طـول الشـاطئ، سـمحوا لي بالمـرور دون أنْ يقولـوا شـيئاً، ولا كادوا ينظـرون إليّ. ربّـما لأنّنـي أصبحـتُ مثلهـم حقّـاً، بـلا عائلـةٍ ولا وطـن. فقـد اغتسـلتُ مـن كلّ ذكـرى، ولم يبـق في داخـلي شيءٌ مـن الرّجـل الأبيـض الـذي كنتُـه، وحـرّرت نفـسي مـن اسـم أرشـمبو. والآن أحمـل معـي علامـات حيـاتي الجديـدة، رمـادَ المحـارق، وغبـارَ غابريـال الأسـود ورائحـةَ الطيـور. لي بـصرٌ جديـد، ولـن أكـون مـن كنتـه مـن قبـل، ذلـك الـذي تسـلّق سـلّم السّـفينة لافـا، تحْـدوه فكـرةٌ عبثيّـة؛ فكـرةُ العثـور عـلى جزيرتـه وأسـلافه.

ذرعتُ ضفّة باليساد كلّها. أردتُ أن أرى أوكا الكنّاس، الذي كان معي قربَ المحارق. أُحسّ أنّه هو من صار أخي منذ اليوم الذي نزلَ فيه للسباحة إلى موريشيوس. خِلتُ غيرَ مرّةٍ أنّني ألمحه بين مجموعات النّاس، لكنّي لم أكن أرى سوى شبّان بوجوهٍ لا تبالي بي، ولا تلتفتُ نحوي.

سوريافاتي ليست هنا. خشيتُ أن تكون قد صعدت إلى المركب دون أن تنتظرني. أخذَت رحلاتُ الزّورق تتكرّر بانتظامٍ وبالطقوس نفسها: يُلقي البحّار بالحبل فيعلّقه صبيّ على صارية الرّفع، فينزلق الرجال والنساء عبر زبدِ الأمواج إلى الزّورق. أُنجزَت ستُّ رحلات، وربّما عشر، نُقلَ خلالها أكثرُ من مائة مهاجر. فصار المركب الرّاسي في عُرضِ البحرِ قبالة باليساد، مزدحماً بالناس، يتأرجح بهم على نحوٍ خطير، ودخانه الأسودُ يندفع مع العواصف فيحجبهم كليّاً في بعضِ اللّحظات. وعلى الشاطئ، دوّخت الشمس والرّياح من تبقّى منهم، وكان الزّبد يغشّي أبصارهم كالثلج، وخطُّ الأفق يبهر أنفاسهم. لكنْ لا أحد منهم فكّر بالانصراف. وكنت ألتفتُ بين الفيْنة والفيْنة نحو المنحدرِ أعلى الشاطئ، آملاً أنْ ألمح طيف سوريا، لكنّ بصري كان يرتدّ رغماً عنّي نحو البحر.

تحرّكَ المركب الشراعيّ أخيراً مع حلول المساء، انطلقَ فجأةً دون سابقِ إنذار، حيث ارتفع هدير الآلات ببساطة، ورفع البحّارة أشرعة الصاريَين فأخذت ترفرف في الريح وتتوارى في سحابة الدخان. وعلى الشاطئ، استنشق الجميع رائحة الفحم النفاذة، الرّائحةَ الفائقة العذوبة التي أخذت تتلاشى في الفضاء.

ولمّا بات واضحاً أنّ المركب قد رحل، حدثَ تململٌ يائسٌ بين الحشد الذي بقي. كان كثيرٌ من الهنود لا يزالون هنا. وانتشرت شائعةٌ أنّ مركب خفر السواحل لن يعود أبداً. أو ربّما هو تعب الانتظار طويلاً تحت الشمس والريح. أخذ بعضُ الرّجال يركضون على طول الشاطئ واعتلوا الرّصيف وهم يصيحون ويلوّحون للسّفينة، ونزل بعضهم الآخرُ إلى البحر وخاضوا فيه حتّى الخصر، مترنّحين بينَ الأمواج. ولم يعد المركب الشراعيّ سوى طيفٍ أسود يتلاشى في تجاويف الموج، ساحباً في مَخره الزّورق الشّبيه بقشرة الجوْز القاسية.

جلس آخرون على الشّاطئ قرب صُررهم، وكانوا ينظرون إلى البعيد شاردين حالمين، كأنّهم يُصلّون. عرفتُ من بينهم المُسنّ الحكيم، الرجلَ الذي قابلته في الطريق إلى باليساد يومَ رافقتُ جون ميتكالف في إحدى مغامراته الاستكشافيّة: إنّه راماسامي. كان يجلس متربّعاً على بلاطات الرّصيف البازلتيّة، مولياً ظهره إلى البحر، وعصا القيادة إلى جانبه.

لم يكن معه أمتعةٌ، ولا حتّى منديلٌ مربوطٌ من زواياه الأربع. كان يرتدي فوق مئزره الأبيض سترةً إنجليزيّة مهترئةً من بذلةٍ قديمة الطّراز، بياقةٍ عالية وصفٍّ مزدوج من الأزرار، وقد جلسَ الرّجال الآخرون على طريقته، واحداً تلو الآخر، متحلّقين حوله على الشاطئ. وكانت تشعّ منه طاقةٌ غريبةٌ، لكأنّه الوحيد الذي يدرك ما هو قادم. كنت أسيرُ على الشاطئ قريباً منه، متّجهاً نحو المنحدر حيث تنتظرني سوريا. صوّب نظراته عليّ، وبدا لي أنّني تلقّيت بعضاً من نوره ويقينه. كان داكن البشرةِ، شعرُه قصيرٌ جدّاً، ولا تبدو عليه علامات

الكِبرَ، وفي نظرتـه الصّفـراء شيءٌ مـن الرّقـةِ والحـدّة معـاً. ولا أدري لمـاذا خطـرَ لي فجـأةً رجـلُ عـدن، في عتمـة غرفتـه الخانقـة في المشـفى المـدنيّ، ونظرتُـه التـي اخترقتنـي في صمـت. كنـت أرغـب في الجلـوس معهـم والانتظـار أنـا أيضـاً. لكنّنـي، قبـل كلّ شيء، أردت العثـور عـلى سـوريا.

عـاد أكثـر العـمّال إلى البيـوت المشـتركة، فيـما واصـل آخـرون التّجـوال عـلى طـول الشـاطئ، متجمّعـين عـلى الرّصيـف المتهالـك، كـما لـو أنّ قـارب أحلامهـم سـيعود في أيّ وقـتٍ مـن النّهـار أو اللّيـل.

لكـنْ بـاتَ واضحـاً أنّ الأوان قـد فـات اليـومَ، فقـد اصطبغـت السّـماء بلـون الغـروب الذهبـيّ. وبـدأت الطيـور التـي اسـتعادت جرأتهـا منـذ رحـل المركـب الشراعـيّ تحلّـقُ مـن جديـدٍ عـلى طـول الخليـج. وفي الموضـعِ مـن خـاصرة الـبركانِ حيـث يـضرب البحـر، رأيـت زوجـاً مـن طيـور رئيـس البحـر يصطـاد في تيّـار المـاء. كان يحلّـق بعيـداً في الأعـلى، ثـمّ يهـوي في المـوج. وكانـت هـذه أوّلَ مـرّةٍ أرى فيهـا طيـور رئيـس البحـر في سـماء جزيـرة بـلات. لا شـك أنّهـا علمـت برحيلنـا الوشـيك، الذي سـيعيد لهـا مِلكيّـة البحـيرة.

أعـرف أيـن سـأجد سـوريافاتي. تسـلّقتُ المنحـدر قبـل أنْ يهبـطَ اللّيـل، فسـمعتُ هرولـةَ الجديـان في الأجمـات، لكـنّ شـوتو لم يعـد هنـا ليحبسـها في الحظـيرة، وكانـت الـكلاب الضّالـة تلاحقهـا في الدّغـل. تلـك الـكلاب التـي سرعـان مـا عـادت متوحشّـةً مثـل بنـاتِ آوى، وحـينَ اخترقـتُ دربهـا، سـمعتُها تزمجـر، فتسـلّحتُ، تحسّـباً، بحجـرٍ بـركانيٍّ حـادٍّ كالفـأس.

عـبرتُ المـزارع. فـإذا بالجديـانِ قـد عبثـتْ بالحقـولِ بعدمـا تركتْهـا النسـاء الهنديّـات. فاقتلعَـت الشّـتلات، ورعَـت البقلـة اليمانيّـة، وحشّـت

الخضروات عن وجه التربة الجافّة. حتّى الأسوار الحجريّة الصغيرة انهارت في بعض الأماكن. وأخذت الشّمس ترسم أثلاماً طويلةً في الأرض، هنالك حيث كانت النساء تصبّ كلّ مساء دلاء الماء لِتروِيَ عرائش القرع وحقول الأرزّ. فبدا الأمر وكأنّ أيّاً من هذا لم يكن، أو كأنّه كان منذ مائة عام.

بلغتُ أعلى المنحدر، حيث ظلُّ فوّهة البركان. دفعتني ريحٌ عاتيةٌ إلى الوراء، ريحٌ تأتي عبر المحيط فتُعلي أمواج المدّ، هبّةٌ قويّةٌ محمّلةٌ بهدير البحر وأريج الشّعاب المرجانيّة. حينَ نزل الهنود إلى الجزيرةِ استقرّوا في خليج باليساد، وبنوا منازلهم وزرعوا حقولهم هناك في الجهةِ الآمنة من الرّيح. أمّا هنا، فالرّيح العاصفة تمحو كلّ شيء، تمرّ فوق الجدران وصهريج المياه والأسوار والقبور، كما تفعل في غابريال، فتحُتُّ كلّ شيء، ولا تخلّف سوى النّدوب.

كانت سوريافاتي تجلس منتظرةً في المقبرة القديمة، عند قبر توماس ميلوت، متأمّلةً البحر وطيف جزيرة غابريال. وكانت ترتدي السّاري الجميل بلون البحر، وتضع الوشاح الأحمر الكبير على رأسها، فبدت مثل أنانتا، وإلى جانبها حقيبتها الكاذيّة التي تحتفظ فيها بقلادة جدتها القصديريّة، ورقمِ تسجيلها كعاملةٍ في قطْع القصب. كان هذا المتاعَ الوحيدَ الذي جلبتْه من جزيرة غابريال.

حلّ اللّيل، لكنْ لمّا نظرت سوريا إليّ، رأيت النّور في عينَيها، ذلك الوهج الكهرمانيّ الذي أذهلني أوّلَ مرّةٍ عند البحيرة. كنت أرتعش شوقاً لما ستقول، كما لو أنّ حياتيَ كانت تُصنع أمامي في تلك اللّحظة.

دنَـت منّـي، ووضعـت ذراعهـا حـول خـصري قائلـةً:

لقد رحلت سوزان. ماذا سيحلّ بكَ الآن، بهاي؟

كانـت نبرتُهـا متهكّمـةً. تتحـلّى سـوريافاتي بنـوع مـن رضـا طفـوليّ لمستُه فيهـا حـين كنّـا وحدنـا عنـد القمّـة، قـرب أوكار طيـور رئيـس البحـر. قادتنـي إلى أسـفل المنحـدر بمحـاذاةِ المقـبرة. لم يبـقَ أمامنـا سـوى دقائـقَ معـدودةٍ لنـزور ملجأنـا، ونلقـيَ نظـرةً أخـيرةً عـلى كلّ شيءٍ، ونلملـمَ كلّ مـا كان لنـا، لا لأحـدٍ سـوانا: انعـكاسَ السّـماء في البحـيرة، وطيـفَ الجُـزر الأسـود، وانكسـارَ مـوْج البحـر، وأريـجَ الحشـف المقـوّس المحمـول مـع الرّيـح حـينَ تهـبّ بـاردةً كالمـاء تـارةً، وفاتـرةً مثـل أنفـاسٍ تـارة، وآخـرَ عبـورٍ لأسراب طيـور رئيـس البحـر في وهـج الشـمس، مُجرجـرةً خلفهـا شـعارَ مَلَكيّتهـا العديـم الجـدوى، مثلَـه مثـل علامـة الشّـهاب عـلى واجهـة البيـت الأخـير في عزبـة آنّـا.

وقفنـا وسـط الأضرحـة نتأمّـل الغـروب وهـو يمحـو معـالمَ جزيـرة غابريـال، أجمـاتِ الدّيـداء، وصـدوعَ الحجـر الأسـود، وجـذوع الكزورينـة. أنـا أيضـاً لم آخـذ معـي أيّ متـاع. بـل لم يعـد لي حـذاءٌ حتّـى. كنـزي الوحيـد هـو المفكّـرة السـوداء الصغـيرة ذات الشّريـط الأحمـر، حيـث روى جـون آخـر أيّـام حياتـه: بحثَـه عـن نبتـة النّيلـة الجنوبيّـة، وحلمَـه بعـالمٍ أفضـل حيـث النباتـات ستُشـفي الإنسـانيّة مـن كلّ جروحهـا. وحتّـى لا أُضيّعَـه، خبّأتُـه تحـت حجـرٍ مسـطّح عنـد مدخـل خليـج باليسـاد.

ركضـتْ سـوريا بـين القبـور، قافـزةً فـوق الشّـجيرات الشـائكة. إنّهـا أرشـقُ منّـي، لكنّهـا كانـت تلعـب عـلى أيّ حـال، فـلا أكاد أقـترب منهـا لأمسـكَ بهـا، حتّـى تصيـحَ قافـزةً أبعـد فأبعـد.

هبطنا لاهيَين هكذا، حتّى بلغنا الشاطئ مروراً ببيوت الكرنتينة. كنا نركضُ في حُمرةِ الشّفقِ لاهثَين والقلبُ يخفقُ بقوّة. وقد نسينا خطرَ المركبِ وهدير المحرّكات، والبحّارةَ المسلّحين على متن الزّورق.

ومن وراء الصّهاريج، حيث لا تكاد تُلمح جدرانُ البيوت السّوداءُ، عبرنا أطلالاً متناثرةً بين أجمات الدّيداء. وركضنا نحو طرف اليابسةِ، إلى النّقطةِ التي لا شيء فيها سوى الريح المُسْكِرة. هنا، لا ينقطع أبداً خيط دخان المحارق. هنا، لا وجود للذّاكرة أبداً.

ووصلنا إلى صخرة بيجن هاوس حيث تلتقي الطيور جميعها محدثَةً ضجيجاً كالذي يصدر عن مشغلِ حدادة. إنّه عيد البحر الذي لا يتغيّب عنه أحد: المكاو والنورس، وبلشون القطعان، وخطّاف البحر، وزُمّجُ الماء الكبير، والأُطْيَش، والفرقاط أحمرُ الجِراب. كانت السّماء باهرةً، وعجاج البحر يتلألأ بألوان قوس قزح. وفي الماءِ كانت ترتفع أعمدةُ الرّذاذ التي تنفثها الدّلافين.

ومن بِركةٍ معتمةٍ بين الشّعاب المرجانيّة، اصطادت سوريا آخر وجبةٍ لنا على الجزيرة، بعض قنافذ البحر ذات اللّون المائل إلى البنفسجيّ، وحلزون البحر، وحتّى محارةً منسيّة. كانت قد تركتْ حربتها في المقبرة، فلجأت إلى حصاةٍ حادّةٍ فتحت بها الصدفةَ كي تستخرج منها ثمرتها المُرجانيّة اللّون.

كانت تتقدّمُ بلا وَجَلٍ وسْط عجاج البحر، وتُرشدني عبر الصخور، كأنّها تخمّن كلّ موجةٍ آتيةٍ وكلّ ارتداد. «سأريكَ كيف تصبح صياداً. سنشتري زورقاً في ماهيبورغ. خرجَت من الماء ضاحكةً، وثوبُها الطويل ملتصقٌ بجسدها، وشعرُها مثقلٌ بالملح. وقد ذقتُ

البحر على شفتَيها وكتفِها. «سننطلق للصّيد في جميع الجُزر، وسنذهب حتّى إلى سان براندون، حيث لا يُسمح للنّساء بالذهاب، سأرتدي زيّ رجل وننطلق إليها معاً». بدت كأنّما ترقص على الشّعاب المرجانيّة، ثمِلةً بموج البحر الآخذ في الارتفاع، وبالرّياح، وبكلّ هذا الضّوء الذهبيّ الذي يحيط بنا، وحيث تمتدّ البحيرة أمامنا، صقيلةً عصيّةً على الاختراق مثل مرآة. إنّني لم أشعر يوماً بهذا القدر من الحريّة. ما عاد لي ذاكرةٌ. ما عاد ليَ اسم.

أقبل اللّيل وئيداً. وبعد أنْ فرغنا من تناول المحار وقنافذ البحر، نزلْنا إلى مياه البحيرة، للمرّة الأخيرة. كانت ناعمةً وخفيفةً مثل دخان، منسابةً مثل سيل، وقد بثّ المدُّ الحياة فيها، فجلب إليها أسماك إبرة البحر، وأسراباً أخرى من السّمك. استلقينا على لسان الرّمل الطويل الذي يمتدّ منعطفاً صوب جزيرة غابريال، قريباً من الشّعاب المرجانيّة، كي نصغيَ في عتمةِ اللّيل إلى الأمواج المتكسّرة خلفنا، ونحسّ بعضعَضة سمكِ الرّمل.

ولّما خرجنا كان الجوّ أقرب إلى البرودة. مشينا في قلب اللّيل صوب بلدة المنبوذين، تحت سماءٍ مرصّعةٍ بالنجوم.

بدا لي أنّني لم أعرفْ شيئاً في العالم مثلما عرفتُ هذا الدّرب الممتدّ من الكرنتينةِ إلى خليج باليساد، هذا الدّربَ الذي حفرتُه وصرتُ أسلكه كلّ ليلة عبر المنطقة المحظورة التي اصطنعها فيران والسّردار.

كمْ مرّ بنا من أشياء. وكمْ من الأشياء تفكّك وأعيد بناؤها على نحوٍ مختلف، مشاعرنا وأفكارنا، وحتّى الطريقة التي ننظر بها ونتحدّث ونمشي وننام. مِنّا مَن ماتوا، ومِنّا مَن فقدوا صوابهم. ولن

نعودَ من كنّاهم أبداً.

يد سوريا في يدي، راحتها دافئةٌ نابضةٌ بالحياة. أرى قسماتِ وجهها بمشقّةٍ في غبشِ العتمة، لكنّني اتنشّقُ عطرها الحاذقَ والحُلوَ قليلاً مثل أريج الحشف، فيما نسير على طول الدّرب الضيّق تدفعنا هبّاتٌ من ريح الصابيات.

بلغنا حافة التّلعةِ حيث اعتدتُ الوقوفَ لأتأمّلَ بيت أنانتا. كان حيّ المنبوذين خالياً مهجوراً في تلك اللّحظةِ. لكنّنا حينَ دنوْنا من بلدة العمّال، سمعنا جلبةً، وأخذت الكلاب تنبح علينا في الطرقات المهجورة، وتحوم خلفنا مُزمجرةً.

كان خليج باليساد فاتناً: النّار مشتعلةٌ في كلّ مكان على الشاطئ، حتّى على سفح البركان. خمسون موْقداً أو ستّون تخترقُ اللّيل بلهبها الأحمر. وللمرّة الأولى يُرفَع حظر التجوّل. فقد ألغى الشّيخ حسين في تلك اللّيلة القانون الذي فرضه حزب النظام ورئيس الحكومةِ الجماعيّة في موريشيوس. ولم يكن أمامه على كلّ حالٍ إلّا أنْ يفعل. فمنذ عودة المركب الشراعيّ، لمْ يعد السّردار، بل صار مهاجراً من بين آخرين. وهو بنفسه قد أراد ذلك. فحين غادر المركبُ الشراعيّ، وضع عصاه من خشب الكزورينة على الشاطئ، وجلس مع الآخرين المتحلّقين حول راماساومي، مُرسلاً نظره نحو البحر مثل جنديٍّ مهزوم. ها هو الرّجل الذي كرهتُ، مَن يخافه الجميع، ومن حكم علينا بالمنفى وأسلمنا للجوع، يحرّك مشاعري فجأةً. فحينَ رأيته على الشاطئ، تذكّرتُ ما كان يرويه جاكْ عن التمرّد العظيم في الهند، عن السيبوي أنصار نانا صاحب الذين هزمهم الإنجليز، وعن سيرِهم في طوابير

طويلـةٍ بـين الأنقـاض، وخطـر لي السّـجناءُ المكبّلـون بالسلاسـل والمحمولون علـى متـن القـوارب مـن أجـل إرسـالهم إلى موريشـيوس للعمـل في بنـاء السـكك الحديديّـة والطـرق. هكـذا، فقـد اسـتعاد الشّـيخ حسـين قوّتـه ومجـده هنُيهـةً مـن الزّمـن صـار أثناءهـا حاكـماً لهـذه الجزيـرة الواقعـةِ في آخر العـالم. والآن، عـاد ليصـير لا أحـد، وسـينضم قريبـاً إلى حشـد العـمّال عـلى أرصفـة بـور لويـس، في معسـكر بـاودرز مِـل[1]، حيـث سـيدوِّن مراقبـو المـزارع اسـمه في قوائمهـم، ويلتقطـون صـورةً لـه ويمنحونـه بطاقـة عامـل.

اللّيـلُ ثمـلٌ تحـت هـذه السـماء، وبهـذه النـيران المشـتعلةِ عـلى الشـاطئ. قادتنـي سـوريافاتي إلى مكاننـا، حيـث منصّـةُ المحـارق. كانـت الريـح تهـبّ جالبـةً عبـق المحيـط وهديـره. تناولَـت جمـرةً، حملَتْهـا في كفّيهـا مثـل جوهـرة، وأضرمنـا سريعـاً النـار بأغصـان الكزورينـة وأوراقهـا الإبريّـة. فانبعـث أريـج خشـب الصنـدل وراتنـج البلَسـان فـوق الخليـج، وحجبـت سـحابةُ الدّخـان الرقيقـةُ النجـوم.

أخـذ الجميـع يراقبـون ويتأمّلـون رغـم تعـبِ الأمـس. امتـدّ خـطّ النيران في كلّ اتجـاهٍ راسـماً منحنـى خليـج باليسـاد الطويـل، فبـدا أشـبه بقريـةٍ أمـام البحـر. كان وجـه سـوريا في وهـج النـار قناعـاً عتيقـاً تحفـره الظّـلال ويزيّنـه قوسـا حاجبـين بديعـان. كان شيءٌ أشـبهُ بالشـوقِ، والرغبـةِ، يرفـرف مـن حولنـا، وكأنّنـا بدأنـا احتفـالاً كبـيراً. وتناهـت إلينـا الأصـوات: همهـاتٌ وضحـكاتٌ تختلـط بهديـر المـوج، ووشوشـةِ الريـح، وطقطقـةِ الأغصـان

---

(1) Powder's Mill: أحد مصانع السكر القديمة في موريشيوس بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد أنشئ إلى جانبه معسكر للعبيد الذين جُلبوا للعمل فيه.

حينَ تلسعها النيران. وسرعانَ ما تشكّلت حلقاتٌ من عائلاتٍ وأصدقاء، وأخذوا يدّخنون أو يروون قصاصاً من الماضي. ومن حينٍ إلى حينٍ كان لحن أغنيةٍ يرتفع فيغطّي على أحاديث الناسِ، صوتٌ صافٍ يعلو ويهبط مثل موسيقى ناي، أو أنينٍ طويل، حتّى أنّني لمحتُ، في وهج النار، طيفاً يرقص على الشاطئ، جسداً مرناً كأنّه جسد صبيّ، وسمعتُ أياديَ تصفّقُ بإيقاعٍ مضبوطٍ متسارع. إنّها النشوة تتصاعد وتعبر فوق الخليج مثل هبّة أنفاسٍ آخذةٍ في التمدد، ثمّ تخبو، ثمّ تولد من جديد. فقد أوشكَ الانتظار الطويل على نهايته، غداً أو بعد غد سيبدأ المهاجرون عملهم، سيُفتَح بحر الحقول أمامهم، وسيتقدّمون تحت الشمس وسكاكينُهم الطويلةُ في أيديهم، سيحسّون بغبار التّراب الأحمر تحت أقدامهم الحافية، ويستنشقون أريج القصب النفاذ. أجل، إنّها شوقٌ ورغبة. أستلقي وأذني إلى الأرض فأسمع الاهتزاز ذاته. أعرفه الآن جيّداً، كنت أحسّه كلّ ليلةٍ على جزيرة غابريال، مثلَ نبضِ حياةٍ أزليّ يخفقُ أقربَ ما يكون من سطح العالم، عند شفةِ البركانِ وحَدِّ البحر. إنّها الرّغبةُ بعينها التي تختلج في أجساد الناس هذه اللّيلة، وتبقيهم يقظين. كما في تلك اللّيلة التي أُشعلت فيها جميع المحارق معاً إرضاءً للرّب ياما. وهي أيضاً ما يختلج في أجساد الطيور، في قلب أوْكارها، وفي بصرها الذي لا ينخفض، وعينها التي لا ترمش.

وضعَت سوريا أذنها على الرّصيف البازلتيّ: «أصغِ؟ أتسمع ذلك؟» لم تصفْ ما سمعَت. لكنني متيقّنٌ من أنّه الاهتزاز ذاته. خلعت وشاحها، فلمحتُ بريقَ عينَيها ولمعةَ أسنانها في ضوء الجمر. ابتسمَت وشرعَت ترقص من أجلي طوال اللّيل، بإيقاعٍ بطيءٍ أوّلاً

ثـمّ متسـارع. كانـت تـدور وتـدور حـول نفسـها باسـطةً ذراعَيهـا وممسـكةً بطـرفَي شـالها، والنـارُ ترقـصُ مـن خلفهـا وتلفّهـا بدخانهـا، والرّمـاد يحـطّ عـلى شـعرها وكتفَيهـا. ولمحـتُ ماسـةَ السّـماءِ، نجمـةَ الـرّب شـوكرا، تتـلألأ مـن فوقهـا، وتميـلُ وئيـدةً نحـو الغـرب. كانـت ترقـصُ مـن أجلـهِ أيضـاً، ومـن أجلـه تتّقـد النـيران في خليـج باليسـاد. تعاظمـت موجـةُ الانتشـاء لتصـير لُجـةً عارمـةً منبثقـةً مـن أعـماق البحـر إلى جزيرتنـا، حاملـةً إيّانـا إلى الطـرف الآخـر، إلى الأرض التـي تنتظرنـا.

خبـت النـيران فجثَت سـوريا عـلى الأرض تقلّـب الجمر بيدَيهـا، وتضيف بعـض الأغصان.

وتوهّـجَ الخليـج بأكملـه في عتمـة اللّيـل. ولا بـدّ أنّهـم عـلى الطـرف الآخـر، هنالـك في كاب مالـورو، وغـران بيـه، وغـران غـوب، يـروْن هـذه الأضـواء تَلـوح في الأفـق مُحَدّثـةً عنّـا وعـن انتظارنـا وتوْقِنـا. فهـا هـم أصدقـاءُ مجهولـون يشـعلون النـيران في موضـعٍ مـا مـن تلـك الشـطآن، تجاوبـاً معنـا.

أيّ ليـلٍ جميـلٍ بـلا نهايـة! حيـث نحـن عـلى حافـة الأرض، في نهايـة العـالم. ننسـاب مبحريـن عـلى طوْفنـا البازلتـيّ رويـداً رويـداً، نحـو حيـاةٍ جديـدة، إلى حضـن أمّنـا. فنحـن أبنـاءُ الحلـم، أحـرارٌ أخـيراً، وقـد سـقطت أغلالُنـا.

في عتمـةِ اللّيـل أنـاسٌ يتمشّـون عـلى طـول الشـاطئ، ورجـالٌ يطوفـون عليهـم بفناجـين وإبريـقٍ نحـاسيّ كبـيرٍ مـن الشـاي الأسـود. وقـد شرب الجميـع، كلٌّ بـدوره.

شربَت سوريا أولاً، ثمّ ناولتني الفنجان نصف الممتلئ. الشاي مرّ وفاتر، لكنّني لم أذق يوماً ألذّ منه شراباً. كان الرّجل الذي يوزّعه ناحلاً طويل القامة، ووجهه نصف مخفيٍّ بعمامته المهترئة. لمحتُ إلى جانبه أوكا، الكنّاس المنبوذ. وكان يمدّ فناجين الشاي إلى رجال آخرين بالقرب منّا. وسمعتُ أصواتاً تناديه، وضحكات. في تلك اللّيلة اختفت الحواجز، أصبح الناس كلّهم متشابهين، محمومين منتشين بالشّمس والريح، عيونهم متّقدةٌ وأجسادهم معفّرةٌ بالرّماد، كالحجر الذي يتوسّدونه، ويتحدّثون جميعاً اللّغة ذاتها، اللّغة المحفورةَ في القلب، ولا تحتاج إلى شفاه.

أيّ ليلٍ مديدٍ متلألئ، عاجٍّ بالأنغام والدّخان!

استلقَت سوريا إلى جانبي فشعرتُ بأنفاسها الهادئة ودفء جسدها. وفي لحظةٍ ما نهضتُ وذهبتُ لأمشيَ على الشّاطئ وسْط النيران. كان بعضُ الناس يلتفتون نحوي، رأيت وجوهاً، واستجوبتني كلماتٌ، ولمستني أياد. كان السّواد يغشى المزارع فوق الخليج، وسعفُ النخيل يتماوج مع الرّيح فيبلغني حفيفُه. لم أرَ البركان، فهذه أوّلُ مرّةٍ لا تُرى فيها نارٌ عند فوّهته حيث كان فيران يداوم على الحراسة. كانت ليلةً رائقةً بلا عدوٍّ ولا خوف. سمعتُ جلبة الأصواتِ على الشّاطئ مصحوبةً بالأنغام، واستنشقتُ رائحة النار. سنرحل غداً، وستعود الجزيرة إلى حالتها الطبيعيّة. في الدّغل حول باليساد، كانتْ تُسمَع زمجرةٌ، وعذْوٌ. إنّها الكلاب وقد عادت إلى توحشّها بعد أنْ هجرَ معظمُ الناس الجزيرة، ومضت تتسكّع وتطارد الجديانَ في حقل الحجارة. وعمّا قريب سيدخل خليجُ باليساد ضِمن مملكتها.

أيّ ليلٍ عتيقٍ كأنّه البدايات! كانت ألسنةُ اللّهب تضيء خفيفاً الأكواخ المشتركة حيث أمضينا أوّل ليلةٍ لنا في العاصفة. وقد بات هذا كلّه بعيداً جدّاً، وغامضاً مثل حلم.

وجدتُ في جيبي قطعة الحديد الصّدئ التي أهدانيها شوتو حين دخلتُ قرية المنبوذين أوّل مرّة. لا أعرف لماذا احتفظتُ بها كأنّها تعويذة. لقد بات كلّ ما عشتُه من قبلُ يبدو لي غير واقعيّ، أسطورةً، أو إشاعةً تتبدّد. أمّا الآن، فَلي يقينُ هؤلاء النّاس الجالسين على الشّاطئ، وبي ما بهم من سعادة، وعلى كلّ شيءٍ أنْ يكون جديداً.

أيّ ليلٍ لا ينتهي! حيث كلّ لحظةٍ تغرق في الأخرى كما لو أنّ النّهار ينبغي له ألّا يطلعَ أبداً. تتضاءل ألسنة اللّهب، تنوسُ ثمّ تشبّ ثانية، ويتوهّج لونها الأخضر المائيّ قرب الجمر، باثّةً حلقاتٍ من الدّخان. وإلى الأبعِد قليلاً، على طول الشّاطئ، نيرانٌ تشتعلُ وأخرى تنطفئ. وبين هذه وتلك أطيافُ رجالٍ ونساءٍ تروح وتجيء من موقدٍ إلى آخر. تلاشى الصوت الشّادي للحظةٍ، ثمّ عادَ يترنّمُ بالشكوى ذاتها. كانت النّجوم تدور ببطءٍ فوقنا. لمحتُ الشِّعرى اليمانيّة قريباً من الأفق، وقد أفِلَت نجمةُ الرّب شوكرا. أتذكّر ونحن في الكهف حينَ رسمت سوريا على جلدي بالرّماد نجمة بنات نعش الكبرى[1] التي يراها المرء على مستوى الأفق، وقد أخبرتني أيضاً عن «جنات»[2]، وعن الباباسا،

---

(1) تسمّى في الهنديّة سابتاريشي، أي نجمة الحكماء السّبعة.

(2) Jinnats: أجسامٌ سماويّة يفترض أنّها غير مرئيّة للبشر، تعدّ حاميةً للعائلات ورؤوفاً بها وفقاً للمعتقدات الهندوسيّة.

طبقِ الخالدين: أو الأرزَ بالحليب. في تلك اللّيلة كنّا نحن من صنعَ كوكباتٍ على الشاطئ، لكأنّنا قلبنا الكون رأساً على عقب، ثمّ أخذنا نساب رويداً، وبلا وِجهةٍ، على طوْف الحمم البركانية، بعيونٍ متحرّقةٍ من فرطِ ما طالعَت المستقبل في ألسنة اللّهب. أين هم الآن من أبحروا على المركب الشراعيّ هذا اليوم؟ أتراهم ينامون في مخيّمهم، هنالكَ على الطرف الآخر؟ أم يجلسون في مقرّ الإدارة، تحت شجرةِ العملاق الخانق الذي حدّثني عنه جاك، أم على أرصفةِ الميناء، أم في أكواخ القشّ في باوْدرز مِل، متكدّسين مثل طيورٍ حبيسة، تلفحهُم الرّياح وتلوحّهم الشمس، وأثر الصّخور السّوداء مطبوعٌ على أجسادهم؟

لا أعرف أين هم، أمّا نحن على جزيرة بلات، فقد عشنا بصحبة الموتى، رمادُ المحارق في أفواهنا، منثوراً على ملابسنا وشعرنا. وهذي العينُ التي لا يُطبقُ لها جفنٌ ولا تتوقّف أبداً عن اختراقنا بنظرتها الغريبة الممتزجة بالضوء، نظرةِ الطيور التي تمسح الأفق، وعينُ الريح على الصخور، وحديثُ الرّيح والبحر، ورعشةُ الموج الطويلةُ التي تولَد في الطّرف الآخر من المحيط، وهذا الاهتزاز الذي لا يتوقّف.

التحقَت بي سورياڤاتي عند نهاية الشاطئ. عانقتْني فشعرتُ بدفء أنفاسها في اللّيل. عدنا متهاديَين إلى مكاننا على المنصّة. وجاء أناس آخرون وجلسوا قرب نارنا، زوجان مهاجران. المرأة فتاةٌ في مُقتبل العمر، تكاد تكون طفلة. كانت عيناها تتقدّانِ ببريق معدنيٍّ في وهج الجمر. وحين وقفَت لحظةَ وصولنا، رأيت أنّها حامل، وستضع حملها عمّا قريب. كانت سوريا تعاملها بلطفٍ شديد، تتحدّثُ إليها، وتناولها الشاي، وتُعينها على الجلوس إلى الأرض، في الموضع الألطف جوّاً،

حيث مجرى الريح.

وكانت سوريا تحدّثني أنا أيضاً، ربّما بصوتٍ داخليّ، أشبهَ بوشوشةٍ، أو تهويدة. كانت تقصُّ عليّ حكايات طفولتها التي كانت تحكيها لها أنانتا، وأسطورةَ الملكة لاكشميباي.

استلقيتُ بدوري على الأرض أتأمّل النّار والسّماء السوداء حيث تحوم الخفافيش. لم تعد تراودني رغبة في الانتقام. فكلّ ما قسا وتصلّب فيّ من ذكرياتٍ وأحلامٍ خلال أعوام الانتظار في نزل لوبير، في روي ماليزون، حتّى باتَ كحجارةٍ في صدري، ها هو يتفتّت الآن ويتلاشى.

أيّ ليلٍ طويلٍ ينضاف إلى كلّ اللّيالي، إلى توالي الأيام على الجُزر الحجريّة، وتتابعِ الأمواج في عرض البحر، وأنا آخذٌ في الابتعاد عن تلك النّار التي كانت تحرّقني وتحصّن قلبي.

حين غادر جاك روي ماليزون متوجهاً إلى إنجلترا، ظننتُ أنّني سأموت بسبب ذلك، ولمّا رأيته مرّةً أخرى في الصيف التّالي، لم أعرفه بذلك الوجه الغريب، وجهِ شابٍّ راشدٍ، وتلك النّظارات الصغيرة ذات الإطار الفولاذيّ التي ينظر من خلالها إلى العالم كمن ينظرُ من عدسةٍ مكبّرة. أردتُ أن أموت في تلكَ اللّيلة، لحظةَ غادرتُ المهجع بمنامتي، ومشيت بين أكوام الثّلج في فناء المدرسة، ثمّ تسمّرتُ أمام السّور إلى أنْ سقطتُ أرضاً، وكان فليشو يناديني فزعاً. كنت أسمع وشوشةَ البحر الخفيفةَ من عزبة آنّا، وهديرَ الأمواج الذي عبَرَ اليابسة كلّها وبلاط الساحةِ حتّى وصلَ إليّ، كي يحملَني ويعيدَني.

لم يعد عندي أدنى رغبةٍ في الانتقام. فما همّني ألكسندر أرشمبو؟ ما همّني ما سيفعله بي كبارُ العائلةِ، الأعضاء البارزون في الحكومةِ الجماعيّة

بشعارهم المتغطرس «نظام، قوّة، تقدُّم»؟ الآن فهمت: ما كان لهم أنْ يحتلّوا حياتي أكثر من ذلك. فها هي الرّياح الآتية من الطّرف الآخر من الأرض تهبّ عليهم وتمحوهم، وهدير المحيط يغطّي على أصواتهم. فالحقيقة بسيطةٌ وجميلة، إنّها في الضوء المتلألئ على رصيف البازلت، وفي عظمةِ البحر، وفي هذا اللّيل المُضاء على طول خليج باليساد مثل مرآةٍ للمطلق. الحقيقيّ هو وجه هذه السيّدة، وجهها العتيق الشديدُ العذوبة، ولطف إيماءات الرّجل الذي إلى جانبها، وطفلهما الذي سيولد قريباً؛ هو حبّ سوريا، وأنفاسُها الهادئة على صدري، والدّمُ النّابضُ في صدرها، وطعمُ الرّماد على شعرها وشفتيها، وصوتُها حين تنطق اسمي، حميماً هادئاً مثل أغنية، بْهايْ، أخي؛ هو يامونا التي تحملها بداخلها- النهر الذي وُلدت فيه أنانتا- وشقيقها ياما ابن الشمس، مَن تضَع علامته على جبينها بقطرةٍ من خشب الصندل كأنّها عينْ الذاكرة. وهذه الأغنية التي تُدندِنها الآن قبل أن تغفوَ، لي أو للطّفل الذي تحمله في رحمها، وعيناها مفتوحتان في ضوء النّار إذ تخبو رويداً رويداً: لايي أغنية كالا الذي دخل البيت بهدوء، وخلع نعلَيه وأشعل قنديله وقال لمساعده هامساً: ليتارا، راقبْ ولا تنسَ رميَ كرة الطين إذا استشعرت خطراً... كاجا شاما، أحد الزُّط يراقبك! ثيب! جا! اختبئ! لايي لوغ غايا! شورم! كالا لوغ غايا، سرِقتُكَ انتهت، ومات اللّصّ!

خبَت نارُنا ولم تعد سوى كومةٍ من جمْرٍ أحمر. وسادت سكينةٌ عظيمةٌ على الشاطئ كأنّها الهدوءُ بعد العاصفة. وكان البحر ينساب مَهيباً.

عاد البعوض بعد أنْ تلاشى الدّخان. تدثّرت سوريا بشالها الأحمر الكبير، وأخذ الشّابُّ الهنديّ الجالس على الطرف الآخر من الجمر يُهَويّ على زوجته أثناء نومها بطرف قميصه.

تمدّدتُ ملتصقاً بسوريا كي أشعر بدفء جسدها وبأنفاسها في تجويف كتفي، وانسبنا معاً عبر البحر حتّى آخر الزمن. إنّني لم أعِش ليلاً قبلَ هذا اللّيلِ. كان ليلاً أطول من عمري كلّه، وكلّ ما كان قبله لم يكن سوى حلم.



لقدَ رحَلتا، ولسوف تختفيان. أودّ أن أراهما وأستبقيهما لحظةً أخرى، كما هما، أنانتا وجيريبالا، جالستَين على رصيف الميناء، بين جذور الأشجار العظيمة في مقرّ إدارة المؤن، ومن حولهما كثيرٌ من المهاجرين، بعضهم جالسٌ في الظّلّ وصررهم أمامهم، وآخرون يروحون ويجيئون في ملابسهم الغريبة، وفي ملامحهم علامات الترقّب والخوف، والنساء يرتدين الساري الورديّ، وأساورَ كبيرةً من نحاسٍ، وخلاخل، والزّمامُ يبرق في فتحة أنوفهنّ مثل قطرةٍ من ذهب. والرّجال نحيلون لوّحتهم الشمس، وجوههم أعتمتها اللّحى، وعيونهم تلمع مثل بلّورات الغالينا[1].

على الأرصفة، تحت أشّعة الشّمس، ينتظر السّردارات لحظةَ الرّحيل، مرتدين سُتراتٍ عسكريّةً إنجليزيّةً مستعملةً وعمائم، وفي أيديهم عصيّ الأبنوس الطويلة.

في وقتٍ مبكّرٍ من صباح ذلك اليوم، جمّعَ وكيل شركة بيرد وشركاه- واسمه ليندزاي، وكان يرتدي بذلة سوداء مثاليّةً وقبعة «هِلمت»-، جمّعَ العمّال حسب أسماء مصانع السّكّر في سهول فيلهلم، وموكا، وريفيير

(1) معدن كبريتيد الرّصاص الثنائيّ، الذي يتبلور في أشكالٍ ثُمانيّة الأسطح.

نــوار. ذهبَــتْ أنانتــا وجيريبــالا للجلــوس تحــت الأشــجار مــع المهاجريــن إلى مــوكا، فيــما توجّهَــت مــاني مــع ابنهــا إلى الطّــرف الآخــر مــن رصيــف الميـنــاء. وكانـــت الخيـــول مربوطـــةً عـــلى طـــول الطريـــق اســتعداداً للرّحيــل الوشــيك.

لم تـــترك أنانتـــا يـــد جيريبـــالا، كانـــت تشـــدّ عليهـــا بقـــوّة، كـــما في اليـــوم الـــذي عبرتـــا فيـــه السـلّم للصّعـود إلى القـارب في بهوانيبـور. أرادت أنْ تتحـــدّث، وتســـأل والدتهـــا، لكـــنّ صدرَهـــا كان منقبضـــاً. وكان صمـــتٌ هائـــلٌ يخيّـــمُ فـــوق المرفـأ كأنّ شـيئاً مـا عـلى وشـك الحـدوث. حتّـى الطيــور عــلى الأشــجار قــد كفّــت عــن التغريــد.

بــدأ الرّحيــل أخــيراً عنــد السّــاعة العــاشرة صباحـــاً. غـــادرت فِـــرقُ العـــمال أوّلاً ســـيراً عـــلى الأقـــدام باتّجـــاه غرانـــد ريفيـــر أو كامـــب بينـــوا أو بـــو باســـان. اصطفّـــوا أزواجـــاً مثـــل الســـجناء، حفـــاةً في معظمهـــم، ورؤوســـهم ملتفّـــةٌ بقطعـــةِ قـــماش، يعلّقـــون أمتعتهـــم عـــلى أكتافهـــم.

ثـــمّ نـــادى الوكيـــل مـــن أجـــل الانطـــلاق إلى ريفيـر نـوار. لمحـت أنانتـا طيـف مـاني النّحيـل في البعيــد. وتقدّمــت مــع الآخريــن، وصعــدَت دون أن تنظــر إلى الــوراء، وشرع الحــوذيّ يســوط

الخيـول فابتعـدت العربـة عـلى طـول الطريـق وتـوارت خلـف البيـوت. ومـا هـي إلّا لحظـاتٌ حتّـى نـودي اسـمُ ألمـا، فانضّمـت جيريبـالا وأنانتـا إلى المهاجريـن الذيـن سيسـتقلّون العربـة المتّجهـةَ إلى هنـاك. جلسَـت جيريبـالا في آخـر مقعـدٍ وأنانتـا عنـد قدميهـا. وانطلقـت العربـات واحـدةً تلـو الأخـرى تجرّهـا الخيـول المُنهَكـة، وعجلاتُهـا تـصِر عـلى الرصيـف. كان الحـرّ شـديداً حتّـى في ذلـك الوقـت المبكّـر، فأخـذت النسـاء يروّحـن عـلى أنفسـهن بسـعف نخيـل الرّافيَـة. وكان الغبـار يتسـلّل إلى الداخـل عـبر السّـتارة المشـمّعة، رماديّـاً في البدايـةِ، ثـمّ صـار أحمـرَ مـا إنْ غـادرت العربـاتُ المدينـة مجتـازةً الحقـول نحـو جبـل سـينيو في بـور لويـس.

التفّت جيريبالا بشالها، لكنّ أنانتا لم تستطع إلّا أنْ تنظر عبر فتحةِ السّتارة لترى بيوتَ المدينة التي كانـت ملامُحها تختفي فـي سحابة الغبار، وحـوضَ الميناءِ الأزرق الكبير حيـث ما زالـت تُلمَح صواري السفن. كان هذا كلّه يمضي بعيداً، وبات ينتمي سلفاً إلى عالمٍ آخر.

كان الغبـار في قريـة بـّايْ يتسـلّل إلى العربـة بقـوّةٍ، حتّـى أنّ الصغـيرة بـدأت تسـعل، لكنّهـا

دفعت بعيداً يد أمّها التي حاولت أنْ تحميَها تحت شالها، فقد أرادت أن ترى كلّ تفصيل على الطريقِ، كلّ كوخ وغيْضة. كانت صخرةُ جبل أوري الداكنة تُلمَحُ من كثب، ونصفها متوارٍ في العتمة. وعلى الجانب الآخر، تمتدّ الوديان الحمراء التي تنحدر صوب نهر موكا، والتلالُ الكثيفة، والحدائق، وبوّابات المستعمرات الزراعيّة الكبيرة: **باغاتيل**، وبوكاج، **وأوريكا**. ثمّ ينعطف الطريق دائراً حول الجبل، حيث يقلّ الغبار. وكانت تهبُّ أحياناً نسمةٌ عليلة، وتَسمع أنانتا خرير المياه المتدفّقة بين الصّخور السوداء، وتشاهد تحليقَ الفراشات وطيور الشحرور، وطيوراً أخرى حمراء.

توقّفت العربات عند معبر سوياك حيث فكّ الحوذيّون الخيول لسقيِها، فاستغلّ المهاجرون الفرصة للنّزول وإراحة سيقانهم. ابتعدت النساء خلف الدّغل لقضاء حاجتهنّ، وجلس الرّجال على ضفّة النّهر المحفوفةِ بأشجارٍ يُلمحُ من بينها الماء الذي بلون السّماء، ومنها أشجار المانجا. وقد أخذ الأطفال يرشقونها بالحجارة على أمل أنْ

يسـقطوا ثمارهـا. لكـنّ النسـاء صحـنَ عليهـم في قلـق. إذ مـا زالـت تُتَناقـل أسـطورةُ الهاربَـين، راسـيتاتان وسـكالافو العظيـم اللّذيـن فـرّا إلى الجبـال في مرتفعـات بـوس، أو في مضائـق نهـر بروفونـد، وصـارا يهاجمـان قوافـل العـمال، ويخطفـان الأطفـال.

وحـين همّـوا بربـطِ الخيـولِ ثانيـةً، دقّـت بحوافرهـا الأرض مُتملْمِلـةً. ثمّ انطلقـت مجموعةُ العربـات مـرّةً أخـرى متدحرجـةً عـلى الممـرّ البازلتـيّ، وهبطـت السّـهل نحـو حقـول القصب الشّـاسعة المتماوجـة مـع الرّيـح، ونحـو بيـل روز وأغريمـون، حيـث أطيافُ مصانـع السّـكّر العاليةُ التـي تبـدو عائمـةً وسْـطَ البحـر الزمـرديّ مثـل بواخـرَ ضخمـة، مـون ديزيـر، وسيركونسـتاس، وبـار لـو دوك، وصـولاً إلى أخفـضِ بقعـةٍ، قـرب أحـد السّـدود، حيـث عزبـة ألمـا.

لا بـدّ أنّهـا كانـت الواحـدة ظهـراً عندمـا وصـل الموكـب قريبـاً مـن ألمـا. توقّفـت العربـات عنـد مفـترق الطـرق، وبـدأ المهاجـرون يسـيرون تحـت أشّـعة الشـمس نحـو بوّابـةِ العزبـة. ثـمّ اسـتأنفت العربـات طريقهـا وسـط الغبـار،

صوب الأراضي الشرقيّة، بون فين، إسبيرانس، وكامب دو ماسك.

سار العمّال بالترتيب تحت قيادةِ السّردار. وكانت سيقان القصب عالية جدّاً فلم تستطع أنانتا رؤية أيّ شيء آخر، حتّى وإنْ وثَبت. لكنّها لمحتْ في نهاية الحقول قمّة ميليو متواريةً في غيمة. مشت رافعةً رأسها، والسماءُ من فوقها جميلةٌ شديدة الزّرقة، تتخلّلها هنا وهناك غيومٌ بيضاء. وكانت أوراق القصب تلتمع بضوء الشّمس، وفي الأجواء تنتشرُ رائحةٌ قويّة غريبة، رائحةُ عصير القصب العذب، والأوراق المتخمّرة.

وصلت الجماعة الصغيرة أمام مدينةِ ألما، بل هي بالأحرى قريةٌ لفحتها الشّمس، لا تجِد فيها ركناً ظليلاً، وبها بيوتٌ متشابهةٌ من جدرانٍ مطليّة بالجير، وسقوفٍ من ورق الشجر. ولا أحد كان في استقبالهم. فكلّ الرّجال كانوا يعملون في الحقول.

توقّف المهاجرون للحظةٍ وكأنّهم يتردّدون في الدخول. أمسكَت أنانتا بيد جيريبالا من جديدٍ، وقد انتابها القلقُ ذاته الذي شعرت به يوم الرّحيل، يوم استقلّت القارب الرماديّ

الكبير. كان كلبٌ يمشي في ساحة ألما متثاقلاً من الجوع. وعلى مبعدةٍ، كانت تنتصب شجرةٌ عملاقةٌ، تينةٌ مزيّنة بأكاليل، كأنّها إله.

دخلوا المدينة واحداً تلو الآخر مُقتفين طيفَ السّردار الطويل. وتناهى إلى أنانتا للمرّة الأولى من بعيدٍ صخب الطاحونة المدوّي محمولاً مع عصفاتِ الرّيح الحارّة، شبيهاً بهدير البحر على الشّعاب المرجانيّة.

لاحت بوادرُ الفجرِ على الطّرف الآخر من الجزيرة، بقعةُ نورٍ تخترقُ العتمَ في البدايةِ، وسرعان ما ظهرت الغيوم الرّماديّة الخفيفة، ريشاتٍ طويلةً ساكنةً، فوق الأرض التي غامت معالمها. وعادت كتلةُ البركان السوداء لتصبح مرئيّةً. نهضت سوريا لتتأمّلَ المشهد، وكانت ترتجف قليلاً. قالت بشيءٍ من الثّقةِ «إنّه مثل نهاية العالم». «عندما ينتهي العالم، سيكون هذا اللّون، ذلك أنّ الهواء سيترك الأرض ويذهب بعيداً جدّاً، صوب الشمس».

سِرنا على الشّاطئ بين الناس المستغرقين بعدُ في نومهم. كانت الحرائق قد خلّفت دوائر سوداء في الرمل، فنثرت الرّيحُ الرّماد على الأجساد النّائمة.

وكانت سوريافاتي تمشي أمامي حاثّةً الخطى لتكون أوّل الواصلين إلى النّبع عند سفح البركان. كانت صخور البازلت لا تزال باردةً، تتلألأ بذرّاتِ النّدى الناعمة. وحين بلغنا أوّل الأحواض، طارت الطيور بعيداً وسُمع حفيف ريشاتها القويّ: البلشون الأبيض والمكاو وطيورٌ صغيرةٌ أخرى مثل العصفور البنغاليّ. كان الماء بارداً، متشرّباً بعدُ باللّيل. غسلت سوريا وجهها وذراعَيها، وشربت طويلاً، ثمّ مرّرت يدها على شعرها لتنعّمه. وفي الأسفل، على حافة الشاطئ، كان رجالٌ يقفون قرب الجدول الذي يختلط بالبحر، يؤدّون صلاتهم. فيما أتى آخرون كي يملؤوا قِرب الماء من أجل الشاي. فغسلوا الأباريق والأكواب، وعادوا إلى النيران الموقدة حديثاً.

ولمّا طلع ضوءُ النهار، خِلتُ أنّني سمعت صوتَ انعكاسه على أوراق النبّات، وعلى الأرض، وفي موج البحر، كأنّه نفَسٌ عَظيم. وفي اللّحظة

ذاتها، سمعتُ صوت المؤذّن يتردّد في عمق الخليج، من مكان ما على الشاطئ. كان الصّوت يرتفع مرتعشاً قليلاً، فتُبعده الرّيح وتقرّبه، كأنّه أنينٌ متّصلٌ لطائرٍ يحلّقُ مدوّماً. ثمّ خيّم الصّمت من جديد.

وأُشعِلتِ النيران ثانيةً على طول الشاطئ. إذ وجدَ الرجال تحت الرّمادِ القديم جمراً متّقداً، فألقموه أعواداً جديدةً وطحالبَ جافّة. وعادت رائحة الدخان تنتشرُ فوق باليساد، وانهمكَ أحدهم في إعداد الأرزّ وفطائر الدولبوري، فملأت رائحة الطعام الخليج وحلّقت في السماء. إنّها لنْ تكون نهايةَ العالم إذن.

وصل المركب الشراعيّ، فأخذ المهاجرون يجتازون تباعاً جسر الحبال في البحر السّاجي، تحتَ سماءٍ صافية. كانت حُزمٌ كبيرةٌ من الضّوء تعبرُ أحياناً فوق البحر والزّبد، فتحرّق أكتافنا. وعند الساعةِ الحادية عشرة ظهرَ قاربٌ ثانٍ، مركبٌ قديمٌ بصاريينَ، وبحمولةِ مئة طنّ، أشرعته المربّعة الشكل منتفخةٌ في الرّيح الشرقيّة.

لم أستطع إلّا أنْ أفكّر في مركب **ليسبيرانس** الذي وصل على متنه جدّ جدّي إلياسان إلى إيل دو فرانس قبل مئة عام، بعد أن غادر مسقط رأسه في سان مالو وأتمّ رحلته حول رأس الرّجاء الصالح.

تقدّم القارب وئيداً، منحرفاً إلى اليسار، ثمّ أنزل أشرعته ورسا أمام القناة، إلى الخلف قليلاً من مركب **لودالوزي** البخاريّ. ولمحتُ على متنه البحّارة المسلّحين بالبنادق.

كنّا أنا وسوريا آخر من استقلّ المركب الشراعيّ. وفيما كنّا نصعد إلى مؤخرة الزّورق الذي سيحملنا إليه، التفتُّ لألقيَ نظرة على شاطئ

باليساد حيث ينتظر المائة عامل المتبقّين المركبَ التّالي. وعلى مبعدةٍ يسيرةٍ، قرب الرّصيف غيرِ المكتمل، رأيت طيف الشّيخ حسين، بردائه الذي يرفرف في الريح، يقفُ بمهابةٍ مُصالباً ذراعيه. أغلب الظّنّ أنّه قرّر البقاء حتّى النهاية، وأنْ يكون آخر رجلٍ يغادر جزيرة بلات. صعد راماساومي قبلنا بمساعدة الشبّان. وفي الزّورق، تقاطعت نظراتنا، تفحّصني لثانية واحدة، كما لو كان يريد أن يخبرني أنّه عَرفني. كان التّعب قد نال من ملامحه، وبدا هزيلاً جدّاً، لكنّ نظرته كانت تُشعّ بالطّاقة نفسها، والابتسامةُ لا تفارقُ شفتَيه.

كانت سوريا متعبةً أيضاً. أسندت رأسها إلى كتفي، واستسلمت لترنّح الزوّرق. وقبل أن ننطلق في البحر، وضعَت حول عنقي كتعويذةٍ القلادةَ التي تحمل رقم التسجيل، وكانت جدّتها قد أعطتها لأنانتا قبل أن تغادرا بهوانيبور. الآن صار ليَ اسمٌ وعائلةٌ، وصار في وسعي دخول موريشيوس.

جلس المهاجرون تحت برجِ المركب الشراعيّ القديم المتهالك، محتمين من الرّيح، تلفّهم حلقات الدخان المنبعثة من المدخنة. وجدنا مكاناً بجوار الزوجَين الشابّين اللّذين تقاسمنا معهما نارنا في تلك اللّيلة، فجلسنا هناك في صَمت. وسرعان ما تحرّك لودالوزي، دون إعطاء إشارةٍ، ودون رفع الأشرعة، وسط هدير محرّكاته القويّ. كانت زرقةُ البحر في ظلّ البركان من خلفنا داكنةً ضاربةً إلى البنفسجيّ. وقد عادَ خليجُ باليساد ليكون مجرّدَ تجويفٍ مكسوٍّ بالزّبد على طول السّاحل، حيث أشجار النخيل تتثنّى مع الرّيح. انعطف المركب الشراعيّ وئيداً، وفي الأمام مباشرةً، تحت مقدّمِه الذي يضرب الموْج، لاحت صخرة كوان دو مير، وخطّ موريشيوس الطويل، حيث الجبال الفاتنةُ محتجبةٌ خلف الغيوم.


آنا

أغسطس 1980

كانت تمطرُ خفيفاً على الطّريق المؤدّية إلى روز بيل. توقّفت الحافلةُ وسط ازدحام مروريّ، فرأيْت زوجَين يسيران على قارعةِ الطّريق، بمحاذاة البيوت الخشبيّة المتداعية التي تتسرّب من مزاريبها المياه. ولا أعرف لماذا جذبا انتباهي. لم يكن فيهما شيء استثنائيّ، عدا شبابهما ربّما. كانا هنديّين كلاهما، الرّجل ذو بشرة شديد السّمرة، يخطّ شفتَه شاربٌ أسودُ رفيع. وكلاهما يرتدي ثياب الفقراء، ثيابَ عمّال المزارع، وقد بلّلهما المطر النّاعم الذي ما برح يتساقطُ منذ ساعاتٍ. كانت المرأة تحمل طفلاً رضيعاً، يقارب عمره ثلاثة أشهر. وعلى الرغم من العتمة، لمحتُ رأسه الأصلع وعينَيه المتورّمتين من النّعاس. كانت أمّه تلفّه في شالها الكبير، لكنّ هبّةً من ريحٍ فتحت هذا الملاذ، فبلّل المطرُ الطّفل. وكانت الشّابةُ هي من استرعت انتباهي على وجه الخصوص. كانت فائقةَ الجمال على الرغم من فقْرِ مظهرها، فوجهها لا يزال وجه فتاةٍ يافعةٍ، حيث العينان، في ظلّ الرّموش الكثيفةِ، وتحتَ قوسِ الحاجبينِ، تتّقدان ببريق الكهرمان. وتحت الشّال الباهت المزركش بكلّ الألوان، لمحتُ، في ثانيةٍ، شعرَها الأسود مفروقاً بخطٍّ صُبِغَ باللّون الأحمر. وكان في منتصف جبينها، أعلى الحاجبَين، قطرةٌ باللّون نفسه لم يمحُها المطر.

وما أذهلني فيها بالأخصّ مشيتُها التي تنمُّ عن قوّتها وثقتها. كانت الحافلة تشقّ طريقها ببطءٍ بمحاذاة البيوت، وكانت هي تسير بالإيقاعِ نفسه، يفصلها عنيّ الزّجاج الذي تسيل عليه قطرات المطر، والرّجل بجانبها في الظلّ. كانا يسيران معاً على حافة الطريق، متعثّرَين بالمواضع الوعرةِ فيها ومتجاوزَين عن برك الوحل. لم يكن أحدهما يلمس الآخر لكنّهما كانا يسيران جنباً إلى جنب بالخطوة ذاتها، على أنّها هي من توجّه السير.

كان الرّجل يحمل في يده اليمنى ما يشبه حقيبةً بلاستيكية بنّيةً، وقميصه ملطّخ بالطّين وملتصق بجسده، وكان ينتعل خُفّاً بلا جوارب. أمّا هي فترتدي شالها القديم وساريَها الأخضر المائيّ، وتنتعل صندلاً بلاستيكيّاً بكعب لم تُوثَق جميع أربطته (ربّما يكون الإبزيم مكسوراً)، منحنيةً قليلاً اتّقاء المطر، وضامّةً حِمْلها الثمين إلى صدرها، دون أنْ يخفيَ ذلك هيئتها الرّشيقة اللّينة، وحيويّة شبابها ومَلاحَته. وفي لحظةٍ ما، التفتتْ إلى الحافلة، فعبرتْ نظرتُها الثّاقبة زجاج النافذة واخترقتْني. وعلى الرّغم من هطول المطر وقطرات الماء المنهمرة على الزجاج، فقد انتابني شعورٌ بأنّها عنَتني حقّاً بتلك النظرة الشّفيفة التي لا تعرف الخوف. ثمّ انفتح تقاطُع روز بيل، وانطلقت الحافلة بعيداً. ولّما التفتُّ، رأيت عبر المرآة الخلفيّة الزوجَين واقفَين على حافة الرّصيف الذي تضيئه واجهةُ متجرٍ صينيٍّ مليءٍ بآنيةِ الزّنك، وحيث لفّاتٌ من حبال اللّيف تتمايل مع الريح. كانا شديدَي اللّطف كلاهما، يقفانَ معاً باستقامةٍ على الرّصيف الضّيق في ضباب المطر، في ريعانِ شبابهما، متّحدَين جدّاً،

ماضيَين إلى حيث لا أدري، بحثاً عن سقف لطفلها ربّما، أو عن وظيفة، أو حظٍّ سعيد.

خشيتُ أن أضيّعهما إلى الأبد، كِدت أصيحُ في السائق «توقف!» وأنزلُ هناك لألحقَ بهما.

وماذا كنت لِأقول لهما؟ ماذا كنت لأفعل من أجلهما؟ إنّنا لا نعيش في العالم نفسه، بل إنّنا غرباء تماماً بعضنا عن بعض. ومع ذلك، فقد بدا لي أنّني ما أتيت إلى موريشيوس، بعد كلّ هذه الأعوام الطويلة، وبعد أجيالٍ متاليةٍ في المنفى، إلّا من أجلهما.

الآنَ وقد تحرّرت الحافلةُ من أزمةِ المرور، تحرّكت بأقصى سرعةٍ على الطريق المفضي إلى كوربيب، وكاتر بورن. والحقيقةُ أنّني جئت باحثاً عن صورة فقطْ، مثل السيّاح في سوق بور لويس الذين يفتشون عن تذكاراتهم بعنايةٍ، كمن يفتّشُ عن إبرةٍ في كومةِ قشّ. فمن أبحث عنهما منذ وصولي إلى موريشيوس لا وجه لهما: ليون وسوريافاتي، هل يعني هذان الاسمان شيئاً؟ مَن أبحث عنهما ليس لهما اسمٌ في الحقيقة، إنّهما محضُ ظلَّين، أشبهُ بشبحَين، وخُطاهما لا تنتمي إلّا إلى دروب الأحلام.

لقد أتيت إلى هنا كي أرى آنّا، لا بل «الآنّتين». أولاً، منزل العزبة قرب المدينة، وطَللُ مصنع السكّر الأسودِ الأشبه بحطام سفينةٍ وسْط حقول القصب، ثمّ آنّا الأخرى، آخِرُ أفراد عائلة أرشمبو، ابنةُ كلود كانوت وحفيدةُ كبير العائلة.[1] هي أسماءٌ أُعطيتُها لمّا وُلِدتُ، مثلما

(1) كان الكاتب قد ذكر في فصلٍ سابقٍ آنّا بصفتها «ابنة لويس، حفيدة كبير العائلة»، والآن =

يُمنَحُ آخرون ألقاب النبلاء أو يَرثون أسهماً في سوق الأوراق الماليّة، إنْ جاز التعبير، بما فيها اسم ليون الذي أحمله تخليداً لذكرى المفقود، أو ربّما لملء الفراغ الذي خلّفه اختفاؤه. فمنذ طفولتي وهذا الفراغ مطبوعٌ في داخلي، مثل العلامة التي يتركها إصبعٌ قد ضغط بشدّةٍ على الجلد.

ربّما انتظرتُ أكثرَ مما ينبغي. كان عليّ أن آتيَ إلى هنا وأنا في الثامنة عشرة من عمري، حينَ كان أبي ما يزال حيّاً، وآنّا لا تزال في السّابعة والستين من عمرها، وتقيم بعدُ في كاتر بورن، في ذلك البيت الكريوليّ القديم الذي رأيته البارحة أثناء عبوري، مائلاً قليلاً على جانب الطريق مثل قاربٍ جانح. كان مُحتفظاً بعدُ بجميع الأثاث الموروث عن كبير العائلة، والأمتعة القديمة التّابعة لشركة كومباني ديزآند، ومكتبات جناح الشّهاب، حيث علب الأحذية الكرتونيّة المليئةُ بكتبٍ غامضة، وصورٍ مصفرّة، وكلّ ما شابه ذلك من «خليطٍ عديم القيمة»، كما وصفَته في رسالتها إلى أبي. وحين ترَكت البيت الذي لم تعد تقوى على العناية به وحدها، وذهبَت لتستقرّ في دير ماهيبورغ، أحرقت مُبتهجةً الأوراق والصّور جميعها، ويبدو أنّها رقصت أمام النّار التي أخذت تلتهم ذاكرة آل أرشمبو وهي تضحك مثل ساحرة، على نحو أفزع الجيران. أعطت الأثاث لصيّاد كريوليٍّ من فيل نوار، والآنيةَ

= يقدّمها باعتبارها «ابنة كلود كانوت وحفيدة كبير العائلة»، ما قد يفصح عن نسيان أو لبس بسيط، إلّا إذا كان «كلود كانوت» اسمَ أمّها. وبالفعل فإنّ الاسم الشخصيّ Claude يُعطى في الفرنسية للذّكور والإناث. هي بأيّ حالٍ عمّة ليون الشابّ، سُمّيت باسم عزبة العائلة، حيث وُلِدتْ، وهي الشّخص الوحيد الذي يلقاه ليون حيّاً من آل أرشمبو عندما يزور موريشيوس بحثاً عن ماضي أسْرته. (المُراجع)

الفخاريّة التي تحمل علامة كومباني ديزآند للرّاهبات اللّوريتانيّات، من أجل دار الأيتام، وباعت كلّ ما أمكنها بيعه: الكتب المُجلّدة والمحابر، وساعة الحائط الكبيرة، واللّوحات، وحتّى قبو النبيذ في مركب ليروندبل الموروث عن قرصانٍ قديم من عائلة أرشمبو، كان يقيم في سان مالو. وحينَ أتيتُ على ذكر القارب أمامها، لمع في عينَيها ذلك الوميض الشرّير وأجابت قائلةً: «كان ينبغي صُنع النّار بكلّ ما توفّر من خشب!(1)» لم تكذب الأسطورةُ، فقد كانت آنّا حفيدةً تليق بألكسندر، لكنّها تقف ببساطة على الطرف النقيض، فهي تمثّل التجرّد والرّفض وفرادةَ الطّبع.

الحَرّ في ماهيبورغ شديدٌ خانقٌ. فرياح الصّابياتِ التي تهبُّ من الشمال الشرقيّ تتكسّرُ على جبل بامبو. أمّا على طول الشاطئ المفضي إليها، من جهة جُزر لاباس الصغيرةِ، فالهواء منعشٌ، وكلّ شيء جميل، البحر بزرقته البهيّة، وخطّ الجبال المعتمُ الذي يُطلق عليه عنق الأسد.

ولكنْ ما إن يتوغّل المرء مسافةَ شارعَين في عمقِ المدينةِ حتّى تبدأ الجحيم. تقول آنّا إنّ الحرّ يشتدّ كثيراً في أبريل حتّى أنّها تنام مباشرةً على البلاط. آنّا طويلةُ القامة نحيلةٌ، ووجهها كثير التّجاعيد بلون الجلد المدبوغ، وشعرها رماديّ قصير، تجعّده بنفسها بمكواة الشّعر، وهي علامة تأنّقها الوحيدة. أمّا عيناها فحجران أخضران لامعان، بحدقتَين حادّتَين خطيرتَين. حين رأتني أوّل مرّة، تفحّصتني طويلاً،

(1) توظّف الشخصيّة هنا هذه العبارة المسكوكة بمعنييها، الحرفيّ الوارد أعلاه، والمجازيّ الشائع: استخدام كلّ الوسائل المتاحة لبلوغ الهدف.

دون أنْ تنبس بكلمة. فشعرتُ بنظرتها تخترقني مثل شعاع فاحص، ثمّ قالت لي: «لا يبدو عليك أنّك في الأربعين، إنّك أرشمبو حقيقيّ. فأبناء العائلة يبدون شيوخاً، وكلما شاخوا بدوا أصغر سناً». ثمّ أردفت: «لكن لا تظنّ أنّ هذا من باب المجاملة». كانت هذه المرّةَ الوحيدة التي حدّثتني فيها عن العائلة. لكنّها على أيّ حالٍ، تحدّثت مرّةً عن جدّي وجدّتي سوزان قائلةً: «أمّا هذان الاثنان، فكانا جميلَين حقّاً».

لم أسألها عن المفقود ولا عن سوريافاتي، فمنذ وقتٍ طويل لم يعد أحدٌ يتحدّث عنهما. كما لو أنّهما لم يكونا أصلاً، أو بالأحرى، كما قلت آنفاً، صارا أشبه بأثر إصبع على الخدّ. ومع ذلك، فإنّ آنّا تعلم جيّداً أنّني من أجلهما أتيت إلى هنا، وأنّني أريد أنْ أعثر على آثارهما، وأتبعَ بخطواتي دربهما، وألمس ماضيهما، وأرى ما رأت عيونهما، وأدخلَ في أحلامهما. لكنّ هذا شأني وحدي وآنّا لن تساعدني، هذا ما أفهمتني إيّاه.

آنّا هي الوحيدة والأخيرة، وهي تحمل بداخلها كلّ شيء. لمّا وُلِدَت، كانت عزبة آنّا -التي تحمل هي اسمَها- لا تزال قائمة، بحقولها الشّاسعة، ومدْخنة مصنع السّكّر، وقمائن الجير، ومراجل تُفْل القصب، والاصطبلات، وأكواخ العبيد القديمة. كان الطريق الذي يربطُ عزبة آنّا ببور لويس عبرَ غراند ريفير وكامب بينوا وبامبو بديعاً، مغطّى بالحصى المرجانيّ، تجتازه دوماً عرباتٌ تجرّها الثّيران أو الخيول. وكانت القطارات تصل إلى كلّ مكان، إلى بامبليموس، ونهر الرومبار، أو جنوباً إلى ماهيبورغ. أمّا اليوم فقد مُهّدت خطوط السّكك الحديديّة بالأسفلت.

في طريـق العـودة مـن الدّيـر اسـتقللْتُ مـن كوربيـب حافلـةً أسرعَـت بي عـلى طريـق ديسـيك، طريـق السّـكّر الضيّـق والمتعـرّج الـذي يمـرّ عـبر المسـاكن القديمـة.

اسـتأجرتُ في ماهيبـورغ سـيارةً مـن صينيٍّ اسـمه تشـونغ لي، كـي أذهب بهـا إلى المدينـة، وهـو مـن أجّـرني أيضـاً مكانـاً للمبيـت. كانـت السّـيارة مـن طـراز «بلوبـيرد»، قديمـةً متهالكـة، صفـراءَ بلـون القـشّ، ومقاعدهـا مـن فـرْو الخُلـد الـذي بـدا كأنّـه لُمِّـع بزيـت المحـرّكات. تعطّلـت في الحـال مسّـاحاتها فـكان علـيّ مـن حـينٍ إلى حـين أنْ أمسـح زجاجهـا الأمامـيّ بمنشـفتي. لم أجـد صعوبـةً في تعـوّد أسـلوب القيـادة في موريشـيوس، حيـث نصـف الجسـد يَـبرز مـن النّافـذة المفتوحـة، والمنشـفةُ ملتفّـة حـول العنـق مثـل وشـاحٍ مـن زمـنٍ غابـر.

وبالطّبـعِ، فقـد رفضـت آنّـا مرافقتـي قائلـةً: «ومـاذا سـأفعل هنـاك؟ إنّها حتّـى ليسـت بالمـكان الجميـل». تحدَّثَـت عـن الحمّـى التـي تـزور المدينـة كلّ شـهر، وعـن الأطفـال الكريوليّـين ذوي البطـون المتفخـة وبريـق العيـون المفـرط. وعـن الأعاصـيرِ التـي ينتظرونهـا، والمصاريـع والأبـواب المنيعـة، والفـرُش المطويّـة والمرصوصـة عـلى الجـدران، وذلـك الخـوف الـذي يبلـغ حـدّ الغثيـان.

حـين غـادر جـاك وسـوزان موريشـيوس إلى الأبـد، كان أبي وآنّـا لا يـزالان طفلَـين. الآن أبـي متـوفّى، وآنّـا لم تعـد لزيـارةِ البيـت ولـو لمـرّةٍ واحـدة منـذ سـبعةٍ وسـتّين عامـاً.

«بصراحـة، لا أعـرف لمـاذا تكلّـف نفسـك عنـاء هـذه الرّحلـة كلّهـا. لم يبـق شيءٌ هنـاك! مجـرّد كومـةٍ مـن الحجـارة!»

اصطحبتُ معي لِيلي، ابنة ماري نويل. حين أتت ماري نويل لتقومَ بأعمال التّنظيف (ضمن خدماتِ المبيت)، حضرت ليلي معها. ظلّت تنتظر في الخارج جالسةً تحت أشجار الترنوفوريّة. ليلي في السابعةَ عشرة من عمرها، عيناها سوداوان واسعتان وبشرتُها بلون كعكة الزّنجبيل. تتحدّث الكريوليّة والفرنسيّة، لكنها تفضل التحدّث معي بالإنجليزية. حينَ رأت سيّارة البلوبيرد الصّفراء، لمعت عيناها وطلبت منّي أن أصطحبها. لم تعترض ماري نويل. لا بدّ أنّها فكّرت أنّ مرافقتي، أنا ابن أرشمبو، تظلّ خيراً لها على كلّ حالٍ من التسكّع مع السيّاح الألمان والأفريقيّين الجنوبيّين المخيّمين في بلو باي، علاوةً على أنّ العمّة آنّا كانت ضامِني الأخلاقيّ.

وبالطّبع فقد أصابت آنّا. ففي المدينة، سلكتُ طريق القصب إلى العقار القديم. ثمّة عددٌ قليلٌ من الأكواخ من ألواحٍ خشبيّةٍ وصفيحٍ يشغلها عمّال المزارع، ثمّ يصبح الدّرب شديد الوعورة، مغموراً بالمياه ومهدّماً، ومحفوفاً بسياجٍ أخضر من القصب النّاضج على الجانبَين، وقد سُدَّ في نهايته بالكتل الصخريّة والأجمات. لم ترغب لِيلي في المُضيّ أبعدَ بسبب غزارة المطر. فانتظرَت في السيّارة وأبقت المذياع مشتعلاً. واصلتُ السّير على قدمَيّ إلى مدخنة مصنع السّكّر القديم البيضاء التي انهار جزؤها العلويّ. كانت الأجمات ونباتات الحشف المقوّس قد غزت الأطلال. ذرعْتُ محيط المصنع، ولكن دون جدوى، فلم أعثر على أدنى أثرٍ لبيت عزبة آنّا أو جناح الشّهاب. ولا وجود حتّى لكومةِ حجارة! لا بدّ أنّ سكّان المنطقة المحليّين استخدموا الحجارة لبناء البيوت الصغيرة التي رأيتها في المدينة عند مدخل الطريق.

كانت الرّيح تهبّ فوقَ القصب، محدثة صوتاً أشبه بهدير البحر، وشكّلت الغيوم قبّةً معتمةً معلّقةً فوق قمّتي **كور دو غارد وترو ماميل**. كان يسود جوٌّ من الغرابة والوحشة، وكأنّ أشكال الحياة كلّها في هذا المكان قد توقّفت بموت كبير العائلة.

راودَتني في لحظةٍ فكرةُ المُضيّ حتّى البحر، حيث تضرب الأمواج في السّاحل، وحيث ركض جدّي ثمّ أبي في طفولتهما، في حياةٍ أخرى، وعالم آخر.

استيقظ اليمام مطلقاً الصّيحات، مثلما كان يفعل، لا بدّ، حين كان أبي وجدّي يشقّان دربهما بين الأجمات، فتُجرّح أقدامَهما بالأشواك. لكنّني لم أجرؤ على المغامرة والذّهاب أبعد من ذلك. كنت أحسّ بشيء معتم مُطبقٍ يلتفّ حول ساقَيّ فيعوقني عن المضيّ قدماً، شيءٍ أشبه بسرٍّ أو أمرٍ محظورٍ لم أفهم قطّ ما هو، كأنّه سحرٌ أو طاقةٌ خفيّة.

كانت لِيلي تنتظر في البلوبيرد دون أنْ يعيل صبرها. فقد أمضت الوقت في طلاء أظافرها باللّون الأحمر القرمزيّ. لم تسأل أيّة أسئلة. فما أهميّة ذلك عندها، المدينة، وعزبة آنّا؟ إنّهما ليسا أكثر من اسمين، مكانين مثل غيرهما من الأمْكنة، منسيَّين قليلاً، ضائعَين في أعماق الحقول. ليس لدى ليلي سوى الزّمن المضارع، ولهذا فإنّ كلّ الأشياء مِلكها، ولا يمكن أنْ تكون قد فقدت شيئاً. إنّها ليست في حاجةٍ إلى أسماء تسكنها، وإنّما تحتاج فقط إلى مكانٍ للإقامة ووجبةٍ وبعض النّقود لشراء طلاء أظافرها، وقمصانها. كان المذياع يبثّ أغنيةَ تي فرير(1) «**أنيتا، فلتبقي عندنا، أنيتا**». هل يرقصون على

(1) Ti Frère (Jean Alphonse Ravaton): جون ألفونس رفاتون الملقّب بـ«تي فرير»، يعدّ ملك موسيقى السيغا الموريشوسيّة وهذه واحدة من أشهر أغانيه (1900–1992).

أنغام هذه الموسيقى على شاطئ تامارن الأسود، عندما ينتهون من قطع القصب؟ رمقَتْني لِيلي بطرف عينها. فقد رأت أنّنا مكثنا أطول من اللّازم في هذا المكان المشؤوم. قالت لي: «والآن عُد بنا! من فضلك!». عادت بلوبيرد العجوز إلى الطريق الرئيسيّ وهي تصِرّ وتهتزّ. كنت أنوي العودة على طريق الساحل مارّاً بلومورن وسوياك، لزيارة بيت الشّاعر روبرت إدوارد هارت دو كيتنغ[1]. لكنّ الوقت كان قد تأخّر، وبدا أنّ المطر لن يتوقّف.

في طريقِ عودتي عابراً ثانيةً من بور لويس، عرّجتُ على متجر (لا فلور موريشْيِن) لشراء علبةٍ من حلوى نابوليتان للعمّة آنّا، وهي الحلوى المرتبطة بذكريات شبابها. اختارت ليلي فطيرةً بالزّبدة أكَلتها واقفةً وهي تلعق أصابعها، مثل فتاةٍ صغيرةٍ شَرِهة. وانطلقنا ثانيةً حتّى بلغنا لسان إسني البحريّ، مع حلول اللّيل.

كانت آنّا في الثالثة والعشرين من عمرها عندما توفّي كبير العائلة بعد احتضارٍ مريرٍ دام أسابيع وأشهراً. كان جسده يتعفّن في مكانه، فقد عاش في عزبة آنّا وحيداً، إذ كان على قطيعةٍ مع ابنه، مكروهاً من العائلة بأكملها، وقد هجره جميع أفرادها، ولم يبقَ عنده سوى رجلٍ أسود مُسنّ، عبدٍ سابق يُدعى توبسي، ومربّيةِ حفيدته؛ يايا العجوز. ولم يكن أحدٌ يزوره، حيث هجره أيضاً رفاقه في الحكومة واحداً تلو الآخر، لقسوته وغطرسته.

(1) Robert-Edward Hart de Keating: شاعر موريشوسي، لُقّب بأمير الشّعراء الموريشوسيّين (1891- 1954).

وكان كلّما حضر جاك لرؤيته، في البدايات، طرده ناعتاً إيّاه بالدّجال والمتطفّل. ولم يكن يتقبّل سوى سوزان، ربّما لأنّها عاشت في باريس وليس لها أيّ صلةٍ بأسرته. زد على ذلك أنّها جميلة. وقد قال عنها ذات مرّة: «إنّ لها ملامحَ المرأة الباريسيّة المثاليّة: الأنف الأخنس، والفم الصغير، والعنق الأجيَد». كان جاك هو من روى ذلك لأبي، وهو يحدّثه عن الرّجل الذي دمّر حياته. كنت في التّاسعة أو العاشرة من عمري، وأتذكر جيّداً نبرة صوته الشجيّة حين كان يتحدّث في ذلك اليوم بعد العشاء، فيما أنا أتخيّل هذا الوحش وهو يصف هيئة جدّتي سوزان، محبوساً في بيته، كما لو كان في قصرٍ ملعون.

دُفن ألكسندر في كوربيب بمقبرة حديقة النبات حيث كان قد اشترى قطعة أرضٍ بعد وفاة زوجته. ذهبتُ لزيارةِ المكان في صبيحةٍ ماطرة، بدافع الفضول لا الورَع. إذ إنّني لم أحبّ المقابر يوماً، ما عدا مقابر المسلمين، حيث لا تَرى شيئاً سوى كومةٍ صغيرة من التّراب وحجر أبيض. بدا لي ضريح ألكسندر وجولي أرشمبو مُريعاً، بغرفته الكبيرة من الرّخام الأسود المستورد من الهند، والاسمَين المحفورَين بأحرفَ كبيرةٍ مذهّبةٍ اكتسَت مِسحةً من زِنجار. قرأتُ الأسماء على شواهد القبور المحيطة فلم أعرف أيّاً منها. فحتّى في موته، بقي كبير العائلة وحيداً، بلا أقارب ولا أصدقاء.

مَن أبحث عنه، لن أعثر عليه هنا. أقلّني دُني، زوج ماري نويل، وهو صيّاد من فيل نوار، في زورقه إلى المقبرة القديمة عند عاليةِ نهر لاشو. في الموضع الذي ينعطف فيه النهر، يصعد دربٌ موحلٌ إلى أعلى التّلة. مكث دُني بالقرب من الزورق، كي يراقبَ، على حدّ قوله.

لكنّني أعتقد أنه لم يرغب في زيارة السّادة البيض الذين دفنوا هنا. المقابر هنا أكثر تواضعاً، مبنيّةٌ من حجارة الحمم البركانية المتآكلة بفعل العوامل الجويّة. تعذّر عليّ قراءة الأسماء، باستثناء اسم العائلة «بيتو» ربّما، والاسم «بيير». ما أودّ رؤيته هو المحارق القديمة، في كوربيب وبور لويس، وفي وادي بريتر، ولومورن، وغران باي. لكنّ الجزيرة بأكملها ليست سوى حقل سُحقت فيه جثث العمّال، فعلى هذ التّراب الأحمر حيث ينمو القصب، وهذه الدروب حيث يمشي اليمام، وهذه الشّواطئ، والتلال، والحدائق وحتّى شوارع المدن الجديدة، وفي كلّ مكان هنا، تدوس الأقدام رماد العمّال الهنود.

من أجل هذا بقيَتْ آنّا. لم ترغب في الرّحيل وتركْ الموتى. بقيتْ حيث وُلِدَت، لم تتزوّج، ولم ترغب في العيش مثل غيرها من الناس. ورفضَت كلّ شيء، لا سيّما النسيان. ذهب الجميع. ذهبوا للبحث عن الثّراء في مكانٍ آخر، في كيب تاون وديربان، وفي أستراليا وأمريكا. فبعد موت كانوت، وانهيار بيت أرشمبو، لم يصمدوا. كانوا يخشون الفقر، والاضطرار إلى التّخلي عن المجد والامتيازات. حتّى جاك قد رحل، فمن عساه يحتاج إلى طبيبٍ من آل أرشمبو؟ لم يكن له مكانٌ في عالمٍ ينهار فيه كلّ شيء. وتبخّر حلم جدّتي سوزان بإنشاء مستوصفٍ في المدينة، والعمل على تحسين ظروف عيش العمّال المهاجرين، فلا شيء من هذا استطاع أن يصمدَ في وجه التآمر والوشاية والنيّات الخبيثة. كان أبي في الرّابعة عشرة من عمره عندما سُوّيت الحسابات، فقرّر جدّي الرّحيل عن موريشيوس إلى الأبد، معتمداً على نصيبه الذي حصّله من ممتلكات عزبة آنّا، واستقرّ طبيباً في ضواحي باريس، في

غـارش. وصـار يـداوي النـاس بـلا مقابـل، محقّقـاً جـزءاً مـن رغبـة جـدّتي سـوزان. أمّـا هـي، فكانـت تعطـي دروسـاً في الفرنسيّة في مدرسـةٍ للبنـات. ربّـى جـاك نويـل عـلى كراهيـة كلّ مـا لـه علاقـةٌ بقصـب السّـكّر. «اللّعنـة علـيّ إنْ جعلـتُ مـن ابنـي صانـع سـكّر». كان جـاك يقـول «صانـع سـكّر» كأنّـه يقـول «تاجـر رقيـق». وأنـا، ليـون أرشـمبو، الأخـيرُ مـن نوعـي (وفقـاً للشّـعار الفخـور الـذي ابتكـره جـاك في صبـاه)، أصبحـتُ طبيبـاً أيضـاً، طبيبـاً بـلا مـرضى، بـلا عمـلٍ، يهيـم عـلى وجهـه قبـل أنْ يرحـل إلى أقـصى المعمـورة.

بعـد ظهـر كلّ يـوم، عنـد الواحـدة، أذهـب إلى حديقـة الدّيـر وأجلـس في ظـلّ شـجرة ماغنوليـا كبـيرة، في انتظـار أن تنضـم إليّ آنّـا. وحـين تقبِـلُ مترنّحـةً في مِشـيتها قليـلاً، عنـد بـاب جناحهـا (كانـت تمنعنـي منعـاً باتّـاً مـن أنْ أتلفّـظَ بكلمـة «bungalow»[1] الإنجليزيـة) أتفاجـأ في كلّ مـرّة بهشاشـتها ونحولهـا.

قادتنـي إلى غرفتهـا الغارقـة في العتمـة. وكانـت عـلى الرّغـم مـن الحـرّ الخانـق ترتـدي ثوبـاً رماديـاً مـزرّراً بإحـكام حتّـى العنـق، فبـدت بـه، وبحذائهـا الجلـديّ وشـعرها القصـير، مثـل راهبـة.

عـلى طاولـة مطبخهـا، غـزا النّمـل طبقـاً مليئـاً ببقايـا طعامهـا مـن اللّحـم المفـروم والأرزّ. كانـت قـد أعـدّت كريـات لحـم متناسـقة الحجـم. ولمّـا وصلْـتُ، أسرعَـت لتغطيتهـا بمنشـفةٍ بيضـاء ربطتّهـا مـن زواياهـا الأربـع. لم أسـألها عـن شيء. لكـنّ هـذا ليـس سرّاً يخفـى عـلى أحـدٍ هنـا في

(1) أي بيت أرضيّ أو مقرّ.

ماهيبورغ. إنّه الصينيّ تشونغ لي، صاحب المحلّ في الشارع الرئيسي، مَن يعطيها مسحوق الإستركنين الأبيض الذي تخلطه مع كريات اللّحم. كانت تنفق كلّ مصروف جيبها على شراء السّم: المال الذي يرسله إليه أبناء عمومتها، والمال الذي أُرسله لها بانتظامٍ من فرنسا، كما كان يفعل أبي من قبلي.

كانت تنتظرني بفارغ الصّبر. وضعت قبّعتها القماشيّة القديمة التي تتدلّى على عينها المصابة بالسّاد، ثمّ غادرْنا.

كانت الشمس لاهبةً في الخارج. في ساعة الغداء تخلو شوارع ماهيبورغ من المارّة، ولكن عند هبوطنا إلى السّوق غدت حركة المرور أكثر ازدحاماً. كانت الحافلات تهتزّ في طريقها إلى الموقفِ المغبرّ، وتنتشر في كل مكان درّاجاتٌ من طراز فلاينغ بيجن سوداء كبيرة، يركبها الشبّان الهنود مطلقين الأبواق على نحوٍ محموم. إنّه وقت آنّا الأثير، ففي ساعات العصر، يفرغ السّوق تدريجياً من البشر، وتحضر الكلاب.

توقّفَت عن الكلام. كانت تمشي متصلّبةً، ووجهها متشنّجٌ من الألم. كان طبيب الدير، الدكتور موغرو، قد أخبرني عن تعطّل مفاصل آنّا، عن ركبتيها المتشنّجتين من التهاب المفاصل، وكذا وركيها، وعظام ترقوتها. وكان ثمّة نبرة إعجابٍ في تعليقه على وضعها الصحّي: «في حالتها هذه، ينبغي أن تظلّ قابعةً في كرسيّ. إنّها لا تمشي إلّا بقوّة إرادتها». حينَ ترجّلت من السّيارة، قطّبت وجهها من الألم. فأوضحَت مازحةً: «كما ترى يا ليون، فأنا مثل حوريّة البحر في حكايات أندرسن، ينبغي أن أتعذّب ليكون لي ساقان».

في اليوم الذي لن تقوى فيه آنّا على الخروج، ستموت. لقد قرّرتْ ذلك. ليس عليها أن تصرّح به. أتُراها متغطرسة، مثل جدّها؟ إنّها لم تدِن بأيّ شيء لأحدٍ قطّ، وعاشت دوماً في هذه العزلةِ الشديدة. أتأمّل ملامحها الحادّة، ملامحَ هنديّةٍ عجوز، بتلك التّجاعيد العميقة حول عينَيها، ووضعيّة رأسها وعنقها النّحيل حيث يبرز شريانان مشدودان، فتخطر في بالي تلقائيّاً الصّورة الوحيدة التي رأيتها للعم ألكسندر، أيّام كان يتحكّم بمفرده بعزبة آنّا. الشّبه واضح.

سرنا متمهّلَين على طول الأزقّة ذات البلاطاتِ المتكسّرة، بين البرك الآسنة. لم يكن السّوق قد أُغلق تماماً. إذ ظلّت هناك أكشاكُ فاكهةٍ مظلّلةٌ بالشّادر الممزّق: الموز «الزينزي» والجوّافة، والبابايا المفتوحة التي تظهر بذورها السوداء، والمانغو القاسية أو «الماف»[1]، كما اعتاد أبي أن يسمّيها، وخضرواتٌ أخرى ليست طازجة. وفي نهاية الزقّاق، كان هنديٌّ يوزع اللّبن الرائب من جرّة كبيرة. فعلّقت آنّا قائلة: «أترى ذلك، إنّه فظيع». كان أبي أيضاً يكره اللّبن الرائب كرهاً شديداً، والحليب، عموماً، بجميع أشكاله.

كنت الأوروبيَّ الوحيدَ في هذا الجمْع. أمّا آنّا، فلا يمكن أن تنتسِب إلى هذه المجموعة الإثنيّة، فهي هنديّةٌ بلون بشرتها ونحول قامتها، والطريقة التي تسند بها رأسها، وكريوليّةٌ في مِشيتها وحديثها. حينَ تمرّ، يحيّيها الناس، ويقولون لها بضع كلمات، فتستمع إليهم، ورأسها مائلٌ قليلاً، وتجيب بالكريوليّة، ويمازحونها. يعلم الجميع ما تأتي من

(1) كلمة كريوليّة من أصلٍ ملغاشيّ.

أجله هنا. ولا أحد يلومها على ذلك. هذا هو دورها في العالم. وحين ترحل، لن يكون هناك من ينهض به مكانها. سيكون دورها قد انتهى، وهذا كلّ ما في الأمر.

لحِق بنا للحظةٍ أطفالٌ مشاكسون. أحدهم شبهُ عارٍ، سوى من مئزرٍ ملطّخٍ بالوحل، نحيفٌ ببشرةٍ ذهبيّة وعينَين واسعتَين داكنتَين، يحمل بيده مزماراً صغيراً من الخيزران، ويركض على طول أزقّة السوق وهو ينفخُ في مزماره مصدراً أصواتاً حادّة، فيُخَيّلُ إليّ أنّي أرى كريشنا الصّغير على ضفاف نهر يامونا، لكنّ المقارنة تنتهي عند هذا الحدّ، فنهر لاشو قد طاله الخراب، وضفافه مغطاةٌ بالقاذورات، وماهيبورغ ليست ماثورا[1].

اصطحبتني آنّا إلى ركن الجزّارين. كانت كِلابٌ تتجمّع عند كتف الطريق الموحل الذي ينحدر نحو الماء، وكانت كثيرةً بقدر ما هم البشر، هزيلةً متيبّسةَ الفرو، وبطونها مطبقةٌ على ظهورها. كانت مجموعةٌ منها تتعارك حول جيفة، حيث أقوى اثنين بينها يمسكان بطرفَي الجيفةِ ويزمجران من غير أنْ يفتح أحدهما فكّيه حين تدنو منها الكلاب الأخرى.

وعلى مبعدةٍ يسيرة، كان زوجان منها يتسافدان رغم الجوع، ويسيران متلاصقَين مائلَين مثل سلطعونٍ مضحك.

وقفَت آنّا أمام تلك البقعةِ من الأرض. لم تقل شيئاً. كانت تنظر، وعلى وجهها ذلك التعبير القاسي، وتلك الحدّة التي تعلو ملامحها في

(1) ماثورا: مدينة هندية تقع قرب نيو دلهي، وتشكّل مركزاً اقتصاديّاً مهمّاً ومدينة نامية. (المُراجع)

مواقف كهذه. تركَت ذراعي، وسارت وحدها إلى آخر الساحة. كانت تترنّح وتوشك أنْ تسقط في كل لحظة، لكنّني بقيت في الخلف. فقد كانتْ تلكَ مهمّةً تريد أنْ تنجزها بمفردها.

في منتصف الساحةِ، كان الكلبان الشرّيران منقضَّين على الجيفة. كانت فريستهما كلباً مات جوعاً، أو ربّما دهسَته حافلة. وكان المشهد فظيعاً، لا يطاق.

لكنّ آنّا لم تأتِ إلى هنا من أجلهما، بل كانت نظرتها تجول حول طاولات الجزّارين، وأكوام القمامة الملقاة في الأزقّة.

سارت على مهلٍ، باستقامة تامّة، وكيسُها مفتوح بيدها. رأيتها ترمي كريات اللّحم على الأرض في الظلّ. هذا هو المكان الذي تختبئ فيه الجراء المفطومةُ حديثاً، والمهجورة. تبدو هياكل عظميّةً بلا شعرٍ، هشّةً حتّى أنّها لا تكاد تحتمل ثقلَ رؤوسها الضخمة ذات العيون البارزة، كانت تترنّح في مكانها، ولا تقوى على مغادرة مخابئِها. اقتربتُ في صمت، فسمعتُ آنّا تتحدّث إليها بهدوء، وبصوت غريبٍ عليّ. قالت: «أحبتّي المساكين» وهمسَت لها بكلماتٍ قليلةٍ بالكريوليّة، كأنّها تكلّم أطفالاً، فزحفت الجراء وخرجت قليلاً من مخابئها الشّبيهة بجحور حيوانات بريّة.

لقد انجذبَت إلى صوت آنّا، إلى تلك النّبرة الغريبة الناعمة مثل مداعَبة. ورأيت أمامها كريات اللّحم المسمومة التي نثرتها آنّا. وبدأت الجراء تأكل منها. كانت عشْرة، وربّما أكثر. وعمّا قريب لن يبقَ شيءٌ منها على الأرض. ولم يلبث مفعول الإستركنين أنْ سرى في الجراء، فتراجعت ودارت حول نفسها كما لو كانت ثملِة، ثمّ ماتت

مـن فورهـا. وتمـدّدت أجسـامُها الصغـيرةُ عـلى جُنوبهـا في العتمـة، وسرعـانَ مـا غطّـت الرّيـح جلدهـا الـورديّ المسـودّ بالغبـار، وحـامَ الذبـاب حـول رؤوسـها.

دارت آنّـا دون أن تنبس بكلمـة، وقطعـةُ القـماش الفارغـة تتـدلّى مـن يدهـا مثـل منديـلٍ كبـير. كان وجههـا الـذي بلـون الخشـب المحـروق جامداً يخلـو مـن أيّ تعبـير، سـوى مـن لمعـةِ حدقتَيهـا الفاتحتَـين.

سرنـا معـاً تحـت أشـعة الشّـمس الحارقـة، عـلى طـول الأزقّـة التـي تقودنـا إلى الشـارع الرئيـسيّ. بـدأت الحافـلات في الموقـفِ تتحـرّك وسـط سـحابةٍ مـن الغبـار. كان النـاس يغـادرون إلى بلـين مانييـه وروز بيـل وكوربيـب، وصـولاً إلى بـور لويـس. ثمّـة حركـةٌ نشـطةٌ في المـكان. فقـد دبّـت الحيـاة في المحـلاّت التجاريـة بالشـارع الرئيـسيّ، ومحـلاّت أشرطـة الموسـيقى والأفـلام والأقمشـة. أخـذ الباعـةُ ينادونـني: «تـذكار؟ هديّـة؟» اتّـكأَت آنّـا عـلى ذراعـي، فتراجعـوا وسـمحوا لنـا بالمـرور.

شـعرتُ بتعبهـا. كانـت ذراعهـا ترتجـف قليـلاً، أعتقـد أنّهـا كانـت تكابـد ألمـاً شـديداً. فقـد خـرّت جالسـةً في مقعـد سـيارة البلوبـيرد وكادت تنـدّ عنهـا صرخـةٌ قصـيرة، لكنّهـا كتمَتهـا في تنهيـدة.

«لقـد كـبرتُ عـلى فعـل هـذا. يمكنـك القـول إنّهـا سـتكون المـرّةَ الأخـيرة». لكنـه ليـسَ تعبـاً فحسـب. وإنّـما شيء آخـر، ينهشـها ويسـتنزف أعماقهـا. ثـمّ هـذا الهاجـس الـذي يؤرّقهـا عـلى مـدى أعـوام، كلّ يـوم، بـل كلّ لحظـةٍ ربّـما، هاجـسُ الـكلاب الضالّـةِ في الشـوارع والأسـواق، تقتلهـا السـيّارات، وتلتهـم بعضهـا بعضـاً، وتلـك الجـراءِ التـي تمـوت جوعـاً في جحورهـا.

في جناحها الواقع في نهاية حديقة الدّير، استلقت آنّا على سريرها البسيطِ في الغرفة الشديدة الحرّ، دون أن تخلع حذاءها الجلديّ. بدت في غبش العتمة شاحبة، مزرقّةً أو تكاد. ولمّا رأيتها هكذا، لا أعرف لماذا فكّرت في رامبو على فراش الموت في مشفى لا كونسيبسيون. فهو أيضاً كان يسمّم الكلاب في هرَر- ليس للأسباب نفسها على الأغلب - ولكن من يدري؟

«كنت قويّةً فيما مضى. وقد فعلتُ أشياء فظيعة، كنت أجرؤ على حملها بينَ يديّ فأخدّرها بالإثير، وأُغرقها في بركة البيت في كاتر بورن». كانت تتحدّث ببطء، كأنّها شاردة الذّهن. في الخارج، على طول الفيراندا، كانت سيّدةٌ مجنونة تمشي متسلّلة، وتصرخ بقوّة. وفجأة فتحَت البابَ، وظلّت واقفةً على العتبة وضوءُ النهار من خلفها. كان وجهها مائلاً إلى السواد وعيناها تلمعان ببريقٍ غريبٍ أشبه بلهبٍ أخضر. نظرت إلى آنّا وشتمتها بالكريوليّة وبالفرنسيّة. لم أفهم ما قالت، لكنّي أدركتُ الغضب الذي شوّه الأصوات في فمها الرّخو. سمعتُ: «ابنة أرشمبو! القذرة»! أمّا ما تبقّى فقد التبس عليّ.

قالت آنّا بهدوء دون أن ترفع صوتها:

- انصرفي! عودي من حيث أتيتِ. ترين جيّداً أنّ لديّ ضيفاً.

ابتعدت المجنونة، تاركة وراءها رائحةً قاتلة.

-عمّتي، ألا تخافين؟

استنكرَت سؤالي بحركةٍ من ظاهر يدها:

- وممّ أخاف يا عزيزي! إنّها مجرّد مجنونةٍ مسكينة، أقلّ خطورةً من كثير من العقلاء.

باستثناء الخروج إلى السّوق لتولي أمرِ الجراء، أو الذهابِ إلى الكنيسة من أجل حضور القدّاس والإصغاء إلى ترانيم الفتيات الصغيرات، فإنّ آنّا لم تكن تغادر جناحها. الدّير هو ملجأ الفتيات الضّائعات، الكريوليّات الصّغيرات ذوات العيون المخمليّة، اللاّتي يشتهيهنّ السيّاح الألمان والأفريقيّون الجنوبيّون، ويشترونهنّ مقدّماً من منظّمي الرحلات السياحيّة، كجزءٍ من تكلفة الرّحلة، مع خدمةِ التخييم على الشاطئ وقضاء نصفِ نهارٍ في صيد سمك السّيف. لقد رأيتهنّ، منذ وصولي، في حانات الفنادق وبرك السباحة وعلى الشواطئ، شقيقات ليلي وصديقتِها باميلا. أمّا من يمرضنَ من بينهنّ، أو تستردهنّ عائلاتهنّ، فيأتين إلى هنا، إلى الدّير، ويمكثن فترة، ثمّ يغادرن. وكثير منهنّ يختفين ولا يعدن أبداً. يستصدرن أوراقاً مزوّرة، ويستقللْن الطائرات إلى دول بعيدة، دولٍ خطرة لا يعُدن منها؛ الكويت وجنوب أفريقيا وسويسرا.

تُحبّ آنّا كثيراً الفتاة التي تقدّم لها الشّاي كلّ عصر على الفيراندا. كانت ترتدي زيّ الدّير المحتشم، تنورةً كحليّةً وقميصاً أبيض، وتغرز في تجعيدات شعرها النّحاسيّ الدّاكن زهرةَ الخطميّة، كانت آنّا قد التقطتها من أجلها. «زهرة مدام لانغليه»، هكذا تسمّي آنّا الزهرة، في إشارةٍ إلى خاصيّتها المُليّنة.

قالت آنّا:

– هذه عزيزتي كريستينا.

أمسكَت بيدها للحظة، فرأيت للمرّة الأولى ابتسامةً رقيقةً على وجهها الشبيه بوجهِ هنديّة عجوز.

ثمّ أردفت:

- بما أنك تحبُّ القراءة كثيراً، سأعطيك شيئاً.

مضت وعادت بكرّاسٍ مدرسيّ قديم:

- وجدتُـه في قـاع صنـدوقِ أمتعتـي، كتبتُـه وأنـا في الثامنـة عـشرة مـن عمـري، كنـت سـأرميه. لم يخطـر لي أنّـه قـد يكـون مفيـداً يومـاً مـا، عـلى كلّ حـالٍ، لـن أنتظـر حتّـى أمـوت كـي أعطيَـك إيـاه.

ثمّ أردفَت قائلةً:

- لكنّي أمنعك من قراءته قبل أنْ ترحل عن هنا.

وأضافت هذه الكلمات التي تليق بحفيدةِ كبير العائلة:

- كنت سأخاف كثيراً لو وقع هذا في يد عدوّ.

في الصّفحـة الأولى مـن الكـرّاس، وبخـطّ يدهـا المائـل الحـالِم، كتُــبِ الاســم التّــالي:

سيتا

استعنتُ بـدُني، زوج مـاري نويـل، ليصطحبني إلى جزيـرة بـلات لقـاء 600 روبيّـة. ولكيـلا أعقّـد المسـألةَ، أخبرتُـه أنّنـي أقصـد الجزيـرة مـن أجـل الصيّد. وأحـضرتُ معـي القنـاع والزّعانـف، وقوسـاً ونبلـةً قديمَين كانـا لي أيّـام كنـت أعيـش عـلى ضفـاف الأنهـار في بنـما.

كان علــيّ أنْ ألتقــيَ بــدُني عــلى الشّــاطئ في غــران بــاي، حيــث كان أحدهــم ســيُعيره زورقــاً. جــاءت لِيــلي مــع زوج أمّهــا. ومثــل غالبيّــة

الفتيـات الكريوليّـات، لم تُـرد الظهـور بملابـس السـباحة. كانـت ترتـدي قميصـاً طُبعـت عليـه صـورة «الرولينـغ سـتونز» أو «البيتـش بويـز»، أو لا أدري مـاذا، وبنطـالاً نصفيّـاً أحمـر. كانـت صامتـةً عـلى الـدّوام، ولربّـما خائفـة. ثمّـةَ شـاغلٌ يُقلقهـا، متعلّـقٌ عـلى الأرجـح بصديقتهـا باميـلا التـي جرّتهـا إلى الفنـادق. هـي أيضـاً مسـتعدّةٌ للذّهـاب إلى أيّ مـكان، ومـع أيٍّ كان، هربـاً مـن الفقـر ورتابـة حياتهـا. اسـتقرّت عـلى مقـدّم القـارب في وجـه الريـح. كانـت تجلـسُ باسـتقامةٍ وسـاقاها مثنيّتـان تحتهـا. الميـاه في غـران بـاي ذاتُ زرقـةٍ زمرّديّـة سـاحِرة، حيـث تُلمَـحُ مسـتعمرات المرجـان والسّـليلة. اجتـاز الـزّورق لا بوانـت أو كانونييـه، كانـت أشـجار جـوز الهنـد ترتسـم ريشـاتٍ خفيفـةً في سـماء الفجـر الورديّـة. وبعـد عبـور هـذا الجانـب، ضربـت الأمـواج جؤجـؤ الـزّورق، فأصـدر المحـرّك الدّاخـليّ هديـراً بطيئـاً كأنّـه مـن طائـرة مائيّـة. أسـند دُني سـاعده عـلى الدّفـة، وكان ينظـر أمامـه غـيرَ مبـالٍ. كنّـا في السّـابعة صباحـاً، وكانـت الشـمس لاهبـةً حتّـى في ذلـك الوقـت المبكّـر.

وفيـما كنـت أنتظـر دُني، قُبيـلَ ذلـك، مشـيت إلى طـرف جزيـرة غـران بـاي. في موقـعِ الكرنتينـة التـي أنشـئت لمـرضى الكولـيرا- حيـث أُنـزِلَ المهاجـرون الهنـود، وأُمِـروا بالاسـتحمام، وحُرِقـت ملابسـهم على الشّـاطئ- ثمّـة الآن مخيّـمات فاخـرة، بحدائـق جميلـة مـن النخيـل والخطميّـة. حاولـتُ العثـور عـلى الثّغـرة والجـدار المـزدوج اللّذيـن يفصـلان بـين الكرنتينـة القديمـة وعزبـة ويسـت لكـنّ كلّ شيء قـد اختفـى. إذ سـويّت تلـك المعـالم كلّهـا بـالأرض. وقـد رأيـت جرّافـةً تعمـل بالضّبـط حيـث كانـت بيـوت المهاجريـن. كانـت شـفرتها تقتلـع الشّـجيرات، وتقلِـب الأرض الرّماديـة،

على الأرجح من أجل وضع أساسات فندقٍ فخم بمسبح.

اجتاز الزّورق كاب مالورو، فرأيت أمامي صخرة كوان دو مير الشّبيهةَ بمكواةٍ حديديّة صدِئةٍ. أصبح الموج عاتياً في تلك اللّحظة، فرفَعَ مقدّمَةَ الزورق. تراجعت ليلي قليلاً حتّى لا يغمرها عجاجُ البحر، وعقدَت طرفَي قميصها الفضفاض حول بطنها، فلمحتُ زغبَ خاصرتَيها المقشعرّتين.

أخذَت الأمواج تضرب في جدار كوان دو مير، وبدت المياهُ بعيدةَ الغور. كانت الطيور تحلّق مدومّة، وقد أراني دُني الصّخرة المثقوبة التي تحمل اسماً صريحاً «ترو مدام»[1].

صارت جزيرة بلات أمامنا، غريبةً معتمة. ثمّةَ، في الجزء العلويّ من فوّهة البركان، منارةٌ في حالةٍ جيّدة، هي الأثر البشريّ الوحيد المرئيّ. وبقيّة الجزيرة أرضٌ بريّة. يحيط ببلات من جهةِ اليمين صخرةٌ، هي جزيرة غابريال الصّغيرة. عند العاشرة صباحاً، دفع دُني الزّورق إلى داخل القناة بين بلات وغابريال. كان البحر ساكناً، فبدأت الأعماق تتجلّى. ولمّا دخلنا البحيرة، أمسكت ليلي بالمُرديّ، وفصلَ دُني المحرّك. انسَبْنا بصمتٍ على المياه النّاعمة نحو شاطئ غابريال الأبيض. كان قطمرانٌ[2] يرسو وسط البحيرة، لا أعرف من على متْنه، على الأرجح سيّاحٌ جاؤوا لممارسة الصيد بالرّمح تحت الماء.

ولتسويغ الرّحلة، غطستُ أنا أيضاً والقوسُ في يدي. الأعماق رائعةٌ مضاءةٌ بأشعّة الشمس. هناك شعابٌ مرجانيّة، وأسماك الإبرة

(1) أيّ «ثقب السيّدة».

(2) قاربٌ شراعيٌ بهيكلين متّصلَين.

البحريّة، وأسماك الصّندوق، لكنّني بعد ساعة عُدت إلى الشاطئ خاليَ الوفاض تماماً. وهو ما لم يُفاجئ دُني، فقد شرح لي أن الصّيد بالدّيناميت قد دمّر القيعان.

كانت ماري نويل قد أعدّت للرّحلة كما ينبغي. أخرجت لِيلي من سلّة النزهة طبقاً كبيراً من الأرزّ والسّمك، ونثرت فوقها قطعاً من أطراف الأخطبوط المجفّفة، وكستناء حلوة. وكلٌّ أكَلَ على حدة. كانت لِيلي تمضغُ الطّعام موارِيةً فمها خلف يدها، وفقاً لقواعد التّهذيب عند الفتيات الكريوليّات. ثمّ ذهب دُني ليحتميَ من الشمس في ظلّ شجرة تورنفوريّة ويدخّنَ سيجارةً إنجليزيّة.

جُلتُ في جزيرة غابريال بحثاً عن آثارٍ، عن قبور. أمسكَت ليلي بحربة (قضيبٍ حديديّ بسيط مشحوذٍ من أحد طرفَيه) ورأيتها تمضي نحو الشّعاب المرجانيّة كي تصطاد الأخطبوط الشائع (Octopus vulgaris).

الجزيرة مُقفِرة، خاليةٌ من الآثار، إلّا من نصُب تذكاريٍّ شُيّدَ من حجرٍ بركانيّ مدعّم بالإسمنت، يمثل قبر شخصٍ يُدعى هوراس لازار بيغرد، توفّي بالجدري في عام 1887 عن عمرٍ يناهز السابعة عشرة. أمّا مِن جميعِ المهاجرين الآخرين الذين وصلوا على متن لبداريه، أو فوتيه مبارك، وهُجِروا على الجزيرة، فلم يبق أيّ أثرٍ. إذ مَحَت الرياح والأمطار والشمس وعجاج البحر كلّ شيء. وفيما كنت أتسلّق القمّة المركزيّة حيث غُرسٍ قديماً عمود الإشارة، الوسيلةُ الوحيدة للتواصل مع موريشيوس، سمِعتُ للمرّة الأولى صرخاتِ طيور رئيس البحر المبحوحة (Phaeton) rubricauda. فقد تنبّهَت لوجودي وأخذَت تحوم حول القمّة كي تحميَ أعشاشها.

ثمة شيءٌ غريبٌ هنا، شيءٌ يتسلّل إليّ رويداً رويداً، دون أن أفهم. ظننتُ أنني قادمٌ إلى هاتين الجزيرتين كزائرٍ فضوليّ مجهول. وأنّى لي أنْ أكون غير ذلك؟ فهذا الجَدّ الذي أعرف القليل عنه، وجدّتي سوزان، القريبةُ جدّاً بقدر ما هي بعيدة، هذه السيّدة العجوز ذات الشَّعر القصير والنظرة الساخرة التي كانت تروي ليَ القصص وتتلو عليّ أبيات **المركب السّكران** وقصائد لونغفيلو - كيف لي أن أتخيّلها هنا، في حياة أخرى مختلفة، عاشاها قبل أنْ أولد؟ وهذا الغريب الذي أحمل اسمه، مَن رحل إلى الأبد، وتخلّى عن كلّ شيء من أجل امرأة، ولن يتسنّى لي أبداً معرفة أيّ شيء عنه، كما لو كان ينتمي إلى بقايا حلم، ولعلّه قد رحل إلى الجزر البعيدة، **أغاليغا أو ألدابرا أو خوان دو نوفا** في قناة موزمبيق.

ومع ذلك، يراودني انطباعٌ أنّهم ما زالوا هنا، أُحسّ بنظراتهم مصوّبةً نحوي، مثل نظرات الطّيور التي تحوم حول القمّة. إنّ كلّ حجَرٍ وشجيرةٍ هنا تحمل حضورهم، وصدى صوتهم، وأثر أجسادهم. إنّها رعشةٌ، هزّةٌ بطيئةٌ خفيفة. وقد استلقيتُ على الأرض السوداء، بين كتل البازلت، كي أحسّ بها مِن كثب.

على الشاطئ، بدأ صبر دُني ينفد. سيهبط الموج، وفي غضون لحظاتٍ قليلةٍ سيستحيل علينا الاقترابُ من رصيف جزيرة بلات. ولكي يعبرَ القناة، أدار المحرّك للحظاتٍ، وانساب القارب بما بقيَ له من سرعةٍ بعد توقّف المحرّك. كانت ليلي تقف في مقدّمِه. إنّها ابنةُ صيّاد حقيقيّة، كانت تضغط على المُرديّ الطويل وأصابعُ قدميها المتباعدةُ المنبسطة تتشبّث بالحواف. في قعر الزّورق، كانت أسماك الأخطبوط المقلوبةُ تلتمع في ضوء الشمس.

جرّ دُني طَرف الزّورق إلى الشاطئ على يسار الرّصيف، ومضى يبحث عن موضع يستظلّ به كي يدخّن سيجارةً أخرى. إنّه لا يسأل عن شيءٍ أبداً. فلا بدّ أنّه اعتاد مزاجيّة السّادة البيض والسيّاح.

سارت لِيلي معي على الدّرب الضيّق المفضي إلى البركان. مرّ الوقت بسرعةٍ كبيرة، وانتابني إحساسٌ أنّنا دخلنا ساعةَ الزّوال. كانت الشمس نصفَ محتجبةٍ، فاكتست البحيرة لوناً كئيباً.

لن يسعفَنا الوقت للوصول إلى البركان. بلغنا المقبرةَ المهجورة الواقعة فوق خليج باركلي. هنا أيضاً، محَت الرّيح والملح كلّ شيء، وتبعثرت المقابر هنا وهناك بين الأجمات ونبتات الحشف المقوّس والديداء الشهيرة (البطاطس الحلوة ذات الزهرة الحمراء). كانت ليلي تتقافز مثل قطّةٍ من قبرٍ إلى قبر. هي أيضاً لا تبالي بهؤلاء السّادة البيض الذين يسافرون إلى الطّرف الآخر من العالم، لا لشيءٍ إلّا ليتمشّوا على جزرٍ لا شيء فيها.

وفي أعلى المنحدر، في ظلّ فوّهةِ البركان، رأيت خليج باليساد حيث أقيمَ مخيّمُ العمّال. كانت الأمواج تتحطّم فوق بلاطات البازلت، وكان المكان وما حوله فارغاً تماماً، سوى من بعضِ الأجمات الجافّة وغابة الكزورينة التي نجت من الحرائق. وفي وسط الخليج، لمحتُ بقايا السدّ الذي دُفِنَ نصفُه في الرّمل، تكسوه طبقةٌ من الزّبد المتلألئ.

أسرعتُ إلى الطّرف الآخر من الجزيرة لأرى أنقاض الكرنتينة قبل مغادرتنا. لا بدّ أنّ زمناً طويلاً قد مرّ حتّى تنهار الأسقف على هذا النحو، إذ لم يبقَ سوى جدران الحجارة البركانيّة، وقد غزَتها الشّجيرات. شقَقْنا طريقنا بين النباتات. جلسَت ليلي في فتحة النّافذة داخل

الغرفةِ الكبرى، هنالك حيث جلس جاك وليون، ربّما، قبل تسعين عاماً. التقطتُ بآلةِ تصويري القديمة من نوع «بنتاكس» صوراً تذكاريّة، ليس من أجل الأطلال بقدر ما هو للاحتفاظ بصورةٍ لليلي، رفيقةِ صيفي الوحشيّة الطّباع، التي لن أراها بعد ذلك أبداً. شعّ الضّوء الذهبيّ على وجهها النّاعم، وفي شعرها المجعّد، ومنح بريقاً ساخراً لحدقتَيها العسليّتَين. لقد وقعتُ في غرامها، لكنّني لم أصارحها، فقد بلغتُ من الكِبرَ ما لا يسمح لي بذلك، وليسَ في عالمي الذي أنتمي إليه الآن ما يصلحُ لها.

وما أهميّة الصّوَر؟ فذاكرتي ليست هنا أو هناك بين هذه الأنقاض. إنّها في كلّ مكان، في الصخور، وفي منحنى البركان الأسود، وأريج الحشف اللّاذع، وحفيف الريح، وفي بياض الزّبد على بلاطات البازلت. أردتُ أن أرى جزيرتَي بلات وغابريال مُدركاً أنّني لن أجد ضالّتي. ومع ذلك، فإنّني أشعر الآن، بين تلك الجدران المعتمة التي بلاها الزّمن، أن عقدةً ما بداخلي قد انفكّت، كما لو أنّني تحرّرتُ وتنفّست الصّعداء. فطالما اعتقدتُ أنّني بلا بلد ولا وطن، بسبب كبير العائلة، وأنّنا كنّا منفيّين إلى الأبد. لكنْ، في حينَ كان الزّورق يعبر القناةَ ويمضي بعيداً نحو موريشيوس، ويشتدّ صرير محرّكِه كلّما علا الموج، أدركتُ أخيراً أنّني إلى هنا أنتمي، إلى هذه الصخور السوداء المنبجسةِ من قلب المحيط، وهذه الكرنتينة، كما لو أنّها مسقطُ رأسي. لم أترك شيئاً في المكان، ولم أحمل منه شيئاً. ومع ذلك، أشعرُ الآن أنّني إنسانٌ آخر.

حينَ صعدتُ إلى الزّورق، أعطتني ليلي شيئاً، قطعةً قديمةً من الحديد الصّدئ التقطَتها هناك من البيت المُنهار. وضعَتْها في يدي

وأغلَقت أصابعي عليها بصمت، كأنّها لي، كأنّها شيءٌ ثمينٌ كنت قد نسيته منذ زمنٍ طويل، وعدتُ لأعثرَ عليه أخيراً.

لم يبقَ لي سوى القليل من الوقت كي أفهم. أريد أن أستغلّ كلّ لحظة قربَ آنّا. والوقت بين دخولي حديقة الدّير ووجبةِ العشاء في السّادسة مساءً قصيرٌ جدّاً! لذا لا أريد حتّى الذّهاب إلى الشّاطئ أو التنزّه في بور لويس. سأباشر عملي في مختبر «فانسين» في فرنسا بعد أسبوعين. تُرى هل تنتظرني حياةٌ جديدة في الأربعين! ثمّ هنالك أمّي التي لم تتعافَ بعدُ من حزنها على وفاة أبي. وحتّى لو أردتُ البقاء، فليس لي مكانٌ أقيم فيه. فغرفة المبيت التي استأجرتُها من تشونغ لي سيعاد تأجيرها في 15 أغسطس لطيّار في الخطوط الجويّة الفرنسية يأتي إلى هنا كلّ عام. في وسعي العثورُ على بديل، أنْ أنزل مثلاً في فندقٍ في بلو باي يتردّد إليه موظّفو البنوك الإنجليز الحُمر الوجوه. لكنّي لا أجد ما يكفي من عزيمةٍ لمثلِ هذه الأمور. وموريشيوس آخرُ مكانٍ في العالم يمكنني أنْ أسيح فيه.

حتّى آنّا نفسها قد قرّرت سلفاً أنّني سأغادر. قالتْ مرّةً: «بعد أنْ تعود إلى فرنسا...» أو، كما في ذلك اليوم: «يا للخسارة! لقد مرّت اللّحظاتُ الجميلة سريعاً».

أتراني أتعبتُها؟ فقد أجبرتها على رؤيتي كلّ يوم، هي التي لا ترى أحداً وتعيش فقط من أجل تلك النزهات إلى سوق ماهيبورغ، حيث توزّع الموت على الجِراء المهجورة، ودفعتُها إلى الكلامِ والتعبير عن المشاعر، والنّدم، واجترار الذّكريات، وهذا غير منصفٍ إطلاقاً. إنّها في

حاجـة إلى أنْ تسـتجمع قواهـا لتنغلـق عـلى نفسـها، وتعـودَ مـن جديـدٍ تلـك المحاربـةَ العجـوز الوحيـدة، المسـلّحة بنظرتهـا التـي لا تعـرفُ الضّعـف، مَـن لا تخـدع نفسـها بالـكلام الجميـل، بعكـس السّـادة البيـض الذيـن يبرعـون في ذلـك: كبريـاء آل أرشـمبو التـي لا تُكسـر، والشـعارُ الـذي اخترعـه جـاك مـن أجـل ليـون، أيّـام نـزل لوبـير في روي ماليـزون: الـ«**أفانابتيركس**» Aphanapteryx آخـر طائـرٍ مـن فصيلـة **مرْعـةِ المـاء** الموريشوسـيّة، المنتصـب عاليـاً عـلى رجليـه، دائـم القلـق، الـذي قـال جـاك إنّ جميـع أفـراد عائلتنـا يشـبهونه، والحامـلُ بمنقـاره الطويـل رايـةً تقـول: Ultimus mei generis[1] (الأخـير مـن نوعـي).

لمـاذا تقبّلتنـي آنّـا دون الآخريـن؟ حـين أخـبرتُ ابنـةَ عمّـي القاطنـةَ في لنـدن أنّني ذاهـبٌ إلى موريشـيوس لمقابلة العمّة آنّـا، صاحـت قائلةً: «آنّـا؟ إنّهـا حتّـى لـن تسـتقبلك!» قالـت إنّهـا أصيبـت بالجنـون، ولا تـترك الدّيْـر إلا لتسـمّم كلاب الحـيّ. وإنّهـا لـو لم تكـن حفيـدةَ كبـير العائلـة، لسُـجِنت منـذ زمـنٍ بعيـد.

كنـت عـلى علـمٍ بـما يُشـاع عـن كونهـا مجنونـة. وقـد حدّثنـي أبي عـن واقعـة دعوتهـا إلى حفـل اسـتقبالٍ في ريـدوي تكريـماً لأمـيرةٍ مـن العائلـة الملكيّـة الإنجليزيّـة. قالـت آنّـا في ردّهـا عـلى الدّعـوة إنّـه حتّـى لـو جـاءت الأمـيرة إلى بيتهـا في كاتـر بـورن، فلـن يكـون لديهـا، عـلى الأرجـح، وقـتٌ لاسـتقبالها. هكـذا ردّت حفيـدة رئيـس الحكومـةِ الجماعيّـة- مَـن رفعَـه الملـكُ إلى طبقـة النّبـلاء، وأُطلِـقَ اسـمُه عـلى أحـد الشـوارع في كوربيـب-

(1) باللّاتينيّة في الأصل.

على دعوة رسمية! لقد أضحكتهم هذه الواقعة، لكنّهم لم يغفروا لآنّا.

لم تسألني عن شيء. إنّها، بالتّأكيد، على درايةٍ بكلّ ما يخصّني، دراستي للطّب وزواجي من أندريا ثمّ أزمة طلاقي، حياتي هذه التي هي إبحارٌ عكس التيار، في باريس وأفريقيا وأمريكا الوسطى. كان أبي يكتب لها كلّ شهر رسالة طويلة على الآلة الكاتبة، وكانت تردّ عليه دوماً، بالمظروف الجويّ حصريّاً، لأنّها كانت تخشى أن تُنزع الطوابع وتُسرق. ولمّا تُوفي أبي قبل عامَين، أرسلَت إلى أمّي واحدةً من تلك الرّسائل أخفت فيها ألَمها بروح الدّعابة. ثمّ توقفَت عن إرسال صحيفة لوسيرنيان، التي كانت تؤشّر فيها على أحداثٍ تعدّها ذات أهميّة. وبانقطاعها كأنّما انقطع آخر الرّوابط بيني وبين موريشيوس.

في الرّابعة عصراً، أحضرتْ كريستينا الشاي إلى الفيراندا. واحتفاءً بي، أخرجت طقم الشاي الصينيّ، آخرَ ذكرى من بيت عزبة آنّا، وهو صندوقٌ من الخوص مبطّن بالسّاتان الأحمر رُتّب فيه إبريق شاي صنبورُه على شكل عنق بجعة، وأكوابٌ من خزف سكسونيا القديم المزخرف برسمة التّنين. أشارت آنّا إلى أنّ صنبور إبريق الشّاي قد انكسر في موضعَين وأعيد لحمُه ببراعة: «حدث ذلك قبل وصولك بقليل». فتظاهرتُ بأنّني لم ألحظ شيئاً.

الشاي مركّزٌ لاذع، بلون الحبر، ومن دون رائحة الفانيليا التي يضيفونها إليه في الفنادق كي تكسبه مذاقاً غريباً. وحين سألتُ آنّا عن اسم هذه النوعيّة، قالت بسخريتها المعتادة: «اسمه ديتيه[1]. أذهب إلى الصينيّ، وأقول له: أعطِني علبةً من الـ «ديتيه»».

(1) بالكريوليّة في الأصل. وكلمة dité تعني شاي. وهي تحريفٌ للكلمة الفرنسيّة du thé.

أعلـم أنّهـا تحـبُّ هـذه اللّحظـات، حـينَ تغـرب الشـمس، وترتـدي الفتيـات الصغـيرات مـآزر وقبّعـاتٍ مـن القـشّ لـريّ الحديقـة. يقـع جنـاح آنّـا في نهايـة أرض الدّيـر، في جهـة شروق الشـمس. وقـد بنـاه جدّهـا ليكون ملجـأ للمربّيـة يايـا العجـوز، والآن صـارت آنّـا هـي مـن تشـغله. وبعـد وفاتهـا، سَـتُنقل ملكيّتـه إلى الرّاهبـات.

تحدّثَـت قليـلاً عـن الأيّـام الخـوالي في المدينـة، عن ذكريـاتٍ من زمـنٍ بعيدٍ جـدّاً حتّـى بـدت لي كأنّها حدثت في عـالم آخر، في قلب الهنـد أو الصين. حكت عـن رحـلات الصّيد مـع أبي في خليج تماران عـلى ضفاف نهـر الرومبار، حيث الفتيـان والفتيـات ينزلـون في المـاء حتّـى منتصـف الفخـذ، والفتيـات يرفعـن ثيابهـنّ الطويلة لتصبح شـبكةً لصيد القريـدس. «لن تصدّقنـي إذا قلتُ لك إنّ أبـاك كان حـذِراً وخائفـاً مثل فتاة، كنت أرشـقه بالمـاء فينفجر باكياً!» عاشـت آنـّا في جنـاح الشّـهاب مـع أبيهـا والمربّيـة. وماتـت أمّهـا بالتهابٍ رئـويّ مثل جـدّتي الكـبرى أماليـا، وآنـّا لا تـزال رضيعـةً، فكانـت يايـا العجـوز هي من ربّتهـا. لم يكـن كبير العائلة يـأتي كثيراً لزيارتهـا. كان يمكث في بـور لويس، في مكتبـه في شـارع الرومبـار، حيث يدير مصنع السّـكّر ويتولّى شـؤونه التجاريّة. ضَمّـن الأرض كلّهـا، وصـار يحصـل عـلى نصـف الدّخـل بعد موسـم حصاد القصـب، مقابـل تقديمه لخدمة الطاحونـة. كان يدفع التكاليـف كلّها: الأيدي العاملـة والأكيـاس والنّقـل إلى أرصفـة المينـاء، والتخزيـن. ولكـي يضمن ألّا تعـود أرضُـه أبداً إلى نسـل أنطـوان، رَهَـنَ كلّ شيء: الحقـولَ والمصنـعَ وحتّى بيت عزبة آنـّا.

وهكـذا حُجِـزَت العزبـة ذات يـوم وبيعـت للبنـك الـذي كان هـو المسـاهم الرئيـسيّ فيـه، بـشرط أن يحـقَّ لـه العيـش في بيـت العزبـة حتّـى

وفاتـه. ولم يكـن مصـير ابنـه ومصـير آنـّا يعنيانـه في شيء. وكأنّـه أراد أنْ يتوقّـف العـالمُ مـن بعـده.

لم تحدّثني آنّـا عـن هـذا كلّـه قـطّ. فهـو ينتمـي إلى التّاريـخ القديـم. لكن لّمـا تـوفي أبي، وَجـدتُ بـين رسـائله تلـك الرسـالة التـي قصّـت عليـه فيهـا رحيلهـم مـن عزبـة آنـّا. في ذلـكَ الصيـف، عشـيّة الإعصـار، وتحـت سـماءٍ بلـون الحـبر، حمّـل جـدّي وأبي أمتعتهـا في العربـة، إذ لم يعـودا يملـكان حتّـى سـيّارة. كانـت سـوزان قـد سـبقتها إلى بيـت فلوريـال، وأخـذت تنتظـر في الفيرانـدا في حـرّ العاصفـة الشـديد. كان الطريـق مـن المدينـة إلى فلوريـال طويـلاً، حيـث الخيـول تكافـح لتتسـلق الـدّرب الصاعـد نحـو بوسـونج، والرّيـحُ تمـاوج سـيقان القصـبِ الغـضّ، فهيّـئ إليهـا أنّهـا لـن يصـلا أبـداً. كانـت قمـم تـروا ماميـل أشـبه بأنيـاب سـوداء مغروسـةٍ في كتلـة مـن الغيم، والأفـقُ محـزّزاً بالـبرق، فبـدا وكأن اللّيـل قـد حـلّ قبـل الأوان. كانت آنـّا في صحبتهـا، فقـد مـرض والدُهـا، وظـلّ حبيـس بيتـه في فلوريـال. وكان أبي وآنـّا يجلسـان متعانقَـين، كأنّهـا شـقيقان، وقـد انضـاف خوفـه إلى خوفهـا. وفي الرّسـالة كتبـت لـه: «أتَذْكُـر؟ كنـا نظـنّ أنّنـا بلغنـا الجحيـم».

الآن، لم يبـق شيءٌ مـن هـذا كلّـه. لقـد أصبـح مجـرّد شيءٍ متحجّـرٍ، مثـل عقـدةٍ في الأحشـاء، مثـل جلـدٍ يغطّـي جرحـاً قديـماً. شيءٍ مـا على وجه آنـّا، وجـهِ هنديّـةٍ عجـوز، وفي أخـضر حدقتَيهـا المائـيّ، وفي تلـك السـخريّة المـرّة في كلامهـا حـين أخبرتُهـا بأنّنـي ذاهـبٌ إلى المدينـة: «لم يبـق شيء هنـاك!»

تحبّـذ آنـّا الحديـث عـن معاصريهـا. فـتروي بالتفصيـل عاداتهـم السـيّئة وعيوبَهـم، وجنـونَ عظمتهـم. كان لـدى آل أرشـمبو العديـد مـن الرّذائـل،

لكنْ ليس من بينها شراءُ لقب نبيل! فقد عرض أحدهم على العمّ المُسنّ (بعد أنْ منحه الملك إدوارد السابع لقب سير) أنْ يشتريَ لقب نبيل، وبهذا يضيفُ اسم «دو جاردان»[1] إلى اسم عائلته، فهزِئ العمّ من ذلك قائلاً: ولِمَ لا تكون عائلةَ «الإصطبل»، أو «الحظيرة»!

لدى آنّا طريقتُها الخاصّة في تلخيص أصل غالبيّة النّبلاء الصّغار في موريشيوس. فلمّا جاءوا لتدوين أسمائهم في سجلاّت الشركة في لوريان، كانوا يسألونهم: «اسمك من فضلِك؟» - نيكولا. - مسقط رأسك؟ - كيرباسكان. فيكتب المدوّن في السّجل: نيكولا دو كيرباسكان.

وكانت تسخر من قصورهم وحفلاتهم، وخدمهم الكريوليّين المتنكّرين في زيّ خدمِ لويس الخامس عشر، بقفّازاتهم البيضاء وشعورهم المستعارة، وتهزأ من أمسياتهم الرّاقصة، ومن نزهاتهم وتخييمهم، وجولات صيدهم التي تسمّيها «مجازرهم».

ولديها طرفةٌ مضحكةٌ ترويها عن كلٍّ منهم. فلمّا علِمَت بِنيّتي زيارة متحف المرجان الذي كان من قبلُ بيت الشّاعر روبرت إدوارد هايت، حدّثتني عن لقائها مع الشاعر وهي في العشرين من عمرها. ذات يوم، في القطار المتّجه إلى بور لويس، جلس أمامها رجلٌ بدينٌ نوعاً ما، وقدّم نفسه، وبدأ يتودّد إليها. فأوقفَته آنّا فوراً: «سيّدي، لا داعي لهذا. فلتعلمْ أنّي لن أتزوّجك أبداً».

علاوة على ذلك، فإنّها لا تُقدّر الرّجال العظماء، بل إنّهم يثيرون استياءها، باستثناء الأب دوفال الذي أنقذ العبيد، والمهاتما غاندي الّذي ندمت على عدم لقائه حينَ قدِم إلى موريشيوس في عام 1903

---

(1) jardin: حديقة.

(وإنْ لم يتجاوز عمرها الثانيةَ عشرة آنذاك!)، وكان متخفّياً في زيّ عمّال مصانع السّكّر. لكنّ الإنجليز هم من حرِصوا على سريّة زيارته، كي يحرموا أهالي موريشيوس من رؤيته.

وهذا هو موضوعها الأثير الثاني، الإنجليز. فآنّا تكنّ لهم كراهيةً عميقةً، لا تخضع للعقل، ولا شفاء منها. فلمّا نفد ماء الدّير، اتّضح أنّ الجار الإنجليزيّ هو من فتح صمّامات حمّام السباحة في بيته. ثمّ إنّ ارتفاع سعر السّكّر، والبؤس، والآفاتِ التي جلبتها السياحةُ، والجفاف والأعاصير، وكلَّ المصائب سببها الإنجليز. «إنّهم متعجرفون، يستخفّون بالآخرين، ووقحون. يأتون إلى موريشيوس، ويدّعون أنّهم لا يفهمون الفرنسيّة، فنُجبرُ على التحدّث إليهم بالإنجليزيّة. وما زالوا يظنّون أنّهم سادة الكوْن».

كانت امرأةٌ إنجليزيّةٌ واحدةٌ تستحقّ الاحترام في نظرها، وهي فلورنس نايتنغيل. وقد قرأت آنّا جميع رسائلها. «إنّها الوحيدة التي تجرّأت على الوقوف في وجه فيكتوريا، وفضحت الثّمن الباهظ الذي كبّدته إنجلترا للهند من أجل بناء السّكك الحديديّة، والملايين التي فُرِضت على حكومة الهند، بينما الناس يموتون من الجوع والأوبئة».

ومن طُرَفها الأثيرةِ عن كبار القوم تلك الخاصّةِ بإعلان اليابان نيّتَها غزو موريشيوس خلال الحرب الأخيرة: فحتّى ذلك الحين، كانت الحرب محضَ خرافة. فهي تحدث في أماكن أخرى، حتّى وإن اختُلف حولَها، فأبدى بعضهم استياءه وتظاهر آخرون بالرّغبة في التطوّع لخوضها. ثمّ جاءت الأخبار: اليابانيّون قادمون! أخذ بعضُهم يكدّسُ مؤناً من الأرزّ والدّقيق في البيوت بعد أن سمّروا مصاريع

النوافذ، وانخرط آخرون في تنظيم المقاومة السلميّة. بل إنّ آنّا زعمت أنّ بعضهم أخذ يتدرّب على كلمات الترّحيب اليابانية. وحدهم العامّة من الناس من واصلوا أعمالهم لا مبالين. فهُم على كلّ حالٍ يعيشون في ضيقٍ، بحرب أو من دون حرب.

لم يصل اليابانيون قطّ، لكنّ نهاية الحرب تزامنت مع وباء الإنفلونزا الإسبانية والسّعال الديكيّ الذي قتل أعداداً كبيرة. وكان آنذاك أنْ تُوفيّت يايا العجوز، ودُفِنت في حديقة الدير، غير بعيدٍ عن البيت الذي بناه لها كبير العائلة.

لا أتخلّف أبداً عن موعدي عصرَ كلّ يوم. أنسى كلّ شيءٍ آخر، البحثَ الذي جئت إلى موريشيوس من أجله، والسعي وراء آثار ليون. ولعلّي لم آتِ هنا إلّا من أجل آنّا، دون أن أعيَ ذلك.

كنت أريد العثور على أثر المُختفيَين، ليون، ومَن أُسمّيها سورياڤاتي. أردتُ أن أرى بأمّ عيني ما رأياه، المدينة وعزبة آنّا وماهيبورغ وفيل نوار، وكذلك جزيرتَي بلات وغابريال. الآن أدركُ أنّ هذا كلّه لا يزال حيّاً في أعماق آنّا. لقد نجت من ذلك الزّمن، وظلّ كلّ شيء حاضراً الآنَ في نظرتها وصوتها واعتدال قامتها، ووجهها الحنطيّ المليء بالتجاعيد، والمرفوع عالياً على عنقها النّحيل كرقبة سلحفاة.

بين الحين والحين كانت نساءٌ هنديّاتٌ يُقبِلنَ متهادياتٍ مثل مِلكاتٍ في أثواب السّاري الزّاهية، ويتحدّثن إلى آنّا بالكريوليّة، والبوجبوريّة[1]،

(1) اللّغة البوجبوريّة: لغة إقليميّة محكيّة في أجزاء من شمال الهند الأوسط وشرقها.

ويمكُثْن بعض الوقت، حيث يجلسنَ على كراسيّ الحديقة التي تُحضرها كريستينا مع الشاي. يأتين للدرّدشة، وأحياناً لطلب المساعدة، أو القليل من المال.

كتبَت آنّا رسالةً بخطّ يدها من أجل امرأةٍ في سنّ الخمسين، تواجهها مشكلاتٌ مع الإدارة: «لهذا سيّدي المدير، سأكون ممتنّة جدّاً إذا تكرّمتَ...» إنّها تعرف كيف تَستخدم هذه العبارات الموارِبة دون أنْ تثقل على الآخرين. ثمّ إنّها تحمل اسم أرشمبو، بما له من مكانة: «على أيّ حالٍ، فإنّ هذا الاسم قد ينفع في شيءٍ ما، على الأقلّ».

كان في هذه الزيارات مِسحةٌ من جلال الماضي، فهي تحملُ شيئاً من زمن عزبة آنّا، قبل أنْ يُدمّر كبير العائلة كلّ شيء، وحينَ كان طيف السّعادة الدافئ التي كنّا نظنّها أبديّة ماثلاً بعدُ على هذا الطّرف من الجزيرة. خفَق قلبي بقوّة، كما هو الحال عندما صعدتُ منحدر البركان في بلات ورأيت خليج باليساد يتكشّف أمامي. هذا ما جئت باحثاً عنه في موريشيوس. وها أنا، بفضلِ آنّا، ألمسُ أخيراً ذكرى الكرنتينة، ذكرى اللّحظة التي رحل فيها جاك وسوزان، وظلّ ليون وسوريا على الشاطئ.

كان النّهار إلى زوالٍ، والحديقة مغمورةٌ بنورٍ ذهبيّ. هذا هو وقت آنّا الأثير من اليوم. تسمّيه «نُثارَها الذهبيّ»، «تِبْرَها». في المدينة، في عزبة آنّا، كان لكلّ شيءٍ هذا اللّون، وللجبال ظلالٌ أرجوانيّة. وكان جاك يضع منصبَ الرّسم قبالة الرّومبار[1]، ويرسم بالألوان المائيّة،

(1) Le Rempart، ومعناها المتراس أو السّور، اسم منطقة في جزيرة موريشيوس يجري فيها نهر يحمل الاسم ذاته. (المُراجع)

فيأتي نويل وآنّا ليشاهدا، فيشرح لهما جاك: «إذا لم تكونا واثقَين من اللّون، فاطرفا بأعينكما، وستريان اللّون الذهبيّ، والظلّ الأرجوانيّ».

احتفظتُ بلوحةٍ واحدةٍ فقط، تلك التي كانت جدّتي سوزان تعلّقها في غرفتها، فوق سريرها، وتصوّر جانباً من النّهر قرب بوسونج، حيث خطٌّ قمم تروا ماميل في العمق. وفي الأمام، طيفا طفلَين بلباسَين طويلَين متطابقَين، وقبعتَين مستديرتَين متماثلتَين، كما لو كانا توأمين. أحدهما نويل، أبي، والآخر آنّا. أبي بشعره الأشقر بلون القشّ، وآنّا بكتلةِ شعرها الأسود، مثل هنديّة.

كانت تلك هي السّاعة التي تسبق انتشار البعوض. رفعت آنّا يدها فجأة: «أصْغ!». في البعيد، من فوق سور الدّير وشوارع ماهيبورغ العاجّة بالنّاس، سمعتُ صوت المؤذّن محمولاً مع نسمةِ الغروب، يدعو المؤمنين للصّلاة.

همسَت آنّا: «لن أستطيع العيش أبداً في مكان لا أسمع فيه هذا الصوت». كان وجهها يخلو من أيّ تعبير، لكنّ نظرتها سرحت في البعيد حالمةً، تأثّراً بالعاطفةِ التي كان يبثّها صوت المؤذّن الرقيق. «أسمعه منذ كنت طفلةً في المدينة. كان رجلٌ مسنٌّ يصعد إلى سطح مصنع السّكّر، فيصدح بصوتٍ شديد الصّفاءِ يصلُ إلى كلّ مكانٍ في الحقول، وفي القرية، بل حتّى إلى بيتنا. وكنت أحبّ أذان العشاء خاصّةً. كان فائق العذوبةِ، تسمعه فتشعر أنّك أحسن حالاً، وتعلم أنّ الله يَسمع أيضاً».

لمحتُ في عمق الحديقة، بين أشجار الموز العملاقة، طيف المرأة المجنونة. كانت تراقبنا وهي تمشي دائسةً سيقان النبات. لاحظتُ أنّ آنّا قد ارتعدت. أتُراها تخاف حقّاً، خلافاً لما تقول؟ وحينَ أوشكتُ

على المغادرة، تقدّمت المجنونة غاضبةً، ومرّت من خلف آنـّا، سمعتُ شتائمها التي تتدفق من فمها الرّخو. والعبارةَ نفسها دوماً: «أرشمبو، القذرة».

كيف كان لي أنْ أعيش من دون آنـّا؟ كيف كان لي أنْ أنجوَ؟

ففي ذلك المساء، وخلافاً لوصيّتها، فتحتُ الكرّاس القديم حيث كتبَت قصّة سيتا بخط يدها المائل قليلاً.

الحبر باهتٌ في بعض الأماكن، والورق مصفرّ، وهو من نوع الورق الذي كان يُصنَع من القشّ المتقصّف في مطلع القرن، ويتفتّت تحت الأصابع. ويا لها من معجزةٍ أنّ الكرّاس لا يزال موجوداً!

فمَن هي سيتا؟ لا تكتب آنـّا مثلما تتحدّث. فلا شيء يجرح أو يُدمّرُ في هذه الصفحات. إنّها قصّةٌ بسيطةٌ عن فتاةٍ نشأت في المدينة، كانت الأثيرةَ عندها، صديقتها الوحيدة، وسرَّها.

تبدأ القصة هكذا، بهذه الكلمات التي لا تزال عالقة في ذهني مثل العبارة الأولى من رواية لم تكتبْها: «كان لي صديقةٌ سريّة».

لم تخبر آنـّا أحداً بذلك على الإطلاق: بعد المدرسة ثمّ الدّرس الدينيّ الذي كانت تتلقّاه على يد مدرّسةٍ فرنسيّة من بوردو، في عزبة آنـّا، كانت تعبرُ حقول قصب السّكّر وصولاً إلى مكانِ التقائهما.

ومع أنّ سيتا في مِثلِ عمرها، أيّ في الثالثةَ عشرة، فقد كادت تكون امرأةً، وكانت جميلةً، وقد بهرت آنـّا، فأرادت أنْ تصادقها لجمالها قبل كلّ شيء. في أوقاتِ العصر، تكون سيتا قد انتهت من أعمالها الشّاقة في المزرعة، فيتسنّى لها الجلوس في ظلّ نخلةِ الأريكا الصفراء الضّخمة،

قريباً من مصنع السّكر. هكذا لم تعُد آنّا البنتَ الوحيدة البريّة، سجينةَ ذلك البيت الواسع وقتَ اقتراب العاصفة، وحيث بدأ التهديد بالطّرد بعد تسوية الحسابات.

فالآن، برفقةِ سيتا، في وسعها أنْ تنسى كلّ شيء. كانتا تثرثران لساعات، عن كلّ شيء ولا شيء، كما لو أنّهما تربّيتا معاً، وكأنّما عثرت كلّ منهما على نصفها الآخر.

وكانتا تعيشانِ أيضاً لحظاتٍ من صمتٍ طويل، تستلقيان فيها على العشب بين الأجمات، وتحدّقان في السّماء ذات الزرقةِ الحادّة حيث تنساب الغيوم ناعمةً كالرّيش. وأثناء الشتاء، كانتا تظلّان معاً في الخارج. تمشيان على طول الدروب، بين القصب الذي يتجاوزهما طولاً، حتّى إذا جاء موسم الحصاد، لجأتا إلى أطلال قمين الجير قريباً من البحر، حيث تتمشّيان يداً بيد، وتُريها سيتا كيف ترقص باستخدام حركات الذراعَين، وتحريك العينَين، وضرب الأرض بالقدمينَ الحافيتَين، وتُعلّمها الأغاني الهنديّة القديمة، التي هي نفسُها لا تفهمها. وكانت سيتا تكحّلُ عينَيها الواسعتَين بخطٍّ أسودَ رفيع، وتبيّن لآنّا كيف يُصنَع الصِّباغ من مسحوق خشب الصندل الممزوج بالطين. ذات يوم، رسَمت على جبين صديقتها القطرة السحريّة التي وضعتها الإلهة يامونا على جبين شقيقها ياما كي تعبّر له عن محبتها الأبديّة. وكان لسيتا عينان واسعتان، وحدقتان من مزيج الذّهب والغيم، وكانت آنّا تقول إنّه يمكن للمرء أنْ يسافر فيهما.

ظلّتا تلتقيان في موسم المطر، في يناير من ذلك العام. لكنّه كان أيضاً العام الذي شهد المآسي كلّها. فقد حاك كبير العائلة خيوط

المؤامـرة لطـرد جميـع سـكّان عزبـة آنـّا، بمـن فيهـم ابنـه. بـاع البيتَـين وحقـول القصـب والطّاحونـة. كانـت سـيتا تـأتي إلى موعدهـا عـصر كلّ يـوم محتميـةً مـن سـوء الطّقسِ بمظلّـة سـوداء كبيرةٍ أحضرتهـا لهـا خالتهـا مـن بونديشـيري. كانتـا تسـيران معـاً، متلاصقتَـين تحـت المظلّـة، حافيتَـين في بـرك المـاء، أو تجلسـان تحـت نخلـةِ الأريـكا الصفـراء، أو تحـت أشـجار التورنفوريّـة عـلى الشـاطئ.

وحـينَ رحلـوا عـن البيـت، ارتـأَت آنـّا أن تـرى سـيتا مـرّة أو مرّتـين في الأسـبوع فقـط. فكانـت أحيانـاً تسـتقلُّ العربـة التـي تهبـط إلى المدينـة، أو تـأتي سـيتا بدورهـا إلى فلوريـال. كان ظرفـاً معقّـداً، لكنّـه مثـيرٌ في الوقـت ذاتـه. إذ كانـت الصديقتـان تتجـوّلان في طرقـات المدينـة، وتذهبـان لتنـاول كعكـة الفلفـل الحـارّ في المطعـم الصينـيّ في كاتـر بـورن، وقـد بـات لديهـا الكثـير لتتحدّثـا فيـه!

ذات يـوم، وصلـت سـيتا إلى الموعـد لاهثـةً. كانـت تحمـل أخبـاراً رائعـة: فبعـد أنْ تُـوفّي والدهـا، قـرّرت والدَتهـا الاسـتقرار في كاتـر بـورن. الآن تسـتطيعان أنْ تلتقيـا مـن جديـد كلّ يـوم بعـد المدرسـة. ووقـع اختيارهـا عـلى مـكانٍ في منتصـف الطريـق، عنـد فوينيكـس، قريبـاً مـن خـط السـكّة الحديديّـة، حيـث سـيكون عـلى كلٍّ منهـما أنْ تسـير مـدّة نصـف سـاعةٍ للوصـول إليـه. هنـاك، ثمّـةَ جـذع شـجرة كبـيرةٍ كسرتهـا العاصفـة ملقـىً عـلى المنحـدر، يصلـح لأن يُتّخـذَ مقعـداً. وفي حـال هطـل المطـر، سـتلجآن إلى حديقـة ديْـر بـون تـير.

عـاد الشّـتاء. وغـدت سـيتا الآن شـابةً، تبـدو بقامتهـا الرشـيقة وذراعَيها الطويلتـين النحاسـيّتَين، وصدرهـا، وشـعرِها الغزيـر الملمـوم في عقصـة،

كأميرةٍ هنديّة، فتدير أعناق الرّجال جميعاً. وقد كبُرت آنّا أيضاً، لكنّها ظلّت نحيفةً جدّاً وشاحبةً. قصّت شعرها الأسود الجميل، فبرزت ملامُحها الحادّةُ الذكيّة. ولكي تُخفي نهدَيها، كانت تشدّ صدرها بمشدّاتٍ من الكتّان تحت فستانها الرماديّ. إذ كانت لا تحبّ الطريقة التي ينظر بها الفتيان إلى سيتا، وكانتا تسخران معاً منهم، وتهربان ضاحكتَين عبر الدرب وصولاً إلى الشّجرة الكبيرة المقطوعة.

ذات أحدٍ، لم تأت سيتا إلى الموعد بعد الظّهيرة. كانت تُمطر بغزارة، وانتظرت آنّا طويلاً بجوار الشّجرة تحت المطر البارد والسماء المكفهرّة. ولمّا رأت اللّيل مقبلاً، ركضت إلى فلوريال لاهثةً.

كانت تلك أوّلَ مرّة تقدمُ فيها على فعل كهذا، فعنّفها والدها بشدّة. ولعدّة أيّام، ظلّت محبوسةً في غرفتها، تراقب المطر المتساقط فوق نباتات الحديقة. ثمّ مرضت على إثر البرد الذي أصابها في ذلك اليوم من طول الانتظار تحت المطر.

ولما تعافت، أحسّت بخواءٍ شديد. بدت الأيّام طويلةً من دون سيتا. فبعد درس الدّين، لم يكن لديها ما تفعله. فضلاً عن ذلك، فإنّ الأمور لم تكن على ما يرام في البيت. كان والدها مريضاً ومُنهاراً. وقد استقرّ كبير العائلة مكانهم في عزبة آنّا ومنع الزيارات. قالت يايا العجوز إنّه قطع كلّ النخيل الكرنبيّ، وسمّر المصاريع السفليّة خوفاً من اللّصوص. وبعد القطيعةِ مع ابنه، طرد جميع حلفائه، وحلّ حزب النّظامَ الأخلاقيّ، وأعلن نهاية حلم الحكومة الجماعيّة. وبات جليّاً أنْ لا عودةَ أبداً إلى عزبة آنّا.

ولكن ذات يوم، فيما كان والدها يغطّ في النّوم، رأت آنّا سيتا مرّة

أخـرى. كانـت تقـف في الشـارع أمـام البيت تحـت مظلّتهـا السـوداء الكبيرة. هُرِعَـت آنـّا إلى الخـارج بقلـب يغمـره الفـرح، فتعانقـت الصديقتـان طويلاً. لكـنّ أنـا لاحظـت أن شـيئاً مـا قـد تغـيّر، ظلّـت عينـا سـيتا محتفظتَـين بلمعانهـما، غـيرَ أنَّ ملامحهـا كانـت جامـدة، وبشرتَهـا شـاحبة. وصـار عنقُهـا أكثـر امتـلاءً، وفي منتصـف جبهتهـا، كان الخـطّ الـذي يفـرق شـعرها مصبوغـاً باللّـون الأحمـر الدّاكـن.

وبعـد العنـاقِ، تراجعـت سـيتا خطـوةً إلى الـوراء. حدّقـت في آنـّا للحظة دون أن تقـول شـيئاً، وكأنّهـا تبحـث عـن كلماتهـا. ثـمّ اكتفـت بالقـول: «لـن يعـود في وسـعنا أنْ نلتقـيَ بعـد الآن. فقـد تزوّجـت، وجئـت لأقـول لـك وداعـاً». تسـاقطت الأمطـار الغزيـرة عـلى المظلّـة السـوداء، وكانـت قطراتـه تسـيلُ ثـمّ تتّحِـد وتسـقط ثقيلـةً مـن حـواف المظلّـة. أخـذت آنـّا تتأمّـل قطـرات المطـر دون أنْ تقـوى عـلى الـكلام. وفي الشـارع، كان النـاس يهرولـون، والنسـاء العائـدات مـن الحقـول ملتفّـاتٍ بأرديـة الخيـش، ومعاولُهـنّ مثبّتـةٌ عـلى رؤوسـهنّ. وكانـت السّـماء الخفيضـة تتكـئ عـلى قمـم الأشـجار.

شـعرَت آنـّا بالغثيـان، وبقشـعريرة الحمّـى تـسري في ظهرهـا وكتفَيهـا. وفي لحظـةٍ مـا ظهـر والدهـا عنـد مدخـل الحديقـة، فأخفضـت سـيتا مظلّتهـا، ووضعـت جـزءاً مـن شـالها الأحمـر عـلى فمهـا، ربّـما لحمايـة نفسـها مـن الـبرد، ومشـت سريعـاً إلى نهايـةِ الشـارع، نحـو خـطّ السـكّة الحديديّـة، في طريقهـا إلى **فاكـواس**.

ولـّما دخلـت البيـت، كان والدهـا يحمـلُ منشـفةً عـلى كتفـه، سـألها: مـن هـذه؟ فأجابـت آنـّا: «لا شيء... لا أحـد».

لم تـرَ سـيتا بعـد ذلـك اليـوم قـطّ. ظلّـت الشـجرة زمنـاً طويـلاً في مكانهـا عـلى الطريـق، قـرب خـطّ السـكّة الحديديـة. ثـمّ في أحـد الأيـام، قطّعهـا مرمّـو الطـرق بالمنشـار وأخـذوا القطـع.

غـادرتُ موريشـيوس دون أن أعـرف إنْ كنـت سـأعود إليهـا، وليـسَ في يـدي شيءٌ ممـا أتيـت باحثـاً عنـه. وعـلى الرغـم مـن مـرور الزّمـن - مـا يقـرب مـن مائـة عـام - فـلا شيء ممـا دمّـره كبـير العائلـة يمكـن إصلاحـه. إنّـه هـو مـن انتـصر، ومـازال منتـصراً حتّـى وهـو في ضريحـه الرّخامـيّ الأسـود في مقـبرة حديقـة النبـات.

لم يبـق شيءٌ مـن المـاضي، ولعـلّ هـذا خـيرٌ. إذ كيـف يمكـن العيـشُ مـع ذكـرى الـدّم المسـفوح والمنفـى، وذكـرى رجـالٍ قُدّمـوا قرابـين لمولـوخ[1] قصـب السّـكّر؟ فـما محـاه ألكسـندر أرشـمبو عـن وجـه الأرض بكبريائـه لم يكـن ذا قيمـةٍ في نهايـةِ الأمـر: البيـوتَ الاسـتعماريّة، وزهْـوَ الباحـات ذات الأعمـدة، وشـعارَ الشّـهاب عـلى واجهـة البيـت، والشرفـاتِ الخاملـةَ حيـث كانـت تجـول الحمّـى، وبـركَ الميـاه التـي غزاهـا ياسـنت المـاء، وحيـث يُسـمع كلّ ليلـةٍ نقيـقُ الضّفـادع المتعاقـب. ثـمّ كلّ هـذي الأسـماء والألقـاب، والشّـعارات البرّاقـة والذكريـات المخترعـة، كلّ هـذا التّـبرْ الزّائـف، وكلّ هـذا الـذّرّ للرّمـادِ في العيـونِ، وهـذه الأقنعـة.

وفي المقابـل، فـإنّ أولئـك الذيـن ينبغـي عـدم نسـيانهم أبـداً هـم المهاجـرون الأوائـل مـن إقليـم بروتـاني، الفـارّون مـن المجاعـة والظلـم

(1) إشارة إلى الإله الكنعانيّ مولوخ، الذي كانت تُقدّم له الأضاحي من الأطفال حسب العهد القديم.

بحثاً عن جنّة عدنٍ جديدة، قادمين من مدن سان مالو وفان ولوريان وبيمبون، وبونتيفي ومور دو بروتاني، كلّ أولئك الذين أذلّتهم الشركةُ الأشدّ قسوةً في العالم وتخلّت عنهم في الجزر البعيدة، وكانت تُحصّل أرطالها من اللّحم كلّ عامٍ من أجسادهم.

من ينبغي عدم نسيانهم هم تجّار الرّقيق بأسماء بواخرهم المُرعبة، فينيكس، وأوراكل، وأنتينور، ولوبرنس نوار، كلٌّ منها محمّلةٌ بخمسمئة من الرجال والنساء والأطفال، أُسِروا على سواحل موزمبيق وزنجبار ومدغشقر، وقيّدوا بالسلاسل اثنين اثنين، وزُجّ بهم في قعر السفّن في مساحةٍ لا تتجاوز خمسة أقدامٍ وخمسَ بوصاتٍ في خمس عشرة بوصة، وارتفاع قدمَين وست بوصات. وينبغي ألّا يُنسى اسم القبطان لارالد، من مدينة نانت، الذي جمع ثروته من حصوله على نسبة خمسة في المائة من سعر كلّ عبدٍ يباع في بوربون وإيل دو فرانس. ولا أنْ يُنسى أبداً العمّالُ الهنود، «البيادق» الذين استُدرجوا إلى متن القوارب في كلكتّا ومَدْراس، وفيساخابتنام، الشبّان الذين اختطفهم متعهدو العمّال والعُرَفاء والمتنفّذون من قراهم، وبيعوا لوكلاء شركات السّكر، وكُدّسوا في المعسكرات، دون رعايةٍ ولا صرفٍ صحيّ، وبلا طعامٍ أو باليسير جدّاً منه، وحُمّلوا على متن سفن العبيد الجديدة: ريغات وغوناما وتانجور، في رحلةٍ لا عودة منها. وألّا ننسى ألفونسين وصوفي وإيسترن إمبيرَ وبونغولا، ولا السّفينة ليداريه التي غادرت كلكتّا في يناير عام 1856 محمّلةً بالمهاجرين من ولاية عوَض وبوجبور، الهاربين من المجاعة والحرب والقمع الإنجليزيّ ضدّ متمرّدي السيبوي، ثمّ تخلّت عنهم وتركتهم لشهورٍ على صخور بلات وغابريال الجرداء.

كلّ ذلك وأنصارُ الحكومةِ الجماعيّة، والأعضاءُ البارزون من حزب مُلاّك المزارع في موريشيوس- الذين كانوا يكتبون المقالات في صحيفة ألكسندر أرشمبو تحت عنوانٍ طنّان أجوف: «**نظام، قوّة، تقدّم**»-، يتظاهرون بأنّهم لا يسمعون ولا يرون.

كيف لم يسمعوا نداءات الاستغاثة؟ ولَمْ يروا النيران المُستنجِدةَ، موقَدَةً كلّ ليلةٍ على قمّة البركان أسفل جدار المنارة العبثيّة المتهالك؟ لا بدّ أنّهم كانوا يشتمّون أحياناً، حين تهبّ رياح الشمال، رائحةَ النار والمحارقِ التي تلتهم جثث المهاجرين، رائحةَ الموت القاسية تلك. في ذلك العام عقبَ عواصف فبراير، ساد هدوءٌ رائعٌ، فغدت مرآة البحر مصقولةً، وزرقةُ السّماء حارقةً. أكانت الشمسُ مبهرةً إلى حدٍّ منعهم من إلقاء نظرةٍ صوبَ الجزيرتَين الصغيرتَين قبالة كاب مالورو، ذينك الطّوفين الأسودين حيث عاش المهاجرون مثل ناجين من الغرق؟ أمْ كانوا في بور لويس فاقدي الذّاكرة فلم يرتَفِع صوتٌ واحدٌ من بينهم يطالب بإرسال المساعدة، وإنزالِ مركبٍ شراعيّ في البحر لتحرير سجناء الكرنتينة؟ ولمّا وصل مركب خفر السواحل التّابع للخدمات الصحيّة إلى الجزيرة في يونيو أخيراً، بعد خمسة أشهر من النسيان، لم يكن قد بقي من العمّال الثمانمائة سوى بضع عشراتٍ على قيد الحياة. كانت آثار المحارق الجنائزيّة في كلّ مكان، على الشواطئ في خليج باليساد وخليج باركلي، وعلى شاطئ جزيرة غابريال. وقد عبثَت الطيور البحريّة ببقايا البشر بين الصخور والشجيرات، وتراكمت الجثث بين القبور، إذ لم يتوفّر ما يكفي من وقودٍ لحرقها، أو لأنّه لم يعد في استطاعةِ أحدٍ الاعتناء بموتاه ودفنهم. ومضى النّاجون القلائل يتجوّلون في أنحاء الجزيرتَين هائمين على وجوههم، تبهرهم أشعّةُ الشمس ويدوّخهم هدير البحر.

لم أجد مَن أتيت باحثاً عنه. ربّما صارت حياتُه أسطورتَه، مثل حياة رامبو، الذي أردتُ أنْ يشبِهَه. ثمّة صورةٌ في ألبوم جدّتي سوزان كنت أتأمّلها كثيراً في طفولتي وتجذبني أكثر من غيرها. صورةٌ بألوان السيبيا، محاطةٌ بإطارٍ من الأرابيسك، لصبيّ يافعٍ نحيلٍ وأسمر، له هيئةُ غجريٍّ، بشعرٍ أسود كثيف، وعينَين واسعتَين مُتعبتَين قليلاً، وظِلّ شاربٍ على الشّفة. لم يُكتَب أيّ اسم ولا تاريخ أسفل الصّورة، وطالما أنكَرت سوزان أنّها صورة ليون. كانت تقول إنّها بالأحرى لفردٍ من عائلة وليام، صِهرٍ مجهولٍ. لكنّني لم أشأ الإقرار بتفسيراتها.

لا بدّ أنّ الصورة قد التُقِطت في باريس، في العام الذي غادر فيه جاك إلى لندن لدراسة الطّب. حينها، كان ليون لا يزالُ نزيلاً عند مدام لوبير في روي ماليزون. هكذا تخيّلتُه أثناءَ استعدادِ جاك للرّحيل الكبير إلى موريشيوس، وهكذا تخيّلتُ أنّ رامبو قد رآه في غرفة المشفى الحكوميّ في عدن. دخل جاك الغرفة الضيّقة الخانقة، يغمرها الضوء الأحمر المنعكس من رمال الصّحراء، فيما ظلّ ليون على عتبة الباب متسمّراً، وقد هاله منظرُ ذلك الرجل المُحتضَر. ولطالما تأمّلتُ هذه الصّورة في ألبوم جدّتي. تأمّلتُها إلى حدٍّ كنت أنسى معه أحياناً من أكون، كأنّني قد بدّلت جسدي ووجهي، فصرت ليون، ليون الآخر، ذلك الذي قطع كلّ الأواصر وغيّر كلّ شيء حتّى اسمه، كي يرحل مع المرأة التي أَحبّ. وذات يوم اختفت الصورة من الألبوم دون أن أعرف ما حلّ بها.

هكذا فإنّ كلّ شيءٍ مختلَقٌ ووهميّ، مثل الحياة التي تغيّر مسارها على الدّوام في حلم يتتابع ليلةً بعد ليلة. مات أبي، ومات جدّي جاك وجدّتي سوزان، ولا أحتفظ منهم سوى بكلماتٍ وأسماء غريبةٍ غير

واقعيّـة، صـوتِ أسـطورةٍ بـدأت في جزيـرتَي بـلات وغابريـال، حيـث تشـظّى كلّ شيءٍ إلى الأبـد.

عرفـتُ دومـاً أنّـي كنـت أحمـل هـذا الـشّرخ داخـلي. لقـد وُهِـب لي عنـد الـولادة، مثـل علامـة، مثـل طعـم الانتقـام. وحـين غـادر أبي عزبـة آنّـا، وكان في الثانيـة عـشرة مـن عمـره، اسـتقرّ هـذا الـشّرخ القديـم فيـه، ودام وامتـدّ عامـاً بعـد آخـر حتّـى تسـلّل إليّ. هكـذا أصبحـتُ ليـون الآخـر، الـذي اختفـى، وأدار ظهـرَه للعـالم، عـلى أمـل أن يعـود يومـاً، ويقـفَ مبتهجاً عـلى خرائـب مـن طـردوه. فأنـا مثـل ليـون سـاكنِ النـزّل القـارسِ الـبردِ في روي ماليـزون، أحلـم بالبحـر المُبهـر، وبهديـره عـلى الصّخـور السّـوداء في محيـط عزبـة آنّـا. يومـاً مـا سـأعود، وسـيعود كلّ شيء مـرّة أخـرى، كأنّ الزّمـنَ لم يمـرّ. سـأعود، ولـن يكـون ذلـك مـن أجـل أنْ أمتلـك ثـروة صانعـي السّـكّر ولا الأراضي، وإنّـما مـن أجـل جمـعِ مـا تشـتّتَ، ولمّ شـملٍ مـن تفرّقـا، الشّـقيقين جـاك وليـون، ولكـي يتّحـدَ فيَّ، مـن جديـدٍ، ذانـكَ الجـدّان اللّـذان لا ينفصـلان، البروتـانيّ والهنديّـة، المقيـم في أرضـه والرّحالـة، حليفـاي اللّـذان يعيشـان في دمـي، بـكلّ مـا كانـا يحملانـه مـن حـبٍّ وطاقـة حيـاة.

أجـل، إنّ سـوريا وليـون همـا مـن أفكّـر فيهـما الآن. يشـقّ علـيّ أنْ أتخيّلهـما شـائخَين، مريضَـين ومنهكَـين مـن الفاقـةِ والكـدّ في الحقـول. سـوريا! هـل صـارت سـيدةً عجـوزاً ممشـوقةً مثـل أمّهـا الإنجليزيّـة، محتفظـةً بعـدُ بذلـك البريـق الشّـفيف في عينَيهـا، كأنّـه انعـكاس المـاء؟ أم هـل غـدت «سـاحرةً» مداويـةً، خبـيرةً بمنافـع ورق الشـجر وبالمسـح

على رؤوس الأطفال وطردِ الأرواح الشرّيرة التي تسعى دوماً إلى اختراق قلوب البشر؟ أم أنّها تقصّ حكاياتٍ لا تنتهي على أحفادها، وأسطورةَ لاكشمبياي، ملكة جانسي، أو تغنّي لهم أغنية اللّصّ بلغة الدّوم المعكوسة؟ وهو، هل أصبح نحيفاً ونحيلاً مثل آل أرشمبو؟ هل صار يرتدي مئزراً فقط، مثل حكيمٍ مُسنٍّ من الهند، هل يطيلُ لحيةً ويشذّبها بمقصٍّ مثل جدّي حين كان في الثّمانين؟ لكنْ من الأكيدِ أنّه احتفظ حتّى في شيخوخته، بعينَيه الشّديدتَي السّواد والعذوبة، عينَي أمّه الأوراسيّة، التي كانت آنّا ستقول عنهما: عينَي ظبية.

وأُحبّ أن أتخيّل أنّه كان يشبه ذلك الفتى الذي التقاه جاك في طفولته، شقيَّ حانة سان سوليبس، ذا النظرة الثّملة الطافحة كراهيةً وكحولاً، من كان يجيد كتابة الكلمات الرّشيقة. لذا فمثلُه مثل المسافرِ الأبديّ، مُسَمِّم الكلاب في هرَر، ما كان له أنْ يشيخ. كان لا بدّ أن يبقى أبداً شاباً بهيّاً، مُتّقداً بلهبٍ لا ينطفئ. في التاسع والعشرين من أبريل 1892، اجتاح موريشيوس واحدٌ من أفظع الأعاصير على مرّ الأزمان، حيث سجّل مقياسُ سرعة الرياح، قبل أنْ يتحطّم، سرعةً بلغت ثلاثمائة كيلومترٍ في السّاعة. وقد دُمّرت كلّياً منارة بلات التي كان قد أُعيد بناؤها حديثاً، وتهدّم السّدُّ الذي بناه المهاجرون في خليج باليساد في ساعات قليلةٍ، فلم يبق منه سوى الجَذْع الذي ظلّ قائماً حتّى اليوم.

وسقطَ كثيرٌ من الضّحايا على السّاحل الغربيّ لموريشيوس، دُفنوا تحت الأنقاض، أو سحقتهم جذوع الأشجار المُقتلَعة، وغرق الكثير من

قـوارب الصيـد، أو لُفِظَـت عـلى الشـاطئ، وقـد وصـل بعضهـا إلى مسـافة مائـة مـترٍ في اليابسـةِ بسـبب المـدّ العـالي.

إنّـه الإعصـار الـذي تزامـنَ مـع أفـولِ عزبـة آنّـا، وجنـون كبـير العائلـةِ المدّمـر، وبدايـة احتضـاره البطـيء. ويحلـو لي أحيانـاً تخيُّـلُ أنّ ليـون وسـوريافاتي- (هـذا هـو عـلى كلّ حـالٍ الاسـم الـذي اخترتـه لهـا، تخليـداً لذكـرى أمـيرة كشـمير التـي كتـب سـوماديفا مـن أجلهـا **محيـطَ الحكايـات**، الصيغـةَ الأولى مـن ألـف ليلـة وليلـة) - قـد اختفيـا إلى الأبـد في غضبـةِ السّماء والبحـر تلـك، وأنّهـا أعادتهـما بطريقـةٍ أو بأخـرى إلى عزلـة البحـيرة في جزيـرة غابريـال، حيـث التقيـا للمـرّة الأولى.

ثـمّ إنّنـي أفكّـر في الطّفـل الـذي حملـتْ بـه سـوريافاتي، الجنـين الـذي تكـوّن في رحمهـا في الجزيـرة، وولِـد في العـام نفسـه الـذي ولـد فيـه كلّ مـن آنّـا ونويـل. أفكّـر بـه كأنّـه صـورةٌ منسـيّةٌ مـن بـين صـور العائلـة، طيـفٌ، أخٌ مجهـولٌ أو أخـت. وبسـبب هـذا الطّفـل، لا يمكننـي الإقـرار باختفـاء ليـون وسـوريا في الإعصـار. ويبـدو لي أنّنـي يومـاً مـا، في صدفـةٍ مـن صـدف الحيـاةِ، سـأقابل ذرّيتـه. وسـأعرفهم.

ويخطـرُ لي أيضـاً الطّفـل الـذي رأيتـه مـن نافـذة الحافلـة عنـد مفـترق طـرق روز بيـل في اليـومِ التـالي لوصـولي، بـين ذراعَـي والدتـه وهـي تمـضي مـع والـده تحـت المطـر بحثـاً عـن مـلاذ ليـليّ، أو وظيفـة، أو حـظّ سـعيد.

وفيـما كنـت أنظـر إلى الكـرّاس المُصفـرّ الـذي أعطتنـي إيّـاه آنّـا، في الطائـرة التـي كانـت تحلّـق بي فـوق المحيـط، جـاءني فجـأةً هـذا اليقـين:

سـيتا، الفتـاة الهنديّـة الشّـابة التـي أحبّتهـا آنّـا، وخرجـت يومـاً مـن حياتهـا بـلا رجعـة، هـي ابنـة سـوريا وليـون التـي حمَلـت بهـا سـوريا في

صحراء جزيرة غابريال. لم يكن لقاء سيتا وآنّا من قبيل الصدفة. بل كان مقدّراً منذ ولادتها. ربّما لم تبوحا بذلك، لكنّ سيتا كانت تعرفه، ولهذا كان عليها ألّا ترى آنّا بعد زواجها. فهل عرفت آنّا بالأمر هي الأخرى؟ هل خمّنت ذلك؟ وإلّا فلماذا احتفظت بكرّاس يوميّاتها ذاك طيلة حياتها، بوصفه أثمن ذكرياتها؟ ولماذا أعطتني إيّاه؟ فهي بإعطائي هذا الكرّاس، قد وضعت بين يديّ، بأسلوبها السّاحر العميق، الإجابة عن كلّ ما جئت أسأل عنه في موريشيوس.

لا نعرف كالكي[1] بعد، لكنّه آتٍ لا بدّ.

سيكون أوّلاً بالا كريشنا[2]، الطفلَ الذي ما زال يحبو، ويلهو على الأرض زاحفاً على أربع، وفي يده كرةٌ من الزّبدة الفاسدة.

لا أحد يعرف متى سيأتي، أو مَن سيكون، ولكنْ بات جليّاً أكثر فأكثر أن مجيئَه وشيك، وأنّه سيقيم مملكته قريباً. أحلم أحياناً بهذا الطّفل الأسمر ذي العينَين العذبتَين، يجلس على الأرض، أو ربّما في السّوق في ماهيبورغ، ثمّ ينقلب على ظهره ويمصّ إصبع قدمه الكبيرة، ويتوّهج مثل شمسٍ في ليل الأحلام.

---

(1) كالكي هو التجّسد العاشر والأخير لفيشنو الحافظ، الذي سيأتي لإنهاء عصر الظلام والدّمار، وفقاً للمعتقد الهندوسيّ.

(2) إشارة إلى تفاصيل الصورة التي تجسّد عادةً بالا كريشنا، أيْ الطفل الإله كريشنا، في الهندوسيّة.

هـل كنـت أطـارد وهمـاً؟ هـا أنـا اليـوم، في نهايـة هـذه الرحلـة، بقيـت خـاليَ الوفـاض، كـما كنـت مـن قبـل. فليسـت جزيـرة بـلات سـوى صخـرةٍ مهجـورةٍ برصيفٍ متهالـك، تتناثـر فيهـا قبـورٌ بـلا شـواهد، وحيـث البحيرةُ التـي يجلـب إليهـا الصيـادون سـيّاحاً مـن الفنـادق لقضـاءِ يـوم روبنسـينيٍّ. مـا زالـت الميـاه الصافيـة تتدفّـق مـع كلّ جَـزْرٍ هابـطٍ فـوق الهيـاكل المرجانيّـة الغائـرة في عمـق البحـيرة، وظِـلّ التـازور المشـؤومة الشـبيهة بكلب الحراسـة يظهـر معترضـاً طريـق البشرِ مـن وقـتٍ إلى آخـر. ومـا زالـت طيـور البحـر تحـوم في حلقـاتٍ بطيئـة حـول عمـود الإشـارة لتحـرس أعشاشـها.

أُثقِلـت آخـرُ أيّـام آنّـا بحزنهـا لغيـاب كريسـتينا، «داليتهـا النّحاسـية» الجميلـة التـي كانـت تقطـف مـن أجلهـا أزهـار الخطميّـة؛ «زهـرة مـدام لانغليـه». غـادرت كريسـتينا الدّيـر، وقـد أغوتهـا الحيـاة السّـهلة، ومرايـا الحانـات الصّاخبـة في الفنـادق الكبـيرة حيـث تلتهـم الذّئـاب الشّريـرة لحـم الفتيـات الصغـيرات.

وبعـد أسـابيع قليلـة فقـط مـن افتراقنـا، سـقطَت آنّـا عـلى أرضيّـة غرفتهـا، مثـل العديـد مـن كبـارِ السّـنّ، فأصيبـت بكسـرٍ في عُنـق عظمـة الفخـذ. كانـت المجنونـة هـي مـن عثـرَت عليهـا، وضغطَـت عـلى جـرس الإنـذار. ويبـدو أنّهـا لم تبـكِ يومـاً في حياتهـا مثلـما بكـت في ذلـك اليـوم. فلمّـا حُمِلـت آنّـا، تشـبّثت بالنقّالـة وهـي تـصرخ قائلـةً: «أمّـي».

وكتـب لي الدكتـور موغـرو – وكنـت العنـوانَ الوحيـد الـذي أعطتـه لـه- مُلخّصـاً بدقّـةٍ نهايتهـا:

رفضَت آنّا كلّ علاج. توقّفت عن الأكل، ورغم كلّ محاولاتنا، لم نُفلح في ثنَيها عن قرارها. وبعد ثلاثة أسابيع، ماتت بهدوءٍ في عتمةِ اللّيل، عن تسعةٍ وثمانين عاماً.

مرسيليا نهاية أغسطس 1980

إنّـه هـو مـن لا أزال أفكّـر بـه. أتذكّـر ذلـك: كنـت في العـاشرة أو الحادية عـشرة مـن عمـري، أخبرتنـي جـدّتي بـما حـدث في ذلـك المسـاء، في حانـة سـان سـولبيس، وقـرأَت لي مقاطـع مـن المركـب السّـكران، فسـألتها: «هـل رامبـو هـذا، في مقـامِ عـمٍّ لي؟». كنـت أعتقـد أنّهـم أخفـوا أمـره وطـردوه، لا لـشيءٍ إلّا لأنّـه كان شَـقيّاً، ولأنّـه رحـل وتـركَ الجميـع وراءه، مثـل ليـون.

مـن أجـل هـذا أردت أن أذهـب إلى آخـرِ مـكانٍ عـاش فيـه، مثـلَ مـن يـزور قبـو العائلـة، كـي أرى مـا رآه، وأشـعرَ بـما شـعر بـه. كان الصّيـف في ذروتـه في مرسـيليا. ولمّـا نزلـت مـن القطـار، لفـح الهـواء وجهـي، وكان الجـوّ مغمـوراً بـما يشـبه رائحـةَ حريـق.

لم أرغـب في ركـوب سـيّارة أجـرة. حاولـتُ مسـتعيناً بالخريطـة أن أتتبّـع الطريـق الـذي سـلكه في عربـة الخيـلِ مـن محطّـة سـان شـارل إلى مشـفى لا كونسيبسـيون. ثمّـة الآن طـرقٌ واسـعةٌ وأنفـاق، ولا شيءَ مـن هـذه المعـالم كان موجـوداً آنـذاك.

سـلكتُ شـارع سـان بيـير الطويـل الـذي يمـرّ عـبر مـا تركـه الألمـان قائـماً في مرسـيليا القديمـة: مبـانٍ متداعيـةٌ مـن ثلاثـة طوابـق بنوافـذَ

مُسـيّجةٍ وبوابـاتٍ عريضـة، وحانـاتٌ معتمـةٌ ينبعـث منهـا أريـج اليانسـون والموسـيقى الشرقيـة. بـدا لي وأنـا أمـرّ بمحـاذاة البيـوت أنّني أسـمع ضربَ حوافـر الحصـان وهـو يجـرّ العربـة ذات السـتائر المنسـدلة نحـو المشـفى. ربّـما كان فاقـداً للوعـي. إنّـه يعـرف هـذا الطريـق جيّـداً، وهـذه ثالـث مـرّة يسـلكه فيهـا. كانـت المـرّةَ الأولى عندمـا نـزل مـن السّـفينة **الأمـازون**، يـوم الجمعـة 20 مايـو، ثـمّ عـاد إليهـا بعـد شـهرَين بالضبـط، كـي يسـتقلّ قطـار الشّـمال. والآن... هـا أنـذا أمـشي عـلى طـول الشـارع الضّيـق، كـما لـو كنـت أقـترب مـن هـدفي، كـما لـو أنّ كلَّ شيءٍ عـلى وشـك أن يتّضـح، كـما لـو كنـت سـأعثر عـلى **المفقـود**، عـلى أثـرٍ لـه أو علامـةٍ؛ زهـرةٍ ترتعـش في هـواء باحـةٍ مـا، أو شـجرةٍ استَظلَّ بهـا، أو اسـمٍ محفـورٍ عـلى حجـر. فـكلّ البيـوت والنّوافـذ والأبـواب تشـهد عليـه.

وفي نهايـة الشـارع، بجـوار سـجن الأشـغال الشـاقّة الـذي تحـوّل إلى مقـرٍّ للأرشـيف أو متحـف، تنتصـب جـدران المشـفى الخرسـانيّةُ البيضـاء الكبيرة، بـين الحطـام والغبـار. لم يبـقَ شيءٌ مـن المشـفى القديـم. جُلْـتُ بلا هـدفٍ بين الممـرّات، وفي مـا تبقّـى مـن الحديقـة بـين موقفَـي السّـيارات. قـرأتُ النقش: «**هنا...أنهـى الشـاعر مغامرتـه عـلى الأرض**»- مـدرج آرتـور رامبـو. في قاعـةِ الخطـوات التّائهـةِ تلـك، كان عـربيٌّ يسـتمع إلى مذياعـه الصغير، مرتديـاً بذلةَ ركـضٍ وقدمـاه عاريتـان في حـذاءٍ ريـاضيٍّ أبيـض. وجهـه هزيـل منهـكٌ مـن المعانـاة، ولـه، هـو أيضـاً، شـاربٌ صغـيرٌ، وشـعره قصـيرٌ جـدّاً مثـل محكـومٍ بالأشـغال الشـاقّة. كان يسـتمع إلى موسـيقاه بنظـرةٍ وديعـة حالمةٍ، كـما لو كانَ بعيـداً جـدّاً، في جبـال الأوراس ربّـما. «الله كريـم!»[1].

(1) يُروى، وفقاً لبعض المصادر، أنَّ الشّاعر آرتور رامبو كان يردّد وهو على سرير الموت هذه العبارة باللّغة العربية.

والآخر، ماذا عنه؟ هل صعد هو أيضاً متوكّئاً على عكّازه حتّى بلغ أشجار الدّلب الكبيرة عند المدخل، كي ينعمَ بظلّها المنعش؟ هل مشى إلى آخر الحديقة مُستنداً إلى ذراع إيزابيل - عاضّاً على شفته حتّى لا يصرخ -، كي يتأمّل من بعيد، ما بين سطوح المدينةِ والتّلال، البحرَ الملتحمَ بصفحة السّماء البيضاء؟

لقد كان في الصّيف نفسه، قبل تسعةٍ وثمانين عاماً، أنْ امّحى ليون وسورياڤاتي من ذاكرة آل أرشمبو، كما لو أنّهما دخلا عالماً آخر، من الطرف الآخر للحياة، يفصلُهما عنّي ستارٌ بالغ الرقّة يجعلهما غير مرئيَّين. وها هما الآن قد باتا أقرب إليّ من أيّ وقتٍ مضى.

كنت جائعاً. وكنت أشعر بأنّني حُرّ. تنفّستُ الهواء الحارّ، ونعِمْتُ بفيء أشجار الدّلب العظيمة التي عمرها مائة عام. ولمّا غادرت المشفى، اشتريت رغيف خبزٍ من متجر بانيول، وهبطتُ ثانيةً الشّارع الطويل المُفضي إلى محطّة القطار.



الكرنتينة

وما أهميّة الصّوَر؟ فذاكرتي ليســت هنا أو هناك بين هذه الأنقاض. إنّها في كلّ مكان، في الصخور، وفي منحنى البركان الأســود، وأريج الحشف اللاّذع، وحفيف الريح، وفي بياض الزّبد على بلاطات البازلت. أردتُ أن أرى جزيرتَي بلات وغابريال مُدركاً أنّني لن أجد ضالّتي. ومع ذلك، فإنّني أشــعر الآن، بــين تلك الجدران المعتمة التي بلاها الزّمن، أن عقدةً ما بداخلي قد انفكّت، كما لو أنّني تحرّرتُ وتنفّست الصّعداء. فطالما اعتقدتُ أنّني بلا بلدٍ ولا وطنٍ، بسبب كبير العائلة، وأنّنا كنّا منفيّين إلى الأبد. لكنْ، في حين كان الزّورق يعبر القناةَ ويمضي بعيداً نحو موريشيوس، ويشتدّ صرير محرّكِه كلّما علا الموج، أدركتُ أخيراً أنّني إلى هنا أنتمي، إلى هذه الصخور السّــوداء المنبجســة من قلب المحيط، وهذه الكرنتينة، كما لو أنّها مسقطُ رأسي. لم أترك شيئاً في المكان، ولم أحمل منه شيئاً. ومع ذلك، أشعرُ الآن أنّني إنسانٌ آخر.

من الرّواية

السعر 50 درهماً









